

الموسوعة الشامية في تاريخ الجزء الفلسطيني

الروايات الأوروبية الاغريقية واللاتينية «الحملة
الاولى»

- ١ - الالكسياد - للاميرة اناكومينا
- ٢ - يوميات صاحب اعمال الفرنجة - مؤلف مجهول
- ٣ - تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس - لريمون
دي جيل
- ٤ - تاريخ الحملة الى القدس - لفولتشراف تشارترز

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء السادس

الروايات الاوربية الاغريقية واللاتينة (الحملة الاولى)

- ١ - الالكسياد - للاميرة اناكومينا
- ٢ - يوميات صاحب اعمال الفرنجة - لمؤلف مجهول
- ٣ - تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس -
لريمون دي جيل
- ٤ - تاريخ الحملة الى القدس - لفولتشر اوف
تشارترز

دمشق ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

من حسن حظ المهتمين بتاريخ الحروب الصليبية ان لديهم اربعة نصوص وثائقية حول بداية هذه الحروب وما عرف باسم الحملة الاولى ، وثلاثة من هذه النصوص كتب باللاتينية من قبل افراد شاركوا بالحملة وكانوا ضمن العاملين بها ، لكن كل واحد منهم ارتبط بواحد من قادة الفرنجة وبذلك عبر عن موقفه ، فضلا عن ان كتابات كل واحد من هؤلاء تأثرت بثقافته واختصاصه وخلفياته ، وهي على العموم ليس كتابات تاريخية رفيعة المستوى لكنها مع ذلك هامة لانها وثائقية .

واما النص الرابع فقد كتب بالاغريقية من قبل الاميرة (حنة) انا كومينا ، ابنة الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، وكان على عرش القسطنطينية اثناء الحملة وشغل في احداثها دورا كبيرا ، وولدت انا لابيها في كانون اول سنة ١٠٨٣ م في « الغرفة الارجوانية » في القصر الامبراطوري ، ولقيت منه عناية كبيرة حتى غدت ثقافتها ممثلة لمعارف عصرها ، وللنزعات التي كانت تسود الفكر البيزنطي في القرن الحادي عشر وبدايات الثاني عشر .

كتبت الاميرة انا كتابا حمل اسم « الالكسياد » وهذا الاسم مقتبس من اسم والدها اوقفته للتأريخ لحياة ابيها

ولما شهدته عهده من وقائع جليلة ، ورسمت انا في كتابها صورة رائعة لحياة ابيها منذ ولادته وشرحتها شرحا وافيا يفيد الباحث التاريخي من كافة الجوانب ، لكن يلاحظ ان الاميرة انا كوميثا قد كتبت تاريخها بلغة صعبة جدا ، واسلوب جاء في غاية التعقيد ، وذلك نتيجة مباشرة للثقافة الكلاسيكية التي تلقتهما في القصر الامبراطوري في القسطنطينية ، وهي لاشك ثقافة كان فيها شعر وتاريخ وفلسفة اغريقية ، ولطبيعة اسلوب الاميرة انا كوميثا وجدت صعوبات جمة في عملية النقل الى العربية ، وفي الحقيقة واجهت الصعوبات لدى ترجمة كل نص من نصوص موسوعتنا ، فلكل كاتب بالاصل اسلوبه وعقليته وطرائق عرضه لآخباره ، ولهذا من المحال الاتيان باسلوب واحد ، او بالحري فرض اسلوب محدد لنصوصنا كلها ، ويسوغ هذا طبيعة العمل وعنوانه الموسوعي .

ويعد كتاب الالكسياد مصدرا متفردا بالنسبة للتاريخ البيزنطي ، وخاصة بما يخص الفترة التي يغطيها ، زد على هذا كما سلف بي القول انه مصدر اساسي لتاريخ الحروب الصليبية يرقى الى الدرجة الوثائقية ، فمن هذا الكتاب نستقي معلومات عن محاولة بيزنطة اعادة امجادها ، وعن اجتماع المسيحية الشرقية والغربية على تنفيذ هدف واحد ، وهو الحملة الصليبية والقضاء على الاسلام والمسلمين بكل وسيلة ممكنة ، ويلاحظ القارئ ان الاميرة انا كوميثا استولت عليها عواطفها وميولها ولهذا بالغت في وصفها لبعض الاحداث وتعمدت طمس بعض الاخطاء ، وهي كسيدة عالية الثقافة شديدة الملاحظة بارعة في الوصف ، عميقة الاحاسيس ، وهذه المزايا مع المعلومات التي استطاعت

الوقوف عليها بحكم مركزها الرفيع والتي ضمتها كتابها ،
قد جعلت هذا الكتاب فريداً من نوعه ، متميزاً في بابه ،
ونموذجاً رفيعاً للكتابات التاريخية البيزنطية .

وانا لم اترجم كتاب الالكسياد بمجمله بل ترجمت منه فقط
ماتعلق باحداث الحروب الصليبية ، وسيجد القارئ متعة
وفائدة عظيمة في مقارنة مواد الاميرة انا كومينا عن وقائع
الحملة الاولى بمواد المصادر اللاتينية الثلاثة التي اشرت
اليها اعلاه ، واول هذه المصادر واهمها مجهول المؤلف ،
اختلف المؤرخون حول تحديد شخصيته ، وكان برفقه الامير
النورمندي بوهيموند ، وقد كتب يوميات « عن اعمال
الفرنجة » ويرجح انه كان انساناً عادياً ، مشى في ركاب
الامير بوهيموند واعجب به لهذا نراه يطريه في كل موضع
ومناسبة ، ويهتم بأخباره اكثر من اخبار غيره من قادة
الفرنجة ، وقد روى أخباره بكل بساطة ودونما تصنع وذلك
تناسب مع ثقافته ووضعه كجندي عادي .

ونعرف ان بوهيموند استحوذ على انطاكية بعد الاستيلاء
عليها وجعل منها مقراً لامارة خاصة به ، وانه بسبب ذلك
خاض صراعات مع عدد من امراء الحملة الاخرين خاصة مع
ريموند صنجيل .

ولهذا عندما زحفت الحملة نحو القدس بعدما مغادرتها
لمعرة النعمان ، ذهب صاحب اليوميات مع الامير تانكرد
الى القدس ودون اخباره حتى سنة ١٠٩٩ ، ولاندري سبب
توقفه مع هذا التاريخ ولامصيره الشخصي ، وانتشر كتابه في
القدس سنة ١١٠٠ م ، وقد حمله بوهيموند معه الى اوربا

وسعى الى نشره والترويج له ، ربما لاعتقاده انه يتضمن
الاطراء له .

ولئن اوقف صاحب اليوميات جل مواده على بوهيموند
وتانكرد ، فانه كان يرفقه ريموند صنجيل من كتب اخباره ،
وهو الكاهن الخاص به واسمه ريمون دي جيل (اورييموند
اوف اغويلرز) وماكتبه رجل الدين هذا يختلف بالاسلوب
والرؤى والاهتمامات عما كتبه صاحب اليوميات ، وهو لهذا
يكمل كل منهما الآخر ، ولاشك ان القارئ الكريم سيقدر
كتاب ريمون كثيرا بعد قراءته لما جاء في الكتاب الرابع من
موسوعتنا حول الاوضاع الدينية الاوربية اثناء الحملة
الاولى وبعدها

وكان ريمون دي جيل قد بدأ مشروع كتابه بالتعاون مع
فارس مغمور اسمه بونز بالازون و كان من فرسان
صنجيل ، و قد لاقى في حتفه اثناء حصار عرقه لذلك تولى
ريمون اكمال المشروع لوحده ، ولم يكن ريمون عالي
الثقافة ، لكنه كان رجل دين متعصب جدا يؤمن بالغيبيات ،
وهو بالوقت نفسه بارع في اداء الطقوس الكنسية ، ومتشرب
بعقيدة النصر النهائي للنصرانية ، ولايعرف التسامح ولهذا
سوغ ابشع الاعمال التي اقترفها الفرنجة مثل الابادة
الجماعية للمسلمين واكل لحوم الموتى منهم .

ولم أثقل متن كتاب دي جيل بالحواشي تجنبنا للتكرار ،
وحافظت قدر الامكان على اسلوبه على غرابته لابل على
ركاكته ، فهمي منحصر هنا بالمعلومات وليس بالسمو الادبي .

ومر بنا من قبل انه بالاضافة الى بوهيموند وصنجيل كان

غودفري واخوه بلدوين بين ابرز قادة الحملة الاولى ، ولقد رأينا بلدوين يمضي مع قوة خاصة به شرقا قبل حصار انطاكية ، إلى الرها حيث اسس دويلة صليبية فيها ، وبعدما احتل الفرنجة القدس اختاروا غودفري ليتولى الحكم فيها ، واثّر وفاة غودفري جاء اخوه بلدوين من الرها وتسلم الحكم في القدس ، وقد عبه المؤرخون اول ملوك المملكة اللاتينية في القدس ، لأنه ارسى قواعد هذه المملكة ، بل لأن لقب غودفري كان « حامي القبر المقدس ».

ولم يكن بلدوين اقل حظا من بوهيموند وصنجيل حيث اهتم به فولتشر اوف تشارارز ، وهو فرنسي ولد في تشارترز سنة ١٠٥٨ او ١٠٥٩ م ، وشارك في الحملة الاولى وادرك الاهمية الخاصة لهذه الحملة فاهتم بامر تدوين اخبارها مما شاهده اوسمع به ، وحين توجه بلدوين الى الرها عام ١٠٩٨ م رافق اليها وبقي معه عامين اي الى ان جاء القدس وتسلم عرشها ، وكان فولتشر كاهن بلدوين الخا ، ولهذا رافقه في حروبه واسفاره ، ولعله عمل ايضا كمستشار له.

وجاء تاريخ فولتشر زاخرا بالمعلومات ، لأن وضع صاحبه مكنه من الاطلاع عن كثب على بخائل الامور وكثير من التفاصيل مما لم يره غيره ولم يسجله ، ووقع هذا التاريخ في ثلاثة اقسام ، او كتب ، بدأ اولها بأخبار البابا اوربان الثاني ومجمع كلير مونت وانتهى بموت غودفري في القدس ، وغطى الثاني اخبار حكم بلدوين الاول حتى وفاته في العريش ، اما الثالث فتضمن اخبار بلدوين الثاني حتى

- ٢٤٢٩ -

سنة ١١٢٧ م حيث من المرجح وفاة المؤلف في هذه السنة ،
او عجزه عن متابعة الكتابة.

مما تقدم تتضح اهمية النصوص الاربعة التي نقدم لها
الآن ، هذه النصوص التي لم يسبق لكتاب عربي جمعها ،
لكن لابد من التذكير انها لا تحتوي على جميع المواد
الاخبارية عن الحملة الاولى في التراث الاوربي ، ففي تاريخ
وليم الصوري - الذي كنت قد ترجمته ونشرته في بيروت -
المزيد من التفاصيل المفيدة ، فضلا عن انه لدى العرب
والسريان الكثير مما يقال ويروي ويصور الأحداث ، وهذا
ما سنلحظه في ثنايا كتابنا بمجمله.

وايضا لم اذقل فولتشر بالدواشي تجنبا للتكرار ، واملني
كبير في ان اكون قد وفقت في عملي والله المعين والمرشد الى
الساد ، له الحمد والشكر والصلاة والسلام على سيدنا
محمد وعلى اله واصحابه اجمعين.

دمشق ١٠ شوال ١٤١٣

سهيل زكار

٢ نيسان ١٩٩٣

من كتاب الأكسياد للأميرة أنا كومينا

الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٤ - ١٠٩٩ م)

وسمع (الامبراطور الكسيوس) قبل ان يتمكن من نيل قسط كاف من الراحة ، اقاويل تتحدث عن قرب وصول عدد كبير من جيوش الفرنجة لاعد لها ولاحصر ، وقد خشى من وصولهم ، على اساس معرفته بطباعهم واخلاقهم التي لايمكن ضبطها ، وبولعهم في القوضى وحبهم لعدم الاستقرار ، هذا اذا ما اغفلنا الحديث عن بقية طباع الفرنجة وصفاتهم السيئة ، وماكان ينجم عن ذلك من مشاكل ، فجشعهم - مثلا - للمال ، غالباً ماقادهم الى نقص اتفاقاتهم دون اي مسوغ مهما كانت درجته ، وكان الامبراطور قد سمع هذا عنهم بشكل متواتر ، وقد تأكد جميعه لديه فيما بعد ، ومع هذا حافظ الامبراطور على رباطة جأشه ، وا قدم على اتخاذ كافة الاجراءات ، واستعد لخوض الحرب اذا مادتلك الضرورة لذلك ، وكان ماحدث بالفعل ، اكبر بكثير مما اوحت به مضامين الاشاعات والاقاويل ، انه لامر رهيب حقاً ، فالغرب كله مع جميع شعوب البرابرة التي عاشت فيما بين شواطئ البحر الادرياتيكي ومضيق جبل طارق انطلقت مهاجرة في كتلة واحدة نحو اسيا ، وقد زحفت عبر أوروبا ، بلدا بلدا ، تحمل معها جميع ماكانت تمتلكه وتقنيته ، ويمكن التعرف الى سبب هذا الجيشان العام في اخبار الأحداث التالية :

فقد قام بين الفرنجة رجل يدعى بطرس ، ويشتهر باسم كوكو بطرس (١) ، وكان قد سافر للتعبد في جوار القبر المقدس ، وبعدما عانى كثيرا من سوء المعاملة على ايدي التركمان والمشاركة الذين كانوا يجوبون البلاد ناهبين لها ولجميع اراضي اسية ، عاد الى موطنه بعد صعوبات جمة ، ولم يسلم بالهزيمة ، لذلك استهدف القيام برحلة ثانية على الطريق نفسه ، لكنه لاحظ انه من الحماقة

- ٢٤٣١ -

بمكان ان يسافر وحيدا - ذلك ان نوازل كبيرة كان يمكن ان تحل به
- لجأ الى ابداع خطة بارعة.

فقد قرر ان يبشر في جميع البلدان اللاتينية ، ويعلن بان هاتفا
سماويا جاءه يأمره ان يعلن الى جميع امراء فرنسا ، ان عليهم
مغادرة اوطانهم ، والسفر للتعبد في كنيسة القيامة ، وان يبذلوا
نفوسهم وجميع طاقاتهم في سبيل تحرير القدس من ابناء
هاجر ، وانه لمن المدهش ان نرى درجات النجاح التي لاقاها ، حتى
لكان قلوب الجميع قد دخلت اليها القناعة عن طريق وحشي
رباني ، وعلى هذا تجمع الفرنجة جميعا من جميع
الاطراف ، واحدا تلو الآخر ، ومعهم اسلحتهم وخيولهم ، وبقية
معدات الحرب ، وتقاطرت الحشود على الطرقات ، واندفعت بكل
حماس واصرار ، وانضم اليها عدد كبير من اهالي المدن ، حتى
فاقت أعدادهم رمال شواطئ البحار ، ونجوم السماء ، ورفعوا
جميعا سعف النخيل وحملوا الصلبان على عواتقهم .

وكان هناك ايضا عدد كبير من النسوة والأطفال تركوا هم ايضا
ديارهم ، وتدفق الجميع من كافة الجهات تدفق السيول والروافد
على النهر العظيم الذي اتجه نحونا بكامل زخمه وقواه عبر بلاد
داشيا ، وكان قد حدث قبيل وصول هذه الحشود ان تعرضت
الأراضي التي مروا بها الى اجتياح الجراد لها ، وعف هذا الجراد
عن القمح وأتلف الكروم ، وقد أول المفسرون في ايماننا هذه الظاهرة
على انها تشير الى ان جيوش الفرنجة ستتمنع عن التدخل في
شؤون المسيحيين ، لكنها ستحل سفك الدماء ، وإنزال الأذى بكل
شدة بأبناء اسماعيل البربريين ، الذين هم عبيد لمعاقرة
الخمور ، ولعبادة الشيطان ، وهم منغمسون في جميع انواع
الرذائل الجسدية ، وهم وان ختنوا في اجسادهم ، لم يكتنوا أبدا
لا في طباعهم ولا في أخلاقهم ، واذا ما أدت معرفة الحقيقة فاعلم ان
أبناء اسماعيل هم عبيد - لابل عبيد ثلاث مرات - لجميع شرور
أفرودايت واثامها ، حيث أنهم يعبدون معها عشتار

وعشثروت ، ويقدسون في بلادهم تمثال القمر ، ووشن نجم شوبار الذهبى (٣) ، الذي يحظى بمكانة سامية جدا .

ولما كان القمح يتمتع بمكانة عالية ، ويحظى بأهمية خاصة ، ونظرا لكونه في الوقت نفسه أكثر الأطعمة تغذية وفوائد ، فقد اعتبر رمزا يدل على المسيحية ، وفي ضوء هذا ، فسر العلماء الانتقاء الاشارة الى الخمر والقمح .

هذا مايتعلق بهذه النبوءات ، اما مايتعلق بقضية البرابرة ، فقد تابعوا زحفهم حسبما بينت ، لكن كان هناك شيء غريب في هذا الموضوع ، يمكن للعقلاء من الناس ادراكه ، وهو ان الدشود لم تصل جميعا في الموعد نفسه ، كما أنها لم تتخذ جميعا الطريق نفسه ، اذ كيف يمكن لها أن تعبر البحر الأديراتيكي دفعة واحدة ، ذلك ان كل فئة منها وجماعة انطلقت من بلد دون الآخر في اعداد هائلة ؟! ولهذا قامت هذه الدشود برحلتها على شكل مجموعات متفرقة ، مجموعة في البداية تليها مجموعة ثانية ، وهكذا بقية المجموعات ، حتى تمكن الجميع من الوصول ، ثم شرعوا في زحفهم عبر ايبروس (٣) .

وكما سلف بي القول ، فان كل واحد من الجيوش سبقه قطع من الجراد ، الى حد ان كل من شاهد هذه الظاهرة في عدة اماكن ، صار يلاحظ ان قطعان الجراد ، ماهي في زحفها الا علامة على مسير الفرنجة على اثارها ، ولدى عبور الفرنجة لمضايق لومبارديا في مجموعات صغيرة ، استدعى الامبراطور عددا من قادة القوات البيزنطية ، وبعث بهم على رأس عساكرهم الى المنطقة الكائنة حول دير اخيوم وافلونا ، وزودهم بتعليمات تقضي باستقبال الرحالة الفرنجة بكل لطف ، وأن يجلبوا اليهم - من جميع المناطق - كميات كبيرة من المؤن ، وذلك طوال سفرهم ، وأن يعمدوا الى مراقبتهم بشكل دقيق ومسائرتهم حيثما توجهوا ، حتى اذا ماراؤهم يحاولون الافلات للنهب في المناطق المجاورة منعوهم من

- ٢٤٣٣ -

تنفيذ أغراضهم عن طريق المناوشات الخفيفة ، وجرى ارفاق هؤلاء القادة بعدد من المترجمين الذين يفقهون اللغة اللاتينية ، وكان واجبهم الحيلولة دون حدوث مصادمات او مشاكل بين الفرنجة وسكان المناطق المحليين . هذا وبودي ان أقدم هنا رواية أكثر تفصيلا حول هذه المسألة :

وانتشرت اخبار أعمال بطرس التبشيرية ، وعمت كل مكان ، وكان غودفري (٤) على رأس الذين باعوا اراضيهم ، واخذ الطريق نحو القدس ، وكان رجلا غنيا جدا ، وفخورا بأصالته وعراقة نسبه ، وبشجاعة وامجاد أسرته - ذلك ان كل فرنجي تتملكه الرغبة الدائمة في التفوق على أتباعه - وكانت الفوضى التي ثارت ، وتبعت زحف الرجال والنساء لامثيل لها ولا نظير في ذاكرة الأحياء من الناس ، ويلاحظ هنا ان الفقراء والمساكين من الدشود كانوا صادقي النية ، دافعهم الرغبة في التعبد عند ضريح ربنا ، ولزيارة الأماكن المقدسة ، لكن نوي الصلصات الشريرة - خاصة بوهيموند وامثاله - كانت لهم غايات أخرى ومقاصد مغايرة ، ذلك أنهم أملوا أنهم سيتمكنون ، أثناء رحلتهم ، من الاستيلاء على العاصمة نفسها ، وكانوا يرون ان الاستيلاء عليها سيكون نتيجة طبيعية لحملتهم ، وكان بوهيموند قد أفسد نوايا العديد من الأمراء ، ذلك انه كان ما يزال يحمل ضغائنه وأحقاده القديمة ضد الامبراطور .

وكان بطرس الناسك اول من عبر مضائق لومبارديا ، وذلك بعدما أتم التبشير بحملته ، وجاء عبوره مع ثمانين الفا من الرجال ، ومائة ألف من الفرسان ، ووصل الى العاصمة عبر هنغاريا (٥) ، ومعروف ان الفرنجة هم في جميع الأحوال قوم شديدو الاندفاع وعاطفيون ، ولديهم قدرة كبيرة على التحمل ، لكن سرعان ما يمكن افسادهم واثارتهم واذا ما أثيروا يغدون وقتها ممن لا يمكن مقاومته .

وعرف الامبراطور ما عاناه بطرس من التركمان ممن

قبل ، ونصحهم ان ينتظر وصول بقية الأمراء ، لكنه لم يتقبل النصيح ، واغتر بأعداد أتباعه ، وعبر بحر مرمرة ، وأقام معسكره على مقربة من مكان صغير اسمه هيلينوبولس ، وقد انضم إليه فيما بعد بعض النورمانديين ، وكان تعدادهم عشرة آلاف ، لكنهم مالبثوا أن تميزوا عن بقية الجيش ، وانفصلوا عنه ، وشرعوا بنهب المنطقة المحيطة بنيقية ، وأنزلوا بالأهالي جميعاً صنوفاً من الفظائع مرعبة ، فقد قاموا بتقطيع بعض الأطفال إلى قطع ، ووضعوا بعضهم الآخر على قضبان خشبية ، وقاموا بشيخيم فوق النار ، وجرى اخضاع الشيوخ لجميع أنواع العذاب .

ولدى الوقوف على أخبار ما كان يحدث ، فتحوا في الحال أبواب المدينة ، وحملوا عليهم ، وثار أثر ذلك قتال ملحمة ، قاتل فيه النورمان بحماس واندفاع شديدين ، مما حمل أهالي نيقية على التراجع إلى داخل حصنهم ، وهكذا عاد النورمان إلى هيلينوبولس يحملون جميع الغنائم ، وهناك ثار جدال بينهم وبين البقية – الذين لم يشاركوا في الاغارة – وتطور هذا الجدال المعتاد في مثل هذه الأحوال ، والذي سببه حسد البقية وغيرتهم من الذين قاموا بالاغارة ، تطور إلى شجار صاخب ، وقام أثر ذلك الأبالسة النورمان بالانفصال ثانية للاغارة على أكرزغوردوس التي استولوا عليها ، وكانت ردة فعل السلطان تجاه ما حدث أن بعث بواحد من نوابه على رأس قوة كبيرة ليتولى حسم شأنهم ووضع حد لأذاهم ، ووصل هذا القائد إلى أكرزغوردوس واستولى عليها ، وكان مصير النورمان أن جعل بعضهم طعاماً للسيف ، وأخذ بعضهم الآخر أسرى ، ثم قام بوضع خطة مناسبة لتوجيه ضربة قاصمة لظهور البقية الذين كانوا مائزاً برفقة بطرس ، ونصب عدداً من الكمان في أماكن مناسبة ، على أمل أن العدو سيمر بها وهو في طريقه إلى نيقية ، وأنه سيقع في الشراك المنصوبة له دونما أدراك ، وحينذاك سيتم تدميره وإفناء رجاله ، وحيث أنه كان على بينة من حب الفرنجة للمال ، اختار اثنين من رجاله من ذوي المهارة والبراعة ، وبعث بهما إلى معسكر

بطرس ، وأمرهما أن يعلننا هناك بأن النورمان قد استولوا على نيقية ، وأنهم يقومون بتوزيع غنائم المدينة فيما بينهم ، وكان لهذه الحكاية فعل السحر على رجال بطرس ، الذين ما أن سمعوا عبارتي « توزيع » و « مال » حتى هاجوا وماجوا وتسارعوا لتوهم مندفعين دون توقف باتجاه طريق نيقية ، وهم في حالة فوضى كاملة ، ودونما أدنى مراعاة لمسائل النظام العسكري ، وشروط التعبئة الصحيحة التي ينبغي أن يتسم بها الرجال الزاحفين إلى الحرب ، لكن كما قلت من قبل : إن الجندس اللاتين جشع للثروة في جميع الأحوال ، فهم حين يخططون لغزو بلد ما ، لا يمكن ضبطهم بالعقل ولا بالقوة ، تراهم ينطلقون في فوضى شاملة ، لا يلتفت صاحب على صاحبه ولا يلوي رفيق على رفيقه ، ووقعوا على مقربة من موقع اسمه دراكون في كمين التركمان ، فذبخوا بكل تعاسة وشقاء ، وكان عدد الحشود الفرنجية والنورماندية التي أفتتها سيوف أبناء اسماعيل كبيرا جدا ، إلى حد أنهم لما جمعوا بقايا الذين قتلوا ، في مكان واحد ، شكلوا ما يماثل مرتفعا كبيرا جدا ، أنا في الحقيقة لا يمكنني أن أقول إنه مثل قطعة عظيمة من جبل أو أنه تل أو قمة ، لكن أقول إنه جبل بارتفاع كبير وعميق وعريض وعظيم جدا ، إلى حد أن بعض الرجال - من الجندس نفسه - عندما تمكنوا فيما بعد من قتل البرابرة ، وجدوا أنفسهم وهم يقومون ببناء أسوار دفاعية [حول معسكرهم] تشبه أسوار المدينة ، يقدمون على استخدام عظام الموتى باعتبارها موادا لسد الشقوق ، وهكذا صار من الممكن القول أن المدينة غدت قبرا لهم ، وما زالت هذه المدينة قائمة حتى يومنا هذا وهي محاطة بأسوار مشيدة من مزيج من الحجارة والعظام .

ولدى انتهاء عملية القتل تمكن بطرس وحفنة من الرجال فقط من الفرار والعودة إلى هيلينوبولس ، ورغب التركمان في التمكن من أسره ، فأقاموا لهذه الغاية الكمائن ، ونصبوا الأشراك ، لكن الامبراطور الذي سمع أخبار ما حدث ، وخاصة أخبار المنبحة الرهيبة ، رأى أن الأمر سيكون عظيم الوقع إذا ما وقع بطرس

بالأسر ، لذلك بادر إلى ارسال قسطنطين يورفوربينوس ، كاتنا كالون (الذي غالبا ما ورد ذكره في هذا التاريخ) مع جيش قوي ، ركب ظهر عدد من السفن الحربية ، وذلك عبر المضائق ، لتقديم المساعدة له ، والعمل على انقاذه ، ولدى وصوله فر التركمان ، وبادر كاتنا كالون دونما تأخير الى التقاط بطرس واصحابه (فلقد كان هناك قلة فقط) وجلبهم سالين إلى الكسيوس ، الذي ذكر بطرس بحماقاته منذ البداية ، واخبره ان النوازل التي حلت به ، ما كانت إلا بسبب عدم اصفائه لنصائحه ، وأعلن بطرس بعجرفة لاتينية ورعونة معتادة ، عدم مسؤوليته عما حدث ، ولام رجاله على ذلك ، لأنهم - كما قال - كانوا غير مطواعين ، وتبعوا رغبات نفوسهم ، وقد دعاهم باسم عصابات ولصوص أوغاد ، وعلى هذا كانوا غير لائقين بالانتساب إلى المخلص ، وغير جديرين بعبادته عند القبر المقدس .

وكان بعض الفرنجة على شاكلة بوهيموند وعصاباته قد وجدوا في دعوة بطرس فرصة مناسبة ، فأحدثوا فوضى عظيمة عن طريق خداع الاناس السذج ، ذلك ان الشبهة إلى تملك الاراضي البيزنطية ، والرغبة في الاستيلاء عليها قد استولت على نفوسهم منذ زمن بعيد ، ولهذا أقدم هؤلاء القوم على بيع اراضيهم ، بدعوى انهم مغادرون البلاد لحرب التركمان ، ولتحرير القبر المقدس .

وقام احدهم واسمه هيوج (٦) ، وكان اخا لملك فرنسا ، كما انه كان شبيد الفخار بمكانته ونبالة اصله ، وثروته وقوته ، قام وهو عازم على مغادرة بلاده - بالظاهر بدعوى الحج الى القبر المقدس - بارسال رسالة غامضة إلى الامبراطور ، بأنه ممن المتوجب ان يقدم له - أي لهيوج - استقبالا رائعا ، قائلا : « اعلم ايها الامبراطور ، بانني أنا ملك الملوك ، واعظم كل من هو تحت قبة السماء ، وإنها ارادتي واوامري ، بأن تقوم بلقائي لدى وصولي ، وباستقبالي بكل مظاهر الأبهة والحفاوة التي تليق بمقامي النبيل » .

وحدث أثناء وصول هذه الرسالة إلى الكسيوس أن كان جون بن اسحق المشرف العام للامبراطورية ، هو ذوق دراخيوم ، ونيقولا مافروكان كاتاكالون قائدا للأسطول ، وكان قد ألقى مراسي سفنه مرة حول ميناء كان هناك ، وقام من هذه القاعدة بعدة رحلات استطلاعية ، لمنع سفن القرصان من الابحار مفلتة من المراقبة ، وبعث الامبراطور إلى هذين الرجلين بتعليمات مستعجلة ، كان فيها على الذوق أن يرقب وصول هيوج برا وبحرا ، وأن يخبر الامبراطور الكسيوس ساعة وصوله ، وكان عليه أن يستقبله بحفاوة كبيرة ، وكان على اميرال الاسطول أن يديم اليقظة بلا انقطاع ، ودون أن تكون هناك أية راحة أو اهمال مهما كان نوعه .

ووصل هيوج إلى لومبارديا سالما ، وبعث من هناك برسله إلى ذوق دراخيوم ، وكان تعدادهم أربعة وعشرين رجلا ، وكانوا مسلحين بالدروع المحلاة بالذهب ، وكان بصحبته كونت وليم النجار (٧) والياس (الذي تخلى عن الامبراطور في سالونيك) ، وتوجه الرسل بالخطاب إلى الكونت على النحو التالي : « ليكن بمعلوماتك أيها الكونت بأن سيدنا هيوج سيكون هنا بعد وقت قصير ، جالبا معه من روما راية القديس بطرس الذهبية (٨) ، واعرف ايضا انه هو القائد الأعلى لجيوش الفرنجة ، قم بإعداد استقبال لائق بمكانته ، واستعد أنت نفسك للقاء به » ، وبينما كان الرسل يسلمون هذه الرسالة ، قدم هيوج من روما إلى لومبارديا - كما سبق وقلت - وأبحر من باري باتجاه ايليركيوم ، لكن واجهته أثناء عبوره عاصفة شديدة ، ففقد معظم سفنه بما في ذلك المجذفون والبحارة ، ونجت سفينته فقط حيث رميت على الشاطئ في مكان بين دراخيوم وبقعة اسمها بيلز ، وكانت أنثى نصف محطمة ، وقد عثر عليه اثنان من حرس الشواطئ ممن كان ينتظر وصوله ، وقد أنقذاه بمعجزة وخاطباه بقولهما : « إن الذوق ينتظر وصولكم بفارغ الصبر ، وهتواق إلى رؤيتكم » ، وحالما سمع هذا ، طلب لنفسه حصانا ، فترجل واحد من الخفيين وقدم له حصانه بكل سرور ، وعندما رآه الذوق ، وعرف الطريقة التي أنقذ بها ، حياه ورحب به ، ثم سأل عن

رحلته ، وعما سمعه حول العاصفة التي أغرقت السفن ، وحاول التخفيف عنه وبعث الشجاعة في نفسه ، واحتفى به بمائدة فخمة ، وبعد الاحتفاء به ، ترك الدوق هيوغ ليرتاح ، لكنه أبقاه تحت المراقبة ولم يمكنه من حريته الكاملة ، ثم بادر إلى اعلام جون بأخبار المغامر الفرنجي ، وانتظر تعليماته الجديدة ، وقام الامبراطور الكسيوس حال تسلمه الأخبار ببعث تومنز إلى إبيدامنوس (التي دعوناها في مناسبات عدة باسم دراخيوم) لمرافقة هيوغ ، لكن ليس عبر طريق مباشر ، وإنما عبر الطريق المغاير المار بفيليبوبولس إلى العاصمة ، ذلك انه كان خائفا من حشود الفرنجة المسلحين القادمين بعده ، واستقبل هيوغ في العاصمة استقبالا لائقا من قبل الامبراطور ، الذي استطاع بسرعة اقناعه عن طريق التوسع بالعطاء ، واظهار كل معاني الصداقة ، ان يصبح واحدا من اتباعه بوساطة حلف اليمين المعتاد لدى اللاتين .

وكانت هذه الوقائع مجرد مقدمة ، فبعد مرور خمسة عشر يوما فقط عبر بوهيموند شواطئ كابليون (٩) ، وجاء إثره مباشرة الكونت ريتشارد صاحب برنيسبيت (١٠) ، وطلب هو أيضا لدى وصوله إلى شواطئ لومبارديا ، الجواز إلى إيليركيوم ، وتم هناك استئجار سفينة قرصان ذات ثلاثة أشعة وحمولة كبيرة ، بمبلغ ستة الاف قطعة ذهبية ، وكانت هذه السفينة تحمل مائتين من المجدفين ، وتجر وراءها ثلاثة قوارب شحن ، ولم يمض ريتشارد إلى افلونا كما فعلت بقية الجيوش اللاتينية ، لكنه بعدما توقف توقفا قصيرا ، غير اتجاهه قليلا ، وأبحر في ربح طيبة مباشرة إلى خيمارا [ذلك انه كان خائفا من الأسطول الروماني « البيزنطي »] إنما كان حساله كالفار من الدخان ليقع في النار ، فهو تجنب السفن التي كانت رأسية في مختلف النقاط في مضائق لومبارديا ، لكنه اجتاز ممر القائد العام للأسطول الروماني كله ، وهو نيقولا مافرو كاتاكالون نفسه ، وكان هذا الأخير ، قد سمع منذ زمن عن سفينة القرصان هذه ، فأرسل عددا من سفن الاستطلاع السريعة ، والسفن نوات صفيين من المجاذيف ، ونوات الثلاثة صفوف ، وذلك من بين القوات

الرئيسية ، وتحرك من قاعدته في أسون إلى كابليون حيث تمركز هناك ، وأرسل القائد صاحب الترتيب الثاني بغليونه^(١١) لمواجهة البحارة العاديين) ليقوم بإضاءة مشعل عندما يرى الجديفين قد اسدلوا حبل الجر من سفينة العدو ورموه في البحر ، ونفذت الأوامر دونما تأخير ، وما إن رأى نيقولا الإشارة حتى ألق ببعض سفنه ، بينما جرت سفن أخرى بواسطة التجديف - وبدو وكأنهم كالف واحد - ضد رتشارد ، الذي كان الآن وسط البحر ، وقد لحقوا به قبل أن يقطع مسافة ثلاث عقد ، وكان ذلك كله حرصا على الوصول إلى الشاطئ المقابل لأبيدامنوس ، وكان معه على ظهر السفينة ألف وخمسمائة من العساكر ، مضافا إليهم ثمانمائة حصان عادت في ملكيتها إلى نبلائه ، وعندما رأى القبطان نيقولا ، أخبر الفرنجة ، وخاطبهم بقوله « الاسطول السوري حولنا ، ونحن الآن معرضون لخطر القتل طعنا أو تقطيعا » ، وحالما سمع الكونت هذا أمر عسكره بحمل السلاح والاستعداد للقتال ، وكان الوقت منتصف الشتاء - اليوم المقدس المكرس لذكرى نيقولا الحبر الأعظم^(١٢) وكان هناك سكون مميت ، والقمر بدر ، وقد أشرق مشعا أكثر مما يفعل عادة في فصل الربيع ، ونظرا لتوقف حركة الرياح ، لم يعد بإمكان سفينة القرصان التقدم بواسطة الأشرعة ، لذا وقفت هادئة بلا حراك وسط البحر ، وعند هذه النقطة من تاريخي أرى أنه لا بد لي من وقفة لأقدم الشكر والعرفان لما قام به ماريانوس من انجازات ، فقد سأل أباه الدوق قائد الاسطول أن يعطيه بعض القوارب الخفيفة ، ثم اتجه مباشرة نحو سفينة رتشارد ، وهناكلقى بنفسه فوق مقدمة هذه السفينة ، وحاول أن يصعد إلى ظهرها ، وعندما راه البحارة اندفعوا على الفور نحوه ، ذلك أنهم راوه مسلحا وجاهزا للدخول في المعركة ، لكن ماريانوس ، الذي أحسن التكلم بلغتهم ، خاطب هؤلاء اللاتين وأخبرهم أنهم ينبغي ألا يخشوا أمرا ، وحضهم على عدم القتال ضد أخوانهم المسيحيين ، ومع ذلك فقد أخذ واحد منهم قوسه وفوقه ورماه بذشابة أصابت خونته^(١٣) ، ونفذت خارقة علاها ، إنما دون أن تمس شعرة من رأسه - أي عبرتها بسلام - ودونما تمهل أطلقت ذشابة ثانية نحو

الكوئنت فأصابت ذراعه ، وخرقت ترسبه ، ونفذت من خلال درعه ، وخذشت طرفه ، وصدف أن كان هناك راهب لاتيني واقفا في مؤخرة السفينة مع اثني عشر من المقاتلين ، وقد رأى ما حدث ، فأقدم على الرماية بقوسه عدة مرات باتجاه ماريانوس ، ورفض ماريانوس حتى هذه الساعة التسليم ، وقاتل بشجاعة ، قاتل بنفسه وشجع رجاله ليحذو حذوه ، ولهذا وجد رفاق هذا الراهب أنفسهم ، ثلاث مرات على التوالي ، يتراجعون بسبب الجراح والتعب ، أما الراهب نفسه فإنه على الرغم من أنه ضرب مرة ثلوا الأخرى ، وغطى بالدماء المتدفقة من جراحه ، فإنه تابع القتال دونما مبالاة^(١٤) ، وبعد قتال مرير استمر منذ المساء وحتى منتصف اليوم التالي ، تراجع اللاتين امام عزيمة ماريانوس ، وطلبوا منه الرحمة ، ومع هذا فإن الراهب اللاتيني المحارب لم يتوقف عن القتال على الرغم من اعداد ترتيبات الهدنة ، فبعد أن أفرغ جعبته من الأسهم ، التقط بعض الحجارة ، وقذفها باتجاه ماريانوس ، الذي وقى رأسه بترسبه ، لكن الترس تحطم إلى أربع قطع ، وانشطرت خوذته ، وأصابته الضربة ، فسقط إلى الأرض فاقدًا وعيه ، وظل فترة من الوقت صامتًا لا يتكلم كما حدث لهكتور الشهير ، عندما أصيب بحجر أجاكس ، وبصعوبة بالغة تمكن من استرداد وعيه ، واستعاد قوته ، فأطلق عددا من الأسهم ضد عدوه ، فأصابه بثلاث جراحات ، ووجد هذا المقدم [ذلك أنه كان أعلى من أن يكون مجرد واحد من الرهبان] نفسه أنه لم ينته من القتال ، على الرغم من أنه يستنفد الأسهم والحجارة وكل ما كان لديه ، فبات محتارا : ماذا يفعل ، وكيف يدافع عن نفسه ضد عدوه ؟ وازداد اضطرابا و غضبا ، فأعد نفسه للانقضاض مثل حيوان متوحش هائج ، وصار على استعداد لأن يستخدم كل ما تصل إليه يده ، حتى أنه عندما صدف سلة مملوءة بالكعك المصنوع من الشعير ، أخذ يقذف بالكعكات كما لو كن من الحجارة ، و كان يتناولهن ويرمي بهن كما لو أنه كان في حفل ، أو أثناء تأديته للقديس ، محولا الحرب إلى نوع من الطقوس المقدسة ، و التقط إحدى الكعكات ورمها ، بكل ما أوتي من قوة ، نحو وجه ماريانوس فأصاب وجنته ، ودون اضافة لمزيد من

التفاصيل حول هذا الراهب ، نخلص الى القول ان السفينة وبجارتها وكذلك الكونت رتشارد نفسه سلموا انفسهم جميعا الى ماريانوس ، وتبعوه بكل رضى ، وعندما وصلوا الى الياپسة ، ونزلوا اليها ، استمر الراهب المذكور يبحث عن ماريانوس ، ذلك انه لم يعرف اسمه لكنه عرف صفته ، وقد نعتة للون ثيابه ، وعندما وجده أخيرا ،لقى بسلاحه جانبا ، وضمه اليه وقال متبجحا: « لو قابلني على الياپسة للإقى عدد كبير منكم حتفه على يدي» وتناول من وسط ثيابه كأسا كبيرا من الفضة يساوي مبلغ مائة وثلاثين قطعة ذهبية ، وناوله لماريانوس ، وهو يتفوه بعباراته ، ثم سقط ميتا.

وعبر في تلك الأثناء الكونت غودفري ومعه عدد من الكونتات بصحبة جيش قوامه عشرة آلاف فارس وسبعين ألفا من الرجالة ، ولدى وصوله الى العاصمة ضرب معسكره في بربوتنس ، ما بين الجسر القريب من الكوسميدسيون (دير القدس كوسماس) وكنيسة القديس فوقاس ، لكن عندما حضره الامبراطور على التوجه حتى النهاية القصوى لبريوتنس ، تقاعس وأجل التنفيذ من يوم الى آخر ، وأخر عملية العبور بسلسلة من الأعذار المختلفة ، وفي الواقع كان غودفري ينتظر وصول بوهيموند وبقيّة الأمراء ، ومعروف أن بطرس الناسك كان قد قام في البداية برحلته الكبيرة للقتال عند القبر المقدس ، لكن الزعماء الآخرين – وخاصة بوهيموند – عاشوا على دغدغة أحلام جشعهم القديمة ضد الكسيوس ، وانتظروا الفرصة المناسبة للانتقام للنصر الرائع الذي ناله الامبراطور في لاريسا ، لقد عاشوا جميعا على أمل واحد في بلورة أحلامهم بالسيطرة على القسطنطينية، ولهذا تبنا سياسة عامة واحدة ، فأنا غالبا ما اشرت الى هذا وأوضحت بأنهم كانوا يتظاهرون بأنهم على نية الحج ، ولكنهم في الحقيقة كانوا قد خططوا لخلع الكسيوس والاستيلاء على العاصمة ، ولكن لسوء حظهم كان الامبراطور يعرف خساسة طباعهم وما جبلوا عليه ، وذلك نتيجة لطول التجربة ، ولهذا أصدر أوامره بتحريك القوات الاحتياطية كتلة

واحدة من اثيرا الى فيليا (فيليا موقع على شاطئ البحر الأسود) وكان عليها التربص حتى وصول رسل غودفري وهم في طريقهم الى بوهيموند وبقيّة الأمراء وحدث في نفس ذلك الوقت الحادث التالي: وجه الامبراطور الدعوة الى بعض الأمراء الذين كانوا برفقة غودفري لمقابلته ، وابتغى من وراء ذلك أن ينصّحهم بأن يحرضوا غودفري على تقديم يمين الولاء للامبراطور ، واضاع الأمراء اللاتين - كما جرت عادتهم - الوقت كله بكلماتهم الجوفاء المعتادة ، وبولعهم بالقاء الخطابات الطويلة ، ولذلك انتشرت اشاعة كاذبة وراجت حتى وصلت الى الفرنجة ، وكان فحواها بأن الأمراء قد اعتقلهم الكسيوس ، لذلك ما لبثوا أن ثاروا واخذوا يزحفون في صفوف متتالية نحو القسطنطينية ، مبتدئين بالهجوم على القصور القريبة من البحيرة الفضية (١٥) ، فدمروها تدميرا كاملا ، ثم هاجموا أسوارها لكن ليس بالمنجنيقات - ذلك أنه لم يكن لديهم هذا السلاح - إنما بكتلهم اعتقادا منهم أنهم بأعدادهم الكبيرة يمكنهم اشعال النيران في البوابة التي دون القصر (١٦) على مقربة من مشهد القديس نيقولا (١٧) ولم يكن سواد العامة في بيزنطة ودهم الذين تولاهم الهلع ، نظرا لعدم معرفتهم بفن الحرب ، ولهذا ضربوا صدورهم وانتحبوا عندما رأوا صفوف اللاتين ، بل استولى الرعب حتى على الجماعات المقربة من الامبراطور والشديدة الاخلاص له ، متذكّرين يوم الخميس الذي سبق وتم الاستيلاء به على المدينة (١٨) وكانوا يخشون أن يحل بهم في هذا اليوم الانتقام (١٩) (بسبب ما حدث لهم يومذاك) وتسارع جميع الجنود المدربين نحو القصر في فوضى ، لكن الامبراطور بقي هادئا: فلم يحاول التسلح ، أو حتى وضع درع على جسمه ، أو حمل ترس أو رمح بيده ، أو اشمear سيفه ، بل جلس بكل هدوء وثبات على العرش الامبراطوري ، ينظر اليهم بوجه مشرق ، مشجعا اياهم ، وبأنا الروح العالية والطمأنينة في قلوبهم ، وكان الامبراطور في تلك الساعة مجتمعا مع اقربائه وكبار القادة للبحث والتشاور حول خطط المستقبل ، وقد اصر - بالدرجة الأولى - على أنه ينبغي ألا يغادر شرفات الأسوار لقتال اللاتين

مهما كان السبب ، بسبب سمة قداسة ذلك اليوم (كان يوم الخميس من الاسبوع المقدس ، اعظم الاسباع قداسة في السنة حيث ذاق الرب فيه الام الموت في سبيل خلاص العالم اجمع) وبالدرجة الثانية لانه رغب في تجنب سفك الدماء بين المسيحيين ، وقام عدة مرات بارسال المبعوثين الى اللاتين ناصحا إياهم بالامتناع عن مثل هذه الأعمال قائلا لهم : « ابذلوا الاحترام لهذا اليوم ، فالرب ضحى بنفسه من أجلنا مزدريا كل من الصليب والمسامير والحربة كوسائل لعقاب مرتكبي الآثام ، لانقائنا ، وإذا كان لا بد لكم من الحرب ، فنحن سنكون بدورنا جاهزين ، لكن بعد مرور يوم قيامة الرب » ، لكنهم كانوا أبعد من أن يصغوا لكلماته ، وبدلا من ذلك زادوا من تقوية صفوفهم ، وكانت رشقات سهامهم كثيفة الى حد أن واحدا من حاشية الامبراطور أصيب بصدرة ، وعندما رأى بقية رجال الحاشية ذلك ، تحلقوا حول الامبراطور من جميع الجهات ، لكنه بقي جالسا غير مضطرب ، مهدئا لهم وموجها النقد اليهم بطريقة لطيفة ، ثم قام وسط دهشة الجميع ، عندما رأى المهاجمين اللاتين يقتربون من الأسوار ، ويرفضون النصائح المفيدة ، قام باتخاذ أول إجراء - للمرة الأولى - فاستدعى صهره نقفور (قيصري) وأمره أن ينتخب أفضل المحاربين من الرماة المجريين ، ويمركزهم على شرفات السور ، وأن يقوموا جميعا برشقة جماعية من الأسهم نحو اللاتين ، إنما دون تسديد ، بل في الفراغ بغية اخافة الأعداء ، لكن مع تجنب القتل بأي ثمن ، ذلك أنه - كما سبق لي أن بينت - كان يخشى تدنيس ذلك اليوم ، ويرغب في منع الاقتتال الأخوي ، وأمر مجموعة من الرجال المنتخبين ، كان بعضهم يحمل القسم ، وبعضهم الآخر رماحا طويلة ، أمرهم بفتح بوابة القديس رومانوس ، وأن يندفعوا ببطء ، يتصف بالقوة والعزيمة والعنف ضد الأعداء ، وكان مع كل رماح ترسين ليتمكن من وقاية نفسه وحمايتها من على الجانبين ، وكان بإمكانهم ، وهم في هذه التشكيلة ، أن يزحفوا بخطى تامة ، وأرسل الامبراطور أمام هؤلاء عددا من الرماة المهرة ، ليتولوا الرماية نحو العدو من مسافة

- ٢٤٤٤ -

بعيدة ، وان ينتقلوا يمنا ويسرة حسب ما يقتضيه الحال عندما تضيق المسافة في جانب من الجوانب ، بين الجديشين ، وكان بعد هذا على القادة أن يشيروا الى الرماة الذين كانوا برفقتهم ليقوموا برمايات كثيفة نحو الخيول وليس نحو الخيالة ، ثم الاندفاع بسرعة تامة ضد العدو ، وكانت الغاية من جهة واحدة تمزيق تجمع قوى الهجوم الفرنجي بعقر مطاياهم (حيث إنهم لن يجدوا من السهولة الركوب في تلك الحالة) ومن جانب آخر (وهذا أكثر أهمية) تجنب قتل المسيحيين ، وروعت تعليمات الامبراطور وطبقت بكل سرور: فتحت الأبواب على مصراعيها ، وأعدت الخيول ، وقويت نحو العدو ، وتم قتل العديد من الفرنجة ، وقلة فقط من الروم هم الذين أصيبوا - ذلك اليوم - بجراح.

ولندع الآن هؤلاء ، ونعود الى سيدي القيصر ، حيث تركناه يقود رماة المجربين ، ويمركزهم على الأبراج ، حيث وجهوا من هناك رماياتهم ضد البرابرة ، وكان مع كل واحد منهم قوس صحيح بعيد المدى ، وكانوا جميعا من الشباب ، البسارعين براعة تيسر *Tenue* بالرماية عذ هومر « لم يشد وتر قوسه حتى يلامس صدره ، ليجر بعدها السهم ، حتى يكون رأسه المعدني قرب القوس (٢٠) ذلك أنه لم يكن يقوم بعرض للبراعة في الرمي حسب طرائق الصيادين ، بل قام - وكأنه هرقل جديد - برمي سهم مميتة - من قوس غير ميت ، وأصاب أهدافه حسبما أراد ، وكان في أوقات سابقة ، عندما شارك في مباراة للرماية ، أو في معركة ، لم يخطيء له سهم هدفه قط ، مهما كان الجزء - من جسم الانسان - المسدد نحوه ، فقد كان لا مندوحة من اصابته هناك ، وكان يقوم بشد وتر قوسه والرماية به بسرعة مذهلة ، الى حد أن تيسر والأجكسان ، لم يكونا معادلين له في الرماية ، ومع هذا كله ، وعلى الرغم من براعته بالرماية ، فإنه راعى - في تلك المناسبة - حرمة ذلك اليوم ، وتمسك بعري تعاليم الامبراطور ، لذلك عندما كان يرى واحدا من الفرنجة ، يقترب من الأسوار بحماقة واضطراب ، حاميا نفسه بدرع وخوذة ، كان يفوق

سهمه ويشد وتر قوسه ، ويرمي نحوه ، لكن لا يصيب الهدف ، بل لتأتي النبلة امامه او خلفه ، فمن اجل قداسة ذلك اليوم تمنع عن الرمي بشكل مباشر نحو اللاتين ، ومع ذلك فعندما كان واحدا من هؤلاء يصر في تعنته وحماقته ، ليس عن طريق الرماية على المدافعين الواقفين خلف الشرافات ، بل حتى بصب كميات كبيرة من الشتائم والسباب بلغته ، عندها قام القيصر بشد وتر قوسه « ولم يدع السهم يطير عبثا من بين يديه » بل ليخرق ، الدرع الطويل الذي حمله الفرنجي ، ولير خارقا سابغته ، وبذلك كان يصيب سلاحه ويجرح جنبه ، وهكذا يجعله « يسقط بلا حراك » - كما يقول الشاعر (٣١) فتصعد اصوات الروم الى عنان السماء تحية وتشجيعا لقيصرهم ، ومثله يعلو عويل اللاتين باكين محاربهم المقتول ، وهكذا تجدد القتال بشدة ، وتحارب فرسانهم ورجالنا - على مقربة من الاسوار - بكل شجاعة ، وكان القتال ضاريا ومريرا على كلا الطرفين ، لكن عندما قذف الامبراطور بحرسه الى قلب المعركة ، انعطفت صفوف الفرنجة ، ولانوا بالفرار ، وعليه قام هيوج في اليوم التالي بتوجيه النصيحة الى غودفري كيما ينصاع الى رغبات الامبراطور ، هذا اذا لم يكن يرغب ان يتعلم للمرة الثانية عن مدى خبرة الكسيوس وبراعته باعتباره قائدا حربي ، لكن غودفري انتقده بشدة قائلا : « لقد تركت بلادك وانت ملك تمتلك الثروات ، وجيشا قويا ، وانحدرت الآن بنفسك من السمو الى درجة العبيد ، ثم تأتي الي بعد هذا وكأنك قد لاقيت نجاحا عظيما لتطلب مني ان افعل الشيء نفسه ، لقد كان علينا اذا ان نبقي في بلادنا ، ونحفظ ايدينا ونرفعها عن بقية الناس » واجابه هيوج « لكن اما وقد اتينا في بلادنا كل هذه المسافة ، نحن نحتاج الى حماية الامبراطور ، ولن نحصل على اية منافع ما لم نطع اوامره » ولم يجد هذا نفعا ، وطرد هيوج دون ان يحصل على شيء ، ولم تثمر جهوده ، ولهذا السبب ولحصول الامبراطور على معلومات مؤكدة ، فيها ان جميع الامراء الفرنجة يتقدمهم غودفري قد اقتربوا من اسوار المدينة ، قام الكسيوس بارسال بعضا من خيرة ضباطه ، وبصحبة كل منهم قواته ، لتوجيه

النصائح اليهم مرة ثانية ، أو حتى للعمل على اجبارهم على عبور المضائق.

وما ان أصبح على مرأى من اللاتين ، حتى نهضوا من غير تردد ولو للحظة واحدة ، وحتى من غير التوقف لسؤالهم: ماذا يريدون ، وقاموا بالهجوم عليهم ، وشرعوا بقتالهم ، وسقط في القتال عدد كبير من القتلى بين الجانبين ، وفقدوا حياتهم في هذا الالتحام المرير ، وأصيب جميع رجال الامبراطور - الذين قاتلوا بشجاعة - بالجراح ، ونظرا لشجاعة الروم ، وارتفاع معنوياتهم ، تراجع اللاتين ، وقرر غودفري تقديم الطاعة من غير تأخير ، فجاء الى حضرة الامبراطور ، وأقسم يمينا املئ عليه ، فيه أنه ما من بلد ، أو موقع أو حصن ، سيكون في المستقبل من الممكن الاستيلاء عليه ، و كان من قبل يعود في ملكيته للامبراطورية الرومية ، سيقوم بالتخلي عنه ، وتسليمه الى الضابط المنتدب من قبل الامبراطور خصيصا لهذه الغاية ، وتسلم غودفري بعد اقسامه لليمين - هدايا سخية ، ودعي الى مجالسة الامبراطور ، حيث جرى الاحتفاء به في مأدبة رائعة ، ثم جاز عقب هذا الى بليكانوم ، وأقام معسكره ، وأصدر الامبراطور ، إثر ذلك تعليماته بتوفير كميات كبيرة من المؤن له ولرجاله.

ووصل في آثار غودفري الكونت راؤول ، (٢٢) و برفقته خمسة عشر ألف من الخيالة والرجالة ، وعسكر مع الأمراء الذين كانوا برفقته في بربوتنس على مقربة من دير البطريرك (٢٣) ، بينما عسكر البقية على امتداد الساحل حتى سوزنيون ، وقد حذا حذو غودفري ، حيث توقف ينتظر وصول هؤلاء الذين كانوا قادمين بعده ، واستخدم الامبراطور ، الذي كان يخشى هذا (متوقعا ما يمكن أن يحدث) كل وسيلة مادية ونفسية لجعلهم يسرعون الى عبور المضائق ، من ذلك على سبيل المثال ، أنه استدعى اوبوس - الذي كان رجلا له اخلاق رفيعة ، وما من أحد يفوقه في معلوماته العسكرية - ولما مثل في حضرة الامبراطور ، بعثه مع عدد

من الرجال الشجعان الى راؤول ، وكانت التعليمات الصادرة اليه واليهم ، العمل على اجبار الفرنجة على المغادرة الى الجانب الاسيوي ، وعندما وضح له ان راؤول ليست لديه النية في الذهاب ، بل اتخذ موقفا معاديا كله رعونة تجاه الامبراطور ، حمل سلاحه ، وصف رجاله وعبأهم للمعركة ، ربما لاختافة البرابرة ، ظنا منه بهذه الوسيلة يمكنه ان يقنعهم بالابحار ، لكن ردة فعل الفونجي جاءت بالحال ، حيث تقبل ، مع رجالته المتوفرين ، التحدي « مثل الاسد الذي يبتهج عندما يجد صيدا كبيرا » ، واندلعت نيران معركة حامية الوطيس ، ووصل في تلك الساعة بيجاسيوس ، بواسطة البحر ، لنقل الفرنجة الى الطرف الآخر ، ولدى رؤيته القتال على الارض ، وان الفرنجة يرمون بأنفسهم دون مبالاة على صفوف الرومان ، نزل الى اليايسة ، واشترك في القتال ، فهاجم الأعداء من الخلف.

وسقط في هذا المعترك عدد كبير من القتلى ، لكن عدد الجرحى كان اكبر ، وسأل الناجون من الفرنجة ، وهم في الوضع الجديد - ان يتم نقلهم عبر المضائق ، ظانين انهم اذا ما التحقوا بغودفري وأخبروه بتفاصيل ما حل من كوارث ، لربما يثيره ذلك ، لاتخاذ اجراء ما ضد الروم.

واستجاب الامبراطور - بكل تعقل لمطلبهم - ووضعهم - بكل سرور - على ظهر السفن ، ونقلهم الى الطريق نحو قبر المخلص ، سيما انهم هم انفسهم كانوا يريدون ذلك ، وارسلت بعد ذلك رسائل ودية كلها امان ووعود جميلة الى الامراء الذين كانوا ما يزالون ينتظرون ، ونتيجة لذلك ، فإنهم عندما وصلوا الى القسطنطينية نفذوا بكل رضى تعليمات الامبراطور.

هذا ما كان من امر الكونت راؤول ، فقد وصلت من بعده فرقة كبيرة جدا ، فيها حشود من الناس تفوق العد والحصر ، تجمعوا جميعا من جميع اراضي الفرنجة ، ومعهم قادتهم (من ملوك

وسوقات وكونتات وحتى اساقفة) ، وارسل الامبراطور رسلا من لدنه للترحيب بهم ، واتبعهم برسائل لطيفة ، وكان من عادة الكسيوس عدم اللجوء الى الطرق الماكرة ، وكان يعرف كيف يتمسك بنقاط التفوق امام خصمه ، وجرى تعيين عدد من الضباط للقيام بمهام تلقي الحشود ، وامروا بإعداد الميرة اللازمة للرحلة ، ذلك أنه من المتوجب الا يجد الحجاج سببا للشكوى ، مهما كان ، وتابع الحجاج في الوقت نفسه اندفاعهم بكل حماس ورغبة نحو العاصمة ، ويمكن للمرء أن يقارن تعدادهم بنجوم السماء او بذرات الرمال على الشواطئ وكان عددهم في الحقيقة وهم مندفعون نحو القسطنطينية مثل « اوراق الربيع وزهوره » (٧٤) . كما قال هومر [

ومع رغبتى الشديدة في الاقدام على تسمية قادتهم ، فإني افضل عدم فعل ذلك ، لأن الكلمات تخونني بسبب عدم مقدرتي على التفوه بالأسماء البربرية - ذلك أنها غير موائمة لنا - ثم إنني أجد نفسي ارتجف أمام أعدادهم الكبيرة ، وعلى كل حال لا أجد سببا مسوغا يفرض علي تسجيل أسماء عدد هائل من الحشود ، لا سيما وأن معاصريهم أصبحوا الآن ينظرون إليهم بلا مبالاة .

وعندما وصل هؤلاء الأمراء أخيرا إلى العاصمة ، صفوا عساكرهم - قرب دير القديس كوسماس والقديس دامين وامتدوا حتى الهيرون ، واحتاج ضبطهم إلى تسعة من المنادين - حسب العادة الاغريقية القديمة - عن طريق النداء ، وقد رافقهم عدد مناسب من الجنود الذين اقنعوهم بالطاعة أوامر الامبراطور ، مع فكرة فرض القسم نفسه الذي اقسمه غودفري ، ودعا الامبراطور الأمراء إلى زيارته فرادى وتحدث معهم على انفراد ، حول رغبته ، واستخدم كل الوسائل المعقولة لاقتناع المترددين ، وعندما رفضوا نصائحه - لأنهم كانوا ينتظرون بقلق عظيم قدوم بوهيموند - وابتدعوا طرائق غبية للتملص بتقديم المزيد من المطالب ، رفض بدوره اعتراضاتهم من غير أية صعوبات ، وضغط

عليهم بمائة وسيلة حتى أجبرهم على تأدية القسم ، وتمت دعوة غودفري نفسه للعبور من بيلكانوم ليشهد الاحتفال ، وعندما حضر الجميع ، بما فيهم غودفري ، وبعد أن أخذ اليمين على كل واحد من الأمراء ، تجرأ واحد من النبلاء [اللاتين] بالاقدام على الجلوس على عرش الامبراطور ، وتحمل الكسيوس هذا دون أن يتفوه ببنت شفة ، عارفا الطبع الرديء لجماعة اللاتين ، لكن كونه بلدوين توجه نحو الرجل وامسكه من يده وجعله يقوم ، ثم وجه إليه توبيخا شديدا ، وقرعه بقوله : « كان عليك الا تفعل شيئا من هذا القبيل ابدا ، خاصة بعدما اقسمت وتعهدت بأن تكون واحدا من أتباع الامبراطور ، إن الابطاطرة الروم لا يدعون رعاياهم يجلسون معهم ، وهذه هي العادات هنا ، وعلى الرجل الذي اقسم يمين التبعية لصاحب الجلالة الامبراطورية أن يراعي عادات البلاد ، ولم يجب الرجل بلدوين بأي شيء لكنه نظر شزرا نحو الكسيوس ، وتمتم في نفسه ببعض الكلمات في لغته الخاصة قائلا : « أي فلاح هذا ، يجلس وحيدا ، بينما يقف قادة كبار مثل هؤلاء إلى جانبه ، وراى الكسيوس شفاته تتحركان فاستدعى واحدا من المترجمين الذين يفهمون لغته ، وسأله عما قال ، وبعدما أخبره بمقولته لم يوجه أي تعليق للرجل في تلك اللحظة ، إنما أبقى التعليق في نفسه ، لكن عندما كانوا يقومون بتوديعه بعث خلف ذاك الرجل الارعن المتعجرف ، وسأله من يكون ، ومن أين جاء ، وما هو نسبه ؟ فأجابه : « أنا فرنجي نقي ، وصاحب أصل نبيل ، وأعرف شيئا واحدا : هناك عند مفترق الطرق في البلاد التي ولدت بها ، معبد قديم (٢٥) يأتي إليه كل من يرغب بالدخول في مبارزة فربية ، فيستعد للقتال ، ويدعو الله ان يسمعه ، ويمكنك هناك ينتظر الرجل الذي يجرؤ أن يرد على تحديه ، عند مفترق الطرق هذا ، امضيت وقتا طويلا أنتظر بكل شوق الرجل الذي سيقدم للمبارزة ، لكن لم يأت أحد قط ، ولم يوجد من تجرأ على ذلك ، ولدى سماع الامبراطور ذلك قال له : « إذا لم تحصل على من تقايله آنذاك ، بعد انتظار طويل ، فالآن لديك فرص ممتازة لأكثر من مبارزة ، لكنني اوصيك بكل شدة الا تتمركز في مؤخرة الجيش ، ولا في المقدمة ، ولكن اتخذ موقفك في قلب الجيش مع

المراتب الأدنى ، إنني عارف بطرائق الأعداء ، ولي تجارب طويلة مع التركمان ، ولم يوجه الامبراطور النصيحة له وحده ، لكنه أُنذر الجميع لدى مغادرتهم إياه وحذرهم من المخاطر الكثيرة والمعقدة التي يمكن أن تواجههم أثناء الرحلة ، وأوصاهم بعدم مطاردة العدو بعيدا إذا ما منحوا النصر عليه ، خشية الوقوع في الكمائن التي ينصبها القادة التركمان ، فيكون نصيبهم القتل .

هذا ما كان بالنسبة لغودفري وراؤول ومن جاء معهما ، ووصل بعد هذا بوهيموند إلى أبروس مع بقية الأمراء ، عارفا نفسه أنه لم يكن من أصل نبيل ، ومن غير قوات عسكرية خاصة به من الاتباع ، لقلة موارده ، وكان يرغب في كسب رضى الامبراطور ، لكنه كان في الوقت نفسه يخفي مشاعره العدوانية ونواياه الخبيثة ضده ، وأسرع بوهيموند ، على رأس عشرة من الفرقة بغية الوصول إلى العاصمة قبل وصول الآخرين ، وأدرك الكسيوس خططه ، ذلك أنه خبر منذ زمن مديد سادس بوهيموند ، وطبيعته الخيانية ، ولذلك رغب بالحديث معه قبل وصول أتباعه ، لقد كان يريد أن يسمع ما يمكن أن يقوله بوهيموندون أن يملك الفرصة لافساد البقية - ذلك أنهم لم يكونوا على مسافة بعيدة - وأمل في اقناعه بالعبور إلى آسيا .

وعندما مثل بوهيموند في حضرة الامبراطور ، بإياه بمنحه ابتسامته وسأله عن رحلته ، وأين ترك بقية الأمراء ؟ وأجابه بوهيموند على أسئلته بكل صراحة ، وقدم له أحسن ما كان لديه من معلومات ، وذكره الامبراطور بكل لطف بأعماله الجريئة ضده في لاريسا ودرaxيوم ، وبذشاطاته العدوانية السابقة ، فأجابه بوهيموند : « لقد كنت آنذاك عدوا ، لكنني قدمت الآن بمطلق حريتي وأرادتي لأكون صديقا لك يا صاحب الجلالة » ، ثم تحدث الكسيوس معه أحاديث طويلة ، وبشكل جانبي لعله يكتشف مشاعر الرجل الحقيقية ، ولدى استخلاصه بأن بوهيموند على استعداد لأداء يمين الولاء قال له : « إنك الآن متعب من الرحلة ، اذهب واسترح ، وفي الغد يمكن أن نتباحث في القضايا ذات الاهتمام المشترك ، ومضى

بوهيموند إلى قصر كوسمديون حيث أعد له جناحا خاصا ، وهيئت لأجله مائدة عليها جميع أنواع الأطعمة اللذيذة ، وجاء الطباخون ، بعد وقت قصير ، بكمية من لحوم الحيوانات والطيور غير مطبوخة وخاطبوه بقولهم : « كما ترى لقد أعدنا الطعام حسب طرائقنا المعتادة ، وإن كان ذلك لا يناسبك ، ها هنا لحم نبي يمكن أن يطهى تبعا للطريقة التي ترغب بها » ، وحين قال الطباخون ما قالوه وفعلوا ما فعلوه إنما كانوا ينفذون تعليمات الامبراطور ، فلقد كان الكسيوس نكيا ، لديه قدرة الحكم على صفات أي رجل ، وكان يقرأ بعمق التفكير الداخلي له ، وكل ما كان يدور في خله ، ولمعرفته بالجبل الخبيثة لبوهيموند ، فقد كان محقا حين قدر ما يمكن أن يحدث ، وحتى لا يرتاب ، أمر بجلب اللحم الذي إليه ووضعه أمامه ، وكان هذا التصرف حركة بارعة جدا من قبله ، ذلك أن الفرنسي الماكر لم يكتف برفض تذوق أي جزء من الطعام ، وأقدم على توزيعها بين خدمه ، دون أي إشارة إلى شكوكه الخفية ، بل بدا وكأنه يحسن إليهم ويصنع معهم معروفا ، لكن ذلك كان رياء أكثر منه حقيقة ، فإذا ما تفحص المرء هذه القضية بدقة ، يجده في الحقيقة قد قدم لهم كأس المنون ، ولم يكن هناك أية محاولة لتغطية عمله الخياني هذا ، فهو اعتاد على معاملة خدمه باللامبالاة التامة ، ومهما يكن الحال ، فقد أخبر طبأخه الخاص أن يقوم بإعداد اللحم غير المطهو حسب الطريقة الفرنسية المعتادة ، وسأل في اليوم التالي ، خدمه عن أحوالهم ، فأجابوه أنهم بخير ، وأضافوا أنهم لم يشعروا بأي ضرر من تناول ذلك الطعام ، ولدى سماعه هذه الكلمات ، أباح عن مكنون تخوفاته بقوله : « بالنسبة لي ، إنني عندما تذكرت الحروب التي خضتها ضد الامبراطور ، بغض النظر عن المعركة المشهورة التي حاربته بها ، كنت أخشى أن يعمل على قتلي بدس السم في طعامي » .

هذه هي أعمال بوهيموند ، ولا بد لي من القول : إنني لم أر في حياتي رجلا شريرا مثله ، حاد في جميع أعماله وأقواله عن جادة الصواب ، تماما دون توسط أو اعتدال .

واستدعى الامبراطور بعد هذا بوهيموند ، وطلب منه ، كما طلب من الآخرين ، أن يقسم يمين الولاء اللاتيني المعتاد ، وادراكا من بوهيموند لحقيقة وضعه الخاص استجاب بكل سرور ، ذلك انه لم يكن رجلا نبيل المحتد ، كما انه لم يكن عظيم الثراء ، فقواته لم تكن كبيرة العدد ، بل حوت عددا ضئيلا من الفرنجة ، ومهما يكن الحال ، فإن بوهيموند كان في طبيعته مخادعا كذابا ، وكان الامبراطور الكسيوس قد أمر بعد انتهاء الاحتفال ، بغرفة من غرف القصر ، محددة الأطراف ، وفرشت بجميع أنواع الأشياء الثمينة والنخائر من : ملابس ، وذهب ، وفضة ، ونقود ، وأشياء أخرى كلها ذات قيمة كبيرة ، وقد بعثت هذه الأشياء في الغرفة ، فملأت المكان وغطته تماما ، إلى حد انه كان من المحال على أي انسان أن يمشي بها ، وأمر الامبراطور رجلا أنابه عنه أن يري بوهيموند هذه النخائر ، وطلب منه أن يفتح ابواب الغرفة بصورة مفاجئة ، ولقد تولت بوهيموند الدهشة ، وصعق لدى رؤيته لهذا المشهد ، فقال على الفور : « لو أنني امتلكت مثل هذه الثروات لتمكنت من أن أغدو سيديا لكثير من البلدان » ، فأجابه الرجل : « كل هذا هو اليوم لك ، وهو هدية مقدمة من الامبراطور ، وطار بوهيموند فرحا لدى سماعه ذلك ، وقام بعدما أبدى تقبله لهديته ، وتقديمه شكره بمغادرة المكان والذهاب إلى ماواه لينال قسطا من الراحة ، ومع هذا فإنه عندما حملت هذه الأشياء إليه ، ورغم ما سبق له وأبداه من اعجاب ، تظاهر بتغيير رأيه ، فخاطب الخادم الذي حمل إليه الأشياء بقوله : « لم أكن أظن انه ستوجه إلي إهانة مثل هذه من قبل الامبراطور ، خذهم بعيدا واعد لهم إلى مرسلهم » ، وكان الكسيوس معتادا على تصرفات اللاتين ، عارفا بأخلاقهم لهذا ردد القول الدارج : « يكذب هو يكذب على رأسه » ، وسمع بوهيموند هذا القول ، ولهذا عندما شاهد الخدم يعدون ويشرعون بجمع الهدايا بكل عناية لاعادتهم ، غير رأيه مجددا ، وعوضا عن أن يرسلهم وهو مغضب ، ابتسم لهم ، وتصرف كالحرباء التي تغير لونها كل لحظة ، وفي الحقيقة كان بوهيموند منافقا سريعا التراجع حسب الظروف ، وقد فاق جميع اللاتين الذين مروا بالقسطنطينية في ذلك الحين خداعا

وشجاعة ووقاحة ، وكان في الوقت نفسه والحال أقلهم ثروة ، وأضعفهم موارد ، ومع ذلك كان أعظمهم في صنع المساويء والشروع ، وبالنسبة لسرعة التغير ، فقد فعل ذلك بشكل الي ، وهذه عادة جميع اللاتين ، لذلك لم يكن أمرا غريبا أو مدهشا أنه سر سورا بالغأ بأخذة الأموال التي سبق له أن رفض تسلمها ، فهو عندما غادر بلاده كان رجلا مفلسا ليس لديه أية أملاك مطلقا ، وقد تظاهر أنذاك بأنه ذاهب للتعبد عند القبر المقدس ، لكنه كان في الحقيقة يبتغي أن ينال السلطة لنفسه - أو بالحري الاستيلاء على الامبراطورية الرومية ، إذا كان ذلك ممكنا - كما أراد أبوه واستهدف من قبل ، فهو - كما يقال - كان على استعداد لأن يفعل أي شيء ، لكن ذلك احتاج منه أموالا كثيرة ، وكان الامبراطور يعرف طباعه ونفسيته التي لا تعرف الرضى ولا الاستقرار ، ويعرف مكره ، ولهذا عمل ببراعة على إبعاده عن كل شيء يمكن أن يساعده على تنفيذ مآربه ، ولهذه الأسباب حدث أنه عندما طلب بوهيموند أن تدم تسميته لمنصب « ديمستق الشرق » لم يكتف الامبراطور برفض طلبه هذا ، بل لم يبد حتى استغاده لسماع ذلك ، ذلك أن الكسيوس كان يخشى أنه ما أن يملك بوهيموند السلطة حتى يقدم على استخدامها لاختضاع بقية الأمراء لسلطانه ، وجعلهم يتبعون السياسة التي يختارها ، وفي الوقت نفسه ، وحتى لا يظن بوهيموند بأن خططه مكشوفة ، وعده الامبراطور ومناه بأمان فارغة قائلا : « لم يحن الوقت بعد لمثل هذا ، لكن مع نشاطك وإخلاصك لن تنتظر طويلا حتى تنال الشرف » .

وبعدما تحدث الامبراطور طويلا مع قادة الفرنجة ، مبديا لهم مشاعر الود والصداقة ، عن طريق الهدايا والخلع ، جلس في اليوم التالي على عرشه الامبراطوري ، وبعث فاستدعى بوهيموند وبقية الأمراء ، وحذرهم من الأشياء التي يمكن أن تواجههم أثناء رحلتهم ، وقدم لهم نصائح جمة ، وأعطاهم تعليمات حول الطرائق التي جرت عادات التركمان على استخدامها أثناء القتال ، وعلمهم كيف يصفون صفوفهم ويعبؤون للمعركة ، وكيف ينصبون

الكمانن ، ونصحهم بعدم مطاردة الأعداء بعيدا عندما يفرون ، وقد استطاع الامبراطور باعتماده لهذه الوسائل من مال ونصائح أن يلين من حدة طباعهم ، ثم اقترح عليهم أن يقوموا بعبور المضائق .

وأبدى الامبراطور المزيد من الاهتمام والعاطفة تجاه واحد من قائد الفرنجة ، وهو ريموند كونت سان جيل (٢٦) (صنجيل) وذلك لعدة أسباب ، منها أنه كان عالي الثقافة ، وله سمعة ممتازة ، وحياة نقية ، ثم لمعرفة الامبراطور الواضحة للمدى الواسع الذي قد ريموند به الصدق ، فقد كان في جميع الظروف والأحوال يحترم الصدق ، ويقدره فوق كل شيء آخر ، وفي الحقيقة بز صنجيل جميع اللاتين ، وفاقهم بجميع الصفات ، وكان بالنسبة لهم كالشمس بالنسبة للنجوم ، ولهذا احتفظ به الكسيوس بعض الوقت ، وهكذا كان بعدما ودعه الآخرون ، وشرعوا برحلتهم بعبور المضائق إلى باماليون (٢٧) . وعندما وجد نفسه وقد تحررت من مضايقات وجوبهم بعث يستدعيه في عدة مناسبات وأوضح له بشكل أكثر تفصيلا لون المخاطر التي على الفرنجة توقعها أثناء زحفهم ، وبين له بكل وضوح شكوكه حول خططهم ، وفتح أثناء هذه المحادثات ، حول هذا الموضوع ، قلبه للكونت ، وأطلعته على خبيثة نفسه ، وحذره دائما وأبدا من بوهيموند ، وطلب منه أن يبقى يقظا تجاه أضياله حتى إذا ما حاول أن يخرق المعاهدة يمكنه تعويقه وتعطيل خطته ، وأوضح صنجيل بدوره أن بوهيموند قد ورث المكر والخداع عن أبائه - وذلك كله نوع من الوراثة - وقال : « إنه سيكون نمطا من المعجزات إذا احتفظ بوهيموند بأيمانه ، أما بالنسبة لي فإنني سأبذل جهدي وأفعل كل ما يمكنني فعله لمراعاة أوامرك » ، وقام بعد هذا بتوديع الامبراطور ، وذهب بغية الالتحاق ببقية جيوش الفرنجة (٢٨) .

وكان الكسيوس يرغب بدوره في المشاركة أيضا في الحملة ضد البرابرة ، لكنه خشي من الأعداء الهائلة للفرنجة ، ورأى أنه من الحكمة أن ينتقل إلى بيليكانيوم ، ليقوم مركز قيادته الدائم على مقربة من نيقية (٢٩) حيث يمكنه الحصول على معلومات متواترة بلا

انقطاع حول مسيرة زحف الفرنجة وفي الوقت نفسه حول نشاط التركمان خارج هذه المدينة [نيقية] وحول أوضاع السكان و أحوالهم في داخلها ، ورأى أنه من العار بالنسبة له إذا لم ينل - في هذه الظروف - بعض النجاحات العسكرية ، وذلك عندما تحين الفرصة ، و خطط للاستيلاء على نيقية بنفسه ، وكان يفضل أن يتم ذلك بتسليمها من الفرنجة (تبعاً لشروط الاتفاقية التي أبرمت معهم) ، وقد احتفظ الامبراطور بهذه النية لنفسه ، وكان ذلك معروفاً من قبله فقط في جميع الأحوال والأوضاع ومهما كانت الأسباب ، كل هذا على الرغم من انه عهد بهذه المهمة الى بوتومايتز (موضع ثقته الوحيد) وقد أوعز إلى بوتومايتز بأن يعمل على استمالة البرابرة في نيقية إليه ، بمختلف الوعود والمواثيق بتأمينهم على أنفسهم ، وبإعلامهم أنه ليس أمامهم سوى هذا المخرج ، أو التعرض للتشتت أو حتى للهلاك والقتل - إذا ما تسلم الفرنجة المدينة - وكان الامبراطور واثقاً تمام الثقة باخلاص بوتومايتز ، وكان يعرف أنه في مثل هذه الحالات سيبذل جميع جهوده .

إن تاريخ الوقائع التالية سيتم عرضه بشكل متسلسل منذ البداية .

والتقى بوهموند ببقية الأمراء وتجمعوا في مكان واحد عزموا على الإبحار منه إلى كيبوتوز ، وانتظروا جميعاً معهم غودفري وصول صنجيل ، الذي كان قادماً بصحبة الامبراطور ، وتقرر الآن ، وقد اتحدت قواهم جميعاً ، أخذ الطريق نحو نيقية ، وكانت أعدادهم كبيرة جداً ، لذلك تعذر الانتظار مدة أطول لنقص المؤن ، ولهذا وزعوا جيوشهم الى قسمين : قسم زحف عبر بيثينيا ونيقوميديا نحو نيقية ، وعبر القسم الآخر المضيق إلى كيبوتوز ، وتجمعوا في تلك البقعة فيما بعد ، ولما وصلوا إلى نيقية على هذا الشكل ، انقسموا إلى مجموعات ، عهد إلى كل منها بالزحف والدخول بالقتال ، وقامت الفكرة على أساس الهجوم على الأسوار حسب هذه المجموعات بالتناوب ، ذلك أن التنافس بين الفرق

المختلفة سيكون كبيرا ، وسيباشر الحصار بشدة اكبر ونشاط اعظم ، وتركت البقعة التي جعلت من نصيب صنجيل خاوية حتى ساعة وصوله .

ووصل في تلك الاثناء الامبراطور الى بيليكاتوم ، وعينه على نيقية (كما سبق لي واوضحت) وبعث البرابرة - في الوقت نفسه - من داخل المدينة بالرسائل المتوالية الى السلطان (٣٠) يسألونه النجدة ، لكنه ظل حيث هو يضيق الوقت ، ومضى الحصار ، واستمر لأيام عديدة ، وامتد من شروق الشمس حتى مغيبها ، وصارت احوال (التركمان) قاسية جدا ، وتوقفوا عن القتال ، وقرروا انه خيرا لهم الاتفاق مع الامبراطور من الوقوع بيد الفرنجة ، وفي ضوء هذه الأوضاع ، استدعوا اليهم بوتومايتز ، الذي وعدهم ، عبر سيل غير منقطع من الرسائل بأن هذا الشرط او ذاك الامان المرغوب به ، سمنحهم اياه الامبراطور اذا ما وافقوا على التسليم له دون سواه ، كما افصح لهم الآن بتفاصيل اكبر عن نوايا الامبراطور الطيبة تجاههم ، وقدم لهم عهدا مكتوبا ، ولهذا استقبل اثر هذا من قبل التركمان استقبالا طيبا ، ذلك انهم كانوا في حالة قنوط في وقفتهم ضد قوة عدوهم الطاغية ، وراوا من الحكمة ان يتنازلوا طواعية للامبراطور اليكسيوس ، وينالوا منحه وهداياه بمعاملة مشرفة ، من ان يصبحوا ضحايا للحرب من غير هدف ، ولم يمض يومان على وجود بوتومايتز في ذلك المكان ، حتى وصل صنجيل عازما على الهجوم على الاسوار من غير تأخير ، وكان لديه معدات للحصار جاهزة لانجاز المهمة ، وانتشرت في الوقت نفسه العزيمة والشجاعة والامل في نفوس التركمان ثانية ، فاقدموا في الحال على طرد بوتومايتز .

اما مايتعلق بالسلطان فانه بعث بقسم من قواته لتراقب هجوم الفرنجة مع اوامر بقتالهم عند التقائهم بهم ، وجرى مشاهدتهم عن بعد من قبل رجال صنجيل ، وحدث اشتباك لكنه جاء سيئ النتائج بالنسبة للتركمان ، وذلك ان بقية الامراء مع بوهموند قام كل منهم

لدى سماعه بخبر الاشتباك باختبار مائتين من رجاله ، وبعثهم للانجاد ، وقد شكل هؤلاء جيشا معتبرا ، وفاجأ هؤلاء البرابرة وطاردوهم حتى حلول الظلام ، وكان السلطان بعيدا عن مسرح هذه الانتكاسة ، ومع هذا فعندما جاء صباح اليوم التالي كان على تعبئة كاملة هو وجميع اتباعه في المنبسط الكائن خارج أسوار نيقية ، وسمع الفرنجة بهذا ، فحملوا أسلحتهم وانقضوا على أعدائهم مثل الأسود ، وحدث قتال عنيف ومرير ، ومع أن القتال لم يكن حاسما بالنسبة لأحد الطرفين ، إلا أن التركمان لانوا بالفرار مع غياب الشمس ، وبهذا انتهى حلول الظلام القتال وسقط العديد من القتلى بين الطرفين ، وأصيب معظم المقاتلين بالجراح ، وهكذا ربح الفرنجة نصرا رائعا ، وحمل الفرنجة عددا كبيرا من رؤوس التركمان على أسنة رماحهم ، وعادوا بها وكأنها رايات محمولة فوق رؤوسهم ، حتى يراها البرابرة عن بعد ، بعد ما شاهدوا ما حدث ، وبذلك يحل الهلع في قلوبهم ، وتقل رغبتهم في متابعة القتال .

هذا ما كان بالنسبة لأفكار الفرنجة وأعمالهم ، ولقد لاحظ السلطان مدى عدد الفرنجة الكبير ، وأدرك بعد هذا الاشتباك مدى ثقتهم بأنفسهم وشجاعتهم ، لذلك أخبر التركمان داخل نيقية وقال لهم : « اعملوا منذ الآن وصاعدا ماترونه مناسبا » ، وكان يعرف مسبقا بأنهم كانوا يفضلون تسليم المدينة إلى الكسيوس من أن يقعوا أسرى في قبضة الفرنجة .

وفي هذه الأثناء كان صنجيل يقوم بالعمل على انجاز المهمة التي عهدت إليه ، فشرع ببناء برج خشبي مستدير الشكل مغطى من داخله وخارجه بجلود الأبقار ، ومملوء في وسطه بالممرات المتعرجة ، وعندما انتهى من تشييده قربه من برج غونتاز (٣١) ، وملا برجه المتحرك هذا بالعساكر الذين كان عليهم فتح ثلثة في السور ، ووضع فيه أيضا عددا من الاختصاصيين بفتح الأنفاق ، وكان معهم ادوات فولاذية للعمل على لغم السور من

الأسفل ، ففي الوقت الذي كان يشتبك فيه الجند الذين في الطبقة العليا من البرج الخشبي مع المدافعين على شرفات السور ، كان الذين في أسفل البرج الخشبي يعملون على اقتلاع حجارة السور ، وكانوا كلما اقتلعوا حجرة وضعوا مكانها عارضة من الخشب ، وجرت العادة ان يستمروا في عملهم هذا حتى اذا شعروا بأنهم خرقوا السور ، وذلك بمشاهدة شعاع من النور من الجانب الآخر ، فهنا كانوا يلقيون النار بين الأخشاب المدشوة ويحرقونها ، والذي حدث انهم بعدما أحرقوا الأخشاب بقي برج غونستاز أكثر تماسكا من ذي قبل ، محافظا بصموده هذا على شرف بانيه وسمعته أكثر من ذي قبل .

وكانت بقية أجزاء السور انذاك محاطة بطوق من كباش الخرق والديابات ففي مثل ملح البرق - كما يقال - كان الخندق الخارجي مردوما ، وقد ملئ بالتراب وصار مستويا على الطرفين ، وبذلك تمكنوا من متابعة الحصار على خير مايرام .

وحكم الامبراطور الذي اتيح له تفحص نيقية فحصا دقيقا في مناسبات عدة ، حكم بأنه من غير الممكن الاستيلاء عليها من قبل اللاتين ، مهما كانت اعدادهم كبيرة وقواهم طاغية ، وقام من جانبهم ببناء عدد من الآلات الواقية بأشكال عدة ، غير معروفة أو معتادة ، قام هو بتصميمها ، مما أدهش كل انسان ، وبعث بهذه الآلات الواقية الى امراء الفرنجة ، فهو كما سلفت الاشارة كان قد اجتاز المضائق مع قواته المتوفرة ، وكان معسكرا في بيليكانون على مقربة من ميسامبيلوي ، حيث بني في الايام الخوالي معبد كرس على اسم « جورج » الشهيد الكبير .

وكان لدى الكسيوس الرغبة في الذهاب برفقة الحملة ضد التركمان الكفار ، لكنه أقنع عن المشروع بعدما ناقش الموضوع وتمعن به ، ووازن بين الفوائد والمضار : فقد لاحظ ان الجيش الروماني لاحول له ولاطول ، صغير العدد بالمقارنة مع التعداد

الهائل لدشود الفرنجة ، وكان يعرف من طول التجربة كيف انه لا يمكن الوثوق بالفرنجة ، لانهم كانوا جميعا رجالا لا يعرفون الاستقرار ، الخيانة طبع لهم وتتقاذفهم هنا وهناك مثل تيار يوربيوس (٣٢) من غاية الى غاية اخرى ، ولحبهم للمال وجشعهم كانوا دائما على استعداد لبيع زوجاتهم واطفالهم حتى اخرهم .

ان هذه النوعية من الاسباب هي التي منعتهم من المشاركة في الحملة ، ومع هذا وعلى الرغم من انه وجد ان حضوره ليس مناسباً ، فانه قدم كل مايمكن من المساعدات للفرنجة ، كما لو انه كان معهم فعلاً ، وجعلت متانة اسوار نيقية الامبراطور يتأكد ان المدينة لا يمكن قهرها ، وان اللاتين لا يمكنهم الاستيلاء عليها ، ولدى سماعه بتقارير فيها ان السلطان كان يقوم بادخال قوات كبيرة الى المدينة ، مع امدادات الاطعمة عبر البحيرة (٣٣) ، من غير أية صعوبات ، وان حركة الذهب والاياب الى المدينة مستمرة ، قرر السيطرة على البحيرة والتحكم بها ، فأمر ببناء قوارب خفيفة قادرة على العوم فوق مائها ، وحملت هذه القوارب على ناقلات ، ثم القيت في اليم من جانب كيوس ، وشحنت بالجند بكامل اسلحتهم تحت إمرة مانويل بوتومايتز ، واعطاهم عددا من الرايات اكبر من المعتاد كي يبدوا من بعد وكأنهم اكثر عددا مما هم عليه حقيقة ، وهذا ما فعله ايضا بالنسبة لاعداد الأبواق والطبول .

ثم صرف بعد هذا اهتمامه نحو البر فبعث بكل من تاسيوس وزخاس (٣٤) مع قوة مقدارها الفان من الرماة ، ووجههم نحو نيقية ، وكانت الأوامر الصادرة اليهما جمع كل مالديهما من نشاب وحمله على ظهور البغال ليقوموا بالاستيلاء على حصن القديس جورج ، وكان على العساكر ان يترجلوا من على خيولهم على مسافة مناسبة من اسوار نيقية ، ثم الزحف على اقدامهم نحو برج غولتاز ليتخذوا مواقعهم هناك ، وينضموا بعد ذلك الى صفوف اللاتين و العمل تحت أوامرهم في الهجوم على الاسوار .

ونفذ تاسيتوس الأوامر ، وأخبر الفرنجة بـوصوله مع جيشه ، حيث لبس كل واحد منهم درعه ، وهجموا وأصواتهم مرتفعة تردد شعارات القتال ، وأطلق رجال تاسيتوس رشقات غزيرة من الذناب نحو الأسوار ، بينما تابع الفرنجة العمل لفتح ثلثة في الأسوار ، واستمروا في قذفها بالحجارة من مناجيقهم .

وأصيب العدو بالهلع لدى رؤيته الأعلام الامبراطورية والأبواق ، التي كانت مع بوتومايتز الذي اختار تلك اللحظة لاختبار التركمان بوعود الامبراطور ، وضاق الحال بالبرابرة الى حد أنهم لم يعودوا يتجروون على النظر الخاطف من أعالي نيقية ، وفقدوا جميع الآمال بوصول السلطان ، لذلك قرروا أنه من الأفضل تسليم المدينة ، والشروع بالمفاوضات من أجل ذلك مع بوتومايتز وقام بوتومايتز ، بعد تقديم التحيات المعتادة ، باطلاعهم على صك الأمان الذي حمّله إياه الكسيوس حيث لم يمنحوا فيه بوعود الأمان على أرواحهم والعفو عنهم فحسب ، بل بجوائز مجزية وأعطيات سخية من المال ، وبمعاملة مشرفة لكل من اخت السلطان وزوجته (٣٥) ، وكانت هذه الوعود والأعطيات ستمنح الى جميع البرابرة في نيقية من غير استثناء.

وبناء على وثوق أهل المدينة بوعود الامبراطور ، سمحوا لبوتومايتز بالدخول اليها ، وما ان فعل ذلك حتى بعث برسالة الى تاسيتوس يقول فيها : « الفريسة هي الآن بأيدينا ، ينبغي الاعداد لتسليق الأسوار ، ويجب اشراك الفرنجة بهذه المهمة ايضا ، لكن لاتدع لهم شيئا سوى القتال حول الشرافات ، طوق المدينة من جميع الجهات حسب الضرورة ، وابدا عملك مع شروق الشمس » .

وكان هذا في الحقيقة نوعا من التمويه والخداع ، لجعل الفرنجة يعتقدون بأن المدينة قد سقطت الى بوتومايتز من خلال أعمال القتال ، وكانت عملية الخداع المثيرة هذه ، التي خطط لها الكسيوس بكل عناية ، تحتاج الى تغطية وسستر ، وكانت رغباته

تقضي بالآلا يعلم الفرنجة بأمر المباحثات التي كان يجريها

بوتومايتز ، ومع اشراقة شمس صباح اليوم التالي ، دوى نفيير
المعركة من الجانبين من خارج المدينة حيث الفرنجة الذين اندفعوا
بشدة في عملية الحصار ، ومن داخل المدينة حيث الفرنجة الذين
اندفعوا بشدة في عملية الحصار ، ومن داخل المدينة حيث
بوتومايتز ، وقد ارتقى أعالي السور ، ووضع هناك الصولجان
والعلم الامبراطوريين ، وأعلن سقوط المدينة بواسطة البوق
والنفيير ، ودخلت القوات الرومانية - بهذه الوسيلة - جميعها الى
نيقية ، ومع هذا ، وبناء على المعرفة التامة بقوة الفرنجة
الكبيرة ، وبطباعهم القاسية وسرعة اثارتهم وتقلبهم ، فقد قدر
بوتومايتز أنه قد يتيسر لهم الاستيلاء على الحصن اذا ما حصلوا في
داخل المدينة ، يضاف الى هذا ان رجال الحامية التركمانية كانوا
قادرين - اذا ما رغبوا - على تقييد رجال قواته بالسلاسل
وقتلهم ، ذلك ان اعدادهم ، بالمقارنة مع اعداد الرومان ، كانت
أكبر بكثير ، لهذا سارع فاستحوذ على مفاتيح باب المدينة
الوحيد ، فقد وجد انذاك باب واحد مفتوح لدخول الناس
 وخروجهم ، وكانت بقية الأبواب مغلقة خشية من الفرنجة الذين
كانوا وراء الأسوار ، والآن وقد تملك مقاليد هذا الباب
الوحيد ، قرر على الفور انقاص تعداد قادة الحامية التركمانية ، في
سبيل تجنب وقوع كارثة كبرى ، لذلك استدعاهم اليه ، وأشار
عليهم بزيارة الامبراطور ، وذلك اذا كانوا يرغبون بتسليم كميات
كبيرة من المال منه ، وأن يخلع عليهم ، وأن تسجل اسمائهم في
قائمة الاعطيات السنوية .

واقترح التركمان بهذا ، وفتحت البوابة في الليل ، واندفعوا منها
جماعات جماعات مابين كل جماعة وأخرى بعض الوقت ، ليأخذوا
عبر البحيرة المجاورة الى رودمير (البلغاري - ابن خالي) والى
قوة موناستراس - النصف بيزنطي - التي كانت متمركزة في
حصن القديس جورج ، وقضت أوامر بوتومايتز بأن يتم توجيهه

القادة التركمان مباشرة نحو الامبراطور ، فور وصولهم ودون أي تأخير خشية أن يجتمع تركمان مجموعة مامع تركمان مجموعة أخرى ثم سواها ممن جاء بعدها ، فيتآمروا للاحاق ضرر بالروم ، ولاشك ان هذا التدبير الحكيم ، يعود الى طول خبرة الرجل ، فما دام القادمون الجدد يرسلون فورا الى الكسيوس كان الروم في امان ، وليسوا معرضين لأي خطر مهما كان نوعه ، لكن عندما تغاضى رودمير ، وتقاعس موناستراس ، وتغافلا تعرض كل منهما للمخاطر من البرابرة الذين ابقوهم لديهم ، فلدى ازدياد تعداد التركمان خططوا للقيام بأحد عمليتين: إما مهاجمة الروم وقتلهم ، أو اخذهم أسرى ، وحملهم الى السلطان ، وهذا ما اتفقوا عليه بصورة جماعية ، وأن هذه هي الفكرة الأكثر صوابا ، فهاجموهم ليلا ، واخذوهم أسرى ، واتجهوا بهم نحو قمة تل يدعى تل ازالا (٣٦) على بعد ثلاثمائة ذراع من أسوار نيقية ، وعندما وجدوا انفسهم قد وصلوا الى هناك ، ترجلوا لراحة خيولهم ، ولما كان موناستراس نصف بيزنطي ، ويفهم لغة التركمان ، وكذلك رودمير ، فقد سبق له أن وقع أسيرا بيد التركمان منذ زمن طويل ، لذلك لم يكن غريبا على اللغة التركية ، وقد حاولا بكل ما اوتيا من قوة أن يقنعا اسريهم بالحاجة قائلين: لماذا تريدون سقينا كأس الحمام ، دون أن تنالوا من ذلك أية فائدة لانفسكم ، وذلك في الوقت الذي يتمتع فيه الآخرون جميعا من غير تمييز ، بالجوائز العظيمة من الامبراطور ، وسجلت اسمائهم في قائمة الاعطيات السنوية ، انتم ستحرمون انفسكم من جميع هذه الفوائد والمزايا ، فكروا الآن بالأمر ولا تكونوا حمقى ، خاصة وأنه بإمكانكم أن تعيشوا بأمان من غير أن يتدخل احد بشؤون حياتكم ، وأن تعودوا الى اوطانكم مثقلين بالثروات ، كما يمكنكم استحواذ اراضي جديدة ، لاتلقوا بانفسكم بمثل هذه المخاطر المؤكدة فلربما ستواجهون الروم في مكانهم هناك - مشيرين الى الجداول الهابطة من الجبال ، ومنطقة المستنقعات - وإذا كنتم تودون أن تقتلوا انفسكم ، وتفقدوا حياتكم مقابل لا شيء ، فهناك الاف من

الرجال ينتظرونكم ، ليس من الفرنجة والبرابرة فحسب ، بل من
حشود الروم .

والآن إذا وددتم سماع نصــــيحتنا ، أديروا رؤوس
خيولكم ، وتعالوا معنا الى الامبراطور ، ونحن نقسم بالله ، والله
على ما نقول شهيد ، ستنالون جوائز لا عد لها ولا حصر من بين
يديه ، ثم عندما تريدون مغادرته ، يمكنكم ذلك في اي وقت ، دون أن
يعيقكم عائق ، فأنتم رجال أحرار ، وأقنعت هذه الحجج
التركمان ، وتم تبادل الايمان والعهد بين الطرفين ، حيث انطلقا
نحو الكسيوس ولدى وصولهم الى بيليكانوم ، استقبلوا جميعا
بابتسامة مشرقة (مع انه كان – في الحقيقة غاضبا على رودمير
وموناستراس) ، وأرسلا ساعته للراحة ، وفي اليوم
التالي ، تسلم جميع التركمان – الذين رغبوا في العمل في
خدمته – اعطيات كثيرة ، وأما الذين رغبوا بالالتحاق
بأوطانهم ، فقد تركوا ورغباتهم ، وهم أيضا لم يسافروا بجوائز
قليلة ، وانتقد فيما بعد الكسيوس بشكل حاد كل من رودمير
وموناستراس لغفلتها ، لكنه عندما لاحظ مقدار خجلهما ، غير
موقفه نحوهما ، وأظهر عفوه ببعض كلمات الارضاء والمصالحة.

ولنعد الآن الى بوتومايتز ، فقد رماه الامبراطور وعينه دوقا على
نيقية ، وبعدها فعل ذلك ، سأل الفرنجة أن يأذن لهم بالدخول الى
المدينة ، تلك أنهم رغبوا بزيارة الكنائس المقدسة هناك ، والتعبد
بها ، وكان بوتومايتز – كما اشرت من قبل – يلم تمام اللام
بأحوال الفرنجة ، ويدرك أوضاعهم ، لذلك رفض السماح لهم
بالزيارة جميعا دفعة واحدة ، و اكتفى بفتح الباب والسماح بالزيارة
لجماعات يتألف كل منها من عشرة.

وكان الامبراطور ما يزال في احوال بيليكانيوم ، كما كان يود أن
يقوم الأمراء الذين لم يؤدوا قسم الولاء له بعد ، بتأدية ذلك
شخصيا ، وكتب تعليماته حول ذلك وبعث بها الى بوتومايتز لينصح

الأمراء بعدم السفر نحو أنطاكية قبل تقديم الولاء للامبراطور ، وأن ذلك سيكون فرصة لتلقي هدايا أعظم ، ولدى السماع باسم المال والهدايا كان بوهيموند أول من أطاع نصائح بوتومايتز ، وتشاور في الحال معهم من أجل الرجوع ، فهو - أي بوهيموند - كان فيه جشع كبير للمال وشره بلا حدود.

واستقبلهم الامبراطور بحفاوة كبيرة وابهة ، وكان واسع النشاط في شرح ما ينفعهم ، ودعاهم - أخيرا - اليه ، وخاطبهم بقوله: « تذكروا اليمين الذي أقسمتموه لي ، وإذا كنتم فعلا لا ترغبون الحنث به ولا تنوون ، انصحوا كل واحد ممن تعرفونه ، لم يأخذ على نفسه القسم بعد ، أن يعجل بالقيام بذلك ، واستجابوا له ، فأرسلوا بالحال وراء هؤلاء الرجال ، الذين استجابوا جميعا وأدوا يمين الولاء فيما عدا تانكرد ، ابن أخت بوهيموند - فقد كان رجلا له روح استقلالية ، يتفأخر بأن في عنقه ولاء رجل واحد ، هو بوهيموند ، وهو يأمل بالاحتفاظ بهذا الولاء حتى يوم موته ، وتعرض تانكرد لضغط الآخرين ، بما فيهم أقرباء الامبراطور ، لكن من غير فائدة ، فقد ركز نظره على السراق الذي جالس فيه الامبراطور لأكرام الأمراء (وهو سراق لم ير أحد واحدا باتساعه) وقال: « لو ملأتم هذا السراق مالا وأعطيتموه لي مع جميع المبالغ التي أعطيت الى بقية الأمراء ، عندها فقط يمكن أن أقسم يمين الولاء و هنا قام باليلوغوس وقد ضاق ذرعا بما تعرض له الامبراطور ولم يتحمل عريسته وتبجحاته ، فقام بدفعه بحنق ، وانقض تانكرد عليه مغضبا ، مما حمل الكسيوس على النهوض من على عرشه ، وسبب تدخل بوهيموند ، حيث قام بتهدة تانكرد مخبرا اياه بأنه كان من الخطأ أن يتصرف هكذا في حضرة الامبراطور من غير مراعاة له ، وخجل تانكرد من فعلته ، وبدأ كأنه رجل مخمور أفقده السكر وعيه وتوازنه أمام باليلوغوس ، وسبب هذا ، مع مناقشات الآخرين اقناعه ، وحمله على أخذ يمين الولاء للامبراطور.

وعندما انصرف الجميع من حضرة الامبراطور ، أمر الكسيوس تاتيشوس (وكان آنذاك قائدا عالي المرتبة) وأوعز الى القوات التي كانت تحت قيادته ، بالالتحاق بالفرنجة ، وكانت مهمة تاتيشوس مساعدتهم وحمايتهم في كل مناسبة ، وأن يتسلم منهم كل مدينة يستولوا عليها ، إذا ما يسر الرب لهم ذلك.

واستأنف الفرنجة زحفهم ثانية ، في اليوم التالي باتجاه أنطاكية ، ورأى الكسيوس أنه ليس من الضرورة أن يذهب جميع الفرنجة برفقة الأمراء ، ولهذا أشار على بوتومايتز أن يقوم باستئجار جميع المتخلفين ، ليستخدمهم في حماية نيقية ، ووصل تاتيشوس ومعه قواته وجميع الأمراء وبصحبتهم حشودهم التي لا تحصى الى ليوكاي في مدة يومين ، وهنا أصبح بوهموند - بناء على طلبه - مسؤولا عن قيادة طلائع القوات ، بينما زحف البقية في رتل واحد ببطء ، وعندما رأى التركمان بوهموند يزحف بشيء من السرعة فوق سهل دوريليوم (٣٧) خيل اليهم أن الفرصة قد تهيأت لهم لضرب جيش الفرنجة ، وانقضوا عليه فورا غير عابئين به.

ونسى لاتينوس ، ذلك الاحمق البليد ، الذي تجرأ على الجلوس على العرش الامبراطوري ، نسى نصائح الامبراطور ، وركب بكل تهور وحماقة امام البقية (كان على طرف صفوف قوات بوهموند) ، وقد قتل أربعون من أتباعه ، وأصيب هو نفسه بجرح بليغ ، وقد فر من المعركة ، وعاد مسرعا الى وسط الجيش ، وكان عمله هذا شهادة ملموسة على حكمه الكسيوس وصحة أرائه ، لكنه لم يعترف بذلك بكلماته ، وعندما رأى بوهموند شدة هجوم التركمان ، أرسل يطلب النجدة ، ووصلت اليه النجدة بسرعة ، وغدت الملحمة منذ تلك الساعة قتالا محموما مريرا ، وقد انتهى ذلك القتال العنيف بنصر الروم والفرنجة.

وجرى بعد هذا متابعة الزحف ، إنما روعي الآن أن تكون كل فرقة على اتصال بالفرقة الأخرى ، وقد التقوا عند هرقلية بالسلطان

« تنيسمان وحسن (٢٨) » وكان يقود بمفرده ثمانين ألفا من الرجال كل منهم شاكى السلاح ، ووقع قتال شديد بين التركمان والفرنجة ، ليس بسبب الأعداد الكبيرة التي تورطت بالقتال فحسب ، بل لثبات كلا الطرفين وصبرهما ، وكان التركمان يقاتلون باندفاع شديد ، وفي المقابل كان بوهيموند يقود ميمنة الفرنجة ، ولما لاحظ هذا الوضع ، انفصل عن بقية الجيش ، واندفع منقضا على قلج أرسلان « مثل أسد كان يجرب قوته كلها » - حسب قول الشاعر (٣٩) - ، وكان لهذا تأثير مريع على الأعداء ، فلانوا بالفرار ، وتذكر الفرنجة وصايا الامبراطور ، فلم يقوموا بمطاردة الأعداء بعيدا ، بل احتلوا خندق التركمان واستراحوا هناك لوقت قصير ، ثم اصطدموا ثانية بالتركمان على مقربة من أغوستوبولس ، واشتبكوا معهم ، وهزمهم مجددا بشكل ساحق ، واختفى إثر هذا البرابرة ، وتفرق الناجون منهم من القتال في جميع الاتجاهات ، ولاحظ بالنسبة للمستقبل أنه لم يعد لديهم القدرة حتى على النظر الى وجوه اللاتين .

وتسأل عما حدث بعد هذا ، الذي حدث أن اللاتين مع الرومان وصلوا الى أنطاكية عبر ما يدعى « الطريق السريع » وقد تجاهلوا المنطقة على الجانبين وأهملوها ، وقاموا بحفر حفرة كبيرة ، على مقربة من أسوار المدينة ، وأودعوا فيها أوعيتهم وحاجياتهم ، ثم بدأ حصار أنطاكية ، واستمر هذا الحصار لمدة ثلاثة أشهر قمرية (٤٠) ، وضاق التركمان بالأحوال الصعبة التي وجدوا أنفسهم فيها . وبعثوا برسالة الى سلطان خراسان يطلبون منه انجادهم بما يلزم من الرجال لمساعدتهم في الدفاع عن أهل أنطاكية ، وطرد المهاجمين اللاتين المتولين لحصارهم ، وحدث أن كان واحد من الأرمن (٤١) مسؤولا عن واحد من أبراج المدينة ويتولى شؤون الدفاع عن جزء من السور كان قد عهد الى بوهيموند بمهاجمته ، واعتاد هذا الرجل على الانحناء من فسوق السور ، وتمكن بوهيموند عن طريق لطيف العبارات والاطراء والوعود الخلافة والضمانات ، أن يقنعه بتسليم البلد اليه ، ووعده

الأرميني بقوله : « متى وددت ، أعطني من الخارج إشارة سرية ، وأنا سأتخلى لك حالا عن هذا البرج الصغير ، وما عليك الا التأكد من استعدادك ، وكذلك جميع الرجال الذين في خدمتك ، وهيء السلالم واجعلها جاهزة للاستخدام ولا تكن وحدك مستعدا ، بل جسيع رجالك وهم في السلاح الكامل ، حتى عندما يراكم التركمان على سطح البرج ، وانتم تصرخون صرخات حربكم ، فإنهم سيفرون هلعين . »

واحتفظ بوهيموند بخبر هذه الاعدادات لنفسه ، ووصل والاحوال على ماهي عليه رجل يحمل أخبارا فيها بأن قوات كبيرة من المسلمين ، حان وقت وصولها قادمة من خراسان ، وأنها ستحارب الفرنجة ، واسم قائدها كربوقا (أمير الموصل) .

وعلم بوهيموند بهذا ، ولما كان لا يرغب بتسليم انطاكية الى تاتيشوس (كما كان يفترض عليه أن يعمل لو أراد الا يحدث بأيامانه للامبراطور) ويريدها لنفسه ، فقد أبدع خطة شيطانية لابعاد تاتيشوس طواعية من قبل نفسه ، فقد دنا منه وقال : « بودي أن أبوح لك بسر ، لأنني أجد نفسي مسؤولا عن سلامتك ، لقد وصل تقرير مزعج جدا الى مسامع الأمراء ، بأن السلطان بعث بهؤلاء الرجال من خراسان ضدنا ، بناء على طلب من الامبراطور ، ويعتقد الأمراء بصحة هذه الرواية ، وهم لهذا يتآمرون لقتلك ، والآن لقد قمت بما هو متوجب علي لتحذيرك ، إن الخطر وشيك ، والبقية عليك ، فاختر ماتراه مفيدا لك ، وفكر بأمر حياتك وحياة رجالك . »

وكان تاتيشوس يواجه مصاعب أخرى غير هذه ، فقد كانت هنالك مجاعة كبيرة (بيع رأس الثور بثلاث قطع ذهبية) وكان يائسا من الاستيلاء على انطاكية ، لذلك غادر المنطقة ، وركب هو

ورجاله الرهمان السفن الراسية في مرفأ السويدية ، وأبحر الى قبرص.

و بعد مغادرته ، ظل بوهيموند محتفظا بسر وعد أنطاكية له ، و كان يخفي بنفسه أمالا كبيرة ، بالاحتفاظ بحكم أنطاكية لنفسه ، لذلك توجه الى الأمراء بقوله : « انكم ترون كم من الوقت امضيينا بين هذه الرزايا ، وحتى الآن لم ننل نجاحا ما ، والمتبقي هو الاسوا ، فقد نصبح عما قليل ضحايا للمجاعة ، مالم نعمل شيئا مفيدا يضمن سلامتنا » وعندما سأله : ماذا تقترح ؟ تابع كلامه قائلا : « لم يهب الله الانتصارات جميعها عن طريق السيف ، ولم يتم الوصول الى مثل هذه النتائج دائما من خلال المعركة ، فالذي لم يتم الحصول عليه من خلال الكفاح ، غالبا ماتم الحصول عليه بيسر من خلال المباحثات ، فغالبا ما أعطت التحركات الدبلوماسية مراحب افضل ، وعندي انه لمن الخطأ اضاءة الوقت من غير هدف ، علينا الاسراع للعمل على ايجاد طريقة معقولة و شجاعة ننقذ بها أنفسنا قبل وصول كربوقا ، وأنا اقترح ان يبذل كل منا المستطاع من مجهوده كيما يكسب او يستميل اليه واحدا من البرابرة القائمين على الحراسة ، وليجرب ذلك كل واحد منا في قطاعه ، واذا وافقتم على هذا ، فلتكن جائزة أول رجل ينجح في هذا السبيل ، ان يصبح حاكما للمدينة - أعني حتى وصول الرجل الذي سيعينه الامبراطور ليتسلمها منا ، وبالطبع من الممكن ان كل هذا لن يفيدنا في شيء » .

ذلك ان بوهيموند الذي تعشق السلطان ، وأحب السلطة ، أحب ذلك لنفسه فقط ولصنع الأمجاد لها ، وليس لمصالح اللاتين ومنفعتهم العامة ، ولم تخفق خططه ومؤامراته وأعمال خداعه ، ونشر اخبار قصة ماحدث يوضح ذلك :

فقد وافق الأمراء بالاجماع على خطته وانطلقوا نحو العمل ، ومع انبلاج نور الصباح مضى بوهيموند في الحال نحو ذلك البرج (٤٢) ، وقام الأرمني بتنفيذ الاتفاق ففتح الأبواب ، ومكن منه

بوهيموند ، فقفز الأخير بكل سرعة ونشاط يتبعه أصحابه ، وصعدوا الى قمة البرج بما أمكن من سرعة ، ورأى المهاجمون الفرنجة والمحاصرون التركمان كل من جانبه بوهيموند واقفا هناك على شرفة البرج ، وهو يأمر النفاار بضرب نفير المعركة .

لقد كان مشهدا خارقا للعادة ، فقد أصاب الهلع التركمان فتوقفوا عن القتال ، وفروا عبر الأبواب يذشدون السلامة خارج المدينة ، محاولين النجاة بدشاشة انفسهم ، وبقي هناك فقط حفنة من الرجال الشجعان في حراسة القلعة والدفاع عنها .

واقتفى الفرنجة خارج المدينة خطا بوهيموند فتسلقوا الاسوار بواسطة السلالم ، وتمكنوا بسرعة متناهية من الاستيلاء على المدينة ، وفي الوقت نفسه ، لم يضع تانكرد فرصته فقام على رأس فرقة كبيرة من الفرنجة بمطاردة الفارين من التركمان ، حيث قتل وجرح أعدادا كبيرة منهم ، وهكذا عندما وصل كربوغا على رأس الوفة المؤلفة من العساكر ، وجد الموقع قد سقط لتوه للأعداء ، فقام بحفر خندق أودع فيه معداته ، وأقام معسكره ، واستعد لحصار المدينة ، إنما قبل ان يبدأ الحصار ، قام الفرنجة بعدة اغارات ووقعت عدة معارك شديدة انتصر فيها التركمان ، فاضطر الفرنجة إثرها الى البقاء وراء ابواب المدينة معرضين للمخاطر من جهتين : من المدافعين عن القلعة (فالبرابرة ظلوا مسيطرين عليها) ومن التركمان من وراء الاسوار .

ومن جديد توجه بوهيموند ، الذي كان رجلا بأسارعا يرغب أولا وقبل كل شيء في تأمين حكم انطاكية لنفسه ، توجه بالخطاب الى الأمراء قائلا : « لا يصح أن يقاتل جميع الرجال على جبهتين ، اي يقاتلوا هم أنفسهم ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل في الوقت نفسه ، ينبغي علينا أن نقسم قواتنا الى قسمين غير متساويين ، لكن متعادلين مع الأعداء الذين يوجهونا ، ومن ثم

نشرع بالقتال ضدهم ، ستكون وظيفتي القتال ضد المدافعين عن القلعة ، هذا اذا وافقتم على ذلك ، وستكون مهام البقية التكفل بالتصدي للعدو من الخارج ، ومهاجمته بشكل عنيف.

ووافق الجميع على فكرة بوهيموند ، وقام هو على الفور ببناء سور مقابل للقلعة ، وبذلك عزلها تماما عن بقية انطاكية ، وعندما اكتمل بناؤه ، تحول هذا السور إلى خط حربي فعال ، وانذاك غدا بوهيموند أشبه بالمتحكم بها ، وراقبها بشكل مستمر من غير راحة ، واستمر يضغط بشدة على المدافعين عنها مستخدما كل وسيلة ممكنة ، وقد حارب بكل شجاعة ، واهتم كل واحد من بقية الأمراء اهتماما شديدا بالقطاع الذي عهد به إليه ، فدافعوا عن المدينة من جميع الجهات وتفحصوا الدفاعات وشرافات الأسوار للتأكد من أن البرابرة في الخارج لن يتمكنوا من تسلق الأسوار بوساطة السلالم ، وبالتالي لن يستطيعوا الاستيلاء على المدينة ، كما أنهم بعملهم هذا حالوا بين أي إنسان وبين الصعود إلى الأسوار من الداخل للاتصال بالأعداء ، والاعداد لعمل خياني .

وبينما كانت هذه الأمور جارية في انطاكية ، اهتم الامبراطور شخصيا بتأمين المساعدات للفرنجة ، لكن النهب التام الذي لحق بالمدن الساحلية والمناطق المجاورة لها اعاقه على الرغم من تلهفه الشديد ، فزاخاس كان قد استولى على سميرنا (٤٣) ، وجعلها كما لو كانت من املاكه الخاصة ، واحتجز تنجري بيرمرس (٤٤) مدينة افسوس (٤٥) القريبة من البحر ، والتي بني فيها فيما مضى كنيسة كرسى على اسم الرسول يوحنا عليه السلام ، واستولى الأمراء التركمان واحدا تلو الآخر على المراكز الحصينة ، وعاملوا المسيحيين معاملة العبيد ، ونهبوا كل شيء حتى إنهم استولوا على جزيرتي خيوس ورودس (في الحقيقة على بقية الجزر أيضا) وبناوا هناك عددا من سفن القرصنة ، ونتيجة لهذا رأى الامبراطور ضرورة الاهتمام أولا بالجانب البحري ، والتعجيل بمعالجة مسألة زاخاس ، وعليه قرر أن يركز قوة مناسبة على اليابسة مع اسطول

قوي ، وعهد إلى هذه القوى بمهمة ضد البرابرة ، ومنعهم من شن الغارات ، وكان - في الوقت نفسه - سيقوم هو بنفسه بقيادة بقية قواته نحو انطاكية ، حيث سيقا تل التركمان على الطريق كلما تهيأ له ذلك ، وقام باستدعاء جون دوقاس - أخي زوجته - وعهد إليه بقيادة القوات التي حشرت من مختلف المناطق ، مع ما يكفي من السفن ، ليقوم بحصار المدن الساحلية ، وإعطاه زاخاس التي كانت قد وقعت بين الأسرى الذين وجدوا في ذلك الحين في نيقية ، وكانت الأوامر المعطاة إلى جون تقضي بأن يعلن على الملأ ، خبر الاستيلاء على نيقية ، وإذا لم يتم تصديقه ، يقوم بعرض السيدة التركمانية أمام أمراء التركمان والبرابرة الذين كانوا يعيشون في المناطق الساحلية ، وقد رجا من وراء عمله هذا ، أن يصدق الأمراء الذين كانوا مسيطرين على المناطق المذكورة ، عندما يرونها بأن المدينة قد سقطت فعلا ، وسيقومون بالتسليم من غير قتال ، بل من باب اليأس وانقطاع الأمل ، وهكذا توجه جون مزودا بشكل جيد بجميع أنواع المؤن ، هذا وسأبين فيما يلي عدد انتصاراته التي حازها في حروبه ضد زاخاس ، وسأقص أخباره وكيف تمكن من طرده من سميرنا .

وقام جون بوداع الامبراطور ، وغادر العاصمة ، وعبر عند أبيدوس ، وكان كاسياس قد جرى تعيينه قائدا للأسطول ، وعهد إليه بالشؤون البحرية العائدة للحملة ، وقد وعده جون بأنه إذا ما قاتل بشكل جيد ، سيقوم بتعيينه واليا على سميرنا نفسها (عندما يتم استردادها) مع جميع المناطق المجاورة لها ، وبينما أبحر كاسياس على رأس قواته البحرية ، بقي جون على اليابسة ، وقام بمماشاتة عن قرب ، وقد شهد أهالي سميرنا وصول كاسياس وجون معا ، وقام جون بضرب معسكره على مقربة من الأسوار ، بينما قام كاسياس بإرساء سفنه في الميناء ، وكان الناس في سميرنا يعرفون خبر سقوط نيقية ، ولم تكن لديهم رغبة في القتال ، وقد فضلوا الشروع بالمفاوضات في سبيل الصلح ، ووعدوا بالتخلي عن المدينة ، وبتسليمها إلى جون بدون حرب وسفك دماء . إذا ما أقسم

لهم بأنه سيدعهم يعودون إلى مواطنهم آمنين دون أن يتعرضوا لأذى ، ووافق دوقاس وأعطى وعده بأن مطالب زاخاس سيتمنذ كلها حرفيا ، وهكذا أدلى العدو سلما تسلقه كاسباس وبذلك غدا الحاكم الأعلى على سميرنا . ووقع في تلك الساعة حادث ، ساقوم الآن بروايته

عندما ترك كاسباس جون دوقاس ، جاء إليه واحد من أهالي سميرنا ، وتقدم إليه بشكوى ادعى فيها بأن واحدا من المسلمين السوريين قد سرق منه خمسمائة قطعة ذهبية ، وقرر كاسباس النظر في القضية ، وأمر أن يمثل الفريقان أمامه للمحاكمة ، وتم جر السوري جرا ، وجلب قسرا ، وبالقوة ، ولهذا خيل إليه أنه مأخوذ للاعدام ، فقام وهو يائس من الحياة باستلال خنجره وغرسه في بطن كاسباس ، ثم انعطف فطعن أخا الوالي في خاصرته ، وتبع هذا فوضى كبيرة ، وفر الرجل المسلم ، وهنا دخل بحارة الأسطول جميعا ، بما فيهم المجنحين ، المدينة بشكل فوضوي ، فذبخوا كل من وجبوه فيها من غير شفقة ، وإنه لمنظر مؤسف ، ففي غمضة عين ، تم قتل عشرة الاف .

وقد حزن جون دوقاس لمقتل كاسباس ، وقام مرة ثانية بصرف عنايته كلها ، لبعض الوقت ، لحل مشاكل سميرنا ، فدخل المدينة ، وتفحص دفاعاتها بشكل دقيق ، وتلقى معلومات دقيقة عن مشاعر أهاليها وأحاسيسهم ، واقتضت الحال ترشيح رجل شجاع للولاية ، ووقع اختيار جون على هيلاس ، الذي كان جنديا شجاعا ، ومرشحا مناسباً للوظيفة ، فعينه واليا جديدا .

وخلف جون جميع الأسطول في سميرنا لحمايتها ، وقام هو بالزحف نحو أفسوس ومعه الجيش ، وكانت أفسوس آنذاك بيد تنجري بيرمس ومرقس ، وقد عرف العدو خبر اقترابه ، فقام بإعداد قواته ، وعبأها بالسلاح الشاكي ، وصفها للمعركة في منبسط خارج المدينة ، ولم يضع جون لحظة واحدة ، بل ركب

ورجاله ، وحمل عليهم بصفوف منتظمة ، وتبع ذلك قتالا شديدا استمر سحابة النهار ، والتحم الطرفان بنزال لم تعرف نتيجته ، لكن عندما انعطف التركمان ، فرو بكل سرعة ممكنة ، فقتل كثير منهم هناك ، وتم أسر عدد كبير ليس من بين الجنود العاديين ، لكن من بين القادة ، وقد وصل العدد حتى الألفين .

ولدى سماع الإمبراطور بخبر هذا النصر ، أعطى أوامره بتوزيعهم بين الجزر ، ومضى الناجون من التركمان عبر نهر منادر نحو بوليوتوس (٤٦) ، و اتخذوا موقف المترقب ، مخيلا لهم أنهم بعدوا عن آثار جون دوقاس ، لكن الأمر لم يجر كذلك ، فقد ترك جون « بتزاس » في ولاية المدينة وأخذ معه جميع الرجال ، وانطلق في عملية المطاردة ، وزحفت قواته بنظام جيد ، ولم يكن هناك أية فوضى ، وفي الحقيقة اتبع جون تعليمات الإمبراطور وتحكم بالزحف بسلوك وانضباط لا يتمتع به إلا القادة المجربون ، وكما سلف القول شق التركمان طريقهم عبر نهر منادر من خلال البلدان المجاورة حتى وصلوا إلى بوليوتوس ، ولم يسلك جون الطريق نفسه ، بل سار عبر طريق أقصر حيث استولى على ساردس وفيلادلفيا (٤٧) على حين غرة ، وعهد فيما بعد إلى ميخائيل كومينوس بالدفاع عنهما ، وعندما وصل جون إلى لوديقيا خرج جميع السكان في الحال لاستقباله ، فعاملهم بمثابة الفارين من وجه العدو ، والمهاجرين له وشجعهم ، وسمح لهم بالسكنى في أراضيهم من غير تدخل بشؤونهم حتى إنه لم يعين واليا عليهم ، ومضى من هناك ، وشق طريقه من خلال خوما ، واستولى على لامب حيث عين بوسثاثيوس كامينوس قائدا عسكريا ، وعندما وصل أخيرا إلى بوليوتوس وجد هناك جماعة كبيرة من التركمان ، فقام بمهاجمتها فور تنزيلها لأحمالها ، وحدث قتال سريع ، أعطى نصرا حاسما ، حيث قتل فريق كبير من التركمان ، وتم الاستيلاء على كميات من الغنائم تتناسب مع أعدادهم .

ولم يكن جون قد عاد بعد ، حيث كان ما يزال يكافح ضد

التركمان ، وذلك عندما أصبح الامبراطور جهازا للزحف لتقديم العون إلى الفرنجة في منطقة انطاكية ، وبعدما ازاح كثيرا من البرابرة من طريقه ، وصل الامبراطور إلى فيلومليون (٤٨) مع جميع عساكره ، وقد جرى نهب عدد كبير من المدن التي كانت في السابق بيد التركمان ، وهناك التحق به غليوم دي غرانتسنيل ، وايتين كونت فرنسا وبييردي البس (٤٩) قادمين من انطاكية ، فقد تدلوا من اسوارها بواسطة حبل ، وجاؤوا إلى طرسوس ، وقد علم منهم بأن الفرنجة أصبحوا في حالة ميئوس منها ، وأكدوا له بالآيمان بأن الانهيار كان كاملا ، ولهذا تلهف الامبراطور أكثر من ذي قبل للاسراع نحوهم بغية تقديم العون لهم ، كل ذلك على الرغم من المعارضة العامة لمثل هذه المغامرة .

وانتشرت انذاك اقاويل واسعة تحدثت عن هجوم مرتقب لدشود لاتحصى من البرابرة ، ذلك أن سلطان خراسان قام ، بناء على ماسمعه من أخبار توجه الامبراطور الكسيوس نحو الفرنجة بغية إمدادهم والتفريج عنهم ، قام بإرسال ابنه اسماعيل وبصحبته قوات ضخمة ، وكانت الأوامر المعطاه إلى اسماعيل تقضي بأن يعترض طريق الامبراطور قبل وصوله إلى انطاكية ، ودفعت الاخبار التي حملها الفرنجة من انطاكية ، مع أخبار قرب وصول اسماعيل دفعت الامبراطور إلى إعادة النظر بالخطط المرسومة من أجل إنقاذ الفرنجة .

لقد كان الامبراطور كله رغبة وشوق إلى سحق هجوم التركمان ، وطبعاً وضع نهاية لقادهم كربوقا ، ونظر إلى المستقبل متوقفاً : أن إنقاذ المدينة التي استولى عليها الفرنجة حديثاً ، لكن أمورها لم تستقر بعد ، وهي محاصرة من المسلمين ، هو أمر ممكن ، لكن الفرنجة قد فقدوا كل أمل في إنقاذ أنفسهم ، وكانوا يخططون للتخلي عن دفاعاتهم وتسليمها إلى أعدائهم ، مركزين اهتمامهم على الاحتفاظ بحياتهم عن طريق الهرب .

في الحقيقة ، إن الفرنجة جنس متميز ، ولهم من الصفات : روح

فردية مستقلة متهورة ، ترفض رفضا قاطعا الانصياع إلى أنظمة فنون الحرب ، فعندما توشك الحرب على الاشتعال ويوشك القتال على الوقوع ، تراهم مندفعين بحماس لايقاوم (وهذا أمر واضح ليس بين جميع المراتب فقط بل حتى بين صفوف القادة أيضا) ، تراهم يندفعون نحو قلب صفوف الأعداء بشكل شديد الهول ، بحيث تزول أمامهم كل مقاومة ، لكن إذا حدث وأقام لهم أعداؤهم كمائن فيها عساكر بارعين ، يستطيعون القتال بشكل نظامي ، فإن شجاعتهم ستتلاشى كلها ، وبشكل عام نجد أن الفرنجة ليس لهم من يوازيهم في قتال الفرسان ، لكن على الرغم من هذا ، فإنه بسبب وزن أسلحتهم ، وما اتسموا به من تهور وعدم انتظام ، نجد أنه من السهل انزال ضربة بهم .

ولم يكن لدى الامبراطور ما يكفي من القوات للتصدي لأعدائهم الكبيرة ، أو لتغيير طباعهم ، أو دفعهم لتبني سياسة حكيمة عن طريق النصيحة والمنطق ، لهذا كله رأى الامبراطور أنه من غير المفيد متابعة سيره ، فهو قد يفقد القسطنطينية وانطاكية معا ، بسبب شدة رغبته في الحفاظ عليهما ، وكان يخشى خشود التركمان الكبيرة إذا ما نزلت عليه الآن ، فإن الناس الذين يعيشون في فيلوميلون سيكونون طعمة لسيوف البرابرة .

وقرر تحت معطيات هذه الظروف ، أن يعلن للجميع خبر زحف المسلمين ، وتم الاعلان في الحال بأن على كل رجل وامرأة مغادرة المكان قبل وصولهم ، وبذلك ينقذون حياتهم وانفسهم وما أمكن حمله من مقتنياتهم ، وقد اختار جميع السكان نساء ورجالا ، اللحاق بالامبراطور دونما تأخير (٥٠) ...

فهذه إذن الاجراءات التي اتخذها الكسيوس تجاه الأسرى ، ثم قام بفرز قطعة من الجيش ، قسمها إلى مجموعات صغيرة ، أرسل كل منها في اتجاه مختلف من الاتجاهات للقتال ضد المسلمين حيثما وجدوهم يقومون بأعمال السلب والنهب ، وكان عليهم إيقاف التركمان ومنعهم بالقوة ، وأعد الكسيوس بنفسه العدة للعودة إلى

القسطنطينية ومعه جميع أسرى البرابرة والمسيحيين الذين انضموا إليه ، ووصلت أخبار نية الامبراطور المغادرة وقصده العاصمة ، إلى مسامع الأمير إسماعيل ، وسمع أيضا أخبار المذبحة الكبرى التي وقعت إثر ذلك مع أخبار التدمير الكامل للعديد من المدن أثناء الزحف كما علم بأن الكسيوس على وشك العودة ومعه كميات كبيرة من الغنائم والأسرى ، وبهذا تحرج وضع اسماعيل حيث لم يترك له شيئا يفعله ، فقد فقد صيده الثمين ، لهذا غير منحى مسيرته ، وقرر محاصرة بيبرت ، التي جرى احتلالها منذ وقت وجيز من قبل القائد الشهير ثيودور غابراس ، وتوقفت قوات التركمان جميعها عند النهر الذي يجري قريبا من ذلك الموقع ، ولم يعرف غابراس هذه القوات ، وكان قد قرر ان يكبسها ليلا ، ويهاجمها على حين غرة ، إن خاتمة اعمال غابراس مع اصله ، وصفاته ، هي موضوعات ستم الحديث عنها في مكان مناسب من هذا التاريخ ، فالذي علينا القيام به الآن هو استئناف قص روايتنا.

وكان الحصار قد اشتد على الفلنجة ، وفتكت بهم المجاعة ، وهنا انعطفوا نحو بطرس الناسك ، الذي كان قد هزم في السابق قرب هيلينبوس (كما سبق وأوضحنا) وسأله تقديم المشورة وبذل النصيحة ، فأجابهم بقوله : « لقد وعدتم بأن تبقوا نفوسكم نقية حتى ساعة وصولكم إلى القدس ، لكنكم حنثتم بوعودكم وأظن أنه لهذا السبب توقف الرب عن مساعدتنا كما فعل من قبل ، عليكم بالعودة ثانية إلى الرب ، وتضرعوا إليه بالبكاء وطلب غفران الذنوب ، وأنتم ترتدون الأطمار وتذرون على رؤوسكم الرماد ، وبرهنوا على توبتكم بذرف الدموع ، وبإمضاء الليالي بالتضرع ، وطلب المغفرة ، وعندها سأنضم أنا بدوري إليكم ، واستمطر لكم رضى السماء ، وأتوجه بالدعاء من أجلكم » .

وأصغوا جميعا إلى نصيحة راهبهم الكبير ، وبعد مرور عدة أيام جاء هاتف إلى بطرس فحركه إلى حد أنه استدعى كبار الأمراء ، وأمرهم بأن يحفروا على يمين المذبح (٥١) ، فهناك

سجدون - كما أخبرهم - المسامير المقدسة (٥٢) ، ونفذوا ماطلبه منهم ، لكنهم لم يجدوا شيئا ، لذلك عادوا اليه حائقين يائسين ، فقام اثر ذلك يصلي بحرارة اشد من ذي قبل ، ثم امرهم بالتفتيش ثانية بشكل دقيق ، والتمحيص بكل عناية ، ومرة ثانية نفذوا اوامره بحذافيرها ، ووجدوا في هذه المرة ماكانوا يبحثون عنه ، وسارعوا الى اعطائه الى بطرس (٥٣) وهم في غاية السرور والغبطة والجيشان العاطفي الديني ، وعهد بعد هذا بالمسامير المقدسة ، الى صنجيل ، ليحملها اثناء المعركة ، لانه كان اكثر نقاوة من البقية .

وخرج الفرنجة في التالي مغيرين على التركمان من احد الابواب السرية للمدينة ، وكانت هذه هي المناسبة التي سأل فيها كونت اوف فلاندرز (٥٤) بقية الامراء ان يمنحوه مطلبا واحدا وذلك بالسماح له بأن يركب امام الجميع ، ويحمل على العدو ومعه ثلاثة رفاق ، وقد منح مطلبه هذا ، وعندما اصطف الجيشان المتعاديان امام بعضهما بعضا ، استعدادا للمعركة ، ترجل وركع على الارض ، وصلى للرب ثلاث مرات ، وتوجه اليه بالدعاء طالبا منه العون ، وعندما صرخ الجميع بصوت واحد « الرب معنا » حمل بما امكنه من السرعة ، وتوجه نحو كبريقا الذي كان واقفا على رأس تل هناك ، وتمكن اثناء حملته من صرع كل من اعترض سبيله ، والقى هذا الرعب في قلوب التركمان ، فشرعوا بالفرار ، حتى قبل ان يبدأ القتال وانه من الواضح ان قوة سماوية كانت تساعد المسيحيين ، زد على هذا انه اثناء الفوضى ، التي نجمت عن فرار البرابرة ، جرف تيار النهر معظمهم فغرقوا ، وتراكمت جثث الموتى الى درجة انها كونت جسرا للذين جاؤوا بعدهم ، وبعد ما قام الفرنجة بمطاردة التركمان الى مسافة مناسبة ، عادوا نحو خندقهم حيث وجدوا جميع امتعتهم وغنائمهم التي جلبوها معهم ، وصحيح ان الفرنجة ملكوا الرغبة في الاستيلاء على ذلك ونقله فورا ، لكن نظرا لضخامة حجم الغنائم ، فهم ملكوا - بكل صعوبة - القدرة على نقلها الى دال انطاكية خلال ثلاثين يوما ، ومكثوا هناك بعضا من الوقت للاستجمام والراحة من

عناء الحرب ، و البحث في الوقت نفسه في أمر أنطاكية و مستقبلها فقد وجدت حاجة لتعيين حاكم جديد لها ، وقد وقع اختيارهم على بوهيموند الذي كان طلب هذا المنصب قبل سقوط المدينة ، وتم منحه سلطات كاملة ، وانطلق بعد ذلك الآخرون شاقين طريقهم نحو القدس ، وجرى الاستيلاء على عدد من المواقع الساحلية الحصينة الواقعة على الطريق ، لكن الأماكن ذات الحصانة الشديدة ، والتي تحتاج إلى وقت أطول لحصارها ، جرى تجاهلها الآن ، من قبلهم ذلك أنهم كانوا مسرعين ، ولديهم رغبة شديدة بالوصول إلى القدس ولدى وصولهم إليها حاصروها ، وبعد عدة هجمات ، وحصار استمر شهرا قمريا سقطت المدينة (٥٥) وجرى هناك ذبح كثير من المسلمين والعبرانيين الذين كانوا فيها ، وعندما انتهت امر الاستيلاء عليها ، وقضى على جميع أعمال المعارضة ، جرى تتويج غودفري ملكا عليها ، ومنح صلاحيات كاملة .

وتم اخبار أمير المؤمنين المتربع على عرش بابلليون (القاهرة) بغزو الفرنجة ، كما سمع بان القدس قد جرى الاستيلاء عليها من قبلهم ، وان أنطاكية ذاتها قد احتلت مع عدد كبير آخر من مدن المنطقة ، وبناء عليه حشد جيشا من الأرمن والعرب والمسلمين والتركمان ، وارسلت هذه القوة لحرب الفرنجة ، وقام غودفري باستنفار بني قومه ، وتوجه على رأسهم نحو يافا منتظرا الهجوم ، ثم تحول فيما بعد إلى الرملة ، وهي المدينة التي استشهد فيها جورج العظيم ، وقا تل الفرنجة هناك ضد جيش أمير المؤمنين ، ونالوا نصرا سريعا ، لكن في اليوم التالي ، لحقت طلائع الجيش المصري بمؤخرة الفرنجة ، فأنزلت بها ضربة قاسية ، واجبرت أفرادها على الفرار بأنفسهم نحو الرملة ، ولم يكن الكونت بلدوين بين الحضور ، فهو قد نجا ، ليس جيبنا وفرارا ، بل كان قد ذهب للبحث عن وسائل أكثر جدوى لتأمين سلامته وسلامة الجيش ضد المصريين ، وقام المصريون بحصار الرملة ، ومالبث أن استولوا عليها ، وقد قتل كثير من الفرنجة آنذاك ، لكن الذين أسروا وارسلوا إلى مصر كانوا أكثر عددا ، وتوجهت القوات المعادية جميعها من الرملة وكرت منحرفة

لحصار يافا ، وهذه طريقة حربية من طرائق البرابرة الغادية المتبعة وقام بلدوين بزيارة جميع المدن التي استولى عليها الفزتجة ، وجمع عددا ليس بالكبير من الفرسان والرجال ، المهم في الامر انه اصبح لديه قوة يمكن الاعتماد عليها ، وقام بالزحف ضد المصريين وهزمهم بشكل حاد .

و سببت اخبار الكارثة التي نزلت باللاتين في الرملة هزة حزن عميقة للامبراطور ، ولم يستطع تحمل اخبار الامراء الذين وقعوا بالاسر (٥٦) ، فبالنسبة له بدا هؤلاء الرجال ، وهم في ريعان الشباب ، في نروة نشاطهم وقوتهم وكل منهم من اصل نبيل ، يعادلون ابطال السلف الاوائل ، لذلك رأى انه ينبغي عدم بقائهم مدة اخرى اطول في الاسر في بلاد غريبة ، ولهذا قام باستدعاء برداس ، واعطاه كمية كبيرة من المال لمفاداتهم ، وقبل ان يبعث به ليسافر الى القاهرة ، زوده برسالة موجهة الى امير المؤمنين تتعلق بموضوع الكونتات الاسرى ، وقرأ امير المؤمنين الرسالة ، وقام باطلاق سراح الاسرى بلا مقابل ، ومنحهم حرياتهم بكل سرور ، فيما عدا غودفري الذي كان اخوه بلدوين قد اشترى حريته ، (وعاد برداس بهم) وجرى استقبال للكونتات لانق بمكانتهم ، وتم الترحيب بهم من قبل الامبراطور في القسطنطينية ، وقد منحهم كمية كبيرة من المال ، وبعدما نالوا قسطا من الراحة واستجموا بعث بهم الى ديارهم ، وهم في غاية السرور ، للمعاملة التي لقوها منه ، اما بالنسبة لغودفري فقد اعيد ملكا على القدس ، وقام بارسال بلدوين الى الرها ، واصدر الامبراطور في هذه الآونة تعليماته الى صنجيل بالتنازل عن « اللانقية » وتسليمها الى ادرونيكوس وتسليم مناطق مرقية وبسانياس الى عمال يوماثيوس ، الذي كان انذاك حاكما لقبرص ، وكان على صنجيل ان يتابع زحفه بعد ذلك ، ويقاثل جهد طاقته بغية الاستيلاء على مناطق اخرى حصينة ، ونفذت هذه الاوامر حرفيا ، وقام بعد تسليم الاماكن المذكورة انفا بالتوجه الى انطوطوس ، فاستولى عليها دون سفك للدماء .

ودفعت هذه الاخبار اتابك دمشق للزحف ضده ، ولم يكن بإمكان
صنجيل التصدي لقوات دمشق التي كانت قوية وكبيرة العدد ، فقام
بإبداء خطة تدل على نكاته ، لكن ليس على شجاعته ، فقد وثق
بأهالي انطربوس ، وأخبرهم أنه سيختبئ في زاوية من زوايا احد
الابرار الكبيرة ، وقال لهم : « عليكم عندما يصل اتابك الا تخبروه
الصدق ، بل قولوا انني خفت وفررت بعيدا ، ، ولدي وصول اتابك
سألهم عن صنجيل ، فأقنعوه أنه قد فر حقيقة ، وكان اتابك متعبا
بعد زحفه الطويل ، فقام بنصب خيمة قرب الاسوار ، وأظهر له أهل
البلدة كل علائم الصداقة ، وقام التركمان الذين لم يرتابوا بالامر ،
بترك خيولهم وتسريحها لترعى في السهل ، وفي منتصف النهار ،
عندما كانت الشمس تبعث بأشعتها من قبة السماء ، قام صنجيل ،
وهو بكامل سلاحه ، ومعه رجاله ، وكان عددهم حوالي الاربعمئة ،
قام بالاندفاع فجأة من خلال إحدى البوابات ، وانقض على
المعسكر ، وحاول بعض الرجال الشجعان التصدي له والقتال غير
هيايين ولا يهين بسلامتهم ، بينما حاول البقية الفرار بحياتهم ، لكن
اتساع مساحة السهل ، وانعدام وجود أية اجمة او مرتفع او شعاب
جبلية للاختباء بها ، جعلت الجميع يقعون بين ايدي اللاتين ، فكانوا
جميعا طعمة للأسيف ، فيما عدا حفنة منهم وقعوا بالاسر ، وقام
صنجيل الذي بز خصومه وفاقهم بمسلكه هذا ، قام بالمضي باتجاه
طرابلس ، وما ان وصل هناك حتى تسلق احد التلال ، واستولى على
ذروته ، التي قامت بمواجهة المدينة ، والتي كانت جزءا من جبل
لبنان ، ويمكن استخدامها بمثابة حصن ، ويمكن منها قطع الماء
الذي يجري من جبل لبنان الى داخل طرابلس ، من فوق سفوح التل
وقام صنجيل باخبار الامبراطور بكل ماعمله ، واعلمه بضرورة
بناء حصن كبير هناك ، قبل ان تأتي قوة كبيرة من خراسان يمكنها
ايقاد نار الحرب ، واستجاب الكسيوس ، واوعز الى حاكم قبرص
بأن يتولى مهام البناء في أي نقطة حصينة يقع اختيار الفرنجة عليها
(٥٧) ، وبينما كانت الامور تسير حسبما وصفنا ، تابع صنجيل
مرابطته خارج طرابلس ، باذلا كل جهد ممكن للاستيلاء عليها .

ودعونا الان نعود الى بوهيموند ، فهو عندما علم بنبأ وصول زينتزبلوكس الى اللانقية ، اظهر ما ابطنه طويلا ، من صنوف الكراهية التي حملها ضد الامبراطور ، فأرسل ابن اخته تانكرد مع قوة كافية من العساكر للقيام بحصار المدينة ، ووصلت هذه الاخبار في الحال الى مسامع صنجيل ايضا ، فخف دون ان يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وجاء الى اللانقية ، ودخل في نقاش حاد مع تانكرد وحاججه طويلا ليجعله يقلع عن مهمته ، وبعد عدة مقابلات لم يقنع تانكرد ، وكانت حال صنجيل مثل الذي يغني للطرشان ، لذلك عاد الى طرابلس ، وقام تانكرد من غير تقاعس ، بتشديد الحصار ، وبادر زينتزبلوكس ، الذي ساء وضعه الان ، والذي ضغط عليه بشدة واصرار من قبل اعدائه ، بطلب النجدة والعون من قبرص ، وكانت الاستجابة بطيئة جدا ، مما جعله في وضع اليأس لاسبب الحصار فحسب ، ولكن - اكثر من ذلك - بسبب المجاعة ، لهذا قرر تسليم اللانقية .

وبينما كانت هذه الحوادث تجري ، بات من المقرر ضرورة اختيار خليفة لغودفري ، يحل محله في الملك (ذلك انه كان قد مات) (٥٨) وإثر موته ، بعث اللاتين في القدس وراء صنجيل لجلبه من طرابلس راغبين في وضعه على العرش ، لكنه رفض ان يقوم بالرحلة الى القدس في ذلك الوقت ، وقد سافر فيما بعد الى العاصمة ، لكن عندما ادرك اهالي القدس استمرار رفضه يتصلب ، بعثوا وراء بلدوين (٥٩) واختاروه ملكا (٦٠) .

وقصد صنجيل القسطنطينية حيث استقبل بالترحاب من قبل الامبراطور لكن عندما عرف الكسيوس خبر اعتلاء بلدوين للعرش ، احتفظ به في القسطنطينية ، ووصل في هذه الاثناء الجيش النورماندي (٦١) تحت امرة كونت بيندرت واخيه ، وقد وجه الامبراطور النصيح مرارا اليهما بضرورة اتباع الطريق الذي سلكه سلفهم (اي عبر المنطقة الساحلية) لكنهما لم يصغيا اليه ، ذلك

انهما لم يرغبيا بالانضمام الى الفرنجة (٦٢) ، بل قد ارادا السفر عبر طريق آخر يقود الى الشرق ، ماضين مباشرة نحو خراسان ، التي قررا احتلالها ، ولقد عرف الامبراطور بأن خطتهما كانت خطة مأسوية تماما ، وحيث انه لم تكن لديه الرغبة في ان يرى جيشا بهذا الحجم يعاني من الابادة (فقد كان هناك خمسون الفا من الفرسان ومائة الف من الرجال) ولما لم يكن من الممكن اقناعهما ، فقد حاول ايجاد ما يمكن اقناعهما ، فقد حاول ايجاد ما يمكن وصفه طريقا جديدا ، واستدعى صنجيل وزيتاس ليذهبا معهما ، وكان عليهما تقديم النصيح المناسب ، ويحولا قدر امكانهما بينهما وبين المغامرات الجنونية ، وعلى هذا عبر المضائق الى كيبوتوس ، واسرع الجميع خطاهم نحو بند ارمينية فاستولوا على انقرة على حين غرة (٦٣) ، ثم عبروا نحو هاليس ، ووصلوا الى بلدة صغيرة كانت بيد البيزنطيين ، وقد اطمأن اهلها للنورمان ووثقوا بهم على اساس انهم مسيحيون ، فخرج رجال الدين في مسوحهم وهم يحملون الاناجيل واقتربوا منهم لكن الذي حدث ان الغزاة لم يكتفوا بقتل الرهبان بطريقة وحشية وغير انسانية ، بل اقدموا على ذبح بقية المسيحيين وازالوهم من الوجود ، ثم تابعوا زحفهم باتجاه اماسيا ، وقام التركمان الذين كانوا بارعين بفنون القتال ، ومحتلين لجميع القلاع على طريقهم ، قاموا باحراق جميع المؤن والاطعمة قبل وصولهم ، ثم قاموا بالهجوم عليهم مسرعين ، وفي يوم الاثنين تمكن التركمان من قهرهم ، ففي ذلك اليوم عسكروا في احد الاماكن في منطقة اماسيا ومعهم اثقالهم ، وقد خزنوها في داخل المعسكر ، لكن تم في يوم الثلاثاء استئناف القتال وطوق التركمان العساكر النورماندية ، لهذا حرموهم من فرصة التزود بالمؤن ، كما انهم لم يتمكنوا من اخذ خيولهم وحيوانات الظهر لورود ، ورأى الفرنجة بأن اعينهم ان الفناء بانتظارهم ، وقاموا في اليوم التالي (الاربعاء) بالخروج بكامل اسلحتهم ، غير عابئين بسلامة انفسهم ، وانخرطوا في لجة معركة قاسية مع البرابرة ، وصاروا الان في قبضة التركمان ، لهذا لم يستخدموا - في هذه الساعة - الرماح والنشاب ضدهم ، بل

امتشقوا سيوفهم ، والتحموا بهم عن قرب ، وهرب النورمان في الحال ، وارتدوا نحو معسكرهم ، وانتظروا من يقدم اليهم النصيح ، وتذكروا النصائح الخالصة التي قدمها لهم الامبراطور ، وفتشوا عنها ، فلم يجبوها معهم ، ولم يبق امامهم الا سؤال كل من صنجيل وزيتاس عن رأيهما ، وبحثوا في نفس الوقت واستفسروا فيما اذا كان في تلك الجوار أي منطقة هي تحت حكم الامبراطور ، عليهم يجدون مأوى لهم ، وتخلوا في النهاية عن مقتنياتهم وخيمهم مع جميع المشاة ، وامتطوا خيولهم وشقوا طريقهم (٨٤) مارين بأقصى سرعة ممكنة باتجاه المنطقة الساحلية لبند ارمينيا وبوريا (٨٥) وقام التركمان بهجوم جماعي على المعسكر ، واستولوا على كل شيء فيه ، وشرعوا بعد ذلك بمطاردة الرجال ، واصطدموا بهم فأبأوهم عن بكرة ابيهم ، اللهم الا حفنة من الرجال حملوهم اسرى الى خراسان ليجري عرضهم هناك .

هذا مايتعلق بنجاحات التركمان في معركتهم ضد النورمان ، اما ما يختص بصنجيل وزيتاس ، فانهما اخذا طريقهما عائدين الى القسطنطينية مع عدد قليل من الناجين من بين الفرسان ، واستقبلهم الامبراطور هناك ، وبعدما قدم لهم بعض الهدايا السخية من المال وسمح لهم بالراحة ، سألهم الى اين يودون الذهاب ، فاخاروا القدس ، فاستجاب لمطلبهم تمام الاستجابة ، فاعد لهم سفينة وبعث بهم بعدما ارفقهم باعطيات كثيرة .

وبقي صنجيل في القسطنطينية ، والتحق من هناك بجيشه في طرابلس ، حيث بحث بجد واندفاع عن الوسائل التي تمكنه من الاستيلاء على المدينة ، ونزل به فيما بعد مرض قاتل ، فقام وهو يلفظ انفاسه الاخيرة باستدعاء حفيده وليم (٨٦) ، فمنحبه جميع ميراثه مع جميع المواقع الحصينة التي استولى عليها .

وعينه قائدا عاما لقواته ، وعندما وصلت انباء وفاته الى الكسيوس كتب الى حاكم قبرص يامره بارسال نيكيثاس خالنتازس مع مبلغ كبير من المال ليعطيه الى وليم ، وان يعمل في سبيل كسبه

الى جانبه ، واقناعه بان يقسم قسما صحيحا بالولاء للامبراطور ، وهو ولاء حافظ عليه خاله صنجيل المتوفى ، حافظ عليه باخلاص حتى آخر حياته .

ووصلت الاخبار الى الامبراطور باحتلال تانكرد لمدينة اللاذقية ، فارسل رسالة الى بوهيموند قال فيها : « لاشك انك عارف بالمواثيق والعهود التي صنعتها للامبراطور البيزنطي ، ليس من قبلك وحدك ، وانما من قبل بقية الامراء ، وانت الان اول من يحدث بوعده ، لقد استوليت على انطاكية ، وقمت بالاستحواذ بطرائق خفية على عدد اخر من الاماكن الحصينة بما في ذلك اللاذقية نفسها ، انني اطالبك انت بالذات بالجلاء عن مدينة انطاكية والاماكن الاخرى ، فبذلك تكون قد قمت بصنع ما هو صحيح ، ولا تحاولن اثاره العدوان والحرب مجددا ضد نفسك .

وقرأ بوهيموند هذه الرسالة على انفراد ، لانه لم يكن من الممكن الاستمرار بالدفاع عن نفسه بخداعه المعتاد ، فاعماله حملت شهادة واضحة على الحقيقة ، ولهذا أقر - نظريا - بان الرسالة محقة ، لكنه وجه اللوم الى الامبراطور في دفعه على الاقدام على اقتراح اعماله الشريرة ، وكتب اليه يقول : « انا لست مسؤولا عن هذه الاشياء ، لكنك انت المسؤول ، فانت الذي وعدت بان تلحق بنا على راس قوة كبيرة ، لكنك لم تكن راغبا في دعم وعونك بالاعمال ، اما بالنسبة لنا : اننا عانينا بعد وصولنا الى انطاكية - لمدة ثلاثة اشهر - صراعا رهيبا ، مع مجاعة لايمكن نسيانها ، وكانت شديدة الى حد اجبرت فيه معظمنا على اكل اللحوم المحرمة بالشرعية ، ومع هذا قاومنا وصمدنا احسن ما يمكن ، وبينما كنا نفعل ذلك ، فقد قام تاتشوس ، خاتمكم المخلص يا صاحب الجلالة ، الذي عينتموه لتقديم العون لنا ، قام بالتخلي عنا في محنتنا ومضى بعيدا ، وخلافا لكل ما كان متوقعا تمكنا من الاستيلاء على المدينة ، والحقنا الهزيمة الماحقة بالقوات التي قدمت من خراسان لمساعدة رجالات

انطاكية ، والان اخبرني كيف يمكن لنا التخلي هكذا بكل سهولة عما نلناه بعرقنا وتعينا ؟ .

ولدى عودة سفراء الامبراطور اليه ، وقراءته لجواب بوهيموند ، لاحظ ان بوهيموند الحالي هو نفس بوهيموند القديم ، الفاسد ولا امل بصلاحيه ابدًا ، ووضح على هذا ان حدود الامبراطورية الرومانية ينبغي ان تصان بشكل حازم ، كما ان مطامح بوهيموند غير الملجومة ينبغي ضبطها ، ولهذه الاسباب جرى ارسال بوتومايتز على راس عساكر دسره الى كيليكية ، وشكل هؤلاء الجند الذين صحبوه نخبة عناصر الجيش ، وكانوا من خيرة المقاتلين ، وكان كل منهم حامي الحمى ، وكان برفقته برداس وميخائيل كبير الخدم « سقاة الشراب في القصر الامبراطوري » وكان كلاهما من الفتيان ، وقد ظهر شعر لحيتهما للتو ، فعندما كان هذان الرجلان طفلين صغيرين وضعهما الامبراطور تحت رعايته ، وثقفهما ثقافة عسكرية جيدة ، وحيث انه اعتمد على اخلاصهما اكثر من سواهما ، بعث بهما للخدمة تحت امرة بوتومايتز مع الف اخرين من خيرة الجند من كل من البيزنطيين والفرنجة ، وكان عليهما مرافقة بوتومايتز واطاعته في كل شيء ، لكن الامبراطور اعتمد عليهما - في الوقت نفسه - باخباره برسائل سرية حول الاشياء العادية التي تقع من وقت الى وقت ، فقد كان همه وشغله الشاغل ضمان جميع جوانب كيليكية حيث سيكون انذاك من السهل الاعداد للعمليات ضد انطاكية ، وانطلق - على هذا الاساس - بوتومايتز ومعه جميع قواته ، ووصل الى انطاكية ، حيث اكتشف هناك بان برداس وميخائيل كانا لايطيعان اوامره ، وحتى يحول دون حدوث عصيان بين قواته - العمل الذي كان من الممكن ان يعطل حماسه وشدة اندفاعه ، ويجبره على اخلاء كيليكية دون انجاز اي شيء - قام على الفور باخبار الكسيوس بأعمالهما ، ورجا اعفائه من صحبتهما ، ويادر الامبراطور ، الذي كان عليهما بمدى الضرر الذي يمكن ان يسببه مثل هذا الصنف من الرجال ، فأمر بتحويليلهما مع جميع

المتهمين الى اداء مهام اخرى ، واخبرهما كتابة بأمره بالالتحاق من غير تأخير بقسطنطين (٨٧) بقسطنطين يوفور بينوس في قبرص ، واطاعة كل ما يصدره اليهما من أوامر.

وقرأ الشابان التعليمات الصادرة إليهما ، وتلقياها بكل سرور ، وأبحرا بما أمكن من سرعة إلى قبرص ، وأمضيا هناك فترة وجيزة مع قسطنطين قبل أن أخذا يتصرفان برعونتهما المعهودة أيضا ، ومن الطبيعي أنه نظر إليهما بارتياح ، لأنهما كتبا أيضا الرسائل إلى الامبراطور ، وشحناها بالتهم ضده ، وتذكرا رعاية الامبراطور لهما ، وعواطفه نحوهما ، لذلك أشارا دائما إلى القسطنطينية ، وخشي الكسبيوس من رسائلهما ، فقد وجد معهما في قبرص عددا من النبلاء المشكوك باخلاصهم ، والذين أبقاهم منفيين هناك ، وبما أنه صار من الممكن أن يصاب هؤلاء الرجال بعسوى مشاعرهم الفاسدة ، فقد أمر حالا كانتا كوزينوس أن يصطحب الشابين معه ، ف جاء إلى كيرينا واستدعاهما ، وأخذهما بعيدا .

هذا ما كان من قصة برداس وميخائيل كبير الخدم « سقاة الشراب في القصر الامبراطوري » ، أما بالنسبة لبوتومايتز فقد وصل إلى كيليكية مع موناستراس وبقية القادة الذين تركوا معه ، وعندما وجد أن الأرمن كانوا على وفاق واتفاق مع تانكرد ، مربهم ، واستولى على مرعش مع المدن المجاورة والأماكن الصغيرة ، وترك قوة قادرة على حراسة جميع المنطقة تحت أمرة القائد نصف البربري موناستراس ، وعاد بوتومايتز - نفسه - إلى العاصمة (٨٨) . وعندما انطلق الفرنجة نحو القدس ، وهم على نية الاستيلاء على ملن سورية ، قدموا وعودا سخية الى اسقف بيزا (٨٩) ، فيما لو ساعدهم على تحقيق أهدافهم ، وقد قنع بأقوالهم وأثار اثنين من زملائه كانا يعيشان على البحر لتبني المنهج نفسه ، وقام - من غير تأخير - بتجهيز بعض السفن ذوات الصفيين من المجانيف ، ونوات الثلاثة صفوف والسفن الكبيرة والسريعة حتى بلغ التعداد إلى تسعمائة ، وأقلع نحو سورية ، وفي الطريق أرسلت قطعة من هذا

الأسطول تحوي عددا مناسبا من السفن لنهب مدن : كورفو ، كيوكاس ، كيفالونيا ، وزاسيناتوس ، وبناء على هذا أمر الامبراطور جميع مقاطعات الامبراطورية البيزنطية القيام ببناء السفن كما جرى اعداد بعضها ، وتجهيزها في القسطنطينية نفسها ، واستعمل الامبراطور من وقت إلى آخر سفنا من نوات الصف الواحد من المجانيق ، وكان يقوم بنفسه بتقديم النصائح إلى صناع السفن حول طريقة بناء المراكب ، فقد كان يعرف أن أهل بيزا هم سادة الحروب البحرية ، وكان يخشى جانبهم ، ويتخوف الدخول في معركة بحرية معهم ، وتبعاً لذلك أمر أن يثبت على مقدمة كل سفينة رأس أسد أو رأس واحد من الحيوانات البرية الأخرى وصنعت هذه الرؤوس من البرونز أو من الحديد المطلي بالذهب ، وكانت أفواهها مفتوحة ، وجعلت قشرة الذهب التي طلوا بها منظرهم مخيفاً ، وكان من المفترض قذف النار الأغريقية من خلال أنابيب تنتهي في أفواه تماثيل رؤوس الحيوانات هذه بطريقة ، بدوا فيها وكأنهم يقذفون اللهب من أجوافهم .

وعندما أصبح كل شيء جاهزاً ، استدعى الكسيوس تاتيشوس ، الذي كان قد قدم لتوه من أنطاكية وعهد إليه بأمر هذا الأسطول ، ومنحه لقب امير امراء الماء ، لكنه عهد في الوقت نفسه الى لاندواف (٧٠) بالمسؤولية عن عمليات جميع الأسطول ، وتم ترفيعه الى مرتبة الدوق الأعظم ، لأنه كان أكبر الخبراء بفن حرب البحر ، وغادر الأسطول العاصمة في النصف الثاني من نيسان (١٠٩٩) م ووصل الى جزيرة ساموس ، ورست السفن قرب الشاطئ ، ونزلوا منها ، ثم سار جميع السفن الى الشاطئ الرملي وطلبت هناك بالقارب بشكل جيد وبقيق ، وجعلت جاهزة للعمل البحري ، وعندما سمع « البيزنطيون » بمسيرة البيازنة اقلعوا وأخذوا بمطاربتهم حتى جزيرة كيوس ، ووصل البيازنة إلى هذه الجزيرة في الصباح ، في حين وصلها البيزنطيون في المساء ، حيث لم يجدوا هناك أحداً من البيازنة ، لأنهم أبحروا نحو بعض البيازنة وقد تخلفوا (بينما الصيد الكبير كان قد نجا

(منهم) وسألوهم عن الجهة التي قصدها أسطول البيزنطة ، فقالوا : « اتجه نحو رودس وأقلع البيزنطيون بالحال ثانية ، وما يرحوا أن رأوهم ما بين باتر ورودس ، ورصدوا أوضاع البيزنطة وراقبوهم ، فوجدوهم قد أعدوا أنفسهم للمعركة بسيوف حادة وقلوب مستعدة للبراز ، واقترب الأسطول البيزنطي منهم ، وقام أمير بيلوبونيزي يدعى بيرش تاس ، وكان مختصا بالكمان البحرية ، قام لدى رؤيته للعدو ، بالتجديف نحوه بأقصى سرعة ممكنة ، وشق طريقه إلى وسط الأسطول البيزنطي كالصاعقة ، ثم كر راجعا نحو البيزنطيين ، الذين - لسوء الحظ ، لم يدخلوا المعركة بشكل نظامي ، لقد قاموا بانقضاض حاد ، لكن بقتال فوضوي ، وكان لاندولف ذاته هو أول من التحم بالعدو ، لكن نيرانه أخطأت الهدف ، وكان جل ما صنعه هو أنه بدد وقوده ، وقام الكونت المدعو باسم ايلي مون بهجوم جريء على قارب كبير من جهة المؤخرة ، فأصاب المرساة ، إنما وجد من المتعذر تمزيقها ، وكاد نفسه أن يقع في قبضة العدو ، لولا أنه - بالساعة المناسبة - هيا الوقود ، وأعد أنابيبه ، ووجه ضربة مباشرة بالنار الأغريقية نحوها ، ثم ناور بسفينته ببراعة في مختلف الاتجاهات ، وتمكن بالحال من احراق ثلاث سفن بيزنطية كبيرة جدا ، وثار في تلك الساعة عاصفة هوجاء من الريح ، انقضت على السفن بكل عنف وضربتها ، فانحرفت السفن جميعا ومالت ، وأصبحت مهددة بالغرق ، وصدمتها الأمواج ، فدمرت ساحات القتال ، وتمزقت الأشرعة (٧١) ، وخاف البرابرة ، وحل بهم الهلع بسبب النيران التي وجهت اليهم وصبت عليهم) ذلك انهم لم يكونوا معتادين على مثل هذه المعدات ، وارتفع لهيب النيران ، ووجهت في اي اتجاه اراده البيزنطيون ، وغالبا ما اطلقت نحو اسفل السفن وجوانبها لخرقها او لتدمير اطرافها) كما فقدوا عقولهم بسبب وقوعهم بالفوضى الناجمة عن البحر الهائج ، ولهذا قرروا الفرار.

هذا ما كان بالنسبة اليهم ، أما بالنسبة للأسطول البيزنطي ، فإنه وقف على شاطئ جزيرة يشبه اسمها عبارة « سيتلوس » وعندما

جاء الصباح ، أبحر نحو رودس ، وألقى البيزنطيون مراسيهم هناك ، وقادوا أسراهم ، بما فيهم حفيد لبوهموند ، وحاولوا اخافتهم عن طريق التهديد بالقتل أو البيع بمثابة رقيق ، ولكن عندما رأوا أن القتل لا يخيفهم ، وأن الرق ليس له تأثير عليهم ، لم يضيعوا وقتهم وقتلوهم صبرا جميعا .

أما الناجون من الحملة البيزية فقد انعطفوا نحو الجزر الواقعة على طريقهم حتى قبرص يريدون نهبها ، وحدث أن كان يوماثيوس فيلوكاس في قبرص ساعة وصولهم إليها ، فقام بمحاربتهم ، وهنا حل الهلع بقلوب بحارتهم ، فأقلعوا مبحرين من غير أي اعتبار لوجود رفاقهم النين نزلوا الى الشاطئ للنهب وتخلوا عن معظمهم وتركوهم على ظهر الجزيرة وساروا مسرعين في حالة من الخوف الشديد نحو اللاذقية على نية الالتحاق ببوهموند ، وتمكنوا بالفعل من الوصول الى اللاذقية ثم نهبول اليه معلنين عن رغبتهم يصداقته: وحيث كان بوهموند هو ذاته ، فقد سر بوصولهم ، واحسن استقبالهم ، وهذا بالذنب لهؤلاء ، اما ما حدث للنين هجروا على اليابسة ، فانهم عادوا لجمع ما نهبوه ورأوا اسطولهم قد اقلع بعيدا القوا بأنفسهم بالبحر وماتوا غرقا جميعا.

ووصل بعد هذا امير الماء البيزنطي وبصحبه لاندولف ، وبعد وصولهما عقدا اجتماعا تباحثا فيه حول ابرام اتفاق للاسلم مع بوهموند ، وعندما اقر الجميع بان مثل هذا الامر مرغوب فيه ، جرى اختيار بوتومايتز ليكون مبعوثهم الى بوهموند وصار اليه ، فاحتفظ به لمدة خمسة عشر يوما ، وكانت اللاذقية تعاني آنذاك من المجاعة ، وكان بوهموند هو نفسه بوهموند القديم مرة ثانية من غير تغيير ابدا رجلا لم يتعلم ما يعنيه الحفاظ على السلم ، وقد بعث الى بوتومايتز : « انك لم تقدم لاجل الصداقة ، وليس وجودك هنا للبحث عن السلام ، ولكن لتحرق سفني ، اذهب بعيدا ، واعتبر نفسك سعيد الحظ ، لانني سمحت لك بالذهاب سليما من الانى » وعلى هذا مضى بوتومايتز منصرفا ليجد نفسه فيما بعد في ميناء قبرص ،

وغدت نوايا بوهموند الشريرة الآن أكثر وضوحا ، بعد كل ما أبداه ووضح الآن ان ابرام معاهدة بينه وبين الامبراطور امر بعيد المنال ، لذلك رفع البيزنطيون مراسيهم ، واقلعوا جميعا يريدون العاصمة « فوق طريق من الماء » (٧٢) وبعدها بعدوا عن سايك (٧٣) ثار بهم اعصار شديد ضرب الامواج بغضب شديد مما سبب جنوح جميع السفن فيما عدا السفينة التي كانت تحت امره تاتشوس ، فانها كادت ان تتحطم وكانت هذه هي نتائج الحرب البحرية ضد البيازنة .

وفي الوقت نفسه ، فان بوهموند الذي كان في جبلته مأكرا مخادعا ، خشي من نوايا الامبراطور ، لانه كان من الممكن له ان يسارع ويسبق الامور فيستولي على مدينة كوريكوس (٧٤) ويمركز هناك اسطولا بيزنطيا ، وبذلك يحمي قبرص ، ويمنع وصول حلفاء من المؤمل قدومهم من لومبارديا عبر سواحل الاناضول ، وبالفعل قرر الامبراطور - في ظل هذه الظروف - اعادة بناء كوريكوس ، واحتلال مرساها ، وقد كانت هذه البلدة في الماضي مدينة قوية جدا ، لكنها تحولت فيما بعد الى ركام ، والآن وقد رأى الامبراطور ابعاد استراتيجية بوهموند وتطلعاته اتخذ احتياطاته ، فأمر بترقيع الخصي يوستاثيوس من وظيفة الدوا دار الى مرتبة كبيرقباطنة الاسطول ، وكلفه بمهمة الاستيلاء على كوريكوس ، وبعثة للقيام بها من غير تأخير ، وكان عليه ان يسارع الى اعادة بناء ذلك الموقع مع حصن سلوقية الواقع على مسافة ست مراحل منه ، وقضت الاوامر الصادرة اليه بوضع حاميه قوية في كل واحد من الموقعين ، وتعيين القائد سترابو في منصب الولاية وسترابو هذا كان صغير الحجم ، الا انه كان في فن الحرب رجلا عظيما الاهمية ، زد على هذا كان من المتوجب مرابطة اسطول قوته كافية في الميناء ، ويتم الاعلان الى البحارة ليكونوا دائمي اليقظة منتظرين وصول النجذات الى بوهموند من لومبارديا ، وان يقدموا العون المحتاج الى قبرص .

وابحرت الحملة فاعاقت خطط بوهموند ، واعادت كوريكوس الى

حالتها السالفة واعيد بناء سلوقية في الحال ، ومنتت دفاعاتها بخندق أحاط بالمدينة ، وكان لدى سترابو مايكفي من الرجال للتصدي لاية طوارئ في كل من سلوقية وكوريكوس مع عدد كاف من السفن راسية في الميناء ، وعاد بعد هذا يوستاثيوس إلى العاصمة ليطري اطراء كبيرا من قبل الامبراطور وينال أكبر الجوائز منه *

هذا ما كان بالنسبة للأعمال التي تمت في كوريكوس وعلم (٣٥) الامبراطور باخبار حملة جنوية على نية الابحار لمساعدة الفرنجة ، وقد رأى بان الجنويين مثلهم مثل الآخرين سيسببون مشاكل كبيرة للامبراطورية البيزنطية ، وتبعاً لهذا تم ارسال كانتاكوزينوس على رأس جيش معتبر ، وابحر في الوقت نفسه لاندولف مع اسطول بحري جرى اعداده على جناح من السرعة وكانت مهمة لاندولف الابحار بما امكن من سرعة نحو الشواطئ الجنوبية (٣٦) فقد توجب محاربة الجنوبية لدى عبورهم كيليكه .

ومضى الرجلان كل واحد منهما لتنفيذ المهمة المعهودة اليه لكن عاصفة هوجاء سببت تدمير عدد كبير من السفن ، وقد سحبت السفن الى الشاطئ وجرى تقييدها بكل عناية ، وعلم كانتاكوزينوس في هذه الاثناء بان الاسطول الجنوبي قريب في الجوار ، فاقترح ان يأخذ لاندولف ثمانى عشرة سفينة (لانه كما صدف كانت هذه السفن الوحيدة الصالحة للابحار في ذلك الوقت ، والباقي على اليابسة) ويبحر نحو رأس ماليوس حيث يستطيع ان يلقي مراسيه هناك (حسب نصيحة الامبراطور) وعندما يمر العدو بقربه ، اذا شعر بان لديه القدرة على دخول الصراع ، هاجم بالحال ، واذا رأى انه لا يستطيع ، تدبر امر سلامة نفسه وسلامة سفنه وجذب على مقربة من الشاطئ حتى كورون ومضى لما أمر به ، وعندما رأى حجم الاسطول الجنوبي الكبير قرر عدم القتال وعوضاً عن ذلك أبحر بسرعة نحو كورون ، وقام كونتاكوزينو بأخذ جميع القوى البحرية البيزنطية (لانه كان من الضروري ان يفعل ذلك) وحمل ما يمكنه حمله من العساكر معه وشرع بمطاردة الاعداء

باقصى سرعة ممكنة ، وقد اخفق باللاحاق بهم ، لكنه وصل الى اللانقية ، وكانت لديه الرغبة في الدخول في امتحان للقوة مع بوهيموند ، حيث قام باحتلال الميناء ، وهاجم - بلا توقف - اسوار المدينة ليلا ونهارا ، لكنه لم يحقق اي تقدم يذكر ، فمئات الهجمات تمت على سور المدينة ومئات منهن رددن واحبطت محاولاته لكسب الفرنجة الى جانبه ، وهكذا اخفقت معركته ضدهم ، لهذا عمد الى تشييد سور مستدير من الصخور الجافة بين الرمال وسور اللانقية ، واستغرق هذا العمل ثلاثة ايام بلياليها ، وعندما كملت عمارته ، استخدمه بمثابة غطاء واق ، بينما جرى بناء سور آخر من الداخل بشكل محكم جاء بمثابة قاعدة للعمليات القتالية ضد دفاعات المدينة ، زيادة على هذا شيد برجان على طرفي مدخل المرسى ، ومد سلسلة معدنية بينهما ، وبهذا حال دون وصول المساعدات من جهة البحر ، واستولى في الوقت نفسه على عدد من الحصون على طول الساحل مثل : عرقة ، والمرقب ، وجبله ، ومواقع اخرى حتى حدود طرابلس ، منها ما كان يدفع في السابق الجزية للمسلمين ، لكن اعيد الان ضمه الى اراضي الامبراطورية البيزنطية وتوحيده معها وذلك بعد بذل الكثير من الجهد والعرق ، وادرك الكسيوس انه ينبغي حصار اللانقية من جهة البر ايضا ، فلقد كان صاحب تجربة طويلة بحيل بوهيموند وطرائق قتاله (ذلك انه كان عبقرى في سرعة التعرف على اخلاق الرجال والحكم عليهم) ويعرف جيدا الطبيعة الخيانية لهذا الامير واعمال تمرد ، لهذا بعث موناستراس على رأس فرقة قوية ليحاصر اللانقية من جهة البر ، بينما قام كانتاكوزينوس بحصارها من جهة البحر ، لكن قبل وصول موناستراس كان زميله قد تمكن من احتلال كل من الميناء والمدينة ، وبقيت القلعة (يشار اليها في ايامنا هذه باسم القلة) في ايدي خمسمائة من مشاة الفرنجة ومائة من فرسانهم .

وسمع بوهيموند بكل هذا كما وصله خبر من الكونت المسئول عن الدفاع عن القلعة ، بانعدام المؤن لديه ، فقام بجمع قواته مع قوات تانكرد وصنجيل ، وحمل جميع انواع الاطعمة والمؤن على ظهور

البغال ، وانطلق يريد اللاذقية ، وعندما وصلها لم يحتج الى طويل وقت حتى أوصل المؤن إلى القلعة ، وقابل بـبوهيموند كونتاكوزينوس ، وسأله : ما هي الغاية المرجوة من وراء تشييد هذا البناء ؟ فأجابه : لاشك انك على بينة بانك انت والامراء من اتباعك قد اقسمت على الدخول في خدمة الامبراطور ، ووافقتم عن طريق القسم على تسليمه اية واحدة من المدن استوليتم عليها ، ولقد حنثت بقسمك والقيت جانبا بمعاهدات السلم ، فبعد ان استوليت على هذه المدينة وسلمتنا اياها ، تراجعتم وبدلت رأيك واحتفظت بها ، لهذا عندما قدمت الى هنا لتسلم المدن التي استوليت عليها ، جاءت زيارتي بدون ثمرات ، وهنا سأله فأجابه : هل جئت الى هنا على أمل أخذها منا بالمال أم بالقوة؟ فأجابه : لقد تسلم حلفاؤنا المال لشجاعتهم في الحرب ، فامتلا بوهيموند غضبا ، وقال له : تيقن مما سأقوله : من غير المال لن تستطيع الاستيلاء على مركز للحراسة ، قال هذا وامر جنده بالاستعداد وحرضهم على الهجوم على ابواب المدينة لكن عندما اقترب الفرنجة من الاسوار ردوا على اعقابهم من قبل رجال كانتاكوزينوس الذين كانوا يحرسون الشرافات حيث اطلقوا عليهم رشقات كثيفة من النشاب ، تشبه زخات الثلج ، واعاد بوهيموند جمع قواته ، ودخل واياهم الى القلعة ، وحيث انه كان يرتاب باخلاص الكونت الذي كان يدافع عن اللاذقية ، ولا يثق برجاله ، فانه قام بتسريحه وتسريحهم ، وعين قائدا جديدا ، ثم قام في الوقت نفسه بتدمير الكروم القريبة من الاسوار حتى يتمكن فرسان الفرنجة من التحرك بحرية ، وبعدما قام بهذه الاجراءات غادر اللاذقية وعاد الى انطاكية .

اما بالنسبة لكانتاكوزينوس ، فانه تابع اعمال الحصار بكل الوسائل المتوفرة لديه ، وجرب مئات الطرق ، فقام بالانقاض المفاجيء ، وعمل على التضيق على الفرنجة في القلعة ، وفي الوقت نفسه كان موناستراس مشغولا أيضا ، حيث زحف عبر اليابسة على رأس فرسانه فاحتل لونغييناس (٧٧) وطرسوس واذنة والمصيصة ، لا بل جميع كيليكية .

واصاب بوهموند الهلع خوفا من تهديدات الامبراطور ، لانه لم يملك وسائل الدفاع (حيث لم يكن لديه جيش في البر ولا اسطول في البحر وقد احاقت به الاخطار من الجانبين) فلجأ الى ابداع خطة لم تكن مشرفة ابدا ، لكنها كانت بارعة الى حد مدهش ، فقد قام اولا بايداع مدينة انطاكية في يدي ابن اخته تانكرد بن المركيز اودو ، ثم نشر اشاعة وروج لها في كل مكان ، وقد دارت حول نفسه ، بانه قد مات ، وهكذا اقنع العالم اجمع بموته ، وبمبارحته لهذه الدار ، وهو ما يزال على قيد الحياة ، وانتشرت هذه الاشاعة كانتشار النار في الهشيم ، وعمت جميع الارحاء .

وعندما تصور بأن القصة انتشرت بما فيه الكفاية اعد تابوتا من الخشب وسفينة ذات صفين من المجذقين ، ووضع التابوت على ظهرها ، بينما ظل هو في داخله جسدا ميتا ، لكنه يتنفس الهواء ، وابتحرت السفينة من السويدية - ميناء انطاكية - نحو روما ، ونقل على ظهرها بمثابة جسد ميت ، وظهر للجميع (من النعش وسلوك مراقبيه) ان بداخله جسدا ميتا ففي كل محطة قام البرابرة بتمزيق شعورهم ، واظهروا مناحتهم عليه ، بينما تمدد بوهموند على طوله داخل نعشه ، وكان هذا هو مظهر الموت الوحيد البادي منه ، ففي بقية المجالات كان حيا .

هذا ما كان يقوم به في كل مكان ساحلي ، لكن عندما كان المركب في عرض البحر ، تقاسم اتباعه طعامهم معه ، وقاموا على خدمته واولوه عنايتهم ، حتى محطة جديدة حيث تتجدد التظاهرة والمناحة ثانية مع الموت المزيف ، وحتى لا يبدو الجسد في حالة شاذة من عدم التفسخ وظهور النتن قاموا بخنق - او قطع عنق - احد الطيور ، ووضعوه معه في التابوت ، فمع حلول اليوم الرابع او الخامس على الاكثر كان نتن الجيفة والروائح الكريهة واضح لكل انسان يستطيع الشم (٧٨) ، و ظن هؤلاء الذين خدعوا بالمشهد الخارجي ، ان الرائحة المजوجة صادرة عن جسد بوهموند ، لكن بوهموند نفسه

استمد مزيدا من الغبطة اكثر من اي انسان ممن ساءهم ما
اصابه - كما تصوروا - من سوء الحظ .

وبالنسبة لي انني لتعتريني الدهشة ويتولاني العجب ، كيف
تحمل بوهيموند مثل هذا الحصار والتضييق على نفسه ، وكيف ظل
بين الاحياء ، مع انه حمل الى جانبه رفيقه الميت ، لكن هذا علمني
كيف يمكن ان تكتشف جميع البرابرة ، فهم ما ان يقررون صنع امر
من الامور ، لا يوجد شيء مهما بلغت درجة تعويقه لا يمكنهم تحمله ،
فهم عندما يصرون على قضية من القضايا يقدمون على تنفيذها مهما
كان نوع المعاناة .

لم يكن هذا المخلوق بوهيموند ميتا بعد - كان ميتا فقط
بالتظاهر - ومع هذا لم يتردد في العيش مع جسد ميت ، ان وحشية
بوهيموند لاسابق لها في عصرنا ولا نظير ، وكان باعثها فقط اسقاط
الامبراطورية البيزنطية ، فما من بربري او اغريقي اخترع من قبل
مثل هذه الخطة ضد اعدائه ولاحتى بالخيال ، ولا يمكن لاي انسان في
ايامنا ان يرى ذلك ممكنا ثانية ، وعندما وصل الى كورفو شعر كأنه
لجأ الى قمة جبل مانع ، او ان الجزيرة هي ملجأ له حصين ، وانه
تحرر الان من كل خطر ، فقام من موته المزعوم ، وغادر النعش
حيث كان جسده ممددا ، فتمتع بنور الشمس تماما ، وتذشق الهواء
النظيف ، وتمشى حول مدينة كورفو ، وعندما رآه اهل المدينة يرتدي
ثيابا بربرية غريبة ، سأله عن نسبه وعن وضعه واسمه ، ومن اين
جاء والى اين هو ذاهب ؟ وعاملهم بوهيموند بترفع ، وطلب مقابلة
والي المدينة ، وكان رجلا اسمه الكسيوس ، جاء بالاصل من بند
ارمينية ، وعندما التقى وجها لوجه مع بوهيموند بدا الاخير متعجرفا
في مسلكه ومظهره ، وتحدث برعونة بلهجة بربرية صرفة ، وامره ان
يرسل الرسالة التالية الى الامبراطور حيث قال : « اليك ، انا
بوهيموند ، الابن الشهير لروبرت ، ابعت بهذا الرسالة : لقد علمك
الماضي وعلم امبراطوريتك كم هي مخيفة شجاعتي وعداوتي ،
فعندما يرجع السعد الي ، فان الرب على ما اقول شهيد : انني لن

اتوقف عن الانتقام لكل الشرور التي لحقت بي في الماضي ، فمنذ ان استوليت على انطاكية ، اثناء زحفـي في الاراضي البيزنطية ، استعبدت سورية كلها برمحي ، لكن جميع ما لحقني من شرور ، ونزل بي من نوازل كان بفعلك وفعل جيشك ، امالي كلها تبذرت واحدة تلو الاخرى ، لقد خضت غمار الالف الانتكاسات والاف الحروب القاسية ، لكن الوضع اختلف الان ، اريدك ان تعرف انه مع اني كنت ميتا قد عدت الى الحياة ثانية ، ونجوت من قبضتك على شكل رجل ميت ، ونجوت من كل عين وكل يد وكل خطة ، وانا الان حي ، انني اتحرك وأتنفس الهواء ، ومن جزيرة كورفو ابعث اليك يا صاحب الجلالة اخبار عدوانية ومكروهة ، لن يسرك قراءتها ، لقد سلمت مدينة انطاكية الى ابن اختي تانكرد ، وتركته هناك عدوا كفتا للرد على قادة عساكرك اما أنا نفسي فسأذهب الى بلادي فأنا بـ_____النسبة لك

ولاصدقائك بين الاموات أما بالنسبة لي ولاصدقائي فواضح انني رجل حي أأمر لوضع نهاية شريرة لك ، وحتى أثير الفوضى في العالم البيزنطي الذي أنت حاكمه ، فأنا الذي كنت حيا غدوت ميتا ، والآن الذي مت ، أنا حي ، واذا ما وصلت الى ايطاليا والقيت ناظري على اللومبارديين ، وجميع اللاتين والجرمان وفرنجيتنا ، وهم جميعا رجال حرب اشاوس ، عندئذ سأقوم بالعديد من المذابح في مدنك ، وسأجعل الدم يسيل في بلدانك حتى أركز رمحي في القسطنطينية ذاتها».

مثل هذا ، هو الغلو الذي تفاخر به البرابرة .

يوميات صاحب اعمال الفرنجة

التبشير بالحملة الصليبية الاولى

« اعمل بالبابا التبشيرية ————— يرية — الحملة
الجماهيرية — الصليبيون في القسم — طنطينية — جيش
بوهيموند وقوات النورمان الايطاليين — الوصول الى نهر
الوردار » .

١ - جاء الى الوجود هذا اليوم ، ما كان المسيح يقوله دوما
لاتباعه ، ومصادقا لما جاء في الكتاب المقدس : « إن اراد احد ان
ياتي ورائي ، فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني » (١) ، مما
احدث هياجا عظيما شمل بلاد غالية (فرنسا) ولم يتوان ، كل ذي
قلب طاهر وروح سليمة ، صادق النية في إيمانه بالرب ، عن حمل
الصليب والمبادرة لأخذ الطريق نحو القبر المقدس .

وسرعان ما اكتسب اوربان الحبر الرسولي لكرسي روما الى
جاذبه اهالي البلدان القائمة فيما وراء الجبل (٢) ، من جميع
المطارنة والاساقفة والشمامسة والرهبان ، وقام يخطب في القوم
ويعظهم بمواعظ ثمينة موضحا انه لايجوز لكل رجل يسعى في
خلاص روحه ان يتوانى عن سلوك طريق الرب بكل خشوع ، وان
احتاج الى المال فالعناية الربانية مستسغفه ، واضاف الحبر
الرسولي في بيانه قائلا : « ايها الاخوان ، عليكم ان تتحملوا الكثير
من المشقة والفقر والعذاب ، من اجل اسم المسيح ، وتعانوا العري
والاضطهاد والمذلة والمرض والجوع والعطش ، وما شاكل هذا من
صنوف الشرور ، كما قال الرب لحوارييه : « سأريكم كم ينبغي ان
تتألموا من اجل اسمي » (٣) وقوله : « اني انا اعطيكم فما وحكمة
لايقدر جميع معانديكم ان يقاوموها او يناقضوها (٤) » او كما قال
ايضا : « انكم ستأخذون ميراثا عظيما (٥) » .

ولم تلبث هذه الدعوة ان انتشرت رويدا رويدا في جميع بلاد غالية واعمالها ، وما ان سمع الفرنجة عظته هذه حتى بادروا بكل سرعة الى وضع علامة الصليب كل منهم على كتفه الايمن ، مرددين جميعا رغبتهم في السير على خطى المسيح وفي اقتفاء اثاره ، وكلهم امل ان تمكنهم تلك الخطى من استعادة السلطة من البرابرة (المسلمين) .

وسرعان ما غادرت حشود الفرنجة بيوتهم وديارهم وانقسموا الى ثلاثة فرق ، حيث دخل فريق منهم فيه بطرس الناسك والكونت بلدوين دي مونس ، وسار هؤلاء الفرسان الشجعان وغيرهم كثير - ممن لا يعرفه - على الطريق الذي سلكه من قبل شارلمان - ملك غالية الكبير - الى القسطنطينية (٦) .

٢ - وكان بطرس الناسك اول المتوجهين نحو القسطنطينية ، وقد وصل اليها « يوم ٣٠ تموز لسنة ١٠٩٦ م » وبرفقته الجزء الاعظم من جماعة الالمان ، وقد انضم اليه هناك اللمبارديون ، وكثير ممن سواهم وقام الامبراطور بتزويدهم بما امكن من المؤن ، وقال لهم : « لاتعبروا البسفور قبل ان تلحق بكم بقية العساكر المسيحية ، لانكم لستم من القوة والتعداد مما يمكنكم من محاربة التركمان » .

وسلك المسيحيون اثناء اقامتهم سلوكا شائنا ، حيث هدموا القصور ، واشعلوا فيها النيران ، واقتلعوا الرصاص من اسقفة الكنائس وباعوه للاغريق ، مما اغضب الامبراطور شديد الغضب ، فامر وهو في حاله هذا ، بابعادهم وعبورهم البوسفور .

ولم يتوقف الفرنجة - بعد كل ما اقترفوه - عن ارتكاب كافة صنوف الجرائم مثل اضرار النيران في البيوت والكنائس وتخريبهم اياها ، ووصلوا اخيرا الى نيقوميديا ، حيث تميز اللمبارديون والالمان عن الفرنجة وابتعدوا عنهم ، وفعل الالمان كذلك ، وولجوا الى بلاد اسية الصغرى ، وزحفوا لمدة اربعة ايام يريدون نيقية ،

وعبروا بجانب قلعة خاوية اسمها اكرغوردوس ، فاستولوا عليها ،
وقد عثروا في داخلها على كميات كبيرة من المؤن كالقمح والخمور
واللحوم وشتى اصناف الاطعمة .

ولما عرف التركمان بخبر استيلاء المسيحيين على هذه القلعة
هبوا لاستردادها ، وكان امامها بئر ، وعند اقدامها نبع ماء جار ،
فنصب رينالد الى جانبه شركا للتركمان ، ووصل التركمان يوم
القديس ميخائيل (٧) حيث وجدوا رينالد واصحابه ، فانقضوا
عليهم وابدوا قتلا واسرا عددا كبيرا منهم ، ولاذ الباقون بالفرار
الى داخل القلعة واعتصموا بها ، وشرع التركمان في حصارهم
فيها ، ومنعوا عنها الماء ، فاشتد العطش برجالنا شدة دفعتهم الى
فصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دماءها ، والقى الآخرون
الخرق معلقة بالشصوص في الكنف ، وعصروها في افواههم ، وكان
احدهم يبول في يد رفيقه ، ثم يشرب الاثنان ، وحفر البعض منهم
حفرا في الارض الرطبة واضطجعوا فيها ، وهالوا التراب على
صدورهم ، وهكذا وصلت شدة عطشهم الى هذا الحد ، وقد عمل
الاساقفة والكهنة على شد عزائم رجالنا ، واخذوا يحضونهم على
الصبر .

واستمرت هذه المحنة ثمانية ايام متوالية ، ثم عقد مقدم الالمان
مع التركمان اتفاقا وعدهم فيه تسليم اصحابه ، ثم تظاهر بالخروج
الى القتال ، وهرب اليهم ، وحذا حذوه الكثيرون فلحقوا به ، وواجه
حତفه كل من رفض التذكر للرب ، اما الذين استمروا على قيد الحياة
فقد وقعوا في الاسر وتقاسمهم الاعداء كاقديسام السائمة ، واتخذ
التركمان من بعضهم هدفا سدوا نحوه سهامهم ، ثم عادوا يتهادون
بعضهم ، ويبيعون بعضهم الآخر بيع الدواب ، وساق فريق من
الاعداء الغنيمة الى مساكنهم ، واخذ فريق حصته الى
خراسان (٨) وانطاكية وحلب ، وذهب كل بها الى حيث كان يقيم .

لقد كان هذا هو ذيل الشهادة الكريمة التي حظي بها الرجال
الاولاء على طريق تمجيد اسم الرب يسوع .

ولما علم التركمان بعد هذا بوجود بطرس الناسك ، وجوتيه سانز افوار (٩) ومن برفقتهم في هرسك فيما وراء نيقية زحفوا ضدهم ، وكلهم حماس وامل في القضاء عليهم ، كما قضوا على رفاقهم من قبل ، والتقوا اثناء زحفهم بجوتيه ومعه جماعته ، فانقضوا عليهم وابادوهم (١٠) ، اما بطرس الناسك فقد عاد الى القسطنطينية (١١) ، بعدما عجز عن تنظيم اتباعه من العساكر الذين تولاهم الياس فاضحوا عازفين عنه ، منصرفين عن خطه ، وقد انعطف عليهم التركمان فابادوا منهم عددا كبيرا ، ذلك انهم صادفوا بعضا منهم مستغرقا في نومه ، وبعضهم الاخر اعزلا مجردا من كل شيء فابادوهم جميعا ، وكان هناك كاهن يقوم بمراسيم الوعظ فقتلوه فنال الشهادة وهو على المنبح ، وقد هرب الذين كتب لهم النجاة الى

هرسك ، كما القى بعضهم انفسهم في البحر والتجأ سواهم الى الاحراج في الجبال وتخفوا فيها ، وانطلق التركمان في اثارهم ، وجمعوا الحطب لاحراقهم هم والمدينة معا ، لكن المسيحيين الذين استولوا على المدينة القوا النار على الحطب ، واشتعلت النيران واتجه اللهب نحو التركمان فاحرق بعضا منهم ، وحفظ الرب رجالنا فلم تمتد اليهم تلك النيران ، لكن على الرغم من ذلك تمكن التركمان اخيرا من اسرهم احياء وتقاسموهم فيما بينهم كما سبق لهم ان فعلوا مع سلفهم ، وشنقوهم في كل ناحية ، وساقوا بعضهم الى خراسان ، ومضوا ببعضهم الاخر الى ايران .

لقد جرت كل الاحداث في شهر تشرين اول ، ولم يكتف الامبراطور (الكسيوس) فرحته الكبرى ، حين وصله خبر تمزيق التركمان لصفوف رجالنا ، واصدر تعليماته بعبورهم البوسفور بعدما جردهم من كل الاسلحة التي كانوا يحملونها .

٣ - ودخل الفريق الثاني اراضي الصرب والكروات مع كل من ريموند الصنجيلي واسقف بوي (١٢) ، وسار الفريق الثالث عبر الطريق القديم الذي كان يقود الى روما ، وكان في صفوف هذا

الفريق بوهموند (ابن روبرت جيسكارد) ورتشارد البسالرني (١٣) ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت النورماندي (١٤) وهيوج الكبير (١٥) ، وايفراددي بواسيه ، واكادي مونتيريل وايزور موزون ، وغيرهم كثير ، وقد مضى بعض منهم الى ميناء برنديزي ، وبعضهم الآخر الى ميناء باري ، وغيرهم الى اوترانتو .

وابحر هيوج الكبير ووليم بن المركيز (اخو تانكرد) من باري ، والقيا مراسيهما في احواز دورازو ، التي ما كاد عاملها يعلم بخبر ارسانهما حتى حاك في نفسه خطة دنيئة ضدهما ، حيث القى القبض عليهما وقام بترحيلهما الى القسطنطينية (١٦) ، ليمثلا امام الامبراطور ، وليقسما له يمين الولاء .

ووصل اخيرا الكونت غودفري الى القسطنطينية ، وقد كان مقدما على جميع الامراء ، ويقود جيشا كبيرا ، ووصل اليها قبل موعد ميلاد الرب بيومين ، واقام معسكرا في خارج المدينة ، حتى سمح له الامبراطور المتجبر في الاقامة في احدى الضواحي ، واعتاد الكونت على الاقامة حيث حدد له ، وكان يبعث برجاله كل يوم - في هدوء - لجلب الاعلاف وكل ما تحتاجه الخيول ، وخيل لرجاله انه بامكانهم الذهاب آمنين متى ارادوا وانى شاءوا ، لكن الامبراطور الكسيوس الغدار امر من كان لديه من العساكر والمرتزقة بمهاجمتهم والايقناع بهم انى صادفوه (١٧) ، ولما علم بلدوين - اخو غودفري - بهذا كمن لعساكر الامبراطور ، وانزل بهم ضربة قاسية ، وهم في طريقهم للقضاء على رجاله ، واستبسل في قتله لهم ، ومنحه الرب التأييد ، فانتصر عليهم واسر منهم ستين رجلا ، غير من قتلهم ، وجاء بهؤلاء الى اخيه غودفري .

واستطار الامبراطور غضبا حينما وصل اليه نبأ هذه الاحداث ، ولما رآه غودفري ساخطا متجهما نحوه ، ترك تلك الضاحية ومعه اتباعه ، وعسكر خارج المدينة ، ومع حلول الظلام اصدر الامبراطور الشقي اوامره الى قواته بالقيام بهجوم على غودفري والمسيحيين

الذين معه ، لكن غودفري تصدى لهم على راس عساكر المسيح . وانتصر عليهم ، وقتل منهم سبعة رجال وطارد الباقين حتى بوابة المدينة ، ثم عاد الى معسكره ولزمه مدة خمسة ايام استجم بها ، ثم عقد صلحا مع الامبراطور ، الذي حثه على عبور ذراع القديس جورج (البوسفور) وسمح له بالتزود بالعتاد حسب المستطاع ، كما اعطاه بعض المال لينفقه صدقة على الفقراء .

٤ - اما بوهموند المنصور ، فقد كان مذمغلا انذاك بحصار جسر سكافارد في امالفي ، ولدى معرفته بوصول جماعة مسيحية كبيرة تفوق العد والحصر ، وعازمة على المضي نحو القبر المقدس ، وانها تعهدت بشمن الحرب ضد الكفرة ، اهتم بوهموند بالامر ، واستفسر عن اسلحة هذه الجماعة وعن شعارها المسيحي الذي تحمله في الطريق ، وعن هتافها في المعركة ، ف قيل له : انهم يستخدمون اسلحة مناسبة للحرب ، ويحملون شارة صليب المسيح على احد الكتفين ، او على الظهر ، وانهم يرددون بصوت واحد شعارا نصه : « انها ارادة الرب - انها ارادة الرب - انها ارادة الرب » ، وامتلا بوهموند - في الحال - بالروح القدس ، وامر بتقطيع رداءه الثمين الذي كان يرتديه الى قطع صغيرة يصنع منها صلبانا (١٨) .

وانطلق الجزء الاكبر من الفرسان الذين كانوا يحاصرون المدينة ، نحو بوهموند وانضموا اليه ، حتى ان الامير « روجار » كاد ان يبقى وحيدا ، لهذا اقلع عن متابعة الحصار ، وعاد الى صقلية مغتما وشاكيا لضياح جيشه .

وعندما رجع الامير بوهموند الى ممتلكاته (١٩) ، استعد غاية الامكان لاختذ الطريق نحو القبر المقدس ، وبعد لاي ركب البحر يصحبه جيشه وكل من تانكرد بن المريكز ، والامير رتشارد ، واخوه رينول ، وروبرت انز ، وهرمان دي كاني ، وروبرت سورديفال ، وروبرت بن توستاني ، وهنفري بن رودولف ، ورتشارد بن الكونت

- ٢٥٠٤ -

فباغتوهم ، واستبدلوا في هجومهم عليهم حتى هزموهم ، ثم اسروا عددا منهم واقتادوهم مشدودي الوثاق الى حضرة الامير بوهيموند فسألهم قائلا : ما الذي دفعكم ايها التعساء على قتل جندي الذين هم جند المسيح ، مع انني لم اناجز امبراطوريتكم العداء قط ؟ (٢١) فأجابوه : الحق نقول ، لقد جرى استنجاننا لحساب الامبراطور ، وكان علينا ان ننفذ كل ما امرنا به ، فسمح بوهيموند لهم بالانصراف دون ان يقتص من واحد منهم وقد جرت هذه الواقعة في اليوم الرابع من اسبوع صوم الاربعين . (٢٢) • مبارك هو الرب دائما • امين .

الكتاب الثاني

من واقعة نهر الوردار الى الاستيلاء على نيقية

مسيرة النورمان الايطاليين - نهاب بوهوموند الى
القسطنطينية-الامراء الصليبيون في القسطنطينية
- قسم الولاء - زحفهم نحو نيقية. حصار نيقية
والاستيلاء عليها.

٥ - وبعث الامبراطور في الوقت نفسه واحدا من رجاله المقربين
الى مبعوثينا ، وكان هذا ممن يحتل مكانة سامية لديه ، ممن
يدعونهم مواليه ، بعثه ليتولى ارشادنا الى السبل الامنة في جميع
بلادهم وحتى نصل الى القسطنطينية وكان يأمر - اثناء جوازنا
ببلدانه - السكان بحمل الاقوات كما فعل الذين تحدثنا عنهم قبل ،
وكان هؤلاء السكان قد استولى عليهم الخوف ، وكانوا يخشون من
عساكر الامير بوهوموند الاشاوس ، حتى انهم لم يأتوا لواحد منا
باجتياز اسوار مدنهم ، وحدث ذات مرة ، ان اراد واحدا من رجالنا
مهاجمة احد الامكنة الحصينة والاستيلاء عليه ، راغبا في حيازة
ماكان فيه من خاثر كثيرة ، ورفض بوهوموند الحكيم طلبه وانكر
عليه محاولة مغادرة مكانه الا بموافقته وذلك تمسكا بوعده الذي
قطعه للامبراطور ، وقد غضب غضبا شديدا من تاذكره ، واشتد
غضبه ايضا على بقية الآخرين (٢٣) ، وقد جرت هذه الواقعة ليلا ،
وفي صباح اليوم التالي خر - سكان المدينة يطوفون بارجائها ، وهم
يحملون الصليبان في ايديهم ، ومثلوا امام بوهوموند الذي رحب بهم ،
وهش لهم ، ثم صرفهم بعدما طمأنهم على انفسهم وعلى بلدهم.

ووصلنا بعد ذلك الى بلدة تدعى سيرا (٢٤) حيث اقمنا معسكرنا
ولقد وجدنا بها كمية وافرة من المؤن المناسبة لهذا الموسم ، وعقد
بوهوموند هناك اتفاقية مع اثنين من كبار عمال الامبراطورية ، وقد
نفعتهم رغبته في الحفاظ على سلامة الارض ومحبتهم لهما على
اصداره الاوامر الى رجالنا للقيام باعادة جميع السائمة التي

انتهبوا ، وانتهى بنا المسير بعدئذ الى مدينة روسا (٢٥) ، فخرج
اهلها من الاغريق جميعا فرحبوا بنا ، ونصبنا بها خيامنا في يوم
الاربعاء - المقدس - السابق لعشاء الرب السري الاخير (٣٦) ،
وترك بوهموند جميع قواته هناك ، واصطحب معه شرذمة صغيرة
من الفرسان ، وعهد الى تانكرد بقيادة جند المسيح ، وعندما وجد
تانكرد الحجاج يقدمون على شراء الاطعمة ، تعهد بالابتعاد عن
الطريق العام ، وقيادة الشعب الى مكان يستطيع ان يجد فيه المؤن
بوفرة ، وعلى هذا توغل في واد فيه كل شيء ضروري للعيش ، وقد
احتفلنا فيه احتفالا بهيجا بعيد القيامة .

٦ - وعندما عرف الامبراطور بان بوهموند العظيم المبجل في
طريقه اليه ، امر باستقباله بكل حفاوة ، وانزله في منزل فاخر واقع
خارج المدينة (٢٧) ، ولما نفّض عنه غبار السفر واستجم قليلا ،
بعث الامبراطور اليه يسأله القدوم عليه للتفاوض معه على انفراد ،
ولقد اشترك في الاجتماع كل من غودفري واخيه (بلدوين) وكان
كونت صنجيل قد اقترب انذاك من المدينة ، وقلق الامبراطور من ذلك
وغضب غضبا شديدا ، واخذ يحيك مؤامرة تمكنه من تسخير
عساكر المسيح لصالحه ، سواء اكان عن طريق المكيدة أم
الخداع ، لكن العناية الربانية صرفت عنهم كل مكيدة ولم تمكنه لاهو
ولارجاله من ايقاع ابنى اذى بهم ، وفي هذا الوقت الذي كان فيه
بوهيموند وغودفري مجتمعين بالامبراطور ، اجتمع في مكان آخر
جميع مقدمي البطارقة (النبلاء) الذين كانوا في القسطنطينية
، وخافوا أن يفقدوا مدينتهم ، فقاموا بتدبير بعض الخطط
الخرقاء ، حيث خيل اليهم ان زعماء جيشنا والأمراء سيقدمون على
أداء قسم الولاء للامبراطور ، لكن رجالنا رفضوا مطلب
الامبراطور وعروضه وقالوا : ان هذه أمور مزرية بنا ، ولايجوز لنا
أن نقسم يمين الولاء فلربما غرر بنا زعمائنا ، وانذاك من الذي
يمكنه حسم هذه المسألة فقد يقولون عند ذاك : ان الضرورة الملحة
قد حملتنا على الخضوع والانصياع لمشينة الامبراطور .

ووعده الامبراطور الأمير بوهموند الشجاع ، والذي كان يخشاه حيث انه فر من أمامه أكثر من مرة ، وعده أن يقطعه أرضا وراء انطاكية ، تمتد مسيرة خمسة عشر يوما طولا وثمانية أيام عرضا ، مقابل تقديم بوهموند يمين الولاء له ، من غير تردد ، ووعده الامبراطور أنه لن يتخلى عن عهده اليه ، مادام متمسكا بولائه (٢٨) ، وغريب حقا كيف تصرف هؤلاء الفرسان الشجعان الأشاوس هذا القصر ؟ لا شك ان الحاجة الملحة ارغمتهم على القبول بتقديم قسم الولاء.

وتعهد الامبراطور من جهته لرجالنا بالوفاء بعهده ، وأنه سيضمن سلامتهم ، لابل قد أقسم أنه سيرا فقتنا شخصا ومعه جيشه واسطوله ، وأنه سيؤمن جميع المؤن التي سنحتاجها برا وبحرا ، من غير تباطؤ ، وسيسعى الى تعويض جميع خسائرنا ، وتدارك كل ما سنحتاج اليه ، حتى لا يشعر أحد من الحجاج ، وهم في طريقهم نحو القبر بشيء من الخوف أو الملل ، وكان الكونت صنجيل مقيما في هذا الوقت في إحدى المقاطعات ، وبقي جيشه معسكرا في الخلف ، وبعث اليه الامبراطور يطلب منه أن يقسم يمين الولاء له كما فعل غيره من الأمراء ، ورفض صنجيل وشرع يخطط ساعته للانتقام من الجيش الامبراطوري لكن الأمير غودفري وروبرت كونت فلاندر مع بقية البارونات عزلوه وأخبروه أنه ليس من العدل أن يشهر سيفه في وجه الامبراطور ولمحاربة المسيحيين ، وزاد بوهموند العاقل على ذلك أنه اذا أقدم (كونت تولوز) على ارتكاب أي عدوان ضد الامبراطور ، وخالف ماتعهد به بقية الأمراء ، فإنه - اي بوهموند - سيقف بنفسه ضده والى جانب الامبراطور ولدى سماع صنجيل هذا مضى للتشاور مع رجاله ، ثم عاد فأقسم يمين الولاء والتبعية للامبراطور ، وتعهد بالحفاظ على حياة الامبراطور واحترام ارأته ، وتشريف مكانته ، وعدم تعريضه للاساءة أو المهانة من قبله أو من قبل واحد من رجاله ، ومع هذا يلاحظ أنه عندما وجهت الدعوة اليه لحضور الحفل العام الذي أقامه

الامبراطور احتفاء بما تعهد به الأمراء ، رفض الدعوة وأصر على رفضه وأعلن أنه لن يستجيب حتى لو قاده رفضه الى موته وتلف نفسه ، وفي الوقت الذي كان هذا كله يحدث في العاصمة اقترب جيش بوهموند منها .

٧ - وحتى يتجنب كل من تانكرد ورتشارد السالرنى أداء قسم الولاء للامبراطور تسلا هاربين وعبرا اليوسفور خفية ، واصطحبا معهما الجزء الأكبر من عساكر بوهموند ، ولم يلبث جيش الكونت صنجيل أن وصل الى القسطنطينية ، حيث أقام هو ورجاله بعض الوقت ، وبقي بوهموند في صحبة الامبراطور للتشاور معه حول الوسائل الجدية التي ينبغي اتخاذها لتسهيل عبور القوات الموجودة وراء نيقية ، بينما مضى الأمير غودفري الى نيقوميديا وبرفقته تانكرد وبقية الأمراء ، ولبث الجميع هناك ثلاثة أيام .

ولما وجد الأمير (غودفري) أنه ليس هناك طريق يمكن المسير عليه وقيادة هذه الأعداد نحو نيقية ، فالتريق الذي سبق أن عبره الصليبيون الأوائل لايتحمل حشودا كثيفة مثل هذه الحشود ، أقول لما وجد غودفري الحال على هذه الصورة ، قدم أمامه سرية فيها ثلاثة آلاف رجل وسلحها بالفؤوس والسيوف ، وأمرها أن تتقدم أمام الجيوش وأن تقوم بتمهيد الطريق وتوسيعه ليتمكن حجاجنا من عبوره الى نيقية ، وبالفعل تمكن هؤلاء الرجال من شق طريق مناسب عبر شعاب احد الجبال العالية ، وقاموا أثناء عملهم بصنع كمية من الصلبان من الخشب والحديد ، ونصبوها على شكل صوى لتكون وسيلة ارشاد لحجاجنا ، وهكذا وصلنا الى أحواز مدينة نيقية حاضرة بلاد أسية كلها ، وكان يوم وصولنا هو السادس من أيار، و هنا أقمنا معسكرنا .

ومضينا قبل وصول الأمير بوهموند نلتمس الخبز ، فلم نجد الا القليل منه ، حتى أن الرغبة الواحد كان يباع بعشرين أو ثلاثين دينارى ، ولما وصل بوهموند الحكيم جلب معه عن طريق البحر مؤنا

كثيرة ، وتوالى بعد هذا وصول الامدادات عبر اليايسبة والماء ، فعمت الفرحة العظمى بين صفوف عساكر المسيح .

٨ - وشرعنا يوم صعود الرب (٢٩) في مهاجمة المدينة من جميع اطرافها ، وقمنا بصنع عدد من الأبراج الخشبية زودنا بعضها باكباش أردنا أن نهدم بها أبراج الأسوار ، وبعد مضي يومين استطعنا أن نقرب من أسوار المدينة بكل شجاعة واندفاع ، فهدمنا أسوارها وبككنا أبراجها ، وقام التركمان المدافعون عن المدينة بإرسال رسالة استغاثة ، وعندما وصلت النجدة بعثوا اليها يقولون : أقبلوا غير هيايين ، واقربوا غير وجلين ، وادخلوا من الباب الجنوبي لأنكم لن تجدوا في هذه الناحية من يعترض سبيلكم أو يقف في طريقكم .

وفي اليوم نفسه - أي يوم السبت التالي ليوم صعود الرب تمكن الكونت صنجيل وأسقف بسوي من احتلال تلك الجهة الجنوبية ، وخرج هذا الكونت ، الذي جاء من بلاد غير بلادنا ، خرج ترعاه العناية الربانية ، وهو يزهو بأسلحته الدنيوية ، فانتقض بجيشه على التركمان الذين كانوا يزحفون نحونا ، وحيث أنه كان مسلحا بشارة الصليب من جميع الجوانب ، فقد استبسل في هجومه عليهم وقاتلهم بشدة متناهية ، فالحق بهم الهزيمة وانتصر عليهم ، فلانوا بالفرار بعدما خلفوا وراءهم أعدادا كبيرة من القتلى ، وكانت جماعة أخرى من التركمان قد أقبلت تريد نجدة من سبقها ، أقبلت ونفوس رجالها تفيض سرورا وأملا بالنصر المحقق ، وأحضروا معهم الحبال ليربطوا بها رجالنا ، ويأخذونهم معهم مصفدين بالأغلال الى خراسان ، وكانوا في حالة من النشوة والطرب ، وأخذوا ينحدرون فئة تلو أخرى من قمة مرتفع ، وكانوا كلما وصلوا الى السهل ليستقروا هناك ضربت أعناقهم بأيدي رجالنا ، الذين أخذوا يضعون رؤوس هؤلاء القتلى في العرادات ويقذفون بها الى داخل المدينة بغية نشر الرعب بين صفوف سكانها التركمان .

وتبادل بعد هذا كونت صنجيل وأسقف بوي الرأي واتفقا حول الوسائل التي تمكنهما من هدم أحد الأبراج ، وكان قائما أمام معسكريهما ، وقد عمدا الى ارسال عدد من الرجال لحفر نفق تحته بغية تعليقه ، ومضى هؤلاء بحماية جماعة من حاملي الأقواس والنشاب ، وجرت عملية الحفر بنجاح ، وتم وضع كمية من الأخشاب تحت أساسات البرج ، ثم أضرمت فيها النيران ، ومع حلول الظلام إنهار البرج ، غير أن القتال توقف بسبب الظلام ، فانتهاز التركمان الفرصة وخرجوا في الليل الدامس فرموا ماتشعت من الأسوار حتى عانت أقوى مما كانت عليه ، وفي الصباح رأى رجالنا ذلك وأدركوا أنه بات من المحال انزال الأذى بالعدو من تلك الجهة .

وتلاحق وصول العساكر ، فوصل روبرت (كونت هيوز) النورمندي ، والكونت ايتين (٣٠) ، وغيرهما كثير ، ثم وصل روجر دي بانفيل ، وقام بوهموند بمهمة حصار المدينة من الجهة الامامية ، ووقف الى جانبه تانكرد ، ثم التحق به الأمير غويفري وكونت فلاندر يعاونه روبرت بوق نورمندي ثم الكونت صنجلي ومعه أسقف بوي ، واشتد الحصار الذي ضرب على نيقية من جهة البر شدة كبيرة ، ولم يعد بإمكان أحد ما الخروج من المدينة أو الدخول اليها ، ووقف الجميع في هذه الساعة وقفة رجل واحد ، لكن من الذي يمكنه احصاء تعداد جيش المسيح !؟

ويخيل لي أنه لم يتأت لأحد ، ولن يتأتى لانسان أن يشاهد مثل هذا العدد الهائل من الفرسان ، وهم في غاية التأهب والاستعداد (٣١) .

لكن كانت هناك بحيرة كبيرة واقعة في الجهة المقابلة لنيقية ، فيها قوارب للتركمان ، الذين ملكوا حرية الخروج من مدينتهم لجلب الأعلاف والأخشاب وغير ذلك من أنواع العتاد ، وتشاور قانتنا حول هذا الأمر ، وقر قرارهم على ارسال مبعوثين عنهم الى

القسطنطينية يطلبون من الامبراطور انقاذ عدد من السفن الى شفتوت حيث وجد فيها ميناء ، كما طلبوا منهم أن يوعز بجمع ما أمكن جمعه من الثيران ، وسوقها عبر الجبال والأحراش الى أحواز البحيرة ، وسرعان ماتم تنفيذ ذلك ، وبعث الامبراطور في الوقت نفسه مرتزقته ، وجلبت القوارب ، ولم ير القوم انزالها الى الماء في وضح النهار ، لكن عندما حل الظلام انزلوها الى البحيرة ، واعتلاها المرتزقة وهم في كل اسلحتهم ، ومع بزوغ الفجر شوهدت القوارب الصغيرة وهي تجدف وسط البحيرة في أحسن نظام ، ميممة شطر المدينة ، وماكاد التركمان يرون هذا المشهد ، حتى تملكتهم الدهشة واحتاروا في أمرهم ، وتساءلوا : أتراها لقومهم أم أنها لعساكر الامبراطور ؟ وسرعان ما عرفوا أنها نجدة من الامبراطور ، فاستولى عليهم الرعب ، وهلعوا ، واجهشوا في البكاء والنحيب بينما كان الفرنجة يطيطون فرحا ، ويمجدون الرب .

ولما ايقن التركمان في النهاية ، انهم لن يستطيعوا تلقي اية نجدة من جيوشهم ، ارسلوا سفارة الى الامبراطور ، تخبره باستعدادهم لتسليم البلد له ، اذا سمح لهم بالخروج مع نسائهم وأطفالهم وجميع ما يملكون ، وسر الامبراطور وابتهج ، ودفعته سوء طويته الى القبول و الايعاز باخراجهم آمنين ، وارسالهم سالمين مطمئنين الى القسطنطينية للمثول امام جلالته ، وعاملهم باللطف واللين ليكونوا على استعداد للتعاون مع ونصب كمائن للفرنجة ، واقامة العقبات في طريقهم (٣٢) .

واستمر حصار نيقية سبعة اسابيع وثلاثة ايام ، واستشهد فيه العديد من رجالنا ، وعرجت ارواحهم الطاهرة الى الرب مغتربة جذلي ، ومات كثير من الفقراء جوعا في سبيل تمجيد اسم الرب ، وصعدت نفوسهم منتصرة الى السماء مجللة باثواب الشهادة البيضاء ، وهي تهتف جميعا بصوت واحد : « حتى متى ايها السيد

- ٢٥١٢ -

القدوس الحق لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض ،
انت يا من تستحق مدائحنا جيلا بعد جيل ، لك المجد ، آمين» (٣٣) .

زحف الصليبين نحو أسية الصغرى

معركة دوريليوم (٣٤) (اول شهر تموز ١٠٩٧)

٩ - وسار التركمان ، بعد سقوط نيقية ، الى القسطنطينية للقاء الامبراطور ، الذي ازداد سرورا بكل ما حدث ، فأقدم على توزيع الكثير من الهبات على فقرائنا.

ووصلنا في اليوم التالي لمغادرتنا نيقية الى جسر (٣٥) ، خيمنا للاستراحة على مقربة منه لمدة يومين ، واستيقظ رجالنا مع بزوغ فجر اليوم الثالث ، وكان سكون الليل ما زال مخيما ، ولما لم يستطيعوا ركوب الطريق نفسه معا ، انقسموا إلى فريقين ، سار كل منهما على طريق ، وكانت المسافة بينهما حوالي اليومين ، وسافر مع الفريق الأول كل من بوهموند ، وروبرت دوق نورمانديا وتانكرد العاقل وسواهم كثير .

وانقض التركمان في اليوم الثالث انقضاضا عنيفا على بوهموند وصحبه ، وشرع الأعداء يصرون على أسنانهم ، ويصرخون صرخات عالية مدوية ، وهم يرددون بألسنتهم عبارة شيطانية لا اعرفها (٣٦) ، ولما رأى بوهموند العاقل هذا العدد الهائل من التركمان مندفعين بكل شدة وهم يزمجرون بصوت مرتفع كمن به مس من الشيطان ، امر بعض الفرسان بالترجل من على مطاياهم ، والاسراع في نصب خيمته ، وقبل أن يتم نصبها أعاد قوله : على جميع الفرسان ، عليكم ايها المبجلون يا فرسان المسيح الشجعان ، التميز عن الرجالة في الذهاب قدما نحو اليمين ، وليبادر الرجالة إلى إقامة المعسكر وليكن رائدهم العقل ، فنحن نواجه يوما عصيبا والعدو محدد بنا من كل الاطراف .

وما ان أنجز هذا كله حتى احاط بنا التركمان من كل جانب ، واخذوا في محاربتنا برميينا بالحراة ورشقنا بالنشاب من مسافة

بعيدة وبشكل مدهش ، فأجمعنا على الخروج بغية صدهم على الرغم من عجزنا عن مقاومتهم وعدم قدرتنا على احتمال وطأة هجوم هذا الحشد الكبير من الأعداء ، وقدم الذسوة لنا في ذلك اليوم مساعدات كبرى مشكورة ، إذ قمن بحمل الماء إلى رجالنا ليطفئوا بها ظمأهم ، ولم يتوقفن عن تحميسهن وحثهن على مثابرة القتال والمدافعة ، وسارع بوهمود الحكيم إلى إعلام الآخرين ، واعني بهم الأمير غودفري ، والكونت صنجيل وهيوج الكبير ، وأسقف بوي وبقية فرسان المسيح ، وطلب منهم المبادرة دون توقف للسير نحو المعركة مخاطباً إياهم بقوله : « من أراد منكم أن يسهم اليوم بنصيب في الحرب فليقدم شاهراً سيفه غير متردد » ، واستجابوا لندائه ، وكان غودفري المعروف بشدة اقدامه وشجاعته ، وهيوج الكبير أول الواصلين على رأس قواتهما ، ولم يلبث أن وصل أسقف بوي ومعه عساكره ثم تلاه كونت صنجيل في جيش كثيف التعداد .

واستبدت الدهشة برجالنا وراحوا يتساءلون: عجباً من اين يمكن لمثل هذا العدد الهائل من التركمان والعرب والمشاركة وسواهم أن جاء ، ذلك أن هذا الجنس الأثم ، والمحروم من رحمة الرب قد غطى بحشوده الكثيفة وجه الأرض في الجبال والتلال والسهول والوديان ، في داخل المدينة وخارجها ، وجرت بين صفوفنا مشاورات عاطفية ، قلنا فيها بعد حمد الرب وتبادل الرأي : « اعملوا كل ما في وسعكم ، وابذلوا كل جهد ، واعتمدوا كل وسيلة للاتحاد في سبيل نصرة دين المسيح ، والدفاع عن الصليب المقدس ، ذلك أنكم إذا أرضيتم الرب هذا اليوم انقلبتم أغنياء موفوري الثراء » .

ولم يلبث شمل رجالنا أن التأم ، وعبئت الصفوف ، وكان على المجنبة اليسرى كل من بوهمود الحكيم ، وروبرت النورمندي ، وتانكرد الفطن ، وروبرت دي أنزا ، ورتشارد السالرنبي ، وزحف أسقف بوي من وراء مرتفع لتطويق التركمان الكفرة ، وكان معهم على المجنبة اليسرى ريموند كونت صنجيل ، وهو الفارس الذائع الصيت ، وكان الأمير غودفري على المجنبة اليمنى ، ومعه الفارس

المقدام كونت فلاندر ، وهيوج العظيم ، وآخرون كثير ممن لا أعرف
أسماءهم .

ولدى اقتراب فرساننا بادر التركمان والعرب والمشاركة والغلمان
وجميع شعوب البرابرة ، إلى الفرار لا يلوون على شيء من منافذ
الجبال ومسالك السهول ، وكان عدد التركمان والفرس والرعاع
والمشاركة والغلمان وسواهم من الوثنيين يبلغ ستين ألفا وثلاثمائة
الف مقاتل ، هذا عدا عن العرب الذين لا يعرف عددهم غير الله ،
وهربوا نحو خيامهم بكل سرعة ، بيد أنهم لم يتمكنوا من المكوث بها
طويلا ، واضطروا إلى متابعة الفرار ونحن نلاحقهم ونجري في
آثارهم نقتل فيهم سحابة يوم كامل ، وقد استولينا على غنائم
عظيمة من الذهب والفضة والخيول والجمال والحمير والسائمة
والأبقار ، وأشياء لا تحصى غير هذه مما لا أعرفها ، وما كان لواحد
من رجالنا أن ينجو في هذا اليوم لولا وجود الرب معنا على سبيل
المعركة ، ولولا أنه تداركنا بإرسال الجيش الآخر بالسرعة
القصوى ، وقد استمر القتال دونما توقف من الساعة الثالثة حتى
التاسعة ، ولم يرض الرب المتعالي الرحيم أن يهلك فرسانه ، أو أن
يقعوا في قبضة الأعداء ، قلعت لنا بهذه النجدة (٣٧) على جناح
السرعة ، وقد قتل في هذا اليوم اثنان من فرساننا النبلاء وهما:
غودفري دي مونت سكابوزر ووليم ابن المركيز اخو تانكرد ، كما
لقي غيرهم من الفرسان والرجال الذين لا أعرفهم مصرعهم أيضا .

من هو الرجل البصير العاقل الذي يجروء على وصف براعة
التركمان ومواهبهم الحربية ومقدار شجاعتهم ؟ كان قد خيل إليهم
أنهم سيدخلون الرعب إلى قلوب أمة الفرنجة عن طريق تهديدهم
إياهم بنشأهم كما سبق وفعلوا بالعرب والمشاركة والأرمن
والسوريين والأغريق ، لكن إذا قضى الرب ألا يتغلبوا على رجالنا
فإنهم لن يجدوا إلى ذلك سبيلا ، ولقد كان حقا ما قيل من أنه لا
يجوز لأحد أن يدعي الفروسية إذا لم يكن من بين الفرنجة أو
التركمان ، وسأقول أنا بدوري الحقيقة ، ولن يستطيع أحد

- ٢٥١٦ -

مناقضتي : لو أن التركمان امنوا إيماناً مطلقاً بالمسيح واتبعوا دين المسيحية المقدسة ، وتأتى لهم أن يعترفوا بإله واحد في ثلاثة أقانيم ، هي : ابن الله المولود من العذراء ، الذي عانى ثم قام من بين الأموات ، وصعد إلى السماء أمام أعين حواربيه ، وأرسل التعزية الكاملة بالروح القدس ، وقيض إليهم أن يؤمنوا أيضاً إيماناً صافياً حقيقياً بأن له الحكم في السماء والأرض ، لما وجدنا أدياناً يمكن أن يعادلهم في القوة والشجاعة والبراعة في القتال (٣٨) .

لقد شاعت إرادة الرب أن يواجهوا الهزيمة على أيدي رجالنا ، وكانت هذه المعركة يوم أول تموز .

الكتاب الرابع

الزحف الصليبي نحو انطاكية

عبور الصليبيين أسية الصغرى - نهب كل من بلدوين
وتانكرد الى طرسوس

جواز أرمينية الصغرى وأقليم كبدوكية - وصولهم الى
أبواب أنطاكية

١- بعد إيقاع الهزيمة الساحقة بالتركماني أعداء الرب والمسيحية
المقدسة ، وفرارهم لمدة أربعة أيام وأربع ليال متوالية سوريا ، وصل
الخبر بأن زعيمهم سليمان بن سليمان الكبير قد انهزم نحو نيقية ،
حيث صادفه عشرة آلاف عربي فقالوا له : « أيها التعس ، يا أشقى
الناس طرا ، ما الذي حملك على الفرار » ؟ فأجابهم سليمان
بقوله : عندما انهزم الفرنجة من قبل ، كنت أحسب أنني سأخذهم
أسرى مقرونيين بالأصفاد ولما أردت ربطهم جماعة تلو أخرى ،
أبصرت من ورائهم حشود كثيفة لا تعد ولا تحصى ، ولو أتيح لكم أو
لغيركم الحضور لشهدتم حشودهم تغطي وجه الأرض والجبال
والسهول والتلال والوديان ، فنحن لم نكد أن نراهم حتى استولى
علينا الفزع ، واستبد بنا الهلع ، ولم نعد ندري ما نفعل ، فقد سرنا
حتى كدنا أن نقع في أيديهم ، والآن إذا كنتم تثقون بما أقول ،
ارحلوا من هنا لتوكم ، إذ لو عرفوا خبر قدومكم ، لما نجا أحد
منكم ، فلما سمعوا مقالته هذه ولوا الأدبار ، وتفرقوا أيدي سباً ،
وانسابوا في جنبات أسيا الصغرى .

أما نحن فلم نتوقف من جانبنا عن ملاحقة أولئك التركمان الطغاة ،
الذين كانوا يلونون بالفرار من أمامنا يومياً ، وكانوا كلما مروا ببلد
أو موقع حصين كذبوا على أهله وخدعوه قائلين : « لقد هزمنا
المسيحيين جميعاً وكان نصرنا عليهم مؤزراً ، إلى حد أنه لن يجرؤ
بعد اليوم أحد منهم على الوقوف أمامنا ، لهذا دعونا ندخل

عليكم ، لكنهم كانوا ما يكادون يدخلون البلد حتى يعملوا يد السلب والنهب في جميع البيوت والكنائس وفي كل ما اعترض سبيلهم ، وكانوا يستولون على الخيول والحمير والبغال وجميع الذهب والفضة وعلى كل ما وصلت إليه أيديهم ، ثم كانوا ينطلقون ومعهم أبناء النصاري ، لكن بعد أعمالهم الحرق والتهديم في كل ما عجزوا عن حمله والانتفاع منه ، كانوا يفعلون هذا كله وهم يفرّون من أمامنا ويخشون لقاءنا ، ولقد طاردناهم عبر الصحاري والفيافي الخالية من الماء والحياة ، فأحاق بنا الخطر ، وكدنا إلا نخرج أحياء ، وعانينا من الجوع وشدة الظمأ ، ولم نجد ما نسد به الرمق غير الشوك الذي كنا نقتله ونسحقه بأكفنا ، فهذا هو الطعام الذي عشنا عليه ونحن في أشد حالات السغب ، وقد نفقت معظم خيولنا ، واضطر كثير من فرساننا إلى الترجل ، ولقد الجأنا للنقص في المطايا إلى استخدام الثيران بدلا من خيول القتال ، واستعملنا ونحن في وسط العوز الماعز والخراف وحتى الكلاب لحمل أمتعتنا .

ووصلنا بعد ذلك إلى منطقة شديدة الخصب ، تفيض بالمأكولات والأطياب ، وتزخر بشتى أنواع الحياة ، واقتربنا من مدينة قونية ، حيث نصحنا أهلها أن نحمل معنا كميات زائدة من المياه ، لأننا سنفتقده طوال يوم كامل من مسيرتنا ، ووصلنا بعد ذلك إلى نهر أقمنا إلى جواره مدة يومين ، واستمر أعداؤنا في التقدم أمامنا حتى أفضى بهم المسير إلى مدينة هرقلية ، حيث وجد هناك فريق كبير من التركمان يعد العدة للتصدي لجند المسيح ويبحث عن أجدى الوسائل التي تؤذيه ، وما كاد جند الرب يرون هؤلاء التركمان حتى انقضوا كالأسود عليهم ، وحملوا عليهم حملات شديدة ، فأسرع أعداؤنا إلى تولية الأدبار ومضوا فارين كسهم شديد انطلق من قوسه ، وسرعان ما اقتحم رجالنا المدينة ، حيث لبثنا فيها مدة أربعة أيام .

وهناك تميز تانكرد بن المركيز عن الآخرين وانفصل عنهم ، وحذا حذوه الكونت بلدوين أخو الأمير غودفري ، ودخلا معا وادي بوثرنلوت ، ولم يلبث تانكرد أن مضى وحده وانطلق على رأس

فرسانه حتى وصل إلى طرسوس ، فخرج التركمان في جماعة واحدة ، واصطفوا لقتال المسيحيين ودفعهم ، إنما عندما دنا رجالنا منهم لحربهم ، لانوا بالهرب ، وانصرفوا نحو المدينة مسرعين ، فثنى تانكرد فارس المسيح عنانه ، وضرب مخيمه أمام باب المدينة . ووصل بعد قليل ، من جانب آخر الكونت بلدوين مع جيشه وسال تانكرد ان يقاسمه المدينة ، فأجابه : إنني أرفض كل شراكة معك ، ولما حل الظلام فر جميع التركمان مذعورين ، وعندئذ تسربل سكان المدينة وخرجوا يهتفون : « اقبلوا أيها الفرنجة المنتصرون ، اقبلوا فإن التركمان ارتعشوا خوفا وفروا جميعا في أن واحد » .

ومع اشراقة الصباح جاء اعيان المدينة إلى معسكر الفرنجة وسلموا المدينة عن طواعيه وخاطبوا المتنازعين حول تملكها بقولهم : اقصروا أيها السادة ، فنحن نرغب إليكم ونرجوكم تولية هذا [تانكرد] علينا ، فهو الذي استبسل بالأمس في قتال التركمان ، لكن الكونت بلدوين المحبوب اعترض وحاجج تانكرد بقوله : « لندخل المدينة معا ، ولننتول نهبها ، وليتول أمرها بعد ذلك من يصب منا النصيب الاوفى ، وليحتلها من يستطيع حربها » فعاد تانكرد الشجاع الرد بقوله : « ما أمقت هذا المسلك إلى نفسي ، وما أبعدني عنه ، إنني لا أريد أن أسلب المسيحيين ، ولقد اختارني اعيان هذه المدينة أميرا عليهم وهم لا يريدون سواي أميرا » لكن هذا الأمير الشجاع لم يجد في نفسه الرغبة في متابعة الخصام مع الكونت بلدوين الذي كان يقود جيشا كبيرا ، وتخلي عن المدينة طواعية أو مرغما ، واذسحب بكل شجاعة ، وسرعان ما استسلمت له مدينتان هما : أئنة والمصيصة ، كما دان له العديد من الحصون .

١١ - ومع هذا كله ، فقد تابع الجيش العظيم تقدمه ، وفيه ريموند الصنجيلي ، وبوهموند البار ، والأمير غودفري ، وسواهم كثير ، ودخلوا بلاد الأرمن وبهم ظمأ شديد إلى دماء التركمان ، وعطش إلى الارتواء منها ، وقادهم زحفهم إلى حصن شديد المناعة ، وقفوا

امامه عاجزين ، وكان يقيم فيه رجل اسمه سيمون من اهل البلد (٢٩) ، فسألهم ان يعهدوا اليه بأمور الدفاع عن تلك البقعة من الأرض ضد محاولات اعدائه من التركمان ، فمنحه الفرنجة اياها فاقام بها مع ابناء جنسه.

ثم غادرنا تلك المنطقة ، ووصلنا ونحن في انعم بال إلى قيصرية من اعمال كبدوكية ، ثم توجهنا إلى مدينة فخمة رائعة الجمال ، كثيرة الثروات (٤٠) ، كان التركمان قد اقاموا على حصارها ثلاثة اسابيع قبل قدومنا ، غير انهم عجزوا عن اخذها ، في حين انه ماكننا نصل حتى الوقت بأيدينا اليها عن طواعية وبكل سرور ، وتقدم واحد من الفرسان واسمه بطرس دي البيوس (٤١) ، وسأل جميع المتقدمين اقطاعه اياها ليدافع عنها بكل ما أوتيته من طاقة في سبيل الرب والقبر المقدس ، والساسة النبلاء والامبراطور ، فأجمعوا على اجابة مطلبه ، ورضوا باقطاعه اياها.

وعلم بوهموند في الليلة التالية ان التركمان الذين كانوا يحاصرون هذه المدينة ، قد انتشروا في جوانب المنطقة ، فسارع على رأس فرسانه وحدهم دون غيرهم لمطاردتهم حيث كانوا ، لكن لم يتهيا له اللقاء بهم .

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة اسمها كوكسون ، وكانت المؤن التي نحن بأمس الحاجة إليها ، متوفرة فيها بكميات وافية ، وسرعان ما استسلم لنا مسيحيوها وادخلونا إليها ، فمكثنا فيها ثلاثة ايام في أرغد عيش ، فاستجم رجالنا واستردوا عافيتهم تماما .

ونما إلى مسمع الكونت ريموند [الصنجيلي] بأن التركمان المتولين لشؤون الدفاع عن أنطاكية قد غادروها ، فطبق تدبيره هو ومشاوروه على المسارعة في إرسال بعض فرسانه للاستيلاء عليها قبل فوات الوقت ، واقدم على اختيار كل من الفيكونت بطرس القشتالي ووليم دي مونبليه ، وبطرس دي روبيه ، وبطرس ريموند دوتبول ، وعهد إليهم بتنفيذ هذه المهمة ، و أنفذ ببرفتهم خمسمائة

فارس ، فساروا جميعا في واد يقع في احواز انطاكية ، حتى بلغوا من حصون البوبليكان ، وهناك علموا بأن المدينة لا زالت بأيدي التركمان ، وأن هؤلاء على استعداد للدفاع عنها بكل اصرار ، وتميز بطرس دي روبيه بمن معه ، حتى كان مساء اليوم التالي ، تجاوز انطاكية ودخل منطقة منخفض الروج ، فصادف به فريقا من التركمان والمسلمين فهاجمهم القتال ، وأوقع بفئة كبيرة منهم ، ثم تعقب الباقيين بعنف ، وما كاد الأرمن النازلون في هذه المنطقة يرون عظم الهزيمة التي الحقها بطرس بالعدو حتى أذعنوا له ، ودانت له الروج ، كما استسلم له العديد من الحصون الأخرى .

أما نحن الذين بقينا في كوكسون فقد غادرناها ، وتوغلنا في داخل جبل مرعب ، تلامس نراه قمة السماء ، هذا إلى ضيق مسالكه ضيقا شديدا ، وسرنا في الطريق المجاور له ، ولم يتمكن واحد منا مزاحمة آخر في التقدم ، وكانت الخيول تسقط في الأودية ، وكان كل فارس حموله يجر فرسا آخر مقطورا وراءه .

وظهرت آثار الحزن واليأس على وجوه الفرسان جميعا ، وأخذوا يلطمون وجوههم ويضربون كفا بكف حزنا ورعبا ، وراحوا يتسائلون : ماذا يمكنهم أن يصنعوا بأنفسهم واسلحتهم ، فعضوا يبيعون خيولهم وترستهم وخوذهم لقاء مبلغ تراوح بين ثلاث وخمس ديناري ، أو بأثمان زهيدة جدا ، والذين عجزوا عن بيعها قاموا بطرحها عن كواهلهم بلا مقابل ، وتابعوا طريقهم .

ولما خرجنا من هذا الجبل الملعون ، وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم مرعش ، فخف أهلوها إلى استقبالنا وهم في غاية الفرح والترحيب ، وحملوا إلينا المؤن والأعلاف بشكل كبير ، فغدونا بأرغد عيش ، وأقمنا بها ننتظر وصول الأمير بوهموند .

ووصل فرساننا أخيرا إلى الوادي الذي تقوم فيه انطاكية المدينة الملكية ، عاصمة بلاد الشام قاطبة ، التي منحها الرب عيسى المسيح

- ٢٥٢٢ - ١

إلى بطرس سيد الحواريين ، ليعيدها إلى عبادة الدين المقدس ،
وهو الذي ذهب ، وحكم مع الله الأب في عالم روح القدس . له المجد
السرمدى . آمين .

الكتاب الخامس

الشروع بحصار انطاكية

(٢٠ تشرين اول إلى كانون اول)

بدء الحصار - الاستيلاء على حصن حارم - المجاعة في المعسكر الصليبي

١٢ - لدى اقترابنا من جسر الحديد ، صادف رجال
طلاننا - الذين اعتادوا على التقدم امامنا - في طريقهم فئة كبيرة
من التركمان متوجهين بسرعة نحو انطاكية لنجدتها ، فما كان منهم
إلا أن انقضوا عليهم ، وكلهم قلب واحد ويد ضاربة واحدة ، فهزموا
اولئك التركمان ، وكتبت لهم الغلبة عليهم ، بعدما قذفوا الرعب في
قلوب اولئك البرابرة ، الذين فروا مخلفين وراءهم عددا كبيرا من
القتلى (٤٢) ، ولما كان لواء النصر معقودا على مفرق رجالنا ، فقد
اصابوا بفضل رعاية الرب لهم - غنائم كبيرة من الخيول والجمال
والبغال والحمير المحملين بالأطعمة والأشربة .

ووصل رجالنا اخيرا إلى شاطئ النهر (٤٣) ، وعسكروا على
مقربة منه ، وبادر على الفور بوهيموند الحكيم على رأس اربعة
الاف فارس ، وعسكر امام واحد من ابواب المدينة ، حتى يحول بين
الدخول إليها أو الخروج منها سرا تحت جنح الظلام ، ووصل بقية
الجيش إلى انطاكية في اليوم التالي ، وهو ظهر اليوم الرابع من يوم
الراحة الذي هو الثاني عشر قبل أول تشرين الثاني (٤٤) وتمكننا
من حصار ثلاثة ابواب من ابواب المدينة حصارا حقيقيا ، ولم يتيسر
لنا ضرب الحصار من الناحية المتبقية ، إذ كان يحيط بها جبل عالي
القمة لم يترك لنا سوى عقبة بالغة الضيق .

واستولى الجزع على أعدائنا من التركمان الذين كانوا داخل
المدينة إلى حد أنهم بقوا خمسة عشر يوما تستبد بهم الدهشة ،

لا يستطيعون تحريك ساكن ، ولم يجرؤ واحد منهم على محاربة واحد من جماعتنا ، هذا وماكدنا نقيم معسكراتنا حول انطاكية حتى لاحظنا أن هذه الناحية وافرة الخيرات فيها اعناب ناضجة بكميات كبيرة ، ومخازن مملوءة بالقمح ، وأشجار مثقلة بالفواكه ، كما عثرنا على مختلف انواع الاطعمة الصالحة للاكل .

وداب الارمن والسريان الذين كانوا داخل انطاكية على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالهرب ، وعليه وجدوا بين صفوفنا كل يوم ، بينما بقيت عيالاتهم داخل المدينة ، وجرت عادتهم على تقصير اخبار احوالنا ومواقفنا ، ثم كانوا يحملون هذه الاخبار إلى المحاصرين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها ، ولما عرف التركمان تمام المعرفة بجميع مايتعلق بنا ، ووقفوا على مجمل اخبارنا شرعوا يخرجون من المدينة شزيمة بعد شزيمة ، ومضوا يحدقون بحجاجنا ، واخذوا يتربصون بنا من كل ناحية ، وبتنا نجدهم يقيمون الكمانن لنا في جميع الجهات ، فكنا أونة نراهم في طريقنا إلى البحر ، وأونة أخرى في طريقنا إلى الجبل .

وعلى مقربة من هذه المنطقة قام حصن اسمه حصن حارم ، وقد كمن فيه عدد كبير من أكثر التركمان شجاعة ، وهم من الذين أقضوا مضاجع رجالنا ، ولما عرف قادتنا هذا ، اشتد جزعهم ، وأرسلوا عددا كبيرا من الفرسان ليقوموا بأعمال الاستطلاع بغية كشف مواقع التركمان ، حتى إذا تهيأ لهم ذلك ، كبسوه على رأس قواتهم ، وبالفعل تقهقر رجالنا أمامهم ، واستدرجوهم حتى البقع التي كمن فيها بوهيموند وجنده ، ولقي إثنان من رجالنا حتفهما أثناء هذا الاستدراج ، وما إن عرف بوهيموند خبر اقترابهم حتى بادر فانقض على رأس رجاله ، فكان حقا بطل المسيح الشجاع ، وشدد البرابرة هجومهم على رجالنا الذين كانوا أدنى منهم عددا ، واحتدم القتال بين الطرفين ، وهلك العديد من أعدائنا ، ووقع غيرهم في الأسر ثم سيقوا إلى حيث ضربت أعناقهم أمام أبواب المدينة ، مبالغة في زيادة الام الذين بها في الداخل ونكالا بهم .

وغادر الآخرون المدينة ، وتسلقوا شرفات السور ، وأخذوا
يرموننا بذنابهم الذي تساقط تساقط المطر على معسكر بوهموند ،
و أصيبت لنا امرأة برمية قوس أودت بها .

١٣ - واجتمع زعمائنا ، وعقدوا مجلسا للتشاور فيما بينهم ،
فقالوا : لنقم ببناء قلعة على قمة جبل مرقب كيما نأمن على أنفسنا
مخاطر التركمان ، وتطمئن قلوبنا فلا نعود نخشاهم ، وما أن أنجز
بناء القلعة حتى أخذ زعمائنا في التناوب بالدفاع عنها واحدا تلو
الأخر .

وحدث قبل حلول عيد الميلاد أن شح القمح ، وتناقصت الأقوات ،
وغدونا لانكاد نجرؤ على مغادرة معسكرنا ، ولم نعد نجد في مناطق
المسيحيين شيئا يمكن أن نسد به جوعنا ، زد على هذا أنه لم يتجزأ
واحد منا على الدخول إلى أراضى المسلمين ما لم يكن في الجمع
الكبير والحشد العظيم ، وعند ذلك عقد زعمائنا اجتماعا تشاوروا
فيه حول إيجاد السبل المجدية لضبط حشد كبير مثل شعبهم ،
فاتفقوا بعد المداورات على أن ينهض فريق من رجالنا بالحال ،
ليعمل ما في وسعه ، ويبذل غاية الجهد لجمع الأقوات ، ولضمان
حماية الجيش من بيات أوغارة من الخلف ، واتفقوا على أن يظل
الباقيون داخل المعسكر بغية حمايته ، وقال بوهموند مخاطبا
المجتمعون : « أيها السادة ، أيها الفرسان العقلاء دعوني أمضي مع
كونت فلاندرز إذا شئتم ورايتم ذلك مفيدا » .

وبعدما احتفلوا احتفالا بهيا بعيد الميلاد ، خرجوا يوم
الاثنين - تالي يوم الراحة - في أكثر من عشرين ألف فارس
وراجل ، ودخلوا سالمين لم يصيبهم أذى ، إلى مناطق المسلمين التي
كانت تعج بالتركمان والعرب والمشاركة الذين قدموا من القدس ومن
دمشق وحلب وغيرها من المدن لنجدة حامية أنطاكية ، ولما جاءتهم
أخبار زحف الجيش المسيحي على بلادهم ، تأهبوا لحرب
المسيحيين ، وما كاد الظلام ينقشع أمام بزوغ الفجر حتى كانوا قد

أشرفوا على الناحية التي تجمعت فيها قواتنا ، واندشطر هؤلاء
البرابرة إلى شطرين ، شطر تلقانا من الأمام وشرط حاول الالتفاف
حولنا قصد تطويق قواتنا من جميع الجهات ، لكن كونت فلاندرز
الشجاع ، والمسلح بإيمانه وبشارة الصليب ، الذي كان يحمله
إخلاصه له على مصاحبته وحمله أينما كان ، كر عليهم في ذات
الوقت الذي هاجمهم به بوهموند ، وهكذا حمل رجالنا حملة رجل
واحد على العدو ، الذي سرعان ما ولى هارباً لا يولي على شيء ،
تاركاً وراءه عدداً كبيراً من القتلى ، وقد استولى رجالنا على
خيولهم وسواها من الغنائم ، أما أولئك الذين نجوا من القتل ، فقد
استمروا في فرارهم ، وحق عليهم « الهلاك الأبدي » ، أما نحن فقد
رجعنا ظافرين مسرورين نسبح ونمجد للرب الذي هو في الوقت نفسه
ثالث واحد ، والذي له الملك الآن وإلى الأبد .

امين

الكتاب السادس

حصار انطاكية

(كانون أول ١٠٩٧ - شباط ١٠٩٨)

هجوم التركمان على الصليبيين وحملة التموين - فرار
بطرس الناسك ووليم النجار
رحيل تاتيشوس - انتصار بوهموند على التركمان قرب
بحيرة أنطاكية

١٤ - وحين ترامى الخبر إلى التركمان - أعداء الرب
والمسيحية المقدسة - الذين كانوا داخل أنطاكية للدفاع عنها ،
بتغيب الأمير بوهموند وكونت فلاندرز عن الحصار ، خرجوا منها ،
وهاجمونا واشتبكوا معنا في قتال شديد ، وكانوا يؤثرون مهاجمة
المناطق الضعيفة ، ولما كانوا على بينة من غياب هذين الفارسين
البارعين ، وبعدهما عنا ، فقد عقدوا العزم على مهاجمتنا والقضاء
علينا في يوم الثلاثاء (٤٥) .

وسار هؤلاء البرابرة المرعبون في ظلام الليل ، وانقضوا علينا
بشدة متناهية فقتلوا عددا كبيرا من فرساننا ورجالتنا الذين اهلوا
أمور الدفاع عن أنفسهم ، وخسر أسقف بوي - في يوم البؤس
هذا - وكيله الذي كان يقود إحدى الكتائب بنفسه ويحمل رايته ،
ولو لم يكن النهر يفصل بيننا وبينهم لتكررت غاراتهم علينا
ولأصابوا منا إصابات جسيمة .

وكان بوهموند العاقل آنذاك يقوم بمغادرة منطقة المشارق معه
جيشه ، ميمما وجهه شطر جبل تانكرد على أمل أن يصادف هناك
ما يمكن نهبه ويستحق بذل الجهد في سبيل الاستيلاء عليه ، ذلك أن
المنطقة كانت قد نهبت جميعها ، ولهذا وجد بعض عساكره القليل من
الاشياء ، وعاد بعضهم الآخر صفر اليدين ، فوبخهم بوهموند
الحكيم بقوله : « أيتها الجماعة التعيسة الشقية ، يا أحمق

المسيحيين قاطبة ، ما الذي حملكم على الإسراع بالخروج ، فلقد كان عليكم الصبر والتريث حتى يلتئم شملنا ثانية ، وألا تكونوا هكذا كالقطيع بلا راع ، فلو صادف أن لاقاكم أعداؤنا هائمين مشردين لانقضوا عليكم وفتكوا بكم أي فتك ، لأنهم يترصدونكم ليلا نهارا ، على أمل رؤيتكم بلا قائد يدبر أموركم فيها جمونكم فرادى أو مجتمعين ، ويعملون على اخذكم أسرى » ، وما إن فرغ من كلامه هذا حتى انكفأ هو ورجاله إلى معسكرهم وقد يذسوا من الحصول على الغنائم .

وعندما رأى الأرمن والسريان رجالنا وقد عادوا بلا شيء يستحق الذكر معهم ، خالين الوفاض ، قرروا التجول في الجبال وفي أطراف الناحية المذكورة والبحث بشكل دقيق عن القمح والأطعمة كيما يشترونها ويبعثوا بها إلى المعسكر الذي انتشرت المجاعة الشديدة فيه ، وغلت الأسعار ، وكانت حمولة الحمار بثمانى بوبرات أي مائيساوي مائة وعشرين دينارى ، وقد لقي العديد من رجالنا حتفهم خاصة من الذين عجزوا عن دفع هذه الأثمان الباهظة .

١٥ - ودفعت هذه الشدة الكائنة ، والضيق البالغ القسوة إلى تسلل كل من وليم النجار وبطرس الناسك وفرارهما سرا ، وقد مضى تانكرد في أثارهما ، وأعادهما وهما في غاية الخزي ، فقطعا على نفسيهما العهد بالالتزام بالطاعة ، وأقسما له الأيمان المغلظة بأنهما سوف يعودان طواعية إلى المعسكر ، وأنهما سيعتذران للأمرء .

وبات وليم ليلته كلها مقيدا مربوطا بالأرض في خيمة بوهموند ، وهو في حالة كان فيها ائبل من النل ، ومثل في صباح اليوم التالي أمام بوهموند ، وقد احمر وجهه خجلا ، فخاطبه بوهموند موبخا بقوله : « أيها التعس ، ياخزي فرنسا ، ويا عار أهل غاليا واكثرهم اثاما ، ويا آتس من على وجه الأرض ، لماذا فررت على هذه الصورة المشينة ؟ ترى هل كنت تنوي خيانة هؤلاء الفرنسان والغدر بهم بتسليم جيش المسيح إلى الكفرة ، كما صنعت بسواهم

من قبل في اسبانيا ؟ ولزم وليم الصمت المطبق ، ولم ينبس ببنت شفه ، واجتمع الغاليون كلهم تقريبا وتضرعوا إلى الأمير بوهموند الا يقسوا عليه اكثر والا يزيد في آلامه ، فأجاب مسؤولهم ، وقال : « إن محبتي لكم تحملني على الاستجابة لمطلبكم عن طيب خاطر ، اللهم إذا أقسم قسما نابعا من قلبه وروحه ألا يحيد عن طريق القدس سواء في الفرج أم الشدة ، وإذا ما رضيت أنكرد ورجاله بالعفو عنه » ، ولما سمع تانكرد هذه المقالة أبدى رضاه ، وكان سرعان ماخلى بوهموند سبيله ، لكن ماحدث فيما بعد أن استولى الخزي على وليم النجار ، فما لبث أن اختفى بعد هربه .

واشتدت الفاقة وعظم البؤس اللذان ادخرهما الرب لنا جزاء خطايانا ، حتى لم يعد في الجيش كله من الفرسان أصحاب الجياد السليمة غير ألف فارس .

١٦ - وتناهد الأخبار إلى عدونا تاتيشوس بأن جيوشا من التركمان زاحفة نحونا ، فاستبد به الخوف الشديد ، وخيل إليه أنه قد فتك بنا من قبل عدونا ، أو أننا سيقطنا جميعا أسرى في يديه ، فراح يدعي مختلف الدعاوى وينتحل مختلف الأعذار الواهية ، فقال : « انظروا أيها السادة ، أيها الرجال العقلاء مانحن فيه من الضنك ، لقد عدنا النجدة ، وضائق بنا السبل ، فدعوني أعود إلى القسطنطينية ، وكونوا على ثقة بأنني سأعود إليكم ببجر قد غطته السفن المحملة بالقمح والشعير والنبذ واللحوم والطحين والجبين لأبيل كل ماتحتاجونه ، وسأبعث إليكم بجياد الخيل للشراء ، وستصلكم المؤن عبر الأراضي التي تدين بالطاعة للإمبراطور ، وأقسم لكم على صدق هذا كله ، وإن أهل بيتي وسراقتي باقون في المعسكر ، لهذا كونوا على ثقة من رجوعي إليكم على جناح السرعة

ولما أنهى هذا العدو خطابه مضى مخلفا كل مايملكه في المعسكر ، مضى وهو حانث بيمينه وسيظل حانثا به ، وكنا آنذاك في أشد

- ٢٥٣٠ -

ساعات الحاجة ، حيث ضيق التركمان علينا الخناق من جميع الجهات ضيقا لم نجبرؤ حياه على مغادرة خيمنا ، فكابدنا من مجاعة هددتنا بالفناء ، ولقد عدنا كل عون وكل نجدة ، وفر صغار القوم والفقراء إلى قبرص وإلى الأراض الرومانية ، كما هرب بعضهم إلى الجبال ، وكانت خشيتنا من التركمان المفسدين قد جردتنا من الجراة على الذهاب إلى البحر ، وبذلك سدت أمامنا جميع منافذ النجاة .

١٧ - ولما تنامت الأخبار إلى بوهموند بأن حشدا كثيفا من التركمان ، يفوق العد والحصص زاحف نحونا ، اقتضاه ما جبل عليه من حكمة وغيرة على مصالح الآخرين أن خاطب الأمراء بقوله: «أيها السادة ، أيها الفرسان العقلاء ، ترى ما نحن صانعون؟ إننا لسنا من الكثرة بما يمكننا من المحاربة على جبهتين ، لكن هل تعرفون ما نحن فاعلون؟ أرى أن ننقسم إلى قسمين ، حيث يمكث الرجال في المعسكر لحماية الخيام ولاشك أنهم سيتمكنون بفاعلية من الدفاع عن أنفسهم ضد شحنة المدينة ، أما الفرسان فيظلون معنا بغية التصدي لأعدائنا الذين أقاموا معسكرهم على مقربة منا عند حصن حارم و جسر الحديد ».

ومع حلول الظلام خرج بوهموند الفطن من معسكره ومعه بقية الفرسان العقلاء ، وأمضى الليل فيما بين النهر والبحيرة ، ومع تباشير الفجر أرسل طلائعه لتبحث له عن مواضع التركمان وعدد كتائبهم ، وانطلق رجال الطلائع لتوهم ، وأخذوا يفتشون عن التركمان ويستطلعون أخبار تحركاتهم ، وما كان إلا أن شاهدوا الكثير من التركمان قادمين من جهة النهر ، وهم منقسمون إلى فرقتين ، وكانت الفرقة الكبيرة في الخلف ، وسرعان ما عادت الطلائع وهي تنادي : « انظروا هاهم أولاء ، لقد جاءوا على اهبة الاستعداد ، فهم على وشك الاقتراب منكم ».

والتفت بوهموند الحكيم نحو الفرسان وخاطبهم بقوله : « أيها

السادة ايها الفرسان الذين لا يقهرون عبثوا صفوكم للقتال ،
فردوا عليه بقولهم « انك رجل عاقل ، وانك فطن كما انك عظيم
مبجل ، انت ايها المقاتل الشجاع ، ياليت المعامع ، ويا بطل
المعارك ، ايها المتحكم بضمائر الحروب ، افعل ما تراه مناسباً ،
فقد اوكلنا امورنا اليك ، لتعمل كل ما تراه نافعا لنا ولك . »

وامر بوهموند آنذاك كل مقدم ان يعبىء فريقه تعبئة تامة ، فنفذوا
تعليماته ، والتزموا بأوامره ، وكونواست فرق ، تقرر ان تقوم
خمس منها بمهاجمة الاعداء ، وتراجع بوهموند بفرقته على مهل
نحو الخلف ، واستبشر رجالنا ، فاشتبكوا مع الاعداء ، وتراجع ،
والتحمت كل فئة بفئة وتعالى الصيحات الى عنان السماء ،
وتحاربوا جميعاً ، وحجب نور الشمس وابلا من الذناب هطل من
كل مكان .

ولما وصل عسكر الفريق الاكبر من جيشهم الذي كان مقيماً
بالخلف ، هجموا بكل شدة وعنف على رجالنا ، فأخذوا يتقهقرون
رويدا رويدا ، ولما رأى بوهموند العاقل هذا المشهد تألم ودعا اليه
حامل رايته روبرت بن جيرارد ، وقال له : « امض بما اوتيت من
سرعة فانت اشجع الرجال واندفع بكل حماس في نجدة دين الرب
والقبر المقدس ، واعلم ان هذه الحرب ليست حرباً مادية بل حرباً
روحية وكن اشجع شجاعان المسيح ، صحبتك السلامة ورعاك الرب
حيثما كنت » وما ان لف نفسه بشاراة الصليب حتى اندفع كالليث
الذي حبس عن الطعام ثلاثة ايام او اربعة ، وخرج من غيله يزمر
فيه ظمأ شديداً لسفك دماء القطعان ، وانقص لساعته والقى بنفسه
وسط ميدان الوغى معملاً سيفه وسط قطيع من النعاج . راحت تفر
من امامه هنا وهناك . ثم صار في وسط صفوف التركمان ، واستند
في حملاته ومطارداته حتى ان شعاع رايته كان يرى بريقه من فوق
رؤوسهم .

وسرعان ما اوقف المقاتلون الآخرون تقهقرهم ، حينما راوا راية

- ٢٥٣٢ -

بوهموند تخفق عالية امام رايات الاخرين ، وكر جميع رجالنا كرة رجل واحد ، وحملوا على التركمان الذين فشلوا واستتبت بهم الدهشة ، فلانوا بانتيال الفرار ، فأخذ رجالنا في مطاربتهم ، وراحوا يعملون القتل فيهم حتى بلغوا جسر العاصي ، وسرعان ما انقلب التركمان الى معسكرهم فحملوا كل ما امكنهم حمله ، ثم القوا النيران فيما بقي من اشياء ، وولوا هاربين ، ولما علم الارمن والسريان خبر فرار التركمان في هذه الموقعة خرجوا من قراهم ، وتربصوا في المكامن التي نصبوها لهم في الممرات والمسالك وقتلوا العديد منهم واسروا .

وهكذا قضت مشيئة الرب ان تدور الدائرة على اعدائنا في ذلك اليوم ، ونجح رجالنا في استرداد الخيول وغير ذلك من الاعتدة التي افادوا منها فوائد كبيرة ، وحملوا مائة رأس من رؤوس القتلى الى امام باب المدينة حيث نصبت خيام رسل صاحب مصر الوافدين على مقدمينا (٤٦) .

اما المحاربون من الرجالة الذين مكثوا في المعسكر فقد شغلوا طوال يومهم بقتال شحنة انطاكية امام ثلاثة ابواب من ابواب المدينة ، وجرت هذه الموقعة يوم الثلاثاء (٤٧) السابق لبدء الصوم الكبير ، وكل ذلك برعاية ربنا يسوع المسيح الذي مضى ليحكم مع الاب والروح القدس ، الرب له الحكم السرمدى . آمين

الكتاب السابع

حصار انطاكية

الحملة على السويدية - اقامة حصن المحمرة

١٨ - ورجع رجالنا بفضل رعاية الرب منصورين مستبشرين بنصرهم الذي حباهم به في ذلك اليوم ، أما أعداؤنا المغلوبون على أمرهم فقد هزموا هزيمة ساحقة ، ومضوا في فرارهم وهاموا على وجوههم شاردين هنا وهناك ، فمضى بعضهم الى خراسان وانطلق بعضهم الآخر الى بقية الاراضي المسلمة ، ولما رأى قائدنا أن شحنة المدينة ازدادت هجماتها علينا مع الاقتراب منا ، سهروا ليلهم ونهارهم بحثا عن الناحية التي يمكن لتلك الشحنة مباغتتنا منها ، وبناء على ذلك عقدوا مجلسا للتشاور في المسألة وقالوا : « يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تؤدي برجالنا أن نشيد حصنا على المحمرة الواقعة أمام باب المدينة حيث يوجد الجسر ، ومن هنا ربما تمكنا بدورنا من تضيق الحصار على عدونا »

ووافق الجميع على هذا الرأي ، واستصوبوا المشروع استصوابا عاما ، وكان كونت صنجيل أول من تكلم فقال: « أمدوني بالعون اللازم لاعادة بناء هذا الحصن ، وسأحصنه وأتولى حمايته » ، وانبرى في الحال بوهيموند قائلا: و أنا سأذهب معك اذا رضي الآخرون ، الى باب سمعان لجمع الرجال القادرين على القيام بمثل هذا العمل (٤٨) ، اما الذين سيقون هنا فسوف يعملون على تحصين بقية الجهات للدفع عن أنفسهم « وهكذا كان منا اتفقوا عليه .

عند ذلك رحل الكونت (صنجيل) وبوهيموند الى السويدية ، أما نحن فقد انضم بعضنا الى بعض وصرنا جماعة واحدة ، وشرعنا في بناء الحصن ، وإذا بالترکمان قد أعدوا أنفسهم ، وخرجوا للهجوم علينا ، وبالفعل انقضوا انقضاضا

شديدا دفع رجالنا الى الهرب وأدى الى هلاك العديد منهم مما سبب لنا رعبا شديدا.

ولما لاحظ التركمان في اليوم التالي (٤٩) تغيب قادتنا ، وعرفوا انهم قد خرجوا في الامس قاصدين الميناء ، جمعوا شملهم ومضوا لاعتراض الذين كانوا قادمين من ناحية الميناء ، ولما رأوا الكونت بوهموند على رأس العساكر زمجروا وهللو واندفعوا بكل شدة ، وأحدقوا برجالنا من كل جانب يمحطونهم برشقات الذئاب ، فأوقعوا فيهم القتل والجرح ، ثم انقضوا عليهم بهجوم شديد ، فاضطروهم الى الفرار الى الجبل الشاهق والى كل جهة حسبوا انها تعصمهم منهم ، ولم تقيض الحياة الا الى أولئك الذين تمكنوا من الاختفاء بالهرب السريع ، أما الذين عجزوا عن الفرار فقد لاقوا حتفهم ، واستشهد في هذا اليوم أكثر من ألف من فرساننا ورجالتنا ، وفي يقيننا أنهم عرجوا الى السماء حيث ارتدوا ثياب الشهادة البيضاء.

ولم يزحف بوهموند عبر نفس طريق البقية ، بل سرعان ما انقلب عائدا برفقة فرقة من الفرسان ، ووصل الى حيث كنا مجتمعين ، ولما كان الغضب قد اشتد بنا لمصرع رجالنا ، فقد أعدنا ضم صفوفنا وانضممنا اليهم ، وهتفنا معا باسم المسيح ، وكنا كلنا ثقة بالنصر وببلوغ القبر المقدس ، وقررارنا على مناجزة العدو القتال ، وأن نكون جميعا يدا واحدة في الهجوم عليه ، وأبدى أعداء الرب ورجالنا ما أذهل وأرعب ، فقد كان التركمان موقنين من النصر علينا ، وأنهم سيقضون علينا كما سبق على عساكر الكونت (صنجيل) وبوهموند ، لكن الرب المتعالي لم يمكنهم من ذلك ، فقد انقض عليهم فرسان الرب الحق ، المسلحون بشارة الصليب ، انقضاضا شديدا ، أسلموهم به الى الفرار عبر الجسر الضيق ، واستمروا في فرارهم حتى مداخل المدينة ، لكن الذين لم يتمكنوا من الفرار وعبروا الجسر ، والنجاة بنفوسهم ، لضيق المنفذ ، وشدة الازدحام ، فقد لاقوا في هذا المكان الموت

- ٢٥٣٥ -

الشرمدي ، وذهبوا الى نار جهنم الابدية المعدة لابليس وملائكته (٥٠) ولما تم النصر على التركمان ، شددنا عليهم الحصار ، وبفعاهم نحو النهر ، ورميناهم به ، فاصطبغت مياهه المتدفقة بدمائهم ، وكان الواحد منهم إذا حاول تسلق أعمدة الجسر ، أو أراد السباحة حتى اليابسة ، تولى أمره نشاب رجالنا الذين كانوا يغطون شاطئ النهر ، وامتلا المكان بصراخهم وعويلهم وصيحات رجالنا ، حتى شقت الأصوات عنان السماء ، وسقط وابل من النبال والنشاب حجب نور الشمس من أن يلحبه أحد ، ووقفت نساء المدينة المسيحيات على شرفات الأسوار يرقبن هزيمة التركمان وهن يخفين سرورهن.

واستجاب الأرمن والسريان - طوعا أم كرها - لأوامر التركمان وأخذوا ينضحوننا بالنشاب ، وهلك في هذه الواقعة اثنا عشر أميرا من أمراء التركمان ، كما قتل كثيرون سواهم من خيرة المحاربين وأشجع المقاتلين ، الذين كانوا يعدون بين خيرة المدافعين عن المدينة ، حتى بلغ عددهم ألف وخمسمائة رجل ، أما الذين كتبت لهم النجاة والبقاء فلم يعودوا يملكون الجراءة على الصراخ والتهليل سواء في الليل أم النهار ، كما جرت عانتهم ، ولم يحل بيننا وبينهم غير حلول الليل ، فالظلام هو الذي أوقف الفريقين عن المحاربة واستعمال السيوف والرماح والنشاب ، وبهذا استطعنا بقدره الرب والقبر المقدس ، أن نهزم الأعداء ، الذين فقدوا ما ملكوه من مقدرة على الصراخ والكفاح.

وأصبنا في هذا اليوم كميات كبيرة من الغنائم فيها الكثير من الحاجيات الضرورية لاسيما الخيول •

ومع صباح اليوم التالي (٥١) خرج من المدينة جماعة جديدة من التركمان تولت جمع ما وجبته على طرف النهر من جثث قتلاهم ثم أخذت هذه الجثث وقامت بدفنها في (المحمرة) الواقعة خلف الجسر امام باب المدينة ، ودفنوا مع هذه الجثث جببا (٥٢) وبيزنتيات

وقطعا من الذهب وقسيا وسهاما وغير ذلك من الحاجيات التي
لا أعرف لها اسما ، ولما تنامى الى رجالنا ان التركمان قد دفنوا
موتاهم حملوا عدتهم وأقبلوا مسرعين نحو تلك المقبرة الشيطانية
فدمروا جميع الاضرحة ونيشوها وطرحوا ما كان فيها من جثث
بعيدا ثم جمعوها والقوها في خندق حفروه لها ، كما قطعوا رؤوس
القتلى وحملوها الى المعسكر (٥٣) ليعرف القوم عدد القتلى هذا عدا
عن كمية من الرؤوس حملوها على اربعة من الخيول العائنة الى
رسل صاحب مصر ، وبعثوا بها ناحية البحر ، ولما رأى التركمان
هذا المشهد ، استولى عليهم الجزع وصاروا يبكون قتلاهم.

وفي اليوم الثالث (٥٤) ، انضممنا جميعا والتأم شملنا ، ونحن في
غاية السرور ، وبغية العمل على بناء الحصن المشار اليه آنفا
بالأحجار التي انتزعناها من مقابر التركمان ، وما كاد ينجز بناؤه
حتى أخذنا في التضيق على اعدائنا من كل جانب ، وزال زهو
الأعداء اما نحن فقد بتنا نذهب مظمثين تماما انى أردنا ، سواء
الى الجبل او المرسى ، نسبح بحمد الرب ، الذي له المجد والعلو
السرمدى ، أمين.

الكتاب الثامن

نهاية حصار انطاكية والاستيلاء عليها

(من ٨ آذار الى ٣ حزيران ١٠٩٨ م)

تانكرد يحتل حصنا على قم نهر المدينة ويسد جميع المنافذ على المحاصرين.

المفاوضات بين بوهموند وفيروز الارمني . الاستيلاء على أنطاكية.

١٩ - سددنا جميع المنافذ أمام التركمان وأغلقتها بونهم الا من جهة النهر ، التي كان بها حصن واحد مع بير منفرد ، ولو كان هذا الحصن تحت حكم رجالنا لما جرؤ واحد منهم على الخروج من واحد من أبواب المدينة ، ولاغلقنا جميعا في وجوههم ، لذلك التأم شمل رجالنا للتشاور فيما بينهم ، وانعقد رأيهم على قولهم : « لنختار واحدا منا بغية الاستيلاء عن طريق القوة على هذا الحصن ، وليحل بين أعدائنا وبين الوصول الى السهل ، أو الدنو من الجبل ، وكذلك لاغلاق جميع منافذ المدينة ومخارجها ، وكان تانكرد أول من استجاب وقدم نفسه قائلاً : « لو أنني أعرف الفائدة التي سأجنيها من الاستيلاء على الحصن ، فأنني سأحتله مع رجالي وحدهم ، وسأمنع العدو منعا باتا عن طرق السبيل الذي كثيرا ما جرت عانتهم على مداومتنا منه » .

وبادر تانكرد على الفور ، وانطلق (٥٥) مع فرسانه وجنوده الأشاوس ، وسرعان ما أخذ جميع الممرات على التركمان وسدها بشكل محكم ، الى حد أنهم - وقد استبد بهم الفزع - لم يتجرؤوا على فتح واحد من الابواب لجمع الأعلاف والحطب ، أو أي نوع من الحاجيات الأخرى الضرورية لهم ، ومكث تانكرد هناك مع عساكره ، وأشرع في محاصرة المدينة من جميع الجهات.

واقبل في ذلك اليوم الى المدينة فريق كبير من الأرمن
والسريان ، وهم في غاية الاطمئنان ، وكانوا يحملون معهم المؤن
والاقوات للتركمان وأهل المدينة ، فنهض تانكرد للتصدي لهم
وأخذهم ، وبالفعل استولى على جميع ما كان معهم من الاقوات
من: قمح ونبيذ وشعير وزيت وما شابه ذلك ، وكان تانكرد قد أظهر
غاية القوة ، وجاء بالأمور المدهشات ، حيث تمكن قبل سقوط
أنطاكية من سد جميع المنافذ أمام التركمان واستولى عليها .

وإنه لمن المحال بالنسبة لي قص جميع ما قمنا قبل احتلالنا
للمدينة كما لا يمكن لأي كان ممن وجد في تلك النواحي . من
الاكليروس أو العلمانيين أن يكتب أو يروي بالتمام كيف جرت
الأمور ، ومع ذلك فسأروي الشيء القليل منها .

٢٠ - سوكان هناك قائد تركماني الأصل اسمه « فيروز » (٥٦) قد
تأثت الصداقة بينه وبين بوهموند ، وكان بوهموند يلوح له في
الرسائل المتبادلة بينهما بموته ويمنيه بها ، ووعده بمكانة سامية
إن هو اعتنق المسيحية ، وراح يمنيه بالشرف العظيم ، والثراء
الكبير ، فوثق فيروز بتلك الوعود ، وركن الى تلك الأقوال ، وأخبره
بقوله : « إنني أتولى حراسة ثلاثة أبراج ، وإنني أعدّه بالتنازل
عنها ، ويتسلمها عن طيب خاطر يوم يشاء ، وسأكون دائماً على
استعداد للترحيب به فيها » .

وعندما تيقن بوهموند من امكانية دخوله المدينة ، انشرح
صدره ، واطمأن قلبه ثم توجه نحو بقية الأمراء وهو ثابت
الجنان ، واثق ، وخاطبهم وكله بشر بقوله : « أيها الفرسان
العقلاء عليكم أن تتفحصوا حالة الشقاء والمرارة التي نحيها
صفاراً وكباراً ، فنحن لا ندري من أين ستأتينا النجدة ، وعليه
فلعله يرضيكم ويشرفكم أن يتطوع أحدنا فيرشح نفسه ويتقدمنا
جميعاً ، فإن مكنته إحدى الوسائل أو براعته من الاستيلاء على
المدينة ، أو مهاجمتها بمفرده أو بمعونة الآخرين أجمعنا الرأي على

أن نملكه أياها » ولم يقبل الأمراء بعرضه واعترضوا عليه بقولهم: « إننا لا نرضى أبدا أن ينفرد واحد منا وحده دون سواه بتملك هذه المدينة ، بل سوف نتقاسمها جميعا فيما بيننا بالتساوي ، وحيث أننا جميعا قد أسهمنا في هذا العمل واشتركنا فيه ، ينبغي أن نتقسم شرف الاستيلاء عليها » .

وعند سماع بوهموند هذا الرد ، ابتسم ابتسامة خفيفة ، فيما بينه وبين نفسه ، وتركهم لكن حتى حين ، ولم يلبث غير قليل حتى جاءتنا الأخبار تحمل إلينا نبأ اقتراب أعدائنا التركمان والعوام وغير الأرثوذكس وسواهم من الشعوب ، ولسرعان ما اجتمع مقدمونا للتداول في الأمر ، وقالوا : « إذا قرر لبوهموند الاستيلاء على المدينة وحده ، أو بمعونة الآخرين علينا أن نسلمها له عن طيب خاطر ، مشترطين عليه الوفاء بعهودنا مع الإمبراطور ، في المساعدة على رد المدينة إليه اذا قدم لنجدتنا بنفسه ، والتزم بالاتفاق الذي أبرمه معنا وأقسم على التمسك به ، وإن لم يفعل ذلك تركناها في عهدة بوهموند » .

و عند ذلك بادر بوهموند الى ملاحقة صديقه (فيروز) يوميا ، وسعى الى اغرائه بجميع ضروب الوعود والربح الكبير ، وخاطبه بقوله: « لقد نلت الساعة المناسبة التي يمكنك فيها انجاز ما اتفقنا عليه في سبيل صلاح أمورنا ، وذلك بأن تقدم لي يا صديقي فيروز المساعدة التي وعدتني بها » وتجاوب فيروز وأبدى سروره ، واستعداده لتقديم المساعدة حسب الطريقة التي يراها مناسبة:

ولما كانت الليلة التالية،(٥٧) بعث فيروز ابنة سرا الى بوهموند ليبقى عنده بمثابة رهينة ، وذلك تأكيدا منه على انه سوف يدخله البلد ، ويمكنه منها ، وأنفذ معه الرسالة التالية: « ينبغي عليك أن تقوم غدا باستدعاء جميع جيوش الفرنجة ، وتنتظر بالذهاب الى المنطقة التي يقطنها المسلمون بغية تخريبها ، ثم تلوي عنائك على

عجل عبر الجبل القائم على اليمين ، وسأقوم أنا في ذلك الحين بملاحظة هذه القوات ، وسأنتظر وصولها لاستقبالها في الأبراج التي هي في حوزتي وتحت اشرافي .

وقام بوهموند على الفور باستدعاء واحد من رجالته واسمه ميل كورون ، وناولته تعليماته التي قضت باستدعاء جيش الفرنجة العظيم للتأهب للزحف على أراضي المسلمين ، ونفذت تعليماته هذه ، وعهد بوهموند في الوقت نفسه الى الأمير غودفري ، وكونت فلاندرز وكذلك ، كونت صنجيل وأسقف بوي بالاشراف على تنفيذ الخطة ، وقال « ستسلم لنا انطاكية هذه الليلة بعناية الرب ورعايته » .

وجرى تنفيذ كل شيء حسب الصورة التالية: تجمّع الفرسان في السهل ، وأقام على الجبل جماعة الرجالة ودأبوا على الزحف والحركة طوال الليل بعضهم في إثر بعض حتى اقترب الفجر ، ثم اقتربوا من الأبراج التي ظل شحنتها سهران بها ، وسرعان ما ترجل بوهموند ، وأصدر أوامره الى الذين كانوا معه ، وقال لهم: « تقدموا ، وامضوا قدما مطمئنين متحدين ، وتسلقوا السلالم الى انطاكية ، التي ستقع الآن في أيدينا بمشيئة الرب »

وسار هؤلاء حتى وصلوا الى السلم المثبت على اسوار المدينة تثبيتا شديدا ، فصعد عليه زهاء ستين رجلا من رجالنا ، وتفرقوا على الأبراج التي كانت تحت اشراف فيروز ، ودب الرعب في قلب فيروز ، وخشي على نفسه وعلى رجالنا من الوقوع في ايدي التركمان وذلك حين شاهد المتسلقين على السلم لايعنون شرنمة ضئيلة العدد ، وصاح بهم : « ما اقل عددكم ايها الفرنجة ، اين بوهموند الشجاع ، اين هذا الفارس الذي لايقهر .

ونزل في هذه الساعة جندي لومباردي (٥٨) ، واندفع نحو بوهموند مخاطبا اياه بقوله : ترى ماهو معنى توقفك هنا ايها الرجل

الحكيم ، انسييت ماجئت من اجله ، اما ترانا قد استولينا على ثلاثة ابراج ؟! ، واثارت هذه العبارات بوهموند ، فسارع بالانضمام الى الآخرين ، واندفع الجميع نحو السلم بحماس شديد ، وماكاد الذين فوق يلمحون هذا المشهد حتى تعالى هتافهم وهم في سرور ونشوة مرددين « انها ارادة الرب » ورددنا نحن الهتاف نفسه ، وعندئذ بدأ الارتقاء المدهش ، حيث تسلقوا الاسوار ، حتى اذا بلغوا الشرفات انطلقوا مسرعين نحو الابراج وهم يقتلون كل من يصانفوه او يعترض سبيلهم ، حتى انه كان من بين القتلى اخو قيروز نفسه .

لكن السلم الذي ارتقينا عليه تحطم ، مما احزن قلوبنا واوقعنا في كرب شديد ، وعلى الرغم من تحطمه ، فقد كان يوجد الى اليسار منا باب مغلق ، لايدري احد عنه شيئا ، وكان الظلام مايزال مخيما ، واخذنا نتحسس الطريق نحو هذا الباب ، وافضى بنا البحث عنه الى العثور عليه ، فتسابقنا اليه ، وحطمناه وبخلنا منه الى المدينة .

ودوت في هذه الساعة صيحة مججلة في ارجاء المدينة جميعا ، ولم يضع بوهموند الوقت ، بل بادر الى الامر برفع رايته المجيدة على رابية مواجهة للقلعة .

وعندما اشرقت شمس الصباح ، ترامت الاخبار المخيفة التي هزت المدينة الى (الفرنجة) الذين كانوا لايزالون مقيمين في معسكراتهم ، فخرجوا مسرعين ، فشاهدوا راية بوهموند تخفق على احد المرتفعات ، وسرعان مااقبلوا مسرعين فهجموا المدينة وبخلوها من ابوابها ، وقتلوا كل من صانفوه في طريقهم من التركمان المسلمين ، ولم ينج من الموت الا الذين تهيأ لهم الفرار الى قلعة المدينة ، وخرجت جماعة اخرى من التركمان من الابواب ، ورات سلامتها في الفرار .

اما اميرهم يغي سفان (٥٩) فقد نجا هو الآخر ضمن كثيرين ممن

- ٢٥٤٢ -

فر معه ، واخذهم فرارهم الى بقعة عسكر بها تانكرد ، ولم تكن بعيدة عن المدينة ، نظرنا لتعب خيولهم فقد انعطفوا نحو احد الدساكر ، واعتصموا ببيت كان هناك ، وبعد هنيهة عرف السكان من الارمن والسريان خبرهم ، فهجموا عليهم ، وقبضوا على يغى سغان ، فقتلوه وقطعوا راسه وحملوه الى بوهموند لينالوا الجائزة. وبيع جهازه وسلاحه بستين قطعة ذهبية .

وجرت هذه الحوادث في اليوم الثالث من شهر حزيران اي خامس يوم بعد يوم الراحة ، وامتلات شعاب المدينة وطرقاتها بجثث القتلى ، حتى غدا من المستحيل السير فيها للرائحة النتنة المتصاعدة منها ، ولم يتمكن واحد منا من السير في الطرقات الا على جثث القتلى .

الكتاب التاسع

حصار التركمان انطاكية

(من ٥ حزيران حتى ٢٨ حزيران ١٠٩٨ م)

وصول أم كربوقا الى أنطاكية - رسالة الى الخليفة عن الجيش الصليبي - موقف أم كربوقا وميلها الى المسيحيين - هجوم كربوقا على أنطاكية - قصة الرؤيا - يمين زعماء الصليبيين - رؤيا بطرس - حريق أنطاكية والمجاعة فيها - هرب كونت شارترا الى الامبراطور - الحربة المقدسة - سفارة بطرس وهرلوان الى المعسكر الاسلامي - انتصار الصليبيين .

كان كربوقا - مقدم عساكر ملك فارس - (٦٠) موجودا في خرسان حينما وصله من يغي سغان - صاحب أنطاكية - عدة رسائل الخ عليه فيها بالمبادرة الى انجاده ، لأن حصار الفرنجة الاقوياء له في أنطاكية قد اضرب به خبرا عظيما ، ولو استجاب له كربوقا على الفور وبعث اليه بالعساكر لنجته لسلمه يغي سغان أنطاكية ، أو لقابله بجائزة كبيرة ، وكان كربوقا قد أعد للأمر عدته ، وماكاد يحصل على اذن الخليفة - إمامه الروحي - بالتوجه للقتال ضد المسيحيين ، حتى بادر الى جمع جيش كبير من التركمان زحف على رأسه في الطريق الطويل الى انطاكية .

وجاء والي القدس الى نجته ، كما قدم أمير دمشق هو الآخر على رأس جند كثيف ، وجمع كربوقا حشودا كبيرة جدا من الغز والتركمان والعرب والمسلمين والعمامة وغير الارثوذكس والاكراد والفرس والغلمان وسواهم من الاقوام الأخرى التي لاحتصر لها ولاعد ، وكان عدد الغلمان ثلاثمائة ألف رجل شاكي السلاح من القسي والرماح منبرلين بالحديد هم وخيولهم ، كل هذا مع مااعتابوا عليه من الاقتصار على حمل السيوف في الحروب دون

سواها من بقية الاسلحة ، لقد قدم هؤلاء جميعا لفك الحصار عن
أنطاكية وصد الفرنجة وتمزيق صفوفهم .

ولما اقتربوا من أنطاكية صادفهم شمس الدولة بن يغي سغان
أمير أنطاكية فأسرع نحو كربوقا متوسلا اليه باكيا ، مخاطبا اياه
بقوله : « أيها الأمير الذي لا يغلب ، أتوسل اليك أن تهب لنجستي
لان الفرنجة يحاصرونني - وأنا ما زلت في قلعة أنطاكية - من
جميع الجهات ، وقد وقعت المدينة في أيديهم ، وهم يبتغون اقتلاعنا
من أراضي سلاجقة الروم ، ومن الشام ، بل حتى من خراسان
ذاتها ، وقد أمضوا ما أراونا فقتلوا أبي ، ولا هم لهم الآن الا
القضاء علي وعلى جميع ابناء جنسنا ، وانني أتوقع منك
العون تبذله لي ، والمساعدة في تخليصي من هذا الضيق » ، فأجابه
كربوقا بقوله : « اذا أردت عوني ونجستي بصدق ، وإن أبذل
قصارى جهدي في سبيل دفع هذا الخطر عنك ، فسلمني هذه
القلعة ، وأنداك ستربى اية خدمة يمكن ان أؤتيها اليك ، فأنا
سأجعلها في عهدة رجالي » .

فرد عليه شمس الدولة قائلا : « لئن تمكنت من القضاء على
الفرنجة جميعا وأسلمتني رؤوسهم فسأبخل لك عن القلعة وأصبح
واحدا من رجالك ، والقلعة من أملاكك » . فأجابه كربوقا : « لائن
يكون الأمر كما تقول ، بل إن كل شيء مرهون بتسليمك
القلعة » ، فأذن شمس الدولة وتنازل له عن القلعة راضيا أو
كارها .

ووصلت طلائعهم الى اسوار انطاكية في اليوم الثالث (٦١) بعد
دخولنا المدينة ، وعسكر جيشهم عند جسر العاصي ، وانقضوا على
احد الأبراج (٦٢) ، فقتلوا كل من صادفوه فيه ، ولم ينج منهم غير
مقدمهم عثرنا عليه مقيدا بالسلاسل لبيهم اثر المعركة الكبرى (٦٣) .

وتحرك جيش الكفار في اليوم التالي (٦٤) ، واقترب من اسوار

المدينة ، وأقام معسكره بين النهرين ولبث هناك مدتي يومين ، ولما تسلم كربوقا القلعة دعا اليه واحدا من قادته (٦٥) ، وقال له: « أريدك ان تكون وفيا لي مخلصا في ولاية القلعة ، وأنا أعلم منذ زمن طويل وفاءك واخلصك ، وانني عاهد بأمر الدفاع عنها والمحافظة عليها اليك » فأجابه هذا القائد « بودي لو أعفيتني من هذا الأمر ، ومع هذا فانني أقبل به على شرط واحد ، وهو أن أقوم بتسليم القلعة الى الفرنجة ان هم أوقعوا بك وهزموك » فرد عليه كربوقا بالقبول وقال له : « امض لما أمرت به فأنا أقدر فيك صدقك وعقلك ، وأرتضي بكل ماتراه وترضي به من خير » .

ورجع كربوقا الى جيشه وأراد التركمان أن يقللوا من شأن الفرنجة ، فأتوه بسيف رخيص قد علاه الصدا ، وبقوس مسود ، وبحربة غير صالحة للاستخدام كانوا قد أخذوها من جماعة من فقراء الحجاج ، وقالوا : « انظر هذه هي الأسلحة التي يحملها الفرنجة في حربهم لنا » فافتر فاهه عن ابتسامة فيها سخرية وقال : « أهذه حقا الأسلحة الجيدة الحادة التي يذشد المسيحيون قهرنا بها في أسية ، والتي يظنون أنهم قادرون بها على طردنا الى ماوراء خراسان وإزالتنا من تلك الديار حتى أنههار الامازونيين (٦٦) ، هؤلاء المسيحيون الذين اجلوا اخواننا من أسية الصغرى ، ومن أنطاكية ، المدينة الفاخرة وحاضرة بلاد الشام جميعا » .

ثم بادر الى استدعاء كاتبه وقال له : « اكتب الآن جميع المناشير التي ستقرأ في خراسان وقل فيها : الى خليفتنا الجليل ، والى مولانا السلطان المعظم والفراس الشجاع ، والى جميع امراء خراسان العقلاء ، السلام عليكم ، والتوقير والاحترام لكم ، وبعد : فليتهيا للمقام العالي من السعادة والتوفيق الكريم مايتيح لهم النعمة والشكر في جميع البلدان ، والانصراف نحو النود عنهم ومنعتهم ، وانجاب النرية الكثيرة العدد لتتمكن من جهاد المسيحيين بكل شجاعة ، ونحن أخذنا الجيوش الثلاثة واستطعنا

بها قهر فريق من الفرنجة ، ولقد عرفنا صفة السلاح الذي يستخدمه الفرنجة في حربنا ، وليعرف الجميع انني اخذت الفرنجة الذين في انطاكية ، واستوليت على القلعة وصارت في يدي ، وسوف يساق الفرنجة الى الموت او الاسر في خراسان ، فهم الذين يتوعدونا بالطرد على يد جيوشهم وبالجلاء عن بلادنا ، كما فعلوا حين اجلوا ابناء قومنا من اسية الصغرى والشام ، واني لا قسم لكم بمحمد وبجميع اربابنا (٦٧) لن اقف بياكم وامثل امام جنابكم قبل ان اجاهد بحد سيفي القوي مدينة انطاكية الفاخرة وجميع بلاد الشام واسية الصغرى وبلغاريا حتى ولاية ابوليا تمجيدا لآلهتنا ، ولكم ولجميع معاشر التركمان».

على هذه الصورة اذا كانت خاتمة الرسالة .

٢٢- وكانت والدة كربوقا في حلب ، وقد قدمت لرؤية ولدها ، ولدى مقابلتها له اجهشت في البكاء وقالت سائلة إياه : « أحقا ما سمعته ؟ فسألتها : وماذا سمعت : فأجابته ؟ سمعت أنك متوجه لحرب جيوش الفرنجة ، فقال : لقد سمعت حقا ، فتوجهت إليه بقولها : أسألك يا ولدي بحق جميع الأرباب ، وبحق سجاياك الكريمة وعفوك ، ان تتراجع عن قتال الفرنجة ، أنت أيها الفارس الذي لا يعرف الهزيمة ، ولم يرك أحد قط فارا أمام أحد من الغزاة ، فلقد طبقت شهرتك وشجاعتك الأفاق ، حتى أن أشجع الفرسان ليرتجفون حين سماع اسمك أنى كانوا ومهما كانوا ، ونحن نعرف يا بني أنك أخو غمرات ورجل غارات ، عركتك الأيام وعركتها ، ولن يستطيع أي شعب - وثنيا كان أم مسيحيا - أن يزهو أمامك ويتفاخر بقوته ، بل يهرب الجميع من أمامك لدى السماع باسمك كما تهرب النعاج من زئير الأسد ، لهذا كله اتوسل اليك يا ولدي الحبيب أن تسمع قلبي وتصغي الي نصائحي ، فلا تحاول مطلقا التفكير في قتال الشعوب المسيحية أو منازلتها ».

وعندما فرغت من مقالاتها هذه أجابها مرعوباً : « ما هذا الذي تتفوهين به يا أماء ، أترك جننت ، أم نزلت بك نازلة؟ ان بصحبتى عدداً كبيراً من الأمراء الذين ليس لدى المسيحيين من يناظرهم بين الكبار والصغار ، فأجابته : « انني أعرف يا بني مصداق ماتقول ، وأن المسيحيين لا يمكنهم الوقوف في وجهك في الحرب ، وأعلم أنهم عاجزون عن النهوض الى حربنا ، لكن ربهم يحارب دوماً بين صفوفهم ، وهو يدافع عنهم ويحميهم ليلاً ونهاراً كما يحمي الراعي قطيعه ، ولا يقبل أن تمسهم أية أمة بأننى شر أو سوء ، وأن ربهم سيؤذي كل من يتطلع الى مقاومتهم مصداقاً لما جاء على لسان النبي داود : « نشئت الشعوب الذين يسرون للقتال (٦٨) ، وقوله افض رجلك على الأمم الذين لا يعرفونك وعلى الممالك التي لم تدع باسمك (٦٩) » ، وانك لترى كيف ان ربهم القوي الذي لا يقهر قد قضى - قبل ان يصطفوا للحرب - على جميع أعدائهم بوساطة ملائكته ، اعرف الحقيقة يا ولدي الحبيب ، وأن هؤلاء النصارى يسمون أبناء المسيح ، وقد جاء على لسان الرسل : « انهم اولاد الموعد (٧٠) » وقول الرسول ايضاً : « انهم ورثة الله في واريثون مع المسيح (٧١) » ، وهم الذين حباهم الرب بالميراث الذي وعدهم اياه ، ، لأنه القائل على لسان الرسل : « من المشرق الى المغرب تكون قوتهم في وجههم » (٧٢) فمن الذي يمكنه التصدي لهذه الأقوال ومناهضتها ؟ والحق أقول : أنك اذا أقدمت على حربهم عنت بالخسارة الكبيرة والعار المقيم ، وستفقد العديد من فرسانك المخلصين ، وتترك وراعتك نخائرك غنيمة وتفر يلاحقك الرعب الشديد ، أجل انك لن تقتل في هذه المعركة ، بل ستموت في بحر هذه السنة ، فالرب في غضبه يمهل ولا يهمل من أساء اليه ، يترك حساباه الى الساعة التي يقرر بها بذاته ، وعندها سينتقم منك أبشع انتقام ، ولهذا أخشى أن يراك الرب تستحق العذاب الشديد ، وانني أقول لك : انك ستخسر كل ماتملكه الآن يدك .

وكان وقع هذا الكلام على كربوقا شديداً ، فالتفت نحو أمه والأسى ظاهر عليه قائلاً : « انني أتوسل اليك يا أمي العزيزة أن

تخبريني وتبينني لي من الذي أخبرك بكل هذا عن الشعب المسيحي ، من الذي أعلمك أن ربه يحبه الى هذه الدرجة حتى أنه ليمده بمثل هذا العون أثناء القتال ، ومن الذي أنبأك أن الغلبة ستكون لهؤلاء المسيحيين علينا أمام أنطاكية ، وأنهم سيفنمون نخائرتنا وأنهم سيسيروا خلفنا اثر نصبرهم المؤزر علينا ، ثم من الذي أخبرك ان المنية ستخترمني فجأة في عامي هذا ؟

فأجابته أمه و الألم يعتصر قلبها اعتصارا : « يا ولدي العزيز ، لقد وضح لبعضهم منذ أكثر من مائة عام أنه جاء في كتابنا وفي كتب الوثنيين أن الامم النصرانية ستقوم بالهجوم علينا وسيكتب لها النصر علينا في كل جهة ، وأنها ستسود على الكفار ، وأن شعبنا سيخضع لها ، وأنا لا أعرف يقينا فيما اذا كان مقدرنا لهذه الامور جميعا أن تقع الآن ، أم أنه لم يحن وقتها بعد ؟ فلقد لحقت بك - والاسي يحزن نفسي - من حلب - المدينة العظيمة التي تمكنت فيها بعد البحث والتدقيق ، ومن خلال سؤال النجوم واستطلاع البروج الاثني عشر والنبوءات الكثيرة ، ولقد أخبرتني هذه الظواهر جميعا أن الشعب المسيحي سيتغلب علينا أنى كنا ، وإنني لارتعد خوفا وأسى خشية أن أفقدك » .

فأجابها كربوقا : « أخبريني - يا أمي الغالية - بكل مالا تتقبله نفسي ولا تؤمن به » ، فأجابته : « لا يا بني ما كان لي أن أستجيب لمطلبك هذا طواعية ، هذا لو كنت على بينة من الامور الخافية عليك » .

فقال لها : « إن بوهوموند وتانكرد ليسا من أرباب الفرنجة ، ولا يخلصانهما من أعدائهم لأنهما يأكلان في المرة الواحدة : ألفي بقرة وأربعة آلاف خنزير (٧٣) » ، فأجابته أمه بقولها : « اعلم يا ولدي العزيز أن الموت سيطل بوهوموند وتانكرد كما سيطول بقية البشر ، لكن ربهما فضلهما على سواهما ومنحهما قدرة يحاربان بها الجميع ، لأن ربهم القدير - تقدس اسمه - يقول : (انه صنع

السماء والأرض والبحر وكل ما فيها) (٧٤) وإن عرشه موجود في السماء منذ الأزل وبآسه مرهوب في كل مكان» ، فانبرى ابنها يرد عليها بقوله: « لن امتنع عن قتالهم حتى لو كان الأمر كما تزعمين» ، تيقنت أنه لن يستجيب لنقدها الشديد له تركته وقلبها يعتصر حزنا ، وتوجهت عائدة الى حلب ، حاملة معها ما أمكنها حمله من الذخائر .

٢٣ - ووضع كربوقا - في اليوم الثالث (٧٥) - سلاحه ولبس لأمته ، وحمل حتى اقترب من المدينة ، ومعه فئة كبيرة من التركمان ، وجاء هجومه من جهة القلعة ، وحيث اننا كنا قد خيل إلينا ان في امكاننا دفعه ، فقد نظمنا صفوفنا وأعدنا لها للحرب ، ولكنهم أبلوا بلاء شديدا عجزنا حياله عن مقاومتهم ، وتراجعنا بصعوبة بالغة نحو المدينة التي كان بابها شديد الضيق ، لهذا مات عدد كبير منا خنقا تحت أقدام رفاقهم .

وفي خامس أيام الأسبوع كان بعض منا يحارب خارج المدينة وبعضنا الآخر من داخلها ، وظل الحال هكذا حتى حلول الظلام ، وفي تلك الأثناء استولى الهلع على نفوس وليم دي غراندميل وأخيه أوبرى وغي تروسو ، ولامبرت الفقير (كونت كلير مونت) وذلك نتيجة لقتال الأمس الذي استمر حتى المساء ، لهذا تسربلوا الظلام وانسلوا مترجلين في ظلمة الليل ومروا هاربين بجانب السور المقابل لشاطئ البحر ، وعانوا كثيرا ودميت أيديهم وأقدامهم ولم يبق فيهم سوى العظام ، وقد رافقهم في فرارهم هذا كثيرون ممن لا أعرفه .

وعندما وصلوا الى السفن في ميناء السويدية ، قالوا لبحارة هذه السفن : « ماذا تفعلون هنا أيها الأشقياء ؟ لقد هلك رجالنا جميعا ولم يبق منهم أحد ، ولم ننج نحن الا بعد عذاب شديد ، حيث ان جيش التركمان كان يحاصر المدينة من جميع الجهات عندما كنا فيها » ، فلما سمعوا هذه المقالة منهم دهشوا وجزعوا فانطلقوا

نحو مراكبهم مبحرين ، وتسارع التركمان نحوهم وفي أثارهم
فقتلوا كل من صدقوه منهم ، وأضرموا النيران في المراكب الراسية
في مجرى النهر واستولوا على ما خلفوه من أسلاب .

أما بالنسبة إلينا نحن الذين بقينا (محاصرين في المدينة) فلم
نعد نستطيع احتمال وطأة أسلحتهم لهذا أقمنا بينهم وبيننا سورا
تناوبنا على حراسته ليلا ونهارا ، واشتد الحصار علينا وضاق بنا
الحال حتى اضطررنا الى أكل خيولنا وحميرنا.

٢٤- وفي أحد الأيام ، وبينما كان مقدمونا مجتمعين في أعلى
المدينة مقابل القلعة يتشاورون والحزن ظاهر عليهم واليأس قد
استبد بهم اذا بواحد من الرهبان (واسمه ستيفن فالتنان) يمثل
أمامهم ويخاطبهم بقوله : « أيها السادة ، هل لكم أن تصفوا الى
ماسأقصه عليكم ، لقد رأيت البارحة حينما كنت نائما في كنيسة
القديسة مريم - والدة الرب يسوع المسيح - رؤيا هاكم
وصفها : لقد ظهر لي مخلص العالم ويرفقه أمه ويطرس الطوباوي
سيد الحواريين ، وناداني قائلا : أوتعرفني ، فأجيبته بلا ، وعند
ذاك رأيت فوق رأسه صليبا كاملا ، فسألني الرب
ثانية : « أوعرفتني الآن » ؟ فأجيبته : « ماكان لي أن أعرفك لولا
أنني رأيت فوق رأسك صليبا يماثل صليب مخلصنا » فقال
لي : « إنني هو بعينه » ، فانكبت في الحال على قدميه متذللا متوسلا
اليه كي ينقذنا مما نحن فيه من المآسي ، فأجابني الرب : « لقد
ساعدتكم فيما مضى ، وإنني ماض في مد يد العون لكم ، كما
ساعدتكم في الاستيلاء على نيقية ، وكما رعيتمكم حتى أوصلتكم الى
هنا ، ولقد أحزنني ماكاببتموه من مشقة أثناء حصار
أنطاكية ، ولكنكم استطعتم بفضل مساعدتي لكم أن تدخلوا المدينة
سالمين غانمين ، بيد انكم فسقتم مع نساء فاسدات من المسيحيات
والكفار ، فتصاعد النتن حتى بلغ السماء » .

وحيثذاك ركعت البتول ويطرس الطوباوي على قدميهما متوسلين

اليه راجين ان يعطف علمه ، شعبه فيعينه في محتفه وينجسه مما ألم به ، وتوجه اليه بطرس المبارك بقوله : « أيها الرب ، لقد طال أمد استيلاء الشعب الوثني على بيتي الذي لحق به من جراء هذا الأمر مساوئ يعجز اللسان عن نعتها ، فلنطرد الآن الأعداء أيها الرب ، ولتفرح الملائكة في السماء ».

فالتفت الي الرب قائلاً : « امض الى شعبي وأخبره وليعد الي ، فسأعود أنا اليه ، وأمامه أيام خمسة سأبعث بعدها بعون عظيم ، ومره فليرتل كل يوم بهذه الترتيلة مع بقية المقاطع : « هوذا الملوك اجتمعوا » (٧٦) ».

والان أيها السادة إذا ساوركم شك في صحة ماقلت ومارويت فاسمحو لي أن أصعد الى رأس البرج ، وأن أطرح نفسي من أعلاه الى أسفله ، فأن سلمت فصدقوا بما قلت ، وأن أصابني سوء فاقتلوني أو اجعلوني طعمة للنار .

وعند ذلك أمر أسقف بوي باحضار الاناجيل والصليب ليقسم هذا الراهب على صحة ماقاله ، واتفق في تلك الساعة مقدمونا على أن يقسموا بسبر القربان المقدس الا يحاول أحدهم - مادام حيا - أن يفر أو يحاول النجاة من الموت أو يسعى لانقاذ حياته ، ويذكر أن بوهموند كان أول من أقسم ثم تلاه كونت صنجيل ، فروبرت النورماندي ، فالامير غوبفري ، فكونت فلاندر ، أما تانكرد فلم يقتصر في يمينه على أنه لن يتخلى أبدا عن متابعة هذه الحرب ، بل زاد أنه لن يتخلى مطلقا عن الزحف نحو القبر المقدس حتى ولو لم يبق معه سوى أربعين فارسا .

ولما تناهت أخبار هذا القسم الى الجيش المسيحي ببت الفرحة بين صفوف رجاله جميعا .

٢٥- وكان هناك حاج من جيشنا اسمه بطرس^(٧٧) (بارثليمو) تراءى له القديس اندراوس الرسول قبل

بخولنا الى المدينة وقال له : « ماذا تفعل هنا أيها البطل
الصنديد ؟ فأجابه : وانت ، ثم من أنت فقال له الرسول : « انني
الحواري أندراوس ، اسمع يا بني عرج - حين نخلوك الى
المدينة - على كنيسة القديس بطرس - القسيان - وستجد بها
حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفع على خشبة
الصليب » ، ثم اختفى الرسول بعد ما فاه بهذه العبارة .

وخاف هذا الرجل من الجهر بما أشار به الحواري
عليه ، فأمسك عن اخبار حاجتنا بفحوى تلك الرؤيا ، وخيل اليه
أن مراه كان مجرد أضغاث أحلام ، لهذا ردد في نفسه : ترى من
يستطيع تصديق هذا ؟ وماكاد يفرغ من ذلك حتى أخذه القديس
أندراوس وسار به شطر تلك الناحية حيث كانت الحربة مطمورة
تحت الأرض .

وفي الساعة التي كنا موجودين فيها في ذلك الوقت الشديد الذي
وصفته آنفا (٧٨) عاد القديس اندراوس الى بطرس وقال له : لماذا لم
تخرج الحربة من باطن الأرض كما أشرت عليك ، أولا تعلم أنه لم
يغلب قوم قط حملوا هذه الحربة معهم في الحرب ؟! ، وهنا أفضى
بطرس بالحال الى حاجتنا بالخبر وكشف السر الذي استودعه إياه
القديس الحواري ، فلم يصدق القوم بل أنكروا ما قال ، وسألوه
: كيف نؤمن بصحة هذا القول ؟.

وكان الهلع مستوليا على نفوسهم ، وكانوا يتوقعون الموت بين
ساعة وأخرى ، فذهب بطرس اليهم وأقسم لهم أنه صادق في كل
ماقاله ، وأن القديس أندراوس تراءى له مرتين وقال له : انهض
وامض الى الشعب وأخبره ألا يخشى شيئا ، بل عليه أن يؤمن إيماننا
صادقا من كل قلبه بإله الرب واحد حقيقي ، وأنه سينتصر في كل
مكان ، وأن الرب سوف يبعث اليه في الأيام الخمسة المقبلة برسالة
تملؤكم فرحا وحبورا واذا أراد الشعب القتال فليخرج بأجمعه متحدا
الى الحرب ، فسينتصر على جميع أعدائه نصرا مبينا ، لن تقوم له
بعده قائمة أبدا .

ولما سمع الحجاج بأن القضاء الشامل على أعدائهم سينجز على أيديهم ، استعادوا رباطة جأشهم وأخذ بعضهم يشجع بعضا قائلين : انهضوا وكونوا رجالا شجعانا عقلاء لأن الرب سيبارك في الحال الى عوننا و سيكون في ذلك عزاء لشعبه الذي يرى الآن ما هو فيه من شدة .

٢٦- وراح التركمان الذين كانوا في الاجزاء العليا من القلعة يزحفون نحونا حتى صاروا على مقربة منا ، ونجحوا ذات مرة في محاصرة ثلاثة من فرساننا في برج كان واقعا قبالة قلعتهم ، وفي الحقيقة وجد الكفار منفذا انقضوا منه عليهم بشدة وعنف الى حد أنهم لم يستطيعوا الصبر على مجالدتهم ، وخرج من البرج اثنان من الفرسان قد أصيبا بالجراح ، أما الثالث فقد صمد في الدفاع عن نفسه ، ودافع التركمان لمدة يوم كامل ، وقتل منهم اثنان امام السور ، بعدما تكسرت في يديه ثلاث حرا ب ، وواجه الفارسان حتفهما ثم لحق بهما الثالث وكان اسمه هيج الثائر ، وكان من أصحاب غودفري دي مونت سكايبوزو (٧٩) .

ولما وجد بوهموند المبجل أنه من المحال ايجاد رجال يقومون بمهاجمة القلعة ، لبقاء الجميع في بيوتهم بسبب المجاعة وخوفا من التركمان ، لما وجد هذا الحال اشتد به الغضب وأمر بإلقاء النار في المدينة في الناحية التي قام بها قصير يغي سغان ، ولما تراءى منظر النيران للجماعات التي كانت داخل البيوت غادرت مساكنها ، وخلفت كل مساكن تملكه ناجية بحشاشة نفوسها ، فانطلق فريق باتجاه القلعة ، وفريق آخر الى باب كونت صنجيل ، وفريق ثالث نحو باب غودفري ، أي أن كل فريق توجه هاربا نحو الجماعة التي انتسب اليها .

وثارت في تلك الساعة فجأة ريح شديدة ، لم يستطع أحد أن ينتصب حيالها واقفا ، مما بعث الأسى في نفس بوهموند العاقل ، فقد خشي أن يمتد الحريق الى كنيسة القديس بطرس

والقديسة مريم وسواهما من الكنائس . واستمرت هذه المحنة من الساعة الثالثة حتى منتصف الليل ، واتت النيران على القي بيت وكنيسة ، ثم خمدت جذوتها حين أوشك الليل على الانتصاف .

ولم يتوقف التركمان الذين كانوا في داخل المدينة عن حربنا ليلا ونهارا ، ولم يعد يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب لأنه لم يعد بالامكان أكل الخبز لمن كان معه خبز ، وشرب الماء لمن كان معه ماء ، ولهذا شيدوا بينهم وبين التركمان سورا من الجير والكلس ، وأقاموا حصنا وضعوا فيه مختلف الأعتدة اللازمة لضمان سلامتنا ، وأقام في الوقت نفسه فريق من التركمان في القلعة في حين عسكر الفريق الآخر في واد قريب من القلعة .

ومع حلول الظلام لاحت في السماء نار مقبلة من جهة الغرب ، وأخذت في الاقتراب حتى سقطت وسط معسكر الجيش التركماني ، فاستولت الدهشة على رجالنا وعلى التركمان سواء ، ومع اشراق الصباح فر الخائفون جزعا ورهبة من رؤية هذه الظاهرة السماوية حتى اذا بلغوا باب بوهموند عسكروا عنده .

ودأب رجال شحنة القلعة على مناوشة رجالنا القتال ليلا ونهارا ، فجعلوهم مابين جريح وقتيل بفعل نشاطهم ، أما بقية التركمان فقد أخذوا في تشديد الحصار على المدينة من جميع الدواحي الى حد انه لم يعد يجرؤ احد منا على الخروج منها او الدخول اليها الا ليلا او بالخفاء ، وبذلك صرنا نعاني ونكاب من هذا الحصار الضيق الشديد والعذاب على ايدي هؤلاء الأعداء الذين كانوا في الأعداد الدثرة .

وشرع أعداء الرب الدنسون هؤلاء في تشديد الحصار علينا ونحن في داخل انطاكية حتى مات العديد منا جوعا ، وغلت الأسعار حتى كان الرغبة يباع ببيزنتية ، ولأحاجة بي الى ذكر النبذ

لانعدامه ، وأكل الفرنجة لحوم الخيول والحمير وابتاعوها ، وبيعت
السجاجة بخمس وعشرين « سوسية » والبيضسة
« بسوستين » والجوزة بديناري ، و على هذا كان كل شيء يباع
بأثمان خيالية ، ولهذا عمت المجاعة واشتدت نكايتها ، حتى أخذ
بعضهم يقيم المطابخ التي يقدم فيها للناس أوراق التين والعنب
والعظام ، وطهى آخرون في مطابخهم جلود الخيول والجمال
والأبقار والجواميس اليابسة ، ولقد عانينا كل هذه الآلام والشدائد
وسواها مما يستحيل وصفه في اسم المسيح ، ولكي نمهد الطريق
حرا الى القبر المقدس .

وهكذا مر بنا ستة وعشرون يوما ونحن فرائس لهذه الشدائد
والمصاعب وأمثالها .

٢٧- كما وقام كونت شارتر ^(٨٠) الذي مال عن منهج
السداد - وكان سبق لمقدمينا أن انتخبوه رئيسا أعظم - فظاهر
بالمرض وذلك قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وارتد بكل خزي والعار
يجلله الى بلدة أخرى حصينة اسمها الاسكندرونة ، ورحنا ننتظر
قدومه الى نجدتنا كل يوم ، ونحن على مانحن عليه داخل
المدينة ، نون مساعدة تخلصنا مما كنا فيه .

فهو ماكاد يعرف بأن جيش التركمان محقق بنا ومحاصر لنا حتى
تسلل سرا وصعد رأس جبل ^(٨١) قريب من أنطاكية ، فشاهد الخيم
التي لا يحصيها عد ، وأذاك استبد به الهلع ، فارتد بجنده بكل
سرعة ، حتى اذا وصل الى معسكره قوض خيامه ورحل ومعه رجاله
موليا الادبار ^(٨٢) .

ولما دخل على الامبراطور في بلدة فيلوميلون ^(٨٣) سألته الاجتماع
به على اذفراد حيث قال له: « اعلم انه قد تم استيلاء التركمان على
ماحول أنطاكية ، أما المدينة فلم تسقط في أيديهم بعد ، وترك
رجالنا وهم يعانون من شدة الحصار ، ومن المرجح انهم ماتوا الآن

جميعا على أيدي التركمان ، عليك أن ترجع بأسرع مايمكنك حتى لاتقع انت وجندك فريسة في أيديهم .

واستبد الخوف بالامبراطور وجزع جزعا شديدا ، فاستدعى اليه غي اخا بوهيموند (٨٤) وجماعة أخرى وخاطبهم بقوله: «أيها الساسة ترى ما نحن فاعلون؟ هاهم التركمان قد ضيقوا الخناق على جميع اخواننا ، وربما يكونون الآن قد فتكوا بهم وبادوهم او اخذوهم اسرى ، كما يذكر لنا هذا الكونت الذي فر «بخزي» وارى بات علينا أن نبادر بالتراجع قبل أن يلحق بنا مالحق إخواننا من الفناء المروع .»

ولما سمع غي - الفارس الشجاع - هذه الأكاذيب اجهش في البكاء هو ومن معه ، وانتحب نحيبا طويلا وصاح وصاحوا : أيها الرب المتعال ، أيها الثالث الواحد ، لماذا ارتضيت بحدوث هذه الامور جميعا ، لما ارتضيت لشعبك المؤمن بك أن يقع في أيدي أعدائه ، لماذا سارعت فتخلت عن هؤلاء الذين يسعون الى تمهيد الطريق نحو هيكلك وجعله حرا طليقا آمنا ، يارب لو صبح ماسمعناه وتحقق ماقاله هؤلاء الاشقياء ، فانا سنهجرك نحن والمسيحيون الآخرون ، ولن تعود تخطر ببالنا ، ولن يجرؤ واحد منا بعد ذلك على الدعاء باسمك أبدا .

وسرت هذه الأخبار المشؤومة بين صفوف الجيش أجمعها ، حتى أنه انقضت عدة أيام لم يهتف فيها واحد من الأساقفة أو الشماسة أو رجال الكليروس أو العلمانيين باسم المسيح أو أتى على ذكره .

وفي الحقيقة لم يستطع أحد أن يقدم العزاء أو المواساة إلى غي الذي ماانفك يبكي وينتحب ويضرب على صدره ويلوي أصابعه وهو يقول : وأسفاه ياسيدي بوهيموند ياشراف الدينا وزينة العالم ، يامن كانت الدنيا تخافه وتحبه ، واشقوتاه ، اي قاصمة نزلت بي واي داهية ، أما كنت استحق في مصيبتني بك أن

أرى طلعتك البهية ، لقد كان هذا غاية سؤالي ومطلبي ، من ذا الذي يمكنني من ان افديك بنفسي ، ياسيدي ، يا صديقي الغالي ، لماذا لم أواجه منيتي يوم ولدتني أمي ، ولماذا كتب علي ان اعيش حتى أشهد يومك المشؤوم ، لماذا لم أغرق ، لماذا لم يكب بي فرسي فيندق عنقي ؟ كم كنت أتمنى أن أكون معك فأنال الشهادة الكريمة وأشهدك وأنت تواجه منيتك بشرف وشجاعة .

ولما جاء الجميع لتقديم العزاء له ومحاولة مواساته ، استرد صوابه وأفاق ثم قال : ترى ماذا ترون بهذا الفارس العجوز الذي فقد صوابه ، هل سمعتم قط أنه أنجز عملاً من أعمال الفروسية ؟ لا ، لقد اختفى وهرب متسربلاً بالعار ، وتستر خائفاً كما يتستر الشقي الأثيم ، الا فليكن معلوماً لديكم جميعاً أن كل ماتفوه به هذا الشقي هو أفك وباطل محض .

وأرسل الامبراطور في تلك الاثناء أوامره وتعليماته الى رجاله قائلاً لهم : « انهضوا وقودوا جميع رجال هذه المنطقة نحو بلغاريا ، وقبل ذلك جوسوا خلال الديار ، فخربوا جميع البقاع حتى اذا قدم التركمان لم يجدوا شيئاً ».

وارتد رجالنا - طوعاً وكرهاً - وهم في غاية الحزن واليأس وقد دب الخور في نفوس كثير من حجاجنا وغدوا عاجزين عن اللحاق بالجيش ، فتوقفوا عن السير ، وهلك بعضهم أثناء الطريق ، اما الباقون فعادوا الى القسطنطينية .

- ولدى سماعنا لأقوال (بطرس بارتلمييو) الذي نقل اليينا ما أوجاه المسيح على لسان الرسول ، اندفعنا بكل سرعة ممكنة نحو كنيسة القديس بطرس التي ذكرها ، وعمل ثلاثة عشر رجلاً منا في الحفر من الصباح حتى المساء ، وأنداك عثر الرجل على الحربة في الموضع الذي أشار اليه ، فتلقفها القوم بفرح عظيم وبإرهاب شديدة ، وعمت المدينة بهجة شاملة (٨٥) .

وعقدنا في تلك الساعة مجلسا حربيا للتشاور فيما بيننا عما علينا صنعه ، وعند ذلك انعقد اجماع قادتنا على المبادرة بانفاذ رسول الى التركمان - أعداء المسيح - ليسألهم - بوساطة أحد المترجمين - السؤال التالي : « ما الذي دعاهم الى دخول أرض المسيحيين وهم في حنق شديد ، وما الذي دفعهم لاقامة معسكرهم هناك ، وفتكهم بعبيد المسيح وقتلهم اياهم » ، ولما انتهت أعمال المشاورة استدعوا بعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان وزوبوهم بالتعليمات التالية قائلين لهم : « امضوا فابحثوا عن جيش التركمان الملعون ، وقصوا عليه هذا كله في دقة ، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم الى اقتحام أرض المسيحيين التي هي أرضنا نحن ايضا » .

ولدى سماع الرسل لمضمون رسائلهم انطلقوا لساعتهم ، وقدموا مقر قيادة الكفرة وأفضوا الى كربوقا ورجاله برسالتهم التي كان مضمونها : « لقد دهش قادتنا ومقدمونا أشد الدهشة كيف دفعكم التهور والطيش الى دخول أرض المسيحيين ، التي هي أرضهم ايضا ، هل لنا ان نفترض انكم قدتمتم هاهنا بغير اعتناق المسيحية ، أم ترى ان الدافع للقنوم هو انزال شتى ضروب المساويء بالنصارى ويمختلف الطرق ؟ ان قادتنا يطلبون منكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين ، التي هداها بطرس الطوباوي بمواعظه من قبل ، وقادها الى الايمان بعقيدة المسيح ، وان قادتنا يسمحون لكم باصطحاب كل ما لديكم من الخيول والبغال والحمير والابل والماشية والثيران وكل ما تملكون ، ونقل كله معكم الى حيث شئتم » .

وغضب كربوقا - قائد جيش ملك فارس - غضبا شديدا ، وأخذته ومن معه العزة بالاثم فأجابوهم بقلظة : « إنا لانبالي بكم ولا بربكم ونصرانيتكم ، ولانرتضيها وإياكم ، وسنسحقكم معها سحقا تاما في أن واحد ، والذي حملنا على القنوم الى هاهنا هو دهشتنا كيف يدعي المقدمون والقادة

الذين نكرتموهم ملكية أرض نحن أخذناها من الأمم المدالة ، والآن هل تريدون سماع ربنا عليكم ؟ ارجعوا مسرعين الى مقدميكم وأخبروهم أنهم اذا كانوا يريدون ان تتركوا ، وتهجروا ، ربكم الذي تسجدون له ، وتنبذوا شرائعكم التي أنتم مقيمون عليها الآن ، فأننا نعطيهم هذه الأرض ، بل ما هو أكثر منها ، ونهبهم البلدان والحصون ، وأنداك لن يبقى واحد منكم راجلا ، بل ستكونوا جميعا فرسانا مثلنا ، وستوثق بيننا وبينكم صداقة راسخة ، ومودة مكينة ، وان لم يقبلوا بهذا ويفعلونه فعليهم أن يعرفوا انهم سوف يلاقون حتفهم ، أو سندسوقهم مكبلين بالقيود الى خراسان حيث سيقون في أسرنا الى مالا نهاية ، وسيكونون عبيدا لنا ولأبنائنا على مدى الايام والعصور .

وسرعان ما عاد الينا رجالنا وأخبرونا بكل ما سمعوه من هذه الطغمة الفظة المتوحشة ، ويذكر أن هرلوان الذي كان يعرف اللسانين (اللاتيني والتركي) كان يقوم بالترجمة لبطرس الناسك ، ونزلت في هذه الأونة بجيشنا نازلان لم ندر كيف نتصرف حيالهما : الأولى المجاعة الرهيبة التي أعدمنا قوانا ، والثانية الرعب الشديد الذي استبد بنا من التركمان .

٢٩- بعد أن أنتهى الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ، وفرغوا مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في مختلف الكنائس ، وشرعوا بطقوس الاعتراف بخطاياهم ، وبعدما أنجزوا هذا كله تناولوا القربان المقدس الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

بعد هذا التأمت صفوف ست فرق من المقاتلين الذين كانوا داخل المدينة ، وكان في الفرقة الأولى التي تقدمت سواها : هيوچ الكبير ومعه الفرنسيون و بوق فلاندرز ، وكان في الثانية غوبفري و رجاله ، و في الثالثة روبرت النورمندي ومعه فرسانه ، وقاد أسقف لي بوي الفرقة الرابعة وحمل معه حربة المخلص (٨٦) وكان معه

رجالہ ورجال ریموند الصنجیالی الذی تخلف فی المینة امام الحصن خوفا من هجوم التركمان منه والحيلولة بينهم وبين النزول الى المدينة ، وكان تانكرد - بن المركيز - في الفرقة الخامسة ومعه رجاله ، وفي السادسة بوهموند العاقل ومعه فرسانه .

وما ان تدثرا ساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحلهم المقدسة حتى خرجوا برفقتنا حاملين الصليبان ، ممجدين الرب ومبتهلين اليه ان ينقذنا ويحمينا من كل سوء ، كما اعتلى بعضهم فوق الباب رافعين الصليب المقدس في ايديهم ورسموا فوقنا علامة الصليب وباركونا ، ولما اكتمل جهازنا تدرعنا بالصليب وخرجنا من الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ماكانت عليه فرق المسيحيين من النظام المدهش ، وهي خارجة واحدة اثر اخرى قال : « اتركوهم يخرجوا فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في ايدينا » لكنه ما ان رأى جيوش الفرنجة الدثرة تغادر الابواب حتى استولى عليه الخوف ، وسرعان ما أمر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يأمر بالتراجع ، اذ شاهد النار تتأجج في طلائع الجيش ، وبهذا حاقت الهزيمة بالتركمان (٨٧) .

وشرع كربوقا - بونما توقف - في التراجع على مهل، نحو الجبل ، ورجالنا في اثره بالخطى نفسها ، ثم انقسم التركمان الى قسمين ، اتجه احدهما باتجاه البحر ، بينما توقف رجال الفريق الثاني في مواقعهم مؤملين في تطويقنا ، ولما شعر قادتنا بما يحكيه العدو لهم فعلوا مثل فعلته فسيروا فرقة سابعة فيها من رجال الدوق غوبفري وكونت نورمندي ، وعهدوا بقيادتها الى رينالد وبعثوا بها لاعتراض التركمان القادمين من ناحية البحر ، واشتبك التركمان برجالنا وقتلوا العديد منهم بنشابهم ، وفي الوقت نفسه جرى تشكيل فرق اخرى انتشرت من النهر حتى الجبل وغطت مساحة ميلين . وشرعت تلك الفرق في الزحف نحونا من الجهتين ، وأحدثت

برجالنا ، وأخذت تنضحهم بذنابها وترميهم بحرايها ، وشوهد في هذه الساعة عن بعد عساكر لا يحصيها العد قادمة من جهة الجبل ممطية خيولا بيضاء ورافعة رايات بيضاء ايضا ، ولما رأى رجالنا هذا الجيش لم يعرفوا هويته ولا لمن هو عائد ، لكنهم مالبثوا ان عرفوا أنه نجدة المسيح بقيادة القديسين جرجس ومرغوريوس وديمتري ، وينبغي تصديق هذه الرواية ، لأن العديد من رجالنا رأوا هذه الآية الباهرة .

ولما أدرك التركمان المتمركزون على مقربة من البحر أنه لم تعد لديهم المقدرة على مدافعة العدو ، أشعلوا النيران في الأعشاب هناك حتى يراها القاعدون في الخيم ، فيلونوا بالفرار ، ولما رأوا هذه الإشارة حملوا معهم كل شيء له قيمة وانطلقوا فارين ، وتقدم رجالنا على مهل لمحاربة الفريق الأعظم من عساكرهم ، وتوجهوا نحو معسكرهم ، وسارع غودفري وهيوج الكبير وكونت فلاندر بالانطلاق نحو طرف النهر ، فصادفوا هناك العديد من جحافلهم فتسلحوا بشارة الصليب وانقضوا عليهم وهاجموهم هجمة رجل واحد ، ولما رأى بقية رجالنا ذلك طاردوهم هم بدورهم ايضا ، وتعالى صراخ التركمان والفرس ، أما نحن فقد سبحنا باسم الرب الحي الصادق ، وصدقناهم الحرب باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، واشتبكنا معهم في القتال ، وانتصرنا عليهم بعون الرب .

واستبد الرعب بالتركمان فمضوا فارين ، ولاحقهم رجالنا وساروا في آثارهم حتى خيامهم ، وأثر فرساننا فرسان المسيح أن يتابعوا مطاربتهم ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم من الانشغال بالاستيلاء على الغنائم ، واستمروا في تعقبهم حتى جسر العاصي فقطعه تانكرد ، وخلف الأعداء وراءهم خيمهم وذهبهم وقضتهم مع كثير من الامتعة والماشية والثيران والماعز والبغال والابل والحمير والقمح والطحين والنبيد ، وغير ذلك كثير مما كنا بحاجة اليه ، ولما وصل خبر نصرنا على التركمان الى مسامع الأرمن والسريان

القاطنين في تلك المنطقة طاروا نحو الجبل بغية سد الطريق في وجه التركمان ، وهكذا فتكوا بهم وقتلوا كل من تمكنوا من امساكه .

وعدنا الى المدينة في نشوة عظيمة ، وأخذنا نحمد الرب ونمجده على أن وهب جماعته النصر ، واستبد الرعب بشحنة القلعة حين شهد كربوقا وعساكره يفرون من ساحة القتال أمام جيوش الفرنجة ، وسرعان مابادر الى طلب الرايات الفرنجية فأمر كونت صنجيل – الذي كان مرابطا أمام القلعة – برفع رايتيه دون سواه ، فأخذها منه وسارع الى ركزها على البرج ، لكن لما شاهدها اللومبارديون الذين كانوا هناك قالوا : « هذه ليست راية بوهموند » ، فسألهم (أحمد بن مروان) : « فراية من اذا ؟ فأجابوه : « انها راية كونت صنجيل ، وعند ذلك تقدم (أحمد ابن مروان) واقتلع الراية ، وردها الى صاحبها وقدم في تلك الساعة بـ بوهموند المبجل ، وناول رايتيه الى (القائد) التركماني ، الذي تلقفها بسرور ، وعقد اتفاقية مع الأمير بوهموند ، يأنن (بوهموند) بموجبها للكفرة الذين يرغبون في اعتناق المسيحية بالبقاء معه ، ويسمح لمن رغب عنها بالانصراف سالمين آمنين دون أن ينزل بهم انى ضرر أو أذى .

ووافق (بوهموند) على جميع مطالب الشحنة ، وسرعان ماأنزل سر جنديته في القلعة ، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى جرى تعميد الشحنة المسلم وجميع الذين أثروا الايمان بالمسيح ، أما الذين فضلوا البقاء على دينهم أرسلهم الأمير بوهموند الى بلاد المسلمين .

وجرت هذه الواقعة في اليوم الرابع قبل مستهل تموز ، ليلة عيد الجواريين بطرس وبولص ، في حكم الرب يسوع المسيح ، الذي له الشرف والمجد سرمدي على مر الدهور . أمين .

الكتاب العاشر

من انقاذ انطاكية الى معركة عسقلان

(٢٩ حزيران ١٠٩٨ - ١٢ آب ١٠٩٩)

الزحف نحو القدس - حملة ريموند بيليه - موت
ادهمر - حملة الصنجيلي على البارة - خلاف القادة حول
انطاكية - استيلاء ريموند وبوهموند على المعرة - زحفهما
نحو القدس - الوصول الى عرقة - اتحاد الأمراء عدا
بوهموند - حصار عرقة - رفع الحصار عنها - والوصول
الى القدس وضرب الحصار حولها - الاستيلاء
عليها - اختيار غودفري ومعركة عسقلان .

٣- هزم أعداؤنا هزيمة ساحقة ، وحمدنا الرب الثالث الأوحد
على نعمه كما يستحق ، وشرع التركمان في الفرار من جميع
الجهات ، وكان بعضهم أشبه بالأحياء وبعضهم قد أثقلته
جراحه ، لهذا راحوا يتساقطون موتى في الوديان والغابات والحقول
والمسالك .

أما الشعب المسيحي ، وهم الحجاج المظفرون ، فقد رجعوا الى
المدينة بعد انتصارهم على الأعداء وهم في غاية النشوة بعد ظفرهم
بالعدو .

وبادر زعمائنا إثر هذا وهم : غودفري ، وكونت ريموند
صنجيل ، وبوهموند ، والأمير روبرت كونت نورمندي ، وروبرت
كونت فلاندرز ، وكثيرون غيرهم ، بادروا الى ارسال هيوج الكبير
الى امبراطور القسطنطينية لعله يقدم لتسلم المدينة ، وينفذ
الاتفاقات التي عقدها معهم ، ومضى هيوج لكنه لم يعد بعد ذلك
أبدا .

وبعد أن فرغ قادتنا من ذلك اجتمعوا ثانية ، وعقدوا مؤتمرا

وتباحثوا حول ايجاد أفضل الوسائل لاعادة النظام للشعب حتى يمكن قيادته ثانية كيما يتم رحلته الى القبر المقدس الذي احتملوا في سبيله كل هذه المخاطر ، واتفقوا في هذا الاجتماع على أنه لم يعد في مقدورهم الدخول الى ارض الكفار ، لما هي عليه في أيام الصيف من شدة الجفاف وانعدام المياه ، ومن ثم أقروا تأجيل ذلك الدخول الى نهاية شهر تشرين الثاني ، وتفرق الأمراء ، ورحل كل منهم الى ناحيته حتى يحين الوقت المتفق عليه ، وأعلن الأمراء في جميع أرجاء المدينة بأن كل من نفسه في ضيق ويحتاج للدرهم والدينار يستطيع أن يلتحق بأي منهم حسب رغبته ، وحسب اتفاق يبرم بين الطرفين ، وأنهم سيتلقونهم على الرحب والسعة .

وكان هناك فارس من أتباع الكونت اسمه ريموند بيليه ، قام باستئجار مجموعة مناسبة من الفرسان والرجالة ، ثم زحف على رأسهم الى داخل الأراضي الاسلامية وهو غير هياب ولاوجل وبعد ان اجتاز مدينتين وصل الى قلعة اسمها « تل منس » ، فبادر أهلها من السريان الى الاستسلام له ، من قبل انفسهم ، فأقام بينهم ثمانية أيام ، الى أن وصلت الرسل حاملة الاخبار بوجود حصن للمسلمين على مقربة منه ، وتقوم على الدفاع عنه شحنة كبيرة ، وأحاطوا به من كل جانب ، وسرعان ما استطاعوا أخذه على هذا الحصن ، وألقوا القبض ، اذ ذاك ، على جميع الفلاحين في تلك المنطقة ، وقتلوا كل من رفض اعتناق المسيحية ، أما أولئك الذين أثروا الايمان بالمسيح ، فقد أدخلوا سبيلهم ، وأبقوهم أحياء .

وبعد أن تم ذلك ، رجع رجالنا تغمرهم النشوة الى القلعة الاولى (٨٩) ، ثم بارحوها في اليوم الثالث ، وتوجهوا الى معرة النعمان القريبة منهم ، ففيها كان تجمع اعداد كبيرة من التركمان والمسلمين الذين قدموا من حلب ومن جميع البلدان الأخرى ومن الحصون التي كانت في تلك النواحي ، وخرج البرابرة لمهاجمة رجالنا الذين عقدوا العزم على مناجزتهم القتل وارغموهم على

الفرار ، ولكنهم مالبثوا أن عادوا ، وهكذا ظلوا طوال يومهم يعاودون الكر علينا ومحاربتنا مرة بعد أخرى ، واستمر هذا القتال حتى المساء ، وكان الحر شديدا الى حد ان رجالنا لم يعودوا يطيقون احتمال الظمأ ، لانهم لم يجدوا قطرة من الماء يطفؤون بها ظمأهم ، ولهذا رغبوا بالتراجع سالمين في انفسهم الى حصنهم(١٠).

لكن السريان والرجالة استولى عليهم الرعب ، ودفعتهم خطاياهم الى الفرار ، فلما رأهم التركمان وهم يولون الأدبار ، اندفعوا في آثارهم ، وزودهم النصر بالبأس الشديد ، فأسلم العديد من رجالنا نفوسهم للرب ، الذي دفعهم حبهم له للتجمع هناك .

وكانت هذه الملحمة في اليوم الخامس من شهر تموز ، وعاد الفرنجة الذين نجوا من القتل الى قلعتهم ، حيث بقي ريموند (بيليه) هناك مع رجاله فترة من الزمن .

وعاش بقية الفرنجة في أنطاكية في سرور ونشوة كبيرة ، حتى فاجأهم اشتداد المرض بالمشرف على أمورهم ورعايهم أسقف لى بوي ، وذلك تبعا لمشیئة الرب ، التي هجر بمقتضاها وحدها هذا العالم ، ورقد بهدوء ، ومضى ليرقد عند الرب يوم العيد المسمى بعيد القديس بطرس في القيود ، ونجم عن ذلك حزن عميق ، وغم شديد ، وعم الأسى وانتشر بين صفوف جيش المسيح قاطبة ، ذلك انه كان عضدا للفقراء ، ومشيرا للأغنياء ، فكان يأمر الكهنة بذلك ويكرز فيهم وغالبا ماقال للفرسان في عظاته : « لن يتمكن واحد منكم من انقاذ نفسه ان لم يكرم الفقراء وان لم يواسمهم ، وهيئات أن تنهى النجاة لكم عن طريق سواهم ، مثلما أنهم لا يستطيعون العيش بدونكم ، ومن ثم فان صلواتهم اليومية ودعاءهم الى الرب الذي طالما تذبذبون اليه ، فيغفر للخاطئين منكم خطاياهم ، وانني اناشدكم أن تحبواهم حبكم للرب وأن تساعدوهم قدر المستطاع » .

٣١- وسافر بعد ذلك بوقت قصير الكونت المحترم ريموند الصنجلي (٩١) ، توغل في الأراضي الاسلامية حتى بلغ بلدة يدعونها البارة ، فهاجمها رجاله وسرعان مادانت له ، فقتل جميع من وجده بها من المسلمين والمسلمات ولم يفرق بين صغير وكبير ، وبعد استيلائه عليها ، اعادها الى دين المسيح ، وعقد اجتماعا ضم نوي الرأي من جماعته ، تقرر فيه ان يعهد بالمدينة الى اسقف يرعاها ويرجعها الى دين الرب الحي القيوم ، وأقام المذابح على شرف القديسين ، وسرعان ماوقع اختيارهم على رجل عاقل شريف ، بعثوا به الى انطاكية ليسام (أسقفا) لها ، وهكذا ترجموا الاختيار الى واقع منفذ (٩٢) .

وشملت الفرحة الذين مكثوا في أنطاكية وعمتهم البهجة ، ولما حل الموعد المحدد - أعني عيد جميع القديسين - عاد جميع مقدمونا الى انطاكية ، وأخذوا يعدون العدة لاستئناف الرحلة نحو القبر المقدس مردين : « لما كانت ساعة الرحيل المحددة قد اقترب حلولها ، فانه لم يعد ثمة وقت أطول للنقاش ».

واستمر بوهيموند يعمل جاهدا طوال الوقت ، لحمل القادة على الاعتراف بالوعد الذي قطعوه ، بتمليكه انطاكية ، بيد أن كونت صنجيل لم يعتبر نفسه مرتبطا بأي اتفاق مع بوهيموند خشية ان يعني ذلك نكثا

لقسم الولاء للامبراطور ، وكثرت الاجتماعات التي عقدها في كنيسة القديس بطرس لفض الخلاف وايجاد مخرج ، وقرأ أثناء ذلك بوهيموند نص الاتفاق ، وأطلعهم على اتفاقية (الامبراطور) معه ، وفعل كونت صنجيل مثلما فعل حيث أوضح شروط اليمين التي قطعها للامبراطور ، وبين أن ذلك كان بناء على نصيحة من بوهيموند.

وغادر حينذاك مكان الاجتماع الاساقفة ومعهم غوفري وكونت فلاندرز وكونت نورمندي وبقية الزعماء ، وتوجهوا جميعا نحو

كرسي القديس بطرس ليقفوا على نص حكم يقضون به بين الاثنين ، وبفعتهم خشيتهم من عرقلة استئناف الزحف الى القبر المقدس ، الى كتمان ما أجمعوا الرأي عليه ، واتفقوا عليه فيما بينهم ، وبعد طول انتظار خاطبهم كونت صنجيل بصوت مرتفع بقوله: « اسمعوا ما أقوله: حتى لا نتخلى عن طريق القبر المقدس ، إنني راض بكل ما اتفق عليه الدوق غودفري وكونت فلاندرز ، وروبرت النورمندي ، وغيرهم من السادة ، إذا قبل بوهموند أن يرافقنا ، و انني قابل بكل ما قضوا به ، لا إذا تعارض بالتزامي بعهدي للامبراطور » .

واستصوب بوهموند ما قاله كل الاستصواب ، وجاء الاثنان فاقسما بين أيدي الاساقفة أنه لن يحاول واحد منهما عرقلة الزحف الى القبر المقدس ، بأية وسيلة من الوسائل ، وأخذ بوهموند - إذ ذاك - في التشاور مع رجاله لتأمين المؤن للقلعة القائمة على الجبل المرتفع وشحنها بالرجال والعتاد ، وصنع كونت صنجيل الشيء نفسه ، فبادر هو الآخر الى الاتفاق مع اتباعه من أجل تزويد قصر الأمير يغني سيفان مع البرج المرتفع القائم عند مدخل الجسر مقابل ميناء السويبية بالمؤن والعتاد والرجال ما يكفي لمدة طويلة .

٣٢ - مدينة أنطاكية مدينة جميلة رائعة ، تحتوي داخل أسوارها على أربعة جبال عظيمة شامخة الذرا ، ويقوم على أعلاها حصن حصين منيع قوي البنيان ، وتمتد على السفح المدينة الرائعة المحبوبة ، وقد ازدانت بكل ضروب الفتنة ، لما تحويه من الكنائس الكثيرة ، التي قد يصل عددها الى ثلاثمائة كنيسة ، كما يوجد فيها ستون نيرا ، ويرأس بطريركها مائة وخمسين أسقفا .

ويحيط بمدينة أنطاكية سوران ، أكبرهما عظيم الارتفاع ، رائع البنيان ، شيد بشكل غريب ، وفي هذا السور أربعمائة وخمسون برجاً ، وأينما نظر المرء في جهات المدينة أدهشته روعة المدينة وجمالها .

ويحيط بها من جهة الشرق جبال أربعة كبيرة ، ويتدفق فيها في الناحية الغربية نهر يسمى نهر فرفر (أي العاصي) حيث يجري على مقربة من أسوارها .

ولهذه المدينة شهرة واسعة ، فقد تولى أمرها في البداية خمسة وسبعون ملكا ، أولهم أنتيوخوس الذي نالت اسمها من أسمه ، وقد أمضى الفرنجة في حصارها ثمانية أشهر ويوما واحد ، ثم حاصرها التركمان وسواهم من الكفار مدة ثلاثة أسابيع ، لكن النصر كان بالنهاية للمسيحيين بفضل معونة الرب المقدس ، ثم أقمنا بأمان واطمئنان مدة خمسة أشهر وثمانية أيام .

٣٣ - اتخذت جميع التدابير الدقيقة (لاستئناف الزحف) في شهر تشرين الثاني ، وكان ريموند الصنجيلي أول من غادر أنطاكية على رأس جيشه ، ووصل أولا إلى بلدة اسمها « الروج » ، ثم إلى أخرى تدعى « البارة » ، ولحق قبل شهر تشرين الثاني بأربعة أيام بمدينة معرة النعمان ، وكان قد احتشد بها جمع كثيف من المسلمين من عرب وتركمان وسواهم من الكفار ، وهاجمها الكونت في اليوم التالي لوصوله .

وسار بعد فترة وجيزة بوهموند ومعه جيشه ، في آثار الأمراء ، ولحق بهم في يوم الأحد (٩٣) ، وحمل الجميع يوم الاثنين حملة شديدة ، وهاجموا المدينة من جميع جهاتها ، واستتبسلوا وصبروا صبرا شديدا ، حتى تمكنوا من اسناد السلالم ، لكن قوة الكفار كانت لعظم لهذا لم يستطع رجالنا اصابتهم بأذى ضرر .

ولما أدرك أنه لا فائدة ترجى من مثل هذا العمل ، وأنهم لا يجنون منه الثمار ، بادر ريموند الصنجيلي إلى تشييد برج خشبي عظيم الارتفاع ، يسير على أربعة نوايب ، وجهزه بما كان يحتاج إليه ، وكان في الطابق العلوي مجموعة من الفرسان بقيادة « إفرار الصياد » الذي كان أقدر الناس في قرع الطبول ، وكان تحتهم جماعة من الفرسان المدرعين كان عليهم دفع البرج إلى قرب

الأسوار ليذمر بوساطته أحد الأبراج ، ولما شاهد الكفار هذه الآلة
شروعوا في الحال في نصب آلة أخذت تقذف البرج (الخشبي)
بالحجارة الكبيرة حتى كادوا أن يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا
يقذفونه بالنيران الملتهبة على أمل إحراقه وتدميره (٩) ، لكن الرب
المتعال رفض أن يحترق البرج هذه المرة ، ذلك أنه كان أعلى من
جميع أسوار المدينة.

ومضى فرساننا الذين كانوا بالطابق العلوي ، وفيهم وليم مونت
ببلييه وغير كثير ، مضوا يقذفون المدافعين عن الأسوار بالحجارة
الكبيرة ، وشروعوا يوجهون ضرباتهم على ترستهم ، فكان الرجل
وفرسه يسقطان في داخل المدينة ، بعد أصابته بخربة قاتلة ، وبينما
كانوا يتحاربون كان هناك آخرون استعملوا الرماح الطويلة المعقود
عليها الرايات ، وقد تمكنوا بوساطة هذه الرماح مع استخدامهم
للكلاب المعننية من تصعيد الأعداء ، واستمر القتال على هذه
الصورة حتى حلول المساء.

ووقف وراء البرج مجموعة من رجال الاكليروس في مسوحهم
المقدسة ، وهم يتوجهون بالدعاء الى الرب والابتهاال اليه أن يرفع
المعرة عن شعبه ، و أن يعلي كلمة المسيحيين ويذمر الوثنية ، ووقف
في الجانب الآخر فرساننا واشتبكوا في حرب متواصلة مع
الأعداء ، وكانوا يعملون على نصب السلاالم على أسوار
المدينة ، بيد أن مقاومة الكفار كانت من الشدة بمكان بحيث أعاقت
تقدم رجالنا ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان جوفيه دي لاستور أول
من تمكن من ارتقاء السور بوساطة سلم ، سبرعان ما تحطم تحت
ثقل وزن رفاقه الكثيرين الذين اندفعوا وراءه ، ومع هذا كان قد
تمكن من الوصول الى أعلى السور مع عدد من أصحابه ، وفي الوقت
نفسه وجد فريق آخر سلما ، سبرعان ما أثبتوه على السور ، فصعد
عليه عدد من الفرسان والرجالة وتمكنوا من ارتقاء الشرفات ، لكن
المسلمين هاجموهم هجوما عنيفا من فوق الأسوار ومن على
الأرض ، وأشروعوا نحوهم أسنة رماحهم ، وأخذوا يطعنونهم عن

قرب ، فاستولى الذعر على العديد من رجالنا ، فرموا بنفوسهم من فوق السور.

وفي تلك الوقت الذي كان فيه أولئك الرجال الاشياوس صامدين في أعلى السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون في أسفل البرج يحاولون نقب السور ، ولما رأى المسلمون أن رجالنا قد تمكنوا من فتح ثغرة في الأسوار ، استولى عليهم الرعب ، وانطلقوا هاربين الى قلب المدينة ، ووقع هذا كله يوم السبت ١١ كانون الاول ، عند الزوال ، ساعة صلاة الستار ، وأمر عنقذ بوهموند زعماء المسلمين - على لسان مترجمه - بالالتجاء هم ونساؤهم وأطفالهم وامتعتهم الى قصر واقع جنوب باب الجسر ، وقطع على نفسه عهدا أمنهم به على أنفسهم.

وبخل إثر هذا رجالنا الى المدينة ، واستحوذ كل منهم على كل ثمين مما وجدوه من الذخائر في البيوت والمخابيء وعندما أشرقت شمس الصباح شرعوا يقتلون كل من صادفوه أو عثروا عليه من أعدائهم رجلا كان أم امرأة ، وامتلات جنبات المدينة بجثث المسلمين ، ونذر أن يجوب المرء طرق المدينة دون أن يدوس تلك الجثث ، وقبض بوهموند على الذين طلب منهم الالتجاء الى القصر الذي عينه لهم ، وسلبهم كل ما كان بحوزتهم من الذهب والفضة والمجوهرات والحلي ، ثم قتل بعضا منهم وساق بعضهم الآخر الى انطاكية لبياعوا فيها.

ومكث الفرنجة في هذا البلدة مدة شهر وأربعة أيام ، ومات في تلك الأثناء (ولیم) أسقف أورنج ، ووجد بين رجالنا جماعة لم تجد بالبلدة ما كانت تحتاجه ، وذلك لطول مدة المكوث ولتعذر الحصول على المؤن ، حيث لم يعد في خارج المدينة ما يمكن الاستيلاء عليه ، وعند ذلك أخذ رجال هذه الجماعة يبقرون بطون القتلى بحثا عن النقود ، لما علموه من أن بعضهم ابتلع كمية منها ، وقام غيرهم بقطع قطع من لحومهم حيث قاموا بطهيها واقتاتوا بها.

٣٤ - وأخفق بوهيموند في الوصول الى اتفاق مع الكونت صنجيل على ما طلبه (٩٥) ، فقام وهو في ثورة من الغضب وقفل عائدا الى انطاكية ، ومع هذا لم يتوقف الكونت ريموند عن ارسال الرسل الى الامير غودفري ، وكونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورمندي وبوهيموند بطلب منهم القدوم الى الروج للتباحث معه ، وقدم جميع الامراء وتباحثوا حول ايجاد خطة تحفظ لهم شرف الزحف الى القبر المقدس ، الذي قاموا من أجله بحربهم المقدسة ، وقدموا في سبيله حتى بلغوا هذه المنطقة.

وأخفقوا في حمل بوهيموند على الاتفاق مع كونت ريموند ، فقد رفض ذلك الا اذا تنازل له عما كان بيده في انطاكية (٩٦) ، ولم يستجب الكونت لهذا المطلب لتمسكه بالعهد الذي كان قد قطعه على نفسه للإمبراطور ، وقفل في النهاية الامراء وغودفري الى انطاكية بصحبة بوهيموند ، وتوجه الكونت ريموند عائدا الى المعرة حيث كان الحجاج موجودين ، واعرز الى فرسانه بتجهيز القصر الذي كان موجودا في اعلى باب الجسر.

ولما أدرك ريموند أنه ليس بين الأمراء من يود استئناف السير نحو القبر المقدس بسببه ، خرج حافيا من المعرة في يوم ١٣ كانون الثاني ، وقصد كفرطاب ، وبقي فيها ثلاثة أيام ، انضم اليه خلالها كونت نورمندي ، وبعث صاحب شيزر رسله الى الكونت - وهو بالمعرة وكفرطاب - بطلب المواعدة ، وأن يقبل أن يشاطره الكونت بعض أملاكه ، وأنه سيبذل جهده في تأمين راحة الحجاج ، وأقسم له بدينه وتعهده بالوفاء ، وأنه لن يتعرض للحجاج بأذى داخل حدود أراضيه ، كما أنه سيمده - عن طيب خاطر - بما يلزمه من الخيول والمؤن والعتاد.

وسار بعد ذلك رجالنا ، حتى إذا دنوا من شيزر الواقعة على نهر العاصي ، أقاموا معسكرهم هناك ، فضاق لذلك صاحب شيزر ، وخاف حين رأى الفرنجة وقد ضربوا خيامهم قرب

البلدة ، وأمر بإيقاف امدادهم بالمؤن إن لم يبتعدوا من أحواز البلد.

وأنفذ في اليوم التالي بصحبته دليلين من التركمان ليرشدانهم على مخاضة يعبرون عندها النهر ، ولیمضيا بهم الى حيث يجدون ما يكفي من الغنائم ، فوصلوا الى واد تشرف عليه إحدى القلاع ، واستولوا هناك على ما يزيد عن خمسة آلاف رأس من الغنم وكمية لا بأس بها من القمح وغير ذلك من الحاجيات التي يمكن أن تفيد جميع العساكر المسيحية ، واستسلمت شحنة القلعة للكونت وأعطته بعض الخيول والذهب ، ثم أقسمت به بدينها الا تتعرض للحجاج بأذى ضرر.

واقمنا هناك مدة خمسة ايام (٩٧) ، ثم رحلنا - يعمنا السربور - على مقربة من حصن للعرب - خرج الينا صاحبه ، وعقد اتفاقا مع الكونت ، ووصلنا بعد مغادرتنا هذه المنطقة الى بلدة كبيرة زاخرة بالمؤن وواقعة في أحد الأودية واسمها « رفنية » ، وما كاد خبر وصول الفرنجة يتراعى الى مسامع سكانها حتى غادروها وتخلوا عما بها من البساتين الممتلئة بالخضراوات ، وتركوا بيوتهم المشحونة بمواد الغذاء ، وهاموا على وجوههم ، أما نحن فقد غادرنا هذه البلدة بعد ثلاثة أيام من دخولنا لها ، وعبرنا جبلا هائلا شامخا ، فلما جاوزناه دخلنا وادي البقيعة حيث كانت توجد نخائر كثيرة ، وقد بقينا هناك خمسة عشر يوما (٩٨) .

وكان على مقربة منا قلعة (٩٩) تحصين بها حشد كبير من الكفار ، وهجمنا على هذه القلعة ، وكان نصبرنا أمرا مفروغا منه لو لم يخرج المسلمون من بابها قطيعا كبيرا من الحيوانات ، لذلك انصرف رجالنا الى خيمهم يحملون مختلف أنواع المغانم ، وطوى في الصباح الباكر رجالنا خيمهم ، وبادروا بغية محاصرتها ، واقامة معسكرهم بها ، ولان جميع الكفرة بالفرار ، وخلفوا القلعة وراءهم

ليس بها أحدا ، فأقتحمها رجالنا ، وعثروا فيها على كميات كبيرة من القمح والطحين والنبيد والزبيب وكل ما كانوا بحاجة اليه.

واحتفلنا فيها بعيد دخول القديسة مريم الى الهيكل ، واستقبلنا رسلا بعث بهم صاحب حمص (١٠٠) الى الكونت ومعهم الخيول والأموال وعقدوا مع الكونت معاهدة جرى الاتفاق فيها على الايمس المسيحيون بأبنى اذى ، وعلى احترامهم والمحافظة عليهم ، كما بعث امير طرابلس (١٠١) رسالة من طرفه الى الكونت [ريموند] يسأله المودعة والاتفاق والارتباط معه برباط الصداقة اذا شاء ، وانفذ اليه عشرة رؤوس من الخيل واربعة من البغال مع بعض المال ، ورفض الكونت واعلن انه لن يهائن امير طرابلس مالم يعتنق المسيحية.

وبعد مغادرتنا لهذا الوادي الجميل وصلنا الى مكان حصين اسمه « عرقة » وذلك يوم الاثنين منتصف شباط ، ونصبنا فيه خيامنا ، وكان الوادي يعج بحشد هائل من الكفرة ، نشطوا بهمة عالية ، وعملوا على تحصين هذا المكان والاستبسال في الدفاع عنه ، وخرج أربعة عشر رجل من فرساننا للهجوم على طرابلس الواقعة على مقربة منا ، فصانف هؤلاء الأربعة عشر فارسا قفلا للتركمان فيه ستون رجلا أو أكثر من ذلك ، وكانوا يسوقون أمامهم الناس و الحيوانات ، حتى أن عددهم قارب الألف والخمسمائة أو زاد ، و تسليح رجالنا بشارة الصليب ، وانقضوا عليهم ، فقتلوا منهم ستة رجال واستولوا على ست أفراس.

وتميز عن جيش الكونت ريموند كل من ريموند بيليه ، وريموند فيكونت تورين وانفصلا عنه ، ووصلا إلى مدينة طرطوس التي هب للدفاع عنها جمع غفير من الكفار ، فقاتلها قتالا ضاريا ، ولما حل المساء تراجعوا إلى إحدى الجهات ، ونصبا خيامهما عندها ، وأوقدا نارا كبيرة ، كما لو كان الجيش معسكرا هناك ، فاستولى الرعب على الكفرة ، واستغلوا حلول الظلام فانسلوا هاربين خفية ، وخلفوا البلدة وراءهم ، وتركوا بها متاعهم الكثير .

وكان للمدينة مرسى جميل على شاطئ البحر ، وأعد رجالنا العدة لهاجمته في الصباح ، لكنهم وجدوا المدينة خاوية ، فدخلوها ، وظلوا معسكرين بها حتى ساعة حصارهم لعرقه ، وكان على مقربة منها بلدة أخرى اسمها « مرقية » ، عقد صاحبها مهادنة مع رجالنا وأدخلهم إياها حاملين لراياتهم .

٣٥ - وقدم الأمير غوبفري وبوهيموند وكونت فلاندر ، لكن ما إن اقتربوا من بلدة اللانقية ، حتى انفصل عنهم بوهيموند عائدا والخشية تملأ قلبه ، إلى أنطاكية ، وتابع الباقون ، زحفهم ، وحاصروا بلدة اسمها « جبلة » وسمع الكونت ريموند الصنجيلي أن هناك حشدا كثيفا من الوثنيين زاحف نحونا لمحاربتنا ، وسرعان ما عقد اجتماعا مع أعوانه ، تم الاتفاق فيه على مطالبة الأمراء القائمين بحصار جبلة ، بالمبادرة إلى نجاتهم ، ولما تناهى الخبر إلى مسامعهم ، عقدوا هدنة مع صاحبها وأخذوا منه الخيول والمال ، ثم غادروا البلدة ، وتوجهوا إلى مساعدتنا ، غير أن الكفرة تقاعسوا عن الاقتراب على حربنا ، وإذ ذاك ضرب الأمراء معسكراتهم خلف النهر ، وأسهموا بنصيبيهم في حصار ذلك الموقع .

ولم يمض وقت طويل حتى زحف رجالنا على طرابلس ، وصانفوا خارجها جماعة من التركمان والعرب المسلمين ، فأنقض عليهم رجالنا وأجبروهم على الهرب ، وقتلوا فئة كبيرة من أعيان المدينة ، واستمر القتل بالكفرة ، وسالت الدماء حتى صبغت المياه التي تغذي المدينة والآبار باللون الأحمر القاني ، واستولى عليهم الحزن والخوف ، واشتد الذعر والأسى بالباقيين حتى أنه لم يملك أحدهم الجرأة على تجاوز أبواب المدينة .

وأغار رجالنا في يوم آخر ، حتى إذا كانوا في أحواز وادي البقيعة ، صانفوا كميات من الثيران والحمير والماشية والجمال ، فاستولوا عليها ، وكانت عدة ما غنموه من الحيوانات ثلاثة آلاف رأس .

ودام حصارنا لهذا المكان (١٠٢) الأنف الذكر مدة ثلاثة أشهر ما عدا يومًا واحدًا ، واحتفلنا هناك بعيد قيامة المسيح الرب أربعة أيام ، قبل منتصف شهر نيسان (١٠٣) وكانت سفننا قد اقتربت إذ ذاك منا ، حيث وصلت إلى أحد الموانئ ، ورست فيه طوال مدة هذا الحصار ، وحملت إلينا كميات وافية من القمح والنبذ واللحم والجبن والشعير والزيت ، وقد توفر لنا هذا طوال أيام الحصار ، وسعد أثناء هذا الحصار عدد من رجالنا كبير بنيل الشهادة ، وكان من بينهم أنسلم دي ريبومونت ، ووليم بيكاردي وغيرهم كثير ممن لا أعرفه :

وتتابع وصول الرسل من [أبن عمار] أمير طرابلس على الأمراء يطلب منهم مبارحة المكان ومهانتته ، ولما علم رجالنا بخبر المحاصيل الجديدة ، ورأوها (لأننا كنا في منتصف آذار نأكل البقول الجديدة وفي منتصف نيسان حصدنا القمح) وعليه عندما علم رجالنا بهذا عقد الأمير غودفري ، وكونت ريموند الصنجيلي ، وروبرت كونت نورمندي ، وكونت فلاندرز مؤتمرًا تباحثوا فيه ، وقرروا أنه من الأنسب لهم استئناف الرحلة إلى القدس وحصد المحاصيل الجديدة .

٣٦ - عندما بارحنا هذا الموقع ، ووصلنا إلى مدينة طرابلس في يوم الجمعة ١٣ أيار ، وقضينا بجوارها ثلاثة أيام ، أعطانا خلالها [أميرها] أكثر من ثلاثمائة حاج كانوا أسرى لديه ، وقدم لنا خمس عشرة ألف قطعة ذهبية ، وخمس عشرة هدية رفيعة الثمن ، وزودنا بأعتدة كثيرة من الخيول والحمير مع أنواع المؤن التي سدت حاجة جند المسيح جميعا ، واتفق مع مقدمنا على أن يدخل بدين النصرانية ، ويتسلم أرضه منهم إن هم تمكنوا من هزيمة خليفة مصر في الحرب التي استعد لها ضدهم ، وإذا استطاعوا أخذ القدس .

وبعدما جرى الاتفاق على هذا غادرنا طرابلس في يوم الاثنين [السادس عشر] من شهر أيار ، ووصلنا إلى

قلعة « البترون » حيث أوصلنا زحفنا إلى بلدة مجاورة للبحر اسمها « جبيل » وعانينا من شدة الظما ، وبلغ منا الوهن أشده حتى أدر كنا نهرا اسمه نهر ابراهيم .

وبعدما زحفنا ليلة صعود الرب ونهارها عبر طريق وعر ضيق ، وصلنا إلى جبل كان يخيل لنا أننا سنجد العدو عنده يترصدنا وكامن لنا ، لكن رعاية الرب وعنايته بنا أفقدته الجرأة على الدنو منا ، فتقدمنا فرساننا ومهدوا الطريق أمامنا ، ووصلنا بعد ذلك مدينة تطل على البحر اسمها « بيروت » وتوجهنا منها إلى مدينة أخرى اسمها صيدا ، ثم إلى غيرها واسمها صور ، ووصلنا من صور إلى عكا ، وأفضى بنا الطريق إلى بلدة حصينة اسمها يافا ، ونصبنا خيمنا قرب بلدة قيسارية ، حيث احتفلنا بعيد العنصرة وذلك يوم ٢٩ أيار .

وعندما وصلنا إلى مدينة الرملة ، التي نزع عنها المسلمون خوفا من الفرنجة ، وكان على مقربة منها كنيسة كبيرة مقدسة ، ثوى في ثراها جثمان القديس جورج الطاهر ، ذلك أنه كان قد نال الشهادة المباركة في هذه البقعة على أيدي الكفرة الوثنيين في سبيل اسم المسيح ، وعقد مقدمونا اجتماعا قرروا فيه اختيار اسقف (١٠٤) لرعاية هذه الكنيسة وإدارتها ، ووهبوه الأعمار ، وأعطوه الذهب والفضة والخيول وغيرها من السائمة والانعام حتى يتمكن من العيش والبقاء هو ورجاله بشكل مشرف ، فأقام راضيا .

٣٧ - وعم السرور بين صفوفنا ، وتابعنا زحفنا حتى وصلنا إلى مدينة القدس ، وذلك في يوم الثلاثاء السادس من [حزيران ، في الساعة الثامنة ، وحاصرتها حصارا شديدا مدهشا ، وضيق روبرت النورمندي الخناق عليها من جهة الشمال ، قرب كنيسة القديس أسطفان - أول الشهداء - من الجهة التي قتل بها رجما في سبيل اسم المسيح ، وحاصرها من الجهة الغربية الأمير غودفري وتانكرد ، أما الكونت صنجيل فقد عسكر في الناحية الجنوبية على

جبل صهيون أمام كنيسة القديسة العذراء مريم أم الرب ، في المكان الذي احتفل فيه الرب وحوارييه بالعشاء السري .

ودفعت الرغبة في الاغارة كل من ريموند بيليه وريموند دي تورين ، فانفصلا عن الجيش في اليوم الثالث ، فصادف فارسا المسيح مائتي عربي فقاتلاهم ، وأمدهما الرب بعونه ، فكانت لهما الغلبة عليهم ، وقتلا العديد منهم وغنما ثلاثين فرسا .

وهاجمنا المدينة يوم الاثنين (١٠٥) هجوما عنيفا ، وضغطنا ضغطا شديدا ، وسطونا عليها إلى حد أنه لو كانت السلالم معدة وأسندت إلى الأسوار لسقطت القدس في أيدينا ، ومع هذا فقد دمرنا السور المنخفض ، وأسندنا السلالم إلى السور الرئيسي المرتفع ، وارتقاها فرساننا ، وضربوا عن قرب جماعة المسلمين والمدافعين عن المدينة بالسيوف وطعنوهم بالرمح ، وكانت قتالهم أكبر عددا من قتلنا . ومكثنا أثناء الحصار مدة عشرة أيام لانجد فيها الخبز لنشتره ، واستمرت هذه الضائقة حتى وصلتنا نجدة من السفننا ، ووقعنا فرائس للعطش المحرق ، وكابدنا أشد المصاعب حتى لقد كنا نمشي ستة أميال لارواء خيولنا وبقية الحيوانات ، غير أننا وجدنا الماء عند عين سلوان الواقعة عند سفح جبل صهيون ، لكنه كان يباع بيننا بسعر مرتفع جدا .

وبعدما وصل إلينا الرسل من السفن المذكورة ، اجتمع قادتنا للتشاور ، وقرروا إرسال مجموعة من الفرسان تتولى حماية الرجال والمراكب الراسية في مرسى يافا ، ومع اشراقة الصباح توجه مائة فارس انفصلوا عن جيوش ريموند بيله ، وأكاردي مونتمول ووليم السبراني ، توجهوا ثابتي الجنان نحو الميناء المذكور .

وتميز ثلاثون فارسا عن المائة ، وساروا وحدهم ، فصادفوا في طريقهم سبعمائة رجل من العرب والتركمان والمسلمين من عساكر خليفة مصر ، فشد فرسان المسيح في الحملة عليهم ، لكن تفوق العدو العددي مكنه من تطويق رجالنا تطويقا كاملا ، وقتل أكاردي

مونتمول وغيره وخاصة من المشاة الفقراء ، وبينما كان فرساننا مطوقين ، يواجهون الموت ، وصل رسول إلى ريموند بيليه وقال له : « ماذا تفعل أنت وهؤلاء الفرسان ، إن رجالنا بين أيدي العرب والتركمان والمسلمين ، ومن المحتمل أنهم قتلوا جميعا عن بكرة أبيهم ، انهض وبادر إلى انقاذهم » ، ولما انتشر الخبر بين رجالنا ، سارعوا بالرحيل ، واغنوا السير ، وأركوهم والقتال على أشده ، ولما رأى الشعب الوثني فرسان المسيح ، انقسم إلى فرقتين ، فهتف رجالنا باسم المسيح وانقضوا على أولئك الكفرة انقضاضا شديدا ، والتحم كل فارس بخصمه ، ولما أترك الأعداء أن لا قبل لهم بمداومة القتال والتصدي لبطش الفرنجة ، فشلوا ولولوا ظهورهم لعدوهم ، وقبضوا بعضهم أحياء ، ليبلوهم على الطريق ، وغنموا مائة وثلاثة من الخيول .

وعانينا أثناء حصارنا للقدس من شدة العطش ، حتى كنا نخط جلود الثيران والجواميس لنحمل فيها الماء من مسافة ستة أميال ، فالماء الذي سبق لنا أن حملناه معنا في الأواني قد أسن وتغير لونه وطعمه ، واقتصر طعامنا على خبز الشعير ، مما أثار الأسى في نفوسنا وبعث فيها الحزن ، وفي الحقيقة عمل المسلمون من جهتهم على نشر الأمراض بين رجالنا عن طريق افسادهم لمياه الآبار والينابيع ، كما أنهم قاموا بجمع كل ما وجدوه لديهم وأخفوه وأخفوا أنعامهم في الكهوف والمغائر .

٣٨ - وتباحث قادتنا حول أفضل الأسلحة التي يمكن أن يهاجموا المدينة بها ، وخاصة الكباش ، حتى يتمكنوا من دخولها وأداء فروض الصلوات عند قبر مخلصنا ، فشيدوا برجين من الخشب وصنعوا بعض الآلات المفيدة ، وصنع الأمير غونفري برجا زوده بما يلزم من الأدوات ، وصنع الكونت ريموند مثل صنيعة ، وكانوا يجلبون الأخشاب من مناطق بعيدة جدا ، ولما رأى المسلمون ما أقامه رجالنا من تلك الأدوات ، زادوا بتحسين المدينة بشكل يبعث

على الدهشة ، وشددوا الحراسة على الأبراج والدفاع عنها أثناء الليل .

وعندما تعرف رجالنا على أضعف جوانب سور المدينة - وهي في الجهة الشرقية من المدينة - شرعوا في ليلة السبت [الثالث من تموز] في نقل المعدات مع برج من الخشب ، وقاموا في الصباح بنصب الكباش ، واستعدوا للحرب ، وأمضوا أيام الأحد والاثنين والثلاثاء في أعمال تجهيز البرج .

وأخذ الكونت ريموند في الناحية الجنوبية بتجهيز آلاته واعدادها بها ، هذا وكنا في تلك الساعة بالذات نصارع العطش المميت ، حتى أن الرجل منا كان يعجز عن إيجاد شربة ماء تروي غليله ولو بدينار .

وحملنا في يومي الأربعاء والخميس حملة شديدة على المدينة ، وصدقناها القتال من جميع الجهات ، وقام الأساقفة والكهنة ، قبل استيلائنا على المدينة ، بإلقاء الخطب والمواظ ، وأمرونا أن نسير بتطواف طقوسي حول أسوار القدس تمجيذا للرب ، وأن يصحب هذا التطواف أداء للصلوات وبذل للصدقات وقيام بالصيام .

وقمنا في الصباح الباكر ليوم الجمعة بهجوم شامل ضد المدينة ، لكن لم نستطع الاستيلاء عليها فاستولى علينا الذهول والفشل ، وعندما دنت الساعة التي تحمل فيها ربنا يسوع المسيح الآلام من أجلنا برفعه الصليب ، أخذ فرساننا الذين كانوا على البرج الخشبي ، يقاتلون بكل عنف ، وكان بينهم الأمير غونفري وأخوه الكونت استاش .

وقاد الكونت ريموند - الذي كان مرابطا في الوسط - جيشه ، ودفع ببرجه الخشبي حتى اقترب من السور ، وكان هناك خندق بين السور والبرج الخشبي ، وبغية ردمه أعلن أنه سيمنح دينارا لكل من يلقي بثلاثة أحجار فيه ، واستغرق ردمه ثلاثة أيام وثلاث ليال

سويا ، ولما جرت تسويته بالأرض سحبوا الكبش ، ودفعوه باتجاه السور لينطحه .

وحمي وطيس القتال داخل المدينة بين المدافعين عنها وبين رجالنا ، وأخذوا يرمونها بالنيران المحرقة والحجارة ، ولما عرف الكونت (صنجبيل) بأن الفرنجة أصبحوا داخل المدينة خاطب رجاله بقوله : « ماذا تنتظرون ، وقد دخل الغاليون بأجمعهم إلى المدينة » ؟ واستسلم القائد ، الذي كان يتولى حراسة برج داود ، للكونت ، وفتح له الباب الذي اعتاد الحجاج على تأدية الجزية عنده ، ولما دخل حجاجنا المدينة جدوا في قتل المسلمين وطاردوهم حتى قبة [المسجد] العمري حيث تجمعوا هناك واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أبشع القتل وأفظعه طوال اليوم بأكمله ، حتى فاض المعبد كله بدمائهم ، وبعدما تم لرجالنا النصر على الكفار ، عثروا في المعبد على جماعة كبيرة من الرجال والنساء ، ففتكوا ببعضهم وأبقوا على بعضهم ممن أحسنوا الظن بهم ، وكان قد التجأ إلى الجانب العلوي من « هيكل سليمان » فريق كثيف من الكفار من الرجال والنساء رافعين أعلام تانكرد وكاستون بيرن ، وانطلق الصليبيون في جميع أرجاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والخيول والبغال ، كما باشروا نهب البيوت الزاخرة بالثروات .

وازداد سرور رجالنا حتى أنهم بكوا من شدة فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع ، وأنوا واجباتهم الدينية وقضوها إزاءه ، وتسلق رجالنا في صباح اليوم التالي سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالا ونساء ، وامتشقوا سيوفهم ، وراحوا يعملون فيهم الذبح ، حتى رمى بعضهم بنفسه من أعلى المعبد ، واستشاط تانكرد غضبا عندما شهد هذا المنظر .

٣٩ - وعقد رجالنا بعد ذلك اجتماعا اتفقوا فيه على قيام كل واحد منهم بتأدية الصلوات وتوزيع الصدقات ، كي يختار الرب واحدا من

بينهم ، تكون له السلطة على الآخرين وعلى المدينة ، وصدرت الأوامر أيضا برمي جيف كافة موتى المسلمين وطرحها خارج المدينة ، لشدة روائح النتن المتصاعدة منها ، ذلك أن المدينة كانت مملوءة بجثثهم ، وقام المسلمون الذين كتب لهم البقاء بجر القتلى خارج القدس ، ورميهم أمام الأبواب ، وارتفعت أكوامهم حتى حانت البيوت ارتفاعا ، ولم يسبق قط أن سمع أو رأى أحد مذبحا مثل هذه المذبحه التي ألت بالشعب المسلم ، وجمعت أكوام من الحطب كأنها الجبال ، وأحرقوا عليها ، ولا يعلم غير الرب عدد الذين أحرقوا .

وأخذ الكونت ريموند (جناح الدولة) ورفاقه حتى عسقلان ، حيث أبلغهم مأمّنهم سالمين .

وقع الاختيار ، في اليوم الثامن لاستيلائنا على المدينة ، على الأمير غودفري ، وانتخب ليكون حاميا للمدينة ، قصد محاربة الكفرة والدفاع عن المسيحيين ، وعندما حل يوم عيد القديس بطرس في القيود ، (١٠٦) اختار القوم « آرئول » بطريركا للمدينة ، وكان رجلا شريفا مدبرا ، وكان قد تم لمسيحي الرب الاستيلاء على هذه المدينة يوم الجمعة الخامس عشر من تموز .

وفد في هذه الاثناء موفد على تانكرد والكونت أستاش (أخي غودفري) دعاهما للنهوض والذهاب معه لتسلم مدينة نابلس ، فتوجها على رأس جماعة كبيرة من الفرسان والرجالة ، حتى إذا بلغا المدينة استسلمت ودان سكانها بالطاعة .

وطلب إليهم الأمير (غودفري) ، أثر ذلك ، أن يسرعوا بالزحف لصد الهجوم الذي يقوم به (الأفضل) وزير مصر على عسقلان ، فسارعوا باقتحام الجبل باحثين عن المسلمين بغية الاشتباك معهم ، وبلغوا قيسارية ، ثم ساروا محاذين لشاطئ البحر حتى وصلوا إلى الرملة ، فعثروا بها على عدد كبير من العرب قدموا لتشييع المكان ، فاندفعوا في آثارهم ، وأسروا العديد منهم ، وحملوهم على

الافضاء بمعلومات، تتعلق بأحوالهم وعددهم والمناطق التي يعتزمون حرب المسيحيين فيها ، ولما وقف تانكرد على هذه المعلومات ، بعث رسولا إلى الأمير غودفري ، وإلى البطريرك (أرنول) وإلى بقية الأمراء (في القدس) يقول لهم : « ليكن معلوما لديكم أن القوم في عسقلان يعدون العدة للهجوم علينا ، فبادروهم بجميع القوات التي يمكنهم حشدها » .

وأمر الأمير غودفري باستنفار جميع العساكر ، وأمر بتجهيزهم بالسرعة الممكنة وإرسالهم نحو عسقلان بغية صد العدو وقتاله ، و خرج هو نفسه مع البطريرك وروبرت كونت فلاندرز من المدينة يوم الثلاثاء (١٠٧) ، و صاحبهم الأسقف «مارتيرانوا» ، لكن كونت صنجيل وروبرت النورمندي أعلنوا أنهما لن يشرعا بالزحف مالم يتأكدوا من صحة خبر الهجوم ، وبعثا ببعض فرسانهما ليستطلعوا صحة خبر الهجوم (المصري) وليعودوا على جناح السرعة مع الأخبار ، حيث كانا مستعدين للزحف فورا ، ومضى هؤلاء الفرسان ، واتضح لهم صحة خبر زحف العدو ، وبادروا عائنين حيث أخبروا أنهم شاهدوا ذلك بأنفسهم ، وهنا اختار الأمير غودفري الأسقف مارتيرانو ، وبعث به إلى القدس ليستنفر الفرسان الذين كانوا فيها ، ويجعلهم يمضون للزحف لقتال العدو ، ولما كان يوم الأربعاء سار الأمراء وتوجهوا نحو أرض المعركة ، ورجع الأسقف مارتيرانو إلى البطريرك والأمير غودفري ، ونهض المسلمون لقطع الطريق عليه ، وقبضوا عليه وساقوه أسيرا وعادوا به .

وبقي بطرس الناسك في القدس للقيام بما تتطلبه الحال من تدابير واستعدادات ، ولتحريض الأغريق واللاتين والكهنة على تمجيد الرب والدعاء وإقامة الصلوات ، وإخراج الصدقات ، حتى يمنح الرب شعبه ما وعده به من النصر ، ولما فرغ الكهنة والرهبان من ارتداء مسوحهم المقدسة ساروا على رأس الموكب نحو هيكल الرب ، وأخذوا في ترتيل القداس والدعاء عسى أن يقي الرب شعبه .

واجتمع أخيرا البطريك والأساقفة وبقية الأمراء عند ضفة نهر . في أحواز عسقلان ، وتمكنوا وهم هناك من الاستيلاء على عدد كبير من الماشية والثيران والجمال ومختلف أنواع السلب ، من العرب ، وكانوا يناهزون ثلاثمائة رجل ، وانقض عليهم رجالنا ، وأسروا منهم اثنين ، وطاردوا البقية حتى بلغوا معسكر جيشهم ، وعند حلول المساء نادى البطريك بين صفوف رجال الجيش بسجوب التائب في الصباح الباكر للحرب ، وأصدر قرارا بحرمان كل رجل يفكر في الاستيلاء على شيء من الغنائم قبل انتهاء المعركة ، فإذا تم لهم النصر عادوا مسرورين للاستيلاء على كل ما هياه الرب لهم .

ودخلوا في الصباح الباكر واديا خصبا قريبا من شاطئ البحر وأقاموا فيه معسكراتهم ، ثم عمد الأمير غودفري إلى قواته فرتبها للقتال ، وفعل مثله كل من كونت نورمندي ، وكونت صنجيل ، وكونت فلاندرز ثم تانكرد وكاستون ، ثم بعثوا بجماعة من الرجال ورماء النشاب أمام الفرسان ، ولما تم لهم ذلك شرعوا بالحرب واستفتحوا القتال باسم الرب يسوع المسيح .

وكان الأمير غودفري في الميسرة ومعه قواته ، وكونت صنجيل في الميمنة وقد انتشرت قواته بمحاذاة الساحل ، ووقف في القلب كل من كونت فلاندرز وكونت نورمندي وتانكرد وبقية القادة ، وتقدم رجالنا حسب هذه التشكيلة.

وكان الوثنيون بدورهم متاهبين للقتال ، وقد علق كل منهم ركوته (وعاء الشرب) إلى عنقه كيما يسهل عليهم شرب الماء ورشفه ، حتى وهم مجدون في مطاربتنا ، لكن مشيئة الرب لم تتح لهم الوقت الكافي لتحقيق ماكانوا يبتغون ، ولما أبصر كونت نورمندي راية الأمير محلاة بكرة من الذهب ومرفوعة على اسطوانة من فضة ، أقبل مندفعاً غير هياب ، وانقض على حاملها ونفحه بضربة أوت بحياته ، كما قام تانكرد بهجوم على معسكر العدو الوثني ، الذي ما كانت عساكره تراه حتى ولت الأبطال فرارا ، وكان قدر الجند كثيرا

لا يحصيهم عد ولا يعرف كم هم سوى الرب ، واشتد القتال ، لكن قدرة ربانية قدمت العون لنا ، وكان ذلك من الضخامة والشدة إلى درجة جعلت النصر من نصيبنا في أسرع وقت .

وغشى الرب أبصار أعدائه وأدهشهم ، فعلى الرغم من شدة إبصارهم وتحديق عيونهم ، كانوا يحدقون في فرسان المسيح ولا يرون شيئاً ما أمامهم ، ولم يعودوا يملكون الجرأة على التحديق بالمسيحيين ، لأن القدرة الربانية أدخلت الرعب إلى نفوسهم ، حتى حملهم خوفهم على تسلق الأشجار والاختباء وراءها ، بيد أن رجالنا اصطادوهم رمياً وطعنوا وضربوا بالأنشاب والرماح والسيوف ، وتخفى بعضهم الآخر بالاستلقاء على الأرض بونما حراك وكأنهم أموات ، لكن رجالنا تولوا نبهم ذبح الأغنام في السوق ، كما أن كونت صنجيل قتل جماعة كبيرة منهم على مقربة من شاطئ البحر ، وكان بعضهم قد رمى بنفسه فيه ، وهام آخرون على وجوههم هنا وهناك .

أما الأمير (الأفضل) فإنه بعدما وصل أمام المدينة حزينا قانطا ، وقف يبكي وينتنب حظه ويقول : « يا أرواح الأرباب ، إن العين لم تر مثل الذي جرى ، والآن لم تسمع بمثل الذي حدث ، أيتها الأرواح ، يامن لاتضارحك قوة ، ولا يماثلك جبروت ، ولا تضاهيك شجاعة ، يامن لم تعرفي الهزيمة قط أمام أية أمة من الأمم ، أراك غلبت الآن من قبل هذه الشرزمة المسيحية ، ما أعظم الحزن ، وأشد الأسى ، ماذا أقول ، وماذا أردد ، أتراني أهزم الآن على أيدي شعب منبوذ جبان ، وجماعة من الصعاليك لا يملكون من الدنيا سوى المزود والعصاة ، هؤلاء الذين طاردوا المصريين ، الذين طامنا وزعوا عليهم الصدقات من قبل ، حين كانوا يجوبون بلادنا ملتمسين الصدقات ؟! لقد حشدت هنا مائتي ألف فارس ، لكنني شهدتهم يثنون أعنة خيولهم ويوجهونها شطر مصر فرارا ، وهربوا لا يلوون على شيء ، ولم يفكروا بالوقوف أمام أمة الفرنجة ، وإنني لأقسم بمحمد وبقوة جميع أربابنا أنني لن أقود ثانية أية جماعة من

الفرسان ، مدمت قد طرنت على يد مثل هذا الشعب الغريب ، لقد
أحضرت جميع أنواع الأسلحة ، والمعدات لالقاء الحصار على
الفرنجة في القدس ، لكن الفرنجة قدموا وهاجموني وطاربوني طوال
يومين ، واأسفاه ، ماذا أقول أكثر من هذا ، لقد ضاعت هييتي إلى
الأبد في مصر^٢ (١٠٨) ! .

واستولى رجالنا على راية (الأفضل) فاشتراها كونت
نورمندي بعشرين قطعة فضية ، ثم وهبها للبطريك تمجيذا للرب
وللقبر المقدس ، وتقدم غيره فاشترى سيف (الأفضل) بستين
قطعة ذهبية .

وهكذا تمت هزيمة أعدائنا جميعا كما شاعت إرادة الرب ، وكانت
جميع سفن البلدان الوثنية راسية هناك (في عسقلان) ولما رأى من
كان بها فرار الأمير وجيشه بادروا إلى ركوب سفنهم والاقلاع بها
بأقصى سرعة .

ولما عاد مقاتلونا إلى معسكر العدو ، جمعوا منه غنائم هائلة من
الذهب والفضة واستولوا على كميات كبيرة من الأموال ، وعلى
أنواع شتى من الحيوانات والأسلحة ، فحملوا معهم كل ما أحبوا
امتلاكه ، وأحرقوا ما بقي ، وهكذا عاد رجالنا إلى القدس حاملين
معهم كل ما كانوا بحاجة إليه .

ولقد جرت هذه المعركة يوم الجمعة (١٠٩) حسب مشيئة ربنا
يسوع المسيح ، الذي له المجد والشرف السرمدى وعلى مر الدهور .
أمين .

تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس

صنفه ريمون دي جيل – راهب نوتردام لى بوي

(خطبة الكتاب)

يلتمس بونز اوف بلازون ، وريمون راهب لى بوي منكم
ياصاحب النيافة اسقف فيفية ، ومن جميع اتباع العقيدة
المستقيمة المباركة والمشاركة في الامنا ، ونريد اذ نحن نضع
هذا الكتاب ان نخبركم ونخبر معكم الشعب كله فيما وراء
الالب بأخبار جميع الاعمال الرائعة التي نفذها الرب من
خلالنا بكرمة المعتاد على الدوام ، وبسبب ظروف الحرب وما
دأب عليه الأبقون من نشر للاكاذيب وبعد عن الحقيقة ، فان
المهمة التي تولينا القيام بها ستمكن قراء الايام المقبلة من
تجنب معاشرة مثل هؤلاء المرتدين والاستماع الى ارائهم ،
لان اعمالهم ستكون مكشوفة ، وجدير بالذكر ان جيش
الرب ، مع انه عانى من سوط الرب بسبب خطاياهم ، قد
انتصر على جميع الوثنيين لان الرب عطوف ودود ولعله
سيكون من الصعوبة بمكان ان نكتب عن كل رحلة من
الرحلات ، لان بعض الحجاج اجتازو دلتاشيا (سلافونيك)
وعبر اخرون بلاد المجرولومبارديا ، او سافروا بحرا ، لهذا
ركزنا اهتماما بالكتابة عن كونت صنجيل واسقف لى بوي ،
وجيشهما ، دون الاهتمام بالآخرين .

الفصل الاول

السفر خلال دما شيا وخيانة الاغريق

بعد الرحيل ، دخل الجيش الى بلاد دماشيا ، وعانى هناك من كثير من المصاعب خلال فصل الشتاء ، والحق اقول بلاد دماشيا ارض جبلية مهجورة من الصعب الوصول اليها ، فهناك لم تقع اعيننا على حيوانات برية او طيور ، اما سكانها من الهمج فلم يتاجروا معنا ، ولم يزودونا بالادلاء ، بل انهم فروا من قراهم وحصونهم ، وكانما نزل بهم اذى شديدا من رجالنا المشردين واهني القوى ، وهكذا ازهقوا ارواح هؤلاء المساكين المنهكين من النساء والشيوخ والفقراء والمرضى ، ونبحوهم كما لو انهم مواشي للذبح ، ولمعرفة السلاف بهذه الارياف واعتيادهم عليها ، كان من الصعب على فرساننا ثقيلي التسليح مطاردة هؤلاء اللصوص وان كانوا غير مسلحين ، وتعقبهم في مسالك الجبال الوعرة وداخل الغابات الكثيفة ، وصبرت قواتنا وصابرت قطاع الطرق هؤلاء ، حيث لم يكن بامكان جنودنا القتال في الجبال ، كما لم يكن بامكانهم تجنب الاشتباك بهم ومناوشتهم .

ونتوقف عن سرد روايتنا عند هذه النقطة ، لنروي قصة قتال مجيد خاضه الكونت ريموند في احد الايام ، عندما وجد نفسه مع فرقته محاطين بالسلاف ، الذين أسروا ستة منهم ، وهنا ادرك ريموند وقد ضغط عليه بشدة ان عليه اقتحام صفوف السلاف حتى يصل الى رفاقه ، فأمر بسمل اعين بعض اسراه ، وبتراقدام بعضهم الآخر ، وجدع انوف وايدي الباقين ثم اخلاء سبيلهم ، وبذلك سلم هو ورفاقه ، وتملك الاعداء رعب شديد بسبب المشهد المريع الذي وجدوا عليه رفاقهم المشوهين ، فأقعدهم الحزن ، وبهذه

الطريقة نجا الكونت من خطر الموت ، ومن هذا المكان المخيف ، وكان ذلك بفضل الرب واحسانه .

وفي الحقيقة انه لمن الصعب ان نفي بالوصف ماظهره ريموند من شجاعة وحكمة في دماشيا ، فلقد سرنا هناك قرابة اربعين يوما ، كنا خلالها نواجه سحب الضباب فنكاد نلمس ابخرتها وندفعها بأجسادنا الى الامام ، وكان الكونت وسط هذه المخاطر يحمي يوما اتباعه بالقتال في ساحة الجيش ، وبالمكوث والانتظار حتى يكون اخر من يصل الى حيث مركزه في الركب ، فقد كان بعضهم يعود الى المعسكر وسط النهار او عند الغروب باستثناء ريموند الذي كان يعود يوما الى خيمته بعد منتصف الليل او عند صياح الديكة .

وبفضل رحمة الرب واعمال الكونت ونصائح ادهمر عبرنا دماشيا بدون خسائر تذكر بسبب الجوع او الصراع المكشوف ، ويدلل هذا العبور الموفق لهذه البلاد الهمجية ويرشدنا لنؤمن بأن الرب اراد لجيشه من المحاربين ان يعبر دماشيا حتى يتخلص الهمجيون والوثنيون في وقت من الاوقات من همجيتهم ، او ليساقوا مثل المذنبين غير المغفور لهم الى عذاب الرب .

ولدى وصولنا الى سكوتاري ، بعد رحلتنا الصعبة عبر دماشيا ، اكد الكونت مبدأ الاخوة ، وهب ملك السلاف الكثير من الهدايا حتى يتمكن الحجاج من شراء حاجياتهم بسلام ، وليبحثوا عن ضروريات الحياة ، بيد ان هذا كان سرايا ، لاننا ندمنا بمرارة على اعتمادنا على السلام الوهمي ، فقد انتهز السلاف فرصة هذه المناسبة ، وقاتلوا بكل وحشية ، وذبحوا قومنا ، واختطفوا من امكنهم اختطافه من العزل ، ولعلكم تصدقون اننا كنا وقتها نصلي للحصول على ملاذ وليس من اجل الانتقام ، ولكن لماذا نتابع سرد قصة دماشيا الكئيبة هذه ؟

ولدى اقامة المعسكر على مقربة من دورازو ، كنا على قناعة اننا

بتنا في بلادنا تلك اننا وثقنا بالكسيوس وصدقناه مع اتباعه واعتقدنا انهم اخواننا المسيحيين وحلفاء لنا ، غير انهم انقضوا علينا بوحشية كالاسود ، وهجموا على رجالنا المسلمين الذين كانوا غارين وغافلين عما يحتاجونه للدفاع عن الذات ، وقام قطاع الطرق هؤلاء ليلا بنبح اهلينا بالحدائق ، وفي الاماكن النائية عن المعسكر وسلبوا منهم ما استطاعوا سلبه ، وعندما كان الاغريق يتصرفون هكذا بدون رادع ، وعد قائدهم حنا كومينوس بالسلام ، غير انهم قتلوا في ظل هذا العهد بونتتيوس رينو ، وأصابوا أخيه بطرس بجراح مميتة ، وكان هذان أميران نبيلان ساميان ، ومع انه توفرت لنا الفرصة للتأثر فقد استأنفنا رحلتنا واثرنا السكوت على الظلم الذي حاق بنا ، وفي خلال الطريق تلقينا رسائل ارسلها الامبراطور تحدثت عن السلم والاخوة ، او بالحري تحدثت عن بنوتنا للامبراطور ، لكنها كانت كلمات جوفاء ، لانه كان عن يميننا وعن شمالنا وفي امامنا وعند مؤخرتنا الترك والغز والكومان والبشناق والبلغار وسواهم من الشعوب كلهم متربص بنا .

الفصل الثاني

الرحلة عبر الاراضي الاغريقية والعلاقات بين الكسيوس وريموند صنجيل

كان مما زاد في متاعبنا اننا كنا في احد الايام في وادي بيلاغونيا ،
عندما اسر البشناق اسقف لى بوي ، فقد كان قد ابتعد عن المعسكر
قليلا بحثا عن مكان مريح ليقيم فيه ، فرجلوه من على بغلته وجردوه
من ملابسه وضربوه بشدة على رأسه ، غير ان واحدا من البشناق
انقذه من براثن رفاقه من قطاع الطرق فقد طمع بذهب ادهم ،
وبهذه الوسيلة بقي لنا هذا الاسقف العظيم الذي لاغنى للعدالة
الربانية عنه ، ولصالح الجنس البشري وكل ذلك برحمة الرب
فعندما سمعت الجلبة في المعسكر ، اندفع الحجاج فأنقذوا الاسقف
من البشناق الذين لم يسرعوا بالاجهاز عليه .

وعندما وصلنا الى قلعة بوسينات ، وجند الامبراطور الخونة
يحيطون بنا ، سمع الكونت ان البشناق قد اعدوا لنا كمينا في
الممرات الضيقة لجبل قريب ، فأحبط تدبيرهم بان اعد لهم كمينا ثم
باغتهم مع فرسانه ، فأنزل بأولئك المرتزقة الخونة ضربة شديدة ،
فقتل العديد منهم وجعل الباقين يلونون بالفرار ، وفي تلك الاثناء ،
وهذه الاحداث قائمة وصلت رسائل تطمين من الكسيوس ، ومع هذا
احاط بنا العدو ، وواجهنا خداع الامبراطور من كل جانب .

وبعد ذلك ببرهة قصيرة وصلنا الى روسا ، وهي مدينة قابلنا
سكانها بكل ازراء وتحقير سافر ، فكان ان فلقنا صبرنا الذي
تحلينا به وعرفناه ، فحملنا السلاح ، واستولينا على المدينة بعدما
استسلمت لنا هدمنا اسوارها الخارجية وغنمنا غنائم كثيرة ثم
غادرنا هذه المدينة بعدما رفعنا اعلامنا وهدفنا « طولون » شعار
الكونت الخاص لجمع اتباعه ، وبعد ذلك زحفنا نحو رودوستو ،

وهناك هاجمتنا قوات المرتزقة التابعة لالكسيوس ، فقد كانت متلهفة للانتقام لهزيمة روسا ، بيد اننا نبحنا اولئك المرتزقة وفزنا ببعض الغنائم.

وفي ريوستو رجع الينا مبعوثونا الذين كنا قد ارسلناهم الى بلاط الكسيوس ، وحملوا الينا تقارير مفرحة عن وعود اغريقية ، كان السبب الرئيس وراءها رشوة الامبراطور لهم ، ولذلك ان الاحداث التالية لاتحتاج الى تعليق اكثر من ذلك ، وحث مبعوثون اغريق ومن شعبنا ريموند على التخلي عن جيشه والمبارزة مع عدد ضئيل من اتباعه للتوجه بدون سلاح الى بلاط الامبراطور ، وابلغوه ان بوهيموند وبنو اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخرين يتوسلون الى ريموند ليعقد صلحا مع الكسيوس بشأن حملة الحجج ، فالكسيوس قد يحمل الصليب ويصبح قائدا لجيش الرب واضافوا : ان الكسيوس كان على استعداد لتسوية جميع الامور التي تفيد الرحلة مع الكونت ، وذلك فيما يختص به وبالاخرين ، ووضحوا ان غياب مشورة رجل عظيم عشية القتال ، سيكون امرا رديئا ، ولهذا الحوا على ريموند ان يخف الى القسطنطينية على رأس جريدة ، حتى اذا اكتملت الترتيبات مع الكسيوس ، يبدأ الزحف بدون تأخير ، واستجاب ريموند لهذه النصيحة وعمل بها دونما تأخير ، وغادر المعسكر ، وبعدما رتب اموره ، وتقدم الجيش لاداء هذه المهمة ، ونهب وحده بدون سلاح الى القسطنطينية.

والى هاهنا كان تنوين اخبار هذه الاعمال التي اتسمت بالسرور والنجاح ، مهمة يسعد الكاتب بالقيام بها ، غير ان القصة غدت مشحونة بالشدة والحزن ، حتى انه ليؤلني انني قد شرعت فيما تعهدت باكماله ، وبصراحة انني لاعرف كيف سأدون هذه الاحداث على اهميتها: هل سأكتب ان ابشع خيانة حملتها الينا مشورة الامبراطور ، ام سأحكي عن هروب جيشنا بشكل مشين ، وعن عجزه الذي لايمكن لاحد ان يتصوره ، او سأشرع برواية خبر موت

بعض الامراء الكبار ، فأودعكم نكرى حزن دائم ، ومهما يك من أمر من اراد المعرفة فليستفسر من غيرنا .

ومع هذا انني سأروى هاهنا خبر حدث له اهمية قصوى فبينما كان قومنا جميعا يحلمون بمغادرة المخيم والفرار متخلين عن رفاقهم ، وتاركين كل ما حملوه من البلاد النائية ، اعانت اليهم بركة التكفير والصيام المنقذة قوتهم الراسخة الى درجة انهم انفسهم دهشوا لرغبتهم بالفرار ، ويأسهم السالف ، ويكفي هذا فنحن لن نتوقف عند هذه القصة اكثر مما فعلناه .

وفي الاستقبال البالغ الحفاوة الذي اعده الكسيوس وامراؤه لريموند ، طلب الامبراطور من الكونت ان يحلف له يمين الولاء الذي اقسمه له الامراء الآخرون ، ورد ريموند انه لم يحمل الصليب ليين بالولاء لسيد آخر ، او ليكون في خدمة اي كائن آخر غير الرب الذي من اجله هجر وطنه وممتلكات ابائه ، ومع ذلك فإنه سيأتمن الامبراطور على نفسه وعلى اتباعه وامتعته اذا ماسافر مع الجيش الى بيت المقدس ، غير ان الكسيوس اعتذر له عن الزحف وعلل ذلك بخوفه من ان يقوم الالمان والمجريون والكومان وغيرهم من الشعوب الهمجية بنهب امبراطوريته ، اذا ماتغيب عنها وشارك بالزحف مع الحجاج .

وفي هذه الاثناء علم الكونت بخبر هزيمة رجاله وموتهم ، فابرك انه قد ضلل ، وقام بوساطة بعض قانتنا باستدعاء الامبراطور الى المحاكمة متهما اياه بخيانة الحجاج ، لكن الكسيوس رد بأنه هو نفسه يعرف بأن قواتنا نهبت مملكته لكنه لم يعلم ان شعبه قد اقترب كثيرا من الاخطاء ، ولهذا فإنه لا يرى ادنى اساس قانوني لتحقيق الكونت ، ولعل ما حدث هو ان جيش ريموند قد لاذ افراده بالفرار لدى رؤية جيش الامبراطور الذي جاء ليمنعهم من تدمير المدن المحصنة والقرى ، ومع هذا فقد وعد بتقديم ترضية للكونت ، واعطاه

- ٢٥٩٣ -

بوهيموند رهينة للوفاء بعهده وأخيرا توصلنا الى اتفاق وارغم الكونت (ظلما) على اطلاق سراح رهينته.

وفي تلك الاثناء وصل جيشنا الى القسطنطينية ، ثم تلاه وصول الاسقف مع اخيه الذي كان قد خلفه مريضاً في بورازو ، وارسل الكسيوس مرارا وتكرارا يعد انه سيمنح الكونت المكافآت بكل سخاء اذا ما أقسم له يمين الولاء مثلما فعل بقية الامراء ، ولكن ريموند كان دائم التفكير في المعاملة الظالمة التي لقيها هو ورجاله ، وسعى الى محو عار هذه الفضيحة ، ومع هذا فقد تأسف بوق اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخرون لمثل هذه الافكار قائلين انه من الطيش الكبير ان يحارب المسيحيون المسيحيين بينما الترك على مقربة ، وفي الحقيقة كان بوهيموند قد تعهد للكسيوس بتقديم الدعم له في حال اتخاذ ريموند اجراء ضده ، او اذا تأخر الكونت اكثر في اعتذاره عن اداء يمين الولاء .

وعند هذه النقطة ، اقدم الكونت ، بعد ماتشاور مع البروفندساين على القسم والتعهد انه لن يعرض هو نفسه او بوساطة اخرين ، حياة الامبراطور و ممتلكاته للخطر و لدى تذكيره بالولاء ، رد بأنه لن يقسم يمين الولاء بسبب ما تعرضت له حقوقه من مخاطر ، و هنا يمكن أن نستدرك أن الكسيوس أعطاه بسبب ذلك القليل من المتاع الدنيوي ، و مرد ذلك تشدده و عناده

الفصل الثالث

حصار نيقية وعبور الاناضول

وبعد جواز البحر خففنا الخطى نحو نيقية التي كانت محاصرة من قبل غودفري وبوهيموند وقادة اخرون من الذين كانوا في الطليعة ، وتتمتع نيقية بحماية طبيعية وبفاعات قوية ، وكانت تحصيناتها الطبيعية تتكون من بحيرة كبيرة تمتد الى اسوارها ، مع خندق مليء بالماء المتدفق من الجداول القريبة ، وهو يسد المدخل من جهات ثلاث ، واحاط رجال بارعون نيقية باسوار شاهقة ، الى حد ان المدينة لم تكن تخشى هجوم الاعداء ولاقوة اي آلة ، وكانت عرادات الابراج القريبة موضوعة بشكل متناوب ، حتى ان احدا لم يكن يستطيع التحرك بالقرب منها دون ان يتعرض الى الخطر ، واذا ما اراد احد الزحف نحو الامام لم يكن بإمكانه الحاق اي ضرر بها لانه سيكون من السهل جدا ضربه من اعلى البرج .

ومهما يكن من امر ، لقد حاصرها بوهيموند - كما قلنا - من الشمال ، بينما حاصرها الدوق والامان من الشرق ، والكونت واسقف لى بوي من الجنوب ، وللذكرى ينبغي ان ندون ان كونت نورماندي لم يكن حاضرا ، ولهذا ينبغي ان نذكر الواقعة التالية: بينما كان كونت طولوز يرغب في اقامة معسكره هناك زحف الاتراك هابطين من الجبال في تشكيلين ، وانقضوا على جيشنا ، ولاشك انهم قد وضعوا خططهم على امل ان تقاتل احدى فرقتيهم غودفري والامان المعسكرين في الشرق ، بينما تدخل فرقة الاتراك

الآخري الى نيقية من الباب الجنوبي لتخرج من باب آخر فتتقوض على قواتنا الفارة فتبيدها بكل يسر وسهولة ، لكن الرب ذي النعمة المعتادة على مخططي السوء ، احبط خططهم ، وبدا الحال وكأنه قد دبر للمعركة بحيث تؤدي المحصلة التالية : فقد جعل الرب الكونت ، الذي كان على وشك ضرب معسكره هناك مع رجاله يهاجم الفرقة التركية التي كانت على وشك دخول نيقية في ذلك الوقت ، وابدأ ريموند في الهجوم الاول العديد منهم وقتل الكثيرين ثم ارغم البقية على الفرار وطاردهم الى جبل قريب ، بينما اجبر في الوقت نفسه — الترك الذين كانوا يخططون للقضاء على الالمان على الفرار وابتدأ اكثرهم .

ونصبنا بعد هذا النجاح المجانيق وقصفنا الاسوار ، انما بدون محصلة ، فقد كانت الاسوار منيعة لا تخترق ، وكان الدفاع الشجاع بالذشاب والالات يبعث على الاحباط ، واخيرا حدث بعد مضي خمسة اسابيع من الحصار غير المجدي ، ان اندفعت بمشيئة الرب بعض القوات من حاشية ادهمر واتباع ريموند الى الامام وتمكنت بعد مخاطرة كبيرة من الوصول الى اسفل احد الابراج ، وامكن لهذه القوات تحت حماية دبابة ان تدك البرج دكا وتقوض اساساته وتسويه بالارض ، لكن حال حلول الظلام دون الاستيلاء على نيقية ، وفي صباح اليوم التالي ثبت ان جهودنا كانت بلا طائل ، ذلك ان المدافعين عن المدينة رمموا الاسوار واصلحوها تحت جنح الظلام ، ومع هذا استولى الخوف على نيقية ، فاستسلمت ، وكان السبب الاكبر الذي دفع الى استسلامها هو ان السفن الاغريقية التي سحبت على الارض كانت تطفوا الان على سطح مياه البحيرة ، ونتيجة لهذا فان الترك الذين انعزلوا الان عن اصدقائهم انحنوا لالكسيوس ، حيث لم يعد لديهم امل بوصول النجدة اليهم ، بينما كانوا يشهدون الجيش الفرنجي يزداد يوما بعد يوم ، وزاد من ذلك وصول كونت نورماندي .

وتعهد الكسيوس للامراء ولشعب الفرنجة بتسليمهم كل ما في

نيقية من ذهب وفضة وخيول وامتعة ، وزاد على ذلك بأن قال انه سيؤسس فيها ديرا لللاتين مع ملجأ للمعوزين من الفرنجة ، كما وعد ان يعطي بسخاء كل فرد وجندي في الجيش يتمنى ان يخدمه مدى الحياة ، ووثق الفرنجة بهذه الكلمات المخلصة ، واغتبطوا لاسترداد نيقية ، ولكن ما أن أصبحت نيقية بحوزة الكسيوس حتى تصرف بجحود مع الجيش ، لذلك فإن الناس سيسبونه ويسمونه بالخيانة مادام حيا .

وفي تلك الاثناء عرفنا انه عندما وصل بطرس الناسك مع حشود المزارعين التي كانت بصحبته الى القسطنطينية ، قبل شهر من وصول قوات الحجاج الرئيسة ، خانه الكسيوس في ان ارغمه مع اتباعه - الذين لم يكونوا على دراية بمواقع الحرب ولا فنونها - على عبور المضائق ، وليس معهم مايدافعون به ضد الترك ، وبذلك عندما ادرك ترك نيقية انهم وقعوا على فريسة سهلة ، قتلوا بكل سرعة ويسر ستين الفا من المزارعين ، ولم يفلت من هؤلاء الا الذين فروا والتجأوا الى احدى القلاع .

وتجراً المنتصرون وركبهم الغرور بسبب نجاحاتهم ، فأرسلوا الاسلحة التي استولوا عليها والحجاج الذين اسروهم الى ساداتهم والى القادة المسلمين في الاماكن النائية ونشروا في بلادهم كتابات تفيد ان الفرنجة لم يكونوا اهل حرب .

واثر هذه الاحداث غادرنا نيقية واتجهنا نحو الاناضول ، وفي اثناء الزحف تصرف بوهيموند وبعض الامراء الآخرين تصرفا غير لائق او حكيم ، بأن انفصلوا عن الكونت والاسقف والدوق ، وفي اليوم الثالث من زحف بوهيموند منفصلا وفيما هو يفكر ان يعسكر رأى جنوده مائة وخمسين الف رجل يزحفون نحوهم في تشكيل معركة ، وبينما كان يقوم بتنظيم صفوف قواته للقتال كما تقتضى الظروف ، ويستعد للاشتباك فقد العديد من رجاله الذين تأخروا خلفه وضلوا الطريق ، وعندما احتدم القتال استدعى بوهيموند

الكونت والدوق لمساعدته ، حيث كانا على مسافة ميلين منه ،
ومالبثت طلبات النجدة ان وصلتهم ، فارتدى الحجاج برعهم
وامتطوا صهوات خيولهم ، وباندروا مسرعين لقتال العدو ، فور
وصول رسول بوهيموند بالاخبار اليهم .

واحبطت امال قلج ارسلان القائد المهاجم ، وخاب فآله لدى رؤية
الفرسان المندفعين ، فاسرع بالفرار ، ويبدو لنا ان عدالة السماء
هي التي جعلت قلج ارسلان الذي اسر الاسرى ، واستولى على
الكثير من خيام بوهيموند يتخلى الان عن أمتعته وكان ذلك بفضل
الرب ، ومع اننا لم نر ماسنحكيه ، فان بعضهم قد وصف لنا معجزة
كبيرة رأوا خلالها فارسين وسيمين في درعين لهما بريق ، وأوهما
وهما يركبان امام جذوبنا ، ولا يبدو أن طعنات رماح الترك تؤثر
فيهما ، وقد القيا الرعب في قلوب الاعداء حتى انهم لم يستطيعوا
القتال ، ومع اننا علمنا بهذا من اترك تحولوا عن عقيدتهم وهم الان
يعملون في صفوفنا ، يمكننا ان نؤكد ذلك بدليل اننا كنا نرى ليومين
اثناء زحفنا فرسانا موتى وخيولا ميتة .

ويعد هزيمة الترك وصددهم ، مررنا بسرعة وسلام من خلال
الاناضول ، مع ان الزحف تأخر قليلا بسبب مرض الم بريموند ،
وعلى الرغم ان ماسنحكيه الآن قد يذوق السخايرين
المتهكمين ، فانه ينبغي لنا ان نسجله ونرويهِ علنا ، لانه وصف
لمعجزة من تدبير السماء ، فقد كان دوق ساكسوني يزعم أن مبعوثا
من لدن القديس جيلز (صنجيل) قد تلقى مرتين امرا بان يطلب الى
الكونت : « اهدأ وقرعينا ، فلن تموت من هذا المرض ، لانني ضمنت
لك راحة من عند الرب ، وساكون دائما على مقربة منك » ومع ان
الكونت كان سريع التصديق ، فقد اضعفه المرض ، حتى انه عندما
نقل من على سريريه ووضع على الارض لم يكذب يتردد في صدره نفس
من انفاس الحياة ، ولهذا تلا اسقف اورانج الصلوات كما لو كان
ريموند ميتا ، غير ان السماء التي جعلت منه قائدا للجيش بعثته
حالا من الموت واعانته سليما معافا .

الفصل الرابع

سد المنافذ والطرق وبداية حصار انطاكية

وبينما كنا بعد هذا نقرب من انطاكية ، اقترح العديد من الامراء ان نؤجل القاء الحصار عليها ، خاصة وان الشتاء بات على الابواب ، وتوزيع الجيش في الاماكن الحصينة بعدما ارهقه حر الصيف ، كما وقالوا : ينبغي على الجيش انتظار القسوات الامبراطورية والتعزيزات التي اتت اخبار عنها تفيد انها في الطريق من فرنسا ، وقد نصحونا بالدخول الى بعض المواقع والبقاء طيلة الشتاء حتى يأتي الربيع ، وقدم ريموند مع بعض الامراء الاخرين رايًا مضادًا لقولهم : لقد وصلنا بارشاد الرب وعطفه ومحبيه ، وفرنا بمدينة نيقية ، وبعونه ورحمته ننتصر ونعيش في امن من الترك ، وفي سلام واندسجام في جيشنا ، لهذا ينبغي ان نعهد اليه بامورنا ، ولا ينبغي ان نخشى الملوك او قادة الملوك ، والانهرب الاماكن والأيام ، بما ان الرب قد نجانا من مخاطر كثيرة ، وانتصر هذا الراي ، ووصلنا الى انطاكية ، وعسكرنا على مقربة منها الى درجة ان المدافعين عن المدينة قذفوا علينا النار من اعالي ابراجهم فاصابوا رجالنا في خيامهم كما اصابوا خيولنا .

ونفتنم هذه المناسبة لتتولى وصف انطاكية مع تضاريسها ، حتى يمكن لقرائنا الذين لم يروها ان يتابعوا المعارك والهجمات ، ففي احضان جبال لبنان يقع سهل عرضه مسيرة يوم وطوله مسيرة يوم ونصف اليوم ، ويحد السهل مستنقع ، والى الشرق يجري نهر ينساب حول جزء من هذا السهل ثم يعود الى حافة الجبال الواقعة في هذا الاقليم باتجاه الجنوب بحيث لا يمكن العبور من الجبال الى النهر ، ومن هناك ينعطف ليصل الى البحر المتوسط القريب منه ،

وعلى هذا تقع انطاكية في هذه المضائق التي يكونها النهر الذي يشق طريقه في الجبال المذكورة ، بحيث ان تدفق النهر غربا عبر الاسوار الاننى يجعل الارض بينه وبين المدينة تأخذ شكل السهم ، وفي حقيقة الامر ان المدينة التي تقع الى الشرق قليلا ، ترتفع في هذا الاتجاه وتحتضن في داخلها قمم ثلاثة تلال ، وتفصل الجبل الواقع في الشمال عن الجبلين الآخرين هضبة ضخمة بحيث لا يمكن الا بصعوبة بالغة الانتقال من احدهما الى الآخر .

ويزهو التل الشمالي بوجود قلعة عليه ، والاوسط بوجود اخرى تسمى بالاغريقية القسيان (كولاكس) ، اما التل الثالث فليس به الا ابراج ، فضلا عن ذلك فان المدينة تمتد ميلين طولا وتحميها الابراج والاسوار والدفاعات وهي قوية الى درجة انها لاتخشى هجوم الآلات عليها ولا الانسان حتى وإن اجتمع على حصارها جميع بني البشر.

وباختصار قنع الجيش الفرنجي الذي كان يتألف من مائة الف من الرجال المسلحين ، والذي كان معسكرا على طول خط شمالي انطاكية الذي وصفناه ، قنع بالبقاء حيث هو دون ان يشن هجوما على المدينة ، وذلك على الرغم من ان المدينة لم يكن بها الا الفان من الفرسان الممتازين واربعة الاف او خمسة من الفرسان العاديين ، وقاربة عشرة الاف او اكثر من الرجال ، وكانت انطاكية في مأمن من السقوط مادامت ابوابها مغلقة والحراسة عليها قائمة ، لان واديا وسباخ كانت تحمي الاسوار العالية ، وعند وصولنا اتخذنا مواقع لنا بشكل عشوائي ، ولم نعين حراسا ، وتصرفنا بغباء كبير ، ولاشك ان الاعداء لو عرفوا ذلك لكان بإمكانهم اجتياح اي قطاع ارادوه من مخيمنا .

وسقطت في تلك الاثناء عدة قلاع في الاحواز بسايدينا مع بعض المدن القريبة وذلك بسبب الرعب منا مع الرغبة بالتخلص من نير الترك ، وترك بعض فرساننا انطاكية وتجاهلوا المصلحة العامة ،

وجروا وراء مصالحهم الخاصة وانانياتهم في كسب بعض المنافع المادية ، وحتى الذين بقوا في المخيم كانوا يستمتعون بحياة كلها ترف الى درجة انهم كانوا لا يأكلون الا احسن قطع اللحم كالفخذ والاكتاف ، ويحتقرون لحم الصدر ، ولا يفكرون بالمرة في القمح والنبيد ، ولم يكن هناك في تلك الايام الطيبة من يذكرنا باعدائنا المختبئين داخل انطاكية سوى رجال الحرس والمراقبة على طول الاسوار ، غير ان الاتراك سرعان ما اكتشفوا ان المسيحيين كانوا يعيشون في القرى والحقول المجاورة علانية ويخرجون اليها بدون سلاح ، وعلى الرغم من ان معلوماتي قليلة عن تحركات الاتراك ، فان اعدائنا سرعان ما قدموا من حلب الواقعة على مسيرة يومين او خرجوا من انطاكية وقتلوا جنودنا المكلفين بجمع المؤن والذين كانوا متناثرين بدون دفاع ، وقد عكزت هذه الاعمال الانتقامية حياتنا الرغبة ، كما ان توفر الفرص الجديدة للقتل والنهب شجعت المسلمين على شن اغاراتهم بشكل متتابع .

وحرصت هذه الوقائع الحجاج ودفعتهم لان يطلبوا من ريموند القيام بهجوم انتقامي مضاد ، ومع ان بوهيموند لم يستطع ان يجمع سوى مائة وخمسين فارسا ، فانه انطلق اخيرا برفقة كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي ، ويدفعه الحياء من ان يوسم بالتهرب من الاقدام ، وفي الحقيقة كان السبب الاساسي لخروجه امر الرب ، ولقد امكنهم تحديد مواقع الاعداء فهاجموهم وساقوهم الى حتفهم في نهر العاصي ، ثم عاد المسيحيون الى المعسكر فرحين بالغنائم ، وفي الوقت نفسه رست بعض السفن الجنوبية في ميناء السويدية القريب والواقع على بعد نحو عشرة اميال ، وفي تلك الاثناء كان الاعداء يتسللون تدريجيا من انطاكية فيقتلون السادة والمزارعين منا الذين كانوا يرعون خيولهم ومواشيهم ، ويعودون عبر النهر بما نهبوه الى داخل المدينة .

ونتوقف الان عن متابعة سرد روايتنا بغية وصف الاطار الذي وقعت فيه الاحداث حتى نوضحها ونبين كيفية وقوعها ، فقد كانت

خيامنا مضروبة على طرف النهر مباشرة ، وكان يقطع هذا النهر جسر عائم مصنوع من الزوارق التي كانت موجودة هناك ، ووجد ايضا لانطاكية جسر اخر وقع عند الركن الغربي الاسفل ، ووجدت في مواجهتنا قام عليه مسجدان وكنييسة صغيرة بها قبور .

ونعود الان لنستأنف روايتنا حيث نلاحظ ان قواتنا التي كثيرا ما كان العدو يتفوق عليها عدديا ، كانت تتجرا وتشتبك مع المقاومة الطامعة ، غير ان الترك كانوا يفرون ويتشتتون ويكرون كثيرا فيعاودون القتال ، ومرد ذلك الى انهم اولا كانوا يحملون اسلحة خفيفة هي القسي ، ثم كانوا يتميزون بخفة الحركة على الخيول ، وكانوا من جهة اخرى يمكنهم الاسراع بالعودة عبر جسرهم الذي ذكرناه ، كما انهم كانوا يحبون ان يمحطرونا بذشابههم من اعلى جبلهم ، وانكرهم ان جسرهم كان يبعد ميلا عن جسرنا ، وعلى المنبسط المعتدين الجسرين كانت تدور يوميا بعض الاشتباكات ، وبسبب ان ريموند وادهم كانا معسكران بالقرب من ضفاف النهر ، فانهما كانا يتحملان ثقل الغارات ، وكلفت هذه الغارات التي اعتمدت على الكر والفر هذين القائدين جميع خيولهما ، ولأن الترك لم يكونوا يتقنون استخدام الرماح والسيوف ، كانوا يقاتلون عن بعد ، ولهذا كانوا يشكلون خطورة في المطاردة او اثناء الفرار .

وفي الشهر الثالث من الحصار ، عندما تغيب كونت نور ماندي ، ومرض غودفري ، وارتفعت الاسعار ارتفاعا هائلا ، تم اختيار بوهيموند وكونت فلاندرز لقيادة حملة للبحث عن المؤن قسرب البهسنا ، وتولى وقتها ريموند وادهم حماية المخيم ، ولدى معرفة المحاصرين باخبار هذه التطورات استأنفوا غاراتهم المعتادة ، وتحرك ريموند بدوره لمواجهتهم بطرائقه المعتادة ، ووضع رجالته في تشكيل المعركة ثم اندفع يطارد الترك بصحبة عدد من الفرسان ، وفي الاشتباك الذي تلا ذلك ، اسر اثنين من المهاجمين وقتلهم على جانب التل ، وطرد الآخرين عبر جسرهم الى انطاكية ، وكان المشهد اعظم مما يستطيع الرجالة تحمل رؤيته ، فاضطربت صفوفهم ،

والقوا راياتهم ، واندفعوا يجرون نحو الجسر في فوضى شاملة ، وفي
امنهم الزائف راخوا يلقيون الصخور والمقنوفات الاخرى على
المدافعين عن الجسر ، وتجمع الترك من جديد وشنوا هجوما مضادا
عن طريق الجسر وعبر مخاضة قريبة .

وفي تلك الساعة اندفع فرساننا نحو الجسر لمطاردة حصان
شارد ، جعلوه يجري بدون فارس ، وتوهم الرجالة حين رأوا ذلك
ان الفرسان يفرون فاسرعوا بالهروب امام الهجوم التركي ، وفي
اثناء الاشتباك نبج الاتراك الهاربين بلا شفقة ، وتوقف فرسان
الفرنجة عن القتال ، ووجدوا انفسهم وسط الحشود الهاربة التي
اخذت تتدلفهم وتخطف منهم اسلحتهم ، وتشد خيولهم من نيولها
وتجذبهم ارضا من على صهوات خيولهم ، وتبعهم فرسان آخرون
اثناء الاندفاع يحدوهم الشعور بالرحمة والعرض على سلامة
قومهم ، لكن الترك شددوا في مطاردة الاحياء بلا هوادة ، وسلبوا
الموتى مقتنياتهم ، ولم يكف رجالنا عار القاء اسلحتهم والفرار دون
الشعور بالخل ، بل انهم قفزوا في النهر ليرتطموا بالصخور او
ليصابوا بالسهم او ليغرقوا ، ولم يعبر النهر ويصل الى بر الامان
الا السباحون والاقوياء.

وفي القتال الذي دار بين جسر الاتراك وجسرنا قتل الترك نحو
من خمسة عشر فارسا من فرساننا وحوالي العشرين من رجالتنا ،
ولقى حامل راية اسقف لى بوي واحد النبلاء واسمه برنارد اوف
بيزييه مصرعهما هناك ، واستولى الترك على راية ادهمر ، واننا
نامل الاتكون روايتنا عن عدم خجل جيشنا ، سببا في لوم عباد الرب
لنا وغضبهم علينا ، لان الرب جعل الحجاج الزناة الناهبين يتوبون
اليه اولاً ، ولانه من جانب اخر جعل جيشنا يطيب نفسه في بلاد
المسلمين .

وانتشر الكلام من معسكرنا عن حالة الرفاه التي كانت تعيشها
قوات ريموند وعن انتصاره الكبير ، ووصل بوهيموند وارتفعت
نتيجة لذلك الروح المعنوية بين رجاله ، وفي اثناء احدى الغارات على

واحدة من القرى سمع بوهيموند صوت بعض فلاحية وهم يفرون ويطلبون النجدة ، فارسل قوة تستطلع الامر ، فوجدت جمعا من الاتراك والعرب يطاردونهم مطاردة محمومة ، وكان بين القوة الناجدة كونت فلاندرز وبعض البروفانسيين ، وهو اسم يطلق عادة على كل من هو برغندي واوفراني ، وغاسكوني وغوتي - والفت الانتباه الى ان كل ما سوى ذلك من قوات جيشنا يطلق عليهم اسم الفرنجة ، ولكن العدو لا يميز ، ويستخدم كلمة فرنجة للإشارة الى الجميع ، والان ينبغي ان اعود الى حكايتنا : اندفع كونت فلاندرز بتهور شديد وهو على ظهر حصانه ، اندفع ليواجه الاتراك هكذا حتى لا يناله عار الانسحاب فيما لو أراد الابلاغ عن اقتراب الاعداء ، وبما ان الاتراك لم يالغوا القتال بالسيف ، فقد لاذوا بالفرار ، ومع هذا لم يضع كونت فلاندرز سيفه حتى قتل مائة من اعدائه . ولدى عودة كونت فلاندرز منتصرا الى بوهيموند اكتشف وجود اثني عشر الفا من الاتراك يقتربون من ساقية قواته ، وراى الى يساره عددا كبيرا من الرجال يقفون على تل غير بعيد ، وبعد مشاورات ومداولات مع بقية جيشه عاد ومعه بعض التعزيزات وبادر الى الهجوم ، بينما تبعه بوهيموند مع الحجاج الاخرين عن بعد ، فحمى بذلك خطوط ساقته ، وكان اسلوب الاتراك المعتاد في القتال - حتى عندما يفوقهم عدوهم عددا - محاولة الاحاطة باعدائهم ، وهذا ما صنعوه في تلك المواجهة ، ولكن ثاقب نظر بوهيموند جعله يتوقع حيلتهم .

وفر الترك والعرب الذين هاجموا كونت فلاندرز ، وتخلوا عن القتال عندما ادركوا ان المعركة سيكون القتال فيها وجه لوجه بالسيوف ، وليس عن بعد بالتراشق بالذشاب ثم ان كونت فلاندرز طارد العدو وتعقب ملوله مسافة ميلين ، وكان الاحياء يرون القتلى مطروحين على طول الطريق وكانما هم حزم القمح داخل الحقل ايام الحصاد ، واثناء ذلك القتال وجه بوهيموند ضرباته الى القوات التي كمننت له فقضى على الكمين وعليها غير انه لم يستطع منع الشراذم

سألقة الذكر من رجالة العدو من التسلسل من خلال اماكن لا يمكن عبورها على ظهور الخيل.

ولولا التواضع لعددت هذه المعركة اعظم من الحرب المكابية ، لان مكابيوس قضى بثلاثة الاف على ثمانية واربعين الفا من اعدائه ، في حين دحر فرساننا الاربعمئة ستمين الفا من الوثنيين ، ومع هذا نحن لانقلل من مكانة شجاعة مكابيوس ، ولانفخر ببسالة فرساننا ، ومهما يكن من امر اننا نقول ان الرب الذي كان عظيما مع مكابيوس كان اكثر عظمة مع قواتنا .

وفي الحقيقة جاء ردنا على فرار المهاجمين فيه تناقص بالشجاعة ، الى حد ان الحجاج اخفقوا في تتبع الفارين ، وبالتالي عاد جيشنا المنتصر الى المخيم بدون مؤن ، وكان من شان المجاعة التي اعقبت ذلك ان ارتفعت الاسعار حتى ان اثنين من الصولدي لم تكد تكون لهما قوة شرائية تعادل نصيب الرجل الواحد من الخبز في اليوم ، كما ارتفعت اسعار الحاجيات الاخرى بالدرجة نفسها ، فما كان من الفقراء والاغنياء الذين ارادوا انقاذ مقتنياتهم الا ان تركوا الحصار ، واما من بقي لقوة روحية فيه ، فقد توجب عليه تحمل رؤية خيوله وهي تموت من الجوع ، وكان التبن قليلا جدا ، ولم تكن سبعة او ثمانية صولديات تكفي لشراء كمية من الحبوب كافية لاطعام حصان واحد لليلة واحدة .

ومما زاد في كربنا ، ان بوهيموند ، الذي شهر بما اداه لنا من خدمات في ديار المسلمين ، هدد بالرحيل ، قائلا ان الشرف هو الذي جعله يتخذ هذا القرار ، لانه راي رجاله وخيوله تموت من الجوع ، زد على هذا ، لقد اوضح انه رجل امكاناته محدودة وثروته الشخصية لاتكفي لحصار طويل ، وعلمنا فيما بعد انه اعلن تلك التصريحات لانه كان يطمع في تملك انطاكية واتخاذها لنفسه .

ووقعت في تلك الاثناء هزة ارضية في اليوم الاول من كانون

الثاني (١٠٩٧ م) كما راينا شارات اعجازية في السماء ، ففي الهزيع الاول من الليل ، كانت السماء حمراء في الشمال بحيث بدا كما لو ان الشمس اشرقت في يوم جديد ، ومع ان ذلك كان توبيخا من الرب لجيشنا ، حتى نتحول الى النور الذي لاح في الظلام ، فان

عقول بعضنا كانت غلغا وكانوا عنيدون الى درجة انهم لم يكفوا عن حياة الصخب والنهب ، ثم ان ادهم حث الناس ليصوموا ثلاثة ايام ، وان يصلوا ويتصدقوا ، وقيموا موكبا ، كما وامر الكهنة باقامة القداسات ، ورجال الدين بترديد المزامير وهكذا اظهر الرب العظيم عطفه ومحبه فآخر عقاب ابنائه حتى لايزداد تفاخر الوثنيين .

واتحول الان الى الحديث عن شخص كدت ان انساه ، لانه بقي به في طي النسيان ، وهو تاتيكوس ، الذي صاحب جيشنا عوضا عن الكسيوس ، فقد كان له انف مشوه ، كما كان يفتقر الى اية صفات تعوضه عن ذلك ، كان تاتيكوس يحذر الامراء كل يوم وينصحهم بهدوء ليتراجعوا الى القلاع القريبة ، وليطردوا المحاصرين بهجمات متنوعة وكمائن متعددة ، لكن عندما علم الكونت بهذا كله ، وكان وقتها مريضا من يوم هروبه الاضطرابي بالقرب من الجسر ، جمع امراءه واسقف لي بوي ، وفي نهاية الاجتماع وزع ريموند خمسمائة مارك على الجماعة ، شريطة انه اذا فقد اي واحد من الفرسان حصانه يعوض بواحد اخر يشتري من الخمسمائة مارك ومن مبالغ اخرى منحت للاخوانيات .

وكانت اتفاقية الاخوانية هذه مفيدة جدا في ذلك الوقت ، ذلك ان فقراء الناس في الجيش ممن كانوا يرغبون بالانتقال الى الجانب الاخر من النهر للبحث عن المؤن كانوا يخافون من هجوم الاتراك ، وكان القليل منهم فقط هم الذين يرغبون في قتالهم ، ذلك ان خيول البروفانسيين ، التي لم تتجاوز المائة فرس ، كانت هزيلة ضعيفة ،

وابادر القول ان الموقف ذاته كان سائدا في معسكر بوهيموند والقادة
الاخرين .

وبعد التدبير الاخواني ، هاجم فرساننا العدو بكل جراءة ، لان
الذين كان معهم خيول لاقيمة لها ومنهكة القوى ، كانوا يدركون تمام
الادراك انه يمكنهم استبدال خيولهم المفقودة بخيول افضل ، اه ،
يمكنني بالفعل ان استدرك امرا اخر فساضيف ان الامراء
عرضوا - باستثناء الكونت - انطاكية على بوهيموند في حال
الاستيلاء عليها ، وبناء على هذا الاتفاق اقسام بوهيموند وبقيّة
الامراء على ان لا يرفعوا الحصار عن انطاكية لمدة سبع سنوات الا
اذا سقطت قبل ذلك .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الامور في المخيم ، انتشرت
اقاويل حكّت ان جيش الامبراطور كان يقترب ، وهو جيش قيل انه
كان يتألف من عدة اجناس . من السلاف والبشناق والكومان
والتركوبلية ، وقد اطلق هذا الاسم على التركوبلية لانهم اما كانوا
من قد تربوا مع الاتراك ، او كانوا ابناء امهات مسيحيات واباء
اتراك ، وكانوا يخشون الارتباط بنا لسوء معاملتهم لنا طوال
الرحلة . والواقع ان تساتيكوس ، ذلك المشوه ، الذي كان يتلف
لايجاد عذر يهرب بموجبه ، لم يكتف بتلفيق هذه الاكذوبة فحسب ،
بل اضاف الى اثامه الحنث باليمين ، وخيانة اصدقائه ، فاسرع
هاربا بعد ما تنازل لبوهيموند عن مدينتين او ثلاث هي :
طرسوس ، والمصيصة ، واذنة ، وهكذا غادر تساتيكوس المعسكر
بحجة الانضمام الى جيش الكسيوس ، وتخلي عن اتباعه ، ومضى
ترافقه لعنة الرب ، وجلب بهذا العمل الدنيء العار الابدي على نفسه
وعلى رجاله .

الفصل الخامس

المرحلة التالية من حصار انطاكية وتشديد الحصار

وصلت الآن اخبار تفيد أن قائد جيش الخليفة يتقدم على رأس جيش كبير من خراسان ، وهو قادم لنجدة انطاكية ، وبعد انعقاد مجلس الحرب في خيمة ادهم صدرت الأوامر للرجال بالدفاع عن المعسكر وللفرسان بالخروج للتصدي للقوة الجديدة ، وكان السبب في صدور هذا القرار أن الجبناء وغير اللائقين بين صفوف الرجال ، ربما اظهروا جبنًا أكثر مما يبدون من شجاعة ، وإذا ماروا قوة كبيرة من الأتراك ، ورحلت الجماعة التي ستقوم بالحملة تحت جناح الظلام ، واختبأت في بعض التلال على بعد فرسخين من المعسكر ، ولم يستطع المدافعون عن انطاكية أن يعلموا برحيلهم ، وأود الآن أن يصغي إلى مايلي الذين حاولوا أن يحطوا من شأن جيشنا في الماضي ، وليسمعوا فعلاً عما هم إذا فهموا المثل الذي يضربه الرب على رحمته نيابة عنا ، أن يسارعوا إلى أرضاء الرب بدموع الندم .

لقد زاد الرب حجم وحدات الفرسان الست من دون السبعمائة رجل إلى أكثر من ألفين ، وبكل تأكيد إنه ليشق علي الحديث عن شجاعة الجيش ، الذي كان فـرسـسانه يغنون أغاني الحرب ، وينشدون بكل ابتهاج ، حتى بدا وكأنهم ينظرون إلى المعركة المقبلة كما لو كانت من الألعاب الرياضية ، ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن موضع القتال المقبل كان بالقرب من مكان يتدفق النهر عنده على بعد ميل واحد من المستنقع ، وبذلك حالوا دون استخدام الأتراك لحركات الالتفاف المعتادة ، والتي كانت تعتمد على نشر قواتهم ، وفضلاً عن ذلك فإن الرب الذي قدم لنا المنح

السالفة الذكر ، قد أمدنا بسنة أودية متاخمة يمكن لقواتنا أن تتحرك فيها الى المعركة ، وهكذا كنا خلال ساعة قد زحفنا واحتلنا الميدان ، وما أن سطعت الشمس على أسلحتنا ودروعنا حتى بدأت المعركة وأخذ رجالنا يندفعون الى الأمام ، بينما كان الأتراك يكرون ويفرون ويطلقون سهامهم ثم يتراجعون ببطء .

وقد نزلت بقواتنا خسائر فادحة الى أن تمكنت من دفع الصفوف الأولى من الأتراك الى المؤخرة ، وقد أخبرنا الذين تخلوا عن مواقعهم فيما بعد أنه كان هناك ما لا يقل عن ثمانية وعشرين ألف من الفرسان الأتراك في هذا المعترك ، وأخيرا عندما تدخلت صفوف الأعداء صلى الفرنجة الى الرب ، واندفعوا الى الأمام ، وفي الحال فإن الرب الحاضر أبدا « القوي القدير في المعارك » حمى أبناءه وأذل الوثنيين ، وبعد ذلك طاردهم الفرنجة لقراءة عشرة أميال من مكان المعركة الى قلعتهم شديدة التحصين ، ولدى رؤية هذا السيل الجارف قام الذين كانوا بالقلعة باحراقها ولأثوا بالفرار ، وأحدثت هذه النتيجة ابتهاجا وغبطة في المعسكر لأننا اعتبرنا أن احراق القلعة نصرا آخر .

وفي الوقت نفسه شب القتال بشكل اعتباطي في كل مكان باتجاه انطاكية ، لأن أعداءنا كانوا يخططون للقيام بالهجوم على محوريين ، أولهما من المحاصرين (من داخل المدينة) والثاني من قوات النجدة التي لم تكن متوقعة ، ولم يحب الرب طرفا على الآخر ، فقد حارب مع الرجالة وهو يبتسم للفرسان ، ذلك أن النصر الذي أحرزه الرجالة لم يكن أقل قدرا من صد الفرسان للنجادات ، وبعدها كسبنا المعركة وفزنا بالغنائم ، حملنا رؤوس القتلى الى المعسكر ، وعلقناها على أعمدة كمذكر بانس لحالة حلفائهم الأتراك ، وما ينتظر المحاصرين من مصائب ، وحين نتأمل الآن ما حدث نستنتج أن ذلك كان أمر الرب ، لأن الأتراك كانوا قد الحقوا بنا العار من قبل ، حينما غرَسوا رأس راية مريم المباركة ، التي استولوا عليها بالأرض ، وهكذا قدر الرب أن رؤية

رؤوس الأصدقاء التي لا حياة فيها ، و المحمولة على القصب ستمتع المدافع عن أنطاكية عن تعبيرنا بعد ذلك .

وكان رسل ملك مصر موجودين لدينا في تلك الاثناء ، وعندما شهدوا ماحدث وراوا المعجزات التي حققها الرب من خلال عبيده ، اثنوا على يسوع بن مريم العذراء ، الذي داس تحت قدمه من خلال الشحانين التعساء ، اعنى الطغاة ، يضاف الى هذا لقد وجدوا بمصادقتهم ومعاملتهم الطيبة ، وتحدثوا عن الأعمال الممتازة الذي يقوم بها ملكهم للمسيحيين المصريين ولحجاجنا ، وبناء عليه قد برسلنا معهم وكلفناهم بالدخول في صلح ودي معهم .

وتزامنت هذه الأحداث مع قرار أمرائنا بتحصين منطقة على التل تشرف على معسكر بوهيموند ، بحيث يمكن فيها احباط أي هجمات معادية محتملة على مخيماتنا ، ولدى اكتمال هذا العمل تمتنت دفاعاتنا حتى اصبحنا مدينة مغلقة من كافة النواحي جاءت محصلة للعمل الجاد وتضاريس الطبيعة ، وهكذا باتت هذه القلعة الجديدة الواقعة الى الشرق منا ، مضاف اليها اسوار انطاكية والمستنقع القريب تحرس معسكرنا ، وتحد من هجمات المحاصرين على المناطق القريبة من الأبواب ، بالإضافة الى ذلك ، كان هناك نهر يتدفق الى الغرب ، كما كان هناك سور قديم يلتوي عند سفح الجبل حتى النهر ، زد على هذا ان خطة تقوية موقع اخر على الجبل الصغير الواقع عند أعلى الجسر التركي قد لاقت قبولا عاما ، غير ان آلات الحصار التي صنعت في المعسكر ثبت انها غير مجدية .

وفي الشهر الخامس ، وببذما كانت سفننا التي تحمل المؤن راسية في الميناء ، بدأ المحاصرون يسدون الطريق الى البحر ويفتكون بقوافل التموين ، وفي أول الأمر كان الاتراك يهددوننا دائما ، وكان السبب الأكبر في ذلك هو عدم رغبة قادتنا بالرد عليهم بأعمال انتقامية ، فجراهم هذا ، ولمواجهة هذه المخاطر ، قررنا أخيرا تحصين المعسكر بالقرب من الجسر ، ونظرا لغياب جزء كبير

من قواتنا في الميناء ، فقد تم اختيار بوهيموند والكونت لتأمين عودة المتغيبيين ، وأيضا لنقل الفؤوس والمساحي والأدوات الأخرى اللازمة لبناء القلعة الجديدة ، وعندما علم المحاصرون بمهمة ريموند وبوهيموند ، بدأوا هجماتهم المعتادة ، فاندفعت نحوهم قواتنا إنما بتهور وبدون نظام ، فكان أن تبعثرت وانهزمت بشكل مشين .

وفي اليوم الرابع ، وعندما كان الكونت وبوهيموند عائدين مع حشد كبير من الميناء ، وهم يخيل اليهم أنهم في أمان من المخاطر ، كان الأتراك يتجسسون عليهم ، ولكن لماذا ذهب في سرد هذه الحكاية ؟ لقد جرى قتال وهربت قواتنا ، وخسرنا حوالي الثلاثمائة رجل ، ولا أحد يعرف كم خسرنا من الأسلاب والأسلحة ، وقيما هم يقتلوننا كالمواشي في الجبال والوعار ، تحركت النجدة القادمة من المخيم للاقاة الأتراك الذين توقفوا عن قتل الفارين ، يا الهي ، يارب لماذا هذه المحن ؟ ان قواتنا داخل المخيم وخارجه التي تتمتع بخدمات أعظم قائدين في جيشك : ريموند وبوهيموند انتصر عليها الأعداء وانهزمت ، هل نفر الى المخيم ، أم يفر حراس المخيم البنا ؟ « قم ايها الرب وساعدنا تمجيذا لاسمك » ، ولو أن أخبار هزيمة الأمراء وصلت الى المعسكر ، أو لو أننا علمنا بهزيمة كتائب الجيش لهربنا هروبا جماعيا ، وفي اللحظة المناسبة ساعدنا الرب ، وبث الشجاعة في قلوب الذين روعهم من قبل ، فجعلهم يتقدمون الى أول صفوف القتال .

وعندما شاهد يغي سبان ، حاكم أنطاكية ، امتعتنا المسلوبة وانتصاره فضلا عن اندفاع قلة من المسيحيين ، بعث بفرسانه ورجاله من المدينة ، ولما كان واثقا من نجاحهم ، أمر بإغلاق ابواب أنطاكية خلفهم ، فكأنه كان يطلب من جنوده ان ينتصروا في القتال أو يهلكوا ، وفي الوقت نفسه تحرك الحجاج ، وفقا للأوامر الصادرة اليهم ، الى الامام تدريجيا ، غير ان الأتراك كانوا يجرون هنا وهناك ويطلقون الذناب ، ويهاجمون رجالنا بكل جراءة ، ولم

توقف هذه الأعمال التركية رجالنا ، ومع أنهم عانوا من تلك التحركات ، فانهم انتظروا الوقت المناسب لشن هجوم كبير وكانت الدموع المنهمرة والصلوات الصاعدة تجعل المرء يعتقد ان رحمة الرب قريبة .

ولدى حضور ساعة المواجهة ركع فارس بروفانسي ، عالي المحتد ، هو ايزوارد أوف جانجيز ، يصحبه مائة وخمسون من المشاة ، وشد العون من الرب ، وشجع رفاقه على الاندفاع قائلا : « اهاجموا ياجنود المسيح » وألقى بنفسه على الأتراك ومع اندفاع قواتنا الى الهجوم تحطمت غطرسة العدو ، وكان الباب مغلقا ، والجسر ضيقا ، والنهر واسعا ، ثم ماذا بعد ؟ لقد سحق الأتراك الخائفون سحقا ، أو قتلوا ، أو حطمتهم الأحجار في النهر ، فلم يكن هناك مهرب ، وكان يمكن لليوم ان يمر بسلام على أنطاكية ، لولا ان يغى سيان فتح الباب على مصراعيه ، ولقد سمعت بنفسى من العديد ممن شارك في هذا اليوم ، أنهم أوقعوا عشرين شخصا أو أكثر من الأتراك في النهر على محاذاة سور الجسر ، وبرز هناك غودفري بشكل كبير ، حيث سد الطريق على الأتراك المتزاحمين للدخول من الباب ، وأرغمهم على الانشطار الى صفين وهم يتسلقون المرتفعات .

وبعد قداس ديني ، سار المنتصرون السعداء الى المخيم ومعهم أسلاب كبيرة وخيول كثيرة ، اه ايها الأخوة النصارى ، يامن تبعتمونا للوفاء ببنركم ، كم كنا نود لو أنكم شهدتم هذا الحدث الجدير بالتنويه ، فلقد أسرع فارس ، وهو خائف من الموت ، بالقاء نفسه في أعماق النهر ، فتلقفه رفاقه الأتراك ، لكن بقي به من على ظهر حصانه وهكذا غرق في النهر مع الطفمة التي تعلقت به ، لقد كان في رؤيتنا للحشود العائدة مكافأة على أهوال ذلك اللقاء ، فراح بعضهم يجرون هنا وهناك بين الخيام على خيول عربية وهم يعرضون على اصدقائهم كنوزهم الجديدة ، وأخذ بعضهم وهم في رداء أو رداءين أو ثلاث من الحرير ، يثنون على الرب ، الذي انعم

عليهم بالنصر والعطايا ، بينما راح آخرون ، وقد تسربلوا بثلاث سباغات أو أربعة ، يعرضون تلك الأسلاب شواهد على انتصارهم ، وفي الوقت الذي كان بإمكانهم اقناعنا بهذه العلامات وغيرها من الأسلاب الأخرى ، بتفوق قدراتهم القتالية ، لم يكن بوسعهم تزويدنا بأي معلومات دقيقة عن عدد القتلى ، لأن إبادة الأتراك تمت ليلا ، وبناء عليه لم تجلب رؤوس قتلى الأعداء إلى المعسكر .

ومع ذلك اكتشفت في اليوم التالي جثث بعض أعدائنا في خندق قريب من أحد المرتفعات استخدمه المسلمون كمقبرة ، وجرى ذلك أثناء محاولتنا إقامة تحصينات أمام جسرهم ، وأثارت رؤية غنائم الأتراك ، رجالنا الفقراء ، فانتهكوا حرمة المقابر ، فنبشوا القبور وأخرجوا جثث الأتراك وهنا تجلى حجم الانتصار ، فلقد كان عدد الموتى قرابة ألف وخمسمائة ، وقد أغفلت ذكر الذين دفنوا بالمدينة ، والذين جرفتهم مياه النهر ، وألقيت الجثث بعد هذا في نهر العاصي حتى لاتعيق الروائح الصادرة عنها والتي لاتطاق العمل في بناء القلعة .

وكان البحارة الذين انهزموا وأصيبوا أثناء هروب الكونت مع بوهيموند ، مابرحوا يعيشون في رعب ويتوجسون حول النتيجة ، غير أنهم مابرحوا يمجدون الرب ، كما لو أن رؤية العدد الكبير من الموتى قد بث فيهم القوة ، فالرب دوما يؤدب أبناءه ويشجعهم ، وهكذا شاء الرب أن صار الأتراك الذين قتلوا جاملين الطعام على طول الساحل وضفاف النهر ، وتركوهم طعمة للوحوش والجوارح ، صاروا هم أنفسهم بدورهم طعاما في ذلك المكان للوحوش نفسها وللجوارح ذاتها .

وبعد تكريس الانتصار وما صاحبه من احتفالات ، واثرا اكتمال العمل في القلعة ، حوصرت انطاكية من الشمال ومن الجنوب ، ثم ثار الجدل حول اختيار أمير يتولى حراسة القلعة الجديدة ، ذلك أن

المسائل الخاصة بالجماعة كانت يوما موضع استخفاف ، لتواكل الجميع واعتقادهم أن آخرين سيقومون بذلك العمل ، وفي الوقت الذي طلب فيه بعض الأمراء الراغبين بالمال اصوات نبلائهم للحصول على الوظيفة ، انتزع الكونت - خلافا لهوى حاشيته - زمام الأمور ، وكان دافعه لذلك من جانب تبرئة ساحته من تهمة التراخي والبخل ، ومن جهة أخرى ليبين منهج الحكمة والقوة للخاملين .

وفي خلال الصيف التالي ، كان ريموند قد اقعده المرض الخطير والطويل ، وبلغ العجز به خلال الشتاء حدا دفع الى القول انه لايميل الى القتال او العطاء ، ومع انه ادى خدمات جلية ، فقد عد شخصا لا أهمية له ، لأن الناس كانوا يعتقدون انه قادر على بذل المزيد من الجهد ، ولقد تحمل عداوة مردها التشكك ، في قوة تمسكه بالمسيحية حتى كاد الحال يقود الى افتراقه عن البرفانسيين ، وفي هذه الاثناء لم يعر الكونت هذه الاهدانات أدنى اهتمام ، ثقة منه في ان الانطاكيين المحاصرين ، وقد انهزم معظمهم سييلونون بالفرار ، بيد انه حدث عكس ماتوقع حيث احاط به الأعداء ذات صباح عند بزوغ الفجر .

وهنا تجلت معجزة كبرى تدل على حماية الرب ، وذلك عندما تمكن ستون من رجالنا من صد هجمة قام بها سبعة الاف من المسلمين ، وأروع من ذلك ان سيلا من الأمطار غمر في اليوم السالف الخندق المحيط بالقلعة وملاه بالماء ، وهكذا لم تكن هنالك عقبة تعيق حركة الأعداء الا ارادة الرب وقوته ، ومع ذلك انني ارى ان ذلك لايعني تجاهل الشجاعة العظيمة لكثير من الفرسان الذين كانوا يتولون حراسة الجسر ، فقد انعزلوا ووجدوا انفسهم عاجزين عن الهرب ، حيث كانت المسافة بينهم وبين قلعتهم مقدار رمية سهم ، فاندفع هؤلاء الفرسان نحو الامام في مواجهة المسلمين في تشكيل دائري نحو طرف بيت قريب ، وهناك واجهوا بكل شجاعة و

اصرار ، الهجوم المحيط بهم و الذي جاء على شكل سحب منهمر من الذشاب و سيل هائل من الصخور.

وجذبت في الوقت نفسه جلبه القتال قواتنا ، وهكذا انقذت القلعة من الذين هاجموها ، وتوقف الأتراك عن اندفاعهم عندما رأوا اقتراب النجدات ، وتم القضاء على النين كانوا في المؤخرة ، مع انهم كانوا على مقربة من جسرهم ، وتم اصلاح خندق القلعة واسوارها مرة أخرى ، بحيث يمكن لحاملي الطعام ان يعودوا بأمان من الميناء ، وهكذا انطفأ الغضب الذي كان قد حاق بالكونت ، وانعكس الى درجة انهم نادوه باسم « ابو جيشنا والمدافع عنه » وذاع في أعقاب هذه الوقائع صيت ريموند لأنه تصدى لهجمات العدو وحيدا ، وبعد سد طريق الجسر وباب الجسر ، صار الأتراك يطلعون من باب آخر يقع في الجنوب بالقرب من النهر ، ومن هناك قادوا خيولهم الى زاوية بين الجبال والنهر كانت مرعى رائعا .

وبعد الاستطلاعات وتحديد الوقت ، دار فريق من رجالنا حول المدينة بعبور جبل وعر ، بينما خاض آخرون في النهر ، وقاد هذا الفريق ألفي حصان بعيدا عن المرعى ، ولم يدخل في هذا العدد البغال واثاث البغال التي استردت ، فجدير بالذكر ان الكثير من ااث البغال كانت قد تعرضت للسرقة في وقت سالف من على الطريق من البحر الى انطاكية ، وذلك على يد الأتراك ، وبعد استرداد هذه الحيوانات أعيدت الآن الى أصحابها بعد التعرف عليها .

وحصن بعد ذلك مباشرة تانكرد ديرا كان يقع على الطريق الآخر من النهر ، ونظرا لأهميته في سد طريق المدينة ، اعطى كونت طولوز الى تانكرد مائة مارك فضي ، كما أسهم الأمراء الآخرون كل حسب امكاناته ، وهكذا يسعدني ان اذكر اننا على الرغم من كوننا اقل عددا من عدونا ، فان نعمة الرب جعلتنا اقوى منه كثيرا ، وفي تلك الأونة كان حملة الأخبار الذين يصلون الينا يبلغون عن تحرك

نجدات للعدو ، وفي الواقع لم تنتشر هذه الأقاويل من عند الأرمن والاغريق فقط ، بل أيضا من المقيمين في انطاكية ، والفت نظركم الى ان الأتراك قد احتلوا انطاكية قبل اربع عشرة سنة، ولعدم وجود خدم فانهم استخدموا الأرمن والاغريق لذلك الغرض ، وزوجوهم من نسايتهم ، ومع هذا كان هؤلاء يميلون الى الفرار الينا بالخيول والأسلحة بمجرد ان يتاح لهم الهرب ، وهرب كثير من الصليبيين الجبناء مع التجار الأرمن عندما انتشرت هذه الشائعات ، ولكن من ناحية أخرى عاد الفرسان الأقوياء من عدة قلاع وجلبوا معهم اسلحتهم بعدما اصلحوها وعدلوا من شأنها ، وعندما اختفى الجبن والتخايل بدرجة كافية ، او بالحري عادت الجراءة ، التي كانت في كل وقت وزمان كفيلة لمواجهة كل الأخطار مع الأخوة ومن اجلهم ، فان احد (الأرمن) من رجال الاتراك المحاصرين وثق بأمرائنا الى حد انه كان سيسلمنا انطاكية .

الفصل السادس

الاستيلاء على أنطاكية

أرسل الأمراء بسوهيموند و غونفري ومعهم أيضا كونت فلاندرز ، عقب اجتماع مشترك للتحقق من هذه العرض ، وعند وصولهم الى احدى تلال أنطاكية في منتصف الليل ، وصل رسول من (الأرمني) رجل الأتراك الخائن ، وأمرهم بقوله له : « لا تتحركوا حتى يمر أمامكم فصبح » .

وكان من المعتاد أن يمر ثلاثة رجال أو أربعة بجذاء شرافات الأسوار وهم يحملون المصابيح وذلك بهدف ايقاظ الحرس وتنبيههم ، وعندما مرت المصابيح ، وضع رجالنا الرابضون في ظلال الأسوار سلما وبدأوا يتسلقون ، واعتلى السور فرنجي يدعى فولغير ، وهو بلا ريب أخو بود يللوس أوف تشارترز ، اعتلاه بلا خوف وتبعه عن كثب كونت فلاندرز الذي أمر بسوهيموند والبوق أن يتبعاه ، وعلى أية حال ، انقطع السلم أثناء تداركهم في الصعود ، إلا أن الذين تمكنوا حقا من الوصول الى أعلى السور نزلوا الى داخل المدينة ، وفتحوا أحد الأبواب بالقوة ، وبخل حملة الصليب بهذه الوسيلة ، وقتلوا كل من صدفوه ، وعذد الفجر صاحوا صيحات مرعبة جدا ، حتى أن المدينة اضطربت كلها وبكى الأطفال والنساء .

وراح بعض المسيحيون في قلعة ريموند القريبة ، وقد أيقظتهم الجلبة ، يرددون: لقد وصلت نجدات الى العسك، ورد عليهم آخرون : « إن أصوات الألم ليست كأصوات الفرح » .

ومع بزوغ الفجر رفرفت اعلامنا فوق التل الجنوبي
لأنطاكية ، وأصاب الهلع أهل أنطاكية لرؤيتهم قواتنا على التل
المشرف على المدينة ، وجعل الرب الفوضى تسبب بين
صفوفهم ، فاندفع بعضهم من الأبواب ، وقفز آخرون من
الأسوار ، ولم يصمد أحد منهم ، ولم يقاتل أيا منهم ، وبعد أشهر
عديدة من الحصار المضني تكشف أمامنا المشهد السعيد
التالي ، إنه مشهد المدافعين عن أنطاكية الذين لم يستطيعوا منذ أمد
الفرار من المدينة ، ولا أن يتجنبوا الآن الموت إذا ما تجرأوا على
الفرار.

وقع لنا هناك حادث ممتع رائع ، وهو أن بعض الأتراك
كانوا ، يحاولون الفرار دون أن يراهم أحد من خلال الفتحات التي
تخلل التلال في الشمال ، وبينما هم يفعلون ذلك لقيتهم مجموعة من
حملة الصليب ، وهنا اضطر الأتراك وقد حبطت خططهم إلى
التراجع. فهمزوا خيولهم بسرعة كبيرة ، الأمر الذي جعلهم يسقطون
جميعا من فوق الهضاب الصخرية ، ولقد كان سقوط الأتراك القاتل
هذا مشهدا سعدنا برؤيته حقا ، بيد أننا حزنا لضياع أكثر من
ثلاثمائة حصان لاقت حتفها هناك.

ولن نقف عند وصف كميات الأسلاب ، فلكم أن تتصوروا أي
شيء يمكن أن يتبارر إلى زهنكم وتحسبوا أكثر منه ، وفي الحقيقة
من غير الممكن لنا تقدير عدد القتلى من الأتراك والمسلمين ، ومن
العبث حكاية القصة بالتفصيل ووصف طرق الموت المختلفة ، وفي
الوقت نفسه كان بعض المدافعين يراقبون من مواقعهم فوق تل
متوسط مقتل رفاقهم وينتظرون توقف القتال ، وعلى كل حال لقد
اختاروا أن يدافعوا عن قلعتهم ، غير أن يفي سيان ، وقع أثناء
هروبه من أحد الأبواب ، في يد بعض الفلاحين الأرمن فقطعوا رأسه
وقدموه لنا بعد ذلك هدية ، واعتقد أن يفي سيان الذي كان قد قطع
رؤوس العديد من الأرمن ، قد قدر له بارادة الرب التي لا توصف أن
يقطع رأسه على أيدي فلاحيه.

لقد سقطت أنطاكية في اليوم الثالث من شهر حزيران ، وكانت هدفا للهجوم منذ حوالي الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول من العام المنصرم ، وأحجمت قواتنا عن مهاجمة القلعة ، بينما راح رجالنا يفحصون الغنائم ويدونون لها سجلا ، وأمعنوا في نسيان الرب مانح جميع هذه النعم ، فأفرطوا بالأكل بنهم شديد وبذخ واهتموا بالراقصات .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، أي في اليوم الخامس من حزيران نفسه ، حاصر المسلمون حملة الصليب ، وهكذا فإن حملة الصليب الذين كانوا قد حاصروا أنطاكية التركية برحمة من الرب وجدوا أنفسهم وقد أحاط بهم الأتراك وفقا لمشيتته ، ومما زاد من خوفنا أن الحصن الكبير ، الذي كان بكل المعايير قلعة حقيقية ، كان بحوزتهم ، وقد وحد صفوفنا الرعب وحاصرنا القلعة ، لكن كربوغا ، مقدم الأتراك ، عسكر بعد وصوله بوقت قصير على بعد قرابة ميلين من أنطاكية ، وذلك اعتقادا منه أن المعركة ستكون خارج المدينة ، ثم تقدم بصفوف منتظمة نحو جسر المدينة ، وفي اليوم الأول دعم رجالنا دفاعات قلعة الكونت ، خشية أن يستولي الذين في القلعة - من الأتراك - على أنطاكية لو خرج المسيحيون إلى القتال ، وشعروا من جانب آخر أنهم إذا ما تخلوا عن قلعة الجسر ، سيستولي العدو عليها وسيسد طريق الخروج إلى القتال ، لأنه كان مسيطرا على مخارج المدينة .

وكان روجر أوف بارنيفيل ، وهو فارس مشهور ومحبوب ، في أحد الأيام يتابع تقهقر الأتراك ، فوقع في أيديهم وقطعوا رأسه ، فاستولى الحزن آنذاك والرعب على رجالنا مما دفع بالكثيرين منهم إلى اليأس من القتال ، غير أنه نزلت بأعدائنا نكستان بالمعارك التي جرت بعد ذلك ، وعلى الرغم من ذلك هاجموا في اليوم الثالث القلعة بشدة وعنف إلى حد أنه بدا أن قدرة الرب هي التي كانت تحميها وتوقف الأعداء ، لأن الأتراك ، أصيبوا لسبب غير معروف - بالهلع الشديد أثناء عبورهم الخندق المليء بالماء

والحيط بالقلعة ولم يتمكنوا من هدم الأسوار ، وبأدروا بالفرار ، وبعدما انسحبوا الى مسافة قصيرة ، رأوا أنه ليس هناك من سبب للفرار غير خوفهم ، ولذلك عاوبوا الهجوم ، وشددوا هجماتهم بعنف كما لو كانوا يريدون محو اثر تراجعهم المشين ، غير أن الرب بث الرعب في قلوبهم مرة أخرى ، وبناء عليه عاد رجال كربوغا الى معسكرهم باليوم نفسه.

وأحرق حملة الصليب القلعة ، وانسحبوا الى داخل أنطاكية ، وذلك بعدما عاد أعداؤهم في اليوم التالي ومعهم معدات ثقيلة ، وزاد رعب الفرنجة وقلقهم ، في حين ارتفعت ثقة الأعداء بأنفسهم حتى عنان السماء ، لأنه لم يعد لدينا أمل خارج المدينة ، في وقت احتفظ فيه أعداؤنا بالقلعة الرئيسية داخل أنطاكية ، ودفعت هذه العوامل المشجعة الأتراك الى التقدم نحونا عن طريق القلعة ، غير أن المسحيين ثقة منهم بمواقفهم الاستراتيجية ، وأراضهم المرتفعة زحفوا ضد الأعداء وهزمهم من أول هجوم ، بيد أنهم غفلوا عن هجوم مضاد وقع عليهم ، وشغلوا أنفسهم بغنائم المعركة ، فنزلت بهم هزيمة مشينة ، وعند واحد من مداخل أنطاكية لاقى أكثر من مائة من المسيحيين حتفهم ومات معهم عدد كبير من الخيول ، ونتيجة لذلك بات الأتراك يحلمون أنهم عند دخولهم الحصن سيقومون بمهاجمة المدينة السفلى.

كان هناك واد صغير يتميز بسهل صغير وعين ماء ، وقد وقع بين جبلنا وقلعتهم ، ولذلك بذل الأتراك كل جهودهم لاكتساحنا وطردنا من طريقهم ، لأن النزول الى أنطاكية لم يكن ممكنا إلا عن طريق جبلنا ، واستمر القتال عنيفا وشديدا طوال النهار من الصباح الى المساء بشكل لم يسمع بمثله من قبل ، وفي غمار وابل النشاب والصخور التي انهالت ، وتحطت قعقعة السلاح التي لم تتوقف ، وبعد مقتل أعداد كبيرة من المحاربين ذهب قواتنا في

- ٢٦٢٠ -

سبات نوم عميق ، وكانت هذه بدون شك محنة رهيبية وغير عادية بالنسبة لنا ، وإذا أردت أن تعرف السبب ، لقد توقف القتال ليلاً .

وعند صلاة العتمة ، وقت الثقة برحمة الرب ، فقد الكثيرون الأمل ، وربطوا أنفسهم بحبال ودلوها من أعالي الأسوار ، وفي المدينة نشر الجنود العائدون من القتال إشاعة فيها إن قتلًا جماعيًا ينتظر المدافعين ، ومما زاد الرعب أنهم لأنوا بالفرار هم أيضًا على الرغم من حث بعضهم المترددين على الصمود ، ومع ذلك فإن رحمة الرب - كما قلنا - كانت حاضرة ، حتى والمسيحيين في محنة ويأس ، فكان جزاء الرب للداعين له من أبنائه مواساة لهم في المصائب .

الفصل السابع

حصار كربوفا لأنطاكية والعثور على الحربة المقدسة

هنا يبدأ العثور على الحربة المقدسة :

أظهر الرب قدرته واحسانه في أعقاب الاستيلاء على أنطاكية ، بأن اختار فلاحا بروفانسيا ليقوم بتعزيزتنا ويسلم الرسالة التالية الى كل من ريموند وأهمر:

« لقد أنذرني القديس أندروز ، مبعوث الرب وسيدنا يسوع المسيح منذ زمن في أربع مناسبات ، وأمرني أن أبلغكم ، وأن أعيد اليكم - عند سقوط أنطاكية - الحربة التي اختبرتم جنب مخلصنا ، وعندما انطلقت اليوم مع آخرين للقتال خارج أسوار المدينة ، وقعت في يد اثنين من الفرسان ، وكنت أسحق في أثناء انسحابي ، فدفعت الى صخرة فاطر الهمة مفتما ، وعندئذ تجلى لي القديس أندروز ورفيق له ، وحذراني - وأنا مذنب تعس ما زال أترنح من العذاب والخوف - من مزيد من الهموم إذا لم أسارع الى تسليمكم الحربة .

وعندما طالبه الكونت والأسقف بتفاصيل عن طبيعة ما تكشف له وعن تعليمات القديس أندروز رد البروفانسي بقوله: « أثناء الحصار الفرنجي لأنطاكية أيام الهزة الأرضية الأولى ، استبدني الخوف ، ولم أعد أتفوه إلا بقولي : « أنقذني يارب » وكنت وحدي مستلقيا على الفراش في كوخ ، دون أصدقاء يبيتون الطمأنينة في قلبي ، وكان الظلام مخيما ، وكما قلت استمرت الصدمات لوقت طويل مما زاد في قلقي ، وفي تلك اللحظة ظهر لي رجلان في ملابس

زاهية ، كان لأكبرهما شعرٌ أحمر يتخلله البياض ، ولحية بيضاء كثة عريضة ، وعينان سوداوتان ، ومظهر لطيف ، وكان متوسط القامة ، وكان رفيقه أطول منه « وأبهى هيئة من أبناء البشر » وسألني الرجل الأكبر : « ماذا تفعل ؟ » وكنت وحيدا ، وقد شعرت بالرعب ، فقلت بصوت مرتعش : « من أنت ؟ » فقال : « قم ولا تخف واستمع الي ، إنني أندروز الرسول ، بادر الي تأمين لقاء مع اسقف لي بوي وكونت صنجيل وبطرس ريموند من هـوت بول ، وأسألهم : لماذا لا يعظ أدهمر بالكلمة ، ويحث الناس ويباركهم بالصليب الذي يحمله كل يوم ، فهذا سيكون فيه بركة عظيمة لهم بكل تأكيد » ثم أمرني قائلا : « اتبعني وسأكشف لك عن مكان حربة مخلصنا التي يجب أن تعطيتها للكونت ، لأن الرب قد جعلها له عند مولده » .

فغادرت فراشي وأنا في رداء نومي فقط ، وتبعته الى داخل انطاكية حيث كنيسة الرسول بطرس المبارك عن طريق الباب الشمالي ، والذي كان المسلمون قد بنوا أمامه مسجدا ، وكان هناك مصباحان يضيئان مدخل الكنيسة كما لو كنا في رابعة النهار ، ثم إن أندروز أمرني بقوله : « ابق هنا » ثم أمرني أن أقف بجوار العمود الذي كان قريبا من الدرجات الجنوبية المؤدية الى الهيكل ، وبينما بقي رفيقه على مسافة خطوات من درجات الهيكل ، مد القديس أندروز يده الى جوف الأرض وسحب الحربة ووضعها بين يدي ثم توجه القديس أندروز بحديثه الي قائلا : « أنظر الى الحربة التي اخترقت جنب المسيح ، الذي كان السبب في خلاص العالم » وفي الوقت الذي جرت فيه دموع الفرح على وجنتي ، أمسكت بالحربة ، و خاطبت القديس أندروز وأنا أجهش بالبكاء : إذا كنت تود ذلك ، فأنتني سأخذها من الكنيسة و سأضعها بين يدي الكونت .

وأجابني القديس أندروز : انتظر حتى ما بعد الاستيلاء على انطاكية ، ثم عد وبرفقتك اثني عشر رجلا ، وابحث عن الحربة في المكان عينه الذي كشفت لك عنها فيه ، فسأخفيها الآن » ثم دفنها في

الموضع ذاته ، وقادني بعد هذه التجليات من فوق أسوار المدينة إلى
كوخي ، ثم اختفى بعد ذلك »

و بكلمة موجزة إنني بعدما تأملت في حالتي الرثة و عظمتك لم
أجرؤ على القدوم اليك ، و بعد ذلك رحلت إلى قلعة قريبة من الرها
بحثا عن الطعام و بعد هذا أتاني القديس أندروز في الهيئة نفسها
ومعه رفيقه نفسه ، وكان ذلك في فجر اليوم الأول من الصوم الكبير
عند صياح الديكة ، وسألني ، وكان قد غمر البيت نور عظيم: هل
أنت نائم؟ ونبهتني كلماته فأجبت: « لا ياسيدي ومولاي أنا
مستيقظ » ثم سألني: « هل أبلغت رسالتني الأخيرة؟ » فأجبت: «
» سيدي - ألم أتوسل اليك أن ترسل شخصا أكثر جدارة مني
اليهم ، لأنني خشيت من حالتي الرثة ، فم أجرؤ على المشول بين
أيديهم »

فسألني مرة أخرى: « الا تعرف السبب الذي من أجله قادك الرب
الى هذا المكان وبواقع حبه العظيم لك ، واهتمامه الخاص
باختيارك؟ لقد طلبك هنا لكي يسوغ اعتباره لمن يختارهم ، إن حبه
لك كبير جدا الى درجة أن القديسين يرقدون الآن بسلام ، وهم
مدركون لنعمة الرغبة الربانية ، ويودون لو عادوا لحمًا
ودما ، وقاتلوا الى جانبك ، لقد اختارك الرب من بين جميع
الناس ، كما تجمع حبوب القمح من بين الشوفان ، لأنك تقف فوق
كل من جاءوا من قبلك ، أو من سيأتون بعدك ، بجدارتك
وبركتك ، مثلما يفوق ثمن الذهب ثمن الفضة».

« وبعد رحيلهما وقعت فريسة لمرض هدد بصري ، حتى انني
بدأت أتخلص من مواردني المحدودة ، عندما استنتجت فجأة أن هذه
الأمراض داهمتني لعصيانني أوامر الرسول ، وهكذا عانت
الطمأنينة الي ، فعدت الى الحصار ، وفكرت مرة أخرى بحالتي
الرثة ، فلم أقل شيئا لأنني خشيت أني إذا ما أبلغتكم أن تصرخوا
أنني رجل يتضور جوعا جئتكم بهذه الاقصوصة من أجل أن احصل

على الطعام ، وبعد امد قصير كنت استريح مع مولاي وليم بطرس في خيمة في ميناء السويدية عشية أحد السعف ، عندما تجلى لي أندوروز المبارك في هيئته السالفة نفسها و معه رفيقه السالف الذكر ، وقال لي : لماذا لم تسلم رسالتني الى ريموند وأدهم ؟ فأجبت قائلا : يا سيدي ألم اتوسل اليك أن تبعث بـديلا أنبه مني ، يولونه اعتبارهم ، كما يجب أن تعرف أن الأتراك يقتلون كل شخص يسلك الطريق الى انطاكية .

وهنا رد القديس أندوروز : لا تخف ، فلن يؤذيك الأتراك ، ولكن ابلغ الكونت ألا يغطس في نهر الأردن عند وصوله ، بل عليه أن يجدف عبر النهر أولا في قارب ، وعندما يصل الى الطرف الآخر ، يرش على جسده الماء وهو مرتد قميصا وسراويل من الكتان ، وبعد ذلك عليه أن يحفظ ملابسه المجففة مع الحربة المقدسة ، ويمكن لمولاي وليم بطرس أن يشهد على صحة هذا الحديث مع أنه لم ير القديس أندوروز .

فأطمأنت نفسي وعنت الى القوات المحاصرة لأنطاكية ، لكنني لم استطع أن أجمعكم حسبما رغبت ، وهكذا ذهبت إلى مرسى المصيصة ، وبينما أنا هناك أنتظر - وقد نفذ صبري - لأبحر الى قبرص طلبا للمؤونة ، واجهني القديس أندوروز بتهديدات شديدة إذا أنا لم أعد الى انطاكية ، وأملي عليك تعليماته ، وأنداك بدأت وأنا افكر بطريق السفر الذي سيستغرق ثلاثة أيام من المصيصة الى معسكر الحجاج ، بدأت أبكي بشكل مجنون ، لأنني أدركت استحالة ذلك ، وفي النهاية ، وبناء على الحاح مولاي ورفاقي أبحرنا وجدفنا طيلة يوم واحد والرياح تساعدنا حتى غروب الشمس عندها هبت فجأة عاصفة وأعادتنا خلال ساعة أو ساعتين الى المصيصة ، وبعد هذا حيل بيننا وبين المضي الى قبرص ثلاث مرات ، ولهذا عدنا الى ميناء السويدية وهناك مرضت مرضا شديدا ، إنما بعد الاستيلاء على انطاكية قدمت اليكم ، وهانذا أقدم اليكم الآن شهادتي لتقبلوها .

وعد الاسقف هذه الحكاية مختنعة ، غير أن الكونت صندوقها
بالحال ، ووضع بطرس بارثلميو في عهدة راهبه ريمون (مؤرخنا).

وفي الليلة الثانية تجلى مولانا يسوع المسيح الى كاهن اسمه
ستيفن ، كان يبكي وهو ينتظر الموت لنفسه ولرفاقه ، وقد تملكه
رعب شديد عندما أبلغه بعض الفارين من القتال عند القلعة بنزول
الأتراك من الجبل و فرار الحجاج و انسحابهم بغير نظام ، وقبل
دنو موته ، دخل ستيفن كنيسة مريم المباركة ، وذلك رغبة منه أن
يشهد الرب عليه ، وهناك اعترف ونال الغفران لذنوبه ، وشرع
يرتل التراتيل مع أصدقائه ، وظل طوال الليل يصلي بينما نام
الآخرون ، ويردد: « يا مولاي من سيعيش في بيتك ، من سيجد
الراحة على جبل المقدس؟ » وفي هذه الساعة ظهر له رجل وسيم
ليس كهينة البشر ، وتوجه بالسؤال الى ستيفن قائلا: من دخل
أنطاكية؟ فرد ستيفن: المسيحيون ، فسأله الرجل: بم يؤمن هؤلاء
المسيحيون؟ وأجابه الكاهن: إنهم يؤمنون أن المسيح قد ولد من
العذراء مريم ، وتحمل الآلام على الصليب ، ومات ودفن ، ثم قام
من القبر في اليوم الثالث ، وصعد الى السماء ، فسأله الرجل: إذا
كانوا مسيحيين ، لماذا يخافون من جموع الوثنيين؟ ثم تسابع
يقول: ألا تعرفني ؟

فأجابه الكاهن ستيفن : أنا لا أعرفك ، غير أنك تبدو لي بالغ
الجلالة ، و هنا قال له الرجل: « انتبه إلي وحدق بي جيدا » وعندما
راقبه ستيفن وتمعن به عن كثب ، رأى فوق رأسه هالة تظهر
تدرجيا على شكل صليب يخطف نوره الأبصار أكثر من نور
الشمس ، وهنا أجاب الكاهن الرجل الذي كان يسأله : مولاي ،
إننا نسمي الصور التي تشبهك في مظهرها صور يسوع المسيح ،
ورد عليه السيد قائلا : لقد نطقت بعين الصواب ، فأنا يسوع
المسيح ، ليس مكتوبا أنني السيد القوي القادر في المعارك ، هل لي
أن أسألك : من هو مقدمك ؟ وأجابه ستيفن : مولاي : ليس لدينا
مقدم واحد ، ولكننا نثق بأدهم أكثر مما نثق بالآخرين :

وامرني المسيح بقوله : ابلغ الاسقف إن هؤلاء الناس قد
أبعدوني عنهم بسبب أعمالهم الشريرة ، ولهذا ينبغي أن يقودهم
- ابتعدوا عن الخطيئة فسأعود إليكم - وفيما بعد عندما سيذهبون
إلى القتال ليقولوا : لقد تجمع أعداؤنا وتباهاوا بقوتهم ، فدمر يارب
قوتهم ، واهزمهم حتى يعرفوك ، ياربنا حارب معنا وحدنا ، وزاد
هذه التعليمات : ستكون رحمتي معكم لو اتبعتكم أوامري لمدة خمسة
أيام .

وفيما هو يتكلم اقتربت امرأة - هي مريم أم يسوع
المسيح - وقد أحاطت بوجهها هالة باهرة ، ونظرت نحو السيد
وسألته : ما الذي تقوله لهذا الرجل ؟ ورد المسيح على مريم : لقد
سألتك عن الناس الذين هم في أنطاكية ، فقالت السيدة : أه
يامولاي ، إنهم مسيحيون حقا ، هم دوما في صلواتي إليك .

وعندما أيقظ الكاهن رفيقه النائم على مقربة منه ليشهد الرؤيا ،
اختفى المسيح ومريم من أمامه ، وفي الصباح التالي : صعد ستيفن
البل المواجه للبرج التركي ، حيث كان أمراؤنا ينتظرون ، باستثناء
غودفري ، الذي كان يحرس حصن الجبل الشمالي ، وأبلغهم
ستيفن في اجتماع عقدوه بفحوى رؤياه الموصوفة ، وأقسم بالصليب
على صحتها ، ثم أعرب أخيرا عن استعداده لاختراق النار ، أو
القاء نفسه من فوق برج إذا اقتضى الأمر ، لا قناع الذين يرتابون
بصدقه .

وإزاء هذه الوقائع اعتقدت الحشود أن الأمراء كان يودهم الآن
الفرار إلى الميناء ، وأنه فقط قلة من ذوي الايمان الراسخ ، لم تكن
تفكر بالفرار أثناء الليلة المنصرمة ، وأقسم الأمراء أنهم لن يفروا ،
ولن يتخلوا عن أنطاكية إلا بناء على قرار جماعي مشترك ، وهكذا
أطمأن الكثيرون ، وحتى ذلك الحين إن إغلاق أبواب أنطاكية بناء
على أوامر بوهيموند وأدهمر ، حالت دون الجلاء الكامل عن
المدينة ، وعلى الرغم من جميع الاحتياطات هرب وليم أوف غراند

مسنيل مسع اخيه وعدد كبير من رجال الدين والعوام ، غير ان
الكثيرين ممن هربوا من المدينة معرضين انفسهم لمخاطر شديدة ،
واجهوا مخاطر اعظم هددتهم بالموت ، وهو ماصدر عن رجال
كربوغا .

وانتشرت قصص التجليات والرؤى التي كانت تظهر لرفاقنا ،
ورايانا نحن إحدى العجائب في السماء ، فقد راينا نجما كبيرا معلقا
وقف فوق انطاكية لبرهة من الوقت ، ثم مالبت ان تفتت إلى ثلاثة
اجزاء وسقط داخل المعسكر التركي ، وتشجع الحجاج بعض الشيء
وترقبوا بلهفة حلول اليوم الخامس الذي أعلن عنه الكاهن ، وفي ذلك
اليوم حمل اثنا عشر رجلا ومعهم بطرس بارتلميو الأدوات اللازمة ،
وبدأوا يحفرون في كنيسة بطرس المبارك ، بعد ان ابعادوا جميع
المسيحيين الآخرين ، وكان من بين الاثني عشر أسقف اورانج
وريمون دي جيل كاتب هذه السطور ، وريموند صنجيل ، وبونز
اوف بالازون وفارالد اوف ثوارن.

وظللنا نحفر حتى المساء ، ويدس بعضنا من إخراج الحربة من
باطن الأرض ، وفي تلك الأثناء ، وبعدما ذهب الكونت إلى حراسة
القلعة ، اقنعنا عمالا جدد بأن يحلوا محل الحفارين الذين تعبوا ،
وحفروا بكل جد وشدة ، غير أن بطرس بارتلميو الممتلىء شيبا ،
تجرد عندما رأى الاجهاد وقد أخذ من رجالنا كل مأخذ ، ووضع
جانبا ثيابه الخارجية ، ونزل إلى الحفرة حافي القدمين وليس عليه
إلا قميص ، ثم توسل إلينا أن نصلي للرب ليعيد حربه إلى
الحجاج ، لي جلب لشعبه القوة والنصر ، وأخيرا ، أظهر الرب لنا
برحمته المباركة حربه ، وقبلت أنا ريمون مؤلف هذا الكتاب سن
الحربة عندما برز من الأرض ، ومن غير الممكن لي وصف السعادة
والابتهاج اللذان غمرا انطاكية ، لكن يمكن لي انؤكد ان الحربة قد
اكتشفت في اليوم الثامن عشر قبل اليوم الأول من تموز .

ووقف في الليلة التالية أندروز المبارك أمام الشباب الذي كشف عز

الحربة وقال له : انتبه قد اعطى الرب الحربة للكونت ، وحقا اقول :
إنه قد حفظها له وحده عبر العصور ، كما وجعله قائدا للحجاج
شريطة أن يكرس نفسه للرب ، وعندما طلب بطرس بارثلميو الرحمة
للمسيحيين أجابه أندروز المبارك : حقا إن الرب سيكون رحيما
بشعبه .

ومرة أخرى سأل بطرس زائره الليلي عن اسم رفيقه : من كان
الشخص الذي رأيته يصاحبك بشكل متكرر ؟ فرد عليه أندروز
المبارك بقوله : اقترب وقبل قدمه ، فاقترب البروفاذس ، فرأى مابدا
له جرح حديث ودم في قدمه ، فتراجع بسبب ذلك المنظر الدموي ،
وهنا أمره أندروز المبارك قائلا : انظر إلى الرب الذي سمر على
الصليب من أجلنا ، وتحمل منذ ذلك الوقت هذا الجرح ، فضلا عن
ذلك إن الرب يأمرك بالاحتفال بتاريخ اكتشاف حربته ، في ثامن أيام
العيد من الأسبوع المقبل ، لأن استخراج الحربة وقت صلاة العتمة
يمنع الاحتفال في ذلك اليوم ، وبعد هذا إنك ستحتفل كل عام بيوم
اكتشاف الحربة ، ثم أبلغ المسيحيين أن يكبحوا جماح أنفسهم
حسبما تعلمهم رسالة أخي بطرس (كانت تلك الرسالة تعلم :
تواضعوا تحت يد الرب القوية) كما أن الكهنة سيرتلون كل يوم
بالترتيلة التالية :

وعندما يصلون إلى قولهم :

عليهم أن يجثوا على ركبهم وينحنون مختتمين الترتيلة .

وفيما بعد عندما استفسرت أنا واسقف أورانج من بارثلميو عما
إذا كان يعرف خدمة القداس الكنائسي ، فإنه إحساسا منه بأن
الاجابة بالايجاب لن تقابل بالتصديق اجاب : أنا لا اعرف ، ومع أنه

- ٢٦٢٩ -

كان يعرف بعض الطقوس كان حينئذ مرتبكا جدا إلى درجة انه لم يتذكر القداس الكنائسي او ينكر بالمرّة ماتعلمه منه باستثناء :

ونسي كل ماسوى ذلك ، ولم يتذكر فيما بعد إلا عدة كلمات بصعوبة .

الفصل الثامن

هزيمة كربوغا

في تلك الأيام عز الطعام وأصبح نادرا جدا ، حتى بيع رأس الحصان بدون لسان بإثنين أو ثلاثة صولدي ، وأمعاء الماعز بخمسة صولدي ، والدجاجة بثمانية صولدي أو تسعة ، وما الذي يمكن أن أقوله عن الخبز عندما يأكل المرء ما قيمته خمسة صولدي ويستمر جائعا ، أما الأغنياء الذين يملكون الذهب والفضة والملابس ، فلم يكن غريبا عليهم ، أو حتى مرهقا لهم دفع التكاليف الباهظة ، وهكذا ارتفعت الأسعار وزادت لأن ضمامن الفرسان الشريرة كانت تفتقر إلى الشجاعة المسيحية ، لقد كانوا يجمعون التين الفج ويطهونه ثم يبيعونه ويسلقون جلود الماشية والخيول والنفايات الصالحة للأكل ويبيعونها بأسعار مرتفعة جدا ، حتى أن أي إنسان كان يمكنه أن يأكل أي كمية تكلفه صولدين ، بيد أن أغلب الفرسان ، الذين يرجون رحمة الرب ، رفضوا أن يذبحوا خيولهم ، وتحملوا بدمانهم .

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه البلايا وغيرها مما لا يستطاع ذكره لما فيه من بؤس ، تقض مضاجع المسيحيين ، لجأ بعض رجالنا إلى الخيانة ، فأبلغوا الأتراك بحالة البؤس التي تعيش فيها أنطاكية ، فزادوا بذلك من همومنا وضاعفوها ، وشجعت هذه الأخبار الأتراك ودفعتهم إلى القيام بأعمال جريئة جعلتنا عرضة لتهديداتهم ، ووقع أحدها في ظهيرة أحد الأيام ، عندما اعتلى ثلاثون منهم أحد أبراجنا ، وأوجدوا لبعض الوقت حالة شديدة من الذعر ، غير أن قواتنا التي تعرضت للمخاطر ، قاتلت بتأييد من الرب ، فقتل رجالنا بعض الأعداء ، ودفعوا بالآخرين بعيدا عن الشرافات ، ووعد في ذلك

الوقت جميع حملة الصليب باتباع أوامر بوهيموند لمدة خمسة عشر يوما بعد القتال ، بحيث يمكنه أن يتدبر أمر حماية أنطاكية ، ويضع خطط القتال ، وكان سبب هذا القرار هو التهديد التركي ، ومريض الكونت ريموند وادهمر ، وفرار ستيفن أوف بلوا ، وأذكركم : إن ستيفن قد فر على الرغم من اختياره قائدا مسيحيا قبل سقوط أنطاكية - نتيجة للأقاويل بقرب وقوع المعركة ، وكما حكينا ، جاءت معونة السماء الى مسيحيينا المرعوبين والمثقلين بالهموم والأحزان ، عن طريق بطرس بارتلميو ، الذي اكتشف الحربة ، وكان يسدي إلينا بالنصح حول الذي علينا فعله قبل المعركة وفي أثنائها ، فلقد أخبرنا أن المبارك أندروز قد قال : إن الجميع قد حاق بهم غضب الرب كثيرا ، فوقع عليهم العذاب ، أما أنت فقد صليت إلى الرب واستمع الرب إليك ، والآن فليهجر كل منهم الأثام وليتوجه إلى الرب ، وليقدم خمس صدقات ، بسبب جروح الرب الخمسة ، وإذا عجز عن ذلك فليردد ابــــــــــــنا

Pater Noster خمس مرات ، وبعد اكتمال تنفيذ هذه الأوامر ، ابدأوا المعركة باسم الرب ، ولتبدأ نهارا أو ليلا ، وفقا لخطط القتال التي وضعها الأمراء ، لأن يد الرب ستكون معكم ، ومع هذا إذا ما ارتاب واحد في نتيجة المعركة ، فلتفتحوا الأبواب و تدعوها تجري إلى الأتراك حيث سيحميهم «الله» ، و أكثر من هذا ، ليكن أي متخايل لا يقدم على القتال مع يهوذا خائن يسوع المسيح ، الذي تخلى عن الرسل وباع المسيح لليهود ، و بالصدق أجعلهم يتقدمون الى المعركة ، بايمان بطرس المبارك ، متمسكين بوعد المسيح له عند قيامه وظهوره في اليوم الثالث ، دعهم يتقدمون الى القتال ، لأن هذه الأرض ليست أرضا وثنية ، بل تدخل في اختصاص القديس بطرس ، و ليكن شعار التجمع بينكم « ساعدنا أيها الرب » و لسوف يساعدكم الرب فعلا ، و سيقا تل معكم كل رفاق رحلتكم الذين ماتوا بقوة الرب ، تحت قيادته ضد تسعة أعشار الأعداء ، بينما تقاتلون أنتم العشر الباقي ، بادروا الى القتال حتى لا يقود الرب عددا مساويا من الأتراك ضدكم ،

ويحاصر انطاكية حتى ياكل بعضكم بعضا ، كونوا على اطمئنان ان الايام التي تنبأ بها المسيح لمريم ولرسله قد جاءت ، انها الايام التي سيطيح بها بمملكة الوثنيين وسيسحقها تحت قدميه ، ويرفع فيها الامارة المسيحية ، انما عليكم الانتصروا الى خيام العدو طلبا للذهب والفضة .

ثم تجلت يد القدرة الربانية ، فالذي امرنا بالاوامر السالفة اعلنها لنا عن طريق القديس اندروز ، مما شجع القلوب وشحنها بالايمان والامال ، الى حد ان كل مسيحي شعر انه قد احرز نصرا ، فعانت الى الجميع حماستهم الى القتال عندما راحوا يشجعون بعضهم بعضا ، واصبحت الجموع ، التي كان الخوف والفقر قد اصابها بالشلل منذ عدة ايام فقط ، تسأل عن اسباب تأخير المعركة وتتهجم على الامراء ، وبناء عليه حدد الزعماء تاريخ المعركة ، ثم ارسلوا بطرس الناسك الى كربوفا حاكم الموصل ، ومعه اوامر بان يتخلى عن حصار انطاكية ، لانها كانت تدخل في نطاق مسؤولية القديس بطرس والمسيحيين ، غير ان كربوفا المتغطرس اجاب انه سواء اكان على حق ام على باطل ، يرغب في ان يصبح سيديا على المدينة وعلى المسيحيين الفرنجة ، وارغم بطرس الناسك على الركوع امامه.

وفي تلك الاثناء برزت مسألة اختيار بعض القوات لحراسة انطاكية من هجمات القوات التي في القلعة ، في حين تخرج قوات اخرى الى ميدان القتال ، ولهذا تمت اقامة سور حجري وتحصينات فوق تل يواجه العدو ، وقويت هذه التحصينات بالصخور وجعلوا عليها حامية بها ريموند كونت طولوز ، وكان مصابا بمرض خطير ، وترك معه مائتين من الرجال ، وجاء اليوم المحدد للمعركة ، وتناول الجميع القربان الرباني في ذلك الصباح ، وخضعوا لارادة الرب ، وحتى للموت اذا اراد ذلك ، ولشرف الكنيسة الرومانية ولجنس الفرنجة .

وتم تنظيم المعركة على اساس رتلين مزدوجين من البروفانسيين من قوات ريموند وادهمر مع رجالة في المقدمة ، يهاجمون او يتوقفون وفقا لاوامر قادتهم ، ثم يليهم في الساقة الفرسان ، وسارت قوات بوهيموند بهذا الاسلوب القتالي نفسه ، وكذلك قوات تانكرد وكونت نورماندي ، والفرنجة والدوق والبرغنديين ، واندفع المنادون في انطاكية يحثون كل رجل على القتال مع قائده ، وكان نظام الزحف حسبما يلي : هيو العظيم ، كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي اولا ، ثم الدوق والاسقف ، واخيرا بوهيموند ، وبهذه الطريقة وقفوا في صفوفهم دون المدينة وامام باب الجسر .

اه كم هي مباركة هذه الامة التي يكون سيدها هو الرب ، والشعب الذي اختاره لميراثه ، ولكم تغير مظهر هذا الجيش ، من حالة الكسل والتراخي الى النشاط والمعركة ، فقبل ايام عدة كان القادة والنبلاء يسيرون في شوارع انطاكية يسألون الرب العون ، وكان العامة يسيرون في المدينة حفاة ، وهم يصرخون ويضربون صدورهم ويلطمونها ، وكان قد بلغ من بؤس المسيحيين وشقائهم ان الاب وابنه والاخ واخاه ، لم يكونوا يتبادلون التحية والنظرات ، وهم يمرون في الشوارع ، ومع التبديل المفاجيء في الروح ، صار المرء يرى المسيحيين يخرجون كخيول نشطة ، ويقعقعون بأسلحتهم ، ويلوحون برماحهم ، ويحتفلون بكل صخب بالكلام والسلوك ، ولكن لماذا نؤخر اكمال حكاية هذه القصة ؟ يكفي القول : ان الرغبة في القتال باتت الان امرا مفروغا منه ، وكانت خطط القادة تنفذ.

وفي الوقت نفسه ، وبينما كان كربوغا يلعب الشطرنج في خيمته تواتر وصول الاخبار اليه بأن الفرنجة كانوا خارجين الى القتال ، فاضطربت نفسه لهذا التحرك غير المتوقع ، فاستدعى مجير الدين وهو لاجيء تركي من انطاكية ، وشجاع مقدم معروف ، وسأله : مالذي يحدث ، ألم تخبرني ان المسيحيين الاقل عددا منا لن يقاتلوا ابدا ، لان عدد الفرنجة كان ضئيلا ؟! ورد مجير الدين على سؤاله هذا قائلا : لا ياسيدي اني لم ابلغك بشيء من هذا القبيل ، لكن تعال

معي فلاسوف اراقبهم ، ومن ثم انصح لك وابين كيف يمكنك ان تتغلب عليهم بيسر وسهولة .

وعندما تقدم الصف الثالث من حجاجنا ، استطلع مجير الدين صفوفنا ثم ابلغ كربوغا : ان المسيحيين سيموتون قبل ان يفروا ، وسأله كربوغا بدوره : الا يمكن دفع بعض المسيحيين الى الوراة قليلا ؟ ورد مجير الدين : لو اندفع العالم كله ضدهم ما ترحزحوا قيد انملة .

وعلى الرغم من خوف كربوغا فانه صف جيشه الكبير ووضعه في وضع قتالي ، واذن لحملة الصليب بالخروج من انطاكية لونها مضايقات ، مع انه كان يستطيع سد الطريق بوجههم ، ونقلت قواتنا على الفور خطوطها القتالية نحو الجبال التي كانت على بعد ميلين كاملين من الجسر ، وذلك خشية منها ان تتعرض لحركة التفاف من الخلف ، ثم تقدمنا في موكب يشبه تماما رجال الدين ، ولاغرو انه كان موكب حقا : سار الكهنة والكثير من الرهبان وهم يرتدون القمصان البيضاء امام صفوف فرساننا ، وهم يرتلون وينشدون العون من الرب مع حماية القديسين ، وعلى الرغم من ذلك هاجمنا الاتراك واطلقوا علينا نوابهم ، واقترح كربوغا الذي لم يعد بإمكانه تجاهل الزحف المسيحي اقترح على قانتنا ان يقاتل خمسة او عشرة من الاتراك العدد نفسه من الفرنجة ، مقابل ان يغادر الجيش الذي انهزم ممثلوه من الفرسان ميدان المعركة بسلام ، واجاب رجالنا : لقد رفضت ذلك عندما اردناه ، والان بما اننا على استعداد للقتال فليقاتل كل اذسان في سبيل حقوقه .

وكما ذكرنا من قبل ، كنا مصطفىين على السهل عندما هاجمت كتيبة من الاتراك ، كانت قد جاءت من خلفنا ، فرقة من الرجالة ، انعطفت وقابلت الهجوم بكل شجاعة ، وعندما عجزت قوات الاعداء عن القضاء على الرجالة اشعلوا نارا حولهم حتى تحصد النيران من

لايخشى السيف ، ولان الاعشاب كانت جافة تماما فقد جرى انسحاب اجباري .

ووقف مع جيشنا خارج انطاكية الكهنة حفاة يرتدون الملابس الكهنوتية ، وقفوا فوق الاسوار يبتهلون الى الرب ان يحمي شعبه وان ينصر الفرنجة نصرا يأتي ليلا على العهد الذي عمده بدمه ، ولدى زحفنا من الجسر الى الجبل قاتلنا قتالا شديدا لاحاطة الاتراك بنا ، وفي تلك الاثناء ، اندفع الاعداء مهاجمين الذين كانوا منا في صفوف ادهم ، وعلى الرغم من تفوقهم العددي فإنهم عجزوا عن جرح اي واحد من رجالنا لانهم لم يتمكنوا من تسديد نشابهم نحونا ، ولاشك ان مرد ذلك الى الحماية المقدسة لنا ، فقد كنت شاهدا على هذه الحوادث ، كما كنت حاملا للحربة المقدسة ، واكثر من ذلك لئن كانت الاشاعة قد تردت ان هرقل حامل راية الاسقف قد اصيب اثناء القتال ، ليكن معروفا انه اعطى رايته الى شخص اخر ، ووقف بعيدا عن صفوفنا .

ولما اصبح جميع رجالنا خارج انطاكية ، شكل قانتنا ، كما سلف بنا الذكر ، ثمانية صفوف ، لكن مالبث ان ظهرت بين صفوفنا خمسة اخرى ، فصار عدد الصفوف بذلك ثلاثة عشر صففا ، ثم انني لن افوت الحديث على الحدث التالي ، ولانه جدير بالتنويه لن امر به مرور الكرام : لقد انزل الرب على المسيحيين الزاحفين نحو القتال مطرا خفيفا ، فابتهجوا لسقوطه ، وكانت قطرات هذا المطر تجلب لمن تمسهم قوة وخفة ورشاقة حتى انهم صاروا يحتقرون العدو ، ولقد هاجموه كما لو كانوا قد دربوا على الطريقة الملكية وتربوا ، وكان لهذا الرزاز من المطر تأثيرا على خيولنا لا يقل اعجازا ، ودليل ذلك انني اسأل : اي حصان انهار قبل القتال ، على الرغم من انه لم يكن قد اكل غير لحاء الشجر واوراقه لمدة ثمانية ايام ؟ ولان الرب قد اضاف جنودا الى جيشنا فقد تفوقنا عدديا على الاتراك ، مع اننا كنا قبل ذلك نبدو اقل عددا .

وعند اكتمال تقدمنا وانتظام تشكيلنا القتالي ، هرب العدو دون ان يعطينا الفرصة للقتال ، فكان ان طاربتهم خيولنا حتى غروب الشمس ، وجاء صنيع الرب مع الرجال والخيول مدهشا ، حيث لم يعق الجوع والجشع الرجال ، واذا بالخيول التي لم تأكل منذ فترة ، والتي قادها اصحابها بعيدا عن العلف القليل الى ميدان المعركة ، اذ بها تطارد اسرع الخيول التركية ، وصنع لنا الرب حدثا سعيدا اخر ، وهو ان المدافعين عن القلعة عندما شاهدوا فرار رجال كربوغا تولاهم اليأس فاستسلموا ، واستسلم بعضهم بعد ضمان حياتهم ، بينما لاذ اخرون بالفرار على وجه السرعة ، وعلى الرغم من شدة هذه المعركة وفظاعتها ، فان قلة من الفرسان الاتراك قد هلكت ، هذا من جانب ، ومن جانب اخر لم ينج بحياته احد من الرجالة ، فضلا عن تلك كانت الغنائم تتضمن كل خيام الاتراك مع الكثير من الذهب والفضة ، وكميات لا تقدر من الحبوب ، واعدادا لاتحصى من الماشية ، والجمال ، فذكرتنا بفرار السريان في السامرة ، عندما كان صاع الدقيق والشعير بشيكل وقد وقعت هذه الاحداث في ليلة عيد القديسين بطرس وبولس (٢٦ رجب ٤٩١ هـ / ٢٨ تموز ١٠٩٨ م). وكان موثما ، لانه من خلال هذين الشفيعين المقدسين جلب الرب يسوع المسيح هذا النصر الى كنيسة الحجاج الفرنجة ، حقا كان ربنا الرحيم هو الذي يعيش مع عبيده ويسكن معهم الى ابد الآبدين.

الفصل التاسع

وفاة أدهمر والابلاغ عن رؤى

استولى في أعقاب الانتصار : بوهيموند ، والكونت والنوق وكونت فلاندرز على القلعة من جديد ، غير أن بوهيموند أضمر شرا دفعه إلى اقتراح الاثم ، فقد استولى على الأبراج انشاهقة ، وطرد بالقوة أتباع غوفري وكونت فلاندرز وكونت صنجيل من القلعة مسوغا عمله بأنه كان قد تعهد (للأرمني) رجل الأتراك الذي سلمهم أنطاكية أنه هو فقط الذي سيمتلكها ، وتشجع بوهيموند بهذا العمل الذي مر بدون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وبأبواب أنطاكية التي يحميها ريموند وأدهمر وغوفري منذ أيام حصار كربوغا ، واستسلم الجميع باستثناء الكونت ، فعلى الرغم من حالة المرض والضعف التي كان يعاني منها ، لم يرغب ريموند بالتنازل عن باب الجسر ، ولم تثنه عن عزمه الصلوات والوعود والتهديدات .

وقلق قانتنا بسبب الصراع الداخلي الذي قوض أسس العلاقات الودية بحيث أن قلة فقط هي التي كانت تتجنب النزاعات مع الرفاق أو الخدم على السرقة أو العنف ، وفي عدم وجود قاض يمكنه أن يناقش القضايا ، أصبح كل شخص قانونا في حد ذاته ، وفي ظل هذه الظروف لم يكن الكونت المريض ولا الأسقف يوفران حماية كبيرة لاتباعهما ، لكن لم نشغل أنفسنا بمثل هذه الترهات الصغيرة ، المهم أن الحجاج الذين باتوا الآن يرفلون في الثراء والخمول ، أجلوا الرحلة - خلافا لأوامر الرب - حتى أول تشرين الثاني ، ونحن نعتقد أن الفرنجة لو تقدموا مامن مدينة بين أنطاكية والقدس كانت ستلقي عليهم حجرا واحدا ، فقد كانت مدن المسلمين تعيش وقتئذ في رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا .

وانتقل في هذه الاثناء الى الرب بسلام اللورد أدهمر ، وذلك في الأيام الأولى من شهر آب ، وأدهمر هو أسقف لى بوي المحبوب من الرب والناس أجمعين ، والذي رآه الجميع منزها عن الخطأ ، وحزن عليه المسيحيون جميعا حزنا عظيما عندما مات ، ومع أننا كنا شهود عيان له ، لم نستطع وصف ربود الأفعال عندما شرعنا في تسجيل عظمة الأحداث ، ولقد أثبتت حادثة تشقت القيادة في أعقاب موت أدهمر ، و عودة بوهيموند الى كليكييا ، وسفر غودفري الى الرها ، كم كان أدهمر مفيدا لجند المسيح ولقائتهم .

وفي الليلة التالية لدفن الاسقف في كنيسة بطرس المبارك في أنطاكية ، تجلى الرب يسوع وأندروز المبارك وأدهمر في كنيسة ريموند لبطرس بارثلميو ، وهو الرجل الذي كان قد حدد موقع الحربة في أنطاكية ، ثم قال أدهمر لبطرس : الشكر للرب ولبوهيموند ولكل اخوتي الذين خلصوني من الجحيم ، فبعد اكتشاف الحربة ، أمعنت في اقتراف الأثام وألقيت بي لذلك في الجحيم ، وجلدت بقسوة ، وكما يمكنك أن ترى لقد احترق رأسي ووجهي وبقيت روحي في الجحيم منذ الساعة التي غادرت فيها جسدي ، حتى أعيد جسدي النعس إلى التراب ، وإن الثوب الذي تراه الآن علي هو ثوب أعاده الرب إلي وأنا في لهيب جهنم لأنني أثناء ترسيمي أسقفا كنت قد أعطيته إلى أحد الفقراء ، شكرا، فعلى الرغم من أن جهنم كانت تغلي ، وكلاب جهنم تزمجر في وجهي ، إنها لم تصب مني أي شيء تحت الثوب ، ولم ينفعني من كل الأشياء التي حملتها من وطني شيء مثلما أفانقتني شمعة وهبها أصدقائي تقدمت لي ، مع الدنانير الثلاثة التي تصدقت بها للحربة ، فقد أحييتني هذه الصدقات عندما خرجت من الجحيم ، وقل لبولاي بوهيموند قد قال إنه سيجعل جسدي إلى بيت المقدس ، ومن أجل خاطره إنه لن ينقل جثمانني من مقره لأن بعض دم الرب الذي أصبحت به الآن مرتبطا مازال هاهنا .

غير أنه إذا كان يشك في أقوالي فليفتح قبري ، وعندها سيرى

رأسي ووجهي المحترقين ، ولقد عهدت بـأتباعي واصلت مولاي الكونت ، فليعاملهم ريموند بعطف حتى يكون الرب به رحيمًا وفي بوعوده ، كما ولا ينبغي لأخوتي أن يحزنوا لموتي لأنني سأكون أكثر نفعًا لهم وأنا ميت مما كنته حيا ، وإذا رغبوا في المحافظة على قوانين الرب ، فسأعيش أنا وجميع أخوتي الراحلين معي ، ولسوف أظهر وأقدم نصحا أفضل مما كنت أقدم وأنا بين الأحياء ، فأعبروا يا أخوتي اهتمامكم لآلام الجحيم الثقيلة المخيفة ، واعبدوا الرب ، مخلص الإنسان من هذه الآلام وسواها ، فالسعيد حقًا من ينجو من عقوبات الجحيم ، وسيستطيع المخلص منح عفوه لمن حافظوا على وصاياه ، وعليكم الحفاظ على هذه النقاط المتساقطة من هذه الشمعة والمنتقية عند الفجر ، بما أنني قدمت فلينتخب الكونت ورجاله الأخيار أسقفا بديلا لي ذلك أنه لا يلبق أن يبقى كرسي أسقفية تابع لمريم المباركة شاغرا بدون أسقف ، واعطوا واحدا من أربيتي إلى كنيسة القديس أندروز .

ثم سُم أندروز المبارك تحياته واحتراماته واقترب وقال موصيا :
« اهتموا بكلمات الرب التي أنطق بها ، وتذكروا ريموند الهدية التي عهد بها الرب إليكم ، وليكن كل ما تفعله باسمه حتى يرشدك الرب في كلامك وأفعالك ، ويقبل صلواتك ، كانت نيقية أول مدينة منحها الرب إليكم ، هو الذي حولها إليكم ، لقد منحك الرب مدينته ، وانتزعها من أعدائك ، حتى تتذكر له بعد ذلك في هذا المكان ؟ أم لأن أعمال الرب لم تكن معروفة هناك ، وإذا طلب أحد معونة الرب كان يعاقب ؟! وعلى الرغم من ذلك إن الرب بكرمه وإحسانه لا يريد أن يتخلى عنكم ، وسيمنحكم ما تطلبون ، بل وأكثر مما تجراتم على طلبه ، فهو قد سلمكم الحربة التي اخترقت جسده الذي سال منه دم الفداء لنا ، وتذكروا أن الرب لم يمنحكم هذه المدينة لتدنسوها كما فعلتم في الأخرى ، ويمكنكم بكل تأكيد أن تتيقنوا أن الرب لم يمنحكم إياها لمزايا فيكم .

إن الرب يأمر يا ريموند أن تعرف من الذي يطمح أكثر من سواه

في حكم أنطاكية ، وتستفسر عن نور الرب في حكمه ، لذلك إذا وجدت أنت وإخوانك ، وأنتم الآن الحراس الأوصياء على أنطاكية ، من يمكنه القيام بإخلاص على عدالة الرب ، فسلموا له المدينة وأعطوه إياها ، لكن إذا كان يخطط للاحتفاظ بأنطاكية بالقوة ، مزريا بذلك العدالة وحكمها ، فاطلب أنت وإخوانك المشورة من الرب ، وسوف يقدمها لك ، ولن يخذلك الاتقياء والذين يعبدون الرب حقا ، أما غير الاتقياء فيمكنهم أن يعبدوا إلى من هو عدو للعدالة ، وسترون كيف سيعذبهم الرب ، ستنزل بهم حقا اللعنة نفسها التي أنزلها الرب وأمه بابلوس الذي هوى ، فاذا كنتم متفقين ، اطلبوا النصيحة في الصلاة

وسيقدمه الرب لكم وإذا كنتم متفقين ، فاعقدوا مجمعا من أجل اختيار بطريرك لنا موسكم ، وإياكم أن تمنحوا الغفران للأسرى الراغبين بالتمسك بوصاياكم ، ولاتبقوا على الذين اتبعوا القرآن ويتولون عبادة « الله » الذي يعبد الأتراك ، انظروا إليهم كأتراك ، وابعثوا باثنين أو ثلاثة إلى السجن وسيرشدونكم إلى الآخرين ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة اطلبوا مشورة الرب بشأن رحلة الحج ، وسمحكم الرب النصيحة ، إنما إذا لم تنفذوا هذا الأمر ، لن تصلوا إلى القدس ولو بعد عشر سنوات مع أنها لا تبعد عنكم إلا عشرة أيام ، وساقود الكفار إلى بلادهم من جديد ، وسينتصر مائة منهم عليكم ، أضف إلى هذا عليكم يا عبيد الرب ، أن تستعطفوا الرب كما فعل الرسل ، فكما استجاب لصلواتهم سيستجيب إلى صلواتكم .

أما أنتما ياريموند وبوهيموند فانهبا إلى كنيسة أندروز المبارك فسيخطبكما أفضل نصيحة من الرب ، واتبعا ما يضعه الرب في قلوبكما ، وبعد هذه الرؤيا المباركة لأندروز المبارك تنزلا أمامه ، ليس أنتما فقط ، بل إجعل جميع إخوانكما يفعلون ذلك أيضا ، واجعلا بكل وسيلة السلام وحب الرب يسود بينكما ياريموند وبوهيموند ، لأنكما إذا اتفقتما ، لن تستطع قوة أن تحطكما ، وجدير بكما أن تعلننا عن العدالة التي من المتوجب أن تقيمانها : إجعل جميع الرجال الموجوبين يعلنون على الملأ بوساطة أسقف كل

منهم مبلغ ثرواتهم وقيمتها ، وأن يساعدوا الفقراء كل حسب مقدرته ، وحسب الحاجة إلى هذه المساعدة ، وتصرفوا وفقا لاتفاق عام ، وإذا لم يريدوا مراعاة هذه القاعدة وغيرها من القواعد العادلة ، اكبحوا جماحهم ، وإذا مارغب أي واحد منهم في امتلاك أية مدينة « منحها الرب من أجل المسيحيين فليسلك المسلك الذي يتفق مع الوصايا المذكورة ، وإذا لم يفعل فليعاقبه الكونت مع أبناء الرب » .

وفي البداية لاقت وصايا وتنبيهات القديس أندروز التصديق ، بيد أنه سرعان ماغدا نصيبها التجاهل ، فقد قال بعض الحجاج : فلترد أنطاكية إلى الكسيوس ، غير أن آخرين اعترضوا أثناء حصار عرقة فيما بعد ، بينما كان بطرس بارتلميوي يرقد على فراش الموت ، استدعى الكونت وأوصاه بقوله : عند وصولك إلى القدس وجه أوامرك إلى الجيش للصلاة إلى الرب حتى يطيل عمرك ، ولسوف يضاعف الرب حياتك ، ولدى عودتك ضع الحربة على بعد خمسة فراسخ من كنيسة القديس تروفيموس ، ومر ببناء كنيسة هناك ، وأوقف - بيمين - مالا كثيرا عليها .

و اياك أن تسمح باقتراف أي إثم في هذا المكان ، و أطلق على هذا المكان اسم جبل البهجة ، ولعل هذه الأشياء تنفذ في بروقاندس لأن بطرس المبارك وعد حواريه تروفيموس أن يسلمه الحربة المقدسة

واهملت مصالح المعدمين « الطافور » بسبب الصراع والشقاق ، ولم يحدث شيء بخصوص الوصية التي تلقاها القادة من القديس أندروز ، وفي تلك الاثناء حاصر اترك حلب قلعة تسمى عزاز ، وقلق الاتراك المحاصرون داخلها واشتد عليهم الامر فطلبوا من غوفري الذي كان في منطقة قريبة منهم ان يسلموه قلعتهم ، لانهم يفضلون سيدا فرنجيا ، وبناء عليه استدعى النوق لدى عودته الى انطاكية ريموند الذي كان قد تعافى من مرضه ، واستدعى هو معه جميع

- ٢٦٤٢ -

فرسانه ورجاله الذين كان الكونت قد قادهم الى اراضي المسلمين لنهب الارياف لصالح المعدمين ، كما والح في طلبه من ريموند الاسراع من اجل الرب ، ومن اجل شرف جيش الفرنجة في التوجه الى مساعدة الاتراك المرتدين ، الذين كانوا انذاك يستصرخون الرب ، ووضح ايضا ان الاتراك المحاصرين رسموا علامة الصليب في مواجهة الاف القوات المحاصرة لهم ، وسار الكونت نتيجة لهذه المطالب ومعه غودفري ، وتخلّى الاتراك عن حصار عزاز لدي سماعهم بهذه الانباء ، وبناء عليه عند وصول جيشنا اليها ، اخذ الدوق رهائن من القلعة لضمان ولاء عزاز له في المستقبل ، وعاد ريموند الى انطاكية بعد ما تكبد جيشه نفقات كبيرة ، وهنا استدعى فرسانه لكي يقود الناس المعدمين الى اراضي المسلمين بعدما تدنت معنوياتهم بسبب الجوع والتعب .

وفي الوقت نفسه تجلى القديس اندروز لبطرس بارثلميو في خيمة في قلعة الروج التي كان يحتلها اسقف ايت وريمون دي جيل كاهن الكونت ، وكان اسم الاسقف سيمون ، وعندما سمع سيمون الحديث بين القديس اندروز وبطرس ستر راسه ، وكما قال فيما بعد : انه سمع كثيرا مما دار ، ولكنه لم يتذكر الا : سيدي ، انني اقول

ومع ذلك ، اضاف اسقف ايت : انني لست على يقين فيما اذا كان مارايته حلما ام لا ، لكنني رايت رجلا متقدما بالسن يرتدي عباءة بيضاء ويمسك بين يديه حربة الرب المقدسة ، وقد سالني : هل تؤمن بان هذه الحربة هي حربة يسوع المسيح ؟ فاجبته بقولي : نعم انني اومن بذلك ياسيدي ، ولدى تكراره السؤال مرة ثانية وثالثة اجبت قائلا : حقا انني مؤمن بان هذه هي الحربة التي اسالت الدم من جنب يسوع المسيح ، وهو الدم الذي افتدى به الجميع .

ثم حركني - ريمون دي جيل - اسقف ايت ، وكنت نائما على

مقربة منه ، وعندما افقت لاحظت الضوء غير العادي ، وشعرت كما لو ان النعمة الالهية قد حلت في روحي ، واستفسرت من اصديقي الحضور عما اذا كانوا يشعرون كما انهم بين مجموعة تحركها عاطفة هائلة ، فاجابوني جميعا : لا ، حقا ، وبينما كنت اريد ماسبق ، اجاب بطرس متلقي الوحي السماوي : انك رايت فعلا نورا مبهجا ، لان الرب صاحب النعم جميعا ، كان يقف في هذه البقعة لمدة طويلة .

وعندما طلبنا منه - بطرس - ان يسرد علينا كلمات زواره السماويين ذكر لنا وللكونت مايلي : جاء الى هنا في هذه الليلة الرب مع اندروز المبارك بشكلهما المعتاد ، وبصحبتهم رفيق صغير ، له لحية طويلة ، وكان يرتدي ثوبا من الكتان ، ثم ان اندروز المبارك زجرني بقسوة فقد اسخطه انني تخليت عن رفات جسده الموجود في الكنيسة في انطاكية ، وقد تهددني بعنف واستطرد يقول : بعدما القاني الكفار من فوق الجبال بدون خشية او احترام ، انكسر لي اصبعان ، وبعد موتي حفظهما هذا الرجل ، وبعد ذلك نقلهما الى انطاكية ، غير انك لم تهتم كثيرا بآثارني بعدما عثرت عليها ، فسمحت بسرقة احدهما ، ورميت بالآخر بشكل مشين ، ثم اراني يده التي كان ينقصها اصبعان .

ثم استطرد بطرس يقول : ايها الكونت ، لقد انتقدك القديس اندروز بكل شدة ، لانك لاتخشى من اقتراف الاثام الخطيرة والشريرة ، وذلك على الرغم من انك تلقيت الهدية التي لاتوصف والتي حفظها لك الرب وحده ، وهذا هو السبب في ان الرب قد اعطاك العلامة التالية التي هي على وجه التحديد : قدمت منذ خمسة ايام في عيد القديس فيديس (٦ - تشرين اول) مقدمة كانت عبارة عن شمعة كبيرة تستغرق ثلاثة ايام وثلاث ليال لتحترق ، ولكنها سرعان ما ذابت وهوت الى الارض ، وحدث العكس هذه الليلة فقد قدمت شمعة صغيرة لاتكاد تكفي للاحتراق حتى قبيل صياح الديكة تماما ،

وهي الان تشع بضوئها ولم ينب ثلثها حتى الساعة مع ان ضوء
النهار قد اشرق الان .

وبناء عليه يطلب منك الرب الاشياء التالية : عليك قبل كل شيء
التكفير عن ذنوبك ، ولا تفعل شيئا قبل ذلك واذا لم تلتزم حبس
مشاريعك واعمالك ستكون مثل شمعة ذاتية تهوي الى الارض ،
وسيجعل الرب اعمالك كلها تامة وناجحة باسم الرب اذا ما التزمت ،
وسيضاعف الرب جهودك الصغيرة كما جعل هذه الشمعة الصغيرة
التي تراها تبقى وقتا مديدا .

وعلى الرغم من ان ريموند أنكر جسامته اثامه ، فانه اعترف وكفر
عنها بعدما واجهه بطرس بارثلميو بذنوبه ، واستمر بطرس في
توجيه خطابه الى الكونت قائلا : ايها الكونت ان اندروز المبارك
يعترض على مستشاريك ، لانهم قدموا نصيحة سوء لغرض ما ،
ولذلك انه يأمرك ان تتجاهل مشورتهم الا اذا اقسموا على الا
يعطوك نصيحة غير طيبة وهم يعلمون ذلك .

اصغ الي جيدا يا ريموند : ان الرب يأمرك الا تضيع الوقت ، لانه
سيسأعك فقط بعد الاستيلاء على القدس ، ولا تجعل واحدا من
الحجاج يقترب اكثر من فرسخين عندما تدنو من القدس ، واذا
نفذت هذه التعليمات فان الرب سيسلمك المدينة .

وبعد هذه الاوامر شكرني القديس اندروز كثيرا لانني حققت
تكريس الكنيسة التي شيدت باسمه في انطاكية ، ولم يتكلم حول هذه
الامور فقط بل تناول بالحديث امورا اخرى لاتعني الان وبعد ذلك
صعد هو ورفيقاه الى عليين *

الفصل العاشر

الاستيلاء على البارة ومعة النعمان

تقدم بعد هذا بأمد قصير ريموند وبصحبة الحجاج الفقراء (الطافور) وحفنة من الفرسان ، وتغلغلوا في أرض الشام ، حيث تم لهم الاستيلاء على البارة بكل شجاعة ، وكانت البارة أول مدينة اسلامية على طريقه وهنا قتل الآلاف واستعبد الآفا غيرهم ارسلهم لبيعوا كرقيق في أنطاكية ، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة ، وعمل ريموند إثر هذا برأي أمرائه وكهنته فاختار بطريقة تستحق الثناء كاهنا ليكون أسقفا للبارة ، فبعد اجتماع عام تسلق واحد من كهنة الكونت الأسوار ، ثم سأل هذا الكاهن عما إذا كان هناك رجل دين يمكن أن يتلقى ولاء المؤمنين ، ويساعد الكونت واخوته بالتصدي للوثنيين بقدر ما يستطيع.

ووسط الصمت الذي أعقب ذلك ، استدعينا بطرس ، وهو بالأصل من أهل نربونة ، وأوضحنا له على الملأ عبه الأسقفية ، وشجعناه على تولي المنصب إذا كان عازما على الاحتفاظ بالبارة إلى أن يموت ، وعندما وعد أنه سيقوم بذلك ، وافق الناس عليه بالاجماع ، وحمدوا الرب كثيرا لأنهم كانوا يريدون أسقفا رومانيا في الكنيسة الشرقية ، ومنح ريموند بطرس النربوني نصف البارة والمناطق المحيطة بها.

وكانت البارة على مسيرة يومين من أنطاكية ، ومع اقتراب أول أيام تشرين الثاني ، وهو الموعد المحدد لتجمع الحجاج من جديد لمواصلة زحفهم ، ترك ريموند جيشه في البارة وعاد الى أنطاكية مع أسقفه الجديد بطرس وعدد كبير من الأسرى وغنائم كثيرة ، وفي

أنطاكية اجتمع الأمراء جميعاً فيما عدا بسليدين أخو غوبفري ، الذي سبق له أن اتجه ، بعدما انفصل عن جيش الحجاج الرئيس ، نحو الفرات ، وكان ذلك قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وهناك استولى على مدينة الرها ذات الشهرة الواسعة والغنى ، وخاض بنجاح عدة معارك ضد الأتراك.

وقبل أن أنتقل للحديث عن أحداث أخرى لا بد من أن أروي لكم القصة التالية: عندما كان غوبفري في طريقه الى أنطاكية مع اثني عشر فارساً ، قابل مائة وخمسين من الأتراك ، فلم يتردد مطلقاً ، ولم يجبن بل أعد أسلحته وشجع فرسانه ، وهاجم العدو بكل شجاعة ، غير أن المسلمين أثروا - مرغمين - الاختيار الأحمق للموت بدلاً من النجاة بالفرار ، فترجل بعضهم لكي يطمئن الأتراك الخيالة الى أن رفاقهم الرجال لن يتخلوا عنهم ويلونوا بالفرار ، ونشب قتال عنيف هاجم خلاله فرسان غوبفري العدو بكل شجاعة ، وكان عدد هؤلاء الفرسان يساوي عدد الرسل الاثني عشر ، كما كانوا يؤمنون بكل يقين أن الدوق هو كاهن الرب ، ووهب الرب الدوق نصراً ميبناً ، حتى أنه قتل حوالي الثلاثين من المسلمين ، وأسر مثل هذا العدو وطارد الهاربين ، فقتل عدداً كبيراً منهم أو سبب غرقهم في المستنقع والنهر القريبين ، وعاد غوبفري الى أنطاكية ظافراً في نصر بهيج ، وقد حمل الأسرى من الأعداء رؤوس رفاقهم القتلى.

وعقد الأمراء اجتماعاً في كنيسة بطرس المبارك ، حيث أخذوا يخططون لاستئناف الزحف نحو القدس ، وسأل بعض من كانوا يحتفظون بقلاع أو أملاك مؤجرة في المناطق المحيطة بأنطاكية: ماذا سيتم بشأن أنطاكية ، من الذي سيحرسها ، ذلك أن الكسيوس لن يأتي ، وتذكروا أنه هرب عندما سمع أن كربوغا قد حاصرنا ، لأنه لم يكن لديه ثقة بقوته أو بجيشه الكبير ، هل سننتظره أكثر مما انتظرناه؟ من المؤكد أن من أجبر أخواننا ومن جاء الى مساعدة الرب على التراجع لن يقدم لمساعدتنا ، ومن جانب آخر: إننا إذا ما

تخلينا عن أنطاكية واستردها الأتراك ، فإن النتيجة ستكون أشد ضررا وخطورة من الاحتلال الأخير ، لنعطها لبوهيموند ، فهو رجل عاقل وحكيم يخشى المسلمون جانبه ، وهو رجل سيحميها جيدا .

ولكن الكونت ومعه آخرين اعترضوا على ذلك قائلين : لقد أقسمنا على صليب الرب ، وأكليل الشوك ، وأثار مقدسة كثيرة ، أننا لن نحفظ بدون موافقة الامبراطور ، بأي مدينة أو قلعة في مناطق نفوذه .

ولهذا انقسم الأمراء وتنافروا بسبب هذه الاختلافات ، وتكلموا بعنف شديد حتى كادوا يلجأون الى السلاح ، وفي الحقيقة لم يهتم غوبفري وروبرت كونت فلاندرز كثيرا بمسألة أنطاكية ، وكانا يؤيدان سرا تملك بوهيموند لها ، ولكنهما خوفا من عار الحنث باليمين لم يتجرا أي منهما على التوصية له بها ، ونتيجة لذلك تأجلت الرحلة ، وكل ما يتعلق بها من مسائل ، وكذلك الاهتمام بالفقراء (الطافور) .

وبدأ الناس بعدما راقبوا عن كثب هذه الضجة بين الأمراء يصرحون أولا بشكل سري ثم جاهرُوا بعد ذلك قائلين : من الواضح أن قادتنا غير راغبين في قيادتنا الى القدس ، إما بسبب الجبن أو بسبب اليمين الذي أقسموه لالكسيوس ، لماذا لا نقدم نحن على اختيار فارس شجاع يمكن أن نعتمد عليه ونأمنه على أنفسنا ونحن في خدمته ، وبذلك سنصل بمشيئة الرب الى القبر المقدس معه وهو قائد لنا ، يا الهي ، لقد مضى عامسان علينا في أرض المسلمين ، وفقدنا مائتي ألف جندي ، ألا يكفي هذا؟ لنترك الذين يطمعون بذهب الامبراطور ، أو ريع أنطاكية ، يحصلون على ما يودون ، أما نحن الذين هجرنا أوطاننا في سبيل المسيح ، لنستأنف زحفنا معه قائدا لنا ، وليمت الطامعون بأنطاكية في تعاسة وشقاء مثلما مات سكانها منذ أمد قصير وإذا ما استمر النزاع حول أنطاكية قلنهدم الأسوار ، عندها فقط سيعود زمن حسن النوايا بين الأمراء

كما كان عليه الحال قبل الاستيلاء على المدينة ، ولا يمكن ذلك الا مع تدميرها ، والا فإن علينا ان نعود الى بلادنا قبل ان ينهكنا الجوع ويهتنا التعب.

وأثرت هذ الآراء وغيرها بريموند مع بوهيموند ، فعملا على تسوية الخلافات بينهما ، وفي تاريخ محدد صدرت الأوامر الى الناس بالاستعداد لاستئناف رحلة الحج ، وعند اكتمال كافة التفاصيل المتعلقة بالاستعداد للزحف ، تقدم كونت صنجيل مع كونت فلاندرز ومعهما الناس للدخول الى ارض الشام في اليوم المحدد ، وحاصروا أولا معرة النعمان الغنية وذات التعداد الكبير من السكان ، وتقع المعرة على ثمانية أميال من البارة ، وبسبب قتال سالف جرى معنا وتكبنا فيه خسائر فاحشة ، فقد غير أهل المدينة المتعجبون قانتنا ، وشتموا رجالنا ، وبنسوا صلبانا أثبتت على أسوار المدينة ليثيروا غضبنا ، وفي اليوم التالي لوصولنا عظم غضبنا واشتد على أهل المعرة ، حتى أننا أندفعنا نحو الأسوار بشكل عنفي وكنا بلا شك ، سنستولي على معرة النعمان فقط لو أننا امتلكننا أربعة سلالم بالإضافة الى السلمين القصيرين اللذان كانا بحوزتنا ، ومع هذا صعد رجالنا سلمينا بخوف ، وقرر الأمراء بناء الآلات ، وبيث الحسك ، واقامة حواجز ترابية يمكن منها أن نصل الى السور ، فنهدمه ونسويه بالأرض ، وبينما كان هذا يحدث ، وصل بوهيموند وحاصر قطاعا من معرة النعمان ، وكما نكرنا من قبل ، لم تكن استعداداتنا كافية ، غير أنه بعد وصول الوافد الجديد تشجعنا لأن نفكر بشن هجوم جديد بواسطة ردم الخندق المليء بالماء والمحيط بالسور ، غير أن هجومنا الجديد ، كان أكثر تعاسة من الأول ولم يكن مجديا.

وإنه لما يحز بنفسه أن أنكر أن المجاعة التي تلت ذلك جعلت أكثر من عشرة آلاف رجل يتبعثرون كالماشية في الحقول ، ينبشون ويبحثون عن حبوب القمح أو الشعير أو الفول أو أي خضراوات ، وعلى الرغم من استمرار العمل في اعداد الآلات

الهجوم ، فإن بعض رجالنا بلغ من تأثرهم بالبؤس الذي ألم بهم
ويجراة المسلمين ، أن فقدوا الأمل في رحمة الرب وولوا الأديار.

غير أن الرب المحامي عن عباده ، أشفق الآن على شعبه ، عندما
راه في حمأة اليأس والقنوط ، وهكذا استخدم الرسولين المباركين:
بطرس وأندروز ليبلغنا بمشيئته وبسبل تلطيف أمره القاسي ، ففي
منتصف الليل دخلا الكنيسة الخاصة بالكونت ، وأيقظا بطرس
بارثلميو ، وهو الرجل الذي كانا قد أظهرنا له الحربة ، غير أن
بطرس بارثلميو الذي استيقظ فجأة ، اعتقد عندما رأى شخصين
قبيحين في ملابس قذرة يقفان الى جوار الاناء الثمين الذي يضم
الآثار المقدسة ، اعتقد بالطبع أنهما من الصعاليك اللصوص ، وكان
القديس أندروز يرتدي قباء كهنوتيا قديما ممزقا عند الاكتاف ، فقد
كان على الكتف الأيسر رقعة من القماش ، بينما كان الكتف الأيمن
عاريا ، وكان يحتذي حذاء رخيصا ، وكان بطرس يرتدي قميصا
خشنا من الكتان يصل الى عقبه ، وسألهما بطرس بارثلميو: من
انتما ياسيدي وماذا تريدان؟

وأجابه بطرس المبارك: اننا رسولا الرب ، أنا بطرس وهذا
أندروز ، وقد اخترنا هذا الملابس حتى ترى المكاسب العظيمة التي
ينالها من يخدم الرب باخلاص ، لقد قدمنا على هذه الحالة ، وفي
هذه الهيئة الرثة ، بالضبط كما ترانا أنت ، الى الرب و الآن أنظر
الينا ، وبعد هذ الكلمات أصبح بطرس وأندروز أكثر تألقا وأبهى
مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات ، وخرّ بطرس بارثلميو الى الأرض
كما لو كان ميتا ، وقد استبد به الرعب للوميض المفاجيء من
النور ، ومن شدة خوفه تصيب منه العرق حتى بلل الحصيرة التي
وقع عليها ، فساعده القديس بطرس على الوقوف وقال له: لقد
وقعت بسهولة.

ورد بطرس بارثلميو: نعم يا سيدي ، ثم شرح القديس بطرس
الأمر بقوله: هكذا سيقع كل الكفار والمعتدين على أمر الرب ، غير

أن الرب سيرفعهم مثلما رفعتك بعد سقوطك ، إذا ندموا على أعمالهم الشريرة واستغاثوا بالرب ، زد على هذا أنه لطالما عرقك على الحصيرة ، الرب سيرفع من يستغيثون به ويمحو نوبهم ، لكن أخبرني: كيف يتدبر الجيش أموره؟

وأجابه بطرس بارثلميو: بالتأكيد لقد أثارت المجاعة قلق أفراد الجيش ، وهم في تعاسة بالغة ، وهنا اندفع بطرس قائلاً: إن الذين تركوا الرب وراء ظهورهم لأبد من أن يخافوا ، لأنهم نسوا المخاطر التي أنقذهم الرب منها ، ولم يقدموا له الحمد والشكر ، إنك ناديت الرب عندما كنت راكعاً ، وناديت به عند أنطاكية ، حتى أننا سمعناك في السماء ، نعم لقد سمعك الرب وقدم لك ليلياً على انتصاره لك ، وهكذا منحك نصراً رائعاً ومجداً عظيماً على الذين كانوا يحاصرونكم وعلى كربوفا. لقد أنيت الرب كثيراً ، الآن أي رب تؤمن به أنت بالذات حتى تأمن على نفسك؟ هل تستطيع الجبال الشاهقة ، أو المغائر الخفية أن تحميك؟ إنك لن تكون في مأمن حتى في أشد المرتفعات منعة ولو كان معك كل ما تحتاج إليه من ضروريات ، لأن مائة ألف خصم سيهدون كل واحد منكم ، إن في صفوفكم القتل والنهب والسرقه ، فضلاً عن انعدام العدالة كما أن هناك زناً ، مع أنه مما يسعد الرب أن تتزوجوا ، وفيما يختص بالعدالة إن الرب يأمر أن تكون جميع السلع الموجودة لدى الشخص الظالم المستبد بالفقراء ملكية عامة ، وأن تؤدوا عشوركم ، واعلموا أن الرب على استعداد لأن يعطيكم كل ما تحتاجون إليه ، إنه سيعطيكم معرفة النعمان بسبب رحمته لا بسبب أعمالكم ، حاصروها الآن في أي وقت ترغبون ، افعلوا ذلك لأنكم ستأخذونها بدون ريب.

وفي الصباح التالي سمع الكونت بخبر هذه التجليات ، وبناء عليه قام معه أسقف البارة وأورانج باستدعاء الناس جميعاً إلى اجتماع عام ، وتصديق المؤمنون تحذيرهم الآمال الكبيرة بالاستيلاء على المدينة ، تصديقوا بسخاء ، وقدموا الصلوات إلى الرب

القدير ، ليحرر شعبه المسكين من أجل اسمه فقط ، وبعد استكمال هذه الاستعدادات الروحية ، صنعت السلالم بسرعة وأقيم برج خشبي ، وأقيمت السواتر ، وبدأ الهجوم عند نهاية اليوم ، وأطلق المحاصرون من داخل معرة النعمان الأحجار من المجانيق والنبال والنيران ، وخلايا النحل ، والجير على رجالنا الذين تمكنوا من تدمير أسوارهم ، وبفضل قدرة الرب ورحمته ، لم يصب أحد ، هذا من جانب ومن جانب آخر هاجم حملة الصليب الأسوار بكل جراءة ، واستخدموا الصخور والسلالم في هجوم استمر من طلوع الشمس حتى غروبها ، حقا لقد كان قتالا مخيفا لم يسترح فيه أحد ، ولم يشك أحد في نتائج الظافرة ، وأخيرا ابتهل الجميع إلى الرب أن يكون رحيمًا بشعبه وأن ينفذ وعود رسله.

واعطانا الرب الموجود يوما المدينة حسبما وعد رسله ، وكان أول من تسلق الأسوار جوفيه أوف لاستورز ثم أعقبه مسيحيون آخرون هاجموا الأبراج والدفاعات ، غير أن الليل أوقف القتال وما زالت بعض أبراج المدينة وأجزاء من المدينة نفسها في أيدي المسلمين ، وتوقع الفرسان وقفة مقاومة أخيرة في الصباح المقبل ، فارتعدوا وحرسوا الأسوار الخارجية للقضاء على أي شخص يحاول الهرب ، غير أن بعض حملة الصليب ممن لم يعبأ بحياته ، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة استمروا في مقاتلة أهل المعرة تحت جنح الظلام ، وهكذا حصل الفقراء (الطافور) على حصاة الأسد من الغنائم والبيوت في معرة النعمان ، ولم يجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا سوى بقايا ليس لها قيمة ، وفي هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون في مغائر تحت الأرض ، وبالفعل لم يظهر منهم أحد في الشوارع ، واستولى المسيحيون على جميع السلع التي كانت فوق الأرض ، ودفعتهم الآمال للحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض ، فأطلقوا الدخان والنيران والأبخرة الكبريتية على الأعداء لأخراجهم من مغائرهم ، وخيب نهبهم للمغائر أمالهم ، وعزدها

عذبوا كل واحد من المسلمين وصلات أيديهم اليه ، حتى الموت ، وجرب بعض رجالنا اقتياد المسلمين في الشوارع على أمل معرفة أماكن الثروات والخزائر الذهبية ، وكان المعريون يقودون أسريهم _____ م إلى الأبار ، ثم يلقون أنفسهم فجأة ليلقوا منيتهم ، مؤثرين بذلك الموت على كشف النقاب عن أماكن الامتعة والخزائر العائدة لهم أو لسواهم ، وهكذا لاقوا بسبب عنادهم الموت جميعا ، وقد رميت جثث المعريين في السباح والاماكن الواقعة خلف الاسوار ، وعلى العموم ، ولما تقدم من أسباب لم تمنحنا المعرفة الكثير من المنهوبات . ومع ان فرسان بوهيموند لم يكونوا على درجة عالية من النشاط أثناء الحصار ، فقد نالوا عددا اكبر من الأبراج والخيول والأسرى ، وسبب هذا قيام شعور بالاستياء بين البروفناسيليين والنورمان ، وقضت ارادة الرب انذاك أن ترينا أمرا معجزا .

وحسبما سلف بي الذكر ، وعلى الرغم من أننا شرحنا للناس قبل الاستحواذ على معرة النعمان الاوامر والتوجيهات الرسولية لكل من بطرس وأندروز ، لكن بوهيموند وأصحابه سخرؤا منا ، وفي الحقيقة شكل بوهيموند واتباعه النورمان عقبة ولم يكونوا عوناً ، ولهذا كان من الطبيعي أن حاشية ريموند كانت غاضبة وغير راضية لان النورمان استحوزوا على الشطر الاعظم من الاسلاب ، وفي الختام اختلف المقدمون ، فقد عزم ريموند على اعطاء المعرة الى اسقف البارة ، غير ان بوهيموند تشبث بعند من الأبراج التي استولى عليها واطلق تحنيرا قال فيه : « إنني لن أتفوق مع ريموند حول أي مسألة ما لم يتنازل لي عن أبراج انطاكية المحتفظ بها » وفي لجة هذه الفوضى والشحناء مضى الفرسان وعامة الناس يتساءلون متى سيتفضل السادة البارونات في استئناف الزحف ، لانه على الرغم من ان الزحف العام قد بدأ منذ أمد بعيد ، غير أن كل يوم بدا كما لو انه بداية حملة صليبية جديدة ، ذلك أن الهدف المذشود لم يتحقق بعد ، وأوضح بوهيموند انه لن يستأنف الرحلة

- ٢٦٥٣ -

قبل عيد الفصح ، فقد حل الان عيد ميلاد مولانا المسيح ، وهكذا فقد عدد كبير الامل ، وتحولوا راجعين وذلك بسبب هذه المواقف ودقلة الخيول ولغياب غودفري وهجرته مع عدد كبير من الفرسان الى بلدوين صاحب الرها .

وبعد لاي اجتمع اسقف البارة مع عدد من النبلاء وجمهور من المعدمين ، وطلبوا من الكونت ريموند تقديم العون ، فبعد ما فرغ الاسقف من عظته انحنى امام الكونت الذي تسلم الحربة المقدسة ، والتمسوا منه - والدموع تنهمر من عيونهم - أن يجعل نفسه قائدا للجيش ومقدما له ، وذلك لما تضفيه عليه حيازته للحربة المقدسة من مزايا ، ولكونه محط فضائل الرب ونعمائه ، فانه لن يخاف من الاستمرار في قيادة الرحلة بامان مع حشود الفرنجة ، واذا ماتوا في تلكا الكونت ريموند في تحمل اعباء ذلك يتوجب عليه تسليم الحربة لجمهور الحجاج، فعندها سيستألف هؤلاء زحفهم نحو الاراضي المقدسة تحت قيادة الرب ، ولاطفهم الكونت ريموند ، ولم يحدد موعدا لاستئناف الرحيل ، خشية منه الا يتبعه البارونات المسافرين ، لانهم كانوا ينظرون اليه بعين الحسد والغيرة .

ولنعمل على انتهاء هذه الحكاية المحزنة ، فقد كانت الغلبة لدموع المعدمين ، واضطر ريموند الى تحديد يوم الخامس عشر موعدا لاستئناف الرحيل ، واثار هذا غضب بوهيموند ، فاعلن في جميع ارجاء المدينة ان تاريخ الرحيل سيكون اليوم الخامس او السادس ، ثم مالبت ان عاد الى انطاكية مباشرة ، وهنا انبرى ريموند مع اسقف البارة نحو الاهتمام بتجهيز الحملة ، واختارا الاشخاص وحددا عددهم ، وطلب الكونت ريموند ، في الوقت نفسه من غودفري والذين كانوا معه خارج معرة النعمان ، التجمع في مكان محدد واحد ومن ثم القيام باجراء الاستعدادات اللازمة لاستئناف الزحف .

ثم اجتمع البارونات وعقدوا مؤتمرا في قلعة الروح الواقعة في

منتصف الطريق بين انطاكية ومعرة النعمان ، بيد ان مؤتمريهم لم يسفر عن اتفاق ، لان المقدمين وعدد كبير ممن سواهم لاسيما من اتباعهم عرضوا العديد من المعانير التي تعوق استئناف الزحف ، ونتيجة لذلك دفع الكونت ريموند الى كل من غودفري وروبرت النورماندي مبلغ عشرة الاف صولدي لكل واحد منهما ، ومبلغ ستة الاف لروبرت كونت فلاندرز ، وخمسة الاف لتانكرد ، ومبالغ مناسبة لآخرين فاشترى موافقتهم .

وفي تلك الآونة راجت انباء بين المعدمين افادت ان ريموند قد خطط لمركزة شحنة عسكرية في معرة النعمان تضم عددا من فرسان الجيش ورجالته ، وهنا سخط المعدمون ودارت الاحاديث فيما بينهم وقالوا : ان هذا سر الامور ، خلافاً ومشاحنات في انطاكية ، ومثل ذلك في معرة النعمان ، فهل ياترى ستتفجر النزاعات بين البارونات ، ومن ثم تتدمر جيوش الرب في كل مكان يمنحنا الرب اياه ؟ لنضع اذا احدا للصراع هنا ، وحتى يعم السلام بين القادة وتدعم الشحنة ، ولتهدأ خواطر ريموند ويزول قلقه ، وكيفا لا يضيع الجيش ويتبدد ، هيا بنا لنقوض اسوار المعرة ونهدمها .

وهكذا هب الجميع حتى المرضى والضعفاء ، واقبلوا بعدما نهضوا من فراشهم واندفعوا نحو الاسوار وهم متكئين على عصيهم ، وشرعوا في تقويضها ، وكنت ترى الرجل الاعرج النحيف منهم يدفع نحو الامام ونحو الخلف الحجارة الضخمة ، ويلقي الى خارج الاسوار بحجارة لا يكاد ثلاثة ثيران او اربعة يزحزحونها في الاحوال العادية ، وتجول اسقف البارة ورجالات ريموند في المدينة ، وهم يحذرونهم ويطلبون منهم التوقف عن اعمال التخريب ، لكن الفقراء كانوا يهرولون مبتعدين عن الاسوار ويتخفون عند اقتراب الاسقف والجند ، انما سرعان ما كانوا يعودون ويستأنفون اعمالهم ، عندما يبتعد هؤلاء عنهم ، اما الذين كانوا يخشون العمل جهارة وكانت تشغلهم مشاغل اخرى ، فكانوا يعملون اثناء الليل ،

- ٢٦٥٥ -

وهكذا كان الجميع يعلمون ولم يحل المرض او الضعف بين اي انسان وبين المساهمة في تدمير الاسوار .

ومالبت ان اصبح شح الطعام حادا الى درجة ان المسيحيين كانوا يأكلون بكل متعة وتلذذ جثث المسلمين الجائفة التي كانوا قد رموها في السباخ قبل اسبوعين او ثلاثة ، وأثار هذا المشهد الاشمئزاز في نفوس العديد من الحجاج والغرباء ، ومع تزايد الشح بالمؤن ولتردي الاوضاع فقد الكثيرون الامل في وصول تعزيزات فرنجية فقفلوا عائدين ، وكانت ردات فعل المسلمين والأتراك وتعليقاتهم على ما شاهدوه قولهم : ان هذا العرق العنيد الذي لا يعرف الرحمة ، ولم يزعجه الجوع او السيف او شتى المخاطر لمدة عام عن اسوار انطاكية ، ويتلذذ بأكل اللحم البشري ، لا يمكن ان يقاوم او يقهر ، من الذي يستطيع ان يفعل ذلك ؟!

وروج المسلمون الكثير من القصص عن هذه الافعال وسواها من الاعمال الخالية من الانسانية ، مما اقترقه الصليبيون ، ولم ندرك وقتها وقع ذلك وأثره وان الرب قد جعل منا سببا من اسباب الرعب

وبعد ما عاد ريموند الى معرة النعمان استبدبه انذاك الغضب وسخط اشد السخط على اتباعه ، ومع هذا أثنى على الرب وشكره ، ثم أمر بتقويض أسس الأسوار ، وذلك بعدما اقتنع ان تهديدات أسقف البارة والبارونات الآخرين وقوتهم لن تثني المدمرين عن عزيبتهم ، وفي الوقت نفسه كان نقص المؤن وشح الاطعمة يتفاقم يوما تلو الآخر ، وصدرت الينا الأوامر بتوزيع الصدقات ، والصلاة من اجل استئناف الزحف ، ذلك ان اليوم المحدد كان يقترب ، وفي هذه الأثناء ازداد قلق كونت طولوز بسبب تغيب البارونات الكبار ، ولتفاقم اثر المجاعة في اضعاف الرجال ، ولقد أصدر أوامره الى المسيحيين بالبحث عن الاطعمة في الاراضي الاسلامية ، ووعد ريموند انه سيسير مع فرسانه في الطليعة ، غير

ان بعض اتباعه الغاضبين تشكوا اليه قائلين : ان كل مالدينا لايتجاوز ثلاثمائة فارس وحفنة من الرجاله ، فكيف يمكننا تقسيم القوات بحيث يمضي بعضنا الى داخل الاراضي الاسلاميه ، ويبقى بعض اخر بين انقاض معرة النعمان بلا قدرة على الدفاع ، ثم اسهبوا في الحديث حول اضطراب الكونت ريموند وعدم استقراره التام .

ومع ذلك سار الكونت في النهاية نيابة عن الفقراء نحو اراضي المسلمين ، وتمكن من الاستيلاء على بعض الحصون واسر بعض الاسرى ، كما قام بالكثير من اعمال السلب والنهب ، ولدى عودته مبتهجا بظفره بعدما قتل عددا كبيرا من المسلمين ، تمكن المسلمون من قتل ستة او سبعة من رجالنا ، ومن المثير للدهشة البالغة ان تلك الجثث كان مرسوما عليها صلبان على الكتف الايمن ، ولقد شعر المشاهدون ومعهم الكونت ريموند براحة عظمى لدى رؤيتهم لهذا المنظر ، وقدموا الشكر والصلوات الى الرب القادر على كل شيء ، لتذكره الفقراء من عبيده ، ولتوليه اقناع المتشككين الذين مكثوا في القرب من معرة النعمان مع الامتعة عندما حملوا معهم واحدا من الجرحى الذي كان قد اصيب اصابات مميتة ، لكنه ظل يتنفس ، ولقد رأينا معجزة باهرة في هذا الجريح البائس ، فقد كان جسمه قد مزق ، حتى انه لم تعد توجد فيه بقعة تخفي روحه ، ومع هذا عاش هذا الرجل سبعة ايام او ثمانية لم يذق خلالها الطعام ، وجاء هذا شاهدا في تلك الاونة على ان يسوع الماضي الحكم والارادة بكل تأكيد ، كان هو الرب الذي خلق الصليب الذي حمل به على كتفه .

الفصل الحادي عشر

استئناف الرحلة والشروع بحصار عرقة

شجع حسن الطالع مع شارات الصليب الطيبة الباحثين عن الطعام ، فخلفوا غنائمهم عند كفر طاب على مسافة أربعة فراسخ من معرة النعمان ، وعاد ريموند وبرفته الاصدقاء والاتباع الى معرة النعمان ، وفي اليوم المعين رحل الكونت وكهنته واسقف البارة ، وسار الجميع حفاة الاقدام يطلبون رحمة الرب وحماية الصديقين ، بينما راح اللهب الذي اشعله المسيحيون يعلو انقاض المعرة ، وسار تانكرد في المؤخرة مع اربعين من الفرسان واعداد كبيرة من الرجال ، ولدى سماع حكام المناطق المجاورة انباء استئناف الحملة ، ارسل سادة العرب الى ريموند يلتمسون المهادنة ويعرضون العروض الكثيرة والوعود الجمّة بالاستسلام في المستقبل ، يضاف الى هذا السلع التي يمكن ابتياعها او الحصول عليها بالمجان .

وتابعنا الزحف بأمان معتمدين على وعودهم ، وكانوا قد سلمونا رهائنهم كضمان ، ومع هذا نعتقد ان الادلاء الذين بعث بهم الينا حاكم شيزر اساءوا ارشادنا في اليوم الأول ، وكنا وقتها بحاجة الى كل شيء باستثناء الماء الذي توفر عند موقع المعسكر ، غير ان هؤلاء الادلاء انفسهم قادونا في اليوم التالي الى واد حشرت فيه ماشية الحاكم والمناطق المجاورة جميعا ، ولعل ذلك كان بسبب ما اشعرناهم به من خوف ، ومع ذلك لوامر الاقليم بأكمله بإيقاف زحفنا لما استطاع ذلك لاننا امتلكننا ايضا مانحتاج اليه من معلومات ، ففي ذلك اليوم قام ريموند اوف ايل ورفيق له بأسر مبعوث الحاكم ومعه رسائل تحرض جميع السكان على

الجفلة ، ولدى سماع الحاكم خبر اعتقال مبعوثه ، قال : يارجالى تقدموا الى الفرنجة ، عوضا عن الفرار بسرعة من امامهم حسبما امرت من قبل ، لانه طالما ان الرب قد اختار هذا الجنس فلن أقف معترضا في طريق رغباته ، ثم حمد هذا الحاكم الرب الذي يرزق الذين يخشونه ويلبى حاجاتهم .

وكان مشهد هذا القسطنطين الكبير - غير المتوقع - من الماشية ، ثم الاستيلاء عليه سببا دفع فرساننا وميسوري الحال منا الى الذهاب الى شيزر وحمص بأموالهم لشراء الخيول العربية قائلين : مادام الرب قد تكفل أمر اطعامنا فلنتكفل نحن بدورنا شأن الفقراء والجيش ، وهكذا حصلنا على نحو ألف من أفضل الجياد للحرب ، ويوما تلو الآخر استرد الفقراء عافيتهم ، وغدا الفرسان أشد قوة ، وبدا الحال وكأن الجيش يزداد عددا ، وبتنا كلما تقدمنا بزحفنا كلما زانت نعم الرب علينا ، وعلى الرغم من توفر المؤن ، فقد جرب بعض الأمراء اقناع ريموند بالتوقف عن الزحف بعض الوقت بهدف الاستيلاء على جبلية المدينة الساحلية ، بيد أن تانكرد يعاونه بعض الرجال الشجعان الطيبين حالوا دون ذلك معترضين بقولهم : لقد زارنا الرب وزار الفقراء ، فلماذا يتوجب علينا التحول عن متابعة الرحلة ؟ ألم تكفنا المصاعب السالفة التي اعترضتنا اثناء معركة انطاكية مع البرد والجوع والذي عانىنا من البؤس والشقاء الانساني ، هل علينا وحدنا محاربة العالم كله ، ولماذا ؟ فكروا قليلا وتمعنوا فمن بين مائة ألف فارس لم يكد يبقى سوى اقل من ألف ، ومن بين مائتي ألف من الرجال المسلحين ، لم يتبق للقتال غير اقل من خمسة آلاف ، هل سنظل نتلكأ حتى تتم تصفيتنا جميعا ؟ هل سيقدم المسيحيون من الغرب اذا سمعوا عن احتلال انطاكية وجبلية وسواهما من المدن الاسلامية " كلا بالطبع علينا الزحف نحو القدس المدينة التي جئنا نسعى نحوها ، ومن المؤكد ان الرب سيمنحنا اياها ، ووقتها فقط سيجلوا سكان المدن الأخرى ، الواقعة على طريقنا مثل جبلية

و طرابلس و صور و عكا ، عنها خوفا من موجة الحجج الجديدة المقبلة من العالم المسيحي.

وفي الوقت نفسه استمر العرب والأتراك في مهاجمة الساقية يقتلون الضعفاء من الفقراء ويستولون على امتعتهم ، وبعد واقعتين من هذا القبيل نصب الكونت كميناً وقف فيه أثناء مرور الحجاج ، وهنا عندما اندفع المسلمون الذين لم يرتدعوا - وممن كان يحدوه الأمل بالأسلاب - خلف جيشنا حسب عانيتهم من قبل ، مروا الآن أمام كمين الكونت ، فانقض ريموند وفرسانه عليهم ، فأوقعوا الفوضى بين صفوفهم وقتلوه ثم عادوا سعداء نحو بقية الجيش ومعهم خيولهم ، وسار ريموند وعدد كبير من الفرسان بعد هذه الواقعة خلف الساقية لحراستها ، وبهذه الوسيلة توقف العدو عن محاولاته في اصطلياد الفقراء ، ومع هذا الاجراء الاحتياطي سار فرسان مسلحون آخرون مع كونت نورماندي ، وتانكرد وأسقف البارة أمام المقدمة حتى لا يستطيع العدو النيل منا من الأمام أو الخلف .

ومما هو جدير بالذكر ان اسقف البارة كان قد خلف في البارة حامية قوامها سبعة فرسان وثلاثين من الرجال تحت امره وليم بن بطرس أوف كونيلى كوم ، غير انه بناء على نصيحة الكونت انضم الى الجيش لأن الكونت استهدف زيادة عدد الفرسان الذين كانوا سيزحفون من المعرة الى القدس ، وفي وقت قصير تمكن وليم - وهو رجل مؤمن عظيم الاخلاص - بمعونة الرب ان ينجح رغبات الاسقف فوق تصوراتيه ، فبدلاً من ثلاثين من الرجال اصبح لديه سبعون مع ستين او اكثر من الفرسان .

وإثناء اجتماع لنا وافقنا على تجنب مدينة دمشق والزحف نحو ساحل البحر ، لأنه كان بإمكاننا الاتجار مع قبرص والجزر الأخرى اذا ما انضمت اليها سفننا من انطاكية ، وبعد ان ركبنا هذا الطريق وجدنا ان سكان البلاد قد جفلوا من مدتهم وهجروا تحصيناتهم

- ٢٦٦٠ -

ومزارعهم ذات المخازن المليئة ، ثم وصلنا الى واد خصيب جدا (وادي النضارة) بعدما قمنا بالدوران حول جبال عالية ، وواجهنا هنا بعض الفلاحين متفاخرين بأعدادهم وبقلعتهم المنيعة (حصن الأكراد) ولهذا لم يظهروا نحونا ادنى نوايا طيبة و لم يعطونا أية اشارة الى أنهم سيتخلون عن قلعتهم - بل على العكس من ذلك انقضوا علينا من أعلى جبلهم وقتلوا بعض الاتباع المسلحين والرجالة الذين كانوا يبحثون عن الكلا هنا وهناك وسط الحقول ، وحملوا الأسلاب الى قلعتهم ، وزحف رجالنا الذين اغضبهم ماجرى نحو سفح الجبل الذي قامت عليه القلعة ، غير ان السكان لم ينزلوا لملاقاة ، وعقدنا مجلسا للحرب ، تشكل بعده فرساننا ورجالنا في صفوف تسلقت الجبل من ثلاثة جوانب وهزموا الفلاحين ، وكان تعدادهم ثلاثين الفا من المسلمين الذين كانوا يشغلون القلعة ، ومكن الموقع هؤلاء من التراجع واعطاهم الفرصة للاعتصام بالقلعة او في أعلى المنحدرات وهكذا اعاقونا لبعض الوقت .

انما عندما صرخنا بصيحة حربنا : « ساعدنا يارب ، ساعدنا يارب » مات حوالي المائة من المسلمين لانه دب في قلوبهم الرعب وخافوا خوفا شديدا ، او لانهم خنقوا في الازدحام لدى الاندفاع للدخول الى القلعة ، وطبعا جرى خارج الأسوار - كما هي العادة - نهب كبير للمواشي والخيول والأغنام ، وحدث هذا حيث كنا نحارب ، وهنا حدث انه بينما كان الكونت وفرسانه يجدون في القتال ، طمع المعدمون منا بالغنائم ، وبدأ الفقراء الواحد تلو الآخر ، ثم الرجالة الفقراء وأخيرا الفرسان الفقراء ، بالتخلي عن ميدان القتال ومن ثم العودة الى خيامهم التي كانت على بعد نحو من عشرة أميال .

وفي الوقت نفسه ، أمر ريموند فرسانه ورجاله بالتحصن في مواقعهم ، غير ان المسلمين وقد راوا صفوف الفرنجة بدأت تخلوا من المقاتلين ، شرعوا بالنزول من الجبل مع الذين كانوا داخل

القلعة ، واخذوا في رص صفوفهم وتقويتها ، ولم يتنبه ريموند الى ما حصل ، وكاد ان يفقد الاتصال بفرسانه عبر ممر مقفر شديد الانحدار ، فهناك سارت الخيول في رتل افرادي ، وفي مواجهة هذا الخطر تظاهر ريموند بالتقدم مع رجاله وكأنه على نية الهجوم على المنحدرين من أعلى الجبل مما جعل المسلمين يترددون ، وفي هذه الساعة انعطفت الفرنجة وتحولوا نحو منطقة خيل اليهم انها امنة في الوادي ، وعندها لاحظت كتيبتا الأعداء هذه المناورة ، وكانت احداها على الجبل والأخرى في القلعة ، ولدى مشاهدتهم قواتنا تهبط منحدره من الجبل ضموا قواتهم واندفعوا بهاجمون رجال الكونت ، وتحت وطأة الهجوم سقط بعض رجالنا من على خيولهم ، بينما اندفع آخرون عبر أماكن شديدة الانحدار فسقطوا وهكذا افلتوا من الموت بأعجوبة ، غير ان بعضهم مات ميتة بطولية .

ومن المؤكد ان ريموند لم يتعرض قط لمثل هذا الخطر الذي كاد ان يفقده حياته ، ولهذا حنق في نفسه حنقا شديدا ، وغضب على قواته اشد الغضب حتى انه لدى عودته الى الجيش وجه التهمة الى فرسانه علنا داخل المجلس بالتخلي عن القتال بدون اذن منه وبتمريض حياته للخطر ، وهنا اقسم الجميع وتعاهدوا على متابعة الحصار الى ان يجعلوا القلعة ببركة الرب دكا دكا . لكن الرب مرشد المسيحيين وحاميهم من كل الكوارث لم يحجهم الى هذا ، فقد القى الرعب في قلوب المدافعين الى حد انهم في تعجلهم بالفرار ، تخلوا عن موتاهم فلم يدفنوهم ، وفي الصباح لم نجد في انتظارنا سوى غنائم الحرب ، وقلعة يسكنها الأشباح :

وتأثر رسل امير حمص وحاكم طرابلس ، الذين كانوا في معسكرنا اثناء هذه الوقائع ، بمنظر شجاعتنا وبقوتنا ، فتوسلوا الى ريموند ان يأذن لهم بالانصراف مع وعد بالعودة سريعا ، وبالفعل رحلوا مع مبعوثنا وبعد امد قصير عادوا محملين بالهدايا الفخمة ومعهم خيول كثيرة ، وكان سبب هذا كله الخوف

الذي استبدد بالمنطقة بأسرها بعد أخذنا للقلعة التي لم يكن بإمكان أحد نيلها من قبل ، زد على هذا ، بعث سكان المنطقة برسالة الى ريموند ، والتمسوا منه ارسال راياته وأختامة حتى يتسلم مدنهم وقلاعهم ، واذكر ان العادة جرت في جيشنا وقضت باحترام راية اي فرنجي وعدم مهاجمة الموقع المرفوعة عليه ، وهكذا رفع حاكم طرابلس رايات الكونت على قلاعه .

ونتيجة لهذا التحول وضع ان شهرة كونت طولوز لاتفوقها شهرة ومكانة لاتعلوها مكانة قائد فرنجي آخر ، وتوجه بعض فرساننا كمبعوثين الى طرابلس ، وهناك بهرهم الثراء الملكي الذي شهدوه وراعتهم الممتلكات الغنية والمدينة المزدهمة بالسكان ، ولذلك اقنعوا ريموند بأن حاكم طرابلس سوف يمنحه خلال اربعة ايام او خمسة كميات من الذهب والفضة كبيرة تقرر عينه بها اذا محاصر عرقة ، وعرقة موقع حصين جدا ، لايمكن لقوة بشرية التغلب عليه ، ومع هذا حاصرنا عرقة بناء على رغبتهم ، وهكذا جعلنا رجالا شجعانا منا يعانون متاعب لم يعرفها أحد ، ويؤسفني القول : اننا تحملنا خسائر هائلة كان منها العديد من الفرسان المميزين ، وقد مات واحد من هؤلاء الفرسان واسمه بونز أوف بالازون نتيجة اصابته بحجرة اطلقت عليه من عرادة ، وكانت توسلاته هي التي جعلتني اواصل هذا العمل الذي تجشمت عناء كتابته من أجل جميع اصحاب العقيدة المستقيمة ، لاسيما الذين يعيشون وراء جبال الالب ، ومن أجلك أنت ، يا صاحب النيافة أسقف فيفييه .

وسأحرص عظيم الحرص بالهام من الرب الصانع الحقيقي لهذه الأحداث ، على اكمال روايتي بالحب نفسه الذي بدأت به داعيا وراجيا أن يثق كل من سيسمع بهذه الأشياء بحقيقتها ، وليثقلني الرب بأهوال الجحيم ، وليمحووا اسمي من سجل الأحياء اذا اضيفت - بدافع الحماس لأي شخص أو الكراهية - أي شيء الى هذا الكتاب غير ماصدقته أو رايته ، وعلى الرغم من جهلي لأشياء

كثيرة انني اعرف ان من واجبي - منذ ان تقدمت الى الكهنوت على صليب الرب - ان اطيع الرب ، وان احكي الحق ، والا الفسق الاكاذيب ، وبودي الاستمرار بالود نفسه والمحبة ذاتها في سرد اخبار تاريخي ، حسبما حدث بولس على ذلك عندما قال : " ان المحبة لا تسقط ابدا وليساعدني الرب " (الرسالة الاولى الى اهل كورنثوس : ٨/١٣)

وفي اثناء الحصار المطول كانت سفننا القادمة من انطاكية واللاذقية مع السفن الاغريقية وسفن البنادقة ترسو وبها الحبوب والنبذ والشعير ولحم الخنزير وسلع اخرى يمكن بيعها ، ومع هذا سرعان ما ابحر البحارة عائدون الى موانئ اللاذقية وطرطوس لان عرقة وقعت على مسافة ميل من البحر ، ولم تجد السفن مكانا ترسو فيه ، وكان المسلمون قد جفلوا من طرطوس قبل حصار عرقة وطرطوس مدينة جيدة التحصين لها اسوار داخلية وخارجية ، كما كان بها كميات كبيرة من المؤن ، وقد هجرها سكانها بسبب الرعب الذي بثه الرب في قلوب المسلمين والعرب في هذه المنطقة ، وهو رعب جعلهم يوقنون اننا كنا نمتلك قوى كبيرة ، وننوي تدمير بلادهم بلا شفقة .

ومع ذلك امطرنا الرب بمختلف انواع المصائب وذلك انه لم يشأ مساعدتنا في حصار قمنا به في سبيل مصالح ظالمة وليس في سبيله ومن المثير للدهشة ان المسيحيين بعدما كانوا متشوقين للمعارك ويستعدون لها بساتوا الآن لايميلون الى القتال ولايتمتعون بالحيوية ، ومع هذا سار جند المسيح الملهمين اما جرحى او مرهقين بعد ما حاولوا عمل كل شيء ، لكن وجدوا ان لاطائل من وراء جهودهم .

و في اثناء حصار عرقة مات اندسلم اوف ريبمونت ميتة مجيدة فقد افاق صباح ذات يوم فاستدعى كاهنة اليه واعترف بزلاته واثامه وطلب الرحمة من الرب ، وتحدث انه على وشك الموت ، ووقف الذين

سمعوه مذهشين لان ما قاله صدمهم ولان انسلم بداسليما معافي ،
وهنا هتف بهم قائلا : لاتذهشوا واصغوا الي : رايت في الليلة
المنصرمة اللورد انجلراند من سان بول ، وكان قد مات في المعرة ،
وسالته وانا في كامل وعيي : ما الذي يجري هنا ، انت مت وارك
الان هنا حيا ؟ فرد علي لورد انجلراند : ان الذين يقتلون في خدمة
المسيح لا يموتون ابدا ، فسالته مجددا عن مصدر بهائه المنقطع
النظير فاجابني قائلا : ليس في هذا ما يدهش لانني اعيش في دار
رائعة ، وفي الحال اراني بيتا في عليين رائعا ومريحا لم ار ما
يضاهيه ، و بينما وقفت مذهولا امام المشهد قال لورد انجلراند
هناك بيتا اجمل منه كثيرا معد لك غدا ، وبعد ذلك صعد .

وبعدما انتشرت هذه الحكاية انتشارا واسعا ، تقدم انسلم في
اليوم نفسه الى قتال بعض المسلمين الذين تسلوا الى خارج قلعتهم
على امل الاستيلاء على شيء او اصابة شخص ما ، وفي القتال الذي
اعقب ذلك قاتل انسلم بكل شجاعة ، غير انه اصيب في راسه
بصخرة من حجارة المنجنيق فترك هذا العالم ليعيش في بيته
السماوي الذي اعد له الرب .

وقدم بعد ذلك الى عرقه رسول من عند ملك بابليون (مصر) مع
رسلنا الذين سرحهم بعدما حبسهم عنده لمدة سنة ، وكان هذا الملك
متربدا بين اختيارنا او اختيار الاتراك ، وقد عرضنا على رسوله
الشروط التالية : ان هو ساعدنا في القدس او اعاد هذه المدينة الينا
مع ما يتبعها فاذنا سنعيد اليه مدنه السالفة التي كان الاتراك قد
انتزعوها منه وذلك في حالة استيلائنا عليها ، وبالإضافة الى ذلك
سنقدسم معه جميع المدن التركية الاخرى التي لاتقع في نطاق
ممتلكاته ولكن ياتي الاستيلاء عليها بمساعدة منه .

وترددت اقاويل بان الاتراك قد وعدوه انه اذا ما تحالف - ملك
مصر - معهم ضدنا فانهم سيقدسون عليا قريب محمد (صلى الله

عليه وسلم) الذي كان يقدسه ، وسيتعاملون بنقوده ويدفعون له الجزية وسيوافقون ايضا على تنازلات اخرى لم نتعرف اليها .

ومن رسائل عثرنا عليها في خيام ملك مصر بعد معركة عسقلان كان قد بعث بها اليه الكسيوس لابد انه قد عرف ان جيشنا كان صغيرا وان الامبراطور كان يتآمر على تدميرنا ، ولهذا السبب وغيره احتبس رسلنا عنده في مصر لمدة سنة ، اما الان فعندما وصلته تقارير عن دخولنا الى اراضيه وما رافق ذلك من تدمير لقراه وحقوله واشياء اخرى اببلغنا انه يمكن لمائتين او ثلاثمائة منا ان يعضوا كل مرة الى القدس انما بدون سلاح ، ثم يعودوا بعد عبادة الرب ، لكن ثقة منا برحمة الرب رفضنا عرضه واببلغنا انه ما لم يعد الينا القدس بدون تحفظات فسنزحف على مصر .

وانذكركم ان الامير الذي كان يحتل القدس انذاك تمكن من ذلك بعد ما وصلته اخبار الكارثة التركية في انطاكية ، فقد حاصر القدس ، وهو يعرف ان الاتراك الذين كانوا وقتها عرضة للهزائم والابادة لن يقاوموه ، وتسلم القدس بعدما اعطى الى المدا فعين عنها هدايا ثمينة ، وقدم قرابين من البخور والشموع عند القبر فوق جبل الجلجلة .

ولنعد الان الى اخبار حصار عرقة ، وفي وسط انشغال جيشنا هناك ، اتتنا كما قلنا اخبار تفيد ان بابا الاتسراك (الخليفة العباسي) تتبعه قبائل كثيرة ، لانه كان من سلالة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان في طريقه الى قتالنا ، فوضع الجيش في حالة تاهب للقتال ، وتم ارسال اسقف البارة الى غود فري وكونت فلاندرز ، وكانا في جبلة ، وهي حصن يطل على البحر قائم في منتصف الطريق بين عرقة وانطاكية ، وعلى مسيرة يومين تقريبا من كل منهما ، بيد اننا عرفنا انذاك ان الامر مجرد اقاويل زائفة اشاعها المسلمون وروجوا لها ليرهبونا فينالوا بعض الراحة اثناء الحصار ، وبعد تجمع الجيوش ، راح رجال حاشمية الكونت يتباهون بخيولهم

العربية وبثرواتهم التي منحهم الرب اياها في اراضى المسلمين ، لانهم واجهوا الموت في سبيله ، ومع هذا كان هناك اعداد كبيرة ممن زعموا انهم مازالوا في فقر مدقع .

وبسبب وجود الاعداد الكبيرة من الفقراء والضعفاء -توفر تحريض للفقراء على تقديم عشر غنيمة الحرب ، وكان التقسيم الذي سمح به حسبما يلي : ربع للكهنة الذين يقيمون القداسات ، وربع للأسقف ، والنصف المتبقي الى بطرس الناسك الذي كان الحارس المرخص له بحماية الفقراء ورجال الدين وعامه الناس واعطى بطرس بدوره بعضا من هذا المبلغ الى رجال الدين والعامه ، ونتيجة لهذا ضاعف الرب عدد الخيول والجمال ولوازم الجيش الاخرى ، حتى اخذ العجب والدهشة من الصليبيين كل ماخذ ، غير ان هذا الرخاء المفاجئ كان سببا في النزاع بين القادة وفي رعونتهم وعجرتهم ايضا ، الى درجة ان اشد المسيحيين اخلاصا للرب ، تاقوا الى الفقر ، والى ان تهددنا مخاطر القتال الرهيب .

وعرض علينا حاكم طرابلس خمسة عشر الف قطعة من الذهب من نقود المسلمين ، فضلا عن الخيول والبغال والثياب الكثيرة ، بل والمزيد من هذه الهدايا في السنوات المقبلة ، وحتى نقدر قيمة هذا العرض ينبغي ان نعرف ان قطعة ذهبية واحدة كانت تساوي ما بين ثمانية الى تسعة صولديات ، وكانت العملات المتداولة بيننا تشمل البيكتا فاني (بواتو) والكارتنيس (شارتر) والمانسيس (مانز) واللوكنيسيس (اوكويس) والفالانزاني (فالنس) والميلجو رينسيس (ملجويل) والبوجيزي (بوي) وكان الاسمان الاخيران يستخدمان بدلا من الاسماء الاخرى ، يضاف الى ذلك ارسل حاكم جبلة الذي خشي من حصار اخر - الى قادتنا جزية قدرها خمسة الاف قطعة ذهبية مع خيول وبغال وكميات كبيرة من النبيذ .

وتوفرت لدينا المؤن لان الهدايا كانت ترسل الينا من القلاع والمدن الاخرى غير الجبلية ، زد على هذا قام بعض المسلمين بدافع الخوف او الحماس لطريقتنا في الحياة بالتنصر (كذا ؟) ونتيجة لهذا الذراء الجديد ، بعث كل واحد من امرائنا بالرسائل والرسائل الى المدن الاسلامية يبلغها انه هو السيد بين الفرنجة ، وعلى هذه الصورة كان سوء سلوك امرائنا في ذلك الوقت وكان تانكرد من اكبر مثيري الشغب والفتنة ، ولعلكم تذكرون ان تانكرد كان قد تلقى خمسة آلاف صولدي وحصانين عربيين اصيلين وفاخرين ، من ريموند ، مقابل خدماته اثناء الرحلة الى القدس غير انه كان الآن يريد الانضمام الى قوات غودفري ، وهكذا دب النزاع بينه وبين ريموند ، واخيرا تخلى تانكرد بكل خسة عن الكونت.

الفصل الثاني عشر

رؤى ومحنة الحربة المقدسة

اعلنت في هذه الآونة رؤى كثيرة بعث الرب بها إلينا ، وسأحكى أنا مصنف هذا الكتاب خبر الرؤيا التالية على عهدة الشخص الذي رآها حيث قال : « في اليوم الخامس من نيسان لعام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا ، وبينما كنت أنا بطرس بارتلميو أستريح في بيعة الكونت أثناء حصار عرقة ، تفكرت في الكاهن الذي تجلى له الرب بالصليب ، في أيام حصار كربوغا ، ولما تساءلت لماذا لم يتجل لي على الصليب ، وفيما أنا في هذا الحال رأيت فجأة الرب والرسولين : بطرس وأندروز مع شخص غريب ضخم الجثة ، قاتم البشرة واسع العينين أصلع تقريبا ، يدخلون البيعة ، وما لبث أن سألني الرب : ماذا تفعل ؟ فأجبت : أنا واقف هنا ، فاستأنف الرب كلامه قائلا : لقد قهرتك الآثام إلى حد كبير ، مثل الآخرين ولكن ما هي أفكارك الآن ؟ فأجبت : يارب ، يا أيها الأب ، كنت أتفكر في الكاهن وبظهورك على الصليب له ، فقال الرب : انني أعرف ذلك ، وتابع يقول : امن أنني أنا الرب الذي مضيت في سبيله تحمل الصليب ، وأنني تحملت الآلام على الصليب في القدس ، من أجل خطاياكم ، وإذا أمنت بذلك فليسوف ترى .

ثم رأيت صليبا مصنوعا من قطعتين من الخشب الأسود المستدير المصقول ، مركبا بشكل سمي ، باستثناء الوصلات المسننة التي تدعمه عند المنتصف ، وأمرني الرب قائلا : حذق بالصليب الذي تفتش عنه ، وعلى الصليب كان هناك الرب ممددا ومصلوبا ، تماما مثلما هو في الآلام ، وكان بطرس يسنده من يمينه وأندروز يمسك بكتفيه من على شماله ، والغريب يسنده بيديه من خلفه .

وتابع الرب في اصدار توجيهاته قائلا : ابلغ شعبي بهذه الرؤيا
هل ترى جراحي الخمسة ؟ مثل هذه الجراح، ليوقف الحجاج في
خمس صنفوف ، وعلى الذين يقفون في الصف الاول الا يذشوا
الرماح ولا السيوف ولا من أي نوع من المحن ، ان الذين مضوا الى
القدس دون خشية من السيوف والرماح والفؤوس والعصم
يشبهونني ، انهم بحملهم للصليب يموتون من اجلي كما مت من
اجلهم ، ونحن معا نسكن روحيا الواحد منا الآخر ، وعند موتهم
سيجلسون على يمين الرب في المكان الذي جلست فيه بعد قيامي
وصعودي ، اما الذين يقفون في الصف الثاني فهم مساعدون للذين في
الصف الاول ، وهم قوة المؤخرة وهم ضمان ووقاية في حالة الفرار
ويمكنني القول ان هذا الصف يشبه الرسل الذين تبعوني
وشاركوني الطعام اما الذين في الصف فيذكرونني - اني عملون
بالامداد فيمدون الذين يقاتلون بمختلف الاشياء مثل الحجارة
والرماح - بالذين راحوا يضربون صدورهم ويصرخون في مواجهة
الظلم عندما كنت معلقا على الصليب اعاني من الالام ، اما الذين في
الصف الرابع ، الذين اغلقوا على انفسهم بيوتهم وانصرفوا
للاهتمام بشؤونهم فقط لدى نشوب الحرب ، لا اعتقادهم ان النصر لا
يكمن في قوتي انا بل في الحكمة البشرية ، هؤلاء يشبهون الذين
صلبوني قائلين : انه يستحق الموت ، خذوه الى الصليب لانه يزعم
انه ملك وانه ابن الله ، وعندما سمع الذين يقفون بالصف الخامس
جلية المعركة نظروا اليها من بعد ، وفتشوا عن اسبابها ، فأظهروا
الجبن بدلا من الشجاعة ، ولم يقوموا بأدنى مخاطرة في سبيلي ، او
في سبيل اخوانهم ، وفي الحقيقة انهم تحت قناع الحذر يدعون الذين
يرغبون في خوض المعركة او على الاقل في تقديم السلاح ، ان
يجلسوا فقط على الخيول ، انهم والحق أقول أشبه بالخونة : يهوذا
والقاضي بونطيوس بيلاط .

وكان الرب معلقا على الصليب عاريا الا من خرقه مدلاة من
خاصرته الى ركبتيه وهي ذات ظل اسود واحمر تحفه شرائط بيضاء
وحمرء وخضراء ، واختفى بعد ذلك الصليب وبقي الرب بملايسه

السالفة ، فقلت له مولاي الرب ، انني اذا ما ابلغتهم بذلك فلن يصدقوني ، ورد الرب قائلا : هل تريد معرفة المتشككين ، فأردفت قائلا نعم انني بالفعل أريد ذلك ، وهنا امرني المسيح قائلا : اطلب من الكونت أن يجمع القادة والعامّة معا ، ودعهم يصطفون كما لو كانوا في قتال أو حصار ، واطلب في الوقت المناسب من افضل المنادين أن يطلق صيحة الحرب : «عاوننا يارب» ثلاث مرات ، واطلب منهم أن يسعوا لاكمال التعبئة للقتال ، وعندها سترى كما قلت لك الصوف وستتعرف على المؤمنين والمتشككين .

ثم سألته : ما الذي علينا أن نفعله بالمتشككين ؟ فأجاب الرب : لا تظهروا لهم أدنى رحمة ، اقتلوهم انهم من الذين خانوني ، انهم اخوة يهوذا الأسخر يوطي ، ووزعوا ممتلكاتهم الدنيوية على الصف الاول وفقا لاحتياجاتهم ، وستجدون بهذا الصنيع الطريق القديم الذي كنتم حتى الآن تدورون حوله ، ومثلما تحققت نبوءات التجليات الاولى ستتتحقق هذه، وبهذه المناسبة هل تعرف الجنس الذي أنظر اليه نظرة خاصة ؟ واجبته قائلا : الجنس اليهودي، فقال الرب : انني احمل لهم عظيم الكراهية بصفتهم ممن الكفار ، واصنفهم مع احط الاجناس ، لهذا تأكدوا انكم لستم كفارا ، والا ستكونوا مع اليهود واسوف اختار شعبا اخر واحقق لهم وعودي التي وعدتكم بها .

ثم امرني الرب ان اتلو على مسامع الحجاج قوله : «لماذا تخشون من اقرار العدالة ، دعوني أسألكم ما الذي يفوق العدالة ؟ لذلك أريد منكم أن تقوموا بما يلي : عينوا قضاة بين الأسر والاقارب ، واذا اقترب انسان جرما في حق آخر ، فليسأله القاضي : ايها الأخ هل تحب أن تعامل مثل هذه المعاملة ؟ واذا ركب رأسه واستمر في عدوانه فليحكم القاضي عليه وفقا لما يقضيه القانون ، وبناء على ذلك ليشعر القاضي بحريته في أن يستولي على جميع ممتلكات المدعى عليه، فيعطي نصفها للمدعي ، ونصفها الآخر للسلطات ، واذا ما قال القاضي كلاما يحتمل وجهين وذلك لأي سبب من

سبب ، امض اليه واخبره انه اذا لم يصلح ذلك الامر ، فلن
منه حتى يوم القيامة ، الا اذا حللته أنت ، هل تعرف كم هو
بمان عبء ثقیل ؟ لقد امرت آدم الا يلمس شجرة المعرفة - اي
الخير والشر - فخالف امري ، وهكذا مكث هو وذريره في قيود
التعاسة ، حتى قدمت على شكل انسان فان ، ففديتهم بصليبي
واقول لكم ان بعضكم ينبغي ان يأخذ من العشور لانهم اعطوا
حسبما امروا ، وساكافئهم واعطيهم واجعلهم من المتفوقين .

وبعد كلام الرب طلبت منه ان يتعطف بقلبه فيعيد الي معرفة
الصلوات التي اخذت مني حديثا في انطاكية ، وسألني الرب
اللا تكفي معرفتك حتى تحكيها ؟ ومع هذا ارى انك تريد
معرفة المزيد ، واصبحت فجأة اثق بحسبكم ولم اطلب
المزيد ، فأجبت يكفيني ما اعرف ، ثم استأنف الرب كلامه
قائلا : ما الذي اخبرتك به ؟ اجبني ، ووجدتني الآن لا احير جوابا
وعندما اح علي حتى اردد كلماته اعترفت يا رب انا لا اعرف
شيئا ، وربي علي الرب امض واحك ما تعرفه وسيكون ذلك كافيا .

وعندما القيت على مسامع الاخوان هذه الاشياء ، قال
بعضهم انهم لن يصدقوا ابدا ان الرب أجرى حوارا مع انسان
كهذا ، متغاضيا عن الأمراء والاساقفة ، ومتجليا بنفسه لفلاح امي
جلف ، لا بل اكثر من هذا لقد تماردوا بعيدا حتى أخذوا يرمونه
بالشكوك حول الحربة المقدسة ، و بناء عليه جمعنا الذين ظهرت
الحربة من قبل امامهم ، ثم استدعينا ارنولف كاهن كونت نورماندي
الخاص وزعيم المتشككين بصحة الرؤيا ، مع انه كان يتمتع
باحترام كبير بسبب علمه ، ثم سألناه عن شكوكه

فأجاب انه يتشكك لأن الاسقف ادھر كان نفسه قد تشكك حول
حقيقة الحربة وأصالتها ، وهنا انبرى له الكاهن بطرس ديزيريوس
بقوله : رأيت ادھر بعد موته هو والمبارك نيقولاس ، وقال لي بعد
كلام : انني اقيم في الضيافة العلوية للقديس نيقولاس ، وكنت قد

أخذت الى الجحيم ، فأحرق شعر النصف الايمن من راسي مع نصف
لحيثي ، وذلك لأنني قد ترددت بالايمان بالحربة ، في حين كان علي
ان أقبلها أنا بالذات من دون الناس ، والآن على الرغم من أنني
لست عرضة للعقاب ، انني لا أستطيع ان أرى الرب بوضوح حتى
يحصل النمو الكامل لشعري ولحيثي من جديد .

وتقدم كاهن اسمه ايبرار وقال : كنت قد ذهبت الى طرابلس قبل
الاستيلاء على أنطاكية بوقت قصير وهناك كنت أعيش حيا أرزق
عندما سمعت بحصار كربوغا للحجاج ، وعندما سمعت بهذه الأخبار
عرفت ان دخول أنطاكية والخروج منها بات أمرا مستحيلا ، كما
انني سمعت الكثير عن المصائب الحقيقية والوهمية التي روجتها
أقاويل المسلمين ، لهذا التجأت الى كنيسة خوفا من الردى
وارتميت أمام تمثال مريم العذراء ، وطلبت لعدة أيام بانشطوات
والدموع رحمة الرب متوسلا بشفاعتها ، وكنت صائما وواظبت على
التوسل بقولي : أيتها السيدة الفاضلة ان هؤلاء حجاج هجروا
أطفالهم وزوجاتهم وتخلوا عن ممتلكاتهم الدنيوية باسم المسيح ومن
أجلك ، وها هم الآن وقد ارتحلوا من أماكن نائية في سبيل ابنك
فأشفقني عليهم يا مولاتي ، وفكري في رأي ابنك ورأيك وفي
أراضيهم اذا أسلمتهم الى الأتراك .

ورحت أتمتم بهذه الكلمات وأتأوه المرة تلو الأخرى ، عندما جاء
مسيحي سوري وقال لي : توقف عن البكاء وابتهج ، ثم تابع يقول :
منذ أمد قصير وقفت أمام أبواب كنيسة مريم المباركة أم المسيح
وإذا أنا بكاهن بملابس بيضاء يتجلى لي ، وعندما سألته عن
اسمه وعن وطنه أجاب : انني مرقس ، المبشر الانجيلي ، جئت للتو
من الاسكندرية ، وقد عرجت على هذا المكان بسبب كنيسة مريم
المباركة .

ثم سألته عن وجهته فأجابني : ان المسيح مقيم الآن في
أنطاكية ، وقد أمر حواريه بالانضمام اليه حتى يقدم يد المعونة في

عرب التي لا بد أن يخوضها الفرنجة ضد الأتراك ، ثم ما لبثت أن

وعندما بقيت على حزني وشكي ودموعي طمأنني السوري نفسه بقوله : لا بد أن تفهم أنه مدون في انجيل بطرس المبارك أن الحشد المسيحي المقدّر له الاستيلاء على القدس ، سيحاصر أولا في أنطاكية ، ولن يخرج من الحصار الا بعد أن يجسد الحربة المقدسة ، ثم أيد ابرار كلامه قائلا : اذا كان أحد متشكك في هذا اشعلوا نارا للامتحان ، وسوف أعبرها باسم الرب دليلا على ذلك . تقدم كاهن آخر هو ستفن من فالنس ، وهو رجل محترم وطيب فأضاف الى هذه الشهادة قوله : لقد تحدث المسيح إلي في محنة من أشد المحن وبحضور أمه مريم العذراء المباركة ووعد أنه في اليوم الخامس من هذا الحديث سيكون رحيمًا وينهي الام المسيحيين ، اذا عدوا اليه بكل قلوبهم ، واعتقد أن الرب كان صادقا في كلمته ، لأن الحرب المقدسة اكتشفت في اليوم الخامس ، والآن اذا كنتم لا تصدقونني فانني أقول انني بعد هذه الرؤيا مباشرة عرضت على أدهم مباشرة كبرهان على صحة ذلك أن أخوض محنة النار أمام الجمهور أو ان أقفز اذا شاء من أعلى برج من الأبراج ، وأن اعرض عليكم الآن الشيء نفسه .

وزاد أسقف أبت قائمة شهودنا المتنامية ، فتقدم وشهد أن الرب فقط يعرف ما اذا كنت قد رايت ذلك في المنام ام لا ، لأنني لا أعرف بكل تأكيد ، ومهما يكن من أمر لقد وقف أمامي رجل بثياب بيضاء وهو ممسك بيده بحربة الرب ، أقول هذه الحربة ، و سألني هل تعتقد أن هذه حربة الرب ؟ وأجبته : بالتأكيد يا مولاي ، غير أنه لما بدا علي عدم الاقتناع طلب مني بخشونة أجابتي أخريين فكررت : انني أؤمن أن هذه هي حربة الرب ، يسوع المسيح واختفى بالحال .

ثم أضفت أنا - مؤلف هذا الكتاب - أمام الأخوة والأسقف الى

هذه الشهادة : لقد كنت في كنيسة القديس بطرس عندما أخرجت الحربة من تحت الأرض ، وهناك عدد كبير آخر من الشهود على ذلك في الجيش ، ثم تابعت أقول : هناك كاهن هو برتراند أوف لى بوي وكان عضو في أسرة أدهم أثناء حياته ، وقد أصيب بمرض عضال في أنطاكية ، وفي تلك الأثناء ظهر لبرتراند أدهم ، وهرقل حامل رايته الذي أصيب بوجهه بسهم وقتل ، بعدما هاجم الأتراك بشجاعة في أشرس معركة دارت في أنطاكية .

وهنا سأل أدهم : ماذا تفعل يا برتراند ؟ فأجاب هرقل : يا سيدي انه مريض ، فأجاب الأسقف : انه مريض لأنه متشكك ، وهنا تمتم برتراند : انني يا سيدي لا أؤمن بحربة الرب مثلما أؤمن بالام الرب ، فحذره أدهم بقوله : ان هذا لا يكفي ، ينبغي أن تؤمن بأكثر من ذلك ، ومع ان الذي تلا ذلك خارج عن موضوعنا ، إنني سأدونه لأهميته ولنفعه للنين يستحقون . عندما اضطرب برتراند المريض المدنف إلى الجلوس امام أدهم ومولاه هرقل رأى عندما جلس هناك جرح السهم المحرز الذي أنهى هموم أدهم الدنيوية ، وهنا سأل برتراند : لقد ظننا يا سيدي ان جرحك التأم ، ولكن ما هذا ؟ فرد عليه هرقل : هذا سؤال جيد ، إنني عندما جئت إلى الرب يسوع المسيح توسلت إليه أن يترك جرحي مفتوحا دون التئام ، ولم يكتف أدهم وهرقل ببلاغ برتراند هذا فقط بل اضافة اشياء أخرى لا تتعلق بهذه الرواية

وسلم أرنولف وأمن بالحربة ، واعترف بعدما سمع بهذه الرؤيا وغيرها ، لا بل زاد على هذا بأن وعد أسقف البارة ، انه سيكفر عن تشككه تكفيرا علنيا ، غير انه عندما جاء في احد الايام إلى اجتماع أعلن انه يؤمن كل الايمان بالحربة ، ومع هذا قال كلاما فيه بعض التورية وذلك عندما قال : إنه سيكفر فقط بعدما يتشاور مع سيده الكونت .

واثار موقف أرنولف سخط بطرس بارتلميو ، وكان على حق لانه

كان رجل صدق وصراحة لهذا اندفع قائلا : إنني لا أتمنى فقط بل أتوسل إليك أن تشعل نارا ، وسأخوض محنة النار وفي يدي الحربة المقدسة ، فإذا كانت هي حربة الرب حقا فإنني سأخرج منها دون أن اكوى بالنار ، لكنها إذا كانت حربة زائفة فستهلكني النار ، وأنا حين أعرض تولي فعل ذلك لأنني أرى أنه ما من أحد يصدق الرؤى أو الشهود .

وارضى هذا الجمهور ، وحددنا موعد محنة النار في يوم الام الرب على الصليب من أجل خلاصنا ، وأمرنا بطرس بارتلميو بالصوم ، وبعد أربعة أيام ومسيح بسجود فجر الجمعة الحزينة (٨ نيسان ١٠٩٩) شرع باعداد كومة الأخشاب ، واكتملت بعد منتصف النهار ، واحتشد نحو من ستين القسا من النبلاء والعوام مع رجال الكنيسة وهم حفاة الأقدام يرتدون الثياب الكهنوتية ، ورصت أغصان الزيتون الجافة في كومتين ارتفاعهما أربعة أقدام ، يفصل بينهما نحو قدم واحد ، ويبلغ طولهما ثلاثة عشر قدما .

وبعد اشعال النار ، وارتفاع لهيبها في الهواء أعلنت أنا ريمون دي جيل بحضور الحشد بأكمله : إذا كان الرب القادر على كل شيء قد تحدث إلى هذا الرجل شخصيا ، وإذا كان القديس أندروز قد كشف له الحربة المقدسة في صلاة العتمة ، فليمش وسط النار دون أن يمسسه أذى ، ولكن إذا كانت هذه أكذوبة فلتلتهم النار بطرس بارتلميو والحربة ، وركعت الحشود قائلة : آمين ، وارتفعت الحرارة اللافحة ثلاثين ذراعا في الهواء ، ولم يستطع أحد الاقتراب منها .

ثم ركع بطرس بارتلميو على ركبتيه وهو يرتدي ثوبا كهنوتيا بسيطا بدون أكمام ، ركع أمام أسقف البارة ، وأشهد الرب على أنه قد رأى المسيح شخصيا على الصليب ، وتلقى منه التعليمات المذكورة آنفا ، وتلقى أيضا تعليمات وأوامر من القديس بطرس

والقديس اندروز ، وأن الأوامر التي بلغها باسم القديس بطرس .
أو القديس اندروز أو المسيح لم تكن من تأليفه ، وأضاف قائلا إنه
إذا كان قد كذب فلن يخرج حيا من الكومة المشتعلة ، ودعا أن يغفر
الرب له على تطاوله على الرب وعلى جيرانه ، وأيضا على الأسقف
والمشاهدين لهذه المحنة ، وسلمه بعد ذلك الأسقف الحربة ، وركع
بطرس ورسم شارة الصليب ، ومشى داخل الكومة المشتعلة بكل
شجاعة ، ودون أن يخيفه شيء ، لقد سار في وسطها بتمهل ، وخرج
أخيرا ببركة الرب من وسط اللهب .

ويزعم حتى يومنا هذا بعض الشهود أنهم رأوا الآية التالية : طار
طائر فوق رأس بطرس قبل أن يخرج من وسط النيران ، ودار ونزل
في النيران ، وشهد بذلك كل من ايبرار الذي نكرناه من قبل ، والذي
اقام في القدس من أجل الرب ، ووليم بونوفيليوس ، وهو فارس
محترم ممتاز من أربليس ، وذكر وليم مالوس بوير ، وهو فارس
محترم من بيزييه أن رجلا يرتدي الزي الكهنوتي مع ثوب القداس
فوق رأسه ، دخل اللهب قبل أن يدخل بطرس ، وذكر وليم أنه بدا
يصرخ عندما لم يستطع أن يرى الرجل يخرج من النار لأنه أخطأ ،
وظنه بطرس بارثلميو ، واعتقد أن بطرس قد التهمته النيران .

وفي وسط الزحام الشديد كانت هناك أشياء كثيرة لم تشاهد
جميعها ، إنما كانت هناك تجليات وأحداث كثيرة نحن نعرفها بكل
تأكيد ، إنما لن نحكيها خوفا من إصابة القارئ بالملل ، فضلا عن
ذلك إن توفر ثلاثة من الشهود الواعين يعد كافيا للبت في جميع
الأحكام ، ومع هذا لن نهمل رواية ما يلي : بعدما عبر بطرس
النار ، راح الجمهور الذي أصيب بالخوف يتخطف الأغصان
المحترقة والفحم المتوهج حتى أنه لم يبق بعد وقت قصير إلا الأرض
التي اسودت من النيران ، وصنع الرب فيما بعد من خلال هذه
الآثار التي أمن بها الناس ، الكثير من الأعمال الجليلة .

لقد سار بطرس وسط النيران ولم يحترق ثوبه الكهنوتي ولا الحربة

المقدسة التي كانت ملفوفة بأغلى أنواع الأقمشة ، ولدى خروجه لوح
للحشود ورفع الحربة وهتف قائلا : يا رب ساعدنا ، وهنا أمسكت
به الحشود ، أقول أمسكت به الحشود وجذبتة نحو الأرض ، وأخذ
كل فرد - تقريبا - من الرعاع يدفع ويتدافع ظاننا أن بطرس على
مقربة منه ويأمل في أن يلمسه أو يختطف قطعة من ثيابه ، وجرحه
الرعاع ثلاثة جروح أو أربعة في ساقيه أثناء التزاحم ، كما كسروا
عموده الفقري ، واعتقد أن بطرس كان سيلقي حتفه هناك لولا أن
ريموند بيليه ، وهو فارس مشهور وشجاع ، قام يساعده رفاق له
كثيرون بمهاجمة الرعاع المتدافعين ، وجازف بحياته حتى انتزعه
منهم ، غير أنه لا يمكننا كتابة المزيد بسبب حزننا واسمانا .

وبعد التنام جراح بطرس بقي حيث حمل ريموند بيليه ، وسألنا عن
السبب الذي جعله يقف في النار ، فأجاب : لقد قابلني الرب في وسط
الذهب ، وأمسك بيدي ، وقال لي : إنه بسبب شكوكك حول اكتشاف
الحربة المقدسة أيام تجليات القديس أندروز ، إنك لن تعبر دون
جروح ، إنما لن ترى الجحيم ، واختفى الرب بعد هذه الكلمات ،
واستأنف بطرس كلامه قائلا : هل تودون رؤية حروقي ، وكانت
جراحه شديدة ، لكن الحروق التي على ساقيه فكانت تافهة .

ثم جمعنا المتشككين ليفحصوا وجهه ورأسه وشعره وأجزاء أخرى
من جسده حتى يتأكدوا من صدق رؤياه - بطرس - التي تحمل من
أجلها محنة النار ، وبعد رؤية وجهه وجسده مجد العديد الرب بهذه
الكلمات : إن الرب الذي خلص هذا الرجل من هذه النيران
الحامية ، النيران التي بلغ من حرارتها أننا اعتقدنا أن سهما لا
يمكنه أن يمر منها دون أن يحترق تماما ، يمكنه بكل تأكيد أن يكون
حاميا لنا وسط سيوف المسلمين .

وبعد ذلك دعا بطرس ريمون دي جيل كاهن الكونت وسأله: لماذا
ارتبتي أن أخوض محنة النار لأثبت رؤياي للحربة المقدسة وأوامر
الرب ؟ لاشك أنني أعرف أفكارك المشوشة ، وعندما أنكر ريمون

- ٢٦٧٨ -

هذه الظنون ، أفحمه بطرس بقوله : إنك لا تستطيع انكار الدليل التالي ، لأنه دامخ ، فقد عرفت الحقيقة ذات ليلة من مريم العذراء وادهمر ، لقد تملكطني الدهشة عندما عرفت أنك على الرغم من أنه لم يكن لديك أدنى شك في كلمات الرب وكلمات رسله ، لقد تمنيت موتي وأنا أحاول إقامة الدليل على صحة هذه الرؤى نفسها .

وبعدما كشف بطرس أكاذيب ريمون وذنبيه أمام الرب ، بكى ريمون دي جيل بحرقه وألم ، لكن بطرس واساه بقوله : لا أريدك أن تحزن ، لأن مريم العذراء المباركة وأندروز المبارك سيحصلان لك على الغفران ، أمام الرب ، إذا أنت صليت ودعوة لهما بحرارة .

الفصل الثالث عشر

رفع الحصار عن عرقة واستئناف الرحلة إلى القدس

مزقت النزاعات في هذه الآونة صفوف الجيش ، لكن الرب ، ربنا ومرشدنا رتق هذه النزاعات حتى لاتضيع نعمه ، وعندما عرف حاكم طرابلس ، وهي مدينة قريبة من مخيمنا ، بأمر النزاعات ، استخف بنا حين طلب مبعوثونا الجزية منه ، وقال : من هم الفرنجة حتى أخشاهم وماقيمة فرسانهم وماهي مدى قوتهم ، فكروا بالأمر ، لقد حاصر جيش الفرنجة عرقة ثلاثة أشهر ، ومع أنني لاأبعد عنهم أكثر من أربعة فراسخ ، لم يقع منهم هجوم واحد علي ، ولم أشهد رجلا مسلحا منهم ، أيها الفرنجة ازحفوا إلى طرابلس ودعونا نراكم ونختبر فرسانكم ، لماذا علي دفع الجزية إلى وجوه لم أرها وإلى قوة لم أعرفها .

وأثار هذا الجواب الشكوى العامة وتسائل الجميع : انظروا ماذا جئنا من النزاعات والمشاحنات ، لقد احتجب الرب عنا من جديد ، وبتنا موضع ازدراء ، ووحدت هذه المشاعر الأمراء فأمرؤا أسقف البارة مع قسم من الجيش القيام بحراسة المخيم ، في حين يقوم الفرسان والرجالة يتقدمهم الأمراء ، بالزحف وهم على تعبئة ضد تحصينات طرابلس ومهاجمتها ، وعندما زحف جيشنا بتشكيلته القتالية المحددة خرج في الوقت نفسه أهل طرابلس وهم على ثقة بحشودهم الصاخبة ، خرجوا على تعبئة للتصدي لنا ، وكان هناك سور قوي ومرتفع جدا ومجرى مائي يمضي إلى طرابلس ، وقد شكل طريقا ضيقا بين المدينة والبحر الذي يحيط بطرابلس من جهات ثلاث .

وحصن المسلمون هذا السور حول المجرى المائي ، حتى صار بإمكانهم التراجع إلى الوراء في حال الاخفاق أو أن يمشوا إلى الأمام كما لو كانوا يمرون من حصن إلى حصن ، وعندما رأى الحجاج منظر أهالي طرابلس ، وهم واثقون بموقعهم القتالي وبأسلحتهم ، ابتهلوا جميعا فرسانا ورجالة إلى الرب ، ولوحوا برماحهم واحتشدوا جميعا وجاء زحفهم نحو صفوف العدو أشبه بموكب ، بحيث لو أنك شهدت ذلك الزحف لخيّل إليك أنهم كانوا يتقدمون بمثابة أصدقاء لأعداء ، وألقى الرب الرعب في صفوف قوات طرابلس ، وهربت هذه القوات من أول ضربة وامتلات الأرض بدم المسلمين وسدت جثثهم مجرى الماء ، وكان مشهدا بهيجا رؤية المياه المتدفقة بالمجرى وهي تقذف بجثث السادة والعوام إلى طرابلس وقد فقدت رؤوسها ، ولقد فقدنا رجلا أو رجلين بينما يقال قتل سبعمائة من الأتراك .

وبعد هذا النصر عاد قانتنا إلى عرقة وصرخوا : لقد رأنا حاكم طرابلس اليوم ، ورأينا نحن بدورنا الطرق إلى طرابلس ، ودرسنا سبل الهجوم ، وإذا وافقتم الآن دعونا نجعل صاحب طرابلس يتعرف غدا إلى معن رجالنا حقا ، وهكذا لم يتجرأ شخص واحد على الخروج من طرابلس عند عوبتنا إليها في اليوم التالي ، وإثر ذلك عرض صاحب طرابلس على أمرائنا أن يدفع لهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، مع كميات من المؤن والملابس والخيول والبغال ووعد بتأمين سوق عامة مفتوحة ، وأن يعيد إلينا جميع الأسرى المسيحيين إذا ما تخلينا عن حصار عرقة .

ووصل آنذاك رسل من الامبراطور الكسئوس إلى المخيم يحملون احتجاجا على استيلاء بوهيموند على أنطاكية خلافا للعهد التي قطعت للامبراطور ، وسأوقف روايتي هنا لأنكر أن بوهيموند بات الآن يحتل أنطاكية لوحده لأنه تولى طرد أتباع ريموند بكل عنف من الأبراج التي كانوا يتولون حراستها ، وفعل ذلك عندما علم أن الكونت قد غادر معرة النعمان إلى داخل سورية ، هذا وذكر المبعوث

البيزنطي أن الكسيوس سيقدم لنا مبالغ كبيرة من الذهب والفضة ، وأن على الفرنجة انتظاره حتى يوم عيد القديس يوحنا (أواخر حزيران) حتى يتمكن من السير معهم إلى القدس ، ومما هو جدير بالذكر أن عيد الفصح كان يقترب في ذلك الوقت .

وارتأى كثيرون كان منهم كونت صنجيل تاجيل الزحف ، وقالوا : لنؤجل زحفنا حتى يصل الكسيوس ، فنحصل على منحه ، ثم إن وجوده سيوفر التجارة برا وبحرا ، ويمكننا أن نتوحد تحت قيادته ، وأنذاك ستلقى المدن جميعا أسلحتها وسيتملكها الكسيوس أو يخربها حسبما يشاء ، وهناك أيضا احتمال كبير أن الحجاج ، الذين أجهتتهم الخلافات الطويلة والمستمرة سيؤثرون ، إذا وصلوا إلى القدس ، العودة إلى ديارهم فور رؤية أسوارها ، لذلك فكروا بكل عناية في عدد المخاطر الكامنة في مواجهة الذين يتوقون إلى الوفاء بنذرهم ، ولنشدد الحصار على عرقة حتى تستسلم حاميتها في خلال شهر ، أو يتم أخذها بالقوة ، ولنتذكر أننا إذا ما قررنا عدم جدوى الحصار ، وانتشرت بعيدا أخبار تخلينا عن متابعته ، سنصبح ونحن الجيش الذي عرف بتنفيذه لمشروعاته بنجاح ، موضع سخرية واستهزاء .

وحاجج آخرون ضد هذه الآراء وقالوا : لقد ألحق الأمبراطور الضرر بنا يوما ، وتآمر علينا ولما أبرك أنه ضعيف ، وأننا أقوياء بفضل الرب ، سعى إلى إبعادنا عن القبر المقدس ، خشية أن يؤدي الحديث عن نجاحنا إلى أن يحزن آخرون حزنونا ، وليحزن الذين أساء الأمبراطور إليهم بالقول أو بالفعل من أن يثقوا به ، فمثل هذه الثقة لاطائل تحتها ، وماعلينا الآن إلا أن نستأنف زحفنا نحو القدس ، ولنضع ثقتنا بقائدنا المسيح الذي نجانا من المخاطر التي أشعرتنا باليأس ، وحمانا من أعمال الكسيوس وخداعه ، وسنحقق عندها أحلامنا بكل سهولة بوعده الرب ، ولدى سماعه بأخبار استيلائنا على القدس ، وتوفر التجارة المفتوحة ، سيرد على ذلك بأعمال مجدية وهدايا بدلا من الكلمات البراقة .

ووافقت الاكثرية من بين الحجاج على الرأي الأخير هذا ، غير أن رغباتهم تعارضت مع رغبات مجلس الأمراء وتوفرت لهذا بعض المصاعب ، وثارت المصاعب وتفجرت بسبب حاشية الكونت ريموند حيث كانت ضخمة ثم لأنه كان قد واجه الموت بكل شجاعة دون أن يكون معه القادة الآخرون ، ولهذا أيضا حقق الكثير من المكاسب الخاصة به .

وبشأن هذه المحنة أعلننا للناس ضرورة الصوم والصدقات على أمل أن يتعطف الرب القادر على كل شيء ، والذي أخذ بأيدينا عبر بلاد كثيرة ، فيبلغنا الآن مشيئته ، وهكذا أقنعت صلوات المؤمنين الرب ، فقد تجلى الأسقف أدهم إلى ستيفن أوف فالنس ، الذي ذكرناه من قبل لدى الحديث عن رؤياه للرب على الصليب ، وضربه أدهم بقضيب عندما كان عائدا يمشي في طريقه إلى البيت ، وكان هذا ذات ليلة من الليالي وقد ناداه : يا ستيفن ، فرد عليه ستيفن : مولاي ، وعندما انعطفت تعرف على أدهم ، فسأله أدهم : لماذا تجاهلت عدة مرات أوامري المتعلقة بصليب الرب ، مع أوامر أمنا مريم العذراء ، إنني اتحدث عن الصليب الذي كان في الصفوف الامامية لقواتي ، ليحمل هذا الصليب في الجيش ، والآن أخبرني أي أثر ديني هو أفضل من الصليب ، ألم يرشدكم هذا الصليب إلى الحربة المقدسة وينفعكم بما فيه الكفاية ، إن سيدتنا مريم العذراء تقول لكم الآن : إنه بدون هذا الصليب لن تكون لديكم رحمة .

وهنا صاح ستيفن : أه يا أعظم الأسياذ ، أين هي مريم المباركة ؟ وكشف أدهم بالحال عن مريم رائحة الشكل والملبس ، وهي واقفة على نحو تسعة أذرع أو عشرة مع أجاثا المباركة ، وعذراء ممسكة بشمعتين ، وهنا تكلم ستيفن مع أدهم ، الذي كان يقف إلى جوار مريم وقال : ياسيدي إن الاشاعات في الجيش كثيرة ، ومن بينها أن شعرك ولحيتك قد احترقا في الجحيم ، وغير ذلك من القصص التي من الصعب تصديقها ، يضاف إلى هذا إنني

أتضرع إليك وأتوسل أن تعطيني واحدة من الشموع لأحملها دليلاً على أوامرك وأعطيها إلى الكونت .

فأجابه أدهم : حقيق بوجهي ، ألا تراه محترقاً ، ثم خطا الأسقف نحو مريم العنراء وبعدما عرف قرارها عاد إلى ستيفن وقال له : لا يمكن تلبية رغبتك ، لكن الخاتم الذي في إصبعك لافائدة لك منه ، فلا تلبسه ، واذهب إلى ريموند وقدمه إليه وأخبره أن العنراء المقدسة كثيراً ، تبعث إليك بهذا الخاتم ، وفي ساعة كل إخفاق تذكر في ذهنك السيدة مانحة هذا الخاتم ، وتوسل إليها وسيساعدك الرب .

واستفسر ستيفن مجدداً عن الأوامر المتعلقة بأخيه ، وأجابه أدهم : دعه يقنع الأسقف المنتخب ليقيم ثلاثة قداسات للرب ولأرواح النا ، وتأمر أمنا مريم ألا تظهر الحرية المقدسة بعد ذلك إلا ويحملها كاهن يرتدي الملابس المقدسة ، وأن يتقدمها الصليب على النحو التالي : وأمسك أدهم الصليب معلقاً على رمح ، وتبعه رجل يرتدي الثياب الكهنوتية والحرية المقدسة بيده ، وكان الأسقف يردد ساعتئذ : « أيتها العنراء مريم أبدي الهراقة بذاتك و أزيلهم ، واشتركت مئات الألوف من الأصوات لأبل مالا حصر له في جوقة المرتلين السماوية ، ثم اختفت جماعة القديسين .

وفي الصباح التالي كان أول ما سأل عنه ستيفن هو عما إذا كانت الحرية مازال لدينا ، وعندما رآها انفجر باكياً ، وشرع يحكي الرؤيا السالفة وما رآه وسمعه ، وتأثر الكونت بذلك ، فأرسل وليم هيو أوف مونتييل أخو أسقف لى بوي إلى اللانقية حيث كان قد ترك صليب أدهم وقلنسوته .

وفي تلك الآونة استدعى بطرس بارثلميو – الذي كان قد أقعده المرض الناجم عن الكلمات والجروح التي لحقت به – إليه الكونت مع القادة الآخرين وقال لهم : لقد دنا الموت مني ، وأنا على يقين

تام أنني سأحاسب في حضرة الرب على كل أعمالي ، أو كلماتي أو افكاري الشريرة ، وأشهد الرب بحضوركم أنني لم اخترع أي شيء بخصوص جميع الأشياء التي أبلغتكم عنها على أنها من عند الرب والرسل ، ولا أرتاب مطلقا أنكم سترون تحقق كلماتي إذا ما خدمتم الرب بصدق ، وإثر هذا مات بطرس في الساعة التي حددها الرب ، مات بسلام وبفن في البقعة التي عبر فيها النار وهو يحمل الصلبة المقدسة .

وفي تلك الاثناء سأل ريموند وكذلك فعل أمراء الجيش الآخرون - أهالي المنطقة عن أفضل الطرق إلى القدس وأقلها وعورة ، ولهذا قدم إلينا بعض السوريين ، وسأستغل قدومهم لأحكي أنه ما برح قرابة الستين ألفا من المسيحيين يمتلكون جبال لبنان والأحواز المحيطة به لسنوات عديدة ويطلق على هؤلاء المسيحيين اسم الصوريين لجاورتهم لمدينة صور ، لكن بعدما زابت قوة المسلمين والأتراك ، وكان ذلك بإرادة الرب ، أرغموا العديد من الصوريين الواقعين منذ أربعمئة سنة أو أكثر تحت نيرهم على التخلي عن بلادهم وعقيدتهم المسيحية .

بيد أنه إذا كان بعضهم قد تحدى المسلمين بفضل الرب وعونه ، فقد أرغموا على تسليم أطفالهم حتى يتم ختانهم وتعليمهم القرآن ، وتجاوز الأمر هذا الحد حيث كان الآباء يتعرضون للقتل وتلقى الأمهات معاملة مشينة بانتزاع أطفالهن من أحضانهن ، ولقد دفعت النوازع الشريرة الملتهبة هذا الجنس من البشر إلى هدم كنائس الرب والقديسين ، وتحطيم الأيقونات ، وثقب أعين الصور التي لا يمكن تحطيمها ، واستخدام التماثيل هدفا لنبالهم ، وقلبوا الهياكل وحولوا الكنائس الكبيرة إلى مساجد ، وكان إذا ما رغب مسيحي ما في اقتناء صورة للرب أو لقديس في بيته ، فقد ترتب دفع ثمن لذلك شهرا بعد شهر وعاما بعد عام ، وإلا كان سيرى هذه الصورة وقد ألقيت بالوحد وحطمت ، وما أسأرويه الآن غير مفرح بالبقية ، فقد

وضعوا شبابهم بالمواخير ، وألزموا فتياتهم بتقديم الخمر من أجل المزيد من الفسق .

وكانت الأمهات يخشين البكاء من ذلك أو غيره من الآلام علنا ، لكن لماذا أبعد هذا الوقت كله على السوريين ، فمن المؤكد أن هذا الجنس قد تأمر على قدس الأقداس وعلى تراثه ، ولولا أن الرب قد لجم بأمره ومبارته الحيوانات المتوحشة عن شرور مماثلة ، مثلما فعل مرة مع جنوبنا ، لقد للفرنجة أن يلاقوا مصائب السوريين ، ويكفي هذا لتغطية الموضوع .

وفي اجتماع مع ريموند صنجيل سئل السوريون الذين أشرت إليهم من قبل عن الطريق ، فأجابوا : إن طريق دماشق ممهد وفيه مايكفي من المؤن ، لكن لأماء به لمدة يومين ، والطريق من خلال جبال لبنان مأمون وتتوفر به الضروريات ، لكنه وعرجا جدا بالنسبة للجمال ولدواب الحمولة ، ومع ذلك هناك طريق آخر محاذ للبحر ، غير أن به بعض المنافذ الضيقة جدا ، إلى حد أن خمسين أو مائة من المسلمين يمكنهم صد هذا الحشد البشري كله ، ومع هذا إنه مدون في إنجيلنا لبطرس المبارك إنه إذا كنتم أنتم الذين قسر لهم الاستيلاء على القدس ، فإنكم ستسيرون بحذاء ساحل البحر ، على الرغم من أن مخاطره تجعله يبدو مستحيلا ، وهذا الإنجيل الذي كتب بيننا لا يتضمن اختياركم للطرق فقط ، بل الكثير من أعمالكم المتقدمة ومسار الأحداث المقبلة .

وفي أثناء تبادل الآراء هذه عاد وليم هيو أوف مونتيل بالصليب السالف الذكر ، وأشارت رؤية الصليب مشاعر حاشية الكونت بخصوص الرحلة حتى أنه خلافا لرأي ريموند وأمراء آخرين أحرق هؤلاء ملاجئهم وكانوا أول من غادر عرقة

وانفجر ريموند باكيا ، وأخذ يزدري نفسه والآخرين ، لكن الرب أغفل مشاعره مراعاة لارادة جمهور الحجاج ، هذا وراح من جانب

آخر غوبغري - الذي كان تواقا الى استئثاف الزحف يحرض الناس ، وهكذا وصلنا - بعدما تخلينا عن هذا الحصار الكريه والمقوت لعرقه - الى طرابلس حيث حاول ريموند - على الرغم من مواجهته للمعارضة الجماعية للقادة - أن يغريهم بمختلف السبل بالتوسلات والمكافآت بحصار طرابلس .

وهنا تجلى القديس أندروز الى بطرس نيزيد يريوس - وهو رجل كنا قد ذكرناه من قبل - وأمره بقوله : إذهب وأبلغ الكونت وقل له : توقف عن ازعاج نفسك وازعاج الآخرين لأنك لا يمكن لك توقع أي مساعدة من الرب حتى يتم الاستيلاء على القدس أولا ، ولا تنزعج لعدم اكتمال حصار عرقه ، ولا تحمل هما اذا لم تسقط هي ومدن أخرى على الطريق ، وفي الحقيقة هناك معركة وشيكة سيتم اثرها الاستيلاء على هذه المدينة ومدن أخرى ، لهذا أطلع عن ارباك نفسك مع أتباعك ، وجد باسم الرب وأعط بسخاء من عطاياه لك ، وكن أيضا رفيقا وصديقا مخلصا لرجالك وسيعطيك الرب القدس والاسكندرية والقاهرة اذا فعلت ذلك ، ولكنك اذا لم تفعل هذا فانك لن تحصل على الجوائز التي وعد الرب بها ، ولن يكون لك ثروة حتى تكون في عوز لا مفر منه .

وخضع الكونت لهذه الكلمات التي تفوه بها الكاهن لكنه كان خضوعا باللسان فقط ، ذلك أنه تجاهلها بأعماله وأنكرها بتقديره بالكنوز الهائلة التي استحوذ عليها من صاحب طرابلس ، زد على هذا فقد أثار غضب أتباعه بالشتم والتعنيف ، وقد حكى بطرس نيزيد يريوس ذلك مع مسائل أخرى كثيرة ، نأتي على ذكر بعضها في هذا الكتاب .

فقد قدم الي بطرس نيزيد يريوس أناريمون دي جيل ، قبل ذلك بوقت طويل ، عندما كنا نفكر بمغادرة أنطاكية ، وأخبرني أنه رأى رؤيا أتى فيها شخص وأمره بقوله : اذهب الى كنيسة ليوننتيوس المبارك حيث ستجد آثار أربعة قديسين ، فخذها واحملها الى

القدس ، ومضى الشخص معه وأراه الآثار ومكانها ، وأخبره بأسماء القديسين ، ومع ذلك تشكك بطرس بالرؤيا بعد أن استيقظ وصلى وتوسل الى الرب أن يؤكد له مرة ثانية أن ذلك كان وحيا منه ، وهكذا ظهر القديس نفسه مرة أخرى ، وتهدده لاهماله أوامر الرب ، وقال : إنه اذا لم يتم نقل البقايا قبل اليوم الخامس من الاسبوع ، فستلحق به مضار كبيرة هو وسيده ايزوارد كونت أوف داي ، وهو رجل مخلص للرب بنوره وحكمته وببركته التي نفعتنا .

وقد رددت هذه القصة على مسامع أسقف أورانج وريموند صنجيل وآخرين بعدما حكاها لي بطرس ، وتوجهنا بعد ذلك مباشرة الى كنيسة ليونتيوس ونحن نحمل الشموع ، التي قدمناها مع النذر للرب وللقيسين في الكنيسة نفسها ، وسألنا الرب الذي جعل هذه الآثار مقدسة ، أن يحددها لنا لتكون رفيقا لنا وعونا ، وسيكون هؤلاء القديسون مرتبطين بنا بدلا من ازدياء زمالة الحجاج ، ومن نفاهم الرب ، وسيكون ارتباطهم هذا بدافع من الحب المسيحي ، وهكذا يربطوننا بالرب ، وأتينا في الصباح التالي بصحبة بطرس بيزيد يريوس الى مكان آثار القديسين ، وحسبما روي من قبل تماما وجدنا بقايا القديس كيرريان والقديس أوميخيوس ، والقديس ليونتيوس والقديس يوحنا الذهبي الفم ، كما وجدنا هناك أيضا خزانة بها آثار لم يتعرف عليها الكاهن ، وعندما سألنا السكان المحليين اختلفوا في تعريفها ، فقال بعضهم إنها للقديس مركوريوس ، بينما ذكر آخرون أسماء قديسين آخرين ، وبغض النظر عن غموض أمرها ، لقد أراد بيزيد يريوس جمعها ووضعها مع الآثار الأخرى .

فقلت أناريمون دي جيل بكل قوة وأمام الجميع : إنه اذا رغب هذا القديس في الذهاب معنا الى القدس فليعلن اسمه وليبين رغبته وإلا فسيتبقى في هذا الصنوق ، ليس علينا أن نزيد من أعبائنا بحمل هذه العظام المجهولة ، ونتيجة لموقفنا هذا تركنا العظام التي لم يتعرف عليها أحد في ذلك الوقت .

وفي الليلة التالية لجمع الكاهن للبقايا الأخرى ولفها بالاقمشة وتغطيتها ، وقف أمامه شاب وسيم في حوالي الخامسة عشرة من عمره ، أثناء صلاة العتمة وسأله : لماذا لم تحمل رفاتي مع الآخرين هذا اليوم ؟ وهنا سأله الكاهن : ومن أنت ؟ فرد عليه الشاب متسائلا : ألا تعرف اسم حامل راية هذا الجيش ؟ واعترف بطرس بجهله قائلا : لا يا سيدي ، وعندما كرر بطرس الإجابة بنفسها عنفه الشاب بقوله : أخبرني بالحقيقة ، وهنا أجابه بطرس : يقال يا سيدي إن القديس جرجس هو حامل راية هذا الجيش ، وهنا قال الشاب : صحيح الذي تقوله ، إنني أنا القديس جرجس وأنا أمرك أن تجمع رفاتي وتضعها مع آثار الآخرين

ومع هذا لم ينفذ الكاهن الأمر ، ومرت الأيام فعاد القديس جرجس اليه وطلب منه بغلظة : لا تدع الصباح يمر دون أن تجمع رفاتي وخذ أيضا زجاجة من دم مريم العذراء والشهيدة تقلا ، وستجدها بالقرب ، ورتل القداس ، ووجد بطرس نيزيد يريوس هذه المرة هذه الأشياء جميعا ونفذ أوامر القديس جرجس .

وقبل أن أتابع رواية قصتنا مفيد أن أذكر خبر الرجال الذين تجرأوا وأبحروا على سطح البحر المتوسط الشاسع الغريب ، وعبروا المحيط حبا بالقيام برحلة الحج تحت راية الصليب ، فعندما سمع هؤلاء الانكليز بأخبار الحملات تحت راية الصليب التي تشن باسم انتقام الرب من الذين دنسوا الأرض التي ولد فيها المسيح ورسله أبحروا في البحر الانكليزي ، وداروا حول سواحل اسبانيا ، وبعد جهود جبارة وصلوا الى ساحل أنطاكية واللانقية قبل وصول جيشنا ، وقد أمن الانكليز لنا مع الجنوية سبل التجارة مع قبرص و الجزر الأخرى ، فاثبتوا بذلك فائدتهم ومعونتهم ، وكانت هذه السفن تبحر يوميا وتمخر عباب البحر ذهابا وإيابا فتبث الرعب في قلوب المسلمين وتجعل ابحار السفن الاغريقية أمرا ميسورا ، فضلا عن هذا عندما رأنا الانكليز ننطلق نحو القدس ، وراوا خشب السرو المصنعة منه سفنهم يتأكل ويتعفن لطول عهده حتى لم يبق من

الثلاثين سفينة غير تسع سفن ، عندما رأوا هذا هجر بعضهم السفن ونزلوا الى الشاطئ ، في حين أحرق آخرون قواربهم وبادروا بالانضمام الى الزحف ضد القدس .

وتعمل أمراؤنا أمام طرابلس حتى غرس الرب في قلوبهم الرغبة في مواصلة الرحلة بحيث زالت كل معارضة ، وتحركنا على خلاف عاداتنا وأوامر الأمراء ليلا ، وسرنا طوال الليل فوصلنا الى بيروت في اليوم التالي ، وبعد أن استولت طليعتنا فجأة على « مرتقى صور » وصلنا الى عكا دون أن يعترض سبيلنا معترض وأنجز ذلك خلال أيام قليلة ، وخاف حاكم عكا من الحصار ، وانتظر بفارغ الصبر رحيلنا وأقسم لريموند على أنه سوف يسلم نفسه وعكا لحملة الصليب اذا ما استولينا على القدس ، أو بقينا في فلسطين لمدة عشرين يوما دون أن نضطر الى الاشتباك مع ملك مصر ، أو اذا هزمنا هذا الملك ، ووعد حاكم عكا أنه سيقدم في تلك الاثناء صداقته ، ورحلنا بعد ذلك من عكا ، وكان ذلك في مساء أحد الايام وعسكرنا على مقربة من المستنقعات المجاورة .

قصة الطائر الذي حمل رسائل بقتل حملة الصليب :

وحسبما جرت العادة في تلك الاثناء ، راح بعضنا يجري هنا وهناك بحثا عن بعض الضروريات وبعضنا كان يبحث عن خيام أصدقائه ، وفيما نحن كذلك ألقى صقر طار فوق المعسكر بطائر مصاب بجرح قاتل في المعسكر الذي كان يعيش ساعته في لغط وضوضاء ، وعندما التقط أسقف ابي الطائر وجده يحمل رسالة تقول : « التحيات من صاحب عكا الى أمير قيسارية ، لقد اجتاح بلادي جيل من الكلاب ، من جنس أحرق فوضوي عنيد ، فاذا كنت حريصا على سلامتك فيمكنك أنت والمسلمين الآخرين الحاق الأذى بهم ، وطالما يمكنك فعل ما تريد بيسر ، انقل هذه الرسالة الى المدن

والحصون الأخرى ، ، وفي الصباح عندما انتظم الجيش وكان في حالة استرخاء نشرت محتويات الرسالة ، وبذلك تجلى لنا عطف الرب ، وهو عطف منع الطيور الطائرة من الحاق الأضرار بنا وكشف لنا أسرار عدونا .

فحمدنا الرب القادر ومجدناه على كل شيء ، ثم رحلنا بلا وجل بكل خفة و نشاط ، وكنا نسير في أرتال امتبئت من الأمام الى الخلف ، و عندما سمع سكان الرملة المسلمون أنباء عبورنا لنهر قريب ، تخلوا عن قلاعهم و أسلحتهم مع كثير من الحبوب في الحقول و محاصيل محصودة ، وهكذا عندما وصلنا في اليوم التالي كنا على يقين أن الرب كان يحارب من أجلنا ، ونذرنا هنا النور للقديس جرجس قائدنا المعترف به ، و قرر قابتنا و الجمهور اختيار أسقف (لمينتي اللد و الرملة) كما وشعرنا أن القديس جرجس سيكون شفيعنا عند الرب ، وسيكون قائدنا المخلص من خلال موطن اقامته .

وبما أن الرملة تبعد قرابة خمسة عشر ميلا عن القدس ، فقد عقدنا مؤتمرا هناك ، وفيه قال بعضهم : أجلوا الزحف الآن ، وتحولوا نحو مصر ، فاذا استطعنا بفضل الرب الاستيلاء على مملكة مصر فاننا لن نربح القدس فحسب بل القاهرة والاسكندرية أيضا مع ممالك أخرى كثيرة ، ومن جانب آخر اذا ما زحفنا على القدس ثم تخلينا عن الحصار لشح المياه فاننا لن ننجح أبدا .

وقال بعضهم الآخر : على الرغم من أن قواتنا تكاد لا تبلغ ألفا وخمسمائة من الفرسان مع عدد ضئيل من الرجال المسلمين ، فإن هناك من يفضل القيام بحملة الى أرض غربية ونائية تعزلنا عن مساعدة بني جلدتنا ، وبناء عليه إن الفرص هنا قليلة في الاحتفاظ بأي مدينة يتم الاستيلاء عليها ، أو استحواذ طريق للفرار عند الحاجة ، وبما أنه ليس في هذا أي فائدة علينا التمسك بطريقنا وليتول الرب شؤون الحصار والعطش والجوع والأمور الأخرى .

الفصل الرابع عشر

حصار مدينة القدس والاستيلاء عليها

ووضعنا اثقالنا على ظهور جمالنا وثيراننا ودواب الحمولة الاخرى ثم اندفعنا نؤم القدس ، بعد ما حصلنا على الاذن من الاسقف الذي تركنا معه حامية ، وفي اندفاعنا الجنوني بسبب الطمع بالاستيلاء على القلاع والبيوت ذات الحدائق ، لم نتذكر ولم نعبأ بوصايا بارثلميو واوامره بالانقرب من القدس ، عندما نكون منها على مسافة فرسخين ، الا ونحن حفاة الاقدام ، وكان من التقاليد المتبعة عدم الاستيلاء من قبل اي منا على اية قلعة او مدينة ترفع واحدا من اعلامنا ، او بعد ما يكون واحد منا وضع يده عليها ، وهكذا دفع الطموح العديد منا الى الخروج ليلا من فراشهم في منتصف الليل دون ان يصحبهم رفاقهم للاستيلاء على القلاع الجبلية والمنازل التي تحيط بها الحدائق في سهل الاردن ، ومع هذا فان قلعة حافظت على امر الرب والتزمت به فسارت حفاة الاقدام ، وكان هؤلاء يعبرون عن الاسى والاسف بتنهدات عميقة الى الرب ، بسبب الخروج على ارادته ، ولم يتذكروا صديقا ولا رفيقا واحدا ممن سار في طريق الباطل : ولدى الاقتراب من القدس بزحفنا العام الارعن ضرب اهل المدينة طلائعنا ، واصابوا خيولنا بجراح شديدة ، كما اصابوا عددا كبيرا من رجالنا وقتلوا ثلاثة او اربعة من بين صفوفنا .

واذا ما تحولنا نحو الحديث عن الحصار يلاحظ ان غودفري وكونت فلاندرز وكونت نورماندي عسكروا الى الشمال ، وضربوا الحصار حول للقدس من كنيسة القديس ستيفن التي تقع في الوسط الى البرج الذي يقع في الزاوية مجاورا لبرج داود . وعسكر ريموند مع جيشه في الغرب ، وحاصر المدينة شروعا من خط الدوق حتى سفح

جبل صهيون ، ومع ذلك قام واد عميق بين معسكره والاسوار ، حال دون سهولة الاقتراب من المدينة ، وكان سببا في ان يرغب بتغيير معسكره وموقعه ، وفيما يقوم ريموند بحصار القدس ، توقف لزيارة كنيسة جبل صهيون ، حيث سمع عن معجزات الرب هناك ، وقد تأثر كثيرا ، الى حد انه خاطب الأمراء والحضور بقوله : ما الذي سيحدث لنا لو اننا تخلينا عن هذه المنح المقدسة ، واستولى عليها المسلمون ، لربما كانوا دنسوها او حطموها لكرهيتهم للصليبيين ؟ ومن يدري اوليس من الممكن ان تكون هذه المنح من الرب اختبارا لمعرفة مدى حبنا له ؟ انني اعرف ان الاخفاق في حراسة كنيسة جبل صهيون بحماس سيجعل الرب يقوم بحرماننا من مثل هذه البقاع في القدس .

وبناء على ذلك وخلافا لرغبات الأمراء ، امر كونت طولوز بنقل معسكره الى جبل صهيون ، وسببت هذه الحركة استياء رجاله الذين لم يكونوا يرغبون في تغيير مكان المعسكر ، والاستمرار في المراقبة ليلا ، وهكذا بقي الاكثريه في المعسكر الاصلي وقله هم الذين ذهبوا الى جبل صهيون ، وظل الكونت يحمي موقعه يوميا بدفع مبالغ طائلة من المال الى فرسانه ورجاله .

وساستطرد الآن لأتولى ذكر بعض المواقع المقدسة : هناك قبر داود وقبر سليمان ، وقبر الشهيد الاكبر ستيفن ، وهناك مانت مريم المباركة ، وهنا اكل المسيح وظهر بعد قيامه لحوارييه ولتوماس . وفي هذا المكان بالذات اوقف الرسل بمجيء الروح القدس .

وبعد الشروع بحصار القدس اخبر ناسك في احد الايام عددا من الأمراء على جبل الزيتون : ان الرب سيعطيكم القدس ، اذا هاجمتموها غدا حتى الساعة التاسعة ، واجابه المسيحيون ، ليس لدينا اية آلة من آلات الحصار ، فقال الناسك : ان الرب قادر على كل شيء الى حد انه اذا اراد فانكم ستستطيعون تسليق السور بسلم واحد ، لأنه مع الذين يعملون من اجل الحق ، وبناء عليه هاجموا

القدس في صباح اليوم التالي وظلوا حتى الساعة الثالثة يقاسطونها
باسلحة الحصار التي استطاعوا تأمينها اثناء الليل ، فدمروا السور
الخارجي واجبروا المسلمين على التراجع نحو السور الداخلي ،
وتسلك عدد ضئيل من المسيحيين الدفاعات الداخلية ، وفي اللحظة
التي بات فيها سقوط المدينة وشيكا ، توقف الهجوم بسبب الوهن
والخوف .

وبعد هذا التخازل راح المسيحيون يبحثون عن الطعام في المناطق
المجاورة واهملوا الاعداد لهجوم جديد ، وآثر كل واحد منهم اشباع
فمه وبطنه ، والانكى من هذا كله انهم لم يصلوا للرب ليخلصهم من
الشرور الكبيرة والكثيرة التي باتت تهدد حياتهم بالذات ، فقد
صدرت مخاطر جديدة عن المسلمين الذين سدوا افواه الابار ،
ودمروا صهاريج المياه ، ومنعوا تدفق العيون ، وكل هذا يذكرنا
بالرب الذي «يحول الانهار الى بركة وعيون الماء الى ارض جافة لمن
يعيشون فيها » وهكذا اصبح الماء شحيحا جدا لما بينت من اسباب

وتتدفق مياه بركة سلوان - وهي نبع كبير عند سفح جبل
صهيون - مرة كل ثلاثة ايام غير انها كانت حسب قول السكان
المحليين ، تتدفق يوم السبت فقط ، وتصبح مستنقعا في بقية الايام ،
ومن المؤكد انه ليس لدينا تفسير لهذه الظاهرة ، باستثناء انها ارادة
الرب ، وتذكر الروايات انها عندما كانت تتدفق في اليوم الثالث ،
كان التدافع المجنون لشرب الماء يجعل الكثيرين يلقون بانفسهم
بالبركة ، ويتسبب هذا في غمار التزاحم الشديد بهلاك كثير من نواب
الحمل والماشية ، فقد كان الاقوياء يتدافعون باستماتة ويخوضون
في البركة الغاصة بالحيوانات الميتة والبشر المتصارعين حتى المصب
الصخري الذي يتدفق منه الماء ، في حين كان الضعفاء يضطرون
الى الاكتفاء بالماء الملوث .

وكان الضعفاء يزحفون على الارض بجوار النبع بافواه فاغرة ،
وقد اخرجهم جفاف السننتهم ، يزحفون وقد امتدت ايديهم التماسا

للماء من الذين هم أكثر حظا ، وفي الحقول كانت تقف الخيول والبغال والمواشي والاعنام مع حيوانات أخرى كثيرة لم تعد تقوى على ان تخطو خطوة واحدة ، وكانت هذه الحيوانات تنوي وتموت عطشا وتتفسخ في أماكنها وتملا الجو بروائح الجيف النتنة ، واضطر المسيحيون ، والحال كما وصفت ، الى حمل الماء بجهد ومشقة من عين تبعد فرسخين او ثلاثة ، والذهاب لسقاية مواشيهم هناك ، لكن عندما عرف المسلمون ان رجالنا يروحون جئنة وذهابا في طرق وعرة وهم بدون سلاح كمنوا لعدد كبير منهم ، فقتلوا العديد وأسروا الكثير ، واستولوا على مواشيهم ، وكان مبلغ خمسة او ستة نوميسما (صولدي) لا يكفي لشراء مياه نقية تكفي شخصا واحدا لمدة يوم واحد .

اما الخمرة فلم يرد ذكرها الا فيما ندر ، ومما زاد من شدة العطش ، الحر اللافت والتراب الخانق ، والرياح الشديدة ، لكن لئلا ابدد الوقت في ذكر هذه الامور الفانية ؟ المهم انه لم يكن سوى قلة منا يفكرون في الرب او في ضروريات الحصار ، ولم يصل حملة الصليب طلبا لرحمة الرب ، وهكذا كنا نتجاهل الرب في شبدائدنا ، وهو بدوره لم يهتم بالجاددين .

وتواترت الانباء في ذلك الحين برسوسست من سفننا في يافا ، وجاءت معها ايضا مطالبة البحارة بارسال حامية تتولى حماية ابراج يافا وسفنهم في الميناء ، وكانت يافا تبعد مسيرة يوم عن القدس ، وهي ميناء هذه المدينة ، ولم يكن قد بقي من يافا غير القليل فالموقع قد دمر باستثناء برج واحد بقي سليما في قلعة دمرت تدميرا شديدا ، وفرح الحجاج وبعثوا الكونت جيلديمار كاربينيل ومعه عشرين فارسا وحوالي الخمسين من الرجال ، ثم اردفوه بريموند بيليه مع خمسين من الفرسان ، واخيرا بوليم سابران ورجاله ، وعندما وصل جيلديمار الى سهل على مقربة من الرملة كان هناك اربعمائة من قوات العرب الاقوياء مع مائتين من الاتراك يسدون الطريق .

وأعاد جيلديمار فرسانه ورماته ، الذين كانوا في الصفوف
الأمامية ، الى الخلف بسبب قلة عدد رجاله ، ثم مالبت أن زحف
ضد الأعداء وهو واثق بعون الرب له ، واندفع الأعداء الى الأمام
وهم على ثقة أنهم سيتمكنون من إبادة المسيحيين ، وأطلقوا
النشاب ، وأحاطوا بهم ، وقتلوا أربعة فرسان وذلك بالإضافة الى
إشارد أوف مونتميريل وكان فارسا شابا نبيلًا يتمتع بشهرة
كبيرة ، فضلا عن هذا فتكوا تماما بكل رماتنا وجرحوا آخرين من
قوات جيلديمار ، ومع هذا لم يخل الأمر من تكبيدهم بعض الخسائر
الفادحة .

وعلى الرغم من هذه الخسائر لم يضعف الهجوم
الاسلامي ، وايضا لم يب الوهن الى صفوف فرساننا ، ذلك أنهم
كانوا فعلا عساكر المسيح ، ولذلك حملتهم الجراح ، لابل الموت
نفسه ، على شن الهجوم بقوة أكبر ، وكانوا يفعلون ذلك كلما اشتد
الضغط عليهم ، وأخيرا وبعد أن أرهقهم التعب وليس
الخوف ، لاحظ قادة الفرقة الصغيرة بحابة كبيرة من الغبار في
الافق ، وجاء ذلك عندما كانت الفرقة على وشك التراجع ، وصدر
هذا الغبار عن ريموند بيليه ورجاله الذين غمزوا جيادهم واندفعوا
فأثاروا بهجومهم الجنوني كثيرا من الغبار مما أوهم العدو باقتراب
فرقة كبيرة .

وهكذا أبيد الأعداء بفضل الرب وأرغموا على الفرار بعدما قتل
قراية المائتين منهم ، وتم الاستيلاء على غنائم كثيرة ، ومرد كثيرة
الغنائم الى عادة متبعة بين المسلمين هي أنهم اذا لاذوا
بالفرار ، وطاردتهم عدوهم مطاردة شديدة يرمون بأسلحتهم ثم
بالبستهم وأخيرا يرمي كل منهم بمزاده ، وهكذا قتل هذا العدد
الصغير من فرساننا الأعداء المنهزمين وظلوا يفعلون ذلك حتى نال
منهم التعب كل منال ، وبعدما أخذوا أسلاب الذين لاذوا بالفرار .

وبعد هذا القتال جمعت الغنائم وجرى تقسيمها ، ثم توجه

فرساننا نحو يافا حيث استقبلهم البحارة بفرح كبير بالخبز والنبيد والسمك ، ولم يكثرثوا بالمخاطر فأهملوا سفنهم ولم يعينوا مراقبين للحراسة من جهة البحر في منصة المراقبة لكل سفينة ، وسرعان ما وجد البحارة المنتشون وغير المباليين أنفسهم محاطين من جهة البحر بالأعداء ، وكان السبب الرئيسي هو اهمالهم تعيين خفراء يتولون الحراسة والمراقبة ، وعند الفجر وجدوا أنه ليس امامهم فرصة لقتال القوة المتفوقة عليهم ، لذلك تخلوا عن سفنهم ، ولم يحملوا معهم سوى الغنائم ، وبذلك عانت قواتنا الى القدس وهي بشكل مامنتصرة ومهزومة في أن واحد ، ونجت احدي السفائن ، لأنها كانت متغيبية تقوم بأعمال النهب ، وعندما عانت الى يافا محملة بالغنائم رأت الأسطول المسيحي اسيرا قد احاطت به قوة اكبر منه ، فغيرت على الفور اتجاهها وعانت بالتجديف والقلوع الى اللانقية ، ونقلت الى رفاقنا والأصدقاء صورة الحالة الحقيقية لأوضاع القدس .

ولقد عرفنا اننا نستحق ماأصابنا ، لأننا لم نؤمن برسائل الرب ، ولهذا فقد حملة الصليب الأمل برحمة الرب ، وبناء عليه ساروا الى سهل الأردن ، وهناك جمعوا السعف وتعمدوا في نهر الأردن ، وبما أنهم شاهدوا القدس ، فقد خططوا الآن للتخلي عن حصارها والتوجه الى يافا ، ومن ثم العودة بأي شكل ممكن الى بلادهم ، غير ان الرب لم يهتم بأمر سفن من لم يؤمنوا به .

وتمت الدعوة الى عقد اجتماع عام لينظر بالخلافات العامة بين القادة ، ولاسيما بعدما أقدم تانكرد على الاستيلاء على بيت لحم حيث رفع رايته على كنيسة بيت لحم ، كما لو كان يرفعها على ممتلكات علمانية ، وطرح في الاجتماع ايضا قضية اختيار واحد من الأمراء يكون حاميا للقدس اذا مامنحنا الرب اياها ، وقيل وقتها ان النصر سيكون جهدا مشتركا ، ولكن اذا ضاعت القدس فان ذلك سيكون اهمالا مشتركا لأن احدا لم يتول حمايتها .

واعترض الأساقفة ورجال الدين قائلين : من الخطأ اختيار ملك وتعيينه في المكان الذي تآلم فيه الرب وتوج بتاج من شوك ، افترضوا ان الشخص المختار قال في قلبه : انني جالس على عرش داود ممتلك لممتلكاته ، وافترضوا انه أصبح داودا وهو منحنى العقيدة والأخلاق ، لاشك أن الرب سيطيح به ويحل غضبه بالناس والمكان ، زد على هذا ان الرسول قد أعلن انه « عندما سيكون قدس الأقداس قد جاء فسيوقف المسيح » لأنه اتضح للناس جميعا انه قد جاء و « علينا اختيار وكيل يتولى حراسة القدس ويقوم بقسمة الأموال والدخول بين حماة المدينة » ولهذا السبب ولأسباب أخرى لم يتم الانتخاب الا بعد ثمانية أيام من سقوط القدس ، ولم يتولد عن هذا النزاع خير ، ولم تتضاعف الامتاعب الناس واحزانهم يوما تلو الآخر .

واخيرا ابلغنا الرب الرحيم الطيب حتى نحترمه وحتى يمنع المسلمين من السخرية بقوانينه اذا سألوا : أين هو ربهم ، لقد ابلغنا بوساطة رسالة من أدهم أسقف لى بوي ، وعرفنا كيف نسأله وكيف نكسب رحمته ، غير اننا أذعنا أوامر الرب علنا دون ان نربط بينها وبين اسمه وذلك خوفا من ان يعصها الناس ، فيكون عقابهم أشد بسبب ذنوبهم ، وقد بعث الرب إلينا برسل عديدين ، لكن لكونهم من أخواننا بقيت براهينهم بدون اعتبار .

وأعطى أدهم في تلك الوقت أوامره الى بطرس ديزيديريوس بقوله : على الأمراء والعامة وحملة الصليب الذين قدموا من بلاد بعيدة ، والذين هم الآن هنا لعبادة الرب رب كل الحشود ، ان يحرروا أنفسهم من عالم الدناسة ، وليدر كل واحد منهم ظهره للخطيئة ، وقل لهم : اخلعوا بعد هذا احذيتكم وسيروا حفاة بأقدام عارية حول القدس ، ولاتنسوا أن تصوموا ، فاذا امتثلتم لهذه الأوامر ستسقط المدينة في خاتمة الأيام التسعة بعد هجوم

عنيف ، وحذرهم انهم ان لم يفعلوا ذلك فان الرب سسيزيدهم بمصائب أكثر من الماضي .

وبعدما أبلغ بطرس ديزيديريوس سيده الكونت ايزوارد مع اخي ادهر ووليم هيو وبعض الكهنة بذلك ، دعا هؤلاء السادة المبجلين الى اجتماع عام وخاطبهم بما يلي :

أيها السادة أيها الرجال إنكم تعرفون أسباب الرحلة مع أسباب تعبنا الشديد ، وتعلمون أيضا أننا تأخرنا كثيرا وأهملنا بلا مبالاة إقامة مايلزم من معدات لحصار القدس ، وأكثر من هذا أننا لم نكتف بعدم اكتراثنا في أن يكون الرب ودودا معنا ، بل أثرتنا غضبه بكل شكل يمكن أن يتخيله عقل الإنسان وفي كل أمر من الأمور ، ثم أننا نبغده عنا وننبذه ونجعله غريبا بسبب دس أعمالنا ، والآن إذا كنتم ترضون فلندع الماضي جانبا ، ولتعم بين الأخوة روح المغفرة ، وبعد ذلك لنتخل عن كبريائنا أمام الرب ، فندسير حول المدينة المقدسة حفاة الأقدام ، ومن ثم نبتهل لتنزل علينا رحمة الرب بوساطة شفاعة القديسين .

لنصل قائلين ان الرب القادر الذي تخلص عن عرش ملكوته في السماء فأصبح بشرا من أجلنا ، وصار منا نحن عبده ، الرب الذي دخل القدس متواضعا يركب على أتان وسار في موكب تحيط به الدشود و تلوح له وتقدم آيات التكريم ، لكي يعاني بعد ذلك من الآلام على الصليب تضحية منه في سبيلنا ، لنصل لهذا الرب عله يفتح لنا أبواب القدس ويسلمها لنا تمجيذا لاسمه وتكريما ، وهو يصدر أحكامه على أعدائه الذين استولوا عليها بدون حق ، وندسوا مكان الآمه ودفنه ، والذين يبذلون الآن كل جهد ممكن لحرماننا من المكاسب العظيمة الموجودة في حرم نزوله الرباني وخلصنا .

ولاقت هذه الأوامر قبولا عاما ، وصدرت التعليمات بأن يتولى رجال الدين قيادة موكب يتبعه الفرسان والرجال الأقوياء ، وأن

يكون ذلك في اليوم السادس من الاسبوع على ان يحملوا الصليبان واثار القديسين ، وينفخوا بالأبواق ، ويلوحوا بالأسلحة ، وليسيروا حفاة الاقدام ، وبكل سعادة نفذنا أوامر الرب والأمراء ، وعندما سرنا الى جبل الزيتون وعظنا الناس في موضع صعود المسيح بعد القيامة ، وحرصناهم في هذه المرة قائلين : لقد سرنا وراء الرب الى مكان الصعود ، وبما أننا لن نستطيع فعل المزيد ، فلنقم الآن بالصفح عن الذين اساءوا الينا حتى يكون الرب القدير بنا رحيمًا .

لاأرى من حاجة لقول المزيد عن هذا الموضوع ، فلقد غمرت الجيش روح من التسامح كبيرة ، وقدمنا التبرعات السخية ، وتضرعنا في تلك الأثناء الى الرب سائلين اياه الرحمة ، والحننا بالسؤال أن لايتخلى عن شعبه في اللحظة الأخيرة ، بعدما جلبهم بهذه الطريقة المجيدة والمعجزة من المسافات النائية فأوصلهم الى مسعاهم من أجل القبر المقدس ، وكان الرب هذه المرة الى جانبنا فانقلب سوء حظنا الى طالع طيب وبات كل شيء على مايرام .

ومع أنني أزحت جانباً الحديث عن أحداث كثيرة ليس بإمكانني إغفال ذكر الحادثة التالية : أثناء الزحف الصاخب حول مدينة القدس راح المسلمون والأتراك يسيرون على طول أعلى أسوارهم وهم يسخرون منا ويدبسون بالضربات والأعمال البذيئة صليبانا وضعت على أنرعة من خشب بطول الأسوار ، غير أننا اندفعنا - من جهتنا - الى الأمام قدما ولم نأبه بهم واثقين باقتراب رحمة الرب بسبب هذه الاساءات ، وثابروا على العمل ليلاً ونهاراً للاعداد للهجوم النهائي .

وقام غودفري ومعه كل من كونت نورماندي وكونت فلاندرز بتعيين غاستون بيارن للإشراف على العمال الذين كانوا يبنون

الخواجز والسواتر ومعدات الحصار ، وجاء تعيين هذا النبيل بالنظر لكفائته وأمانته ، وقد ثبت أن ذلك كان اختيارا حكيما ، لأن

غاستون وضع نظاما لتقسيم العمل ، وسارع بتنفيذ المهمة في حين اهتم الأمراء بجلب المواد الخشبية ، كما وكلف الكونت ريموند وليم ريكو بعمليات معائلة في جبل صهيون ، وكلف اسقف البارة بوظيفة الاشراف على المسلمين وسواهم من العمال الذين كانوا يجلبون الأخشاب ، فقد أرغم رجال ريموند مسلمي القلاع التي جرى الاستيلاء عليها على العمل كعبيد ، فكنت ترى خمسين أو ستين رجلا منهم يحملون على اكتافهم دعامة بناء لا يقوى على جرها أربعة أزواج من الثيران ، والآن لن أزيد من ارهاقكم بالمزيد من التفاصيل .

لقد عملنا جميعا بكل جد ونشاط وتعاون ، ولم يعق عملنا التراخي أو عدم الرغبة ، وكان فقط الصناع – الذين كانت تجمع لهم الأموال مع رجال ريموند الذين كانوا يحصلون على أجورهم من خزانته – هم وحدهم ممن عمل مقابل المال ، ومن المؤكد أن يد الرب كانت معنا ، فسرعان ما اكتملت الاستعدادات ، وبعد عقد اجتماع عام قرر القادة أن يكون اليوم الخامس هو ساعة الصفر ، وقالوا للناس عليكم في هذه الأثناء أن توقفوا انفسكم على الدعاء والصلوات الليلية ، وقدموا دواب العمل التي لديكم والخدم الذين يعملون لديكم الى الصناع والنجارين الذين يعملون في جر الأخشاب والأعمدة مع القسوانم والفروع الضرورية لاقامة سواتر الحصار ، ايها الفرسان انه سيكون نصيب كل اثنين منكم في أعمال البناء اقامة ساتر دائري واحد أو سلم واحد ، اعملوا جميعا في سبيل الرب بكل جد ، فقد شارفت مهمتنا على الانتهاء ، ونشط الجميع في العمل بسعادة ، وحددت مواقع الهجوم الخاصة بكل واحد من الأمراء كما وعينت مواضع الات الحصار .

وشاهد المسلمون من الداخل اسلحة الحصار المكتملة ، فقاموا

بتدعيم النقاط الضعيفة ، بحيث بدا من المستحيل القيام بشن هجوم ناجح ، ولاحظ غودفري ومعه كونت فلاندرز وكونت نورماندي عمليات التدعيم التي يقوم بها المسلمون ، وردا على ذلك قاموا في الليلة التي تقدمت على اليوم المحدد للهجوم بنقل مواقع أسلحة الحصار من سواتر و حواجز و أبراج الى موقع بين كنيسة ستيفن المبارك ووادي يهوشافاط ، صدقوني ان فك هذه الآلات ونقلها الى مسافة تزيد على الميل ، ومن ثم اقامتها من جديد لم يكن بالأمر الهين ، وصعق المسلمون في صباح اليوم التالي عندما راوا مواقع الاتنا وخيامنا ، وأبأبر الى القول : اننا ايضا دهشنا نحن المؤمنين الذين راوا يد الرب في كل ذلك .

ولكي ابين لكم سبب حقيقة التحرك الى الشمال ينبغي ان اوضح ان عاملين اثنين كانا وراء تغيير مواقع آلات الحصار ، ففي الشمال هيا استواء سطح الأرض اقتراب أفضل لمعدات الحصار من الأسوار ، كما ان بعد المكان الشمالي جعله ضعيفا وهذا ما جعل المسلمين يتركونه بدون تحصين ، ولم يكن مجهود كونت طولوز أدنى من ذلك أو أقل عند جبل صهيون جنوبا ، وقد تلقى مساعدة من وليم امبرياكو وبجارتة الجنوبية الذين فقدوا سفنهم - كما ذكرت من قبل - في يافا ، لكنهم كانوا قد أنقذوا الحبال والمطارق والمسامير والفؤوس والمعاول والبلط ، وهذه جميعا ادوات لاغنى عنها ، وسأتخلى الآن عن تعداد هذه التفاصيل وأعود لمواصلة قصة الهجوم على القدس :

و بزغ فجر يوم القتال وبدأ الهجوم ، فطبقا لأحسن التقديرات التي قمنا بها مع تقديرات الآخرين كان هناك قرابة الستين ألفا من المقاتلين في القدس فضلا عما لا يمكن تعداده من النساء والأطفال ولم يكن لدينا من جانبنا أكثر من اثني عشر ألف رجلا من الأقوياء القادرين مع كثير من المقعدين والفقراء ، وما لا يزيد - كما اعتقد - عن ألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة من الفرسان ، ونحن اذ نورد هذه الأرقام و المقارنات هدفنا أن نبين لكم أن جميع الأمور

عظيمة كانت أم صغيرة اذا ما أخذناها على عاتقنا باسم الرب فسوف تنجح ، وهذا ما ستثبته الصفحات التالية من كتابي :

وبدأنا أولا بدفع أبراجنا باتجاه أسوارهم ، ثم انفتحت أبواب جحيم المعركة بأجمعها فانهمرت الأحجار من العرادات ، وطارت المقذوفات بالهواء وتساقطت الأسهم كوابل من المطر ، لكن عبيد الرب المتمسكين بإيمانهم بكل عزم تحملوا هذا الهجوم بكل صبر ، وثابروا دون ان يعبأوا بالموت او الانتقام الفوري للمسلمين ، ولم يحسم القتال عند هذه النقطة ، وعندما اقتربت المعدات من الأسوار أمطرها المسلمون وأمطروا المسيحيين معها بالحجارة والسهام والخشب والقش المشتعل ، والمطارق المغطاة بالفار المشتعل والشمع والكبريت والكتان وقطع الأقمشة ، لقد قذفوا هذا كله على الآلات ، وأحب ان أضيف موضحا ان المطارق كان قد أثبت عليها مسامير بحيث أمكنها الالتصاق بأي جزء تصيبه ثم تشتعل ، وأشعلت هذه المقذوفات المصنوعة من الخشب والقش - التي ألقيها المدافعون - النيران التي حالت دون تقدم الذين لم تعق تقدمهم السيوف ولا الأسوار الشاهقة أو الخنادق العميقة .

وكانت الأعمال التي أنجزناها طوال ذلك اليوم رائعة ومدهشة الى حد أننا نشك في أن يكون التاريخ قد عرف ما هو أعظم منها ، ومن جديد ، توجهنا بالدعاء - ونحن على ثقة برحمة الرب - الى قائدنا ومرشدنا الذي هو على كل شيء قدير ، ومع حلول الظلام استولى الخوف على الطرفين ، ومع تحطيم السور الخارجي ، وردم الخندق ، بات الوصول بسرعة الى السور الداخلي أمرا سهلا ، وأصبح المسلمون يذشون من سقوط القدس في تلك الليلة أو في اليوم التالي ، وبالمقابل كان حملة الصليب يذشون بدورهم من أن يدعم المسلمون مواقفهم ، بإبداء طرائق لحرق الآلات القريبة ، وسيطر الرعب والتعب والتقيظ والأرق على الطرفين المتصارعين ، فقد عم في معسكرنا شعور الأمل

الواثق ، وسيطر على معسكرهم الفزع المؤلم ، فقد كان المسيحيون يحاصرون المدينة طوعا واختيارا من أجل الرب ، وكان المسلمون يقاومون على مضض من أجل شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

واستمر الذشاط غير المعتاد بين صفوف الطرفين اثناء الليل ، وعند بزوغ الفجر بادر رجالنا بكل اندفاع وسرعة الى دفع آلات الحصار وجرها الى مواقعها ليبلغوا المسلمين الذين حاصرونا بالاتهم التي كانت تتفوق على الاتنا بنسبة تسعة او عشرة الى واحد ، ولن اقف طويلا عند هذا التفصيل الصغير ، لاننا كنا في اليوم التاسع ، وهو اليوم الذي تنبأ الكاهن بأنه سيكون يوم سقوط القدس بكل تحديد ، وعلى الرغم من تفكك معدات حصارنا بفعل الأحجار المتساقطة كوابل من المطر والروح المعنوية المتخائلة لقواتنا ، التي كان التعب قد أخذ منها كل مأخذ ، فان رحمة الرب المسيطرة والتي لا تقهر كانت حاضرة دائما في جهدنا ، ومع ذلك لايمكنني ان امر بالحادثة الطريفة التالية مرور الكرام ، فعندما حاولت امرأتان وضع سحر على احدى الصخور ، انطلقت احدى الأحجار من الآلة نفسها تزمجر في السماء لتقضي بعدها على حياة الساحرتين ، وايضا على حياة ثلاث فتيات كن بالقرب منهما ، وهكذا دمر السحر .

وعند انتصاف النهار كنا في حالة ارتباك وارهاق ويأس نجمت عن المقاومة العنيدة لكثير ممن تبقى من المدافعين ، ولوجود الأسوار العالية التي لا يكاد يمكن اختراقها ، وللمهارة الدفاعية الهائلة للمسلمين ، وفي الوقت الذي بدأنا فيه بالترنح وأخذ المسلمون بتشجيع ، وصلت اليها رحمة الرب الحاضرة دائما شفاء لنا ، فبدلت تعاستنا سعادة ، ففي اللحظة التي كان فيها مجلس قادتنا يناقش حكمة سحب معداتنا حيث احترق الكثير منها وتحطم بعضها بشكل سيء ، في تلك اللحظة أشار فارس لأعرف اسمه بترسه من فوق جبل الزيتون الى الكونت والى الآخرين بأن يتقدموا

وكان لهذا تأثير فعال على قواتنا المرهقة ، و استأنف بعض حملة الصليب الذين ببت فيهم الحياة من جديد ، هجومهم على الاسوار ، في حين بدأ آخرون بتسلق السلالم والحبال ، وفي الوقت نفسه اطلق شاب سهماً مشتعلة بلبادة قطنية على تحصينات المسلمين التي كانت تتولى الدفاع في مواجهة برج غودفري والكونتين ، وسرعان ما ابعدت النيران المدافين عن التحصينات وسرعان ما تمكن غودفري من سحب الجسر الذي كان يدافع عن البرج ، وبينما كان البرج يتأرجح من منتصف البرج سد الهوة بين البرج وبين السور ، وهكذا تدفق حملة الصليب بدون خوف لابل بكل شجاعة واقدام الى داخل المدينة المتداعية .

وسفك تانكرد وغودفري في المقدمة كميات لاتصدق من الدماء وانزل رفاقهما الذين ساروا خلفهما الاما هائلة بالمسلمين ، وينبغي ان اقص عليكم نبأ حادث مدهش ومثير ، فقد توقفت المقاومة في واحدة من مناطق المدينة بشكل عملي ، ولكن المسلمون في المنطقة المجاورة لجبل صهيون قاتلوا ريموند بكل شراسة كما لو انهم لم ينهزموا ، وبعد سقوط القدس وابراجها بسات بامكان المرء رؤية افاعيل مثيرة ، فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة ، في حين اخترقت الاسهم الموجهة من الابراج آخرين ، وفي الوقت نفسه عذب آخرون بشدة لوقت طويل واحرقوا حتى الموت في النار المتأججة وتكدست في الطرقات والبيوت الجثث والرؤوس والأيدي والأقدام ، وبالفعل كان الفرسان والرجالة يروحون ويجيئون ذهاباً واياباً فوق الجثث .

دعوني اخبركم ان هذه الوقائع كانت حتى الآن ذات تفاصيل قليلة وتافهة ، وانني لأجد قصة أخرى هامة عندما نأتي الى معبد سليمان المكان المعتاد للتراتيل والصلوات والعبادات ، هل سأحكي الذي جرى هناك ؟ لو انني اخبرتكم لما صدقتم ذلك وقبلتوه مني ، ولعله يكفي ان احكي لكم انه في معبد سليمان ، وفي الأروقة خاض حملة الصليب بخيولهم في الدم الذي وصل الى ركبهم و سروج خيولهم

وفي يقيني إن في هذا عدالة ربانية تتمثل في أن يتلقى معبد سليمان دم المسلمين الذين شتموا الرب هناك لسنين طويلة ، وسلموه الى ريموند مقابل عهد بالأمان ، ومع سقوط المدينة كان تعويضنا رؤية الحجاج عند القبر المقدس ، وتصفيق الأيدي والابتهاج واذشاد نشيد واحد جديد للرب ، فقد قدمت أرواحهم للرب المنتصر الظافر صلوات الشكر والمديح التي لم يستطيعوا شرحها بالكلمات .

لقد كان يوما جديرا بالتقدير ، وسعادة ما فوقها سعادة ، وسرورا سرمديا ، ومحصلة لكنا وتحقيقا لحبنا أوجد كلمات وانشيد جديدة للجميع ، وبذل هذا اليوم - الذيؤكد أنه سيخلد على مدى العصور والدهور ، احزاننا وصراعاتنا الى سعادة وابتهاج ، ثم ان هذا اليوم قد ازال جميع اشكال الوثنية ، وثبت المسيحية و أعاد الينا ايماننا ، ان هذا هو « اليوم الذي صنعه الرب سنبتهج فيه ونسعد » ، وهذا صحيح لأن الرب اشرق علينا في ذلك اليوم و باركنا .

ورأى العديد اللوزد ادهم ، اسقف لى بوي في القدس ، في هذا اليوم ، واكد الكثيرون أنه كان يمهد الطريق فوق الأسوار ويحث الفرسان على اللحاق به ، وجدير بالذكر أيضا أنه في مثل هذا اليوم أخرج الرسل من القدس وتفرقوا في جميع أنحاء العالم ، وفي هذا اليوم خلص أبناء الرسل المدينة من أجل الرب و الأبناء ، وسيخلد هذا اليوم وهو الخامس عشر من تموز لذكرى مدح الرب وتمجيد اسمه ، الذي استجاب لصلوات كنيسته و أعاد القدس بالايمن والبركات الى أبنائه ، و أعاد أيضا أراضيتها التي وعد بها الآباء ، ورتلنا في ذلك الحين صلاة القيامة ، حيث أنه قام هو بقدرة في ذلك اليوم من بين الأموات ، و خلصنا برحمته.

الفصل الخامس عشر

الوقائع التي أعقبت سقوط القدس و معركة عسقلان

سأتحول الآن للاهتمام بأمور أخرى حيث أن في الوصف المتقدم كفاية ، فبعد مرور ستة أيام أو سبعة انصرف الأمراء - طبقا لعادتهم - نحو انتخاب ملك يدير المملكة ، ويجمع ضرائب المنطقة ، ويحمي الريف من المزيد من الدمار ويعمل كمستشار للناس ، وفي أثناء المداولات تجمع بعض من رجال الدين وعبروا للأمراء عن آرائهم وقالوا : اننا نشيد بتحرككم ، ولكن بما أن المسائل الروحية تتقدم على المسائل الدنيوية ، فإن السلوك القويم الصحيح يتطلب أن تنتخبوا أولا قائدا روحيا ، ثم تعمدون بعد ذلك إلى انتخاب حاكم علماني ، وإنكم اذا لم تفعلوا ذلك فلن نعتزف باختياركم ، ولم ينجم عن هذا غير اغضاب الأمراء والاسراع بالانتخاب .

و لا بد من أن أوضح أن الضعف انتاب صفوف رجال الدين في ذلك الوقت ، أولا بسبب موت اللورد أدهمر أسقف لى بوي ، الذي كان يكبح جماح الجيش ويهدئه بأعمال تثير الاعجاب ومواعظ مؤثرة مثلما فعل موسى ، ثم بعد ذلك موت وليم أوف أورانج ، وهو رجل مبجل وأسقف كرس نفسه لحمايتنا ، وكان قد مات في معركة النعمان ، وهكذا لم يقف بعد موت هذين الرجلين الطيبين في وجه الأمراء سوى أسقف البارة مع عدد صغير من الكهنة ، أما أسقف مارتوانا ، الذي كان يسلك سلوكا منحرفا عندما نال بطريق الغش والخداع كنيسة بيت لحم ، فقد وقع في أسر المسلمين بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولم يظهر بعد ذلك أبدا .

استخف الأمراء بنصيحتنا واحتجاجنا وشجعوا ريموند صنجيل

على قبول الملكية ، لكنه اعترف أنه يرتجف لدى سماعه اسم ملك في القدس ، ومع ذلك أعلن أنه لن يعترض سبيل أي شخص آخر يقبلها ، وهكذا وقع اختيارهم على غودفري ، وأعطوه لقب « حامي القبر المقدس » ، وما لبث غودفري أن طلب من ريموند تسليمه برج داود ، واعترض الكونت بقوله : إنه كان يخطط للبقاء في المنطقة حتى عيد الفصح ، وطلب أن يعامل هو ورجاله حتى ذلك الحين المعاملة اللائقة ، ورد الدوق أنه سيكون آخر من سيتخلّى عن البرج ، وهكذا تطور الخلاف بينهما ، وكان كل من كونت فلاندرز و كونت نورماندي يؤيدان غودفري وذلك فضلاً عن جميع رجال ريموند ، الذين اعتقدوا أن الكونت سيعود إلى لانجويدوك بمجرد فقدانه لبرج داود ، ولم تكن هذه هي المعارضة الوحيدة التي صادفها من أتباعه البروفانسيين ، لأنهم كانوا – في وقت متقدم – قد نشروا أكاذيب قصدوا أن يحولوا بها دون انتخابه ملكاً .

وعندما تخلّى الرفاق و الأصدقاء عن ريموند تم تسليم البرج إلى أسقف البارة و عهد به إليه إلى أن يتم الفصل في هذه القضية ، لكن ما لبث ريموند أن وجد الأسقف يقوم بدوره بتسليم البرج إلى غودفري دون أن ينتظر قراراً حوله ، وعندما اتهم الأسقف بأنه لم يكن أميناً ، أجاب أنه فعل ذلك مرغماً ، وأنه عومل معاملة فظة ، ولقد علمت أن أسلحة كثيرة قد حملت إلى منطقة الأسقف ، أي بيت البطريك الذي كان يقع على مقربة من كنيسة القبر المقدس ، وتحديث الأسقف عن استخدام القوة الجسدية ضده ووجه اللوم إلى رجال ريموند سرا .

وبعد خسارة البرج استشاط الكونت غضباً ، واستاء من أتباعه وقال : إنه قد اعتدي على كرامته ، وأنه لهذا سيغادر البلاد ، وهكذا توجهنا من القدس إلى أريحا ، وجمعنا هناك السعف وأتيننا إلى نهر الأردن ، و عملاً بتوجيهات بارثلميو صنعنا طوفاً من الفروع الصغيرة ، وضعنا ريموند عليه ، وجذبنا عبر النهر ، ثم طلبنا من

الحشد المجتمع هناك أن يصلي من أجل حياة الكونت والأمراء الآخرين ، و اغتسلنا في النهر المقدس ، وكان الكونت ريموند لا يرتدي سوى قميصا وسروالا جديدا ، لكن لماذا أصدر رجل الرب بطرس بارثلميو مثل هذا الأمر ؟ لم يتكون لدي أدنى فكرة حوله حتى الوقت الحالي .

وعند رجوعنا إلى القدس بعد أداء هذه المهمة ، اختار بعضهم أرنولف كاهن كونت نورماندي بطيركا ، وذلك خلافا لرغبة رجال الدين الطيبين ، الذين اعترضوا لأنه لم يكن بعد بمرتبة معاون شماس ، وكان من أصل رهباني ، والأهم من ذلك كله أنه أتهم بمعاشرة النساء في أثناء الرحلة حتى أنه كان موضوعا لقصص فاحشة ، ولا حاجة بي إلى القول إن أرنولف التلموح قد تجاهل قرارات الكنيسة ، وقد حط بمولده المشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين ، ولقد رفع نفسه إلى الكرسي البطريركي بمصاحبة التراتيل و الأناشيد والتصفيق الكبير من الناس ، ولم يخش أرنولف أن يحل به العقاب الرباني الذي حل بأسقف ماتورانا الذي حرص على انتخاب أرنولف ووجهه ، فقد ظل يأخذ بخل الكنائس من رجال الدين الذين كانت لهم بيع عند قبر الرب ، أو من الذين تلقوا الرسوم مقابل العناية به .

وما أن استقر أرنولف بالسلطة حتى راح يسعى بمساعدة السكان المحليين للتعرف إلى مكان الصليب الذي كان يعبده الحجاج قبل استيلاء الأتراك على القدس ، ولم يوضح هؤلاء السكان موقعه ، ومضوا في اللجاج إلى حد أنهم أقسموا أنهم لا يعرفون شيئا عنه ، غير أنهم في النهاية أرغموا على أن يقولوا : إن الوحي يقول أنكم شعب الله المختار ، و أنكم تخلصتم من المحن و أعطيت لكم القدس مع مدن ، أخرى كثيرة ، و لم يكن ذلك بفضل قوتكم الكبيرة بل إرادة من رب غاضب أعمى أهل الكفر ، وقد منحكم الرب قرائنكم أبواب المدن التي لا يمكن اختراقها ، و كسب لكم معارك رهيبه ، و ما دام الرب إلى جانبكم ، فلماذا نصر على أن نخفي أثاره عنكم ؟ ثم

قادوا حملة الصليب إلى قاعة في الكنيسة ، وهناك نقبوا عن الصليب و سلموه لهم ، وهكذا سعدنا ومجدنا الرب القدير ، و شكرناه حيث أنه لم يعد إلينا مدينة الآله فقط بل منحنا رموز صلبه و انتصاره ، حتى نتمسك به أكثر ، ونحتضن الايمان ونكون أكثر يقينا لأننا رأينا الآن آثار خلاصنا .

وكما نكرنا قبل ذلك كان في هذه الأثناء غودفري يحتفظ بالقدس بموافقة الجميع باستثناء ريموند الذي أثار حنقه الحزن والظلم بسبب ضياع برج داود ، والذي بلا شك هو مفتاح مملكة يهوذا ، وبناء عليه وضع الخطط ليعود بجزء كبير من البروفانسيين ، ومهما يكن من أمر جاءت الأخبار أن ملك مصر قد وصل إلى عسقلان مع قوة كبيرة من المسلمين ، بهدف مهاجمة القدس ، وقتل الفرنجة ممن هم في سن العشرين وما فوقها ، و أسر الباقين مع الفرنجيات برجال من بلاده ، وتحديث الأقاويل أنه سيزوج شباب الفرنجة بنساء من جنسه ، والنساء الفرنجيات برجال من بلاده ، وبذلك يربي جيلا من المحاربين من الأصل الفرنجي .

وجعلته خططه العملاقة يتبجح أنه سيعامل أنطاكية وبوهيموند المعاملة نفسها ، فضلا عن هذا كله إنه سيتوج نفسه في دمشق و المدن الأخرى ، زد على هذا رأى بعد دراسة لحجم جيوشه القوية من الرجالة والفرسان ، أن الأتراك لم يكونوا شيئا ، و الفرنجة الذين هزموا الأتراك أيضا ليسوا شيئا ولم يكتف بهذا بل جدف بحق الرب بقوله : إنه سيدمر مسقط رأس الرب و المزود الذي رقد فيه ، و مكان الآلام و الجلجلة ، و بالذات البقعة التي تفجر فيها دم الرب المصلوب ، والقبر الذي دفن فيه الرب وجميع البقاع المقدسة الأخرى في مدينة القدس والمناطق المحيطة بها ، وازداد تبجحا فقال : أنه سيخرج الآثار المقدسة من تحت الأرض و يحطمها و يسحقها و ينثر ترابها فوق البحر ، حتى لا يبحث الفرنجة بعد ذلك خارج بلادهم عن بقايا الرب التي تكون قد ضاعت و ابتلعها البحر .

و إثر سماع هذه الاقاويل و الاخبار الاخرى حول الحشود الضخمة التي جمعها هذا الطاغية عند عسقلان ، و هي مدينة تبعد عنا مسيرة يوم و نصف اليوم ، اجتمع امراؤنا مع رجال الدين ، ثم سار حملة الصليب المحتشدون حفاة الأقدام أمام القبر المقدس ، وطلبوا الرحمة و الدموع تملأ عيونهم ، طلبوها من الرب ، و سألوه أن يخلص شعبه الذي نصره في الماضي ، كما توسلوا إليه الا يسمح بأي تدنيس لمكان صلبه الذي تم تطهيره توا من أجل اسمه ، ثم اتينا إلى معبد الرب حفاة الأقدام نلتمس عونه بالأغاني والتراتيل و الذخائر المقدسة ، و هناك انبعثت صلواتنا من اعماق كياننا و تدفقت أمام الرب و تضرعنا إليه أن يتذكر تدفق بركته في المكان نفسه « إذا كان شعبك قد أخطأ في حقك ، و كان التغيير بمثابة تكفير ، و أتوك مصلين في هذا المكان فاستمع اليهم من السماء يا رب و خلصهم من أيدي أعدائهم » (انظر سفر الملوك ٨)

و بعد مباركة الأسقف وضع القادة خطط المعركة ، ووسائل حماية القدس ، ثم رحل غودفري و فرسانه للتحقق من صدق الاقاويل المتعلقة بالملك ، و بعدما وصلوا إلى سهول الرملة بعثوا بأسقف مارتورانا ليطلع الكونتات في القدس على حقيقة الحال ، و عندما تأكد القادة من وقوع المعركة اصدروا نداء إلى جميع الرجال الاقوياء ، و صلوا للرب ، و انطلقوا خارجين من القدس يحملون كامل اسلحتهم و تتقدمهم الحربة المقدسة ، و في اليوم نفسه وصلوا إلى السهول ، و تحركت في اليوم التالي جيوشنا و زحفت إلى الأمام في تشكيلات يحيط بها الحراس من كل جانب .

ومع الغروب اقتربنا من نهر يقع على الطريق من القدس إلى عسقلان ، و شاهدنا عربا يرعون قطعانا من الماشية من الأغنام والجمال الكثيرة ، فأرسلنا مائتا فارس للاستطلاع ، لأن العدد الكبير من العرب و المواشي جعلنا نعتقد أن قتالا سيذشب ، و كما قلنا من قبل سرنا في تلك الأثناء في تسعة صفوف ، ثلاثة في الساقة ، و ثلاثة في المقدمة و ثلاثة في القلب ، كي نواجه أي هجوم علينا بثلاثة

صفوف ، حيث يكون القلب على استعداد دائم لمساندة المؤخرة و المقدمة ، و هرب الرعاة العرب لدى مشاهدتهم لفرساننا ، و لو أن الرب أعانهم كما أعاننا كانوا سيدافعون عن مواشيهم ، ذلك أن عددهم وصل في الواقع إلى ثلاثة آلاف ، بينما كان جيشنا يضم ألفا و مائتين من الفرسان ، و لم يكن لدينا أكثر من تسعة آلاف من الرجال ، و بعد فرارهم حصلنا على كميات هائلة من الغنائم ، و أسرنا و قتلنا عددا ضئيلا من العرب ، و لما كان النهار على وشك الانتهاء ، ضربنا الخيام ، و أرغمنا الأسرى على الكشف عن خططهم ، و عن مدى استعدادهم ، و عن أعدادهم و قواتهم ، و اعترف الأسرى أن العرب يريدون حصار القدس ، و من ثم أن يطردوا و يأسروا أو يقتلوا الفرنج جميعا ، و أضافوا أن أميرهم الذي ضرب مخيمة على مسافة خمسة فراسخ منا ، سيزحف نحونا في اليوم التالي ، و لم يتجرا الرعاة على تقدير حجم جيشهم تقديرا قاطعا ، لأنه كان يتزايد يوما بعد يوم ، أما عن دورهم ، فقد أوضحوا أنهم كانوا مجرد رعاة شرعوا في بيع مواشيهم إلى الجيش المصري

و استعدادا للصدام المقبل أحل حملة الصليب كل واحد منهم الآخر من دنوبه التي اقترفها بحقه أو لم يقتربها ، و باتوا في هياج كبير إلى درجة أنهم لم يأبهوا بالتقارير المتعلقة باستعدادات العدو ، و في غمرة الثقة اعتقدوا أن العرب سيكونون أكثر جبنا من الغزلان و أكثر وداعة من الحملان ، و تولدت هذه الثقة من إيماننا أن الرب كان إلى جانبنا في الدروب الأخرى ، و أنه بسبب كفر الوثنيين ، سوف يبدأ وحده بمعاقتهم حتى و إن كانت قضيتنا واهية ، و هكذا أثرنا أن نعد الرب مدافعا عنا و أننا معاونوه ، و صدرت الأوامر آنذاك إلى الجيش لأن يكون الجميع على أتم استعداد للمعركة وقت الفجر ، و أن ينضم كل فرد إلى قوات قائده ، و ألا يلمس أي منا الغنائم حتى ينتهي القتال و إلا صدر بحقه قرار بالحرمان ، و قضينا ليلة بأدسة بدون خيام و مع قليل من الخبز ، و بدون نبيذ ، و

- ٢٧١٢ -

بكمية ضئيلة من الطحين و الملح ، إنما كانت امداداتنا من اللحم - على الأقل - في وفرة الرمال ، و هكذا اكلنا اللحم ، و استخدمنا لحم الضأن بدلا من الخبز .

و عند حلول الفجر قرعت الطبول و صبحت الابواق مستدعية الجيش و موقظة له ، و هكذا تحركنا عند اشراق شمس النهار ، و الحرس مرتبون على الجوانب كلها حسبما اوضحنا من قبل ، و تحركنا قدما نحو معسكر المسلمين ، و كان المسلمون غارون في معسكرهم اعتقادا منهم ان الفرنجة سيبقون قرب أسوارهم عند سماعهم بقدمهم ، و بعدما وصلتهم أخبار فرار الرعاة و قتلهم دعاهم ذلك الى الظن في قرارة انفسهم ان الفرنجة قدموا من أجل الأسلاب ، و بعد حصولهم عليها سيعودون الآن أدراجهم.

وفي الحقيقة كانت تصلهم تقارير يومية عن حالات الفرار من القدس وعن ضالة حجم جيشنا ، وعن الوهن الذي اصاب رجالنا وجيادنا ، وكانوا متأكدين - وقد وضعوا ثقتهم في حجم قواتهم وقدراتهم - أنه بإمكانهم اغراقنا ومعسكرنا ببصاقهم ، وسمعنا أن منجموهم قد نصحوهم بعدم التحرك أو القتال قبل اليوم السابع من الأسبوع ، وحنروهم أن التحرك قبل ذلك الموعد لن يكون مفيدا .

وحسبما اوضحنا من قبل تحركنا في تسعة صفوف ، وضاعف الرب حجم جيشه الى حد بدونا فيه أننا نبلغ حجم القوات العربية ، وحدثت هذه المعجزة حين شكلت المواشي التي حررناها قطعانا ، و سارت خلفنا دون أن يوجهها أحد ، حيث كانت تقف حين نتوقف عن السير ، وتجري حين نسرع الخطا ، وتسير إلى الامام إذا فعلنا ذلك ، ولم يعد في مقدورنا احصاء البضائع ولاتقدير كميات الاسلحة والخيام التي استولينا عليها ، وعندما شاهد العرب نهب العديد من رفاقهم ، ونهب الفرنجة لمعسكرهم بكل شغب وأمان ، توقفوا عن القتال وقرروا : أنه طالما من المحتم علينا الفرار ففيم الانتظار ؟

- ٢٧١٣ -

واذا كان المسيحيون الذين اجهدهم الزحف وهدمهم التعب والجوع
والعطش ، قد سحقوا قواتنا بهجوم واحد وهم على هذه الحالة ،
فما الذي سيفعلوه بنا اذا مانالوا قسطا من الراحة واستردوا
بأسهم " لقد حققوا النصر علينا وهم نصف احياء ومستضعفين
واوقعوا في قلوبنا الرعب " .

ونتيجة لهذا ، عاد العرب وقد اسقط في ايديهم - ماعدا بعض
الاستثناءات إلى عسقلان التي تبعد عن معسكرنا مقدار ميل واحد
وقرر ريموند أن يبعث بوهيموند ، وهو رجل تركي، الى الأمير
يحمل مشروع سلام ، وليذكره أنه حين رفض تسليمنا القدس اضطر
الى قتالنا وكان على بوهيموند أن يقرر في الوقت نفسه الموقف ،
وأن يرى ما إذا كان الأمير يخطط للفرار أم للقتال ، وليتبين كيف
كان رد فعله ازاء الهزيمة ، وكان بوهيموند ، مع أنه تركي الأصل ،
يتكلم بعدة لغات ، وماهرا واريبا ، ومخلصا لنا أيضا ، وقد سمي
بوهيموند بسبب أن بوهيموند الكبير كان قد تلقاه عند جرن المعمودية
حين ارتد عن الاسلام وجاء إلينا برفقة سلاحه وزوجته .

وهامنا ينتهي بسعادة كتاب ريمون دي جيل

تاريخ الحملة إلى القدس
تأليف فولتشر أوف تشارترز

مقدمة فولتشر

إنه لمبهج للأحياء ونافع للأموات ، القراءة في الصحف المرقومة أخبار أعمال شجعان الرجال ، خاصة الذين يقاتلون في سبيل الرب ، أو أن تتناقلها السنة المؤمنين بكل خشوع ، لأنها محفوظة في حافظتهم ، كيف استجاب هؤلاء لأوامر الأنجيل ، وتخلو عن متاع الدنيا وهجروا آبائهم وأزواجهم وأموالهم وإن عظمت ، يدفعهم ذلك الى اتباع الرب وتكريس أنفسهم له (متى : ١٢ - ٢٩ ، ١٦ - ٢٤ . مرقس : ١٠ ، ٢٤ / ٨ ، لوقا : ١٨ - ٢٩ ، ٩ - ٢٣) . وأما الأموات الذين ماتوا في سبيل الرب ، فإن جليل الفائدة تعود عليهم لدى تذكر الأحياء من المؤمنين سير سلفهم وأعمالهم الصالحة الورعة ، فذلك يدفعهم إلى الدعاء لموتاهم والترحم على أرواحهم ، وهب الصدقات المصحوبة بالصلوات في سبيلهم ومحبة بهم سواء أعرفوهم أم لم يعرفوهم .

لذلك قمت بدافع طلب شديد الاحاح من بعض الأصدقاء ، فدونت بكل عناية وترتيب أخبار أعمال الفرنجة الرائعة ، حين استجابوا لأوامر الرب العلوية ، وانطلقوا مسلحين للقيام بالحج إلى القدس ، لعبادة المخلص ، ولقد حكيت بأسلوب بسيط متسم بالصدق ، مارأيت أنه جدير بالذكر ، ودونت بقدر ما تمكنت مشاهدته بنفسه أثناء تلك الرحلة .

ومع أنني لا أمتلك الجراءة على مقارنة أعمال الفرنجة السالفة الذكر بالأعمال العظيمة والانجازات الهامة للإسرائيليين والمكابيين وكثير من شعوب الله المختارة ، التي منحها معجزات كثيرة وخارقة ، أنا لا أظن أن أعمال الفرنجة تقل شأنًا عنها ، لأن المعجزات العجائبية الربانية تحققت مرارا بين صفوفهم ، وهذا

- ٢٧١٥ -

ما تسعى جاهدا لبعث نكراه بالتدوين ، وكيف يتميز الاسرائيليون أو المكابيون عن الفرنجة ، فالحق أقول إننا شهدنا هؤلاء الفرنجة في الأرض عينها والبلاد ذاتها ، وهم في الغالب على مقربة منا ، أو سمعنا عنهم في أماكن نائية عنا ، وهم يقاسون من الضرب والصلب وتمزيق الأعضاء والموت بالذئاب أو بتقطيع الأوصال أو بأية واسطة أخرى توصلهم إلى الشهادة ، وذلك كله في سبيل المسيح وحبا به ، لم توقفهم التهديدات ولم تقعدهم الاغراءات ، بل لو كان سيف الجزار على مقربهم منا لما تحاشاه معظمنا لنيل الشهادة حبا في المسيح .

هناك آلاف مؤلفة ممن لاقى حتفه ونال الشهادة المباركة في هذه الرحلة ، من الذي عندما سيسمع بأفعال الرب هذه - مهما اشتدت قساوة قلبه - لن تجيش أعماق مشاعر الورع في نفسه ، ولا يشرع بحمد الرب وتمجيده ؟ ليس هناك من لن يأخذ العجب عندما يرى كيف تمكنا - ونحن قلة - في قلب بلاد أعدائنا لا أن نقاوم فقط بل أن نعيش أيضا ؟ من الذي سمع قط بمثل هذا ، فلقد كان إلى جوارنا مصر والحبشة من جانب ، وبلاد العرب وسورية والجزيرة والعراق وفارس من جانب آخر ، إن هاهنا بحر عظيم فصلنا عن بلاد المسيحيين ، لقد وضعنا الرب بإرادته بين أيدي الجزارين غير أن ذراعه الجبارة قد حمتنا ودفعت عنا « طوبى للأمة التي الرب الهها » (مزامير : ١٢ / ٢٣) سوف أحكي فيما يلي تاريخ بداية هذا الفعيل ، وسأروي كيف كرس جميع شعوب الغرب أنفسهم وسواعدها بلا حدود في سبيل انجاح هذه الحملة .

تنتهي هنا مقدمة فولتشر

الكتاب الأول

يبدأ هنا هذا الكتاب الأول من أعمال الفرنجة حجاج
القدس

المجمع الذي عقد في كليرمونت

في السنة خمس وتسعين بعد الألف من تجسيد مولانا يسوع
المسيح ، عندما كان هنري - المدعو بالامبراطور - يحكم في
المانيا ، والملك فيليب في فرنسا ، تعاظمت الشرور في مختلف أنحاء
أوروبا نتيجة لضعف الايمان ، وكان أوربان الثاني قد حكم في هذه
الأونة في روما ، وكان رجلا رائعا في الذات والسمات ، مناضلا بجلد
وحكمة في سبيل إعلاء مكانة الكنيسة المقدسة .

وكان قد رأى الناس جميعا من كهنة وعلمانيين قد داسوا الديانة
المسيحية بأقدامهم ، وأهملوا السلام أيما إهمال ، وتنازع أمراء
البلاد أحدهم مع الآخر في حروب لم تعرف التوقف ، وشهد الناس
يسلبون متاع الدنيا بعضهم من بعض ، ورأى كثيرا من السجناء
يحتجزون بدون حق ، ويلقى بهم بكل وحشية في غياهب السجون ،
حتى تدفع قديتهم العالية جدا ، أو يعانون من عذاب مثلث الشرور :
الجوع والعطش والبرد إلى أن يلقوا حتفهم سرا ، ثم أبصر الأماكن
المقدسة وقد دنست حرماؤها والبيع والكنائس قد التهمت بها النيران ،
ولم يسلم أحد من البشر من الأذى ، وباتت الشؤون البشرية
والربانية موضع سخرية واستخفاف .

وبعيد سماع أوربان أن الأتراك قد اجتاحت المناطق الداخلية من
الأراضي البيزنطية ، وأن المسيحيين قد وقعوا تحت نير شعب
متوحش فتاك ، حركته مشاعر التقوى والورع ، فاجتاز - مدفوعا
بمحبة الرب - الجبال ، وهبط إلى أراضي فرنسا ، ودعا إلى عقد
مجمع مقدس في أوفيران في مدينة كليرمونت ، وتكون هذا

المجمع - الذي كان قد بعث الدعاة للتحضير له في جميع النواحي - من ثلاثمائة وعشرة أعضاء من الاساقفة والشماسية . والتأم المجمع في اليوم المحدد حول البابا أوربان ، فألقى فيهم خطاباً بليغاً مؤثراً تناول فيه الهدف الذي دعا من أجله ، وأخبر المجتمعين بصوت مفعم بالحزن والأسى عن معاناة الكنيسة ، وألقى موعظة مؤثرة حول العواصف الهوجاء التي تجتاح العالم الذي انحطت فيه الديانة إلى الدرك الذي وصفناه من قبل .

وبكل خشوع حث الجميع على العمل في سبيل استرجاع قوة إيمانهم ، وأن يبعثوا في أنفسهم العزم على التخلي عن إغواءات الشيطان وأن يجهدوا في سبيل استرداد الكنيسة المقدسة لمركزها ومجدها التليد ، بعدما حط من شأنها الأشرار .

خطبة أوربان في المجمع

أيها الأخوة الأحبة ، يا عبيد الرب في هذه البلاد ، لقد قدمت إليكم أنا أوربان المتوج بمشيئة الرب بتاج التثليث ، الحبر الأعظم للعالم أجمع ، قدمت في هذه الظروف الصعبة والحرجة بمثابة نذير من العناية الربانية و " إنني لأمل أن يكون وكلاء سرائر الرب صالحين مؤمنين لا يشوبهم رياء " (كورنثيوس : ٤ / ١ - ٢)

لئن كان أحدكم مخادعاً أو منحرفاً بعيداً عن التعقل والاعتدال والعدل محارباً لكلمة الرب على الأرض فساأسع - بعون من الرب - إلى تقويم اعوجاجه ، فالرب قد أقامكم وكلاء على بيته حتى إذا ماحان الوقت زودتموه بما تيسر من القوات ، وستنزل عليكم البركة المؤكدة إذا ما وجدكم رب الوكالة مؤمنين (متى : ٢٤ - ٤٥ - ٤٦)

إنكم تسمون رعاه ، فلا تتصرفوا كالأجراء ، كونوا رعاة

حقيقيين ، واحملوا عصيكم بأيديكم ولا تغفلوا ، واحرسوا القطيع الذي عهد به إليكم من جميع الجـوانب (يوحنا : ١٠ / ١٢ - ١٣) أما إذا خطف الذئب خروفا نتيجة لاهمالكم وتقصيركم ، فإنكم لم تـخسروا ما أعدّه الرب لكم فقط بل سيلقى بكم في جحيم الذين حقت عليهم اللعنات ، بعدما تـقرءكم عصا الجـلاد . وكما جاء في الكتاب المقدس « أنتم ملح الأرض » (متى : ٥ / ١٣) ولكن إذا أخفقتكم فكيف يتم التـمليح ؟ أهـ كم من الرجال ينبغي أن يملحوا ؟ (متى : ٥ / ١٣ . مرقس : ٩ . لوقا : ١٤ / ٣٤) من المتوجب عليكم أن تملحوا بملح حكمتكم المـزيلة للفساد ، الجهلة الذين يتنافسون على ملذات هذا العالم ، وإلا فإنهم سيتحولون إلى حجارة نتيجة لطغيانهم ، وسيجدهم الرب عندما يخاطبهم مفتقرين إلى ملح الحكمة .

لأنه إن وجد فيكم دودا - أي آثام - بسبب قعودكم عن القيام بواجباتكم ، فسيأمر بالحال بطرحكم مـرنولين في قعر الجحيم (مرقس : ٩ / ٤٨) وحيث أنكم لن تستطيعوا تمويض هذه الخسارة له ، إنه سيحكم عليكم باللعنة وسيبعدكم بالحال من حضرته ويحرمكم من رعايته . غير أن الذي يملح يجب أن يكون حكيما بعيد النظر متواضعا ، عالما محبا للسلام ، يفتش عن الحقيقة ، تقيا طاهرا ومنصفا عادلا ، إذ كيف يجعل الجاهل غيره عالما ، أو المتفاخر غيره متواضعا ، والمدنس غيره نقيا ؟ إذا كان المرء يمقت السلام فكيف يمكنه إحقاق السلام ؟ وإذا مـاتلوث يد إنسان فكيف يمكنه تطهير مـاتلوث بـدنس آخر ؟ ولقد ورد في الكتاب « إن كان أعمى يقود أعمى يسقطان معا في هوة » (لوقا : ٦ / ٣٩)

وبناء عليه اصلحوا ذواتكم أولا حتى لاتستحقوا الملامة ، وإذا ما اصلحتم من هم تحت رعايتكم ، وإذا ودتـم حقا أن تكونوا احباء الرب ، فاعملوا متطوعين مايرضيه .

اتمنى عليكم بشكل خاص رعاية شؤون الكنيسة والمحافظة على نواميسها حتى لاتضرب مرطقات المتاجره بالدين جذورها بينكم ، وكونوا على يقين ان البساعة والشارين سيلحقهم سوط الرب (متى : ٢١/١٢ مرقس : ١١/١٥ . لوقا : ١٩/٤٥ ، يوحنا : ٢/١٥) واسوف يجرون بكل تعاسة عبر بوابات ضيقة إلى الهلاك الكلي (لوقا : ١٣/٢٤ . متى : ١٣/٧) عليكم صيانة حرية الكنيسة بجميع مراتبها وحمايتها من القوى الدنيوية ، وسددوا العشور من خيرات الأرض جميعا إلى الرب بكل أمانة دون أن تباع أو تحتجز .

ولتنزل اللعنة على كل من يختطف أسقفا ، ولتحق اللعنة على كل من يختطف كاهنا أو راهبا أو راهبة ، أو أحدا من خدامهم أو من الحجاج أو التجار ، أو يمسهم بالأذى ، ويلحق الطرد والحرمان من الكنيسة كل اللصوص وحارقي البتوت والذين يمدون إليهم يد العون .

ولقد قال غريغوري : « علينا أن نقوم بكل خصوصيه مدى شدة العقوبة التي سنعاقب فيها من يسرق الآخرين ، وإذا ماحقت عليه اللعنة في الجحيم فلأنه كان سخيا بما لم تملك يداه » وهذا ما حصل للرجل الغني الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس (لوقا : ١٦ / ١٩ - ٣٠) فهو لم يعذب بسبب سرقة أموال الآخرين فقط بل لأنه أساء أيضا استعمال الثروة بعدما حصل عليها .

لابد انكم يا اخوتي الاحباء قد شهدتم عالمكم وقد انتشر فيه الشر وعاث به فسادا منذ أمد بعيد ، ولاسيما في بعض نواحي مقاطعتكم فهذا الذي قيل لكم وقيل لنا ، ولعل من أسباب تقصيركم في إحقاق الحق وإزالة الظلم أنه لا يكاد أحد منكم يملك الجرأة على السفر في الطرقات مؤملا السلامة خوفا من السلب على يد قطاع الطرق في النهار ، أو اللصوص في الليل ، فهو يعرض للسلب والمخاطر سواء اكان داخل العمران أو خارجه .

لهذا كله يتوجب عليكم تجديد الهدنة المعروفة باسم « هدنة الرب » التي أقرها الآباء المقدسون منذ زمن بعيد ، وإنني أرغب إليكم بكل إخلاص أن تراعوا الأخذ بها في كل أبرشية من الأبرشيات ، لأبلى أقول إذا ما خرق انسان - لكبر في نفسه أو لطمع - شروط هذه الهدنة عامدا متعمدا فليحق عليه الحرمان بقوة السلطة المخولة لي من الرب ، وبإرادة هذا المجمع .

ماحرض به البابا بشأن الحج إلى القدس :

وبعدما جرى الوفاق على هذه الأمور جميعا ، نهض جميع الحضور من اكليروس وعلمانيين وقدموا بلا تكلف الشكر للرب على ماتفوه به البابا أوربان ، وعاهدوه مخلصين بالتقيد بكل ما يرسمه ، بيد أن البابا ، بادر إلى الاستطراد قائلا : إن محنة لاتقل عن الذي ذكرت بل تزيد ، ذلك أنها بالحرى أشد المحن وأقساها على الإطلاق ، هي التي نزلت بالمسيحية في طرف آخر من العالم .

وتابع يقول : بما أنكم يا أبناء الرب قد وعدتموه بحفظ السلام فيما بينكم ، وأن تكونوا أعظم اخلاصا مما مضى في الحفاظ على حقوق الكنيسة ، يتوجب عليكم ، وقد قوم الرب اعوجاجكم ، القيام بواجب ملح لكم وللرب ، يمكنكم خلال أدائه اظهار مدى صدق طوبيتكم عليكم وبكل سرعة ان تأخذوا المساعدات الى إخوانكم في المشرق ، التي طالما وعدتموهم بها ، انهم بحاجة ملحة لها : ان العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الأراضى الرومانية (البيزنطية) عميقا حتى البوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعماق من نبي قبل في أراضى هؤلاء المسيحيين ، لقد أبادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وأخذوا عددا كبيرا من الأسرى ودمروا الكنائس ، واجتاحوا أراضى المملكة ، وإذا لم تتصدوا لهم الآن ، فإنهم سيمدون سلطانهم أعماق وسيذشرونه فوق العبيد المخلصين للرب .

لهذا السبب أتوجه اليكم بالرجاء والتحريض ، وانه ليس أنا الذي أتوجه اليكم ويحرضكم ، بل الرب على لساني أنا نائب المسيح ، أتوجه الى الفقير منكم والغني ، وأسألكم أن تتسارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطق المقطونة من قبل اخواننا ، وأن تقدموا المساعدة في وقتها الى عباد المسيح ، انني خاطب جميع هؤلاء الحضور ، وأعلن الشيء نفسه الى جميع الغياب ، ولكن اعلموا أن المسيح هو الذي يخاطبكم ويصدر الأوامر : ان جميع الذين يذهبون الى هناك ويفقدون حياتهم في البر أو البحر اثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفار سيتم غفران ذنوبهم بالحال ، وانني أمنح هذا من خلال السلطة المضافة علي من قبل الرب .

يا للخزي ويا للعار اذا ما انتصر علينا هذا الجنس المتسم بمثل هذه الدناءة والحقارة ، اذا ما انتصر هذا الجنس الذي تستعبده الشياطين والعفاريت على شعب انعم الرب القدير عليه وتباهى باسم المسيح ، أه كم من المعائب ستوسمون بها - حتى من الرب نفسه - اذا لم تقوموا بتقديم العون الى الذين يعدون مثلكم في الدين المسيحي .

وتابع البابا يقول : انه يتوجب على الذين اعتادوا - حتى الآن - على الاقتتال مقترفين للآثم ، منغمسين في صراع ضد المؤمنين ، أن يتوجهوا للكفاح ضد الكفار ، وأن يحققوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مباشرتها منذ امد طويل ، على الذين طال ادشغالهم بالصومانية ان يتحولوا ليكونوا جندا للمسيح ، وليقم الذين حاربوا في الماضي ضد الهم واخوانهم بالحرب الآن ضد البرابرة ، دع الذين كانوا يكترون لقاء دريهمات من الفضة (متى : ٢٠٢٧) يحصلون الآن على ثواب سرمدي ، ودع الذين كانوا ينهكون انفسهم ويدمرون اجسادهم وارواحهم يكافحون الآن لنيل ثواب وأجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد ماذا يمكن أن أقول أكثر من هذا ؟ سيقف الفقراء والتعساء أولا على طرف

وسيقف الأغنياء حقاً على طرف آخر ، هناك وقف أعداء الرب ، وهنا وقف اعوانه .

لاتدعوا حائلاً يحول دون الذين يريدون الذهاب ، دعوهم يعدون أمورهم ويجمعون أموالهم ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل فصل الربيع ، عليهم أن ينطلقوا بقلوب عامرة بالايمان ، وليأخذوا الطريق تحت إشراف الرب وقيادته .

اسقف لى بوي والوقائع التي تلت

بعدما تفوه البابا بهذه الكلمات ، ثارت حمية الحضور جميعاً ، ووعد العديد منهم بأن يذهبوا على الفور ، وأن يحتوا من لم يشهد الاجتماع أن يفعل الشيء نفسه ، وكان ذلك اعتقاداً منهم أن لاشيء يفوق هذه المسألة أهمية ، وكان بين الحضور اسقف لى بوي واسمه ادهرمر ، وهو الذي غدا فيما بعد القائد الروحي الذي قاد بحكمته وحسن تدبيره الجيش برمته والهمه بكل حزم كيف يؤدي مهمته .

وبعدما أقر المجمع هذه الأمور التي وصفنا ، وتمت الموافقة عليها بالاجماع ، منحت تبريكات الغفران ، ورفض الاجتماع ، وما أن عاد الجميع الى مساكنهم حتى أخبروا الذين لم يعلموا بكل ماجرى ، وإثر انتشار قرارات المجمع في جميع أطراف المقاطعات ، وافق الجميع وأعطوا مواثيقهم بالحفاظ على السلام ، والتقيد بشروط « هدنة الرب » .

وفي الحقيقة ما أن سمع كثير من الناس من مختلف المراتب بما حدث وبغفران الذنوب حتى بادروا الى اعطاء مواثيقهم والاقسام على أن ينطلقوا بأرواح طاهرة سواء امروا بالذهاب أم لم يؤمروا .

اواه كم اسعد نفوسنا واثلج صدورنا رؤية الصليبان المصنعة من
الحريز او من السندس المذهب ، او قماش فاخر آخر ، وقد خاطها
الحجاج من الفرسان والعامّة على اكتاف اربيتهم ، فلقد فعلوا هذا
كله طاعة لأوامر البابا اوربان ساعة ادانهم القسم بالذهاب ، ولقد
كان جديرا أن يتولى شعار الرب ورمز انتصاره حماية جنده وتثبيت
هوية الذين كانوا يعدون العدة في سبيل الدفاع عن مجده ، وبما أنهم
حلوا نفوسهم بشعار دينهم هذا ، فانهم نالوا في النهاية من الرمز
ذاته الحقيقة بحد ذاتها ، لقد حملوا الشارة الخارجية حتى يدركوا
في النهاية الحقيقة الداخلية .

ومن الجلي أن النوايا الطيبة تقود الى انجاز الأعمال
الطيبة ، وأن العمل الطيب يؤدي الى خلاص الروح ، وبناء عليه ان
أفضل مايقوم به المرء هو أن يدخر نخيرة له من الأعمال
الحسنة ، حتى يتأمن له من خلالها غذاء للروح ، فليتكمل امرىء أن
يعمل صالحا حتى يحقق عملا أصليا ، وفي النهاية سيحصل - اذا
كان جديرا - على أفضل ما يكون ، وهذا مالا تنقص قيمته الى
الأبد .

شعر

وبهذه الوساطة شرع أوربان الرجل العاقل المبجل
بعد التأمل ، بعمل أشرقت منه الدنيا .

لقد أعاد احلال السلام ، ووطد من جديد حقوق الكنيسة كسالف
عهدها ، كما وبذل جهودا مضيئة لطرد الكفار من بلاد
المسيحيين ، وبما أنه ناضل بلا هوادة في سبيل تمجيد كل شيء
مصدره الرب ، فقد دان له الجميع بالطاعة وقبلوا سلطته الأبوية .

النزاع بين البابا أوربان وجيلبرت :

أقام الشيطان ، الذي يسعى دوما وبلا انقطاع لتدمير الانسان ، ويطوف في الأرض كالسبع المفترس الباحث عن فريسة يلتهمها (بطرس : ٨٥-١) أقام ليشيع الفوضى بين الناس ، منافسا للبابا أوربان اسمه جيلبرت ، وقد بدأ هذا الرجل ، مدفوعا بالرغبة ، ومدعوما بصفاة امبراطور إسفارى سالف الذكر ، باغتصاب الكرسي البابوي ، وبينما تمسك غريغوري المعروف باسم هيلديبراند ، وهو البابا الذي تقدم على أوربان بمنصبه البابوي في الكنيسة ، منعه جيلبرت نفسه من الاقتراب من كنيسة القديس بطرس .

وبعد ما تمادى جيلبرت في تعنته ، ارتأى اتقياء الناس عدم الاعتراف به ، وبعد وفاة هيلديبراند جرى انتخاب أوربان بصورة شرعية ، وتم ترسيمه من قبل الكرادلة ، وقد مال القسط الأكبر من الناس وأكثرهم ورعا الى طاعته .

وافلح جيلبرت ، بدعم من الامبراطور السالف الذكر وحماس جل اهل روما ، في ابعاد أوربان عن كنيسة القديس بطرس لمدة طويلة ، وطاف أوربان خلال الفترة التي ابعد فيها عن كنيسته في انحاء البلاد ساعيا الى تقريب القلوب من الرب وتصحيح اعوجاج نوي الغواية .

وبحكم احتلاله للمركز الرئيس في الكنيسة ، ازدادت غطرسة جيلبرت ، بيد انه ابدى تهاونا تجاه اهل الخطيئة ، ومارس ومعه جماعته ظلما وظانف منصب البابوية ، ولم يعبأ بأعمال أوربان وسعى الى ابطال فعاليتها .

غير ان أوربان قد تمكن في السنة نفسها التي مر بها الفرنجة في

روما في طريقهم الى القدس ، من الاستيلاء على السلطة الكنسية بفضل عون تلقاه من سيدة فاضلة اسمها ماتيلدا ، كانت في تلك الأونة واسعة النفوذ في منطقة روما التي انحدرت منها ، وكانت جيلبرت وقتذاك في المانيا ، وهكذا صار لروما بسابوان، الامر الذي أدى الى حيرة الناس بشأن من يطيعون منهما ، والى من يعودون ومن يمنح الغفران الى مرضاهم ، وفضل بعضهم هذا واثر آخرون ذاك .

وكان جليا لنوي العقول من الرجال ان أوربان كان هو الأفضل ، وفي الحقيقة ان الأفضل هو الذي يضبط نفسه ويتحكم بعواطفه ويضبطها كما لو كانت عدوة له .

وكان جيلبرت بحكم كونه أسقفا لمدينة رافينا ثريا جدا ، وكان يختال في مظاهر البذخ والترف ، ومن المثير للدهشة ان هذه الثروات لم تشف غليله ، وبناء عليه هل يعقل أن يعد نموذجا للحياة المثلى الذي يعشق المظاهر ويتناول بكل قحة على اغتصاب عرش سلطة الرب ، وان هذا المنصب لايجوز حيازته بالقوة بل ينبغي تقبله بكل تواضع وخشوع .

وليس من المدهش ان أصيب العالم بأسره بالقلق والحيرة ، فعندما تضطرب أمور كنيسة روما ، التي هي مصدر التقويم لجميع المسيحيين ، سيصيب المرض المعدي الساري في أوصالها الرئيسية جميع الأعضاء التابعين لها ، وسيزداد ضعفهم بسبب معاناتهم من أجلها .

أجل الحق يقال ان هذه الكنيسة هي أمنا ، التي تربينا في أحضانها ونشأنا على مثلها واعتدنا ، واشتد عودنا بمشورتها ، أجل هذه هي الكنيسة نفسها قد ضربت بكل قحة من قبل جيلبرت الأرعن المتكبر ، ومعروف أنه عندما يصاب الرأس تتداعى بقية الأعضاء في الحال .

شعر :

عندما يصاب الرأس
يصيب الأذى بقية الأعضاء .

وعندما مرض الرأس على هذه الصورة ، ازداد الضعف في
الأطراف نتيجة الآلام التي انتشرت في جميع أرجاء أوربا ، حيث
داس الناس ، سواء أكانوا أقوياء أم ضعفاء ، وسيان أكانوا
داخل الكنيسة أم خارجها ، بأقدامهم على الفضيلة والسلام
والدين ، وبات من المتوجب وضع حد لهذه الشرور جميعا ، وتدبرت
الخطة التي أحكمها البابا أوربان أن يتحول الصراع
والقتال - الذي دار حتى الآن بين المسيحيين - فيوجه ضد
الكفار .

والآن سأوجه قلبي نحو تدوين التاريخ بغية اخبار الذين لم
يعلموا بما حدث لرحلة القاصدين الى القدس ، وما جرى لهم من
وقائع وسأبين كيف توجت خططهم وأعمالهم بالنجاح بعون
الرب ، فلقد جمعت أنا فولتشر أوف تشارترز ، الذي سافرت مع
الحجاج ، بكل دقة وعناية فائقة ، ذلك كله في ذاكرتي ، من أجل
الأجيال المقبلة ، وبدونته تماما كما شهدته بنفسي .

اوقات انطلاق المسيحيين واسماء قادة الحجاج

شرع في شهر اذار من عام ١٠٩٦ بعيد عقد المجمع الذي دعا
اليه البابا أوربان الثاني في تشرين الثاني حسبما نكرنا في أوفيرن
كليرمونت ، بعض الذين بادروا الى تجهيز أنفسهم وأكملوا
اعداداتهم ، شرعوا في الرحلة المباركة ، وسار اثرهم اخرون في
نيسان او ايار ، وفي حزيران او تموز او حتى في آب وايلول وتشرين

أول كل حسب مقدرته على توفير الموارد الكافية لسداد نفقات التكاليف .

ومن نعم الرب أن الحبوب والنبذ وجدت في تلك العام بكميات وافرة جدا في جميع البلدان ، وبذلك توفر الخبز خلال الرحلة للذين حملوا صلبانهم واختاروا اتباع طريق الرب .

ولما كان من المفيد الاتيان على ذكر أسماء الحجاج في تلك الرحلة فانني اذكر : هيوج الكبير أخو فيليب ملك فرنسا ، فهو كان أول الأبطال الذين عبروا البحر ، فقد نزل هيوج مع رجاله في ديرازو ، وهي مدينة بلغارية ، غير أنه اندفع بكل طيش على رأس قوة صغيرة ، فاعتقله سكان المنطقة وحملوه الى امبراطور القسطنطينية حيث بقي فترة من الزمن محروما من حريته .

وبعده بوهيموند أبوليا بن روبرت غويسكارد ، من شعب النورمان ، الذي سار بجيشه على الطريق نفسه .

وبعده غودفري ، دوق اللورين ، الذي سافر عبر هنغاريا على رأس قوة أكبر .

وبعده ريموند كونت بروفانسال ومعه القوط والكاسكون ثم أدهمر أسقف لي بوي ، وزحف هؤلاء عبر دماشيا .

وكان أول من عبر هنغاريا المدعو بطرس الناسك ، وبعدما جمع حوله حشدا كبيرا من الرجال ، وعددا ضئيلا من الفرسان ، وأصبح بعد ذلك وولتر المعدم ، وكان جنديا قديرا ، قائدا لهذه المجموعة ، وقد لاقى وولتر هذا منيته مع عدد كبير من أعوانه بين نيقوميديا ونيقية على أيدي التركمان .

وبدا في شهر تشرين الأول روبرت كونت نورماندي ، ابن وليم

- ٢٧٢٨ -

الفتاح ، ملك انكلترا ، رحلته بعدما حشد جيشا كبيرا من النورمان والانكليز والبريطانيين ، وقد مضى معه ستيفن كونت بلوا الذي كان زوج اخته ، وروبرت كونت الاراضي المنخفضة ، ومعه حشد من النبلاء .

وهكذا تقاطرت هذه الحشود العملاقة من جميع البلدان الغربية ، وتعاضم حجم الجيش يوما اثر يوم ، وتضخم أثناء زحفه من شرائم صغيرة قليلة العدد الى مجموعة من الجيوش ، وحوى أعدادا لاتحصى من بلاد متعددة تنطق بلغات شتى ، انما لم تجتمع في جيش واحد الا مقابل مدينة نيقية .

ثم ما الذي أزيد فأقوله ؟ لقد زحفت الجزر في البحار والممالك في الارض حتى أيقن الانسان أن نبوءة داود قد تحققت بقوله : « كل الأمم الذين صـنعتهم يأتون ويسـجدون أمامك يارب » (مزامير : ٩٨٥) وحسبما قال الذين أتوا بعد ذلك بحق : « لنسجد عند موطن قدميه » (مزامير : ٦١٣) ولقد قرأنا كثيرا عن هذه الرحلة في كلام الانبياء ، ولن نكرر ذلك هنا ثانية حتى لانسبب الملل .

كم أصابهم من أسى ، وكم أجهشوا في البكاء وندبوا وانتحبوا ، عندما فارقوا رفاقهم وأزواجهم الأعزة عليهم وأولادهم وممتلكاتهم مهما كثرت ، وآباءهم وأمهاتهم وأخوانهم ونويعهم وآلهم الآخرين .

ومهما تدفقت دموع مودعيهم أمامهم ، فان احدا منهم لم يتقاعس عن الذهاب ، لأنهم تركوا ، في سبيل محبة الرب ، مايملكون ، وكلهم ثقة وقناعة سينالون مائة ضعف مما وعد الرب لمحبيه .

(متى : ١٩ ٢٩ . مرقس : ١٠ ٢٩ - ٣٠ . لوقا : ٢٩/١ - ٣٠) .

ولقد أخبر الزوج زوجته عن موعد عودته ، مؤكدا لها ، أنه إذا ماكتب الرب له السلامة فسيعود اليها ، ثم طلب من الرب أن يعتني بها ، وقبلها مطولا ، ووعدها من خلال دموعه أنه سيعود ولكنها لخوفها من أنه لن تقع عينها عليه ثانية ، أغمى عليها ، وهي تترحم على من تحب ، وتنسب فقدانه كما لو أنه فارق الحياة فعلا ، ثم انه غادر ، كمن ليس في قلبه شفقة - مع أنه كان شفوفا - وكمن لم يتحرك لدموع زوجته ولحزن محبيه - مع أن قلبه قد امتلأ حزنا - لقد غادر بكل عزم وحزم . ثم ماذا نستطيع أن نقول أكثر مما قلناه ؟ بقدر من الرب كان هذا ، وهو عجيب في أعيننا (متى : ٤٢/٢) .

رحلة كونت النورمان والذي جرى في روما خلال وجودهم هناك :

ثم عبرنا نحن الفرنجة الغربيين غاليا ، وسافرنا عبر ايطاليا الى مدينة لوكا الشهيرة ، وعلى مقربة منها التقينا بالبابا أوربان الثاني ، وقد تحدث معه روبرت كونت نورماندي وستيفن كونت بلوا وكذلك فعل آخرون منا من الذين رغبوا في محادثته ، وبعد أن منحنا بركاته سرنا الى روما بحبور وغبطة .

وعندما دخلنا البازيليكا في كنيسة القديس بطرس ، وجدنا رجال جيلبرت ، ذلك البابا الأحق يقفون أمام المذبح ، وقد تخاطفوا باجرام - وسيوفهم مشرعة - الهبات المقدمة على المذبح ، وسعى بعضهم وركض في ردهات الكنيسة وأخذوا يرموننا بالحجارة ونحن راكعون في الصلاة ، ذلك أنهم لم يروا أحدا مخلصا لأوربان إلا وأزمعوا على قتله في الحال.

وكان رجال البابا أوربان يحرسونه في واحد من أبراج البازيليكا ، بكل عزيمة واصرار على مقاومة أعدائه ، وقد أصابنا

- ٢٧٣٠ -

الأسى عندما رأينا الآثام التي تقترب هناك ، ومع هذا تمنينا في قرارة نفوسنا ألا يقع حادث إلا انتقاما للرب ، وخلال هذا رجع العديد من الذين حضروا معنا الى بيوتهم وقد أضعفهم الخوف والجبن.

أما نحن فقد واصلنا سفرنا عبر أواسط كمبانيا ووصلنا الى باري ، وهي مدينة وافرة الثراء على شاطئ البحر ، وصلينا هناك في كنيسة القديس نيقولا للرب بكل حرارة ، ثم توجهنا الى المرسى على أمل الجواز في الحال ، غير أن البحارة اعترضوا لاقتراب فصل الشتاء مما قد يعرضنا للمخاطر ، فاضطر روبرت كونت نورماندي الى الانسحاب الى كالبريا حيث أمضى الشتاء ، أما روبرت كونت الأراضي المنخفضة فقد عبر في الحال.

ووجد في تلك الآونة عدد كبير من العمامة أنفسهم بلا معين ، وخافوا من الحاجة في المستقبل ، فباعوا سلاحهم وخلعوا ثياب الحج ، ورجعوا بخسة ونذالة الى ديارهم ، لذلك لحقهم ازدراء الرب ، وحل بهم الخزي والعار .

غرق الحجاج وظهور المعجزة الربانية:

ومع عودة ربيع عام ١٠٩٧ ، عاد في أذار كونت نورماندي وكونت ستيفن بلوا مع أتباعها نحو شاطئ البحر ، ذلك أن ستيفن كان أيضا ينتظر الوقت الموائم للابحار ، وعندما تم تجهيز الاسطول في مطلع نيسان الذي وافق يوم الصعود (٥ - نيسان) ركبوا البحر في ميناء برنديزي.

« يا لعمق غنى الرب وحكمته وعلمه ، ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء » (رومية: ١١ / ٣٣) إذ أننا شهدنا واحدة من السفن الكثيرة القريبة من الشاطئ وقد انشطرت من وسطها

الى نصفين دون سبب واضح وابتلعها اليم ، فهلك بذلك اربعمائة شخص من الجذسين ، وصعدت ارواحهم الى عليين مصحوبة بصلوات الغفران الى الرب.

وبعدما جمع المحيطون بهم ما استطاعوا من جثث القرقي ، وجدوا ان الصليبان قد حفرت فعليا في جلد بعضهم فيما بين الكتفين ، ولكم هو رائع ان شعار الفداء هذا الذي وضعوه فوق ملابسهم وهم احياء ، سيظل بارادة الرب رمزا لايمان هؤلاء الذين ضحوا بنفوسهم في سبيله ، زد على هذا كم كان موانعا ان اظهرت هذ المعجزة لكل من شاهدها ان الاموات قد حصلوا برحمة من الرب - على الامن والسلام في الحياة السرمدية ، وهكذا تحققت نبوءة الكتاب المقدس بدون ادنى لبس و « العادلون وإن ماتوا قبل اوانهم سيكونون بأمان ».

وكان قد نجا عدد ضئيل من الركاب بعدما صارعوا الموت ، وابتلعت الامواج خيولهم وبغالهم وتم فقدان الكثير من الاموال ، وقد روعنا مشهد هذه الكارثة الى درجة ان بعض ضعاف النفوس ممن لم يكونوا قد صعدوا الى السفن بعد ، انتكسوا على اعقابهم ، وتخلوا عن الحج قائلين إنهم لن يثقوا بهذا البحر الغابر ويؤمنوه على ارواحهم ابدا.

اما نحن فقد اقلعنا في البحر - وكلنا ثقة واعتماد على الرب القدير - تدفع بأشرعتنا ريح طيبة ، وتزعق من حولنا أبواق عديدة ، ومع حلول اليوم الرابع وصلنا الى البر قرب مدينة ديرازو ، أي على بعد عشرة أميال كما يخيل الي ، ودخل اسطولنا في مرسيين ، ونزلنا الى اليابسة والغبطة تملأ نفوسنا ، وعبرنا من امام المدينة المذكورة ثم سرنا عبر اراضي البلغار وسط جبال شاهقة وجروف مهجورة حتى وصلنا الى نهر يتدفق بسرعة يدعو سكان المنطقة باسم نهر الشيطان ، وكانت تسمية محقة إذ شاهدنا العديد من العامة يفرقون في هذا النهر بعدما املوا في ان يخوضوه خطوة

خطوة ، غير أن التيار جرفهم بقوة هائلة ، ولم يستطع أحد من
الشهود انقاذ أيا منهم ، ولقد نرغنا عليهم دموع الشفقة
الوافرة ، ولولا أن الفرسان قدموا العون للرجالة فأجازوهم على
ظهور خيولهم المدربة لهلك العدد الأكبر منهم ، ثم عسكرنا على
مقربة من الشاطئ ، وأمضينا ليلتنا هناك تحيط بنا جبال شاهقة
خالية من السكان.

مع اشراقة الصباح صدحت الأبواق ، فشرعنا نسلق جبل
باجولاتس (باجورا) وبعدما تسلقناه مررنا بمدينة: لوكريسا
وموناستير ولوفيانث (اديسا) وستيلالا ، ثم وصلنا إلى نهر
داريوس (فاردار) ومع أن هذا النهر يقطع عادة بالقوارب غير أننا
خضناه بعون الرب وجزناه بدون قوارب ، وعسكرنا في اليوم التالي
أمام مدينة سالونيك ، وهي مدينة تزخر بالسلع من كل جنس.

وبعدما توقفنا لمدة أربعة أيام عبرنا بلاد مقدونية عبر وادي فيلبه
ثم عبرنا نكريسوبولس و كريسستوبولس ، بريتوريا ، و
تيسنوبولس ، و ماكرا ، و ترايانوبولس ، و نيبابولس ، و بانا
نوكس ، و رودوستو ، و هرقلية ، و سلامبريا ، و ناتورا وصولا إلى
القطنطينية ، التي عسكرنا أمامها واسترحنا لمدة أربعة عشر
يوما .

ولم نحاول الدخول إلى المدينة ، لعدم موافقة الامبراطور (لأنه
كان يخشى أن نتأمر عليه ونسبب له الأضرار) لذلك توجب علينا
شراء حاجياتنا اليومية من خارج الأسوار ، وقد أحضر الأهلون
هذه السلع بأمر من الامبراطور ، ولم يسمح لنا بدخول المدينة إلا
بمعدل خمسة أشخاص أو ستة في كل ساعة ، وهكذا في الوقت الذي
كان بعضنا يغادر المدينة كان آخرون يدخلونها للصلاة في كنائسها.

من القسطنطينية الى نيقية:

كم هي جميلة مدينة القسطنطينية لا بل كم هي رائعة ، كم فيها من كنيسة ودار بنيت من قبل امهر الصناع ، إن ما يراه الانسان في شوارعها العريضة لا بل في أزقتها الضيقة ، من أعاجيب شيء لا يحصى ، ومن المضحى أن يحصى الانسان الثروات التي فيها من الذهب والفضة ، والثياب بجميع أصنافها والآثار المقدسة ، فالتجار يجلبون اليها من أسفارهم العديدة ، كل ما يحتاج إليه بني البشر ، وبتقديري أن مالا يقل عن عشرين ألف خصي يعيشون فيها على الدوام.

وبعدما استجمعنا بما فيه الكفاية ، عقد قادتنا - بعد التداول - اتفاقية مع الامبراطور ، وأعطوا أيمانهم عليها ، وكان غودفري وبوهيموند اللذان تقدمنا الى هنا ، قد وافقا عليها ، غير أن الكونت ريموند رفض المصادقة عليها ، مع أن كونت الاراضي المنخفضة صادق مثلما فعل الآخرون.

وكان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الامبراطور ، ذلك أنه بدون مساعدته ومشورته لم نكن قادرين على القيام بهذه الرحلة ، مثلنا في ذلك مثل الذين سيقدمون بعدنا عبر هذا الطريق ، وقد منح الامبراطور الى الأمراء هبات كثيرة ، وخلع عليهم أودية الحرير حتى أرضاهم وأعطاهم الخيول والأموال التي احتاجوا اليها لأداء هذه الرحلة.

وعبرنا بعد ذلك بحر البوسفور ، وخففنا الخطى نحو مدينة نيقية ، حيث كان كل من الأمير بوهيموند ، والدوق غودفري ، والكونت ريموند ، وكونت الاراضي المنخفضة قد شرعوا بحصارها منذ شهر أيار ، وكانت آنذاك تحت حكم الأتراك ، وهم شعب شجاع . جاء من الشرق ، ماهر في استخدام القوس

والنشاب ، وكان هذا الشعب قد عبر الفرات قبل خمسين سنة من بلاد فارس ، واستولى على الأراضي البيزنطية حتى نيقوميديا.

وا اسفاه كم من راس مقطوعة رايناها وكم هي كثيرة عظام الهالكين التي وجدناها مطروحة في البراري قرب البحر حول نيقوميديا ، فقد كان الأتراك في ذلك العام (١٠٩٦) قد أبادوا قوما الذين لم يعرفوا القوس ولم يختبروا كيفية استخدامه ، وقد هز هذا المشهد مشاعرنا ، فذرقنا الدموع الغزيرة.

حصار نيقية وسقوطها:

عندما سمع الذين كانوا يتولون حصار نيقية نبأ وصول قائدنا كونت نورماندي ، وسـتـيفـن بلوا ، قـسـدموا مسرورين لمقابلتنا ، ورافقونا الى موقع في جنوبي المدينة حيث أقمنا معسكرنا.

وكان التركمان قد حشدوا فيما مضى قواتهم ، وزحفوا على أمل بصد المهاجمين واستدراجهم بعيدا عن المدينة ، أو أن يدافعوا عنها بجندهم بفاعلية اعظم ، غير أن رجالنا ردوهم على أعقابهم وهزمهم بكل ضراوة ، وقتلوا أكثر من مائتين منهم ، وعندما رأى هؤلاء أن الفرنجة أشداء متمرسون في فنون القتال تراجعوا مهرولين الى داخل الأناضول يتحينون الفرصة للانقضاض ثانية.

لقد كنا آخر من وصل للمشاركة في الحصار في الأسبوع الأول من تموز (٣ - تموز ١٠٩٧) وكونت في ذلك الوقت الجيوش العديدة التي احتشدت هناك جيشا واحدا ، قدر تعداد العارفون بأنه حوى ستمائة ألف رجل قادر على القتال ، كان من بينهم مائة ألف دارع يحملون أيضا الترسية ويضعون على رؤوسهم الخوذ ، وذلك بالإضافة الى الذين كانوا غير مسلحين أي رجال الدين والنساء والأطفال.

ثم ماذا بعد هذا؟ لو أن جميع الذين غادروا ديارهم للمشاركة في هذه الحملة المقدسة احتشدوا في ذلك المكان لجاوز تعدادهم ستة ملايين محارب ، وهذا ما لاشك فيه ، غير أن بعضهم رجع من روما ، وبعضهم الآخر من أبوليا ، ثم من هنغاريا ودلماشيا ، لأنهم لم يتحملوا المشاق ، وقتل في أماكن عديدة أعداد كبيرة قدرت بالآلاف ، كما مات عدد كبير من المرضى الذين قدموا معنا ، هكذا امتلأت الطرقات والحقول بقبور الحجاج الذين دفنوا علنا.

ويتوجب علينا أن نبين أنه طيلة حصارنا لمدينة نيقية كانت المؤن والأغذية تصل إلينا بوساطة السفن وبرضى من الامبراطور ، ثم أمر قادتنا بصنع الآلات الحربية من أكباش وأبراج خشبية ومجانيق ، وأطلقت السهام من الأقواس ، والحجارة من المجانيق ، وتحارب رجالنا ورجال العدو كرا وفرا بكل ما أوتوا من قوة ، ولقد هاجمنا المدينة بمعداتها الحربية مرارا وتكرارا لكن مناعة الأسوار وحصانيتها أحبطت جهودنا ، وسقط خلال ذلك عدد كبير من الأتراك ومن رجالنا بعد أصابتهم بالسهم أو بالحجارة.

الحق أقول إن الحزن كان سيملاً قلبك ، والدموع سستنهمر من عينيك لو أنك شاهدت الأتراك وهم يقتلون أي واحد منا لدى اقترابه من الأسوار ، إذ أنهم كانوا يرمون الخطافات الحديدية ، وينتشلون الجثة كي ينهبوها ، ولم يجرؤ أحد من رجالنا - أو استطاع - انقاذ الجثة من أيديهم ، وكان الأتراك يرمون بتلك الجثث خارج الأسوار بعد سلبها وتعريتها .

وسحبنا عبر اليابسة عدة قوارب صغيرة بوساطة الثيران والحبال ، وكنا قد جلبنا هذه القوارب من بحيرة سفيتوت وأوصلناها حتى بحيرة نيقية حيث ألقيناها فيها واستخدمناها لحراسة مداخل المدينة بغية منع وصول المؤن والمعونات إليها.

وبعدما مضى على حصارنا للمدينة خمسة أسابيع ، ألقينا خلالها

الرعب في قلوب الأتراك بهجماتنا ، عقد هؤلاء مؤتمرا أرسلوا على إثره الوسطاء الى الامبراطور وسلموا اليه المدينة سرا ، بعدما كنا قد ضيقنا عليها الحصار بقوانا وببراعتنا.

ثم أدخل الأتراك الى المدينة مجموعة من التوركيلي ، بعث بهم الامبراطور الى هناك ، وتسلم هؤلاء المدينة بكل ما كان فيها من ثروات باسم الامبراطور تماما حسبما أمرهم ، وبعد مصادرة ما كان فيها من اموال أمر الامبراطور باعطاء الهدايا والهبات لقادتنا ، وكانت الهدايا من الذهب والفضة والثياب ، كما وأمر بتوزيع قطع النحاس التي يسمونها « ترقرون » على الرجال.

وفي اليوم الذي سقطت فيه نيقية او استسلمت بهذه الطريقة كان قد انقضى عشرون يوما من شهر حزيران.

المعركة المدمرة بين المسيحيين والأتراك:

بعدما حصل امرؤنا على الآن بالرحيل من الامبراطور ، شرعنا في اليوم الثالث قبل مطلع شهر تموز متجهين الى داخل بلاد الاناضول ، وبعدما سرنا لمدة يومين وصلتنا اخبار تفيد أن الأتراك قد نصبوا لنا كمينا في سهل خيل اليهم أننا لا بد مجتازوه ، لهذا توقعوا أن يحاربونا هناك.

وعندما علمنا بهذا لم نجبن ولم نتدخل عنا شجاعتنا ، ولما اكتشفت طلائعنا في تلك الأمسية كثيرا من الأتراك على بعد منا علمونا بذلك على الفور ، فشددنا الحراسة طوال الليل لحماية المعسكر من جميع الجهات ، وفي الصباح التالي الذي وافق أول تموز ، حملنا اسلحتنا وعلى صوت الأبواق عبأنا الجيش ووضعناه

في ترتيب المعركة ، وسار الأمراء والقادة على رأس الكتائب
والسرايا ، وبأعلام خفاقة بداننا الزحف بكل انتظام .

وفي الساعة الثانية من النهار اقتربت طلائعهم من
مقدمتنا ، وحين عرفنا ذلك ، عسكرنا على مقربة من مستنقع
هناك ، وانزلنا حمولة دوابنا ومن ثم هبنا أنفسنا للقتال .

وإثر ذلك واقعنا الأتراك ، أولئك الفرس الكفرة ، الذين كان
أميرهم قلج أرسلان بن سليمان يملك نيقية وأراضى الأناضول تحت
سلطانه ، وكان الأتراك قد استجابوا لأوامر سليمان فقدموا لنجده
من مسيرة ثلاثين يوما ، وكان بصحبته العديد من الأمراء مثل
كرادجيم (قراجه؟) وأمير ياتشوش (أقوش - أتمز؟)
وسواهما ، وبلغ تعدادهم ثلاثمائة وستين ألف مقاتل ، كلهم من
حملة القوس والنشاب ، فقد كان من عادتهم التسليح هكذا ، وكانوا
جميعا يمتطون الخيول ، أما نحن فكان بيننا رجاله وكان أيضا
لدينا حملة قوس ونشاب .

وكان الدوق غودفري والكونت ريموند وهيوغ العظيم قد تغيبوا
عنا آنذاك لمدة يومين ، فقد انفصلوا عنا لسبب أجهله ، مع مجموعة
كبيرة من الرجال عند مفترق أحد الطرقات ، ولهذا تحملنا أثناء
القتال خسائر لا تعوض ، فهلك عدد كبير من رجالنا يوازي عدد
الأتراك الذين نجوا من الموت والأسر فيما بعد ، ولأن جماعتنا الذين
انفصلوا عنا تأخروا في استلام رسائلنا ، فقد تأخروا في القدوم
لنجدتنا .

وكان الأتراك في تلك الأثناء يزمجرون ويصرخون كالذئاب
المفترسة ، ويرموننا بكل ضراوة وبوابل كثيف من السهام فوجأ إثر
آخر ، ولهذا أصبنا بصدمة ، وبما أننا نأمله الموت ، وحيث أن
عددا كبيرا من رجالنا أصيبوا بالجراح ، فقد ركنا إلى

الفرار ، وليس هذا بمدهش ، ذلك أن أساليب القتال هذه لم تكن معروفة لدينا .

وفي الجانب الآخر من المستنقع شقت قوة كبيرة من الأعداء طريقها بكل ضراوة حتى اقتربت من معسكرنا ، ودخل الأتراك إلى خيامنا وتخاطفوا امتعتنا وقتلوا بعض رجالنا وحدث هذا عندما أخذت مقدمة جيش هيوچ العظيم والكونت ريموند والدوق غودفري تصل إلى أرض الكارثة إلى حيث المؤخرة ، ولهذا عندما تراجع رجالنا إلى الخيام خيل إلى العدو والذين كانوا ينهبون هناك أننا كررنا لمهاجمتهم لذلك لانوا بالفرار ، لكن أه لو علموا الحقيقة فما خيل إليهم أنه شجاعة وإقدام لم يتعد الخوف والرعب الشديدين :

ثم ماذا أقول بعد هذا ؟ كنا قد تجمعنا مع بعضنا كما تتجمع الأغنام ، ترتعد فرائصنا ويهدنا الرعب ، ويحيط بنا العدو من جميع الجوانب إلى حد أننا لم نقدر على التحرك بأي اتجاه ، ووضع لنا آنذاك أن منازل بنا كان نتيجة أثمنا ، إذ أفسد الترف بعضنا ، في حين أفسد الجشع مع رذائل أخرى البقية ، وصدرت أصوات شديدة وانبعثت إلى السماء لآمن رجالنا وأطفالنا ونسائنا فحسب بل من عند الكفار المهاجمين لنا ، وأنذاك فقدنا كل أمل لنا بالبقاء ، واعترفنا ساعتئذ بأنامنا أمام مجلس العدالة ، واستمطرنا بكل تواضع رحمة الرب ، وكان في أوساطنا أسقف لى بوي مرشدنا ، ومعه أربعة أساقفة آخرين وكثير من الكهنة ، تدثروا جميعا بالأردية البيضاء وتوسلوا بكل خشوع إلى الرب أن يهزم عدونا ، وأن يمدنا بعونه ، ورتلوا باكين ، وبكوا مرتلين ، وهول كثير من الناس نحو رجال الدين موقنين أن نهايتهم قد دنت وقصدهم الاعتراف بخطاياهم .

وقاوم قادتنا : الكونت روبرت النورماندي ، وستيفن كونت بلوا ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة وبوهيموند الأتراك بكل

ما أوتوه من قوة وحاولوا مرارا مهاجمتهم غير أنهم صدوا وردهم
الأتراك بكل قسوة .

هرب الأتراك وانتصار المسيحيين :

وفي الحقيقة لا يمنح الرب النصر لمجد النبلاء ، ولا للبراعة
المقاتلين ، لكنه يمنحه لمحبتة للذين صفت نفوسهم ، وينزله على
الذين تحصنوا بالقوة الربانية وقت حاجتهم إليه ، ولذلك يبدو أنه
استجاب لدعواتنا ، فبدأ يعيد إلينا قوتنا رويدا رويدا ، ويضعف قوة
الأتراك ، فما أن رأينا رفاقنا في المؤخرة قادمين لنجدتنا حتى مجدنا
الرب ، واستعدنا شجاعتنا وأعدنا تنظيم صفوفنا وفيالقنا
واستبسلنا في التصدي للعدو ومقاومته .

واحسرتاه كم قتل الأتراك في ذلك اليوم من رجالنا الذين تأخروا
وراءنا على الطرقات ، وحلت الكوارث بين صفوفنا من الساعة
الأولى للنهار حتى الساعة السادسة ، غير أننا استرددنا شجاعتنا
شيئا فشيئا إثر وصول رفاقنا ودعمهم لنا ، وما أن حلت النعمة
الربانية علينا وظهرت المعجزة العلوية بين صفوفنا حتى لوى الأتراك
اعنتهم فجأة وولوا الأدبار .

وطاردناهم ونحن نصرخ بكل شراسة فوق الجبال وعبر
الوديان ، ولم نتوقف حتى بعدما وصل بعض رجالنا إلى خيامهم ،
بعض رجالنا كثيرا من جمال وخيول الأتراك بحمولاتهم واستحوذوا
حتى على خيامهم التي هجروها لرعبهم ، ولاحق آخرون فلول العدو
حتى حلول الظلام ، وبما أن خيولنا جاعت وتعبت فقد أتيح لنا
الاحتفاظ ببعض خيولهم .

ومن آيات الرب الكبرى ومعجزاته أنه خلال اليومين التاليين أو

الثلاثة لم يتوقف الترك عن الفرار ، مع ان احدا - باستثناء الرب - لم يطاردهم آنذاك ، ثم استأنفنا سفرنا بكل حيلة ، وقد أصابنا عطش شديد بعض الأيام عصف بنا إلى حد أن عددا من الرجال والنساء هلكوا عطشا ، وتابع الأتراك فرارهم بلا انتظام ، وبحثوا لأنفسهم عن ملاجئ يختبئون فيها في الأناضول .

ضيق حال المسيحيين :

بعدما وصلنا إلى أنطاكية الصغرى في مقاطعة بيسيديا ، توجهنا إلى قونية ، وكنا في تلك الأماكن دوما بحاجة إلى الخبز والطعام ، فقد وجدنا بلاد الأناضول مع أن أراضيها ممتازة تدر الخيرات وتعطي المنتجات من كل نوع ، وجدناها مقفرة لأن الأتراك دمروها وعاثوا فيها وهجرها أهلها .

ومع هذا كثيرا ما كنت ترى الناس في بحبوحة من العيش لوفرة المحاصيل التي جنيناها من المزارع المنتشرة في أنحاء البلاد ، وقد تم ذلك بمعونة الرب الذي أشبع بخمسة أرغفة وسمكتين خمسة آلاف نسمة (متى : ١٧ / ٢١ . مرقس : ٦ / ٢٨ - ٤٤ . لوقا : ٩ / ١٦ . يوحنا : ٦ / ٩ - ١٠) وبذلك قنعنا جميعا ، وأقررنا بكل غبطة أن جميع هذه المنح كانت بركة وهبة من الرب .

ولربما كنت ستضحك أو حتى تبكي رثاء لو أنك شهدت عددا كبيرا من هؤلاء الناس ، ممن لم تتأمن لهم دواب التحميل التي هلك كثير منها ، وقد حملوا حاجياتهم من ثياب وأطعمة وغير ذلك مما يحتاجه الحجاج على كبش أو جدي أو خنزير أو كلب ، وقد قصمت هذه الأثقال ظهور هذه البهائم الهزيلة وحطمتها ، وفي بعض الأحيان اضطر الفرسان المسلحون إلى ركوب ظهور الثيران .

ترى من الذي سمع خليطا من اللغات في جيش واحد كهذا

الجيش ؟ لأنه اجتمع فيه الفرنجة والفلمنكيون ، والفريسيون ،
والغاليون ، واللوبيريون واللوثارنجيون والبافاريون والألمان
والانكليز والسكوتلنديون والأوتسمانيون والطلليان والداشميون
والابوليون والاسبان ، والبريتانيون والاغريق والأرمن ، ولو أراد
بريتاني أو الماني أن يخاطبني لما أمكنني إجابته أو فهم سؤاله ،
ومع هذا إنه على الرغم من اختلاف السنننا ، كنا أخوة في محبة
الرب ، وكنا على وفاق ووثام في الرأي ، وكان إذا ما فقد واحد منا
بعض حاجياته حفظها له من وجدها لعدة أيام وهو يسأل عن فاقدها
حتى يجده فيعيد إليه حاجته ، وفي الحقيقة كان هذا لانقنا بالذين
اشتركوا في هذه الرحلة المقدسة .

أعمال الكونت بلدوين أخو غودفري وبطولاته والاستيلاء
على مدينة إديسا المعروفة باسم الرها :

لدى وصولنا إلى مدينة هرقلية رأينا مذنبا في السماء ظهر بلون
ناصع البياض على شكل سيف يشير نحو المشرق ، ولم نعرف ماذا
ينبئ هذا من حوادث المستقبل فلقد أودعنا الحاضر والمستقبل بيد
الرب .

وبعد هذا وصلنا إلى مدينة مزدهرة اسمها مرعش ، استجمعينا
فيها بهدوء لمدة ثلاثة أيام ، وبعدما ابتعدنا عن مرعش مسيرة يوم ،
وأصبحنا على مسيرة ثلاثة أيام من انطاكية سورية ، انسحبت أنا
فولتشر من الجيش وتوجهت يسارا مع الكونت بلدوين أخو الدوق
غوفري ، وكان بلدوين فارسا عظيم المقدرة ، وكان قد ترك الجيش
مع أتباعه وتوجه إلى طرطوس كليشيا واحتلها بإقدام وشجاعة
فائقة ، وانتزعها من تانكرد الذي كان قد أدخل رجاله إليها بموافقة
الأتراك ، وبعدما ترك بلدوين حراسه هناك عاد إلى الجيش
الرئيس .

وهكذا جمع بلدوين - بعدما وضع ثقتيه بالرب وبقسوته الشخصية - عددا صغيرا من الفرسان وانطلق في رحلته باتجاه الفرات ، واستولى هناك على عدة مدن عنوة او بالحيلة كان اهمها مدينة تل باشر ، فقد سلمها له بسلام الارمن الذين كانوا يقطنون فيها ، ثم دانت له مدن اخرى بالطاعة .

وإثر انتشار هذه الاخبار في أرجاء البلاد ارسل امير مدينة الرها وفدا إلى بلدوين ، والرها مدينة ذائعة الشهرة تقع في منطقة من اخصب المناطق ، وهي في الناحية السورية من بلاد الجزيرة ، وتبعد نحو عشرين ميلا عن نهر الفرات ، وقرابة المائة قبل مدينة انطاكية .

وطلب الأمير من بلدوين القدوم إليه كي يصبح صديقين مثل اب وابنه ماداما أحياء ، وإذا ماحدث ومات أمير الرها يحق لبلدوين تملك المقاطعة برمتها مباشرة ميراثا مستمرا له وكأنه الابن الشرعي للأمير ، ولما لم يكن لهذا الأمير ولد ولا بنت ، ولم يكن باستطاعته حماية ولايته من الأتراك ، فإنه أثر - كماغريقي - أن يدافع بلدوين عنه وعن ولايته ، ذلك أنه سمع أن بلدوين وفرسانه كانوا من أشد المحاربين وأعظمهم بسالة . وما أن سمع بلدوين بهذا العرض وتأكد من صحته من الرسل القادمين إليه من الرها الذين أقسموا أمامه على صحة ما نقلوه إليه ، حتى انطلق على رأس جيشه الصغير المكون من ثمانين فارسا ، وعبر نهر الفرات ، وبعد هذا العبور أسرعنا في سفرنا ولم نتوقف طوال الليل وكان الخوف يملا صدورنا ، لمورنا بين مختلف البلدان الشرقية المنتشرة هنا وهناك ، وعندما سمع الأتراك القاطنون في مدينة سميساط الحصينة بقدومنا ، نصبوا لنا الكمائن على الطرقات التي خيل إليهم أننا سنركبها ، غير أن أرمنيا هناك حمانا في قلعتهم في الليلة التالية وذبها لكي نحذر من كمائن الأعداء ، ولهذا السبب اختبأنا هناك ليلتين ، وفي اليوم الثالث هجم الأتراك الذين ضايقهم تأخرنا ، فتخلوا عن كما نُنهم ورفعوا راياتهم ووقفوا أمام القلعة التي اعتصمنا فيها ، واستولوا على المواشي التي كانت ترعى في الحقول

- ٢٧٤٣ -

وخرجنا لقتالهم ، لكن لقلّة اعدائنا لم نستطع منازلتهم ، ولقد رمونا بالسهم ، غير أنهم لم يصيبوا احدا منا بجراح ، وخلفوا على أرض المعركة واحدا من رجالهم وقد صرعه رمح ، وقد أمسك الرجل الذي قتله بحصانه ، ثم انصرف الأتراك وبقينا نحن في مكاننا .

واستأنفنا في اليوم التالي رحلتنا ، ولو كنت معنا لأدهشك رؤية الأرمن كيف كانوا يخرجون بخضوع للترحيب بنا عند مرورنا أمام مدنها وقد حملوا الصليب والأعلام ، وقاموا بتقبيل أقدامنا وثيابنا محبة بالرب ، لأنهم سمعوا أننا سنحميهم من الأتراك الذين رزحوا تحت نير ظلمهم من قبل .

ووصلنا أخيرا إلى الرها حيث استقبلنا الأمير المذكور ومعه زوجته وجميع أهالي المدينة بكل ترحاب وحفاوة ونفذوا وعودهم كلها لبلدوين على الفور .

وبعد إقامتنا هناك مدة خمسة عشر يوما ، تأمر أهل المدينة بخبث لقتل أميرهم ، وذلك لأنهم كانوا يبغضونه ، واستهدفوا رفع بلدوين إلى القصر ليحكم بدلا منه البلاد ، وقدم هذا الاقتراح لبلدوين وتم تنفيذه ، وفي الحقيقة أصاب الحزن بلدوين وكذلك رجاله لأنهم لم يقدروا أن يحصلوا له على الرحمة . وما أن قبل بلدوين من أهالي المدينة مركز الإمارة الذي شغل الآن بمقتل الأمير بهذه الطريقة الفظيعة حتى شن حربا على الأتراك الذين كانوا في بلاده ، وقد هزمهم مرات عديدة أو قتلهم ، وفي الوقت نفسه لاقى العديد من رجالنا حتفهم أيضا على أيدي الأتراك .

ولقد كنت أنا فولتشر أوف تشارترز كاهن بلدوين هذا ، وأرغب الآن في العودة إلى سرد بقية الحكاية التي نأيت عنها ، وأعني حكاية جيش الرب .

وصول الفرنجة إلى أنطاكية ومآسي الحصار :

وصل الفرنجة إلى أنطاكية سورية في شهر تشرين الأول ، وهي مدينة كان قد بناها سلوقوس بن أنطيوخوس واتخذها عاصمة له ، وكان اسمها فيماسلف ربلاطا ، وهي تقع على الضفة الأخرى من النهر المسمى العاصي ، وصدرت الأوامر بالعدسكرة أمام المدينة بينها وبين أول حجارة المعالم ، وهناك دارت معارك كثيرة فيما بعد ، ألحقت خسائر فادحة بالطرفين ، فعندما تدفق الأتراك من المدينة قتلوا عددا كبيرا من رجالنا ، إنما بعدما دارت عليهم الدوائر ودحرناهم أصيبوا بالفواجع .

وانطاكية مدينة كبيرة جدا ، وهي شديدة الحصانة منيعة الموقع ، لايمكن لعدو الاستيلاء عليها من الخارج إذا ماتوفرت فيها الأغذية والامدادات ، وإذا عقد سكانها العزم على الدفاع عنها ، وفيها كنيسة زائنة الشهرة كرسست تمجيدا لذكرى بطرس الرسول الذي صار اسقفا فيها بعدما تسلم من السيد المسيح صدارة الكنيسة ومفاتيح مملكة السموات ، وهناك كنيسة أخرى مستديرة الشكل ، مكرسة على مجد مريم المباركة ، وهي معمرة بطريقة تتناسب مع مقامها ، وكانت هذه الكنائس جميعها تحت سلطان الأتراك منذ أمد طويل ، لكن الرب ، العالم بكل شيء صانها لنا خالصة لم تشبها شائبة حتى نتشرف بعبادته داخلها في يوم من الأيام .

ويبعد العاصي عن أنطاكية قرابة ثلاثة عشر ميلا ، وبما أن نهر العاصي يصب في تلك البقعة ، فإن المراكب المحملة بالسلع الجلوبة من مختلف الأصقاع يؤتى بها إلى أنطاكية نفوسها بوساطة قناة مخصصة ، وهكذا تتزود المدينة بالسلع من البر ومن البحر فتمتلىء بالخيرات من كل صنف .

وتعاهد أمراؤنا واقسموا بعضهم لبعض بعدما راوا مناعة المدينة وصعوبة اقتحامها ، عدم الزحزحة حتى يتاح لهم الاستيلاء عليها بالقوة أو بالخدعة .

ولقد وجدوا في النهر المذكور عدة قوارب فاستولوا عليها ، واتخذوا منها جسرا عائما عبروا فوقه لتنفيذ خططهم ، ولم يكونوا قبل ذلك قادرين على اجتياز النهر .

ولما رأى الأتراك هذه الدشود الهائلة من المسيحيين تحيط بهم اصابهم الهلع ، وايقنوا انهم لن يفلتوا منهم ، وبعد ان تشاوروا فيما بينهم ارسل يغني سغان صاحب انطاكية ابنة شمس الدولة الى السلطان - اي امبراطور الفرس - ينشد منه تقديم العون والاسعاف بأسرع مايمكن ، ذلك انه لم يكن لديه أمل الا بعون محمد (صلى الله عليه وسلم) حاميه ، وبإدراك شمس الدولة لأداء المهمة الموكلة اليه .

ودافع الذين مكثوا في المدينة عنها ، وفيما هم ينتظرون وصول النجادات التي طلبوها اخذوا يحيكون المؤامرات الخطيرة ضد الفرنجة ، ومع هذا احبط هؤلاء حيلهم بقدر ماأوتوا من قوة ، وفي احد الايام قتل الفرنجة سبعمائة من الأتراك ، وهكذا فان الذين نصبوا شراكا للفرنجة وقعوا فيه ، وهنا كانت قوة الرب واضحة جلية ، ورجع جميع رجالنا سالمين باستثناء رجل واحد أصيب بجراح .

ولقد قتل الأتراك في فورة غضبهم اعدادا كبيرة من المسيحيين من اغريق وسريان وارمن ، والقوا بما لا يحصى عده من الرؤوس من فوق الاسوار ، وقد رموها بالمجانيق على مرأى من الفرنجة ، الأمر الذي سبب لنفوس رجالنا كثيرا من الأسى ، فقد كان هؤلاء الأتراك يمقتون هؤلاء المسيحيين لأنهم خافوا من أن يساعدوا الفرنجة بطريقة ماعلى صد هجوم تركي .

وبعدما حاصر الفرنجة المدينة لفترة طويلة من الزمن ، وبعدما
عدموا الخبز مع أنهم تجولوا في الأراض المجاورة بحثا عن الطعام
فلم يجدوا ما يذهبوه أو يشتروه ، بعد هذا كله شرع الكثيرون منهم
يخططون سرا للتخلي عن الحصار والفرار اما عن طريق البر أو
البحر .

نعم لم يكن لديهم ما يعتاشون به ، وقد اضطروا الى البحث عما
يقتاتونه في أماكن قسوة ، وفعلوا ذلك والخوف يلزمهم ، لأنهم
ابتعدوا أربعين أو خمسين ميلا عن موقع الحصار ، وهناك في
المناطق الجبلية قتل الأتراك كثيرا منهم في كمائن نصبوها لهم .

وشعرنا ان ما نزل من مصائب بالمسيحيين الفرنجة كان بسبب
اثامهم ، وأنهم لهذا السبب أخفقوا في الاستيلاء على المدينة بعد
انقضاء كل هذه المدة ، ذلك أن الجشع والترف والعجرفة والسطو قد
أفسدت نفوسهم ، وتداول الفرنجة فيما بينهم حول ذلك ، وبعد
مشاورات قرروا طرد النساء من المعسكر سواء أكن متزوجات أم
لا ، اعتقادا منهم ان دنسهم في عبث الحياة الصاخبة قد أثار غضب
الرب ، وفقدش هؤلاء الذسوة عن ملجأ لأنفسهن في القرى
المجاورة .

وأصاب الشقاء والبؤس الغني مثلما لحق بالفقير ، بسبب
الجوع والمذابح اليومية ولو لم يحفظ الرب - وهو الراعي
الصالح - قطيعه متجمعا لهرب الجميع من هناك بلا استثناء ،
وبدون جدال ، وذلك على الرغم من العهود التي قطعوها على
أنفسهم من أجل الاستيلاء على المدينة ، وكان هذا محصلة للشح
الشديد بالأغذية ، ولهذا انطلق العديد نحو القرى المجاورة بحثا عن
الطعام ، ولم يعودوا بعد ذلك إلى المعسكر وتخلوا عن الحصار
نهائيا .

ورأينا في تلك الآونة في السماء شعاعا أحمر ، كما شعرنا برجفة

- ٢٧٤٧ -

كبيرة في الأرض ، ممسك بالهلع في قلوبنا ، وقد رأى الكثيرون علامات معينة على شكل صليب ، بيضاء اللون ، تسير في طريق مستقيم نحو الشرق .

فاقة المسيحيين واملاقهم وفرار كونت بلوا

بعدما خلت الاراضي حول انطاكية في عام ١٠٩٨ من الجموع الفقيرة من شعبنا ، ازداد البؤس والشعور بالاسى في نفوس الصغار والكبار وذلك بسبب الجوع الشديد ، واكل الناس مختلف انواع النباتات التي بقيت قائمة في الحقول مع جميع انواع الاعشاب غير المستحبة وحتى الاشواك التي لم يستطيعوا اجادة طهيها لانعدام الاحطاب لاشغال النيران ، لذا ادمت السنة اكلها ، واضطر الناس ايضا إلى اكل الخيول والحمير والجمال والكلاب وحتى القوارض ، لا بل أكثر من هذا اكل الفقراء منا جلود الحيوانات وبذور الحبوب التي وجدوها في روث المواشي .

وفضلا عن الجوع تحمل الناس البرد والحر وابل الأمطار في سبيل محبة الرب ، وقد تمزقت خيامهم وبلبت وتعفنت بسبب استمرار هطول الأمطار ، ولهذا لم يجد العديد من الناس لانفسهم غطاء إلا السماء .

وكما يمتحن الذهب ثلاث مرات في النار ، ويمحص سبع مرات (مزامير ١٢/٧) ، ايضا اعتقد أن الرب امتحن الخالص ، فطهرهم بعد عذاب شديد من ذنوبهم ، ومع أن خنجر الحشيشية لم يخفق في عمله المميت ، تحمل كثير من الناس عذاب الاحتضار الطويل ، وتقبلوا بسرور أسمى درجات الشهادة ، ولعلمهم استلهموا السلوان من مثل أيوب المبارك الذي طهر روحه ونقاها بعذاب جسده وهو دوما يذكر الرب (أيوب : ١/٢) فهم عندما كانوا يحاربون الكفار كانوا يجاهدون في سبيل الرب واسمه .

الرب الذي خلق كل شيء هو الذي يأمر من خلق ويرعى ويدعم كل ما يأمر به ، يحكم الرب بأمره فيصلح ما يشاء ويدمر ما يشاء ، ويخيل لي أن الكفار سيجري تدميرهم حتى يدفعوا ثمن العذاب الذي أراده الرب للمسيحيين ، فهم الذين طالما داسوا بأقدامهم الملوثة كل ما يخص الرب مع أن ذلك حصل بمشيئته وفق ما يستحقه الناس ، الحق أنه سمح بذبح المسيحيين حتى يعظم خلاصهم ، وسمح أيضا بذبح الأتراك لاحقاق اللعنة على أرواحهم ، أما الأتراك الذين كتب لهم الخلاص فإنه أرضى الرب تعميدهم من قبل كهنتنا ، « لأن الذين كتب لهم ناداهم وعظمتهم » (رومية : ٨ / ٣٠) .

ثم ماذا بعد ؟ لقد تخطى بعض رجالنا - كما سمعتم - عن حصار عظيم الشدة ، بعضهم فعل ذلك بسبب الفاقة وبعضهم نتيجة الجبن ، وآخرون انسحبوا خشية الموت ، وكان الفقراء قد انسحبوا أولا ثم تبعهم الأثرياء .

ثم كان أن تخطى ستيفن كونت بلوا عن متابعة الحصار ، وأبحر عائدا في دياره فرنسا ، ولقد ألم بنا الأسى جميعا لذلك ، لأنه كان رجلا أصيلا ونبيلا شجاعا شديد البأس ، وفي اليوم التالي لسفره سقطت مدينة أنطاكية للفرنجة ، ولو أنه صبر وبقي لسر سرورا عظيما مع الآخرين ، ذلك أن فعلته جلبت إليه العار والازدراء ، ومقرر أن البداية الحسنة لا تجدي المرء إذا لم تكن الخاتمة حسنة ، أما ما يتعلق بشؤون الرب فساللتزم بالاختصار لنلا انحرف عن الطريق القويم ، ففي هذا المجال علي الالتزام بالحدز حتى لا أضل فأبتعد عن الحقيقة .

لقد بدأ حصار أنطاكية كما نوهنا من قبل في شهر تشرين الأول ، واستمر طوال الشتاء والربيع حتى شهر تموز ، وتبادل الأتراك والفرنجة خلال ذلك الهجمات والهجمات المضادة فسانتصروا وهزموا ، أما نحن فقد انتصرنا أكثر منهم ، وحدث في إحدى

المناسبات أن وقع العديد من الأتراك - أثناء فرارهم - في نهر العاصي وغرقوا بشقاء ، وعلى شاطئ هذا النهر توأقع الشعبان مرات ومرات .

وكان رجالنا قد شيدوا أمام المدينة عدة قلاع ، استخدموها للقيام بهجمات متعددة استطاع رجالنا أثناءها أن يصدوا بكل بسالة الأتراك ، وبذلك تمكنوا في كثير من الأحيان أن يدفعوا مواشيهم عن الوصول إلى المراعي ، ولم نحضر شبيئاً من الأرض في المناطق المجاورة ومع هذا كثيراً ما عملوا للاحاق الضرر بنا في مناسبات مختلفة .

سقوط مدينة أنطاكية

ومهما يك من أمر ، عندما رضي الرب علينا ، باستجابته - بدون ريب - لدعوات شعبه في أن يضع حدا لشقاقهم ، فبعدما ابتهلوا إليه بلا توقف وصلوا يومياً استجاب فوهبهم بمحبته استلام المدينة سرا من خلال (أرمني) من رجال الأتراك ، وهكذا رجعت المدينة إلى حكم المسيحيين ، واليك إذا تفاصيل أخبار الخيانة فأصغى إليها وإن لم تكن حقاً خيانة .

لقد تجلى الرب (لأرمني) من رجال الأتراك ، كانت قد كتبت له بركة الرب ، وقال له : « قم أيها النائم ، فأنا أمرك بإعادة المدينة إلى المسيحيين » ودهش الرجل غير أنه احتفظ بالرؤيا سرا ، ثم تجلى له الرب ثانية وقال له : « أعد هذه المدينة إلى المسيحيين ، فأنا يسوع المسيح الذي أمرك بذلك » وارتبك الرجل واحتار فيما يفعل وذهب إلى مولاه صاحب أنطاكية وأعلمه بأمر الرؤيا فرد هذا عليه قائلاً : « أوتريد أيها الغبي أن تطيع شبعا من الأشباح ؟ » فرجع الرجل والتزم بالصمت .

ومجددا تجلى له الرب وقال له : « لم لم تنفذ ما أمرتك به ؟ لا تقرب
لأنني أنا الذي أمرك بهذا ، أنا رب الجميع ، ولما اختفى الشك من
نفسه بدأ هذا الرجل يخطط سرا مع رجالنا ويرسم مؤامرة تمسكهم
من الاستيلاء على المدينة .

وبعدما تم الاتفاق سلم الرجل ابنه إلى الأمير بوهيموند ليكون
رهينة لديه ، لأن بوهيموند كان أول من سمع بهذه الخطة وأول من
اقتنع بها ، وفي الليلة المتفق عليها مكن الرجل عشرين من رجالنا من
تسليق السور بواسطة حبال دلاها لهم ، وبأمر هؤلاء على الفور ،
وبدون أي تقاعس إلى فتح الباب وفي تلك الأثناء تبعهم أربعون رجلا
آخرون من جنودنا بواسطة تسليق الأسوار أيضا بالحبال ، وقتلوا
ستين من الأتراك الذين صدقوهم يحرسون الأبراج ، وإثر ذلك صاح
الفرنجة جميعا صيحة رجل واحد : « إنها إرادة الرب » ، وكانت
تلك الصيحة الشعار الذي كنا نطلقه حين نوشك على إنجاز أي عمل
مجيد .

وإثر سماع الأتراك لهذه الصيحة دب رعب هائل في نفوسهم ،
وبادر الفرنجة إلى الهجوم على المدينة بدون تقاعس حيث أن ظلمة
الليل أخذت مع الفجر بالتلاشي ، وعندما رأى الأتراك راية بوهيموند
ترفرف في الأعالي ، والفوضى تنتشر في كل مكان وتعم ، وسمعوا
أبواق بوهيموند تصدح من أعالي الأسوار ، وراوا الفرنجة
يقتحمون الشوارع بسيفوف مشرعة ويقتلون الناس بوحشية ، عندما
شهدوا هذا كله أصابهم الرعب ، فأمعنوا بالفرار لا يلوون على
شيء ، وتمكن بعض الهاربين من الأتراك من الوصول إلى القلعة
القائمة على سفح الجبل .

وشرع العامة من رجالنا بالاستيلاء على كل ما وقعت عليه أيديهم
في الطرقات والبيوت ، أما الفرسان الذين تخصصوا بفنون القتال ،
فقد تابعوا مطاردة الأتراك وذبحهم ، أما يغني سغان أمير أنطاكية

فقد هرب منها ، وصدفه بعض الفلاحين الأرمن ، فقطعوا رأسه واحضروه بالحال إلى الفرنجة .

العثور على الحربة المقدسة

عثر رجل بعد سقوط أنطاكية على حربة في حفرة من الأرض في كنيسة القديس بطرس ، وادعى هذا الرجل بعد اكتشافه للحربة أنها الحربة ذاتها التي أطلقها لونجيزس - كما ورد في الانجيل - فطعنت الجنب الأيمن من يسوع المسيح - « ولكن واحدا من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء » - (يوحنا : ١٩ / ٣٤) ، وادعى الرجل أن الرسول أندروز هو الذي أوحى له بذلك ، وبعد اكتشاف الحربة ، روى الرجل القصة لأسقف لى بوي ، وللكونت ريموند ، ولم يصدق الأسقف هذه الحكاية ، لكن الكونت أمل أن تكون صحيحة .

وإثر سماع الناس بهذا الخبر ابتهجوا كثيرا ومجدوا الرب وحمدوه ، وظلت الحربة لمدة مائة يوم موضع أجلال وتقديس ، وحملها الكونت ريموند بكل فخار وتولى حمايتها ، ثم ساورت الشكوك عدد كبير من الكهنة والعلمانيين ، وارتابوا في أن تكون هذه حقا حربة الرب المقدسة ، وأنها مجرد حربة أخرى عثر عليها ذلك الرجل البجال المخادع .

وفي الشهر الثامن بعد الاستيلاء على مدينة أنطاكية ، وبعد ثلاثة أيام من الصيام والصلوات التي أسهم فيها الجميع أشعلوا كومة كبيرة من الحطب في وسط حقل أمام مدينة عرقة ، وقام الأساقفة بتقديم الصلوات الخاصة بأعمال المحنة فوق النار ، ومر الرجل الذي عثر على الحربة - بناء على طلبه - مسرعا يركض خلال الجمر الملتهب وذلك بغية إثبات أمانته ، وبعدما مر الرجل من خلال النار ، ايقنوا أنه كان مذنباً لأن جلده احترق ، وعلموا أنه أصيب إصابة

قاتلة ، وبالفعل ظهرت نتيجة ذلك فيما بعد ، فقد توفي الرجل بعد اثني عشر يوما مكتويا بعذاب الضمير .

ولما كان كل انسان قد قدس هذه الحربة محبة واجلالا للرب ، فقد اصيب كل هؤلاء الذين امنوا بها بحزن عميق وتخلوا عن ايمانهم بها ، ومع ذلك فإن الكونت ريموند قد احتفظ بها بعد ذلك لفترة طويلة .

محاصرة الأتراك للمسيحيين داخل انطاكية :

وصل في اليوم التالي لاحتلالنا انطاكية حسبما وصفنا ، حشد كبير جدا لا يعد ولا يحصى من الأتراك ، وضربوا حصارا حول المدينة ، ذلك أنه ما إن علم السلطان ملك بلاد الفرس ، بحصار الفرنجة لانطاكية حتى حشد على الفور جيشا عرمرما من الرجال ، وارسله ضد الفرنجة ، وكان اسم قائد هذا الجيش كربوغا ، وأعيقت مسيرة هذا الجيش مقدار ثلاثة أسابيع أمام مدينة الرها التي كان يملكها آنذاك بلدوين ، وبعدما أخفق في الاستيلاء عليها ، سارع بزحفه نحو انطاكية لانجاد الأمير يغني سغان .

وعندما رأى الفرنجة هذه المستجدات وهنت عزائهم ، وزاد على هذا أن عقوبتهم أيضا قد تضاعفت بسبب خطاياهم الأخرى وأثامهم ، ذلك أن العديد منهم ما إن دخلوا المدينة حتى عاشروا النساء منتهكين بذلك ناموس الشريعة .

وتمكن نحو من ستين ألفا من الأتراك من دخول المدينة عن طريق القلعة من جانب الجرف الشاهق ، وضايقوا رجالنا بحملات عنيفة متكررة عليهم ، بيد أنهم لم يكتثوا هناك طويلا فقد دب البرعب بين صفوفهم فغادروا المدينة ليحاصروها من الخارج ، وهكذا بقي

الفرنجة محاصرين خلف الأسوار في وضع قلق وحرج شديد من الصعب تصويره .

الرؤى التي ظهرت داخل المدينة

ولم ينس الرب في تلك الأثناء عباده ، فتجلى لكثير من الناس ، وقد تواتر ذكر هذه الحقيقة وأنه طمأنهم ووعدهم بالسور بنصر كبير ، ثم تجلى الرب لرجل دين كان قد فر لخوفه من الموت ، وقال له : إلى أين ماض يا اخانا ؟ فأجابه : إنني هارب ، خشية أن ينالني سوء الطالع فأهلك .

شعر :

وهكذا هرب الكثيرون حتى لا يذوقوا طعم الموت الزؤام .
فأجاب الرب رجل الدين بقوله : « لا تهرب بل ارجع ، وقل للآخرين إنني سأكون معهم في المعركة فقد طمأنت نفسي صلوات أمي ، ولسوف أكون رحيما مع الفرنجة ، وهم قد أوشكوا على الهلاك بسبب أثامهم ، ليكن يقينهم وأملهم ثابتا ، فإسوف أكتب لهم النصر على الأتراك ، دعهم يتوبون أولا ، ولسوف ينجون لأنني أنا الذي أكلمك ، أنا الرب ، وعاد رجل الدين على أدراجه في الحال ، ونكر للفرنجة ما سمعه .

وسعى في هذه الأثناء عدد كبير من الفرنجة إلى الهبوط ليلا من الأسوار بواسطة الحبال ليهربوا ، فقد كانوا خائفين من الموت جوعا أو بحد السيف ، وقد ظهر أمام واحد من النازلين أخوه وكان قد مات منذ أمد وقال له : إلى أين أنت هارب يا أخي ؟ أمكث ولا تخف ، فالرب سيكون معكم في حربكم ، وإن رفاقكم في هذه الرحلة ،

الذين تقدموكم إلى الموت ، سيقاتلون معكم ضد الأتراك ، واستبدت الدهشة بالرجل لدى سماعه كلام من مات ، وتوقف عن الفرار وأخبر البقية بما حدث .

وساء وضع الفرنجة ولم يعودوا يطيقون تحمل العذاب أكثر مما فعلوا ، حيث لم يبق لديهم ما يأكلونه مما أوهنهم وأنهك خيولهم ، وعندما طاب للرب انتهاء شقاء عباده ، أوحى لهم فاتفقوا على الصيام ثلاثة أيام مع تقديم الصدقات والصلوات عليهم بهذه الكفارات والادعية ينالون عطف الرب .

الفرنجة يقومون بالهجوم على الأتراك

وبعد بعض المداولات ، أخبر الفرنجة الأتراك عن طريق بطرس الناسك أنهم إن لم يغادروا البلدان التي كان يمتلكها المسيحيون في الماضي بسلام ، فإنهم - أي الفرنجة - سيشتنون عليهم هجوما في اليوم التالي ، وإذا ما رأى الأتراك اللجوء إلى المبارزة بأن تقوم بين خمسة أو عشرة أو عشرين أو حتى مائة فارس يختارون من بين الطرفين ، حتى لا تراق دماء كثيرة إذا ما نشب القتال بين جميع المحاربين ، وفي تلك الحال سيتسلم الطرف المنتصر رجاله على الطرف الآخر ، المدينة بسلام ويحكمها بدون نزاع بعد ذلك .

كان هذا ما طلبه الفرنجة ، لكن الأتراك رفضوا الاستجابة لهم ، لأنه كانت عندهم ثقة كبيرة بأعدادهم الهائلة وقوتهم ، واعتقدوا أنهم سيتغلبون علينا وسيكون بإمكانهم أبادتنا ، فقد كان عددهم يقدر بثلاثمائة ألف من فرسان ومشاة ، وكانوا يعلمون أن فرساننا قد أصابهم الوهن فغدوا ضعفاء مثلهم مثل المشاة .

ثم عاد رسولنا بطرس ، وأعطى جوابهم ، وعندما سمع الفرنجة

هذا استعدوا وقررروا تحضير أنفسهم لخوض المعركة بدون تردد واضعين كل آمالهم في الرب ، وكان عدد قادة الترك كبير ، كل واحد منهم يدعى أمير ، وكان منهم : كربوغا ، والملك رضوان والأمير سليمان مع عدد كبير آخر يفوق الحصر .

الاعداد للمعركة :

وكان امراء الفرنجة هم : هيوغ العظيم ، وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت الاراضي المنخفضة ، والدوق غودفري ، والكونت ريموند ، والأمير بوهيموند ، ونبلأء آخرون أقل منهم شأنًا ، ورحمة الرب لروح أدهم أسقف لى بوي ، الذي كان هو نفسه حواريا ، دائم العطف على الناس ، يخفف من الامهم ، ويمتن قوة إيمانهم بالرب .

أه ما أروع التقوى التي تقود الى اليقظة ، ففي الليلة السالفة أصدر أدهم نفسه أمرا سمع بصوت المنادي : على كل فارس اطعام فرسه بنصيب اكبر من العلف ، مهما كان عزيزا ، كي لا يسقط الفرس في اليوم المقبل أثناء القتال منهكا من الجوع ، نعم صدر هذا الامر وتم تنفيذه ومع بوارق فجر اليوم الرابع قبل نهاية شهر تموز خرجوا جميعا من المدينة جاهزين للمعركة ، وتمت تعبئة الرجال والفرسان في كتائب وسرايا تتقدمها الرايات ، وكان معهم الكهنة يرتدون اكسية بيضاء يبكون امام جميع الناس من أجلهم ويرتلون الأناشيد للرب ، ويصدرون الادعية من أعماق نفوسهم المؤمنة .

وراهم عند ذلك رجل تركي يدعى مجير الدين ، وكان فارسا مقداما ، فتولته دهشة عظيمة لراهم يتقدمون وراياتهم خفاقة

مرفوعة ، وأيقن حين رأى رايات قادتنا التي كان يعرفها وهي تتقدم واحدة تلو الأخرى بنظام أن المعركة وشيكة الحدوث ، وكان يعرف انطاكية وقد نال خبرة بالفرنجة ، لذلك أسرع نحو كربوغا يخبره بما رأى ، وقال له : مابالك تلعب الشطرنج ، انظر إن الفرنجة قادمون ، فسأله كربوغا : أهم قادمون للقتال ؟ فأجابه مجير الدين : لست متيقنا من ذلك حتى الآن ، ولكن أمهلني قليلا ، وعندما رأى مجير الدين رايات قادتنا مرفوعة في الجانب الآخر تتقدم بشكل حربي وتزحف خلفها الارتال بصفوف متراصة بنظام عسكري ، سارع بالعودة وقال لكربوغا : اعتقد أن المعركة واقعة ، ولكن تريث قليلا ، فأنا لا أميز بين الرايات التي أراها ، وبعد التدقيق والتمحيص شاهد راية أسقف لى بوي تتقدم في الفيلق الثالث .

شعر :

وبلا ابطاء قال لكربوغا :
خذ حذرك لقد حضر الفرنجة ، فاهرب الآن أو حارب بشجاعة
لأنني أرى علم البابا يتقدم .

انتفض الآن حتى لا يهزمك هؤلاء الذين اعتقدت أنك تبيدهم
وتزيلهم عن وجه الأرض .

فقال كربوغا : سأبعث رسولا للفرنجة يخبرهم أنني سأمنحهم
اليوم كل ما يطلبوه مني بالأمس ، فقال مجير الدين : لقد فات الأوان
على هذا الكلام ، ومع هذا بعث كربوغا بطلبه ، غير أنه لم يحظ بما
ابتغى ، أما مجير الدين فسرعان ما انسحب من حضرة سيده ولكز
فرسه ، وفكر بالانسحاب ، غير أنه حرص رفاقه على أن يحاربوا
ببسمالة وأن يطلقوا سهامهم .

المعركة - انتصار المسيحيين وفرار الأتراك :

كان هيوچ العظيم وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت الاراضى المنخفضة يقودون الصف الاول في الهجوم ، وتبعهم غودفري في الصف الثاني ومعه الالمان واللوثارنجيون ، واتى بعدهم ادهر أسقف لى بوي مع رجال الكونت ريموند والتاسكونيين ، والبروفسانسيين ، فقد تخلف الكونت نفسه في المدينة لحمايتها ، ثم حشد بوهيموند الجموع المتبقية بكل مهارة في الساقا .

وعندما رأى الأتراك صفوفهم وقد اخترقها هجوم جيش الفرنجة برمته ، أخذوا يتدافعون إلى الأمام فرادى ليطلقوا النشاب حسب عانتهم ، غير أن الرعب المميت النازل من السماء القي في قلوبهم ، فأمعنوا جميعا بالفرار كما لو أن العالم كله قد سقط عليهم ، وهنا طارد الفرنجة الهاربين وتعقبوهم بأسرع ما استطاعوا .

ولكن لما كانت خيول الفرنجة قليلة العدد وهزيلة انهكها الجوع ، فإنهم لم يتمكنوا من أسر سوى عدد صغير من الكفار ، بيد أن خيام الأتراك ظلت منصوبة على حالها في معسكرهم ، وقد وجد فيها الفرنجة ذخائر وحاجيات من مختلف الأنواع كالذهب والفضة والأردية والثياب المتنوعة والأوعية وأشياء أخرى كثيرة خلفها الأتراك أو القوها فزعا أثناء فرارهم المضطرب ، وكان هناك على سبيل المثال : خيول وبغال وحمير وعمائم فاخرة وقسم وسهام و جعب .

ومر كربوغا فارا برشاقة كالغزال ، وهو الذي طالما ذبح الفرنجة وقتلهم بالكلام والوعيد والتهديد ، ولكن لماذا فر ذلك الذي ملك جيشا عظيما ، وكان معه كل هؤلاء الفرسان المبدجون ؟ لأنه تجرأ على تحدي الرب ، الرب الذي شاهد من بعد رعونة كربوغا وتبججه فدمر قوته تدميرا وسحقها سحقا .

وهرب من الأتراك الذين امتلكوا خيولا سريعة وقوية ، أما
ماسواهم فقد تركوا للفرنجة ، وقد أسر كثير من هؤلاء ولاسيما من
الرجالة الشرقيين ، ومن جانب آخر أصيب عدد قليل من رجالنا
بجراح ، أما النساء اللواتي وجدن في خيام العدو فإن الفرنجة لم
يمسوهن بأذى ، واكتفوا بأن بقروا بطونهن بالحراش .

وبصوت مفعم بالبهجة أُنشد الجميع لعظمة الرب ، فبرحمته
الابوية ، أنقذنا من أشد الأعداء قسوة نحن الذين وضعنا ثقتنا به
عندما كنا في أشد محنة ، وفي أمس الحاجة ، فببطشه بعثر الأتراك
وهزمهم بعد أن كادوا يهزمون المسيحيين ، وعاد رجالنا إلى المدينة
مسرورين وقد أغنتهم الغنائم التي سلبوها من الأعداء .

شعر :

عندما سقطت مدينة أنطاكية القديمة .
كان التاريخ يقل سنتين عن الألف والمائة

بعد تجسيد مولانا الذي ولبته العذراء في شارة الجوزاء
عندما أشرقت الشمس ضعف التسعة

وفي أوائل آب توفي أدهممر ، لتحل روحه في سلام
سرمدى - أمين . ثم عاد هيوج العظيم إلى القسطنطينية ، (١)
ومنها ذهب إلى فرنسا .

وأرسلت هذه العصبة الكريمة من القادة الرسالة التالية إلى بابا
روما بخصوص ماحدث : إلى فائق التبجيل مولانا البابا أوربان .

من بوهيموند ، وريموند صنجيل ، وغودفري دوق اللورين ،
وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت فلاندرز ، ويوستاس دى
بوليون .

تحية وبعد :

عبودية مخلصه وخضوعا صادقا للمسيح حسبما يتوجب على
الأبناء لأبيهم الروحي . إننا نرغب ونتمنى أن نحيطكم علما أننا
برحمة وافر من الرب ، وبمعونته الجليلة ، استولينا على مدينة
أنطاكية ، وقد انهزم الأتراك الذين لطخوا بالكراهية سيدنا يسوع
وقتلوا ، وإننا كحجاج ليسوع المسيح إلى القدس قد انتقمنا لجراح
الرب القدير ، وإننا بعدما حاصرنا الأتراك ، وقعنا تحت حصار
أتراك آخرين قدموا من خراسان والقدس ودمشق ، وأمكنة كثيرة
أخرى ، وقد تم خلاصنا برحمة يسوع المسيح .

وكان بعد الاستيلاء على نيقية أن تغلبنا - كما سمعت - على
حشود هائلة من الأتراك نازلناها في تموز عند دور يليوم ، وهزمتنا
سليمان الجبار وانتزعنا منه كل أراضي وأملكه ، وبعد امتلاكنا
لكل رومانيا (الأناضول) وإخضاعها لنا تقدمنا إلى حصار
أنطاكية ، ولقد تحملنا أثناء الحصار الكثير من المصاعب خاصة
بسبب هجمات الأتراك المجاورين والكفار التي كانوا يشنونها علينا
مرارا وتكرارا بأعداد غفيرة ، حتى صدق القول : إننا كنا
محاصرين من قبل الذين كنا نحاصرهم في أنطاكية .

وبعد الانتصار في جميع المعارك ، وبعدما حاز الدين المسيحي
المجد بهذه الانجازات ، توصلت أنا بوهموند إلى اتفاق مع
(أرمني) من رجال الأتراك سلم إلي المدينة ، وقبل مطلع فجر
الثالث من حزيران وضعت الأسلحة على سور المدينة التي كانت
تقاوم المسيح ، وذهبنا يغني سفان طاغية المدينة مع عدد كبير من
جنده ، واحتفظنا بزوجاتهم وأولادهم وأسرههم وذهبهم وفضتهم
وكل مقتنياتهم وأملكهم .

غير أننا لم نستطع احتلال قلعة المدينة التي كان الأتراك قد
حصنوها ، وعندما اتعنا استعداداتنا لاقتحامها في اليوم التالي

شاهدنا أعدادا لاتحصى من الأتراك تتحرك في جميع أرجاء المنطقة ، وكنا لأيام خلت نتوقع حضورهم وتحن ما نزال خارج المدينة ، وفي اليوم الثالث لامتلاكنا المدينة ضربوا الحصار حولنا ، وبخل أكثر من مائة ألف منهم من القلعة السالفة الذكر أملين أن يندفعوا من أبوابها إلى قسم من المدينة تحتها ، كان بعضه معنا وبعضه الآخر معهم .

غير أننا تمكنا من موقع لنا على مرتفع آخر مقابل للقلعة ، من حماية الممر بين الجيشين ، وهو المؤدي إلى المدينة حتى أن الأتراك بأعدادهم الهائلة لم يستطيعوا اقتحام الممر ، وحاربنا داخل الأسوار وخارجها ليلا ونهارا ، وأخيرا أرغمنا العدو على التقهقر إلى معسكره عبر بوابة القلعة المفضية إلى المدينة .

وبعدما تبين لهم أنهم لن يستطيعوا إلحاق الأضرار بنا من ذلك الجانب ، أحاطوا بنا من جميع النواحي ، إلى حد أن أحدا لم يعد بإمكانه الخروج أو الدخول إلى المدينة ، وقد ثبط ذلك من عزائمنا وبث الكآبة في نفوسنا ، حتى أن العديد منا ، وقد أهلكنا الجوع مع المحن الأخرى ، ذبحوا خيولهم وحميرهم التي كانت تموت من الجوع والتهموها .

وفي تلك الأثناء ، وبإطالة رفق ورحمة من الرب القدير ، وبعون منه ، عثرنا على الحربة المقدسة التي طعن بها لونغينيوس جنب مخلصنا ، وقد تجلى القديس أندروز ثلاث مرات لواحد من عبيد الرب وأراه المكان الذي رقت فيه الحربة المقدسة ، في كنيسة المبارك بطرس ، أمير الرسل ، وقد استمددنا الطمأنينة والقوة من هذا الاكتشاف ومن غيره من الإحياءات ، فبعد أن استولت علينا الكآبة واستبد بنا الوجع ، أصبح الواحد منا يحث زميله بكل شجاعة وتحفز على القتال .

وبعدما تحملنا الحصار لمدة ثلاثة أسابيع وأربعة أيام ، اعترفنا

بذنوبنا وأوكلنا نفوسنا للرب ثم انطلقنا من أبواب المدينة في ليلة عيد القديسين بطرس وبولص (٢٨ حزيران ١٠٩٨) في تشكيل قتالي ، وكان عددا قليلا جدا إلى حد أن العدو لم يظن أبدا أننا سنحاربه بل سنهرب .

وعندما تمت جميع هذه الاستعدادات ، واصطف رجالنا وفرساننا في تشكيلة المعركة بكل نظام ، تقدمنا بكل بسالة نحو قلب قوة الأعداء وأجبرناهم على الفرار من مواقعهم المتقدمة ، غير أنهم كعائتهم تشتتوا في جميع الاتجاهات ، وأرادوا تطويقنا باحتلالهم القلاع والمنافذ حسب طاقتهم ، وأملوا بذبحنا بهذه الطريقة ، ولكن وكنا قد خبرنا حيلهم والاعيبهم هذه في معارك سالفة ، استطعنا ونحن الأقل عددا أن نحبط خططهم ، وذلك بفضل الرب ورحمته ، وأرغمناهم على التجمع ، وبید الرب اليمنى تقاتل معنا ، أجبرنا الأتراك بعد تجمعهم على الفرار ومن ثم التخلي عن معسكراتهم وكل ماكانت تحويه .

وطاردنا الأتراك ، بعدما هزمناهم ، طوال اليوم وقتلنا آلافا مؤلفة منهم ، ثم عدنا إلى المدينة سعداء مسرورين ، وإثر هذا سلم ابن مروان القلعة السالفة الذكر إلى بوهيموند ومعها ألف رجل ، وقد تنازل عن هؤلاء الرجال إلى بوهيموند راضيا ، فاعتنقوا الديانة المسيحية ، وهكذا خلاص مولانا يسوع المسيح أنطاكية وسلمها إلى ديانة روما .

وبما أن الأحزان غالبا ما ترافق الأفراح ، فقد توفي أسقف لي بوي ، الذي كنتم قد بعثتم به إلينا وكيلا ، وحدثت وفاته في أول آب ، وجاء ذلك بعد المعركة التي شغل فيها دورا مبرزاً وبعدما خضعت المدينة لنا .

ولهذا نسألك الآن ونحن أولادك الذين فجعوا بفقدان أبيهم الذي أوكلت بنا إليه ، ولما كنت وأنت والدنا الروحي ، قد افتتحت بنفسك

هذا الحج ، وجعلتنا بعظاتك نترك بلادنا وكل ما فيها ، وبما انك قد
حرضتنا على السير على طريق المسيح بحمل الصليب وحثتنا دوما
على تمجيد اسم المسيح حسبما كنت تبشر ، فإننا نتوسل إليك أن
تقدم إلينا ، وأن تحرض كل من يستطيع أن يقدم معكم إلينا ، فهنا
منشأ المسيحيين (أعمال الرسل : ١١ / ٢٦) وبعدهما جالس
بطرس المقدس على العرش في الكنيسة التي نرى اليوم ، أصبح
الذين كانوا يدعون في الماضي (أعمال الرسل : ١١ - ٢ / ٧ -
جليلين يدعون الآن النصارى ، فهل في هذه الدنيا ما هو أنسب من
أن تقدم أنت ، وانت الأب لهذه الكنيسة و الرأس ، إلى هذه المدينة
الرئيسية ، حاضرة الاسم المسيحي ، و تخدم هذه الحرب التي هي
مشروعك بنفسك .

لقد أخضعنا الأتراك و الكفار ، و أما الهرطقة من الأغريق و
الأرمن و السريان و أليعاقة ، فلم نتمكن من إخضاعهم ، لهذا
نعاود السؤال في أن تقدم أنت يا أبنا العزيز كأب و رأس الى موطن
اسلافك ، و أن تجلس أنت ، و أنت خليفة القديس بطرس ، على
عرشه ، و أن تستخدمنا كأبنائك المطيعين في أداء المهام التي
تراها ، و أن تحقق بسلطانك و تدمر بقوتنا جميع الهرطقات بكافة
انواعها ، و هكذا تكمل معنا حجة يسوع المسيح التي أخذناها على
عاتقنا بعد أن ناديت بها ، و تفتح لنا أبواب القدس ، و القدس
الأخرى ، و تحرر كنيسة قيامة الرب ، و تمجد اسم المسيحيين فوق
جميع الأسماء ، لأنك إن حضرت معنا و أتممنا الحجج الذي افتتحت
فإن العالم بأسره سيدين لك بالطاعة .

لعل الرب الأزلي الوجود ، الذي سيحكم في الديمومة يلهمك أن تفعل
ذلك : آمين

الحملة على مدن أخرى - حصار عرقه - رحلة الفرنجة إلى القدس ووصولهم إليها :

بعدما هد تعب الأيام الطوال رجالنا و خيولنا ، استجمعوا و استراحوا أربعة أشهر في أحواز أنطاكية حتى استردوا عافيتهم ، و بعد شيء من المداولات زحف جزء من الجيش إلى داخل بلاد سورية و ذلك بقصد تأجيل الزحف على القدس ، و قاد هذا الجزء بوهيموند و الكونت ريموند ، و بقي بقية الأمراء على مقربة من أنطاكية.

واستولى هذان القائدان مع رجالهما على مدينتي البارة ومعرة النعمان بعدما اظهروا شجاعة هائلة في القتال ، و قد استولوا على المدينة الأولى بسرعة فائقة ، و ابادوا سكانها عن بكرة أبيهم ، و استولوا على كل ما وجدوه فيها ، ثم اندفعوا نحو المدينة الثانية ، و حاصروها لمدة عشرين يوما عانى أثناءها رجالنا من الجوع الشديد ، و يقشعر بدني و أنا أنكر أن عددا كبيرا من رجالنا ، و قد هدم الجوع و عذبهم إلى حد الجنون ، قطعوا لحم العجز من جثث المسلمين المطروحة و طبخوه واكلوه ، لابل التهموا اللحم بوحشية قبل ان يتم طهيه ، وهكذا فإن الضرر اصاب الذين قاموا بأعمال الحصار أكثر من المحاصرين .

و في تلك الأثناء أتم الفرنجة صنع الآلات الحربية على حسب الاستطاعة ، و دفعوها إلى محاذاة الأسوار ، و ببركة من الرب و معونة عبروا فوق هذه الآلات في هجوم بالغ الجراءة ، و في اليوم التالي ابادوا قتلا جميع المسلمين من أعلاهم إلى أدناهم و استولوا على ممتلكاتهم أجمع.

وبعدما دمرت المعرة على هذه الصورة رجع بنو هيموند إلى أنطاكية ، حيث طرد منها رجال الكونت ريموند الذين كان قد خلفهم فيها لحماية قطاعه منها ، و امتلك إثر هذا بوهيموند أنطاكية ومجمل

المنطقة المحيطة بها ، بحجة أن المدينة تم الاستيلاء عليها بفضل مفاوضاته وحيلته ، ونتيجة لذلك ضم الكونت ريموند إليه الكونت تانكرد واستأنفا الرحلة نحو القدس ، وإثر هذا انضم روبرت كونت نورماندي إلى هذه القوات ، وذلك في اليوم الذي أعقب رحيلهم من معرة النعمان

وفي عام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا المسيح زحفت هذه القوات متقدمة نحو مدينة عرقة المنبعا والواقعة على سفح جبل لبنان ، وقد قرأنا أن مؤسسها كان أراكبوس بن كنعان وحفيد نوح ، وبما أن الاستيلاء عليها كان صعبا جدا ، فقد ألقينا عليها الحصار لمدة خمسة أسابيع دون أن ننجز شيئا ملحوظا .

وسار الدوق غودفري وروبرت كونت الأراضي المنخفضة خلف جيشنا ولم يكونا بعيدا جدا عنه ، فقد حاصرا مدينة جبلة الحصينة ، وأذاك تسلما رسالة من الجيش بطلب العون في حصار عرقة ، فتخلوا عن جبلة فورا ، وخفا لنجدة الجيش ، غير أنه بعدما حوصرت عرقة لم تقع معركة كبيرة كما كان متوقعا .

وأخذ الفرنجة بعد هذا في التداول فيما بينهم ، فارتأوا أن ضررا كبيرا لا يرتق سيقب بهم جميعا إن هم أطلوا فترة مكوثهم حيث هم وأخفقوا في الاستيلاء على عرقة ، وأخيرا استقر رأيهم على رفع الحصار عن عرقة ومتابعة الزحف ، ومع أن طريقهم كانت خالية من حركة المرور التجارية إلا أنه كان ما يزال هناك متسع من الوقت لوصولهم إلى القدس أيام الحصاد ، ولو أنهم شرعوا الآن بالزحف ولم يتمهلوا سيكون بإمكانهم أن يقاتلوا على الحصاد في كل مكان ، وعلى الأغذية التي يزودهم الرب بها ، فبقيادتهم يمكنهم الوصول إلى غايتهم المنشودة ، وتبني هذا الرأي واتخذ قرارا بذلك

وبعدما قوضوا المعسكر شرعوا بالرحيل ، فمروا أولا بمدينة

طرابلس ، ثم واصلوا زحفهم حتى جبيل ، فكانوا أمام قلعتها في شهر نيسان ، وبدأوا يقتاتون على الحصاد ، وقد تابعوا زحفهم فمروا على مقربة من مدينة بيروت ، حتى وصلوا إلى مدينة اسمها بلغتنا صيدا ، وهي في أرض الفينيقيين ، كان قد بناها صيدون بن كنعان الذي جاء من سلالة الصيدايون ، ومن صيدا هبط رجالنا إلى الصرفند ثم إلى صور ، وهي مدينة رائعة حقاً ، ومنها إلى أوبليا التي قرأنا عنها وعن هاتين المدينتين قال المبشر « في نواحي صور وصيدا » (متى ١٥ / ١٢) ويدعو سكان المنطقة هذه أحداها باسم ساجيتا والثانية صور وفي العبرانية سور .

ثم وصلوا إلى قلعة تدعى الزيف (الزيب ١٤ كم شمالي عكا) تبعد ستة أميال عن بطولومي (عكا) ثم مروا من أمام بطولومي التي تعرف باسم عكا (عكو) من قبل ويخطئ بعضهم فيسميها عكرون ، ولكن هذه مدينة فلسطينية على مقربة من عسقلان بين بيننا وأشدود ، وفي حقيقة الأمر يحد عكا من الجنوب جبل الكرمل ، وبعد تجاوزهم مر رجالنا ببلدة اسمها حيفا وقعت إلى يمينهم ، ثم اقتربوا من دورا ، وبعدها من قيسارية فلسطين التي كانت تدعى من قبل باسم « برج ستراتون » ففيها مات هيرود أغريبا - حفيد هيرود الذي ولد المسيح في أيامه - ميتة بائسة حيث أكلته الديدان (أعمال الرسل : ١٢ - ٢) .

وزحف الفرنجة بعد هذا والبحر ومدينة أرسوف إلى يمينهم ، وبخلوا إلى مدينة الرملة وكان سكانها من المسلمين قد هجروها قبل ذلك بيوم ، وعثر فيها الفرنجة على كميات من القمح حملوها على ظهور دوابهم ونقلوها إلى القدس .

وبعد توقف لمدة أربعة أيام اختاروا خلالها أسقفا لكنيسة القديس جرجس ، وعينوا حامية للدفاع عن البلدة استأنف الفرنجة زحفهم نحو القدس ، ووصلوا في ذلك اليوم إلى عمواس قرب مودين مدينة المكابيين

وفي اليوم التالي امتطى مائة من أفضل الفرسان خيولهم ، ومروا قبيل الفجر على مقربة من القدس ، ثم ساروا مسرعين إلى بيت لحم ، وكان بينهم تانكرد وبلدوين ، وعندما اكتشف النصارى من أبناء المنطقة من الأغريق والسريان أن الفرنجة قد وصلوا شعروا بالسعادة والسرور مع أنهم في بادئ الأمر لم يعرفوا من كان هؤلاء فقد خيل إليهم أولا أنهم ترك أو عرب ، لكن عندما رأوهم عن قرب ، وتيقنوا أنهم فرنجة طاروا فرحا ، وحملوا على الفور صليبانهم وخرجوا للترحيب بهم وهم يبكون وينشدون بخشوع ، بكوا خشية لأن عددا بهذه القلة من الناس يمكن بسهولة القضاء عليه على أيدي الجموع الغفيرة من الكفار الذين كانوا قد عرفوا بوجودهم في المنطقة ، وانشدوا لأنهم رحبوا بقدوم الذين لطالما تطلعوا إلى حضورهم لأنهم شعروا أنهم سيعيدون إلى الديانة المسيحية الاعتبار التي هي جديرة به بعدما طال انتهاك الكفار لها .

وبعدما ابتهلوا بخشوع للرب في كنيسة مريم المباركة وزاروا مهد تجسيد المسيح ، وأعطوا قبلة السلام للأسريان، سارعوا عاندين نحو القدس ، المدينة المقدسة ، .

انظر لقد ظهرت بقية الجيش وهي تقترب من المدينة ، وكانوا قد مروا بالجيب (جبعون) وهي على يسارهم ، وهي تبعد خمسين استادا (١٠ كم) عن القدس ، وفي الجيب أعطى يشوع أوامره للشمس والقمر (يشوع : ١٢/١ - ١٣) وعندما رفع رجال الطليعة أعلامهم وراياتهم هاجمهم سكان المدينة بالحال بيد أن هؤلاء الذين أسرعوا بالخروج من المدينة ردوا على أعقابهم إليها بسرعة أكبر .

شعر :

كان حزيان مشعا بحرارة الشمس السابعة عندما ألقى الفرنجة الحصار على القدس .

موقع القدس :

تقوم القدس في منطقة جبلية جرداء خالية من الأشجار والينابيع والجدول باستثناء عين سلوان ، التي تبعد مقدار غلوة عن المدينة والتي يتوفر فيها الماء حيناً ويشم حيناً آخر بسبب قلة المجاري ، وتنبع هذه العين في الوادي على سفح جبل صهيون من تيار جدول قدرون .

ويطفو هذا الجدول بالعادة ويفيض في الشتاء من قلب وادي يهوشافاط .

وتحتوي الأحواض والصهاريج الكثيرة داخل المدينة على كميات كافية من المياه ، ذلك أنها تمتلأ عادة بأمطار الشتاء ، كما وكان هناك أحواض أخرى خارج المدينة لسقاية الناس والحيوانات

ومن المسلم به أن القدس مدينة منبسطة انبساطاً متوائماً ، وهي ليست بالصغيرة أو الكبيرة ، عرضها من السور إلى السور مقدار أربع غلوات سهم ، ويقع في غربها برج داود الذي تحفه الأسوار من الجانبين ، وفي الجنوب منها يقع جبل صهيون وذلك على بعد أقل من غلوة سهم ، ويقع في شرقها جبل الزيتون وذلك على قرابة ألف خطوة خارج المدينة ، ولقد بني برج داود هذا من حجر صلد ، وفي نصفه العلوي قوالب ضخمة مربعة مختومة بالرصاص المصهور ، ويمكن لخمسة عشر أو عشرين من الرجال الدفاع عن هذا البرج ضد هجمات أي عدو إذا ما توفر لهم ما يكفي من غذاء .

ويقع في وسط المدينة نفسها هيكل الرب ، وهو مستدير الشكل ، وقد أقيم حيث شيد سليمان في قديم الزمان هيكله الرائع ، ومع أنه لا تصح مقارنة الهيكل الحالي بالقديم ، غير أن منظره بهي رائع يدل على مقدرة مذهلة بالاعمار .

وكنيسة القيامة أيضا مستديرة الشكل ، تركت نروتها مفتوحة لتسمح للضوء بالدخول من كوة دائمة أجاد في بنائها بناء ماهر ، وليس لدي القدرة ، كما لا أجرؤ ، ولا أعرف كيف أعد ما فيها من ذخائر فضلا عما حوته في الماضي ، أقول هذا حتى لا أخدع أو أضلل الذين يقرأون أو يسمعون عن هذه المسألة .

وبعدما دخلنا الهيكل ، ولدة خمسة عشر عاما إثر ذاك ، قامت هناك صخرة في وسطه ، قيل إن تابوت العهد ومعه السكينة وصحف موسى قد حفظت في داخلها ، وأن يوشع ملك يهوذا قد أمر بوضعها هناك قائلا « لن تتمكن من نقلها من هذا المكان » ، ذلك أنه تنبأ بحادثة السبي المستقبلية ،

غير أن هذا يتعارض مع ما نقرأه من وصف في كتاب المكابيين الثاني أنه قد أخفاها في بلاد عربية بنفسه قائلا : إنها لن تكتشف حتى يجتمع خلق كثير ، وكان أرميا معاصرا ليوشع غير أن الملك يوشع مات قبل أرميا .

وروي أن ملاك الرب وقف أمام الصخرة المذكورة (صموئيل الثاني : ٢٤ / ٨ - ٢٥) وأهلك الناس بسبب نذب داود في احصائهم مما أغضب الرب (صموئيل الثاني : ١٢٤ / ٢ ، ١٥ - ١٧) ولما كانت هذه الصخرة قد شوهت الهيكل فقد تمت تغطيتها بتبليطها بالرخام ، وقد وضع الآن فوقها مذبح ، وعليه أوقف الكهنة جوقة المرتلين ، وكان المسلمون يكتنون فائق الاحترام لمعبد الله هذا ، وقد فضّلوا أداء صلواتهم فيه على أي مكان آخر ، مع أن صلواتهم ذهبت سدى لأنها قدمت لوثن نصب اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم يسمحوا للنصارى بدخول الهيكل .

وهناك معبد آخر (المسجد الأقصى) رائع البنيان ، وفخم الشكل ، يدعى هيكل سليمان مع أنه ليس الهيكل الذي شيده

- ٢٧٦٩ -

سليمان ، ولم نستطع بسبب ضيق ذات اليد ، أن نحافظ عليه في الحالة ذاتها التي وجدناه عليها ، ولذلك تلف جزء كبير منه .

وكان هناك مجار في شوارع المدينة يغسل فيها ماء المطر كل الأوساخ ويجرفها ، وكان الامبراطور اليوس هادريان قد زين هذه المدينة وزادها روعة وبهاء ، وجعل شوارعها وميادينها بالارصفة ، وقد سميت القدس نسبة إليه « ايليا » ، ولهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة عظم شأن القدس واشتهر صيتها .

حصار مدينة القدس :

بعدما رأى الفرنجة القدس ، أدركوا صعوبة احتلالها ، لذلك أمر قادتنا بصنع أبراج خشبية عالية ، وقد أملوا أن يدخلوا إلى القدس - بعون الرب - بنقل هذه الأبراج إلى محاذاة الأسوار ونصبها هناك والتسلق عليها إلى أعالي السور بهمة ونشاط وتم بناء الأبراج ، وأصدر الأمراء الأوامر بالهجوم في اليوم السابع لتاريخ وصولهم ، وبعدما صدحت الأبواق في الصباح هاجم رجالنا المدينة من جميع الجوانب بعزيمة جبارة ، وبعدما ثابروا على الهجوم حتى الساعة السادسة من النهار ، ولم يتمكنوا من دخول المدينة . أسطت الأبراج لقلتها توقفوا عن متابعة القتال وعادوا على مضض

وبعد التداول حول الأمر أمر القادة المهندسين ببناء آلات أخرى للقتال ، أملين أن تحقق لهم - بعون الرب - مبتغاهم إذا ماتسم الصاقها بالأسوار ، وقد تم تنفيذ ذلك .

ولم يعان رجالنا من نقص الخبز واللحوم ، وإنما شقوا وعانوا هم ودوابهم من جفاف المنطقة وخلوها من الجداول وشح المياه فيها ،

لذلك نقلوا المياه بكل مشقة من المناطق المجاورة على مسافة أربعة أميال أو خمسة حسبما تيسرت الأمور .

وبعدما تم اعداد الآلات من مجانيق واكباش وابراج ، بدأ رجالنا بالاستعداد للهجوم على المدينة مرة ثانية ، وكان من جملة ما أبدعوه لخدمة أغراضهم ، برجا من أخشاب قصيرة حيث لم تتوفر لهم أخشاب طويلة في تلك الاحواز ، ونقلوا اجزاء البرج إثر اصدار الأوامر ليلا ، ثم ركبوه في مواجهة المدينة في الصباح التالي ، ووضعوا معه الاكباش والمجانيق التي أعدوها ، وبعدما حضروه وغطوه من الخارج بجلود الحيوانات لحمايته من النيران ، دفعوه رويدا رويدا إلى محاذاة الأسوار ، وبإشارة صدحت بها الأبواق ، تسلق عدد صغير من خيرة المقاتلين وأشدهم شكيمة البرج ، غير أن المسلمين كانوا قد أقاموا وسائل للدفاع ضدهم ، وأطلقوا من المجانيق بقذائف ملتهبة مغموسة بالزيت والشحوم ، ووقعت هذه القذائف على البرج وعلى من فيه ، ولهذا هلك العديد من الطرفين في القتال .

وشن ريموند ورجاله من موقعهم على جبل صهيون هجوما عنيفا مستخدمين الاتهم الحربية ، ومن الطرف الآخر شن رجال الدوق غودفري وروبرت كونت نورماني ، وروبت كونت الاراضي المنخفضة أعنف هجوم على السور وأقساه ، لكن انقضى اليوم دون المزيد من المحصلات .

وتابعوا في اليوم التالي القتال على زعيق الأبواق المهمة ذاتها بعزيمة أقوى وهمة أشد ، ولذلك فتحوا ثغرة في السور في مكان واحد بعد دكة بالاكباش ، وكان المسلمون قد نصبوا عمودين من الخشب أمام فتحة وجدت في أعلى السور ، وقد ربطوهما بالحبال لتكون بمثابة ستارة تحميهم من الحجارة التي كان يقذفها المهاجمون ، ولم يخيل إليهم أبدا أن ما أقاموه لخدمة أغراضهم سينقلب ضرا فيما بعد وذلك بانن من القدرة الربانية ، حيث أنه عندما دفع الفرنجة

البرج المذكور إلى ملاصقة السور ، استخدموا سيوفهم القصيرة لقطع الحبال التي علق بها العمودان ، وجعلوا من هذين العمودين جسرا مدوه ببراعة من البرج إلى أعلى السور .

وفي تلك الاثناء ، كان رجالنا يقذفون بالمقنوفات المشتعلة على السور ، فتعلقت النيران في أحد أبراج السور الحجرية والتهمت كميات من الحطب والاختشاب كانت حول البرج ، وتصاعد الدخان واشتدت الحرائق فلم يستطع أحد من الحراس الذين كانوا هناك البقاء امام النيران طويلا .

وسرعان ما دخل الفرنجة المدينة بكل روعة في ظهر ذلك اليوم الجليل الذي فدى فيه يسوع المسيح العالم بأسره وخلصه على الصليب ، وخلال زعيق الأبواق والضحج والجلبة الشديدة ، شددوا هجومهم واندفعوا ببسالة وهم يصرخون " ساعدنا يا رب " ، وبادروا إلى رفع راية لهم على ذروة الأسوار ، فدب الرعب القاتل في قلوب الكفار ، واستبدلوا شجاعتهم السالفة بالخوف والفرار في أزقة المدينة وطرقاتها الضيقة ، وكانوا كلما أمعنوا بالفرار كلما اشتدت أعمال مطاردتهم ومحققهم .

وللوهلة الأولى لم يعرف الكونت ريموند ورجاله ، الذين كانوا يضيقون الخصار ويشددون الهجوم من ناحية أخرى من المدينة ، كنه ما يجري ، غير أنهم عندما شهدوا المسلمين وهم يقفزون من أسوار المدينة ، وعندما أدركوا ذلك اندفعوا وهم في ذروة الابتهاج فدخلوا إلى المدينة بأسرع ما أمكنهم ، وانضموا إلى رفاقهم يطاردون الأعداء الأشرار ويذبحونهم بدون توقف . وفر بعض العرب والسودان إلى برج داود ، واندشر آخرون في هيكل سليمان ومعبد الرب ، وفي فناء هذا البنيان شن رجالنا هجوما عنيفا على المسلمين ، الذين لم يكن لهم من سيوفنا معر .

اما المسلمون الذين صعدوا إلى سقف وقبة هيكل

سليمان (المسجد الأقصى) فقد أطلق عليهم النشاب ، فخروا
صرعى وتساقطوا على رؤوسهم ، وقد قطعت رؤوس ما يقرب من
عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل ، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك
حتى الكواحل بدماء القتلى ، ثم ماذا أقول ؟ أقول : لم يبق منهم
أحد ، ولم يرحموا طفلا ولا امرأة .

الأسلاب التي حصل عليها النصارى

كم كانت دهشتك عظيمة لو أنك شاهدت رجالنا من الرجالة وحملة
الدرق ، يبقرون بطون من ذبحوا من المسلمين - بعدما اكتشفوا
الاعيبهم - ليستخرجوا من بطونهم الدنانير الذهبية التي كانوا
ابتلعوها وهم ما يزالون على قيد الحياة ، وللغاية نفسها ، جمع
رجالنا بعد بضعة أيام كومة عظيمة من الجثث وأحرقوها حتى
صارت رمادا حتى يسهل عليهم الحصول على الذهب .

ثم اندفع تانكرد نحو هيكل الرب فجرده من كثير من الذهب والفضة
والأحجار الكريمة التي كانت فيه ، غير أنه أعادها أو وضع ما
يساويها في ذلك المكان المقدس ، ثم إن العبادات لم تعد تعقد هناك
منذ ذلك الحين ، وكان المسلمون قد مارسوا فيه عباداتهم الوثنية
بشعائر خداعة ، وكانوا أيضا لا يسمحون للنصارى بالدخول إليه .

شعر :

وبسيوف مشهورة سعى رجالنا في المدينة
لا يبقون على أحد حتى الذين يستجدون الرحمة
وتساقط الجميع مثلما يتساقط التفاح المتعفن
من الأغصان المهزوزة أو جوز البلوط من الشجر المتمايل

مكوث النصارى في القدس :

وبعد هذه المنبحة الهائلة ، دخلوا إلى بيوت الاهلين فتملكوا كل ما وجدوه فيها ، وتفاهموا على ترتيب خاص أن أول من يدخل إلى واحد من البيوت سواء اكان بيت موثر أو بيت فقير فلن يعترض عليه احد من الفرنجة ، ويحق له سكنى ذلك البيت وتملكه حتى وإن كان قصرا ، والاستحواذ على كل ما فيه والتصرف به كما لو كان بيته حقا ، وهكذا اتخذوا قرارات التملك ، وبهذه الوسطة غدا العديد من الفقراء أثرياء .

ثم توجه رجال الدين والعامه نحو كنيسة القيامة كذلك قصدوا هيكل الرب المجيد ، وساروا في موكب وأنشدوا ترتيلة جديدة بصوت مقعم بالبهجة ، وقدموا الصدقات والابتهالات الخاشعة تملأ صدورهم ، ثم زاروا الأماكن المقدسة والغبطة تهزهم كما لو أنهم كانوا يودون لو فعلوا هذا منذ زمن بعيد .

ياله من يوم لطالما تحرقنا شوقا إليه : يا وقتا هو أخرى الاوقات بالذكرى ، ويا انجازا فوق كل انجاز ، لقد تمنينا هذا اليوم ، فقد كانت تعتمل الرغبة الجامحة في نفوس جميع المؤمنين بالديانة الكاثوليكية ، بأن يعاد هذا المكان إلى جلاله السرمدي ، لأنه المكان الذي اختاره خالق المخلوقات جميعا ، الرب الذي تجسد انسانا رحمة من رحماته للانسان ، وأضفى بتسجيده وموته وصعوده عليه منحة الخلاص ، أن يعاد هذا المكان على أيدي الذين آمنوا به ووثقوا ، فلقد تمنوا تطهير هذا المكان من الوباء بعدما دنسه سكانه بخرافات الوثنيين.

حقا إنه زمان جدير بالذكر ، وذلك لأنه بالفعل تستعد في هذا المكان نكرى كل ما أنجز أو علم على الأرض ربنا الاله يسوع المسيح وهو كرجل بين الرجال ، وتتجدد في مخيلة المؤمنين الصادقين

- ٢٧٧٤ -

جميعا ، وسيخلد هذا الانجاز الذي اختار الرب إتمامه على أيدي شعبه وأولاده وأسرته الأحباء ، الذين انتقامهم لأداء هذه المهمة ، وستجري نكراه على السنة جميع الامم إلى ابد الأبدين .

تنصيب ملك في المدينة واختيار بطريك واكتشاف صليب الصليبوت :

في السنة ألف ومائة ينقصها واحد.
من المولد العنزي للرب المجيد
بعدما أشرقت شمس تموز خمس عشرة مرة
استولى الفرنجة بعزيمتهم على مدينة القدس
وسرعان ما اتخذوا غودفري اميرا على بلدان أبائهم

وأجمع رجال جيش الرب في المدينة المقدسة على انتخاب غودفري اميرا للدولة ليحميهم ويحكمهم وقد أنتخبوه لأخلاقه النبيلة ومهارته الحربية وجلده ثم علاوة على ذلك لطلعته البهية وتوسامته.

ثم أودعوا القوانين في كنيسة القيامة وفي هيكل الرب لخدمته ، وقرروا في تلك الوقت أن لا يعينوا بطريركا وحتى يستمزجوا رأي البابا في روما عن يرغب في تعيينه في مركز البطريركية.

والتمس في تلك الاثناء بعض الأتراك والعرب وجوالي خمسمائة من السودان الذين كانوا قد اعتصموا في برج داود ، من الكونت ريموند الذي استقر على مقربة من البرج ، أن يأذن لهم بالنجاة بأرواحهم إذا ما تخلوا عن أموالهم وتركوها هناك ، فآذن لهم فانسحبوا الى عسقلان.

وبرضى من الرب تم في تلك الأونة العثور على قطعة صغيرة من

صليب الصليبوت وكان قد أخفاها من زمن قديم بعض الرجال الصالحين في مكان سري ، واكتشفها الآن بإرادة الرب رجل سرياني كان قد أخفاها وحفظها بمعرفة من والده ، وحمل الجميع هذه القطعة ، وكانت على شكل صليب غطي جزء منه بالذهب والفضة ، الى كنيسة القيامة و منها الى الهيكل ، مرددين أناشيد النصر ، ومقدمين الحمد للرب الذي حفظ هذا الاثر الثمين عبر العصور لنا وله.

وصول الكفار وفرارهم:

بعدما سمع ملك باب اليون (القاهرة) وأمير قواته الأفضل بدخول الفرنجة الى البلاد للسيطرة على اراضي المملكة المصرية ، أصدر أوامره بحشد جموع العرب والعرب والسودان ، وبادر بالزحف للتصدي لهم وقتالهم ، وإثر وصول الأخبار الى الأفضل ، بوساطة الرسل ، التي تحدثت عن سقوط القدس بتلك الوحشية غضب كثيرا ، وسارع بالسير لقتال الفرنجة و حصارهم داخل القدس.

لما بلغت هذه الأخبار الى الفرنجة اعتمدوا خطة على درجة عالية من الجراءة ، بأن زحفوا بقواتهم نحو عسقلان لحرب هؤلاء الطفاة ، وحملوا معه خشبة صليب الصليبوت ، وفيما كان الفرنجة في أحد الأيام يستطلعون المنطقة حول عسقلان قبيل القتال ، عثروا على مغانم لا عد لها ولا حصر من الثيران والماشية والماعز ، وبعدما جمع رجالنا هذه الحيوانات قرب خيمنا آخر النهار ، أصدر قادتنا أمرا ملزما في أن لا يقود أحد رجالنا الغنائم معه في اليوم المقبل ، حتى لا تعيق حركة الجيش وتحد من حريته في القتال.

وفي اليوم التالي عرف الفرنجة من رجال استطلاعهم أن الكفار

قد أخذوا بالزحف فقاموا ، بضبط جوانبهم ونظموا صفوفهم وارتالهم على الوجه الأفضل للمعركة ، ثم زحفوا نحو العدو بكل شجاعة وأعلامهم مرفوعة ، ولو كنت حاضرا لشهدت الحيوانات التي سلف ذكرها وهي تسير على يمين ويسار الحشد كما لو أنها كانت تطيع الأوامر ، مع أنه لم يكن يقودها أحد ، وعندما رأى الكفار كثافة حشدنا عن بعد ظنوه جيش الفرنجة الهائل ، ومع هذا تقدم الكفار واقتربوا من حشدنا بجموع لا تعد ولا تحصى ، وكانوا أشبه بوعل مندفع ليطعن بقرونه ، وبعثوا بكتيبتين من العرب لحصار ساقتنا ، مما دفع الدوق غودفري إلى العودة إلى الورا برفقة كوكبه من الفرسان الدارعين ، فأنقذ الساقة ، وإثر هذا تقدم القادة الآخرون وكان بعضهم با لصف الأول وبعضهم الآخر بالصف الثاني.

وعندما دنا الجمعان من بعضهما بحيث لم يبق بينهما سوى قرابة رمية حجر أو أقل ، شرع رجالنا برمي الذشاب على الأعداء الذين امتدت صفوفهم ، ثم ما لبثوا أن استبدلوا الذشاب بالحرا ب ، وذلك عندما اندفع فرساننا - كما لو كانوا على اتفاق مسبق - وشنوا هجوما مدمرا ، وانقلب اثناء القتال خيول الأعداء البطينة على فرسانهم وطرحتهم أرضا ، وفي ساعة أو أقل فارقت أجساد كثيرة الحياة وتغيرت ألوانها وعلاها الشحوب.

وأمن الأعداء بالفرار ، وفي تلك الأثناء تسلق بعضهم أعالي بعض الأشجار ، غير أنهم تلقوا وابلا من الذشاب فسقطوا إلى لقاء حتفهم بتعاسة ، وهلك المسلمون أثناء القتال العنيف في كل مكان ، أما الذين تمكنوا من النجاة ففروا عبر معسكرهم إلى عسقلان ، المدينة التي تبعد قرابة سبعمائة وعشرين استادا عن القدس.

وولى الأفضل الأدبار وقرر الفرار بعد لقائه الأول مع الفرنجة ، علما أنه كان في ذلك الحين يشعر نحوهم

بالأزدياء ، وهكذا تخلي عن خيمته مرغما ، وكانت مكدسة بالأموال وأنواع النفاذس ، وقصدها الفرنجة تملأهم ذشوة الظفر ، ثم اجتمعوا وقدموا الشكر للرب وحمدوه ، ثم ولجوا الى خيام الأعداء فوجدوا ما أنزلهم من الثروات الملكية من الذهب والفضة والملابس والمجوهرات والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها ، فيها اثني عشر صنفًا هي : اليشب - والياقوت الأزرق - والعقيق والزمرد ، والجزع العقيقي والبقراني ، والزبرجد والياقوت الزعفراني ، والياقوت الحجري ، كما أنهم وجدوا أوعية كثيرة ، وأشياء أخرى مثل القلائد المرصعة بالذهب ، والخواتم الرائعة والسيوف المحلاة ، والقمح ومختلف الحبوب.

وامضى رجالنا الليلة هناك واحتاطوا حيلة شديدة با لحراسة وتيقظوا اعتقادا منهم أن المسلمين سيجددون القتال في اليوم التالي ، لكن الذي حدث هو أن هؤلاء تملكهم الرعب ففروا في الليلة ذاتها ولم يبق منهم أحدا ، وبعدما تحقق رجال استطلاعنا من هذا الأمر في اليوم التالي ، تعالت الأصوات فرحا بالشكر والمديح ، وهللوا للرب وأثنوا عليه لأنه جعل الآلاف المؤلفة من الأعداء يتبعثرون على يد جيش صغير من جند المسيح ، « ومبارك هو الرب الذي لم يسلمنا فريسة لاسنانهم » (المزامير: ١٢٤ / ٦) « وطوبى للأمة التي الرب الهها » (المزامير: ٣٣ / ١٢).

الم يتبجح هؤلاء المصريون ويتعهدوا بالسننتهم قائلين : « لنذهب الى القدس فنحتلها والفرنجة في داخلها ، وبعد أن نذبحهم جميعا ، لنهدم كنيسة القيامة التي يجلوونها وبذلك نزيل أثرها ونمحو ذكرها الى ابد الأبدين » ، وهكذا لم تذهب رحمة الرب سدى ، بل حمل الفرنجة الابل والخيول بثروات المسلمين ، وعندما تعذر عليهم حمل الخيام والرماح والقسي والسهم الى المدينة أضرموها بالنيران ورجعوا مبتهجين الى القدس.

عودة بعض الأمراء الى ديارهم:

بعدما تم تحقيق هذه الانجازات ، رغب بعض الناس في العودة الى ديارهم ، وذلك بعد ما استحموا وتعمدوا بمياه نهر الأردن وجمعوا سعف النخل قرب أريحا ، في مكان عرف باسم حدائق ابراهيم ، وبعد هذا رحل روبرت كونت نورماندي وروبرت كونت الأراضي المنخفضة بالسفينة الى القسطنطينية ، ومنها الى فرنسا ومن ثم الى ممتلكاتهما، أما ريموند فعاد الى اللانقية في سورية وترك زوجته فيها ، ثم اكمل سفره الى القسطنطينية وهو على نية العودة ، وحكم غودفري في القدس بموافقة الجميع ، وهي المدينة التي تعهد بحمايتها والحفاظ عليها ، وبقي معه تانكرد وآخرون.

حج بوهيموند وبلدوين

في تلك الآونة كان بوهيموند - وهو رجل عاقل مدبر مقدم - يحكم في انطاكية ، وفي الوقت نفسه حكم بلدوين أخو غودفري في الرها والبلاد المجاورة في الضفة الأخرى من نهر الفرات ، ولدى سماعهما بأخبار الاستيلاء على القدس على أيدي رفاقهما الذين تقدموهما ، علاهما السرور والبهجة ، وحمدا الرب وشكراه وصليا له ، وبما ان الذين تابعوا الرحلة الى القدس أصابوا النجاح وعمت عليهم الفوائد ، فقد توجب على هذين القائدين ورفاقهما مضاهاة الآخرين على الأقل بشجاعتهم وان تخلفوا عنهم سنة.

وقضت الضرورات تدبر حماية المدن والأراضي التي انتزعت من الترك بكل صعوبة ، وتوجب ان تكون هذه الحماية عالية العناية والحرص ، ذلك أنه كان بمقدور الأتراك ، بعدما اندحروا الى بلاد الفرس ، استعادة الأراضي بهجوم مباغت ، إذا ما تركت بدون

حماية ، ولو وقع هذا للحق الفرنجة ضررا عظيما اثناء ركوبهم الطريق الى القدس ومنها ، ولعل العناية الربانية هي التي قضت ان يتخلف بوهيموند وبلدوين ، ذلك انها ارتأت انهما سيكونان اكثر نفعا فيما سيحدث من مشاركتهما فيما حدث.

والمرات التي افرغ فيها بلدوين الجهد في قتاله ضد الاثراك في الجزيرة كثيرة ، وكثيرة ايضا رؤوس الترك التي قطعها ، فمن المحال تقدير عددها ، وغالبا ما حارب بلدوين بقلة من رجاله جموعا حاشدة من الأعداء ، ولكن حالفه النصر بعون من الرب.

وعندما بعث بوهيموند الى بلدوين يقترح عليه ان يقوما مع رجالهما بمتابعة الرحلة الى القدس لأنهما لم يكملها ، اخذ بلدوين بعض الوقت في تدبير أموره و التحضير للسفر ، وفيما بلدوين على نية السفر سمع ان الاثراك اجتاحوا شطرا من بلاده ، فأجل سفره واخذ طريقه فورا مع حفنة من رجاله ، وزحف ضد الاثراك مع انه لم يكن قد جمع جيشه كله للرحلة الى القدس ، وفي احد الايام شاهد الاثراك راية بلدوين تقترب منهم ، وكانوا يظنون انه قد بدأ رحلته الى القدس ، لذلك جلسوا مطمئنين في خيامهم ، وفوجئوا الآن فدب الرعب في قلوبهم ولانوا فورا بالفرار ، وبعدما طاردهم بلدوين مسافة قصيرة رجع رجاله القلائل وتسابع تنفيذ المشروع الذي عزم على القيام به.

وبدا بلدوين رحلته بالمرور عن يمين أنطاكية حتى وصل الى اللاذقية ، حيث اشترى مالزمه من مؤونة للرحلة ، واعاد تعبئة احمال دوابه ، ثم شرع بالرحيل في تشرين الثاني ، وبعدما مزرنا بجبله التقينا ببوهيموند في بانياس حيث كان قد ضرب خيامه.

وكان معه اسقف من بيزا يدعى ديمبرت ، وكان هذا الاسقف قد ركب البحر الى مرسى اللاذقية مع بعض التسوسكانيين والطلبان ، وقد انتظروا هناك ليسيروا معنا ، وكان هناك اسقف

من أبوليا وأسقف ثالث برفقة اللورد بلدوين ، وقد قدرنا تعداد هذا الحشد من الناس الذين ربطتهم أواصر المودة بخمسة وعشرين ألفا من الرجال والنساء فرسانا ورجالا.

وبعدما دخلنا الى بلاد المسلمين ، لم نستطع الحصول من السكان المعادين على الخبز أو أي غذاء آخر نقطات به ، وعانى الكثيرون من شدة الجوع ، وازدادت معاناة الخيول والبهايم من قلة الأعلاف ، وهكذا ساروا دون أن يتمكنوا من الحصول على الغذاء.

وعثرنا في الحقول المزروعة التي اجتزناها على نبات طازج تدعوه العامة باسم « قصب العسل » وهو شديد الشبه بقصب البوص ، واسمه مركب من العسل والقصب وعنه صدرت عبارة « عسل الخشب » كما اظن ، لأن هذا العسل يستخرج بمهارة من هذا القصب ، وقد مضغنا هذا القصب طوال الوقت بسبب مذاق العسل فيه ، لكن ذلك لم يخفف من جوعنا كثيرا .

وفي الحقيقة تحملنا - محبة بالرب - هذا العذاب وكثيرا من المشقات مثل الجوع والبرد والأمطار الشديدة ، واكل كثير من الرجال لشدة الجوع ، الخيل والحمير والجمال ، وقاسينا كثيرا وبشكل متواصل من البرد القارس والأمطار العاصفة ، حتى أن ثيابنا المبتلة كانت ما تكاد تجف في حرارة الشمس حتى ينغص عيشنا وابل جديد من المطر لأربعة أيام أو خمسة.

ولقد رأيت كثيرا من الناس ممن فقدوا خيامهم يموتون من شدة البرد بسبب الأمطار ، كما شهدت أنا فولتشر أوف تشارترز بنفسه في أحد الأيام كثيرا من الناس من الجذسين يلاقون حتفهم بسبب الصقيع وكذلك الكثير من الدواب ، ويطول الوصف ويمل السماع لوذكرنا جميع الآلام والمأساة التي عانى منها شعب الرب.

ولاقي عدد كبير من الفرنجة حتفهم على أيدي المسلمين الذين كمنوا لهم على الممرات الضيقة في الطريق ، وتم اختطاف بعضهم الآخر اثناء بحثهم عن الطعام ، ولقد كنت ترى فرسانا من أصل رفيع وقد غدوا رجالة لفقدانهم خيولهم ، كما كنت ترى الماعز والخراف التي انتزعت من المسلمين ، وقد هدها حمل الأمتعة وتشققت ظهورها وتحطمت من حمل الأثقال ، لأنه لم يبق من البهائم لحمل الأمتعة غيرها.

وحصلنا على الخبز مرتين لا ثالث لهما ، بعدما دفعنا ثمننا باهظا ، وكانت المرة الأولى في طرابلس والثانية في قيسارية ، ويتضح من هذا كله أن الانسان لا يصل الى الانجاز العظيم إلا بالبذل العظيم ، وكان وصولنا الى القدس حقا امرا جد عظيم.

وانتهت بهذه الزيارة الى القدس مهمتنا التي طال مداها ، وعندما ابصرت عيوننا قدس الاقداس ، التي طال شوقنا اليها ، امتلأت نفوسنا بشعور بالغبطة العارمة ، ومرات كثيرة هي التي تذكرنا فيها نبوءة داود إذ قال: « لنسجد عند موطىء قدميه » (مزامير: ١٢٢ / ٧) ، حقا شهدنا هذه النبوءة تتحقق فينا مع انها كانت تتعلق بغيرنا ، وصعدنا حيث صعدت الأسباط ، أسباط الرب شهادة (مزامير ١٢٢ ٤) الى هذا المكان المقدس.

وبدأت الشمس يوم وصولنا الى القدس تنقلب بعد اكمال هبوطها الشتوي ، وشرعت بالصعود ، وبعد ما قضينا زيارتنا الى كنيسة القيامة والى هيكل الرب المجيد والى الأماكن المقدسة الأخرى ، ذهبنا في اليوم الرابع الى بيت لحم من أجل الاحتفال بميلاد الرب المسيح ، وأردنا أن نسعف أنفسنا بالصلوات تلك الليلة في الهدى حيث وضعت الأم مريم المجيدة ابنها يسوع ، ثم رجعنا الى

القدس في الساعة الثالثة من ذلك اليوم ، بعدما فرغنا من الابتهاالات المناسبة في الليلة المتقدمة.

ولقد سدت أنوفنا الروائح الكريهة المنتشرة حول أسوار المدينة من الداخل ومن الخارج ، والتي انبعثت من جثث المسلمين المتفسخة ، وهم الذين أبادهم رفاقنا عند احتلالهم للمدينة وكانت ما تزال مطروحة حيث تم الفتك بها.

وبعدما استجمينا نحن ودوابنا ، وثلنا قسطا من الراحة التي كنا في أشد الحاجة اليها ، وبعدما وقع اختيار الدوق والمقدمين الآخرين على ديمبرت السالف الذكر ليفدو بطيريركا في كنيسة القيامة ، تزودنا بالمؤن ووضعنا أثقالنا على دوابنا وهبطنا نريد وادي نهر الأردن ، ولقد أثر بعض الجنود ، خاصة الذين تأخروا بالوصول الى القدس ، البقاء في المدينة ، واختار الآخرون الذين كانوا قد وصلوا من قبل الذهاب معنا ، واستمر الدوق غودفري يحكم منطقة القدس بيد فولانية كما فعل من قبل.

شعر :

وحدث في اليوم الثالث لما قبل منتصف اب ، وكان يوما مشؤوما ، أن مات أوربان المبجل ، بابا روما.

عودة كل من بوهيموند وبلدوين الى بلديهما:

في العام الف ومائة لتجسيد مولانا المسيح ، وفي اليوم الأول من ذلك العام ، حملنا جميعا سعف النخيل ، بعدما قطعناها في أريحا ، حسبما جرت العادة ، وبدانا رحلة العودة في اليوم التالي .

قد أحب امرأونا العبور بمدينة طبرية ، الواقعة على
بحرها ، وطول هذا البحر الذي يتكون من مياه عذبة - ثمانية عشر
ميلا و عرضه خمسة أميال ، ومن طبرية ارتحلنا الى قيسارية فيليب
التي تدعى بالاسمان السوري بانياس ، وهي تقع على سفح جبل
لبنان ، حيث ينبع جدولان يشكلان نهر الأردن ، ويجري هذا النهر
عبر بحر طبرية الى البحر الميت.

ويذكر يوسفوس أن عرض بحر طبرية أربعين ستادا وطولها
مائة ، وكانت تعرف باسم جنساريت ويمر النهر من خلالها ، ثم
يصب في البحر الذي يدعى البحر الميت ، لأنه (تكوين
١٩ / ٢٤ - ٢٩) لا يحتوي على أي شيء حي ، ويعرف أيضا
باسم بحيرة اسفلت ، و يعتقد أنه ليس لها قاع ، لأن مدنا مثل
سدوم وعمورة قد انغمرت في جوفها

وكننت قد قرأت في كتاب القديس جيروم عن النبي
عاموس ، وقمت بعناية فائقة بتخمينات بشأن الينابيع التي
ذكرها ، واستخلصت أن دان كانت ضمن حدود بلاد يهوذا حيث تقع
بانياس الآن ، ولأن قبيلة دان شيدت مدينة هناك ، دعوها باسم
دان تيمنا بأسماء آبائهم ، ولهذا السبب اعتقد أن أحد هذه الينابيع
كان اسمه دان وكان اسم الآخر الواقع على مقربة منه « جوز » .
ثم وصلنا الى مدينة حصينة اسمها بعالات (تدمر) ، وكان قد
شيدها سليمان ، وعمر حولها أسوارا عالية جدا ، وأطلق عليها
اسم تدمر ، وتقع هذه المدينة على مسيرة يومين من أعالي
سورية ، وستة أيام من باب اليون الكبرى (القاهرة) ومسيرة يوم
من الفرات ، وقد سماها الاغريق بالميرا ، و تكثر حولها الينابيع
والآبار لكن المياه لا توجد في البادية.

وواجهنا هناك نحو أربعمائة من المقاتلين الترك كانوا قد جاءوا
من دمشق ، وقد ظنوا أننا مجهدون من التعب ومنهكون ، ولهذا

خيل اليهم أنه بسهولة يمكنهم الحاق المضار بنا ، وفعلا كادوا أن يفعلوا ذلك لولا أن شاء القدر أن يحمي اللورد بلدوين مؤخرتنا في ذلك اليوم بكل عناية وحذر ، ولولا هذا لقتل من رجالنا عدد كبير ، وقد انعدمت فعالية قسيهم بسبب الأمطار ، لأن عادة أهل تلك البلاد أن يستخدموا الغراء في صنع هذه الأسلحة ، وفي تلك الأثناء قاد بوهيموند المقدمة ، وهكذا لم ينل العدو منا - بعون الرب - أي مغنم.

ثم اقمنا مخيمنا أمام البلدة المذكورة ، وفي اليوم التالي اقتربنا أكثر من البحر ، ومررنا أمام مدينتي طرطوس واللائقية ، وفي اللائقية وجدنا ريموند الذي كنا قد خلفناه هناك ، ولندرة الأغذية لم نجد ما نشتره من المؤن لنقتات به ، ومع هذا تابعنا سفرنا غير أننا سارعنا ولم نتوقف حتى وصلنا الى الرها.

أسر الأمير بوهيموند:

وصل بوهيموند الى انطاكية أولا ، حيث رحب به أصدقاؤه وتلقوه بكل سرور وفرحة ، وقد مكث يحكم لمدة ستة أشهر كما فعل من قبل ، غير أنه عندما وصل في شهر تموز مع حفنة من رجاله الى مشارف مدينة اسمها ملطية ، التي كان قد عقد اتفاقا مع صاحبها الذي اسمه جبريل أن يسلمه أياها ، اقترب منه أمير اسمه الدانشمند ، وكان على رأس قوة كبيرة من الترك ، وسعى الى قطع الطريق عليه ، ولم يكن بوهيموند عارفا بوجوده.

وعلى مقربة من ملطية انقض هؤلاء الأشرار على بوهيموند ، وخرجوا عليه من كمين كانوا قد نصبوه له ، وطرحوه ، ولم يتجرا رجالنا على القتال لقلة عددهم وفروا وتفرقوا بالحال ، لكن بعدما قتل الأتراك عددا كبيرا منهم واستولوا

على اموالهم ، ولم يكتف الاثراك بهذا بل انهم قبضوا على بوهيموند وقادوه اسيرا،وعندما علم جماعتنا بأنباء هذه الكارثة من الذين فروا ، اصابهم حزن كبير ، وقام بلدوين كونت الرها فحشد كل من وجده من فرنجة الرها وانطاكية ، ثم انطلق بلا تأخر لملاحقة العدو حيث سمع بوجوده ، وكان بوهيموند قبل وقوعه بالاسر قد قص خصلة من شعره ، وبعث بها الى بلدوين حسب اتفاق متقدم بينهما و رجاه محبة بالرب ان يقدم الى نجدة على الفور ، وكان الدانشمند يحاصر مدينة ملطية لكنه عندما سمع بتحرك بلدوين خشي مغبة ذلك ، فأوقف الحصار ، وانسحب خشيية من مواجهتنا ، وتمكن بذلك من العودة الى بلاده ، واصابتنا خيبة أمل شديدة لذلك ، فقد طاردنا الاثراك لمدة ثلاثة أيام بدون جدوى ، وكنا نتوق للاشتباك معهم بالمعركة ، ثم عدنا الى ملطية ، فسلمها جبريل إلينا بعدما وطد اواصر الصداقة مع بلدوين ، ودخل بلدوين إلى ملطية وخلف بعض رجاله فيها ثم عاد الى مدينة الرها ، واثّر هذا عاد رجال انطاكية الى مدينتهم بعدما فقدوا قائدهم.

موت الملك غودفري:

ولم يستمتع بلدوين برغد العيش طويلا حتى وصل اليه رسول من القدس يحمل اليه خبر موت الملك قبل بداية شهر أب بخمسة عشر يوما.

شعر:

وفي مطلع السنة بعدما سقطت المدينة
أعطاك الرب أيها الدوق غودفري الحكم كتاج من التقدير لكن لم
يدم طويلا.

- ٢٧٨٦ -

تمتلك به لأن الطبيعة قضت بهلاكك.
وعندما دخلت الشمس الصاعدة في برج الأسد
صعدت أنت إلى عليين مسرورا يحمك الملاك ميكايل.

الكتاب الثاني

اعمال الملك بلدوين الاول

كيف قدم بلدوين ليحكم القدس :

اصاب بلدوين شينا من الحزن لوفاة اخيه ، ولكنه عندما علم ان اهل القدس جميعا يتوقعون ان يتولى حكم المملكة بصفتة الوريث الشرعي لها ، فرح اكثر لميراثه ، وبعدما عقد بعض الاستشارات اعطى البلاد التي له الى ابن عمه ، ثم جمع جيشه الصغير الذي لم يتجاوز تعدادة مائتي فارس وسبعمئة راجل ، وركب الطريق وانطلق يؤم القدس في الثاني من تشرين الاول .

وقد ادهش الكثيرين بشجاعته واقدامه على عبور كل تلك البلدان المعادية مع عدد ضئيل من الرجال ، كما ضرب الهلع وتملك الخوف قلوب الكثيرين ممن صاحبونا فانسحبوا وتخلوا عن مرافقتنا خلسة ودون علم منا ، وعندما اكتشف الأتراك والعرب اننا عازمون على القيام بهذه الرحلة حشدوا ما استطاعوا من رجالهم ، وزحفوا ضدنا مهاجمين ليوقعوا بنا اكبر خسارة ممكنة ، ومررنا بأنطاكية ثم عبرنا اللانقية ، ثم جبلة ومرقية وطرطوس وعرقه الى ان وصلنا الى طرابلس .

وبعث أمير طرابلس في تلك الآونة الى خيمة بلدوين بالخبز والنبيد والعسل المصفى ، وخرفان الضأن المشوية ، واخبر بلدوين ان دقاق صاحب دمشق وجناح الدولة أمير حلب ، كانا في انتظاره مع جمع من الأتراك والمسلمين والعرب على الطريق الذي اعتقدوا انه سيمر

بها ، ومع اننا لم نصدقها وقتها تماما ، تبرهن لنا فيما بعد ان زعمه كان صادقا .

الكمين الذي نصبه الأتراك - مهارة بلدوين الفائقة بالأمور العسكرية :

يقع على مقربة من بيروت - على مسافة خمسة أميال منها ، ممر شديد الضيق قائم على الطريق المماشي لساحل البحر ، ولم يكن بمقدورنا أو بمقدور أي إنسان كان المرور به وعبره ، اذا ما أراد عدو مزود بالمؤن ان يحول دون عبوره ، ولو اراد مائة ألف جندي ان يعبروه لما استطاعوا اذا ماتصدى لهم مائة رجل أو حتى ستون مقاتلا عزموا على الوقوف هناك .

وعندما دنت طلائع جندنا من هذا الممر الضيق رأى رجالنا أترাকা انفصلوا عن آخرين وشرعوا يتقدمون نحونا ويتفحصون اوضاعنا ، ولما رأتهم طلائع قوتنا اعتقدوا بوجود اعداد كبيرة خلفهم مختبئة في كمين ، وعندما شهدوا هذا راسلوا اللورد بلدوين بدون تقاعس ووصفوا له الاوضاع ، واستجاب بلدوين لهذه الأخبار بأن أمر رجاله بالاصطفاف للقتال ، وتعبأنا ، ثم زحفنا نحو العدو بتؤدة نسير خطوة خطوة ، واعلامنا مرفوعة ، وعندما تيقنا من اقتراب نشوب القتال جثينا للصلاة بقلوب طاهرة خاشعة ، وطلبنا المدد من السماء ، وقابلت طليعتنا قوات الأعداء فردا فردا ، وقتل عدد منهم بالحال ، ولم نفقد غير أربعة من رجالنا .

وبعدما توقف القتال تشاورنا حول الأمر ، فصدرت الاوامر بنقل معسكرنا الى اقرب موقع من العدو ، ولم نرغب في ان نبدو خائفين ان نحن تخلينا عن الموقع وكأننا في وضع فرار ، لهذا تظاهرننا بشيء ، بينما اتجهت افكارنا نحو شيء آخر ، وتصنعنا الشجاعة مع

اننا خشينا من الموت ، وصعب علينا التراجع لكن التقدم كان أشد صعوبة ، فقد حاصرنا العدو من كل جانب ، وكان هناك من طرف أول جماعات اتت في القوارب وخرجت من البحر ، ومن الجانب الآخر كان الآخرون ينقضون مهاجمين بدون توقف من الجروف الجبلية والشمعاب ، وهكذا مر بنا يوم شديد البؤس حقا ، والصدق أقول : إنني تمنيت من كل قلبي لو كنت في تشارترز أو في أوريلنز ، وكذلك تمنى البقية ، وقضينا تلك الليلة دون نوم خارج خيامنا وقد فترت عزيمتنا .

وفي الفجر عندما شرعت الشمس تجلو الظلمة عن وجه الأرض وبعدها تداولنا في أن نتراجع أو نموت ، قررنا جمع خيامنا ، والذكوص على أعقابنا والعودة من حيث أتينا ، وهنا حمل بعض رجالنا الموكلين بالأممعة ماوجد معنا على ظهور الدواب ليتقدمونا بالمسير ، وفي الوقت نفسه تخلف فرساننا لمقاومة المسلمين المهاجمين .

ومع نور الصباح ، عندما تبين للأتراك - حلت بهم اللعنة - أننا أخذنا بالتراجع هبطوا على الفور من المرتفعات وشرعوا يطاردوننا ونحن لاندري كيف نفعل ، فقادونا الى داخل الممر الضيق ، كما تقاد قطعان الماشية ، وكما سبق ووصفت جاء بعضهم في القوارب من البحر ، وانقض بعضهم الآخر من خلفنا على الطريق ، كما كان هناك بعضا آخر جاءوا من التلال والجبال حولنا فرسانا ورجالة ، وأرادوا أن يفصلوننا عن موقع منبسط عند مخرج الممر ، حيث اشتد ضيقه بين البحر والجرف واستهدفوا إيقافنا وقتلنا ولكن الأمور لم تسر حسبما رغبوا ، فقد صمد رجالنا حيث كان يقول ، أحدهم للآخر : اذا ما تمكنا من إيقاف مطارديننا عند ذلك الموقع المنبسط ، فلعلنا - بعون الرب - نستطيع الحملة عليهم ، فاذا ماقاتلنا وقتها بضراوة يمكننا الانفصال عنهم والمضي في سبيلنا .

الاستبسال بالقتال ضد الأتراك :

وكان الأتراك في تلك الآونة يقفزون من القوارب حيث قتلوا الذين سولت لهم أنفسهم الاقتراب من البحر ، ثم اندفعوا نحونا في الموقع المنبسط المشار اليه ، واخذوا يرموننا بالنشاب ويقذفوننا بالسباب من كل جانب ، وكانوا يصرخون وينبجون كالكلاب أو كالذئاب ، ويتقدمون نحونا وسيوفهم مشرعة .

« فلا استطاع سليمان الحكيم ولا شمشون الجبار أن ينتصرا » . ولكن عندما أطل رب القوة والرحمة الواسعة من سمائه على الأرض ورأى خضوعنا ، وشهد المحنة الكبرى التي المت بنا بسبب محبته وفي سبيل طاعته ، عند ذلك تحركت رحمته السرمدية ، التي ينجد بها قومه دوما بكل حق ، فمنح رجالنا أرفع درجات الشجاعة فانعطفوا نحو أعدائهم ، وهزموهم وأرغموهم على الفرار في طريق ذي شعب ثلاث ، ولم يتوقف هؤلاء أبدا ولم يفكروا بالدفاع عن أنفسهم - ولقد فر بعضهم الى الشعاب الجبلية الوعرة وبعضهم الآخر الى ملاجئ يأمنون فيها - في حين طاردنا بعضهم ونجدناهم بحد السيف ، ولقد كنت ترى بعضهم وقد اندفعوا مهرولين باتجاه قواربهم ، ليركبوا مراكبهم وكأننا كنا على وشك ان نتخطفهم بأيدينا ، وهرب آخرون لايلون على شيء وذلك بتسلقهم الشعاب والتلال .

ثم عدنا الى رجالنا الذين كانوا يحرسون دواب الحمولة على الطريق ، ونحن نشعر بنشوة الظفر ، وبالغبطة لنيل هذا النصر المبين ، وقدمنا ساعتئذ عظيم شكرنا للرب ، الذي منحنا تأييده العظيم في تلك المحنة الوافدة المليئة بالمخاطر .

ما أعجب تدابير الرب ، كم هي رائعة وجديرة بالتذكر ، فبعدما

كما منهزمين عدونا منتصرين ، وفي الحقيقة لم نكن نحن من انتصر بنفوسنا ، وكيف لنا أن ننتصر؟ أن الذي انتصر هو الرب وحده ، خالق الكل ، شامل القدرة ، الذي امد مخلوقاته بعونه ورحمته ومعنا ما قاله الرب لبني اسرائيل بوساطة الانبياء : « اذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها يطرد خمسة منكم مائة ، ومائة منكم يطردون ربوة ، ويسقط اعداؤكم امامكم بالسيف ، والتفت اليكم واثمركم واكثركم ، وافي بميثاقي معكم » (لاويون: ٢٢٦ ، ٩/٨) ، وحيث أننا تحملنا الكثير من العذاب في خدمته ليلا ونهارا ، كسرنا باعجوبة الأعداء ، ولأننا تعبدناه في محنتنا بقلوب خاشعة نظر بعين الرضا لتذلنا .

ثم صدرت الأوامر بنصب الخيام ، وعرض أمام اللورد بلدوين سادة الاتسراك الذين أسروا وعرضت معهم أسلحة القتلى ، واستولينا على خيول بسروج مذهبة ، وفي صباح اليوم التالي ، تدبرنا أمورنا كما لو كنا نطبق خطة مدبرة ، فسرنا مقدار أربعة أميال على الطريق ، وبعدما وزع الأمراء الغنائم هناك استرحنا تلك الليلة في ظل أشجار الزيتون داخل أجمة قرب قلعة مهجورة .

واصطحب بلدوين في صباح اليوم التالي بعض الفرسان ، وتوجه بشجاعته المألوفة نحو الممر الضيق الذي اتينا على ذكره واستهدف معرفة فيما اذا كان المسلمون الذين اغلقوا طريقنا فيما مضى قد ظلوا هناك ، وعندما لم يجد منهم أحدا ، ذلك أنهم لانوا بالفرار بعدما سمعوا بما حدث من الهزيمة والتمزيق ، جثا شاكرًا للرب وحامدا ، ثم امر بإشعال نار عظيمة على رأس الجبل ، وكانت تلكشارة لمن تخلف من أهل معسكرنا بغية المبادرة للحاق بمن تقدمهم ، ولما رأينا النار ، شكرنا الرب ، وبادرنا إلى اللحاق. ووجدنا الطريق سالكة مفتوحة لنا ، فأكملنا الرحلة حسبما ارتضينا .

واقمنا معسكرنا قرب بيروت لتمضية الليلة ، وعندما عرف صاحب تلك المدينة بأمر وجودنا ، أرسل بقوارب مليئة بالأطعمة الى اللورد بلدوين يوميا ، وكانت هذه البادرة لاتدل على حسن النية ، ولكن كان مصدرها الخوف ، ولم يكن أبدا المحبة . وفعل الشيء نفسه حكام المدن الأخرى التي مررنا بها مثل صور وصيدا وعكا ، فلقد تظاهروا بالمودّة غير أن قلوبهم كانت خلوة منها .

وكان تانكرد يحكم مدينة حيفا التي استولى عليها رجالنا وهم في طريقهم الى القدس ، عند بداية هذا العام ، بيد أننا لم ندخل اليها لأن تانكرد كان معاديا لبلدوين ، ولم يكن تانكرد في حيفا غير أن أتباعه من سكان المدينة باعونا الخبز والنبيد خارج المدينة ، ذلك أنهم راوا فينا أصدقاء لهم رغبوا في مقابلتهم .

ومررنا بقرية فلسطين وبقلعة ارسوف الحصينة ، التي ظننا لجهلنا أنها أسدود غير أن أسدود كانت واحدة من خمس مدن فلسطينية (صموئيل : ١٧/٦) ، وهي تقع بين يافا وعسقلان ، وقد تدهورت أحوالها الآن واضمحلت فهي أشبه بقرية .

وبعدما مررنا بأرسوف وصلنا أخيرا الى مدينة يافا البحرية ، وهي في منطقة دان ، وفي تلك الأثناء رحب الفرنجة ببلدوين هناك واستقبلوه ملكا لهم ، ولم نتأخر هناك بل خففنا الخطى الى القدس ، وعندما شارفنا الوصول الى المدينة جاء السكان جميعا للترحيب ببلدوين ، وحضر رجال الأكليروس والأغريق والسريان بصلبانهم وشموعهم ، وصاحبوا موكبه الى كنيسة القيامة بكل أكبار وفرحة ، يرددون تراتيل الحمد للرب بأصوات شجية رنانة .

وتخلف عن الحضور والمشاركة البطريرك ديمبرت ، لأنه كان

- ٢٧٩٣ -

موضع ريبة من قبل رجال بلدوين ، الأمر الذي قاد الى سوء العلاقات بينهما ، وقد شعر غالبية رجال الأكليروس بمشاعر البغض لديمبرت ، لذلك أقام في جبل صهيون ، محروما من ممارسة وظائفه وظل هناك حتى كفر عن خطايا الجسد الذي امتلكه .

وبعدما استرحنا عدة أيام وتخلصنا من متاعبنا ونلنا نصيبنا من الاستجمام مدة ستة أيام في القدس وهذا ما كنا بأمرس الحاجة اليه ، وبعدما صرف الملك بعض شؤونه أجرينا الاعدادات للتوجه في حملة جديدة ، واسمحوا لي الآن أن أنكر شيئا عن طبائع بني البشر ، فعندي إنه يتحتم على كل من لديه أعداء أن يضيق الخناق عليهم من جميع الجوانب وأن يتشدد معهم بلا هوادة أو توقف حتى يقهروهم إما باضعافهم بالقتال أو يجبرهم بالقوة على طلب السلام .

حملة بلدوين على منطقة عربية :

ولهذا بادر بلدوين بالرحيل نحو عسقلان ، وكان على رأس رجاله عندما اجتاز أسودد القسائمة على الطريق بين يافا وعسقلان ، وهي إحدى المدن الفلسطينية الخمس ، وكانت الجامزية على يميننا على مقربة من بينا الواقعة على البحر ، وعندما اقتربنا من عسقلان خرج بعض أهلها الى قتالنا فصددناهم بكل شدة وردناهم الى خلف الأسوار ، وعندما وجدنا أن لافائدة لنا من متابعة التقدم هنا رجعنا الى معسكرنا ، ونزلنا في خيمنا التي نصبت فيه .

ثم استأنفنا زحفنا في اليوم التالي داخل تلك الديار حيث عثرنا على الاطعمة الكافية لنا ولدوابنا وكانت مناطق مزدهرة ، ولقد دمرنا بلاد الأعداء ، وتابعنا تقدمنا فوجدنا الكثير من القرى وقد

هجرها أهلها من المسلمين واصططحبوا معهم دوابهم و
مقتنياتهم ، ولجأوا الى الكهوف خوفا منا ، وعندما تعذر علينا
اخراجهم منها اشعلنا النيران امام مداخل الكهوف ، وسرعان
ماخرجوا منها بسبب الدخان المنبعث من النيران الواحد إثر
الآخر .

وكان بينهم لصصوص اعتادوا على الكمين بين الرملة والقدس
وقتل المسيحيين ، وعندما أخبرنا بعض المسيحيين السريان الذين
وجدناهم معهم عن هؤلاء الأشقياء ، قطعنا رؤوسهم فور خروجهم
من المغائر ، وحافظنا على حياة هؤلاء السريان وزوجاتهم ، وفي
الواقع قتلنا مائة من المسلمين .

وبعدما اكلنا كل ماوجدناه هناك من قمح ومواشي والتهمناه ، ثم
بعدما لم نجد ماينتفع به واكلنا اكثر اجتمعنا مع بعض السكان
المحليين الذين كانوا مسلمين من قبل ، غير انهم اعتنقوا الآن
المسيحية ، واستوضحنا منهم مايعرفونه عن الاراضي الخصبة
والصحراء في الاحواز القريبة والبعيدة ، ثم قررنا الذهاب الى بلاد
وادي عربة ، فاجتزنا المنطقة الهضبية قرب مدائن الانبياء ابراهيم
واسحق ويعقوب ، ثم سارة ورفقة ، حيث رقدت اجداثهم بكل
جلال ، ثم وصلنا الى واد يبعد قرابة اربعة عشر ميلا من مدينة
القدس ، فهاهنا دمرت بحكم الرب مدينتنا سدوم وعمورة الخبيثتان
(تكوين : ١٩/٢٤ - ٢٥) .

البحر الميت :

وهناك بحيرة كبرى ، تعرف باسم البحر الميت لانها لاتحتوي
على اي شيء حي ، وهي تمتد خمسمائة وثمانين استادا طولا ومائة
وخمسين عرضا ، وهي شديدة الملوحة حتى انه لايسطيع حيوان

ولا طير من أي نوع أن يشرب منها ، وقد عرفت أنا فولتشر هذا من التجربة ، وعندما ترجلت عن ظهر بغلي ، وتناولت غرفة من الماء بيدي لأجربه بالمذاق ، فوجدته أشد مرارة من الصبر الأسود ، وتلقى هذه البحيرة الماء من نهر الأردن في الشمال ، وليس لها مخرج في الجنوب ، ولا ينبع فيها أي نهر ، وهناك على مقربة منها جبل عظيم وشاهق من الملح ، يشبه صخرة طبيعية من الملح ، مع أنه يشبه الجليد في بعض أجزائه ، وفضلاً عن ذلك أن الإنسان لا يستطيع الغوص في ماء هذه البحيرة حتى لو حاول ذلك ، وأحسب أن شدة ملوحة هذه البحيرة مردها إلى سببين : فهي أولاً مستودع ملح الجبل تغسله أمواج الشاطئ بلا انقطاع ، وثانيها لأنها تتلقى مياه الأمطار النازلة من هذا الجبل ، أو لعل قعر البحيرة سحيق إلى درجة أن البحر العظيم - وهو مالح - يجري تحت الأرض إلى هذه البحيرة بشكل غير منظور .

وسرنا على طول الطرف الجنوبي حول البحيرة ، فوجدنا قرية (سيفور) طيبة الموقع ، غنية بثمار النخيل ، التي يدعونها الرطب ، وقد أكلنا منها طوال النهار ، واستمتعنا بطعمها اللذيذ ، ولم نجد هناك شيئاً آخر ، وكان سكان المنطقة من المسلمين قد هربوا لدى سماعهم الأقاويل عن قرب وصولنا ، ولم يبق إلا الذين فاقوا الهباب سواداً ، فتركناهم هناك ، وعاملناهم بازدياد كما لو كانوا من عشب البحر .

وقد رأيت بعض الأشجار التي تحمل ثمرها (تفاح البحر الميت) وجمعت بعضها بهدف معرفة ماهيتها ، وبعدما انتزعت قشرتها ، رأيت مسحوقاً أسود بداخلها ، وقد تصاعد منها دخان .

ثم دخلنا إلى جبال بلاد عربية ، وأمضينا الليلة في كهوف

هناك ، وعندما تسلقنا الجبال في صباح اليوم التالي ، وجدنا على الفور عدة قرى ، غير انها كانت خاوية على عروشها ، ليس فيها مايفيد أو ينفع لأن اهلها كانوا قد هجروها لدى سماعهم بقدومنا ، واختبأوا مع مقتنياتهم في مغائر في جوف الأرض هناك ، ولهذا لم نحصل هنا على أي فوائد ترجى .

وتابعنا سفرنا بدون تأخر نحو مناطق أخرى وسارت طلائعنا امامنا على الدوام ، ثم وقفنا على واد غني بثمرات الأرض ، انه الوادي نفسه الذي ضرب فيه النبي موسى ، بإيحاء من الرب ، الصخرة مـررتين ، ففـاض منها ماء الحياة (العدد : ١١/٢) ويتدفق هذا النبع بغزارة لاتقل الآن عن ذلك الزمان حتى أن اصحاب الارحية في تلك البلاد يستعينون بتيار ماء النبع للطحن ، ولقد سقيت دوابي من هذا النبع .

ثم وجدنا على رأس الجبل مقام النبي هارون ، حيث كلم موسى وهارون الله (العدد : ٧ / ٢٠ - ١٢/٨ / ٢٦/٢٣) وقد اثلج صدورنا وافرحنا كثيرا مشاهدة مكان على هذه الدرجة من القداسة لم يكن معروف لدينا ، ولم نرغب في التقدم اكثر في مسيرتنا لأن تلك الأراضي كان صحراء جرداء .

وامضينا ثلاثة ايام في ذلك الوادي الغني بكل شيء ، امضيناها في متعة وراحة وغذينا دوابنا بالأطعمة ، وبعدما حملناها بما يلزمنا من مؤن ، صبحت أبواب الملك في الساعة الثانية من اليوم الرابع ايزانا ببداية رحلة العودة .

وسرنا في طريق العودة مثلما اتينا على مقربة من بحيرة اسفلت ، ومررنا بقبور الانبياء الذين اتينا على ذكرهم ، ثم مررنا ببית لحم والمكان الذي ترقد فيه راحيل ، ووصلنا الى القدس بسلام في يوم الانقلاب الشتوي ، عندما كان قد تم اعداد صولجان يليق

بتتويج الملك ، وتم التصالح بين ديمبرت واللورد بلدوين وسماد الونام بينهما وبين عدة من رجال الأكليروس في كنيسة القيامة ، ذلك ان رجالا من أصحاب الحكمة سعوا في سبيل المصالحة وبذلك زالت اسباب الخصام وانتهى .

تتويج الملك بلدوين وصغر حجم مملكته :

في العام ١١.١ لتجسيد الرب ، وفي يوم الاحتفال بميلاده جرى تتويج بلدوين ورسمه ملكا ، وذلك من قبل البطريرك المذكور وبحضور الاساقفة ورجال الأكليروس، والناس في كنيسة مريم المباركة في بيت لحم ، ولم يجر هذا لأخيه الذي تقدمه ، لأن غودفري لم يرغب بذلك ، وكثير من الناس لم يحبذوا ذلك ، لكن بعد التبصر في الأمر والامعان وتقليب الآراء تمت الموافقة على ضرورة ذلك .

لقد قالوا : ماهو وجه الاعتراض ، أولم يعامل مولانا المسيح بالاسماء والمهانة مثل اي مجرم ثم توج بتاج من الشوك في القدس ، وأعطى روحه طوعا للموت في سبيلنا ، غير ان تاجه لم يكن في أعين اليهود رمزا للعزة الملكية والشرف بل للخزي والعار ، بيد أن ما فعله هؤلاء القتل كإهانة له تحول ببركة الرب الى خلاص لنا ومجد . ثم ان الملك لا يصبح ملكا بغير ارادة الرب ، واذا ما جرى اختياره بالطرق الصحيحة ، ووفق ارادة الرب فإنه يقدس ويرسم بالبركة والشرعية ، وكل من يحظى بالسلطة الملكية والتاج الذهبي ، يأخذ على عاتقه انذ الواجب المقدس بإقامة العدل ، ويندرج عليه وعلى الأسقف في رعيته القول التالي : « على من يطلب الحكم أن يرغب في أداء العمل الصالح ، لأنه اذا لم يحكم بالعدل لن يكون ملكا حقيقيا »

وملك بلدوين في بداية عهده بضعة بلدان وقليل من الناس

فقط ، وقد دافع خلال ذلك الشتاء عن مملكته ضد الأعداء من كل صوب بكل بسالة ، وعندما تيقنوا من مهارته الفائقة في القتال ، على الرغم من قلة تعداد رجاله ، لم يقدموا على مهاجمته ، ولو تيسر له عدد أكبر من المقاتلين لواجه الأعداء بكل سرور .

وفي تلك الأثناء كانت الطريق البرية مغلقة في وجه حجاجنا ، ولم يكن قد تيسر فتحها بعد ، وقدم الحجاج في تلك الآونة من فرنسا وانكلترا وإيطاليا والبنديقية عبر البحر إلى يافا ، التي لم تمتلك مرسى غيرها ، وجاء هؤلاء الحجاج بكل وجل ورهبة ، على ظهر سفن وصلت فرادى أو في مجموعات تألفت من ثلاث سفن أو أربعة ، كانت تشق طريقها وسط عدد كثيف من القراصنة المعادين في جميع الموانئ الإسلامية ، وكان الرب يرشدهم ويدلهم على الطريق .

وعندما رأيناهم قد وصلوا من بلداننا في الغرب ، استقبلناهم على الفور بكل ترحاب كما لو أنهم من القديسين وسألهم كل واحد منا عن بلاده والاه وأحبائه ، ولكم سررنا لسماع الأخبار الطيبة وحزنا لسماع أخبار المصائب، ثم قدموا إلى القدس ، وزاروا قدس الأقداس ، وكان هذا مرادهم .

وبعد ذلك بقي بعضهم في الأراضي المقدسة ، بينما عاد الآخرون إلى ديارهم ، ولهذا بقيت الأراضي المقدسة خلوة من السكان ، ولم يوجد فيها ما يكفي من الناس للدفاع عنها لو أن المسلمين أقدموا على مهاجمتنا .

ويتساءل المرء لماذا لم يقدموا ، لماذا خشيت جميع هذه الأمم وهذه الممالك من مهاجمة مملكة صغيرة وشعب قليل العدد ، ثم لماذا لم يحشدوا من مصر ومن فارس والجزيرة والعراق وسورية مائة

ضعف ، أي مائة ألف مقاتل ليزحفوا علينا بشجاعة مادمنا نحن أعداؤهم لماذا لم يدمرونا ويلتهمونا مثل جراد يفوق الحصر هجم على حقل صغير ، وبذلك يمحوون ذكرنا من على وجه هذه الأرض التي كانت ملكنا منذ الأزل ؟ ذلك أننا لم نمتلك في ذلك الوقت أكثر من ثلاثمائة فارس ومثلهم من الرجال للدفاع عن القدس ويافا والرملة ومدينة حيفا الحصينة ، ولم تكن آنذاك نجروا على جميع فرساننا جميعا إذا مارغبنا بحملة ضد عدونا ، خشية من أن يهجم في تلك الأثناء على بعض قلاعنا المهجورة .

إنها حقا لمعجزة عجائبية واضحة لكل من يبصر فلقد عشنا وسط الاف مؤلفة من الأعداء وقهرناهم وجعلنا بعضهم أتباعا لنا ودمرنا غيرهم نهبا واسرا ، فمن أين جاءت هذه المزية ، ومن أين صدرت هذه القوة ؟ حقا إنها من عند الرب الواسع المقدرة ، الذي التفت نحو قومه الذين جاهدوا من أجل اسمه ، وأعان برحمته الذين اتكلوا عليه أثناء محنتهم ، وقد وعد الرب أن يجزي بالمجد السرمدي في الحياة الآتية من يسعدهم بالقليل من متاع الدنيا .

ما أجدر ذلك الوقت بالذكرى ، لقد استببت بنا الأحزان مرارا ، عندما لم نستطع الحصول على العون من أصدقائنا عبر البحار ، وكنا نخشى أن يعرف العدو بقلّة عددنا فينقض علينا دفعة واحدة من جميع الجهات بهجوم مفاجيء ، ذلك أنه لم يكن هناك من يمد لنا يد العون غير الرب ، ولم تكن بحاجة إلى شيء إذا ماتوفر لنا الرجال والخيول ، ولم يتمكن الرجال الذين قدموا إلى القدس بحرا أن يصطحبوا خيولهم ، ولم يأت أحد عن طريق البر ، ولم يتمكن أهل انطاكية من مد يد العون لنا ، كما لم نستطع أنفسنا أن نفعل الشيء نفسه إليهم

استدعاء تانكرد إلى انطاكية

وفي شهر آذار سلم تانكرد إلى الملك بلدوين حيفا وطبرية التي كان قد تملكها ، وتوجه إلى انطاكية ، فقد كان أهل انطاكية قد أرسلوا الرسل إليه يقولون : ، لانتأخر بل تعال إلينا حالا ، لتتولى الحكم علينا ، ولتتملك مدينة انطاكية والبلاد التابعة لها حتى يعود بوهيموند مولانا ومولاك من الأسر ، فأنت من آله ، وأنت أيضا بصير بعواقب الأمور خبير بالحروب ، وأنت أقوى منا وأقدر على الدفاع عن هذه البلاد ، وإذا ما عاد الأمير بوهيموند فسنفعل ما يلزم ، ، وعندما قدموا هذا المطلب إليه ، استجاب لهم .

حصار قلعة أرسوف والاستيلاء عليها :

امضى أسطول من السفن الإيطالية والجنوية فصل الشتاء ذاك في ميناء اللانقية ، ومع اطلالة الربيع واعتدال الطقس وغدوه موائما للايجار اقلع رجال هذا الاسطول نحو يافا تدفعهم ريح طيبة ، وفي ميناء يافا استقبلهم الملك بكل حفاوة ، ولأقتراب عيد الفصح ولاعتياد كل من استطاع الاحتفال بهذه المناسبة ، أرسوا سفنهم وتوجهوا إلى القدس بصحبة الملك .

وعندما لم تظهر النار المقدسة في كنيسة القيامة أثناء الاحتفال بسبت النور ، أصيب الجميع بحزن كبير ، ثم تقرر أنه مادام أهل جنوى يقيمون في الأراضي المقدسة حبا بالسرب ، إذا ما استولوا بمساعدة الملك وموافقة - على أي مدينة شرقية ، فلهم ثلث ما يتم الحصول عليه من الأعداء من المال خالصا لهم ، وللملك الثلثين الآخرين ، كما ويحق لأهل جنوى أن يملكوا إلى الأبد ، وبشكل شرعي وموروث حيا في أي مدينة يتم الاستيلاء عليها بهذه الطريقة و بعدما أقسم الجميع على ذلك و اتفقوا عليه ، شرعوا على الفور في

- ٢٨٠١ -

محاصرة المدينة التي تدعى أرسوف ، بحرا وبرا ، وعندما أدرك السكان من المسلمين عجزهم عن الدفاع عن أنفسهم ضد المسيحيين تفاوضوا بحنكة مع الملك واستسلموا له في اليوم الثالث ، ثم غادروا المدينة مصطحبين معهم كامل أموالهم ، وأعطى الملك الآن بالسفر بأمان للذين غادروا إلى عسقلان مكسوري خاطر .

ثم قدمنا الشكر للرب بحبور ، لأننا تمكنا من الاستيلاء على هذا الموقع الحصين بدون خسائر بالأرواح ، فقد كانت مصدر خطر عظيم علينا ، وكانت هذه الأماكن المنيعه التي شيدها النبي سليمان مصدر خوف شديد بالنسبة لنا ، حيث أن اللورد غودفري كان قد حاصرها قبل سنة ، ولم يستطع الاستيلاء عليها ، وقد قتل أهلها عددا كبيرا من قومنا ، وسببوا لنا المزيد من التعاسة والالام .

واشتبك الفرنجة اثناء الحصار مع المدافعين عن المدينة بالأيدي ، وتمكنوا من الاستيلاء على عدد من الشرافات في اعلى السور ، ومدوا جسرا خشبيا على برج من الخارج إليها ، لكن سوء الطالع شاء أن ينهار البرج والجسر ، ويتحطما بسبب الأعداد الكبيرة من الرجال الذين تسلقوهما ، ونتيجة لهذا أصيب نحو من مائة من الفرنجة بجراح شديدة واحتفظ المسلمون بعدد من الفرنجة أسرى لديهم هناك ، وصلبوهم على مشهد من الجميع ورموهم بالنشاب ، كذلك قتلوا آخرين منهم لكنهم احتفظوا ببعضهم أحياء في أسر تعيس .

وصف الاستيلاء على قيسارية :

بعدما وضع الملك حامية مناسبة في أرسوف حسبما اقتضت الحاجة ، زحف ضد قيسارية فلسطين وألقى الحصار عليها ، غير انه عجز عن الاستيلاء عليها فورا لمناعة أسوارها ، فأمر بصنع

بعض المجانيق مع برج مرتفع جدا ، شيد من صواري السفن ومجاديفها ، ويخيل إلي أن البرج كان ارتفاعه يزيد على عشرين ذراعا فوق السور ، وذلك بعدما فرغ النجارون من بنائه ، وكان الهدف من ذلك تمكين جنودنا من قذف العدو بالحجارة والسهم ، طبعاً بعد الصاقه بالأسوار ، وأذاك إذا ما استطاع رجالنا اقضاء المسلمين عن السور بهذه الوسيلة ، فليسوف يتمكنون من الدخول إلى المدينة والاستيلاء عليها .

وشدد الفرنجة الحصار على قيسارية وداوموا الهجوم عليها لمدة خمسة عشر يوما ، تمكنوا خلالها من تدمير بعض مواقع الدفاع العالية من السور ، وذلك بفضل مجانيقهم ، وهنا غلب عليهم الحماس الديني ، ولم يملكو الصبر للانتظار أكثر مما انتظروا ، وفي يوم الجمعة استطاعوا اقتحام المدينة بدروعهم ورماحهم ، ولم يحتاجوا إلى استخدام البرج الخشبي الذي شيده .

وقاتل المسلمون دفاعاً عن أنفسهم بكل ما أوتوا من شجاعة ومقدرة ، وشجعوا بعضهم بعضاً على المقاتلة والصبر ، غير أن الفرنجة وربهم يسوع ، بادروا إلى نصب السلالم التي أعدها لهذا الغرض وتسلقوا إلى أعالي السور ، ثم أعملوا سيوفهم قتلاً في كل من صدقوه في طريقهم ، وعندما شهد المسلمون شجاعة رجالنا وإقدامهم ، وبعدما أيقنوا أن مدينتهم قد سقطت ، هربوا باتجاه الأماكن التي خيل إليهم أن حياتهم ستطول بها أكثر ولو قليلاً ، ولكن عبثاً فعلوا فقد أتلفناهم وسقيناهم كأس المنون الجديدة بهم .

ولم نستبق إلا على عدد ضئيل من الذكور ، لكننا احتفظنا بكثير من النساء ، حيث من الممكن الافادة منهن ، على الأقل في تحريك الطواحين ، وجرى بيع الأسرى من النساء بين الفرنجة الجميلات منهن والقبيلات ، وكذلك فعل بالذكور أيضاً .

وحافظ الملك على حياة حاكم المدينة وحياة اسقفها الذي دعاه المسلمون باسم القاضي ، وقد قام بذلك رغبة منه بالحصول على الفدية ، وليس بدافع الشفقة أو المحبة ، وأنا عاجز عن وصف كمية الذخائر من مختلف الأنواع والمقتنيات التي وجدناها في المدينة ، ولعله يكفي للبيان أن عددا كبيرا من رجالنا صاروا أغنياء بعد الفقر .

وشهدت عددا كبيرا من جثث المسلمين الذين قتلوا هناك ، وقد جمعنا في كومة كبيرة وأضرمت فيها النيران ، وقد ضايقتنا كثيرا روائح الجثث المهترئة ، وتم حرق هذه الجثث التعيسة للحصول على الدنانير التي ابتلعها أصحابها أو خبأها بعضهم في أفواههم تحت لثتهم حتى لا يستولي الفرنجة على ما هو حق لهم ، وقد حدث مرة أنه عندما كان واحد من رجالنا يضرب بقبضته أعناق بعض المسلمين سقط من أفواههم مائة مائة العشرة دنانير إلى الستة عشر دينارا ذهبيا ، وأخفى بعض الذسوة الدنانير الذهبية دون حياء داخل أحشائهم بطريقة بشعة يمنعني الحياء من ذكرها .

في عام ألف ومائة وواحد
استولينا على قيسارية بتسليق السلالم
استولينا على برج ستراتون حسبما عرفت المدينة .

انتخاب أسقف لقيسارية :

بعدما فعلنا نحن وأهل جنوى كل مارق لنفوسنا في قيسارية ، واستولينا على كل ما وجدناه فيها ، رسمنا فيها أسقفا اخترناه معا ، ثم خلفنا حامية صغيرة من عدة رجال لحراسة المدينة ، وبادرنا بالعودة إلى الرملة ، وعلى مقربة من اللاد توقفنا لمدة أربع وعشرين ساعة توقعنا خلالها أن يهاجمنا رجال عسقلان وباب اليون القاهرة الذين كانوا قد احتشدوا لهذه الغاية ، ولم نتجرا

على قتالهم لقلة عدونا ، وخشينا إن نحن قاتلناهم في عسقلان إن يستدرجوننا للدخول بين أسوارها وقلاعها ، حتى إذا ما فعلنا ذلك أبادونا ، ونظروا لأننا كنا على بينة من مكرهم ، تفحصنا أساليب قتالهم حتى وقفنا على خديعتهم ، لكن ما لبثت معنوياتهم أن هبطت خوفاً ، ويؤسوا من الهجوم علينا ، وفقد أكثرهم صبره لطول الانتظار ، ولنقص المؤن ، فكان أن فروا من المعسكر ، ولما علمنا بذلك ، عدنا إلى يافا شاكرين للرب على نجاتنا من هجومهم .

قتال شديد بين الأتراك والمسيحيين - انتصار المسيحيين :

وبعد انتظار طال سبعين يوماً كنا خلالها نرقب حركات العدو ونستمع إلى أخباره ، بلغت الأخبار إلى الملك أن الأعداء بدأوا بالتحرك نحونا بنوايا شريرة ، وأنهم أعبوا العدة للهجوم ، ومما أن سمع الملك بهذا حتى جمع قواته فوراً من القدس وطبرية وقيسارية وحيفا ، ولحاجتنا الماسة إلى الفرسان أمر الملك كل من استطاع من حملة الترسة أن يكونوا فرساناً ، وهكذا بات عدد فرساننا قرابة المائتين وستين فارساً ، ورجالتنا نحو تسعمائة ، علماً بأنه توجب علينا منازلة أحد عشر ألف فارس ، ونحو من واحد وعشرين ألفاً من الرجال ، ولقد كنا على بينة من هذا كله ، ولكن لأننا أمنا أن الرب كان معنا ، لم نخف من الزحف ضدهم ، فنحن لم نثق بأسلحتنا ولا بأعدادنا بل وضعنا ثقتنا كلها في مولانا وربنا ، وهكذا كانت شجاعتنا هائلة ، غير أنها لم تكن أقدام طائش بل إيمان ومحبة ، وقمنا بكل همة وشجاعة بالاستعداد لنموت في سبيل الرب الذي رضي أن يموت من أجلنا .

شعر :

واندفعنا بكل شجاعة مستعدين للقتال او الموت

وحمل الملك خشبة صليب الصليبوت ، مما اوقع الطمأنينة في نفوسنا ، وتركنا يافا في أحد الايام ، وفي اليوم التالي حاربنا الأعداء ، وعندما زحفنا نحوهم كانوا بدورهم قد اقتربوا منا دون أن ندرك ذلك ، ولدى مشاهدتنا لطلائعهم وقد اقتربت من مواقعنا أدركنا أن بقيتهم لاحقة بهم ، وهنا تقدم الملك وحوله بعض رجاله إلى الأمام ، فشاهد عن بعد معسكرهم العملاق يشع في السهل ، فلكرز فرسه وعاد إلينا إلى الخلف ليخبرنا بصورة مراه .

وعندما عرفنا أن القتال لابد واقع ، بدأنا نهل فرحا فقد كنا نتلهف للمعركة ، وعزمنا أن نهجم على العدو إن هو لم يتقدم نحونا ، فقد كان من المناسب لنا القتال في المنبسط ، ثم إن أعداءنا إذا ما هزموا - بعون الرب - فسيطول فرارهم ، ولسوف تلحق بهم خسائر أشد فداحة مما لو قاتلناهم قرب أسوارهم ، وأمرنا الملك بإعداد أسلحتنا ، ثم اصطفينا بالشكل الموائم للمعركة ، وتوكلنا على الرب ثم سقنا خيولنا نريد العدو ، وكان الملك قد اختار واحدا من رعاة أديرة الرهبان لحمل خشبة صليب الصليبوت على مشهد من الجميع .

وهنا خاطب الملك جنوده بجلال وخشوع قائلا : هيا يا جنود المسيح ، افرحوا ولا تخشوا شيئا ، تصرفوا بكل رجولة ، وكونوا شجعانا بالمعركة ، إنني أحثكم على أن تقاتلوا في سبيل خلاص نفوسكم ، وأن تمجدوا حيثما كنتم اسم المسيح الذي بذسه دوما وحقره هؤلاء القوم الفاسدون ، فهم لا يؤمنون بتجسده ولا بصعوده ، وإذا ما واجهتم حتفكم هنا فيقينا ستكونوا من المباركين ، فقد فتحت أبواب مملكة السموات لكم ، وإن أنتم بقيتم

- ٢٨٠٦ -

أحياء وانتصرتهم فلسوف يتسأل اسمكم بالمجد والرفعة بين
المسيحيين جميعا ، وإذا ما رغبتكم بالفرار فتذكروا أن فرنسا تبعد
مسافة نائية جدا عن هذا المكان .

وبعدما اصغى الجميع إليه وافقوه على جميع ما قال .

شعر :

واندفعوا إلى القتال إذ لم يطيقوا الصبر والانتظار

وكان كل منهم يفتش عن يضره بالسيف أو يطرحه أرضا
واغار علينا هؤلاء القوم أهل الخسة من اليمين ومن اليسار ، ومع
أن رجالنا كان تعدادهم قليل ، فقد انقسموا في المعركة إلى ستة
صفوف وانقضوا على فيالق الأعداء وحشوده المتدفقة كما ينقض
الصيادون على تجمعات الطيور ، وهم يصرخون « عونك يا
رب » ولم يعد بمقدور إنسان تمييز أحد من رفاقه أو معرفته لكثرة
تعداد العدو ، ولأن رجاله عاجوا فورا بيننا وماجوا من حولنا .

ولما رأى الملك أن الأعداء قد صدوا أول صفين من صفوفنا
وقهروهما ، استدعى على عجل بعض النجيدات من المؤخرة ، ثم إنه
عندما رأى تدفق قوات العدو وكثرتها وتفوقها انطلق على ظهر
حصانه بأقصى سرعة ممكنة ومعه سريته ، وتصدى لهجوم الكفار
بكل شجاعة ، وزحف قدما يقاتل قوات العدو المتفوقة ويدفعها ،
ورايته البيضاء ترفرف فوق عربته ، وقد أطلقها مرة فاخترقت عربيا
كان مقابلا له ، وظلت الراية في بطن العربي ، بعدما طرح أرضا من
على ظهر حصانه ، ولقد رأيت بلدوين بنفسه وهو يقتلع حربته
ويحملها ليفتك بالآخرين .

وقاتل الطرفان في المواجهة بكل شجاعة ، فبعد مضي ساعة على بدء القتال كنت ترى كثيرا من الخيول وقد فقدت فرسانها من بين الطرفين المتواجهين ، ونظرنا إلى الأرض فإذا هي تدهرت بغطاء كثيف من الدروع والترسة والخناجر والجعب والقسى والنشاب وبالمسلمين والسودان وقد فارقوا الحياة ، أو أصيبوا بجراح مميتة ، وبالفرنجة لكن بأقل عددا .

وكان صليب المخلص المقدس معنا ، جبارا ضد أعداء المسيح ، لم تنجح ضده ببركة الرب كل عنجھية الكفار ، فقد صدع هذا الصليب قلوبهم ، لهذا لم يكتفوا بالتوقف عن الهجوم علينا ، بل بادروا بالهرب وقد لحق بهم الخزي والعار ، وفقط نجا منهم من امتطى فرسا سريعا .

ومن المضمني تعداد الترسة والمقذوفات والقسى والسهم التي القى بها الهاربون أثناء فرارهم ، ويستحيل على المرء تعداد جثث القتلى المطروحة هناك حتى لو أراد ذلك ، ويحكى أن خمسة آلاف من فرسانهم ورجالتهم لاقوا حتفهم هناك ، حتى ليقال إن قائد الجيش المصري الذي قاد القتال قد قتل مع الآخرين ، وفقدنا نحن ثمانين فارسا وأكثر من ذلك من الرجال ، وقد تصرف الملك في ذلك اليوم بمنتهى البسالة ، وكان أعظم مصدر بعث الطمأنينة في نفوسنا ، واتضح مصير المعركة بسرعة ، ولذا الأعداء فورا بالفرار ، وطاردناهم بدون توقف .

كيف هلك المسيحيون هناك:

أيتها الحرب ما ابغضك بالنسبة للأبرياء وكم أنت مرعبة للمشاهدين ، الحرب قبيحة حتى وإن وصفها بعض الشعراء بالجمال ، لقد شهدت القتال ، وكنت أن أصاب بالدوار ، وخشيت

ان اصاب بضربة ، واندفع الجميع إلى القتال كما لو انهم لم يخافوا الموت ، وتقع الكوارث المنيعه حيث تنعدم المحبة ، وتعالى الضجيج يصم الأذان من تبادل الضربات والطعنات : سدد رجل ضرباته فخر عدوه ميتا ، ولم يعرف أي انسان شفقة ، ولم يطلب عدوه شيئا منها ، فقد امرؤ يدا ، وفقد عدوه عينا ، ويصمب الفكر البشري بالشلل لدى رؤية هذه التعاسة ، ومع هذا يبعث السرور في نفسي أن أذكر أن جيشنا قد انتصر في المقدمة ، لكنه عانى من الهزيمة في المؤخرة ، فهناك سقط المسيحيون صرعى ، غير أنهم قهروا المسلمين في المقدمة ، وطاردهم حتى أبواب عكا ، بينما ساق بعضهم إلى يافا حيث قتلوا بعض رجالنا ، وهكذا لم يعرف أحد مصير المعركة في ذلك اليوم .

وبعدما خلا ساح المعركة من المسلمين بالقتل والمطاردة اصدر الملك أوامره بأن نقضي ليلتنا في الخيام التي تخطى عنها الهاربون ، فأطعنا أوامره .

في اليوم السابع من أيلول
قاتلنا في هذه المعركة الجديرة بالذكر
حيث اعانت القدرة الربانية الفرنجة

تقلب المصائر في هذه المعركة :

اجتمعنا في اليوم التالي في قسطنط الملك ، وسمعنا قداس ميلاد السيدة مريم البتول ، الذي وافق ذلك اليوم المبارك ، ثم أثقلنا دوابنا بما غنمناه من أعدائنا ، مثل الخبز والقمح والطحين ، وذلك بالاضافة إلى خيامهم ، وبعد ذلك صدحت الأبواق الملكية معطية إشارة العودة إلى يافا .

وعندما عدنا أدراجنا ، اجتزنا بمدينة اسدود ، خامسة مدن

الفلسطينيين وهي الآن مهجورة وتدعى يبنا (كذا) وهناك شاهدا قرابة خمسمائة عربي قادمين نحونا في طريق عودتهم من يافا ، وكان هؤلاء قد شقوا طريقهم نحوها في يوم المعركة ولقد استولوا على كل ما وجدوه خارج المدينة ، ذلك أنهم أمعنوا قتلا برجالتنا في ساقية جيشنا ، وأبادوا نهائيا واحداً من صفوف ميمنتنا ، وخيل إليهم أن مقدمتنا قد قضى عليها كالساقية ، وانتزعوا الدروع والرماح والخوذ اللامعة من القتلى وزينوا أنفسهم بها بكل غطرسة ، وساقوا بسرعة إلى يافا بغية عرض أسلحتنا على رجال المدينة قائلين : إن الملك ورجاله قد أبعدوا عن بكرة أبيهم في المعركة .

ولدى سماع الذين تخلفوا بيافا للحراسة هذه الأنباء ارتبكوا وعظم خوفهم ، وصدقوا كلام العرب الذي حمل دلالات الصدق ، وخيل للعرب أن أهل المدينة المرعوبين سوف يسلمون المدينة إليهم بالحال ، لكن خططهم أخفقت ، وعندما رأوا أنهم لم ينجزوا شيئاً شرعوا بالانسحاب نحو عسقلان .

وعندما رانا العرب متوجهين نحو يافا ، خيل إليهم أننا بعضاً من جماعتهم الذين رغبوا بعدما أبادونا في القتال ، في تعقب بقية المسيحيين القاطنين في يافا ، وقد تحيرنا كيف أنهم أقبلوا نحونا على هذا الشكل ، دون أن يدركوا أننا فرنجة ، وظل الحال هكذا حتى فاجأهم فرساننا فانقضوا عليهم بهجوم صاعق ، وحبذا لو رايت أعداءنا فجأة يفرون ويتبعثرون في كل اتجاه لايلوي الواحد منهم على الآخر ، ومن لم يملك منهم فرساً سريعاً قطعت رأسه في الحال ، غير أن الفرنجة لم يطاردوا العرب لأنهم كانوا منهكين ، هدهم التعب وأصيب العديد منهم بجراح أثناء القتال ، وهكذا هرب هؤلاء ، في حين تابعنا سيرنا نحو يافا مسرورين .

رسالة أهل يافا إلى تانكرد أمير انطاكية :

لك أن تتصور التهليل وصلوات الشكر التي انبعثت من الذين كنا قد خلفنا في يافا ، ساعة رؤيتهم لنا ، من فوق الأسوار ، ونحن عائدون وراياتنا خفاقة ، يقينا إن الحديث عن ذلك ليس بالأمر الهين ، فقد كان اثنان من نقلة الأقاويل غير الصحيحة قد وصلا سريعا إلى يافا الواحد تلو الآخر ، وخدعا أهل المدينة باخبارهم أن الملك ورجاله قد أبيدوا عن بكرة أبيهم ، فصدق هؤلاء ذلك ، وبأيدوا ببعث رسالة موجزة إلى تانكرد الذي كان يحكم في انطاكية آنذاك ، وجاء ذلك بأمر من زوجة بلدوين ، وحمل الرسالة بحار كان على وشك الاقلاع في سفينته .

ونصت الرسالة على التحيات والكلمات التالية :

« تانكرد أيها الرجل اللامع ، والجندي الباسل ، إليك هذه الرسالة الموجزة من أهل يافا ، أي من الملكة وسكان المدينة ، يرسلونها إليك على عجل بواسطتي أنا ، كمندوب رسمي لهم ، أرجو أن تقرأها بتمعن حتى يمكن أن تصدق ما فيها ومن ثم لتصديق أقوالي : يالهل الكارثة ، أصيب ملك القدس الذي اشتبك بالقتال ضد المصريين وأهل عسقلان بهزيمة ساحقة ، ولعله قتل مع رجاله برمتهم في لجة المعركة ، وذلك أن الذين نجوا بشق الأنفس من شؤم تلك النكبة ، وفروا إلى يافا قد أخبرونا بذلك وبتفاصيل ما جرى .

وإنني أذ أرسل بمندوب إليك وأنت الرجل الحكيم طالبة العون ، أتوسل إليك أن تدع كل شيء جانبا ، وأن تبسار بدون تمهل لمد يد المساعدة إلى شعب الرب المتذللين في محنتهم العظمى ، فهم الآن كما أرى قد شارفوا على نهاية حياتهم » .

كان هذا نص الرسالة ، وقد لاذ تانكرد بالصمت للوهلة الاولى لدى

سماعه بما جاء بها ، وما لبث أن امن بصدق ما نقلته إليه ، لهذا
اجهش بالبكاء بكل حرقة ، وشاركه بذلك كل من كان معه لحزنهم
ولشعورهم بالكارثة ، وما لبث أن اعطى تانكرد جوابه لحامل
الرسالة وشرع بالأمر باعداد العدة في كل دياره لتقديم المساعدة ومد
يد العون لأهل القدس :

وعندما بات تانكرد على اهبة الانطلاق نحو القدس ، وصل إليه
رسول آخر ينقل إليه بشكل مفاجيء رسالة يختلف محتواها عن
الرسالة المتقدمة ، وأوصل إليه الرسالة ، ففي حين تحدثت الرسالة
الأولى عن الكارثة ، تحدثت الثانية عن حسن الحظ وعن السعادة ،
وذكرت أن الملك قد عاد سالما معافى إلى يافا ، وأن المسلمين لحقت
بهم هزيمة مروعة بكل تأكيد ، فسر الذين حزنوا من قبل سرورا
عظيما .

إننا لم نهزم الأعداء بكثرة عدد رجالنا ، بل بثقتنا بالمقدرة
الربانية ، فيا لروعة رحمة الرب ، وهكذا عدنا إلى القدس بعدما
نجينا من عدونا ، عدنا ونحن نطلق الشكر والحمد للرب ، ثم
استرحنا مدة ثمانية أشهر بدون حرب حتى حلول فصل الصيف .

حشد جيش مصر ضد الفرنجة :

في منتصف شهر أيار من السنة التالية ١١٠٢ م احتشد أهل بـباب
اليون (القاهرة) حول عسقلان بهدف ابادتنا نحن المسيحيين ،
فقد اندشد هناك نحو عشرين ألف فارس وعشرة آلاف راجل غدا
الجمالة الذين تسلحوا بالعصي والحرا ب ، يضاف إليهم جميعا كثيرا
من البواب والحمير المحملة بالمؤن ، ووصل المصريون في أحد الأيام
إلى الرملة ، واقاموا معسكرهم امامها ، وقد واقفهم خمسون
فارسا كان بلدوين قد تركهم في برج محصن في المدينة بهدف

حراسيتها ، وكان يسكن في ربض البرج بعض الفلاحين السريان ، وقد تحرش المسلمون بهؤلاء السريان المسيحيين ، وتعمدوا مضايقتهم بهدف القضاء عليهم ومن ثم تدمير البرج ، ذلك أنهم لم يتمكنوا من التجول بحرية في السهول هناك بسبب الرجال المدافعين داخل البرج ، وحاولوا مرة أسر أسقف المدينة الذي كان مقيما في كنيسة القديس جرجس مع أتباعه ، وقد طوقوا الكنيسة في أحد الأيام بنية سيئة ، غير أنهم رجعوا إلى الرملة بعدما تيقنوا من مناعة الموقع .

وعندما رأى الأسقف الدخان واللهب يتصاعدان من حقول القمح خاف أن يعود المسلمون ويحاصروه من جديد ، ولكي يدركه المخاطر المستقبلية بعث على الفور رسالة إلى الملك في يافا يطلب منه إمداده بالعمد بدون تأخير ، ذلك أن المصريين كانوا قد عسكروا على مقربة من الرملة ، وبعثوا من هناك بسرية من الجند لتطويق الكنيسة ومهاجمتها .

وما أن سمع الملك بذلك حتى بادر إلى حمل سلاحه وامتطاء فرسه ، ولحق به فرسانه بعدما أعطاهم أوامره وزعقت الأبواق ، وكان في يافا عدد كبير من الفرسان اختاروا عبور البحر والعودة إلى فرنسا ، وكانوا ينتظرون وقتها الرياح المواتية للبحار ، ذلك أنه لم يكن لديهم خيول ، فقد كانوا قد فقدوا خيولهم في السنة المنصرمة أثناء عبورهم للأراضي البيزنطية وهم في طريقهم إلى القدس ، يضاف إلى هذا أنهم كانوا قد فقدوا كل ما كانوا يملكون ، هذا ويخيل لي أن نكر هذا الكلام هنا لا يخرج بنا عن إطار الموضوع .

الحج الحزين الثاني للفرنجة و وفاة هيوج العظيم ;

كنا قد ذكرنا من قبل أنه عندما زحف جيش الفرنجة العظيم نحو

القدس كان بين الحشد وليم كونت بواتو وستيفن كونت بلوا ، وكان ستيفن قد هجر جيشنا في أنطاكية ، لكنه أراد الآن أن يعوض بها فاته ، فرجع وجاء معه ومع وليم هيوغ العظيم الذي كان قد عاد إلى غاليا بعد احتلال أنطاكية ، كما كان معهم ريموند كونت بروفانس الذي بقي في القسطنطينية بعض الوقت بعد عودته من القدس ، كما ورافقهم النبيل ستيفن كونت برغندي وأعداد لا تحصى من الفرسان والرجال ، وحين ساروا انقسموا إلى مجموعتين .

وقاوم سليمان التركي الفرنجة في أسية الصغرى ، وكانوا قد انتزعوا منه مدينة نيقية من قبل ، وزحف سليمان الآن ، وقد تذكر هزيمته الماضية ، على رأس حشود عملاقة من الأتراك ، وشئتوا الفرنجة وأربكواهم حتى كانوا أن يبيدوا الجيش الفرنجي برمته .

وكان الفرنجة بتوفيق من العناية الربانية يسيرون في فرق موزعة على عدة طرق ، لهذا لم يتمكن سليمان من محاربتهم جميعا وإبانتهم عن بكرة أبيهم ، لكنهم وقد أدرك جهلهم باستخدام القسي بالحرب ثابر على مهاجمتهم ورميهم بالذخاب ، خاصة بعدما أضناهم التعب وهدمهم الجوع والعطش ، ولذلك قتل منهم أكثر من مائة ألف فارس وراجل .

زد على هذا لقد ذبح النساء وحمل بعضهن معه ، وهلك أعداد كبيرة من الفرنجة الذين هاموا فارين من الجبال من الجوع والعطش ، واستولى الأتراك على خيولهم وبغالهم ودوابهم وعلى مختلف أنواع الامتعة التي كانت بحوزتهم .

وفقد كونت بواتو أمواله وحاشيته وكل ما كان بحوزته ، وبعد جهد طويل وصل إلى أنطاكية راجلا حزينا منقبض النفس ، واستقبله تانكرد استقبالا حسنا وعطف عليه واشفق في محدته فزوده من

- ٢٨١٤ -

ممتلكاته الخاصة « وهكذا تأديبا ادبني الرب ، والى الموت لم
يسلمني » (المزامير : ١١٨ / ١٧) .

وبدا لنا ان مانزل به وبغيره كان بالفعل نتيجة لخطاياهم
وغطرتهم ، هذا ولم يتقاعس الذين نجوا عن الذهاب الى القدس ،
باستثناء هيج العظيم الذي وافته المذبة بطرسوس في كليكية وفيها
دفن ، وكانوا عندما وصلوا الى انطاكية تابع بعضهم رحلتهم الى
القدس برا وبعضهم الاخر بحرا ، وكان الذين حصلوا على خيول قد
اثروا السفر برا .

الاستيلاء على مدينة طرطوس :

وعندما وصل الفرنجة الى طرطوس ، التي كانت بحوذة
المسلمين ، لم يترددوا في الهجوم عليها برا وبحرا ، ويكفيني
اخباركم انهم استولوا عليها وقتلوا المسلمين وصادروا اموالهم ، ثم
تابعوا زحفهم بدون توقف ، وخابت امال الجميع وساء ظنهم بسبب
بقاء الكونت ريموند في طرطوس فقد رغبوا في ان يرافقهم الى
القدس ، ولهذا صب الجميع اللعنات عليه لانه رفض الزحف معهم
واثر البقاء في طرطوس محتفظا بها لنفسه .

وتابع هؤلاء زحفهم فمروا بعكار ثم بمدينتي طرابلس وجبيل حتى
وصلوا الى الممر الضيق كثيرا قرب مدينة بيروت ، وكان الملك في
انتظارهم هناك منذ ثمانية عشر يوما ، امضاها في حراسة هذا الممر
حتى لا يحتله المسلمون ويحولوا دون عبور الحجاج ، وكان قبل ذلك
قد استقبل وفدا من جيش الحجاج طلب منه المساعدة لدى اقتترابه
من ذلك الممر ، وعندما وجد الحجاج الملك في استقبالهم هناك قدموا
له الشكر بكل حرارة ، وبعدما تبادلوا التحيات والعناق شددوا
الرحال الى يافا حيث نزل الذين سافروا بحرا الى الياسة .

معركة مشؤومة بين الفرنجة والمسلمين ، قتل فيها الفرنجة وانتصر المسلمون :

ومع اقتراب عيد الفصح توجه الحجاج نحو القدس حيث كانوا حيث يتوقون لزيارتها ، وبعد اداء الطقوس المعتادة عادوا الى يافا ، ومن هنالك ركب كونت بواتو السفينة واجر مع قلة من اتباعه ، وقد دفعه الى ذلك ضيق حاله وشدة حاجته ، ورغب ايضا ستيفن كونت بلوا وعدد كبير غيره في ركوب البحر عائدين ، غير انهم واجهوا ريحا غير مواتية ، فلم يجدوا بدا من العودة راجعين على اعقابهم ، ولهذا السبب كان ستيفن في يافا كما سلف وذكرنا ، وذلك عندما امتطى الملك جواده وقصد العدو الذي عسكر امام الرملة .

وكان هناك ايضا غودفري كونت فاندوم ، وستيفن كونت بيرغندي وهيو دي لوسنان اخو الكونت ريموند ، وقد استعاروا جميعا خيولا من اصدقائهم ومعارفهم وامتطوها ولحقوا بالملك .

وارتكب الملك عملا متهورا حقا ، وذلك انه اغفل الحذر فاندفع دون ان ينتظر رجاله وزحف الى القتال بشكل اعتباطي ، مع انه توجب عليه ان يكون اعقل من ذلك ، لقد سارع الى ملاقات العدو دون ان يصطحب رجالته ، لابل انه ماكاد ينتظر وصول فرسانه حتى القى بنفسه بطيش بين جموع العرب المحتشدين ، وكان يخيّل اليه ان عدد الاعداء لا يتجاوز الالف والسبعمئة ، لكن سوء تخمينه ومع هذا سارع الى ملاقاتهم حتى لا يتمكنوا من الفرار .

غير انه عندما شاهد قوات العدو ، صاح مندهشا ، وشعر بالخوف ، لكنه مالبث ان استرد توازنه فالتفت نحو رجاله وخاطبهم بجلال : يا جنود المسيح ، ايها الرفاق ، لا تتوانوا عن القتال هنا ، بل حاربوا بشجاعة مسلحين بقوة الرب من اجل انفسكم ، فان عشنا

- ٢٨١٦ -

او متنا فللرب نحن ، (روميه : ٨ / ١٤) ولئن حدثت احدكم نفسه بالفرار فليس امامه امل بالنجاة ، وعليه ان قاتلتكم انتصرتكم وان فررتكم هلكتم .

وانقض الفرنجة على العرب بكل شجاعة وقاموا بهجوم عنيف ، ذلك ان المكان كان المكان المناسب والمناسبة هي المناسبة لظهور الشجاعة ، ولم يتجاوز عدد فرساننا المائتين ، وقد احاط بهم عشرون الفا ، وازداد ضغط المسلمين على رجالنا حتى ان معظمهم قد هلك في اقل من ساعة ، ولان البقية بالفرار بعدما عجزوا عن تحمل متابعة القتال الشديد .

ومع ان شرا مستطيرا نال رجالنا - لكن لم يحدث ذلك الا بعدما ثاروا لانفسهم تماما من اعدائهم ، فقد قتلوا عددا كبيرا منهم وشردوهم من معسكرهم ، ثم حاقت الهزيمة برجالنا ، فتلك ارادة الرب - على ايدي الذين كانوا قد هزموا ، ويتوفيق من الرب تمكن الملك مع حفنة من ابرز رجاله من النجاة ، فقد لاذوا بالفرار ، واسرعوا الى داخل الرملة حيث اعتصموا فيها ذلك انهم لم يتمكنوا من المضي ابعد من ذلك .

فرار الملك بلدوين :

ولم يرغب الملك ان يقع في اسر احد او يبقى هناك ، لذلك اثر ان يلاقي حتفه في مكان اخر على ان يؤخذ بكل مذلة في ذلك المكان ، وبعد مشاورات حاول الفرار مخاطرا بحياته ، واصطحب معه خمسة مرافقين فقط ، لكنهم لم يمكثوا معه طويلا ، فقد اوقفهم العدو ، اما هو فقد بادر بالفرار نحو الجبال على متن فرس خفيفة الحركة رشيقة ، وهكذا انتشله الرب من ايدي اعدائه الذين فاقوه قوة ،

وكان العدو قد قطع طريق ارسوف عليه ، فلم يتمكن من الذهاب اليها مباشرة مع انه رغب بذلك .

ولم يستطع الذين خلفوا بالرملة مغادرة ابوابها ، فقد حاصروهم الكفار من جميع الجوانب ، ثم اسروهم ، فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم الآخر احياء .

وعندما سمع اسقف كنيسة القديس جرجس بحلول هذه الكارثة انسحب خفية الى يافا . واحسرتاه كم خسروا من نبلاء وفرسان شجعان في تلك الكارثة ! خسروا في الاشتباكات الاولى ، ثم اثر ذلك في البرج السالف الذكر ، فقد قتل ستيفن كونت بلوا ، الرجل النبيل الشجاع وكذلك ستيفن كونت برغندي .

وتمكن ثلاثة من الفرسان من النجاة بانفسهم من هناك ، وامتطوا خيولهم جادين الى القدس في الليلة التالية ، وكانوا قد اصيبوا بجراحات وضربات عديدة ، ولما وصلوا الى القدس اخبروا اهليها بالكارثة التي وقعت ، وانهم لم يعرفوا مصير الملك فيما اذا كان قد مات ام مازال على قيد الحياة ، وقد سببت هذه الاخبار الاسى والحزن الشديد للجميع .

كيف وصل الملك الى ارسوف هاربا :

اختبأ الملك في الليلة التالية في وسط الجبال وذلك خوفا من العرب وظهر في اليوم الثالث مع فارس واحد ومرافقه ، وهو يتجول دون ان يعرفه احد ، كما لو كان اي انسان عادي كان يعاني من الجوع والعطش في مجاهل الصحراء ، حتى دخل اخيرا الى مدينة ارسوف

وجاءت نجاة بلدوين بسبب الظرف التالي : كان هناك خمسمائة

من جنود الاعداء يتجولون حول اسوار المدينة بمهمة استطلاعية ،
وصدف ان انسحبوا قبيل وصوله بقليل ، ولو راه احدهم لما كان
بمستطاعه النجاة منهم .

واستقبل الرجال ملكهم بفرح عظيم عند دخوله الى ارسوف ،
وهناك اكل وشرب، ونام بكل امان فقد تطلب ذلك الجانب البشري من
طبيعته .

كيف بادر هيو صاحب طبرية وبطريك القدس الى نجدة
الملك، ثم كيف دار القتال بتدبير الصليب المقدس وعونه
وسلطانه :

تبصر : حضر في ذلك اليوم هيو صاحب طبرية الذي كان من اعظم
نبلاء الملك الى ارسوف ، فقد كان قد سمع بالشدّة التي حاقت بالملك
ورغب في ان يجلب بعض العون والمواساة للذين بقوا على قيد
الحياة ، وسر الملك برؤياه سرورا عظيما ، وذلك ان هيو كان قد جلب
معه ثمانين من الفرسان كان الملك في امس الحاجة اليهم ،
واستجابة لرسالة استغاثة وصلته من القدس اندفع الملك نحو يافا
للتفريج عن اهلها .

ولم يقدم الملك على نقل رجاله برا خوفا من كمائن العدو
وتمويهاته ، ولهذا ركب مركبا سريعا وابحر الى يافا ، ولدى وصوله
الى المرسى تلقى بترحاب بالغ ، لانه كما ورد في الانجيل : « لان ابني
هذا كان ميثا فعاش وكان ضالا فوجد » (لوقا : ١٥ / ٢٤) فقد
راى اهل يافا من انتحبوا لموته من قبل الان سالما وهو قيد الحياة .

وسارع هيو - وقد تملكه الخوف - في اليوم التالي الى التوجه

الى يافا ، فغادر ارسوف ، وقد تلقاه الملك على الطريق لانه خشي من تعرضه الى هجوم من قبل الاعداء ، وبعدما وصل الملك الى يافا لم يطل المشاورات والمداولات فقد قضت الضرورات باستدعاء الذين في القدس والخليل للحضور الى يافا ، لانه عزم على محاربة العرب الذين عسكروا على مقربة منها وفي خطتهم الاستيلاء عليها .

وفيما هو يبحث عن رسول يبعثه بهذه المهمة ، رأى رجلا سريانيا بسيطا رث الثياب ، فحرضه وشجعه على القيام بهذه المهمة ، ذلك انه لم يجد من هو قادر على القيام بهذه المهمة او يتجرا على الاقدام والسفر في تلك الطرق بسبب الكمائن التي نصبها الاعداء ، ولم يتردد ذلك الرجل ، وقبل بأداء المهمة والقيام بالرحلة بعدما استمد الشجاعة من الرب ، وقد سلك مسالك غير مألوفة وشاقة وسار في جوف الليل حتى لا يكشف العدو امره حتى وصل الى القدس في اليوم الثالث ، وقد هذه التعب وانهكت قواه ، وعندما اعلم هذا الرسول الناس هناك بالانباء السارة حول سلامة الملك وانه مازال على قيد الحياة ، قدم الجميع الشكر للرب ، وشرعوا بالاستعداد ، وبعدما اطلعوا على محتويات الرسالة التي حملها السرياني بادروا على الفور الى تجهيز العدو الاكبر من الفرسان ممن وجد بالقدس ، واذكر انه توفر وقتها في القدس تسعون من الفرسان الذين استطاعوا الحصول على الخيول ، ثم ساروا الى الفور ، وتجنبوا اثناء زحفهم كمائن العدو ، وركبوا الطرق الفرعية حتى اشرفوا على ارسوف من طريق جانبيه .

وفيما هم يسيرون على عجل على محاذاة الشاطئ انقض عليهم الاعداء على امل عزلهم وتطويقهم والقضاء عليهم ، وهناك اثر بعض الفرسان الفوص بين الامواج والسباحة والتخلي عن خيولهم حيث لم يكن امامهم خيار اخر ، ودافع فريق من الفرسان ممن ملك خيولا سريعة عن انفسهم حتى وصلوا الى يافا ولم ينج الجميع الا بعد مشاق شديدة وابتهج الملك كثيرا لحضورهم واسترد شجاعته ولم

يرغب في التأخر اكثر ، فنظم في اليوم التالي فرسانه ورجاله وانطلق الى حرب الاعداء ، ولم يكن موقع هؤلاء الاعداء في الحقيقة بعيدا عن يافا سوى ثلاثة اميال ، وكانوا قد شرعوا في اعداد الآلات لضرب الحصار على يافا والاستيلاء عليها بدون تقاعس ، وعندما راوا رجالنا يتقدمون نحوهم للقتال تناولوا اسلحتهم على الفور ، وتصدوا لنا بكل شجاعة وطوقونا من جميع الجهات لكثرة اعدادهم بشكل واضح .

وعندما احكم الطوق على رجالنا بهذه الصورة لم يبق لهم سوى العناية الربانية ولهذا لم يترددوا ووضعوا ثقتهم بمقدرة الرب العلية ، وتقدموا يضربون الاعداء بشدة مذهلة ، حيثما شاهدوا تكتلاته مهما كانت كثيفة او شديدة ، وكان رجالنا كلما اخترقوا بالقتال العنيف صفوف الاعداء اضطروا الى الرجوع والتحول الى موقع اخر ، ذلك ان الاعداء كانوا كلما راوا رجالتنا بدون حماية الفرسان ، كانوا يقتحمون ذلك الموقع ويقتلون الذين كانوا في الساقة ولم يكن رجالتنا جبناء ، فقد اطلقوا وابلا من الحراب على مهاجميهم حتى كنت ترى كثيرا من الحراب وقد التصقت بوجوه الاعداء اودروهم ، وهكذا حدث بعون الرب ، بعدما صمدت العدو حراب رجالتنا ، واصابته بجراح رماح فرساننا وبعد ماخسر المسلمون خيامهم انعطفوا على اعقابهم وولوا الادبار فرارا ، ولكن لم يلاحقهم احد منا لفترة طويلة ذلك ان عدد الملاحقين كان صغيرا .

لقد تخلص الاعداء عن خيامهم في السهل وعن جميع امتعتهم للفرجة ، واخذوا معهم معظم خيولهم باستثناء ما عقر منها وما هلك عطشا ونفق اثناء الفرار وحصلنا على عدد وافر من الجمال والحمير ونفقت اعداد كبيرة من الدواب اثناء الفرار اما من لعقرها او لشدة العطش .

لاريب انه كان من العدل والصواب خروج الذين حمتهم خشبة

صليب الرب منتصرين على اعداء ذلك الصليب ، وفي الحقيقة لو كان الملك قد حمل الصليب المقدس معه في المعركة السالفة الذكر من غير الممكن الشك وقتها ان الرب كان قد عطف على قومه غير ان هناك بعض الناس الذين يثقون بافراط بقوتهم اكثر من اعتمادهم على الرب ، ويعتمدون اكثر من اللازم على ما يرونه صوابا بعقولهم ولا ينصتون الى مشورة العقلاء ، ولهذا يخيل اليهم ان بإمكانهم اداء مهامهم على عجل وبدون روية ، وبناء عليه ان ضررا لا يمكن رتقه قد يحصل لا يصيبهم وحدهم بل يعم كثيرا بين الذين يشاركون في المهمة ذاتها ولذلك اعتاد مثل هؤلاء القوم القاء الملامة على الرب بدلا من ان يتبينوا حماقة انفسهم .

ان الذي يشرع في امر ما بحماقة لا يفكر بالعواقب «الفرس معد ليوم الحرب اما النصر فمن عند الرب» (امثال : ٢١ / ٣١) واذا لم يصغ الرب دوما الى صلاة الصالحين ، اليس الاخرى الا يستمع لصلاة الاشرار ، بل كيف يمكن للمرء توجيه اللوم الى الرب اذا لم تتحقق امنيته على الفور ، ولم ينبغي الاصغاء لمن لا قيمة له ، اولا يعلم الرب ما ينبغي عمله في جميع الحالات ؟ ويقول بوتيوس بهذا الصدد : «مع انك ترى امالك تقصر عن الانجازات غير ان هناك نظاما عادلا للامور ، والنظام الفاسد هو نتيجة تشوش في عقلك ، والرجل الاحمق يتوقع تحولا بالحظ بدلا ان يتوقع ما يستحقه » ، وغالبا ما يرى المرء شرا في امر قد يعود عليه بالنفع فيما بعد ، ومن جانب اخر ان ما يبدو انه سيسبب نجاحا للمرء قد يعود فيما بعد ويسبب له احباطا كبيرا . وبعدها انتهى القتال ، وانتصر الملك كما سلف بنا الذكر ، حمل خيامه وعاد الى يافا ، واثّر ذلك ساد السلام في الارض طوال الخريف والشتاء التاليين .

الملك يحاصر مدينة عكا :

بعدها احتفلنا بعيد الفصح في القدس حسب العادة في ربيع ١١٠٣ ، زحف الملك على رأس جيشه الصغير وحاصر مدينة عكا التي تعرف ايضا باسم بطلومياس ، غير انه لم يتمكن من الاستيلاء عليها في تلك المناسبة لمناعة اسوارها وحصانة مواقعها المتقدمة لاسيما وان المسلمين في داخلها قد دافعوا عن انفسهم بشجاعة فائقة فانسحب الملك عائدا بعدما دمر حصانهم وبساتينهم وحدائقهم ، وقد رجع الى يافا •

اطلاق سراح الامير بوهيموند من الاسر :

راجت في تلك الاونة اقاويل رحب بها ، تحدثت عن اطلاق الاتراك لسراح الامير بوهيموند من الاسر ، وذلك ببركة الرب ، وقد بعث الينا برسول نقل عنه كيف فك رهنه من الاسر وكيف استقبل سكان انطاكية اميرهم السالف بكل غبطة ، فقد عاد الان واستلم سلطة تلك البلاد ، وبعد هذا تسلم مدينة اللانقية التي كان تانكرد قد احتلها وانتزعها من رجال امبراطور القسطنطينية ، وعوض تانكرد عن ذلك بتعويض موائم وطيب خاطرة بلباقة •

الجراح التي كادت ان تودي بحياة الملك :

وفي تلك الاونة ، بينما كان الملك بلدوين يقاتل ضد المسلمين حسبما جرت عادته ، صدف ان شن في احد الايام هجوما على جماعة منهم ، وفيما هو مبهتج ومتوقع لدمار المسلمين المؤكد ، اذا بسوداني يتسلل ويتربص خلف صخرة يريد قتله ، وقد دفع بشدة نحوه بحربة اصابتة بجراح بالغة في الظهر قرب قلبه ، غير ان الملك

تمثال للشفاء فيما بعد من جرحه المميت لانه وفر لنفسه العناية
والعلاج .

الاستيلاء على مدينة عكا :

بعد انقضاء موسم الشتاء وحلول فصل الربيع احتفلنا بعيد الفصح
في القدس عام ١١٠٤ ، واذر هذا حشد الملك رجالة ، وانطلق يريد
عكا لمعاونة حصارها ، ووصل انذاك اهل جنوى الى هناك في سبعين
سفينة متقاربة (شواني) وبعد مضي عشرين يوما على حصار
المسيحيين لهذه المدينة بالاتهم وبعد قيامهم بعدة هجمات عليها دب
الرعب في قلوب المسلمين وسلموها الى الملك لكن على مضض ، وكنا
بامس الحاجة الى هذه المدينة لان فيها مرسى واسع جدا يمكن ان
ترسو بين ابراجه الامنة اعداد كبيرة من السفن .

طلعت الشمس تسع مرات في برج الجوزاء
عندما سقطت عكا التي تدعى بطلومياس
في سنة الف ومائة واربع
وهذه ليست مدينة اكرون التي يدعوها بعضهم عكا

وعندما استولى الفرنجة على هذه الكينة على هذه الصورة ، قتلوا
كثيرا من المسلمين لكنهم ابقوا على حياة بعضهم بعدما انتزعوا
منهم جميع مايملكون .

بوهيموند يعبر البحر الى ابوليا :

بعد انقضاء فصل الصيف عبر بوهيموند البحر مع عدة سفن الى ابوليا ، وذلك بعدما كثرت متاعبه واشتد به الضيق ، ورافقه في الرحلة ييمبرت بطريرك القدس السالف الذكر وكان رجلا حكيما سديد الرأي ، وقد رحل بوهيموند بهدف العودة فيما بعد على رأس قوة من الرجال من بلاد ماوراء البحار ، اما ييمبرت فقد سافر بغية اطلاع البابا في روما على شكواه وعلى ما نزل به من مظالم ولحقه من اذى من قبل الملك ، لقد ذهب وحصل على ما ارداه واخذ طريق العودة ، غير انه لم يصل لانه لاقى حتفه وهو على الطريق مسافرا .

اسر رجال أنطاكية ومصرع بعضهم في الحرب ضد الفرثيين

تشجع في تلك الاونة جيراننا من الفرثيين والميديين والكلدانيين وجميع اهالي بلاد الرافدين على مهاجمتنا نحن المسيحيين والحق الاذى بنا بكل وسيلة ، وعندما عرفنا بهذه الاخبار اعد قادتنا جميعا العدة للتصدي للاعداء في ساحات الوغى .

اعد العدة كل من الامير بوهيموند وتانكرد ، وبلدوين كونت الرها وجوسلين ، وكذلك فعل ييمبرت بطريرك القدس ، واسقف الرها المدعو بندكت ، وسرعان ما باتوا جاهزين على رأس حشد من الفرسان والعامة ، وزحفوا الى ماوراء نهر الفرات ، الى مدينة تدعى حران قرب نهر الخابور ، والتقوا بسرايا اعدائهم هناك ، واشتبكوا بالقتال قرب الرقة بدون تأخر ، لكن بسبب عظم ااثامنا ، مزقت صفوف المسيحيين وبددت قواهم ، وكانت هذه المعركة كارثة

- ٢٨٢٥ -

هي اشد مما اصابنا في جميع المعارك السالفة ، فهذا مادلت عليه النتائج .

وقع اللورد بلدوين ، كونت الرها ، والذي سيغدو فيما بعد ثاني ملوك القدس ، هناك بالاسر ، واسر معه جوسلين قريبه ، كما اسر معهما الاسقف السالف الذكر ، وغرق عدد كبير من الرجال وفقدوا في النهر المذكور ، وضاعت هناك ثروات كثيرة وخيول وبغال .

وتمكن اللورد تانكرد والامير بوهيموند من الفرار ، فقد عبرا طرقا ومسالك غير مألوقة ، وتجذبا حتى بخيار افضل الطرق والممرات ، وفازا اخيرا بالسلامة وهما تتملكهما الدهشة والحيرة .

ومات كثير من الرجال بفعل رشقات الذشاب وطعنات الخناجر ، وهكذا نجد ان اللذين كان بمستطاعهم الاستيلاء على حران دون صعوبة لو حاصروها في البدء ، لم يتمكنوا بعد ذلك من الاستيلاء عليها سواء لدى توجههم اليها او اثناء عودتهم ، وكما ينجم الضرر عن استعمال الخديعة تحت ذريعة الامن في بعض الاحيان كذلك يعود الخوف مع الحيطة بالذفع على الخدر والجبان ، فقد قيل قديما التقاعس خطر على من استعد للعمل .

يقينا ان عدوين هما الحسد والخصام ، قد سببا الحاق المضار بشعبنا اثناء هذه المهمة ، بل الكارثة ، فقد اعتاد هذان العدوان على انزال الرجال من على ظهر الثروات التي جمعوها الى حضيض الاملاق ، ولقد شهدنا ذلك مرارا ، وخبرناه بالتجربة ، ولن انخدع او يضللني معسول الكلام ، حتى استغرق بالتفكير في سفاسف الامور .

لقد عادى الفرنجة في هذه الحملة الخطيرة بعضهم بعضا الى حد انهم تمنوا قبل ان تنزل بهم النازلة ان يأخذ كل طريقة ويحلوا

الاحلاف التي عقبوها ، وحقا ان من يقتترف الشر ويتوقع الخير لجاهل ، ذلك ان الرب لا يتقبل شيئا قام على الخصام وبلامحبة ، وبناء عليه ان من العار والجبن ان اهجر صحبة من توجبت علي صحبته (الرب) وعبادته حتى اقضي اجلي .

وما لبث الرب ان مد يد العون الى اسقف الرها ، الذي كان مكبلا بالاغلال آنذاك فقد حملة الاتراك كثيرا من الاثقال من ادوات واوعية كما لو كان دابة من بواب حمل المتاع ، وتم اختطافه من بين ايدي الاتراك بعون الرب ومشيبته بعملية اتسمت بالحساسة البالغة وذلك بمساعدة فارس شجاع خاطر بحياته بكل اخلاص حيث لم يعد ذلك الفارس حياته اثمن من الاسقف .

لقد اضطربت اثناء حملة الحج الحماسة في قلوب عدد كبير من الرجال ، وكانت حماستهم للرب ، فقد رغبوا بالتضحية بهذه الحياة ، وسعوا لان يموتوا ميتة الكرام حتى ينعموا بالسكينة مع المسيح ، واذكر على سبيل المثال قصة رجل راه قومنا وسمعوه عندما كنا حول انطاكية ، وقد سمع واحدا من الكفار بجدف على اسم الرب بازدياء شديد ، فهاجت في نفسه الغيرة واشتعلت حماسته ليتصدى له بالقول والعمل فحرك فرسه على الفور ، وسأل الواقفين من حوله بتلهف : من اراد منكم ان يتناول عشاءه في الجنة فليأت الآن ويأكل معي ، فانا على وشك الذهاب الى هناك ، ثم لوح برمحه بكل قوة وعزم ، واندفع وسط لجة من آلاف الاعداء يقتل ويهزم كل من واجهه ، حتى هلك بالحال وقتل وهو يقتل غيره ، وواجه منيته بكل سرور يحدوه الايمان والامل وتدعمه المحبة ، فمن الذي سمع بمثل هذا ؟ لقد مجنته عليين وهو ما يزال ممددا على الارض .

انه من اجل مثل هذا تغتبط السموات ومن فيها ولقد كان ذلك بالفعل مصدر سرور وحمد بالنسبة لنا ، لان الملائكة قد ابتهجت بإضافة

مثل هذا الرفيق اليها ، فقد كان الرب قريبا ، وسمع منه وأجزل له
الجزاء بالعطية التي اعد لها ، منزلا ابديا (يوحنا : ١٤ / ٢)
« في بيت ابي منازل كثيرة ، وانني كنت قد قلت لكم : انا امضي لاعد
لكم مكانا » .

اطلاق سراح الكونت بلدوين والقتال بينه وبين تانكرد :

بعدما مكث اللورد بلدوين مكبلا بالسلاسل لمدة خمس سنوات ، وبعد
تبادل الرهائن المنتقاة تعهد بلدوين باقسام الايمان المشددة ان
يستردهم . ، وقد قتل الرهائن بالخدعة حراسهم فيما بعد ، وتخلص
بلدوين من سجنه ، وقد ساعده على ذلك جوسلين بكل اخلاص ، ولما
عاد بلدوين بعد هذا الى مدينة الرها ، لم يتمكن من دخولها ، لان
تانكرد واعوانه منعه من الدخول .

وبعد طول انتظار ، وتماشيا مع مصلحة كل من بلدوين
وجوسلين ، واستنادا الى الاتفاقية التي كان بوهيموند قد عقدها في
الماضي وتعهد بها بان تعاد بلاد بلدوين له من دون جدال فور اطلاق
سراحه من الاسر ، وكيفما كان الحال ، لقد تحالف بلدوين
وجوسلين وخاضا الحرب ضد شريكهما الثالث تانكرد .

ولم تفلح جهود تانكرد في تطبيب خواطرهما ومناشدته السلام
وحشد جوسلين سبعة آلاف تركي وتحدي تانكرد الذي لم يكن
مستعدا للحرب ، وقتل الاتراك خمسمائة من اتباع تانكرد ، ومع ان
تانكرد اوشك في البداية على الهزيمة ، لكن الرب الذي يطل بوجهه
على العدالة يوما قضى ان يبقى على ارض المعركة منتصرا بشرف ،
ولما رأى رؤساء البلاد مدى الاضرار التي لحقتهم عقسوا المداولات
فيما بينهم ، ثم توصلوا الى عقد اتفاقية بين الاطراف المتنازعة .

بوهيموند يذهب الى غاليا

كنا قد ذكرنا من قبل ان بوهيموند قد وهنت عزائمه لعدة اسباب ،
ولذلك توجه الى بلاد غاليا ، وكان من جملة ما فعله هناك انه تزوج
من ابنة الملك فيليب الذي تعرف باسم كونستانس واخذها الى
ابوليا ، وقد انجبت له صبيين ، مات اولهما ، وعاش الثاني التي
حمل اسما مثل اسم ابيه وصار وريثه .

انتصار تانكرد في حربه ضد الاتراك :

في اليوم الثاني من شهر اذار لعام ١١٠٥ م توفي الفارس المبرز
الكونت ريموند في موقعه المنيع امام مدينة طرابلس ، وقد خلفه ابن
اخيه وليم جوردان .

ولم يتخل المسلمون والاتراك في تلك الاونة عن عنتهم المعهود ،
فقد حشد رضوان ملك حلب في شهر نيسان جيشا لا يستهان
بتعداداته ، جمعه مما حوله من البلاد وشمخ برأسه بإسراف في
العنجهية ليخوض الحرب ضد تانكرد امير انطاكية .

والقى تانكرد ثقل أماله في الرب وليس في حشود الرجال ، وهيا
صفوفه ونظمها بشكل جيد للقتال ، وامتطى جواده وتقدم نحو العدو
بلا تردد ، ومختصر القول : اندفع تانكرد نحو الاعداء امام ارتساح
بكل بسالة ، فذب الرعب في قلوب الاتراك ، وكان ذلك بعون من
الرب ، ولا نوا بالفرار ، لقد هربوا وطاردهم فمات منهم كل من لم
يقدر على الفرار ؛ لقد مات منهم ما لا يمكن عده واستولى تانكرد
على كثير من خيولهم كما واستولى على راية الملك ، بعد ما فر
مهموما وقد فقد عزته وكرامته ، وبذلك تمجد الرب ، الذي يهب الى
عون المؤمنين يوما .

وبعد ما فرغنا من ذكر هذه الامور عن اهل انطاكية نعود الآن
لنتفحص احوال اهل القدس .

ملك مصر يبعث بجيوشه ضد الملك بلدوين الذي اعد نفسه
ضده :

علي ان انكر انه في ذلك العام بالذات حشد ملك مصر كثيرا من
الرجال وبعث بهم تحت امرة صاحب عسقلان ليشن الحرب على
المسيحيين ، لقد نوى ان يطربنا من الارض المقدسة جميعا ، وخيل
اليه انه يستطيع ذلك ، ذلك انه عرف اننا كنا قلة في العدد بدون
مساعدة الحجاج المعهودة ، ولهذا الغرض احتشد في عسقلان
فرسان العرب ورجال السودان ، وكان معهم اكثر من الف تركي
قدموا من دمشق ، وكانوا من رماة الذشاب من الطراز الاول .

وبعد ما عرف الملك بهذه الاخبار حشد رجاله جميعا ، ووقف
يترقب العدو قرب يافا ، وبحكم الضرورة توجه الى القتال كل الذين
عاشوا بالمدن وكانوا قادرين على حمل السلاح ، باستثناء الذين
حرسوا الاسوار في الليل ، ثم دب في قلوبنا الخوف ، وتملكننا
الرعب ، خشية ان يستولي الاعداء على احدى مدننا الخالية من
الرجال ، او ان يقتلوا الملك واصحابه في المعركة ، ووقع هذا في شهر
آب ، وبمهارة ودهاء تجنب الجانبان القتال ، فلم يهاجمونا ولم
نهاجمهم .

وبعد طول انتظار ، حدث كما ارى بتقدير رباني ، ان تقدم ذلك
الجنس الشرير من عسقلان ، وشرع بالاقتراب منا ، ولما اتضح
ذلك للملك ترك يافا ، واخذ الطريق الى الرملة ، وبما ان « التقرب
من الرب خير لنا ، فقد جعلنا مولانا الرب ملجأ لنا » (المزامير :
٧٣ / ٢٨) فقد بعث الملك ، بالهام رباني ، مبعوثا في البحر الى

البطريك ورجال الاكليروس وعامة الناس في القدس ، يرجوهم ان يقيموا الصلوات حسب طاقتهم ، وان يسألوا الرب القدير عله يتمن فيقدم العون من عليائه للمسيحيين في شدتهم وعسرتهم .

وعلى الرغم من الالاح الشديد ، رفض هذا الرسول قبول اي اجرة ، فقد خشي ان يخفق في اداء هذه المهمة او ان لايبقى على قيد الحياة حتى يقبض المكافأة ، لقد وضع ثقته في الرب الذي سيكافئ بشكل ما على عمله الصالح ، وهكذا بابر مسرعا بالسفر الى القدس ، ووضع روحه وجسده بين يدي خالقه ، وبهداية من الرب وصل الى هناك وحال دخوله الى المدينة اعلن عن فحوى مهمته .

وما ان اعلنت هذه الاخبار حتى امر البطريك بقرع الناقوس الكبير ، وان يجتمع الناس جميعا امامه حيث خاطبهم بقوله : « ايها الاخوان ايها الاصدقاء ، يا عبيد الرب ، ان المعركة التي سمعتم عنها لا بد بحق واقعة ، وكما اعلن المبعوث انها محيقة بنا بكل تأكيد ، وبما اننا لانستطيع مقاومة هذه الحشود الهائلة بدون العناية الربانية ، عليكم ان تطلبوا الغفران من الرب ، وتتوسلوا اليه كي يتمن برحمته فيعين بلبوين ملكنا وجميع رجاله في قتالهم المرتقب ، ولقد اخبرنا المبعوث ان الملك قد اخر القتال الى الغد ، الذي سيصادف يوم الرب ، اليوم الذي قام فيه المسيح من الموت ، عله - اي الملك - يقاتل مؤملا اكثر بالتوفيق ، وهو يتوسل اليكم ان ترفعوا صلواتكم الى الرب وتقدموا صدقاتكم على امل ان يستمد القوة ليحارب بعزيمة اكبر ، وبناء عليه امضوا امسية العيد هذه وفقا لتعاليم الرسل ، كونوا راسخين متمسكين بايمانكم ، واجعلوا كل اعمالكم في سبيل البر والاحسان وفي الغد سيروا حفاة في الاماكن المقدسة من هذه المدينة منلين نفوسكم وكابحين لاهوائكم ، واطلبوا من الرب بكل خشوع ان ينجينا من براثن اعدائه .

اما انا فسوف اتوجه الآن نحو الملك ، انني سوف اتحرك نحوه

في الحال ، واتمنى على كل من بقي منكم هنا وهو قابر على حمل السلاح ان يتحرك معي على الفور ، فالملك بحاجة الى الرجال ودون ان اطليل عليكم الكلام اقول : لقد امتطوا جيادهم ، وكان قد بلغ تعدادهم مائة وخمسين رجلا من بين فارس وراجل ، ومع حلول الظلام شرعوا في مسيرهم فكان ان وصلوا الى الرملة عند بزوغ الفجر .

وانقطع الذين بقيوا في القدس الى الصلوات بكل حماسة وبكوا وتصدقوا وداوموا على زيارة الكنائس حتى الظهيرة ، وكانوا يرتلون ويبيكون ، ويبكون ويرتلون مثلما فعل الرهبان في الموكب ، فلقد صليت أنا شخصيا حافي القدمين مع البقية ، وصام الرجال المتقدمون بالسن حتى الساعة التاسعة من النهار ، ولم يرضع الاطفال من اثناء امهاتهم حتى ارتفع عويلهم من شدة الجوع ، وقدمت بالفعل صدقات جزيلة الى الفقراء ، فمثل هذه الاعمال تفرح الرب وترغبه في ان ينقذنا « لعله يرجع ويندم فيبقى وراءه بركة تقدمه » (يوثيل : ١٤/٢) .

القتال بين الأتراك وأهل القدس — النصر نحززه بفضل صليب الصليبوت :

ما أن وصل البطريرك الى الرملة ، وبزغ نور الفجر ليزيل بريق النجوم ، ابتهج الجميع لوصوله وحرضهم ذلك على الاسراع نحو قساوستهم للاعتراف بخطاياهم تجاه الرب والناس ، كذلك بابر الرؤساء بالتوجه نحو البطريرك لسماع كلمات نافعة منه وليتخللوا من خطاياهم .

وبعد ما تم هذا كله ارتدى البطريرك الثوب الاكليروسي الفخم ، وحمل بين يديه صليب الصليبوت المجيد الذي يحمل عادة في

مثل هذه المناسبات ، ولدى الفراغ من تنظيم صفوف كتائب الفرسان والرجالة تقدم الجميع نحو الجيش المعادي .

وكان تعداد فرساننا خمسمائة باستثناء الذين لا يعدون فرسانا وأن امتطوا الخيول ، ولم يتعد عدد رجالتنا الألفين ، وفضلا عن هذا قدر عدد الكفار بخمسة عشر ألفا من بين فارس وراجل ، وقد عسكروا تلك الليلة في مكان لا يبعد أكثر من أربعة أميال عن الرملة .

وفي الصباح عندما رأوا الملك متقدما نحوهم استعدوا للقتال على عجل ، وبذلك أحبطت خططهم ، فقد كانوا قد خططوا لإرسال جزء صغير من جيشهم ضد الرملة لخداع جيشنا ، لأنهم قرروا إرسال الجزء الأكبر ضد يافا لمهاجمتها واحتلالها دون علم منا ، غير أنهم عندما رأوا الملك راكبا نحوهم بهذه الطريقة جمعوا قواهم على الفور انما بعدما أحبطت خططهم .

وبدون تقاعس أو تردد انقض كل فريق على الآخر ، ثم ارتفع نوي القتال وصليل السيوف ، وفي أثناء القتال صرخ كل واحد من رجالنا في وجه الأعداء « المسيح يقهر ، المسيح يملك ، المسيح يحكم » ، وذلك تنفيذا للأوامر التي صدرت اليهم ، وأحاط بنا الأعداء على أمل أن يشيعوا الفوضى بين صفوفنا ويحطموننا كلية ، وأطلق رماة السهام من الأتراك وأبلا من السهام علينا ، وفعلوا ذلك وهم كعادتهم يدورون حولنا ، وبعد أن أتموا مهمتهم كرماة سهام ، امتشقوا سيوفهم من أغمارها وانقضوا علينا واشتبكوا معنا في قتال التحامي قريب ، وعندما رأى الملك ذلك ، ازدادت شجاعته فاختطف رايته البيضاء من يد أحد فرسانه واندفع هناك على رأس قلة من رجاله وأسعف الذين تعرضوا للهجوم ، فشنت بعون الرب بهجومه وقتاله الأتراك على الفور ، ثم عاد ليهاجم الحشد الأعظم من المسلمين والعرب والسودان .

وليس بسودي اطلالة الكلام عن هجوم الطرفيين وانقضاضاتهم ، فأنا أرغب في اختصار الرواية الى الحد الكافي ، ذلك أن الرب الكلي القدرة ، الذي لا ينسى أبدا عبيده ، لم يشأ أن يدمر هؤلاء الكفار مسيحييه ، الذين قدموا الى القدس من البلاد النائية محبة به ، وتمجيذا لاسمه ، فقد أزمع هؤلاء الكفار بشكل مفاجيء على الفرار عاندين الى عسقلان ، أه لو وقع أميرهم وقائد جيشهم سناء الملك بالأسر ، كم من الاموال كانت دفعت للملك بلديون لفكاكة ؟ غير أن جمال الملك ، صاحب عسقلان ، والوافر الثروة ، لم ينج ، فقد قتل وأحدث موته كثيرا من الحزن بين صفوف أولئك القوم ، وقد أسر أمير آخر ، أصله من عكا ، أسره وهو على قيد الحياة ، وقد أطلق الملك سراحه بعدما دفع فدية مقدارها عشرين ألف قطعة نقدا فضلا عن الخيول وأشياء أخرى .

ثم أبيد السودان في ساحة الوغى ذلك أنهم لم يتمكنوا من الفرار ، وقيل أن أربعة آلاف من فرسان العدو ومشاته قد قتلوا مقابل ستين من رجالنا وخلف الأعداء لنا وراءهم خيامهم مع كثير من النواب والجمال والحمير .

ثم حمدنا الرب ومجدناه ، لأنه أمدنا بالقوة وجلب لأعدائنا الدمار ، أه ما أروع هذا المقضي بالحكم الرباني ، فقد نظر الرب في أمر الذين قالوا : « سوف نجى ونقتل كل هؤلاء المسيحيين ونمتلك لأنفسنا مساكن الرب » (مزامير : ١٢/٨) لكن الأمور أيها الكفار لم تحصل هكذا (مزامير : ٤/١) « لأن الرب جعلكم مثل الجل ، مثل القش أمام الريح » (مزامير : ١٣/٨) « لكي يرفجهم بغيظه » (مزامير : ٥/٢) فقد حلفوا حسب ناموسهم أن لا ينفروا مطلقا أمام الفرنجة ، غير أنهم وجدوا أخيرا السلامة في الفرار ، لذلك آثروا أن يحنثوا بأيمانهم على أن يموتوا ميتة غير مجدية .

وفي الختام عاد الملك مبهتجا الى يافا ، حيث وزع على فرسانه

ورجالته الغنائم التي كسبوها ، وفعل ذلك بموجب حسابات دقيقة .

اسطول أهل مصر :

كان للمصريين أسطول أمام يافا واقفا حتى ذلك الوقت ، فقد كان المصريون ينتظرون هناك منذ أمد على أمل أن يجدوا الفرصة والوسيلة لبادتنا كليا بالبر وفي البحر ، وليدمروا معنا مدننا البحرية ، غير أنه بعدما أمر الملك بلدوين بحارته بالقاء رأس الأمير جمال الملك ، التي قطعت في المعركة ، على سطح إحدى سفن العدو ، أصاب هذا العدو هلع شديد وارتجف لدى اكتشافه ، لهذا لم يشأ إطالة البقاء هناك ، وهكذا تراجع الأعداء بعدما علموا بالمصيبة التي حلت بقومهم ، وتم التراجع الى مينائي صيدا وصور ، حيث حملت سفنهم الى هناك ربح جنوبية طيبة .

ولدى عودة هذا الأسطول الى مصر فيما - بعد - حلت علينا بركات الرب ، اذ ان العواصف شتتت سفن الأعداء ، ورمت بها مقلوبة الى مراسينا ، وقد استولينا على خمس وعشرين سفينة مشحونة بالمسلمين ، وأبحرت السفن الأخرى ، لكنها لم تنج الا بشق الأنفس ، ولقد كان الرب معيننا لنا ورؤوفاً بنا في محنتنا ، وكشف لنا عن قدراته الكلية .

شعر :

وبناء عليه بودي أن أعلن عن تاريخ المعركة .
فقد أشرقت الشمس مرات عشر في برج العذراء

وعندما أطل القمر على الأرض
في سادس يوم من مطلع ايلول

- ٢٨٣٥ -

منح الكلي القدرة النصر للفرنجة ، ليبتهجوا
عندما ركن العرب ثم الأتراك والسودان الى الفرار .
فر بعضهم الى الجبال ، بينما سقط الباقون صرعى في ساحة
المعركة .

الزلازل :

قد يطوي النسيان هذه الأعمال ان لم تسجل وتدون ، وذلك أما
بسبب الإهمال أو لنقص في مهارة المصنفين ، أو ربما لقلّة عدد
المصنفين وانشغالهم بمشاكلهم الأخرى ، ولهذا أثرت أنا
فولتشر - مع افتقاري الى المهارة وعجزى وعدم مقدرتي - أن
أشتهر بالحماسة والطيش على أن أسمح في أن لاتعرف هذه
الانجازات ، فكان أن دونتها كما شهدت بنفسي ، أو
علمتها - بعد التقصي الشديد - من المصادر المعتمدة .

وفضلاً عن هذا ، إنني استميت عنرا من قارئ هذه السطور في
أن يغضي بلطف عن نقصي في المهارة ويصحح إن شاء اسلوبي ، اذا
لم يقدّم بهذا التصحيح كاتب بليغ ، لكن عليه الا يعيب في ترتيب
تاريخي هذا ، من أجل اسلوب طنان مزركش ، وأن لايموه بالخداع
حقيقة الأحداث .

وشعر بعد هذه الوقائع التي تقدم ذكرها ، كل من كان منا
بالقدس في أواخر العام بزلزال هائل أصابنا برعب شديد ، وكان
ذلك ليلة عيد ميلاد الرب .

العلامات التي ظهرت في السماء :

في عام ١١٠٦ ، ظهرت في السماء مذنب ، فأصابنا

الخوف لأننا ارتبنا في شأنه ، وقد سار باتجاه غروب الشمس في فصل الشتاء ، واطلاق شعاعا ابيض براقا ، وكأنه مد من خيط من كتان مذهب في الطول ، وبدأت هذه العلامة المثقلة بالاحتمالات بالاحمرار في شهر شباط يوم اخلال القمر ، ولقد سلمنا للرب ماتنطوي عليه من اسرار ، حيث لاندعي القدرة على التنبؤ ، ولمدة خمسين يوما او اكثر ظهر ذلك المنب كل مساء في جميع ارجاء الدنيا ، ومن المثير للعجب ان هذا المنب نفسه بدأ مع ضوئه الأبيض يخبرون منذ يوم ظهوره وذلك كل يوم شيئا فشيئا الى ان انعدم نوره في ايامه الأخيرة واختفى بالكلية هو ذاته.

وفي العشرين من الشهر نفسه سرعان ماشهدنا بعد ظهور القمر من الساعة الثالثة وحتى الظهيرة شمسين في السماء واحدة الى يمين الشمس الحقيقة والأخرى الى يسارها ، بيد أنهما لم تشعا بذور مثل نور الشمس الحقيقة ، بل توهجتا بذور خافت وبشكل باهت ، وزد على هذا تجلت حول هاتين الشمسين هالة بيضاء امتدت مثل المدينة (القدس السماوية) وتألفت داخل هذه الهالة نصف دائرة شبيهة بقوس قزح ، وكان لها اربعة الوان مختلفة ، وقد عانقت الشمس من الطرف العلوي من منحائها الى حد انها لامست الشمسين الآخرين اللتين اتينا على ذكرهما من قبل ، ثم شوهد في الشهر التالي ، في منتصف الليل ، وبطل من الشهب من السماء.

هجوم المسيحيين على أهل دمشق :

شن هيو صاحب طبرية في الصيف التالي هجوما على جند دمشق ، وبعدها هزموه مرتين على أرض المعركة ، قدر له الرب أن ينتصر في الهجوم الثالث ، فقتل منهم مائتين واحتفظ بخيولهم ، وهرب بقية الأعداء ، وكم هو ممتع أن يحكي المرء هذه القصة ، فقد مزق مائة وعشرون رجلا منا صفوف أربعمائة منهم ، واثّر ذلك أصيب هيو بسهم أودى بحياته ، وكان في حملة مع الملك بلدوين في المنطقة ذاتها .

عبور البطريرك البحر الى روما والحرب ما بين رجال يافا ورجال عسقلان :

عبر في عام ١١٠٧ م البطريرك المدعو أبرمار البحر الى روما ليستفسر من الكرسي الرسولي عما اذا كان سيحتفظ بمركزه كبطريرك أم لا ، اذ أن ديمبرت كما سلف بنا الذكر ، كان قد استرد منصب البطريركية ، لكنه توفي وهو مسافر على طريق العودة .

وفي شهر تشرين الثاني من السنة ذاتها ثارت وحشية رجال عسقلان المعهودة ، فنصبوا الكمان على سفوح الجبال بين الرملة والقدس ، وكانوا يهدفون الى الانقضاض على مجموعة من قو منا وأسرههم بعدما علموا بأنهم على وشك التوجه من يافا الى القدس .

وعندما عرف رجال يافا بذلك ، امتطوا ظهور خيولهم بدون تأخير ، وانطلقوا الى مواقع الكمين ، حيث قادهم اليه الذي ابلغهم الخبر ، وكان رجالنا يشكون في صدق الأخبار ، لكنهم عندما شاهدوا الحقيقة لم يصدقوه فقط ، بل دب في قلوبهم الرعب ، واشتد خوفهم لدى رؤيتهم للعدو ، فقد كان عدد رجال

عسقلان نحواً من خمسمائة فارس وألف راجل ، بينما لم يتجاوز عدد رجالنا الخمسة والسعين .

ولم يتهيأ لهؤلاء الرجال الوقت الكافي لتدبير أمورهم ، ووجدوا أن لانجاة لهم في الفرار ، والموت لابد مدركهم أن هم حاربوا ، ومع هذا أثروا أن يموتوا بشرف إذا اقتضى الحال على أن يلحقهم عار الهزيمة فيما بعد ، وهكذا انقضوا بشكل مباغت على الأعداء ، واخترقوا صفوفهم بشكل مذهل ، وطرحوهم أرضاً وذبحوهم ، ولما أدرك المسلمون فداحة الخسائر التي لحقت بهم ، تخلت عنهم شجاعتهم ، وتوقفوا - بمشيئة من الرب - عن القتال .

وعندما تبين لجنودنا هذا الحال ، شددوا ضغطهم على المسلمين ، فأرغموهم على الهرب ، بعدما كان قد خيل اليهم أنهم سيجبرون رجالنا على الفرار ، وقتل رجالنا عدداً كبيراً من المسلمين ، واستولوا على كثير من خيولهم ، ولم نخسر غير ثلاثة من رجالنا ، لكن حواشي معسكر العدو سرقوا بعض الدواب المحملة ، غير أن رجالنا انتزعوا ضريبة مضاعفة منهم .

بوهيموند يجمع جيشاً ويعيث في أراضي الامبراطور :

بعدما رجع بوهيموند في ذلك العام نفسه ، من بلاد الغال ، حشد أكبر عدد ممكن من الرجال ، وجهز أسطولاً في ميناء برنديزي في أبوليا ، وقد اعتلى الرجال متن السفن بعد انتظارهم للريح المواتية للجواز ، وكان ذلك في اليوم السابع قبل منتصف شهر تشرين الأول ، وابتحروا إلى بلغاريا ، ونزلوا على اليابسة في ميناء أفلونا .

وإثر الاستيلاء على ميناء أفلونا بكل سرعة ، قصدوا مدينة

دورازو وحاصروها في اليوم الثالث قبل منتصف تشرين الأول نفسه ولما كانت هذه المدينة مزودة جيدا بالمؤن ومشحونة بالرجال ، فقد صمدت أمام المحاصرين مدة طويلة ، مع أنه كان بصحبة الأمير بوهيموند خمسة آلاف فارس وستون ألف راجل علما بأنه لم يسمح وقتها للنساء بالجواز معه حتى لايربكن تحركات الجيش ويشكلن عبئا عليه .

وكان امبراطور القسطنطينية المدعو الكسوس ، قد بات في تلك الآونة يعد عدوا لقومنا أعاق حجاجنا وأرعبهم بالخديعة حينما وبالعنف السافر أحيانا ، وذلك أثناء ركوبهم الطريق الى القدس برا أو بحرا ، وكان هذا هو المحرض لبوهيموند لغزو بلاده ومحاولته الاستيلاء على مدنه وقلاعها .

معاهدة سلام بين الامبراطور وبوهيموند - حلف الأيمان لحفظها :

في سنة ١١٠٨ لتجسيد مولانا المسيح ، وبعد حصار استمر طيلة عام كامل أخفق بوهيموند في انجاز أي شيء ملموس ، مع أنه استخدم حيلة حربية كثيرة ضد الامبراطور ، مثلما عمل الامبراطور ضده ، وتوسط الأصدقاء بينهما وأمكن أخيرا الوصول الى معاهدة سلام عقدت بينهما ، وكان ذلك بعدما اقترب الامبراطور على رأس جيشه من بوهيموند وبعدهما التقيا للحوار عدة مرات .

وتعهد الامبراطور - بعدما أقسم على الآثار المقدسة الغالية - أن يؤمن منذ ذلك اليوم فصاعدا سلامة الحجاج ، الذين تردد ذكرهم كثيرا أثناء المباحثات ، وأن يمنع عنهم الأذى في البر والبحر في جميع البلدان التي وقعت تحت سلطانه ، وأن لا يحتجز أي واحد منهم أو تساء معاملته وأقسم بوهيموند بدوره على أن حافظ

- ٢٨٤٠ -

على السلام مع الامبراطور وأن يمنحه الولاء في جميع الأمور .
ثم رجع بوهيموند بعد هذا الى أبوليا ، وذلك عندما سنحت له
الفرصة بذلك وصحب معه عددا ضئيلا من جنده ، في حين سار
القسم الأعظم من الجيش الى القدس ، لكن عبر البحر وذلك تنفيذا
لما سلف وتعهدوا به .

وفي هذه السنة توفي فيليب ملك فرنسا .

حصار مدينة طرابلس :

بعد الاستيلاء على مدينة القدس بأحد عشر عاما أي في
العام ١١٠٩ قدم برترام بن الكونت ريموند الى طرابلس ، وكان قد
أحضر معه أهل جنوى واسطولهم المكون من حوالي السبعين سفينة
من ذوات المناكير ، وهبطوا الى اليابسة هناك ، واستهدف برترام
حصار هذه المدينة و الاستيلاء عليها وتملكها بحق الوراثة عن
أبيه .

وقد نشب نزاع بين برترام ووليم جوردان فور القاء الحصار على
المدينة ، ذلك أن وليم كان يهاجم المدينة طيلة المدة التي انقضت منذ
وفاة ريموند ، الذي كان يسكن في قلعة قرب طرابلس عرفت باسم
تلة الحجاج ، وحاجج برترام بأن المدينة له بحق الوراثة الشرعي
عن والده الذي كان البادئ أصلا بمهاجمة طرابلس ، وقد شيد
القلعة الحصينة هذه المعروفة بتلة الحجاج لغرض حصار
المدينة ، وقال أوصى لي والدي أثناء حياته بمدينة طرابلس كي
اتملكها بعد وفاته .

ورد عليه جوردان قائلا : الحق أن تكون المدينة لي ، لأنني
قمعت سكان البلاد المعادين ، وتصديت لهم منذ وفاة الكونت ريموند

- ٢٨٤٢ -

لم يتمكن من اكتشاف الفاعل ، ونتيجة لذلك شعر بعضهم بالحزن عليه لكن بعضا آخر ابتهج ولم تظهر عليه آثار الفجيعة ، وندب بعضهم وفاة صديق ، وفرح آخرون لموت عدو ، وفي جميع الأحوال بقي برترام تابعا وفيا للملك بلدوين .

ثم شدد الحصار على طرابلس من جميع الجوانب ، وقد بذل من كان خارجها الجهد العظيم لاحتلالها ، واشتد الضيق على من كان في داخلها ، ولما ضاق بالحصار سكان المدينة من المسلمين ، وفقدوا الأمل بالنجاة تم التوصل الى اتفاق أقسم عليه بالأيمان ، وصدق عليه الملك ، وقضى الاتفاق باعطاء الأمان للمسلمين وعدم قتلهم والسماح لهم بالذهاب حيث أرادوا وبلا ممانعة ، وبموجب هذا الاتفاق سمح للملك ورجاله باحتلال جزء من المدينة والدخول اليه ، وفي أثناء حدوث ذلك ، تفجرت فتنة واندلع الشغب بين صفوف العامة من أهل جنوى ، وذلك لأمر غير معروف السبب ، فدسلق الجنوبيون الأسوار بالحبال والسلالم ، ودخلوا الى المدينة وقتلوا كل مسلم صدفوه ، بيد أن الحماية قدمت للذين كانوا بجوار الملك ، وذلك بموجب الاتفاقية التي عقدها .

شعر :

سطعت الشمس في برج السرطان لثلاثين يوما ينقصها ثلاثة .
عندما استولى رجالنا الأشداء بقوة وبأس على مدينة طرابلس .

الاستيلاء على مدينة بيروت :

في الوقت الذي أقعد فيه شهر شباط لعام ١١١٠ البلاد وأقامها بأمطار الشتاء ، ركب الملك بلدوين الطريق وزحف نحو مدينة بيروت وضرب حولها الحصار ، وقدم الى عونه برترام كونت طرابلس حيث

- ٢٨٤٣ -

عسكر عند أول حدود المدينة ، وبعنما حاصروا المدينة من جميع الجوانب لمدة أقدرها بخمسة وسبعين يوما ، وبعنما حاصرت سفننا في داخل المرسى المراكب التي احتشدت هناك لتقـديم العـون للأعداء ، قرب الفرنجة الأبراج الخشبية ، التي شيدها ، الى السور ، وقفزوا منها بشجاعة فائقة الى أعالي السور وسيوفهم مشرعة ، ثم انحدروا الى داخل المدينة ، وفي تلك الأثناء دخل عدد كبير من رجالنا من الأبواب ، وهكذا طاردوا العدو المشتت بكل حماسة ، وأخيرا اعتقلوا الذين وجدوهم منعزلين مقطوعين هنا وهناك وانتزعوا منهم أموالهم .

شعر

في سنة الف ومائة وخمس وستين
قهرت شجاعتنا مدينة بيروت الجبارة .
وقد صعدت الشمس ضعف العشرة في برج الثور .
وثلاث وأربع مرات أكثر عندما وقعت هذه الحادثة .

شروع الملك بلدوين والأمير تانكرد بالزحف ضد الأتراك
الذين حاصروا الرها :

بعنما أنجزت هذه الأمور عاد الملك الى القدس ليقوم بحمد الرب
وشكره فهو الذي منحة النصر ، ثم بدأ يتجهز للزحف ضد الأتراك
الذين كانوا يحاصرون الرها ، وهي مدينة في بلاد الجزيرة .
وشاهدنا في تلك الأيام مذنبا امتد نحو الجنوب .

وحشد تانكرد أكبر عدد ممكن من الرجال في انطاكية ، ثم انتظر
وصول الملك لعدة أيام وأخيرا اجتمعت قواتهما المتعاونة قرب نهر
الفرات .

وفور جوازهم للفرات اصطدموا بالأتراك الذين كانوا يبحثون عنهم ، فقد سبق للأتراك ارسال العصابات تطوف في البلاد وتتسس أخبار وصول الملك ، ولم يتجرا الأتراك على مباشرة القتال والاشتباك مع قواتنا لمعرفتهم ببراعة فرساننا في القتال ومقدرتهم على الفتك بالرمح ، فركنوا بكل شطارة الى التراجع ، فلاحهم أقدموا على القتال ولم يبدوا الرغبة في العودة الى ديارهم.

لقد سعى الأتراك ، لعدم رغبتهم بالقتال ، الى أنهاء رجالنا ، وذلك طوال عدة أيام بواسطة خداعهم المضني ، وبعد تفحص الأوضاع والبحث عن أفضل ما يمكن القيام به أرسل الملك الامدادات اللازمة الى مدينة الرها ، وزودها بالمؤن التي احتاج سكانها اليها بعدما كان الأتراك قد همروا الاحواز ، وسلبوا القرى والفلاحين الذين كانوا يزودون المدينة المذكورة بالأغذية.

ولم يطل الفرنجة المكوث بعد هذا ، بل عابوا نحو النهر السالف الذكر ، وبعدما شرعوا في عبوره تدريجيا على طوافات خشبية صغيرة وقليلة العدد انقض عليهم الأتراك المخادعون هناك ، وأسروا عددا كبيرا من الرجال من قومنا وحملوهم الى بلاد الفرس ، وكذلك فعلوا بالآرمن الذين كانوا بلا حول ولا طول ، والذين كانوا قد نهبواهم بكل خسة من قبل ، ونظرا لصعوبة معاودة عبور النهر في ذلك الحين ، تابع الفرنجة سيرهم على طريقهم المرسومة تكلاً لقلوبهم الفجيعة ، وقد مضى تانكرد الى أنطاكية في حين ذهب الملك الى القدس.

الملك بلدوين مع النروجيين يحاصرون مدينة صيدا
ويستولون عليها:

وصل في تلك الآونة الى المنطقة قرب يافا جماعة من
النروجيين ، بعدما ألهمهم الرب بالقيام بالحج من البحر الغربي
الى القدس ، وكان اسطولهم يحتوي على خمس وسبعين
سفينة ، ويقودهم شاب عظيم الوسامة يمت بصلة القرابة الى ملك
تلك البلاد.

وعندما عاد الملك الى القدس امتلأ قلبه سرورا لمقدم هؤلاء
القوم ، فتبادل بود معهم أطراف الحديث ، وحثهم - لا بل توسل
اليهم - أن يبقوا محبة بالرب في الاراضي المقدسة لبعض الوقت حتى
يقدموا العون في سبيل نشر اسم المسيحية وتعظيمها ، وإذا ما
أحرزوا انجازا بارزا للمسيح ، كان بوسعهم العودة بعد ذلك الى
بلادهم ، وقد قدموا عظيم الشكر للرب وأصغوا الى هذا المطلب بعين
الرضى ، وأجابوا أنهم لم يحضروا الى القدس الا لمثل هذا
الغرض ، وأعلنوا أنهم سيبحرون بكل سرور الى أي مكان أراد
الملك ورغب بالتوجه اليه مع رجاله شريطة أن يزودهم بما يلزم
لعيشهم ، وتمت الموافقة على هذا الشرط وصدق الطرفان على
الاتفاق.

كان هناك ميل للزحف ضد عسقلان أولا ، غير أنهم لم تبنوا
أخيرا مشروعا أعظم مجدا ، في أن يزحفوا ضد صيدا
ويحاصروها ، وقاد الملك جيشه من عكا ، وتحرك النروجيون من
يافا على ظهر سفنهم.

وكان اسطول أمير مصر في تلك الآونة يكمن مختبئا في ميناء
صور ، فمن صور شن المسلمون الغارات القرصانية مرارا على

حجاجنا المسيحيين ، وبذلك قدموا الحماية والتشجيع الى المدن البحرية التي كانت ما تزال تابعة لسلطان ملك مصر ، لكن بعدما سمع المسلمون بأخبار النروجيين لم يتجاسروا على الخروج من مرفأ صور والدخول في معركة معهم.

ولما وصل الفرنجة الى صيدا حاصرها الملك من البر وحاصرها اسطول النروج من البحر ، وبعدما اكتمل اعداد آلات الحصار ، دب الرعب في قلوب الاعداء من وراء الأسوار ، الى حد أن قسوات المرتزقة التي كانت تتولى حمايتها توسلت الى الملك بلدوين أن يأذن لها بالذهاب بأمان ، وإذا رغب فله أن يستبقي في المدينة الفلاحين للافادة في زراعة الأرض.

كان هذا ما طلبوه ، وذلك ما نالوه ، فغادر الجند من المرتزقة بدون ثرواتهم ، ومكث الفلاحون بأمان في ظل الشروط المبينة أعلاه.

شعر:

أشرقت الشمس تسع عشرة مرة في برج القوس
عندما استولوا على مدينة صيدا في كانون الأول.

الأتراك يثيرون المتاعب ، وحملة الملك بلدوين
وتأنكد ضدّهم:

انطلقت في سنة ١١١١ حشود هائلة من الأتراك من بلاد فارس و اجتازوا بلاد الجزيرة وعبروا نهر الفرات ، ثم حاصروا قلعة تل باشر ، وأقاموا حولها مدة شهر ، وعندما عجزوا عن احتلالها لمتانة أسوارها ومناعة موقعها ، ضاقت صدورهم بسبب

التأخر ، ورفعوا الحصار وانسحبوا الى أحواز حلب ، لأنهم خططوا بدهاء الى اثاره تانكرد واستدراجه ليخرج الى قتالهم ، لأنه لو فعل ذلك كان بإمكانهم - لكثرة اعدادهم - أن يوقفوه بعيدا عن أنطاكية ويدمره كليا.

لكن تانكرد تصدى للدهاء بالدهاء حيث لم يدر بمخيلته تعريض سمعته للشبهات باقتراف أفعال هوجاء ، فبعث برسول الى الملك بلدوين يتوسل اليه بكل تواضع أن يسارع لم يد العون الى القضية المسيحية ، ولما سمع الملك بذلك وعد بتقديم العون المطلوب ، فاستخلف من ينوب عنه في ادارة البلاد ، وزحف نحو الحرب واصطحب برترام كونت طرابلس ، وعندما وصلوا الى البلدة التي تعرف باسم الروح قرب المعرة كان تانكرد هناك ، فقد وصل منذ خمسة أيام و أقام ينتظر وصول الملك ، وقد استقبله بكل سرور و غبطة ، فأنزلوا أنفالهم ، و أقاموا معسكرهم قرب نهر العاصي ، وشارك رجال القدس رجال أنطاكية في معسكرهم ، ولم يكتثوا هناك طويلا ، بل زحفوا نحو مدينة أفامية ، وكانت تحت سلطان تانكرد الذي سبق له أن استولى عليها بطريقة مثيرة للاعجاب لما فيها من اقدام.

ثم زحف الفرنجة ثم الاتراك الذين كانوا قد عسكروا أمام المدينة التي يدعونها « سيارا » وفي الحقيقة لا أعرف كيف ألفظها بلغة سليمة ، ولكن سكان البلاد كانوا يسمونها « شيزر » وهي تبعد نحو من ستة أميال من أفاميا ، وعندما سمع الاتراك أن الفرنجة كانوا يتقدمون نحوهم ، تخفوا خلف تحصينات شيزر وبين بعض الشجيرات التي كانت هناك ، وذلك بهدف احكام الدفاع عن أنفسهم إذا ما أحاط الفرنجة بهم أو انقضوا عليهم وعلى الرغم من ذلك فقد انبعث الاتراك من بين تحصيناتهم الموصوفة عندما رأوا جنودنا يقتربون منهم ، وأروا أنفسهم لرجالنا ، ومع هذا لم يتجسروا على الحرب ولم يرغبوا أيضا بالفرار.

واصطف جنودنا في قصائل ، وعندما رأوا الأعداء يتراكمون
هنا وهناك دون تعبئة للقتال ، أحجموا عن مهاجمتهم غير راضين
بالمغامرة ، وهكذا تحت تأثير الخوف ولدهاء الطرفين بقي الأتراك
حيث هم وعاد رجالنا من حيث أتوا.

وعندما شحت الأغذية وانعدمت العلوفات لم يعد بإمكان الفرنجة
البقاء مدة أطول فرجع الملك الى القدس ، ومضى تانكرد عائدا الى
أنطاكية.

الملك يحاصر صور دون أن ينجز شيئا :

وبادر الملك بعد ذلك بكل سرعة باعداد العدة والتجهز للزحف ضد
صور ، التي تدعى بالعبرانية « سور » و ضرب عليها
الحصار ، وبعدما ضيق الخناق عليها بشدة لنيف وأربعة أشهر هذه
ورجاله التعب ونالهم الاعياء ، فانسحب بعد تردد ، فقد كان أمر
ببناء برجين خشبيين يكونان أعلى السور ، وبفعهما الى جوار
الأسوار أملا بذلك في أن يستولي على المدينة ، ولكن المسلمين وقد
أدركوا أن في ذلك حتفهم هزموا البراعة بالبراعة ، وعارضوا الدهاء
بالدهاء وتصنوا للشجاعة بالشجاعة.

وكانوا عندما رأوا أن ارتفاع البرجين اعلى من فوق الأسوار
بكثير ، ابتكروا العلاج على عجل فشيدوا برجين فوق أسوارهم
أثناء الليل ، وقد مكن ارتفاع هذين البرجين الشاهقين المسلمين من
الدفاع عن أنفسهم بنجاح حيث أشعلوا النيران من الأعلى وقذفوها
على برجينا القصيرين ، وبهذه الوسيلة هزم رجالنا وغمرهم
اليأس ، وعندما انقطعت آخر حبال الأمل رجع الملك الى عكا.

يقول المثل المتداول بكل صدق « كم من غصمة بين الكأس

والشفقة « فقبل تلك الآونة كان قومنا يتوازعون الغنائم التي توقعوا نيلها ، وقبل ذلك الوقت شك بعضهم بسواهم وارتابوا حول حصصهم ، وقبل ذلك الحين قدروا أن احتلال المدينة أمر واقع لا ريب فيه ، وقد قال سليمان: « الفرس معد ليوم الحرب أما النصر فمن عند الرب » (الأمثال: ٢١ / ٣١) ففي تلك الأثناء وضع الناس ثققتهم بقوتهم ولم يتذكروا ما مآذوا به للرب ، وكانوا كثيرا ما يناشدونه بالسنتهم ويبتعدون عن صالح الأعمال ، ويتفاخرون بفضائلهم في انتصاراتهم أكثر من تمجيدهم لمنح الرب ورحمته.

موت الأمير تانكرد:

سدد في عام ١١١٢ تانكرد الذي حكم امارة انطاكية - دينة للموت ، وقد رأت الشمس شارة البرج ثلاث عشره مرة مضاعفة عندما خدع تانكرد لمن لا يرحم ، وتحقق ماكتب عليه وكان ، وخلفه قريبة روجر ، وقد سلمنا من الحلول كلية في تلك السنة .

العلامات التي ظهرت:

في عام ١١١٣ لتجسيد الرب ، وفي اليوم الثاني والعشرين لبزوغ قمر شهر اذار ، راينا الشمس منذ الصباح الباكر حتى الساعة الاولى ، وفضلا عن هذه رايناها تبهت ويخبو نورها في واحد من اجزائها ، ثم مالبت أن هبط ذلك الجزء الذي بدأ بالخبو من أوجهها الى قعرها على هيئة مدورة ، وفي اعتقادي لم تفقد الشمس سطوعها و لم يتضاءل نورها الا في واحد من أرباعها الذي ظهر على شكل هلال صغير.

شعر:

كان ذلك كسوفاً جعل الشمس تخذلنا

المعركة ضد الأتراك التي هزم فيها الملك مع المسيحيين
ونجم عنها شر مستطير:

وما لبث الأتراك أن حشدوا قواتهم في ذلك الصيف وعبروا نهر
الفرات على نية الزحف نحو القدس وبلادها ليدمرونا حسبما خيل
اليهم ، وزحفوا جنوباً مخلفين منطقتة أنطاكية عن
يمينهم ، واجتازوا سورية المجوفة بين صمو وقيسارية فيليب التي
تعرف باسم بانياس وقصدوا مناطق فينيقية ، واستهدفوا مهاجمة
الملك بلدوين ، الذي ما أن سمع بقدمهم حتى زحف على رأس
قواته من عكا للتصدي لهم.

وبعدما تزود الأعداء بما راوه نافعا لهم ، وبينما كنا في جهل تام
لما يقصدون داروا حول بحيرة طبرية عابرين لمنطقتي « نافتالي »
(أفيق) وزبيل (الصنبرة) نحو الجهة الجنوبية من البحيرة
المذكورة ، وهناك وجدوا أنفسهم بين جدولين يدعيان جور
ودان (؟)

وكان هناك جزيرة وقعت بين جسرين (جسر الصنبرة) في ذلك
المكان ، وقد كانت حصينة جدا ، بحيث لا يقدر أحد أن يهاجم من
يتحصن فيها لضيق مداخل الجسرين ، وعندما أقام الأتراك
معسكرهم ، بادروا فوراً بإرسال ألفين من رجالهم عبروا واحداً من
هذين الجسرين ليعدوا كمينا لرجالنا ، فقد كانوا على ثقة من أن
الفرنجة سيندفعون نحو ذلك الموقع بدون تردد.

وعندما جاء الملك ليعسكر قرب الجسر المذكور والمفضي الى
طبرية ، رأى نحو خمسمائة من الأتراك يندفعون من مكنهم
ويحملون على رجالنا ، فما كان من بعض هؤلاء الا أن هاجموا
الأتراك وحملوا عليهم ولم يترددوا وهم يقتلونهم في مطاردة أعدائهم
الى موقع الكمين ، وهنا انبعث ألفان من رجال العدو من
مكائهم ، وصدوا رجالنا بهجوم شديد جدا ، وشنتوهم بعدما
صرعوا منهم نحو ثلاثة أضعاف ما خسروا هم أنفسهم .

بالهول المفاجعة ، لقد جلبت أثماننا خزيا عظيما علينا في ذلك
اليوم ، فقد هرب الملك بعدما فقد رايته وخيمته الفاخرة وكثيرا من
المفروشات والأوعية الفضية ، كما هرب البطريرك أيضا ، فقد كان
هناك ، وفقدنا قرابة ثلاثين من خيرة فرساننا وحوالي ألف ومائتين
من رجالتنا .

« طلعت الشمس في برج السرطان ثلاثة أضعاف الأربعة
عندما شمت هذا الجنس الذي لا دين له الفرنجة المتهورين » .

غير أن قوات الملك لم تكن قد وصلت جميعها بعد الى ذلك
المكان ، وعلى الأخص لم يكن هناك روجر بن رتشارد أمير
أنطاكية ، وكان قد استدعي باسم محبة الرب والملك ، فقدم من
أنطاكية على عجل ، وكان بعض رجال أنطاكية قد انضموا قبل الآن
الى الجيش الملكي ، وأصيب الجميع بالأسى واليأس العظيم
وشجبوا بحزن عميق طيش الملك في اندفاعه نحو العدو
بحماسة ورعونة دون التأني للمشاورة والعون .

ولما لم يعد في مقدور رجالنا إيقاع أي ضرر بين صفوف الأتراك
عسكروا غير بعيد عنهم ، وراقب كل فريق الفريق الآخر طيلة ذلك
اليوم .

وكان قائد الأعداء يحمل اسم مودود ، وكان معه طفتكين ملك دمشق وحليفه ، وقاد مودود قوة عملاقة وحشد طفتكين حشودا لا تحصى من أطراف سورية الواقعة تحت سلطانه.

وكان الأتراك معسكرين في الأراضي المنخفضة بينما وقف الفرنجة فوق المرتفعات ، ولم يتجرا الأتراك على الخروج من جزييرتهم ، ولم يستطع الفرنجة مهاجمتهم ، فلقد خطط لذلك أحد الطرفين ، وخاف الطرف الآخر ، الحقيقة كان أحد الطرفين مأكرا بينما كان الطرف الآخر مهدودا من التعب

« وقد أثقلت حرارة الصيف الوطأة على الطرفين
غير أنهما لم يستطيعا وضع حد لذلك العذاب »

وتساءل الفرنجة الغائبون عن سبب طول تأخر الذين كانوا هناك ، وتخلّى السراسنة (الكاسيليا - الفلاحون) التابعون لنا عنا وهجرونا ، وحاصرونا كأعداء لنا ، حاصرونا من كل جانب ، زد على هذا خرجت زمر من الأتراك من جيشهم لتدمر بلادنا ولتبعث بالموء والغنائم الى جيشهم بوساطة السراسنة ولم يكتف الأتراك بالاستيلاء على مدينة نابلس بل دمروها بمساعدة السراسنة الذين كانوا تحت سلطاننا في الجبال.

فضلا عن هذا تقدم اهل عسقلان وهم عرب وسراسنة ، على الرغم من قلة عددهم ، نحو القدس ، حتى وصلوا في أحد الايام الى سور المدينة الخارجي ، واشعلوا النيران في المحاصيل المجمعة هناك ، واصابوا بنشابهم بعض رجالنا الذين كانوا وراء دفاعاتهم فوق الاسوار وجرحوهم ، غير أن عددا كبيرا من رجالهم أصيبوا بجراح مميتة ، هذا ولم يكن جنودنا في المدينة لانهم كانوا قد خرجوا للتصدي للعدو ، وتراجع اهالي عسقلان في اليوم التالي مما جلب

- ٢٨٥٣ -

ارتياحا كبيرا لرجالنا الذي ارتجفت قلوبهم من الحصار على يد هؤلاء القوم.

الرعب الشديد الذي دب في قلوب الجميع:

لقد بات من المحال في تلك الآونة - بسبب كمائن العدو ومصائده - أن يغامر أي رسول نبعثه إلى الملك ، أو أن يصل أي رسول منه إلى أي مدينة من مدنها ، لذلك لم تعرف البلدان ما الذي كان يفعله الملك ، ولم يتمكنوا بنورهم من اعلام الملك بالذي كانوا يفعلوه.

« في كثير من الحقول نبل الحصاد الناضج
ولم يذهب أحد إلى الحقول ليجمعه » (متى ٢٧/٩)

على هذا لم يجرؤ أحد على فعل ذلك ، وكان الحصاد في تلك السنة وفيرا ، لكن ما الفائدة ، فعندما يثور البحر يخشى الرجال أن يضطادوا ، فقد أصاب الشك كل شخص حول كل أمر ، وانتظر الجميع ليروا إلى من سيعطي الرب النصر ، وتوقف مسيحيونا عن متابعة أعمالهم وأشغالهم باستثناء إصلاح الأضرار التي لحقت بالمدن وبأسوارها .

الزلازل وزواج الملك من كونتسية صقلية :

شعرنا في تلك الآونة بالزلازمة مرتين وبالتحديد في اليوم الخامس عشر قبل مطلع شهر آب ، ثم في اليوم الخامس قبل منتصف الشهر نفسه ، وحدثت الهزة في المرة الأولى عند منتصف الليل وجاءت الثانية عند الساعة الثالثة .

وانتظر الأتراك في تلك الأثناء مدة شهرين بكل مكر لحلول الوقت الموائم لتمزيق صفوفنا وتمزيقنا والحقاق الهزيمة بنا ، لكن عبثا فعلوا وجاء مكوثهم بلا جدوى ، لأن الحجاج كانوا يصلون في ذلك الموسم حسب عادتهم عبر البحار ، وبذلك تضاعف عدد جيشنا يوما إثر يوم ، علاوة على ذلك لم يتخل عنا رجال أنطاكية ومكثوا معنا ، وانسحب أخيرا الأتراك نحو مدينة دمشق .

وتراجع الملك ورجاله نحو عكا ، وهناك وجد كونتسية صقلية ، وكانت من قبل زوجة للكونت روجر أخو روبرت غويسكاردي ، وقد قدر لها الآن أن تصبح زوجة للملك بلدوين .

وبعد هذه الحادثة بسوقت قليل اغتيل مودود على يد أحد « السراسنة » وكان هذا قد أخفى مديّة تحت رداءه فطعن بها ضحيته في معدته ، وهكذا اقترف جريمة مزدوجة إذ أنه قتل وقتل في الحال على أيدي الحضور ، وإن النصر الذي يؤدي إلى هزيمة المنتصر لسمّ الطالع ، فهذا ما حدث ، حسبما جاء في أقوال الفلاسفة : « السعد من زجاج ما أن يتألق حتى ينكسر » .

وكان مودود وافر الثروة ، عظيم السطوة ، ذائع الصيت بين الأتراك ، وكان عظيم الهمة حازما في أعماله ، غير أنه لم يستطع مقاومة إرادة الله ، فقد شاء الله فأتى له أن يكون وباء علينا لبعض الوقت ، غير أنه شاء بعد ذلك أن يموت ميتة شنيعة على يد رجل نكرة .

الزلزلة التي شعر بها في أماكن عديدة :

زحفت في سنة ١١١٤ م أسراب لاتحصى من الجراد من بعض

أجزاء شبه جزيرة العرب ، وطارت إلى ديار القدس ، وقد أصابت في شهري نيسان وأيار محاصيلنا والحقت بها أضرارا بالغة .

وحصلت فيما بعد في عيد القديس لورنس (١٠ - أب) زلزلة ، وجاءت هزة ثانية بعد ذلك في منتصف تشرين الثاني فدمرت شطرا من مدينة المصيصة ، وهزت زلزلة أخرى عظمى - وكانت أشد ما سمعنا عنه على الإطلاق - منطقة أنطاكية ودمرت جزئيا أو كليا عددا من البلدان بما في ذلك البيوت والأسوار ، وقد هلك بعض عامة الناس وماتوا خنقا تحت الردم ، وذكر أن تلك الزلزلة قد دمرت مدينة مرعش التي أظنها تبعد حوالي الستين ميلا إلى الشمال من أنطاكية فهناك دمرت البيوت والأسوار برمتها ، أما السكان الذين عاشوا هناك فقد هلكوا - والأسفاه - وأبيدوا عن بكرة أبيهم ، كما ودمرت مدينة أخرى تدعى بالاس (تريالثر) على مقربة من نهر الفرات .

حشد الجيش التركي وحصار يافا على يد أهل عسقلان والقاهرة :

استأنف الأتراك في عام ١١١٥ م عنفهم وجراتهم المعهودة ، وتسلبوا عابرين نهر الفرات في حزيران ، ودخلوا إلى سورية وعسكروا فيما بين أنطاكية ودمشق ، وبالتحديد أمام مدينة شيزر ، وكانوا اتخذوا لأنفسهم هنا موقعا مماثلا منذ أربع سنوات خلت كما سلف بنا الذكر .

واكتشف طغتكين ذلك ، وعرف أنه لن يكون أقل مدعاة للاحتقار والريبة في نظر هؤلاء الأتراك عما هو في نظرنا نحن المسيحيين ، لأنه كان مطلعا غدرا وخيانة على مؤامرة اغتيال مودود التي أشرنا إليها في العام الماضي ، وذكرنا أن مودود هذا كان قائد الجيش الأعلى ،

ولهذا أحل طفتكين السلام بينه وبين كل من الملك بلدوين والأمير روجر صاحب أنطاكية ، وهكذا أضيف جيش ثالث إلى جيش الملك والأمير ، وأقيم - إذا جاز التعبير - رباط ثلاثي ، لم يستطع الأتراك فصم عراه بعد ذلك بسهولة ، فلقد خشم طفتكين أنه لو بقي منفردا أن يتم تدمير مملكته كليا .

وحضر الملك بلدوين إلى المنطقة للمشاركة في المعركة التي خيل إليه أنها لابد واقعة ، وجاء بناء على مشورة تلقاها من بعثة من أنطاكية ، وعندما سمع الأتراك بقدومه وأنه بات على مقربة منهم خيل إليهم أن ذلك ما هو إلا مقدمة لجيوش أنطاكية ودمشق ، فهذا ما كانوا يتوقعونه منذ ثلاثة أشهر ، وانسحب الأتراك وتراجعوا خائفين بهدوء ، فقد خافوا على أرواحهم إذا ماقاتلوا ضد جيش بهذا الحجم ، مع أنهم فاقوه كثيرا بالعدد ، ودخلوا إلى المغائر التي تبعد كثيرا عنا ، وعندما فعلوا ذلك خيل للملك ولحلفائه أن الأتراك قد غادروا منطقتنا بالكلية ، ولذلك توجه الملك إلى طرابلس .

و في خلال هذه المجريات ، اندفع نحونا رجال عسقلان لمعرفة أن بلاد القدس خالية من جنودها ، وحاصروا يافا برا وبحرا ، فقد كان هناك أسطول مصر المكون من حوالي السبعين قطعة بحرية بعضها ثلاثية المجانيف وبعضها الآخر من السفن المعقوفة ، وقسم منها كان يحمل المؤن المعدة لهذه الحملة ، ووصل رجال عسقلان بعضهم برا وبعضهم الآخر بحرا ، واقتربوا من أسوار المدينة وكانوا مجهزين للهجوم عليها ، وعندما بنلوا غاية جهدهم لتسليق الأسوار بوساطة السلالم التي أحضروها معهم ، صدمهم سكان المدينة ودفعوهم بشدة مع أنهم كانوا قلة في العدد ، قد أضعفهم المرض .

ولما رأى أهل عسقلان أنهم لم ينجزوا شيئا حسبما خططوا ، سوى طرح النار في أبواب المدينة خافوا أن يبعث أهل القدس الذين سمعوا بالأخبار العون إلى أهل يافا لذلك انسحبوا ، ورجع الذين

قدموا برا إلى عسقلان أما الذين قدموا بحرا فقد عادوا إلى مدينة صور .

وبعد عشرة أيام عاد أهل عسقلان إلى يافا ظنا منهم أنهم إذا كانوا على أتم استعداد فسيتمكنون من تدمير عدوهم بهجوم صاعق لاسيما إذا كان على غير استعداد ، ولكن الرب الكلي القدرة ، حمانا وأنقذنا مثلما فعل في الماضي ، وقتل الفرنجة أثناء الدفاع عن أنفسهم بعض الأعداء ، واستولوا على خيولهم وبدأ أهالي عسقلان حصارهم ليافا بخربها بالمجانيق ثم حاولوا اقتحامها كما جربوا من قبل ، بتسلق السلالم التي جلبوها معهم على ظهر القوارب الصغيرة ، وخلال ست ساعات من القتال أنهكت قواهم فانسحبوا أسفين يحملون معهم موتاهم .

معركة بين الأتراك و رجال أنطاكية حاز فيها الفرنجة نصرا مؤزرا:

وعندما اكتشف الأتراك السالفي الذكر أن جيشنا قد عاد إلى بلاده ، رجعوا إلى مواقعهم التي نكرناها من قبل ، وعاثوا فسادا في أراضي سورية المجوفة ، فاستولوا على ما أمكنهم من القلاع ، ونهبوا القرى ودمروا الدساكر وأخذوا النساء والرجال أسرى .

وعلم رجال أنطاكية بذلك بعد انسحابهم ، فارتدوا كارين على عجل ، وزحفوا ضد الأتراك عبر الطريق التي غادروا منها ، وعندما اقتربوا من الأتراك وجدوا أن معسكرهم كان أقرب مما خيل إليهم فوضعوا أنفسهم في تعبئة المعركة ، وانحدروا على الفور نحو منطقة المعسكر وكانت خيولهم تعدو بهم بسرعة نحو العدو وراياتهم مشرعة ، ونشب القتال قرب بلدة سرمين .

وحين رأى الأتراك الفرنجة ، أبدى فيلق رماة السهام منهم مقاومة شديدة في الحال ، غير أن روح الحماسة والشجاعة الفائقة ازدادت تأججا في صدور الفرنجة ، فأثروا هزيمة أعدائهم - بعون الرب - أو أن يموتوا - بإذن الرب - على أن يتحملوا تحرشات الأتراك هذه كل عام ، لقد انقضوا على الأعداء بضراوة مذهلة وشدوا عليهم حيث راوا تجمعاتهم على اكتفها .

وفي البداية قاوم الأتراك لبعض الوقت ، ثم هربوا فجأة من أمام الذين فتكوا بهم وأهلكوهم ، وقد قدر عدد القتلى من الأتراك بثلاثة آلاف كما وقع بالأسر عدد كبير منهم ، أما الذين نجوا من الموت والأسر فقد لاذوا بالفرار ، ففقدوا خيامهم التي احتوت على كثير من الأموال والنخائر ، وقد قدرت الأموال بثلاثمائة ألف قطعة ذهبية ، وخلف الأتراك في معسكرهم الأناس الذين كانوا قد أسروهم من شعبنا من الفرنجة والسريان ، كما خلفوا زوجاتهم وخدمهم من الجواري مع كثير من الجمال والدواب التي أحصى بينها آلاف البغال والخيول .

لاشك أن الرب رائع في جميع معجزاته ، فعندما كان رجال القدس ومعهم رجال أنطاكية ودمشق مستعدين لخوض المعركة لم ينجزوا شيئا أبدا ، لأنه متى كان نصر المحاربين يعتمد على عدد الرجال ؟ تذكر المكابيين (المكابيون : ١ / ١١ - يهوذا : ٦ / ٨) وكثير غيرهم من الذين وضعوا ثقتهم بقوة الرب لابقوتهم فانتصروا على الآلاف المؤلفة .

وبالوصف التالي ستعرف الأجيال المقبلة هذه الحوادث :

« ومرت ليال ثلاث قبل أن ينقض برج العذراء عندما تخلى الحظ العاثر عن الأتراك بقسوة فمن الجلي إذن : إن على الجميع أن يحسبوا أنه قبل نهاية أي مسألة ينبغي ألا يعتبر أي أمر مؤكدا »

ودمرت في تلك السنة مدينة المصيصة بفعل الزلازل ، وقد تضررت
اماكن أخرى في منطقة انطاكية بمثل ذلك .

ووصل في تلك السنة اسقف اورانج مبعوثا إلى القدس من قبل
كرسى البابوية ، فعزل البطريرك ارنولف من منصبه ، ولهذا السبب
توجه ارنولف إلى روما واسترد بطريركيته فيما بعد .

القلعة التي جرى تشييدها في وادي عربة :

قصد الملك بلدوين في ذلك العام وادي عربة وشيد هناك قلعة منيعة
على قمة جبل صغير ، وهي لاتبعد كثيرا عن البحر الميت ، مجرد
مسيرة ثلاثة أيام ، وتبعد عن القدس حوالي أربعة أيام ، وقد أبقى
فيها حامية لتتسلط على المنطقة حماية لمصالح المسيحيين ، وقرر أن
يسمى تلك القلعة مونتريال (الشوبك) وذلك تمجيدا لنفسه لأنه
بناها في فترة قصيرة ، بعدد قليل من الرجال وكثير من الشجاعة .

حملة الملك إلى وادي عربة وما شاهده هناك :

عندما ذهب الملك مع قرابة المائتي فارس لزيارة قلعته ثانية في
وادي عربة وذلك في عام ١١١٦ ، تقدم حتى طرف البحر الأحمر
ليرى ما لم يشاهد من قبل على أمل أن يجد شيئا في طريقه قد يرغب
في اجتيازه ، ووجد في ذلك الوقت مدينة أيلة على شاطئ ذلك البحر
حيث قرأنا أن بني اسرائيل قد عسكروا هناك بعدما عبروا البحر ،
ولدى سماع العرب المقيمون هناك بأخبار قدوم الملك هربوا وركبوا
البحر في قواربهم الصغيرة بعدما أصابهم هلع شديد ، وبعدما تفقد
الملك ورجاله الموقع كما طاب لهم ، عادوا إلى القلعة في
مونتريال (الشوبك) ومنها توجهوا عائدين إلى القدس .

وعندما حدثونا عن مشاهداتهم ، سررنا لسماع رواياتهم ولرؤية
الأصداف البحرية وبعض الأحجار الكريمة التي أحضروها معهم ،
وقد استفسرت أنا منهم شخصيا عن ماهية هذا البحر ، تلك أنني
كنت قد تساءلت في تلك الأثناء عما إذا كان مالحا أو عذبا ، وهل
كانت مياهه راكدة أم هي مثل مياه البحيرة ، وهل كانت له مداخل
ومخارج مثل بحر الجليل (طبرية) وعما إذا كان محدد الأرجاء
كالبحر الميت الذي يصب فيه نهر الأردن ، ولا يخرج منه شيء ، ذلك
أن البحر الميت تحده من الجنوب زغر مدينة لوط (سفر التكوين :
١٣ / ١٠ ، ١٩ / ٢٢ - ٢٤)

البحر الاحمر :

اطلق على هذا البحر اسم الاحمر لان الرمل والحجارة في قاعة
حمراء ، فهو لهذا يبدو للناظر كأنه احمر ، لكن مياهه رائقة صافية
إذا وضعت في وعاء ، مثلها مثل مياه أي بحر آخر ، ويقولون : ينبع
هذا البحر من المحيط في الجنوب ، ويمتد كلسان شمالا إلى أيلة
التي أشرنا إليها ، حيث ينتهي على مقربة من جبل طور سيناء الذي
يبعد عنه مسيرة يوم واحد للراكب على الحصان .

ويقدر أن الرحلة من البحر الاحمر ، أو بالحري من أيلة إلى
البحر الكبير ، الذي نبحر فيه من يافا وعسقلان إلى دمياط ،
تستغرق حوالي أربعة أيام أو خمسة على ظهور الخيل ، وتضم هذه
المنطقة فيما بين هذين البحرين كل من نوميديا ومصر والسودان
التي يحيط بها نهر جيحون ، وهو نهر الجنة الذي هو نهر النيل
كما قرأنا (التكوين : ١٣ / ٢) .

نهر جيحون :

كنا قد قرأنا كيف يخرج نهر جيحون (النيل) من الجنة مع انهيار ثلاثة أخرى ، وهذا يدهشني ، ولا أقدر على تفسير : كيف ، وبأي طريقة ، وجد مصدرا آخر يصب فيه ؟ ذلك ان البحر الاحمر من ناحيته الشرقية ، ويحرننا من ناحيته الغربية ، فبينه وبين الشرق يقوم البحر الاحمر ، ومع هذا نقرا ان الجنة قساعة في الشرق ، ولذلك انني استغرب كثيرا كيف يتابع مجراه في هذه الناحية من البحر الاحمر ، وكيف يقطع البحر ، او فيما اذا كان فعلا يقطع البحر .

الفرات :

ويقال الامر نفسه عن نهر الفرات ، الذي له مصدر آخر في ارمينية ، فيقطع بلاد الجزيرة على بعد حوالي اربعة وعشرين ميلا من الرها على ما ظن .

دع من اراد ان يتساءل عن هذا السبب ، واترك من يستطيع ان يعرف السبب ، فقد جربت مرارا ان اعرفه بسؤال عدة اشخاص ، غير انني لم اجد ابدا من استطاع ان يفسره لي ، وانني ادع هذا التفسير للذي يرفع الماء الى السحب بقدرته المعجزة ، ويرفع الجداول الى الجبال والتلال ، ويجعل مياه الوديان تنساب بين صدوع الاخاديد الخفية ، الى ان تجد البحر في نهاية المطاف وتبتلع في احشائه .

وعندما قاربت هذه السنة على الانتهاء ، اصيب الملك بمرض ازداد تعاضما حتى خشي من الموت ، لذلك صرف ابيلدا زوجته

الجديدة - كونتسية صقلية من قبل، التي تقدم نكرها ، والتي كان قد تزوجها خلافا للناموس - تلك ان التي كان قد تزوجها قانونيا قبلها كانت ماتزال على قيد الحياة في مدينة الرها .

جائحة الجراد الكبيرة :

غادرت الملكة المذكورة ميناء عكا في عام ١١١٧ لتجسيد مولانا المسيح ، وذلك في اليوم الذي انشدوا لها فيه الصلوات المؤلفة من جملة من الابتهالات حسب طقوس الكنيسة ، وقد سافرت بحرا الى صقلية وبرفقتها سبع سفن .

وعجت اراضي القدس في شهرايار بأسراب لاتعد ولا تحصى من الجراد التي التهمت اكثر مما هو معتاد الكرمه ومحاصيل الحقول والاشجار على مختلف انواعها ، وكنت تشهد هذه الاسراب تزحف مثل جيش منتظم من الرجال كما لو انهم عقدوا المشورة ونظموا زحفهم حسب اتفاق ، وبعدما كانوا يقضون رحلة يومهم زاحفين وبعضهم طائرين كانوا يختارون بالاتفاق مرقدًا مريحا لانفسهم ، وهكذا عندما التهموا كل ما هو اخضر وقضموا حتى لحاء الشجر ، غادرت اسرابهم بعضها مجنح وبعضها الاخر زحاف بلا اجنحة .

سحقا لحماقة الرجال الذين يمعنون في ضلالهم المؤذي ، فكثيرا ومرارا ما يلامسنا الخالق بتحذيره ويرعبنا بنذره ، ويحسركنا بوعيده ، ويرشدنا بعبيره ، ويكبحنا بعقابه، غير اننا نمعن في غينا ولانصغي الى نصحه ونخرق تعاليمه بازدياء .

ما وجه الغرابة والحال هكذا اذا ما انتزع السراسنة - او اناس اشرار سواهم - منا بلادنا ، بينما نمد نحن انفسنا يد اللصوصية الى حقول جيراننا ، فنحن نحتال بالفعل بثلثم المحراث ، او بسبلهم

خفية بأعمال جشعة منكرة ، وهكذا نزيد ثرواتنا اثما بوضع ايدينا على ممتلكاتهم .

فما وجه الغرابة ، اذا ما انن الرب ، وقضمت الفئران محاصيلنا من جذورها في الارض وهي في حالة البرعمة ، او اذا ما التهمها الجراد بعد نضجها ، او اذا ما اصابها العطب في المخازن بسبب التعفن ، او التهمتها الديدان من كل نوع ، بينما نبيع نحن ضلالا اعشار الرب ، او نحفظ بها كلية مدنسين المقدسات .

شارات القمر :

في الشهر التالي الذي صادف شهر حزيران ، بدا القمر لمن كان منا ينظر الى السماء بعد وقت صياح الديك ، ولونه احمر كليا في البداية ، غير ان الاحمرار مالبت ان تغير الى سواد ، حتى ان القمر فقد قوته الضوئية مدة ساعتين تقريبا ، ووقع هذا في اليوم الثالث عشر من الشهر ، ولو وقع في اليوم الرابع عشر لكنا ظنناه خسوفا بدون شك .

لذلك عدنا ذلك نذيرا ، وخيل الى بعضهم انه بسبب الاحمرار سيسفك الدم في القتال ، و بسبب السواد ظن آخرون ان المجاعة قادمة ، غير اننا سلمنا الامور للعناية الربانية ، فالرب قد اخبر رسله انه ستكون هناك علامات في الشمس والقمر (لوقا ٢١ / ٢٥ و تكون علامات في الشمس والقمر و النجوم) .

فانرب اذا شاء يجعل الارض تهتز ثم تسكن ، وقد تتابع وقوع ذلك في الشهر نفسه في ليلة ساد فيها السكون ، وذلك في اليوم السادس قبل بداية شهر حزيران.

القلعة التي بنيت قرب صور :

ثم بنى الملك امام مدينة صور قلعة تبعد عنها مسافة خمسة اميال ، وقد سماها سكانليون وتفسير هذا الاسم « اسد الحقل » وقد رمم صدوعها ، وترك فيها حامية لتتولى كبح جماح سكان صور .

العلامة المدهشة التي ظهرت على الشمس :

في الليلة الخامسة من شهر كانون الاول من السنة نفسها بعد خسوف القمر الذي حصل في الثالث عشر من ذلك الشهر ، راينا جميعا في بداية الليل ، السماء الشمالية وقد خطها شعاع من لون فاقع من النار و الدم ، وقد تولتنا الدهشة كثيرا اذ حسبنا أن هذه الظاهرة حبلى بالندر المريبة ، وشاهدنا في وسط هذا الاحمرار ، الذي اخذ يتزايد شيئا فشيئا اشعة بيضاء كبيرة اخذت تتعالى من القمر نحو القمة مرة في المقدمة ومرة في المؤخرة ثم في المنتصف وبدأت السماء في الجزء المنخفض فاقعة اللون ، مثل لونها عند طلوع الفجر حين توشك على الاضاءة قبيل شروق الشمس ، وشاهدنا امام هذه الظاهرة من الناحية الشرقية بياضا كأنه القمر وقد اوشك على الطلوع هناك، ولهذا تألقت الارض وجميع الجهات في هذا المشهد ، ولو ان ذلك وقع في الصباح لقلنا جميعا : ان النهار كان ساطعا ، لذلك خمننا انه اما سيسفك دم كثير في الحرب او ستقع واقعة لاتقل عن ذلك ، فهذه نذرهما ، ولقد سبلنا كل شيء بتواضع الى الرب المتعال الذي لم يغفل عنا في قضاء اموره .

وتنبأ بعض الناس واصلنوا ان تلك كله كان نذيرا بموت اشخاص سيلاقون حتفهم في السنة المقبلة ، وبالفعل توفي هؤلاء الاشخاص فيما بعد وكان منهم : البابا باسكال في شهر كانون الثاني ،

- ٢٨٦٥ -

وبلدوين ملك سكان القدس في نيسان وايضا زوجته في صقلية التي كان قد ابعدھا ، والكسيوس امبراطور القسطنطينية وعدد كبير اخر من عظماء الرجال في العالم .

موت الملك بلدوين :

هاجم الملك بلدوين في اواخر شهر اذار من عام ١١١٨ لتسجيد المسيح مدينة الفرما ونهبھا ، ثم ذهب ماشيا في احد الايام على شاطئ النهر الذي يدعوه الاغريق باسم النيل ، ويدعوه اليهود باسم جيحون ، ولقد سار مع بعض اصدقائه على مقربة من المدينة ممتعا نفسه ، واستخدم بعض الفرسان رماحهم وحراهم هناك بمهارة فائقة في اصطياد الاسماك وحملوها الى المعسكر المقام قرب المدينة نواكلوها، ومالبت الملك ان شعر في احشائه بالام جرح قديم تجددت بشكل شديد ، لذلك اصيب بضعف عظيم . وعلى الفور اعلنت الاخبار وعممت على رجاله ، ولما سمع هؤلاء بذلك شعروا مخلصين بتعاطف وجداني معه ، ونزل بهم الاسى واصابهم الحزن الشديد وقرروا لهذا العودة نحو القدس ، وبما ان الملك لم يستطع الركوب فقد اعدوا له محفة صنعوها من عشرة اعمدة ومددوه عليها ، ثم صدرت الاوامر بالعودة الى القدس بصوت بوق المنادي .

وعند وصولهم الى بلدة تسمى العريش مات بلدوين اخيرا بعدما اصاب الهزال جسمه وهذه المرض ، فانتزعوا احشاؤه وملحوها وطرحوها في التابوت ثم خفوا الخطا نحو القدس .

وفي اليوم الذي جرت فيه العادة بحمل سعف النخيل ، واجه موكب الجنازة بمشيئة من الرب وهو يحمل حملة الحزين الموكب الديني وهو ينحدر من جبل الزيتون الى وادي يهوشافاط ، وكانت تلك بالفعل صدفة نادرة الوقوع، وما ان شاهد الحضور ذلك حتى

- ٢٨٦٦ -

اجهشوا بالبكاء ، واخذوا بالندب بدلا من الانشاد وكأنما بلدوين
قريبهم ، وشعروا بهول الفاجعة بدلا من السرور وبكى الفرنجة
وحزن عليه السريان وحتى السراسنة الذين شهدوا ذلك فعلوا الشيء
نفسه ، وجميع الذين بكوا هنا بخشوع لم يتمكنوا من تمالك
انفسهم ، وبناء عليه قام رجال الاكليروس وعامة الناس بآداء
واجباتهم حسب العرف والعادة في مثل هذه المناسبات الحزينة ،
فعلوا ذلك وهم في طريقهم الى المدينة ، ثم دفنوا بلدوين في الجلجلة
الى جانب اخيه الدوق غودفري *

مرثية في الملك بلدوين

عندما مات الملك بكاه شعب الفرنجة الورع
ذلك انه كان برعهم و مصدر قوتهم و معينهم
كان ساعد شعبه الايمن و كان الرعب لاعدائه و الخصم
و كان القائد الجبار للبلاد مثلما كان اليشع
و قد انتزع من اعدائه غير الاتقياء عكا و قيسارية و بيروت و صيدا
و اخضع بعد ذلك إلى حكمه وادي عربة أو على الأقل ما جاور البحر
الأحمر من بلاد.

واستولى على طرابلس وبعزيمة لا تقبل عن ذلك احتل ارسوف
وكذلك قام بأعمال مجيدة أخرى عديدة
وبقي على العرش ثمانية عشر عاما
ثم مضى إلى مصيره الأخير حسبما قدر له
ورأت الشمس برج القوس ست عشرة مرة
عندما مات الملك بلدوين العظيم *

الكتاب الثالث

أعمال بلدوين الثاني

ترسيم الملك بلدوين في عيد الفصح :

إثر وفاة الملك بلدوين ، وحتى لا يظن بهم ضعف لاقتنارهم إلى ملك ، عقد أهل القدس مؤتمرا ، اختاروا فيه ملكا عليهم هو بلدوين كونت الرها ، وهو قريب للملك الراحل ، وتصانف ذلك مع عبوره لنهر الفرات وحضوره إلى القدس بهدف التشاور مع سلفه الملك الراحل ، وجرى اختيار بلدوين بالاجماع ثم تم ترسيمه يوم عيد الفصح .

حشد جيش مصر :

مع حلول الصيف من السنة نفسها حشد المصريون جموعا كثيرة في جيش قدر تعداده بخمسة عشر ألف فارس وعشرين ألف راجل ، وكان الهدف تدمير مسيحيي القدس في الحرب ، ولدى وصول هذه الحشود إلى عسقلان ، قصدهم طفتكين صاحب دمشق مع رجاله ليقدم لهم العون وذلك بعد عبوره لنهر الأردن ، فضلا عن هذا أبصر أسطول معتبر لا يستهان بطاقاته نحو عسقلان ، غير أن هذا الأسطول الذي تألف من سفن حربية وسفن مؤونة ما لبث أن أبصر نحو صور ، ومع هذا فإن الجيش الذي جاء برا بقي في عسقلان توقعا للحرب .

وبالمقابل سارع الملك بلدوين بالاستعداد للقتال ضد جيش العدو ، وكان قد استدعى إليه رجال أنطاكية وطرابلس لمشاركته ، وزحف

الملك نحو العدو ، ولدى مروره على مقربة من أسدود ، مدينة
الفلسطينيين القديمة ، أمر بانزال الأثقال من على ظهور الدواب ،
وضرب معسكره ليس بعيدا عن المصريين حتى يتمكن الجيشان من
مراقبة بعضهما بعضا كل يوم .

وبما أن كل فريق منهما خاف كثيرا من محاربة الطرف المعادي ،
ولأنهم أثروا الحياة على المعات ، فقد وفق الجانبان إلى تأجيل
القتال قرابة ثلاثة أشهر لمثل هذه المسوغات ، ثم أقلع المسلمون عن
القتال بعدما فقدوا صبرهم من طول الانتظار ، وعاد رجال أنطاكية
إلى ديارهم غير أنهم خلفوا كتيبة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل مع
بلدين لتعزز قوات الملك وقت الحاجة ، وذلك في حالة معاودة
المصريين التفكير باستئناف القتال .

الأتراك يحاربون أهل أنطاكية وينبحونهم :

في عام ١١١٩ لتجسيد الرب مات البابا غالسيوس ، خليفة
باسكال ، وكان ذلك في اليوم الرابع قبل مطلع شهر شباط ، ووري
جسده في كلوني ، وجري اختيار كالكستوس خلفا له ، وكان قبل
ذلك أسقفا لمدينة فيين .

ليس بؤدنا الأثقال على قارئ هذا التاريخ باحصاء جميع الحوادث
المشؤومة التي حدثت في تلك السنة خاصة في منطقة أنطاكية ، عندما
خرج روجر ، أمير تلك المدينة مع قادته ورجاله ليحارب الأتراك ،
فقتل في أحواز بلدة أرتاح ، وقتل معه سبعة آلاف من رجال
أنطاكية ، ولم يقتل من الأتراك سوى عشرين رجلا .

ينبغي ألا يدهش أحد كيف أن الرب بهزيمة روجر ورجاله . ذلك
أنهم أغرقوا أنفسهم في الملذات ، وتمتعوا بالثروات من كل

صنف - ولم يظهروا في آثامهم أي اعتبار لاحترام الرب والانسان .

فهو نفسه اقتترف الفحشاء بدون حياء مع كثيرات ، مع أنه كان مايزال يعيش مع زوجته ، ثم إنه كان قد حرم ابن بوهيموند ، وهو سيده ومولاه ، من ميراثه ، وكان ابن بوهيموند هذا يعيش آنذاك مع أمه في أبوليا ، لقد أثم روجر مع قاتله ورجاله ، فقد عاشوا في بذخ ورفاه عظيم ، واقترفوا كثيرا من الآثام ، فانطبق عليهم ما قال داود : « جحظت عيونهم من الشحم ، جاوزوا تصورات القلب » (المزامير : ٧/٧٣) وقلما ساد الاعتدال في خضم المتع الوافرة .

الملك بلدوين يسرع إلى مد العون إلى أهل أنطاكية وهو يحمل صليب الصليبوت :

نال أهل القدس بفضل الرب نصرا مبينا بإعجوبة بعد المنبحة التي لحقت أهل أنطاكية ، ذلك أنه كان روجر المذكور عندما عرف بزحف الترك ضده أخبر ملك القدس بذلك بوساطة مراسليه ، وطلب منه الاسراع لنجدة ، لأن الأتراك كانوا يزحفون ضده بجيش جرار ، وأوقف الملك جميع أشغاله ، وكان قد خرج آنذاك للقتال ضد أهل دمشق على مقربة من نهر الأردن ، وقد اصطحب معه البطريرك وحمل صليب الصليبوت ، وبعدما طارد الأعداء بكل نشاط ونفاهم عن الحقول في مناطقه ، بادر مسرعا بدون تلوؤ لد يد العون إلى أهل أنطاكية ، وأخذ معه أيضا أسقف قيسارية ، وهو الذي حمل فيما بعد على الأعداء بكل شجاعة وهو يرفع صليب الصليبوت ، يضاف إلى هؤلاء أحضر الملك معه كونت طرابلس ، وبذلك اجتمع معهما مائتان وخمسون فارسا .

ولدى وصول الملك إلى أنطاكية بعث بوفد إلى أهل الرها يأمرهم

بشكل ملزم بالاسراع بالزحف للانضمام إلى الحملة المزمع شنّها ضد الأتراك . وبعدها التحق بالملك جنود أنطاكية الذين كانوا قد فروا من المعركة السالفة الذكر ، أو بالحري نجوا من براثن الموت ، وقع القتال واحتدمت المعركة في أحواز بلدة اسمها زرينا ، وهي على مسافة أربعة وعشرين ميلا من أنطاكية ، وكان وقتها عدد فرساننا سبعمائة ، وعدد الترك عشرين ألفا ، واسم قائدهم غازي (ايلغازي) ويخيل لي أن علي عدم اغفال ذكر ما قاله واحد من الأتراك عندما لاحظ أن واحدا من فرساننا ينطق باللغة الفارسية ، فقد توجه إليه بالخطاب قائلا : « اسمع أيها الأفرنجي ، أحق أنت لتجهد نفسك عبثا ، لن يكون لكم فوز علينا أبدا ، لأنكم قلة ونحن كثرة ، والحق أقوله لك إن ربكم قد تخطى عنكم لعلمه أنكم لا تطبقون نوااميسه حسبما أوجبه عليكم ، ولا تحفظون الأيمان والصدق فيما بينكم ، وعليه من المؤكد أننا سنغلبكم في الغد ونهزمكم » ، وأسفاه ما أعظم خزي المسيحيين وأشد عارهم إذ يعيرنا من لا دين له في ديننا ، ومن أجل هذا يتوجب علينا أن نفرق في الخجل ، وأن نبكي بحسرة ونتوب ، ونزيل آثامنا .

القتال والنصر الذي حزنه بفضل صليب الصلبوت واستقبال الصليب في أنطاكية :

ونشب قتال عنيف في اليوم التالي ، ولم يحسم لصالح أي طرف من الطرفين ، وطال العراك حتى أرغم الرب القدير الأتراك على الفرار ، بعدما شحن المسيحيين بالحماس وزودهم ضدّهم ، وذلك على الرغم من أن الأتراك كانوا عندما هاجموا المسيحيين في البداية قد مزقوا صفوفهم وبعثروهم إلى زمر صغيرة طاربوها حتى أبواب أنطاكية ، ومع أن المسيحيين لم يتمكنوا من لم شتاتهم والاحتشاد ثانية ، فقد شتت الرب الأتراك وهزمهم ، فالتجأ بعضهم إلى داخل

مدينة حلب طلبا للآمان ، وتابع آخرون فرارهم إلى ديارهم في بلاد
الفرس .

فضلا عن هذا كله ، أظهر ملك القدس وكونت طرابلس ومعهما
رجالهما أنهم أتباع مخلصون لصليب الصليبوت العالي المجد ، فقد
حملوه معهم إلى المعركة كعبيد للرب ، ودافعوا عنه بشجاعة وثبات
ولم يتخلوا عنه ، لقد صمدوا بكل رجولة ، ودافعوا عن مواقعهم في
ساحة الوغى ، وبقدرة هذا الصليب الغالي والعظيم القدسية ،
اختطف الرب عبيده ، من قبضة الجنس التركي المقيت ، وصان
شعبه وانخره لمهمة مقبلة في خدمته .

وبعدما رابط الملك في أرض المعركة لمدة يومين ، وعندما لم يجد أن
أحدا من الأتراك قد عاد إلى القتال ، حمل صليب الرب ، وتوجه
يريد أنطاكية .

فخرج بطريرك أنطاكية ليتلقى الصليب العظيم القدسية والملك
ورجال الاكليروس الذين حملوه ، وقدم الجميع الشكر للرب ،
وسكبوا عذب الثناء على الرب الكلي القدرة الذي منح النصر
للمسيحيين ، بقوة الصليب العظيم القدسية ، وأعاد الصليب إلى
بلاد المسيحيين سليما ، لم يمسسه أحد بأذى ، فبكى الجميع
خشوعا ، وأنشدوا فرحا ، وجثوا مرارا متعبدين أمام الصليب
الجدير بالاحترام والتبجيل ، ثم نهضوا مجددا رافعين وجوههم
لتقديم الشكر .

شعر :

ظهرت الشمس مرتين في برج العذراء
عندما التهمت هذه المعركة التي هزم فيها الفرثيون
وفي تلك الآونة كان الهلال قد أضاء عشر ليال .

استقبال صليب الصلبوت في القدس :

بعدما استجم الفرنجة في أنطاكية لفترة وجيزة ، قرروا العودة إلى القدس ومعهم صليب الرب المبارك ، وحسب الأصول بعث الملك بالصليب إلى القدس بعدما كلف بهذه المهمة العدد اللازم من الجنود ، وقد دخل هؤلاء به إلى المدينة المقدسة مسرورين ، وكان ذلك في اليوم الذي احتفلوا فيه بعيد تقديسه ، مثلما فعل الامبراطور هرقل من قبل ، عندما استرده من بلاد الفرس ، ولقد استقبل أهل القدس جميعا الصليب بكل غبطة وسرور يفوق الوصف .

الملك يحصل على إمارة أنطاكية :

واقترضت الضرورة وقتها أن يبقى الملك في أنطاكية بهدف منح أراضي الذين توفوا من النبلاء إلى الأحياء وفقا لأصول الناموس ، ولكي يجمع بين الأرامل – فقد وجد منهم الكثيرات – وبين أزواج يكونون لهم المودة ويقدمون لهم الطاعة ، وبغية إعادة تنظيم الكثير من الشؤون وإعادة وضع الأمور في نصابها ، ذلك أن بلدوين كان حتى ذلك الحين ملكا للقدس فقط ، لكن وفاة روجر أمير أنطاكية جعلت منه ملكا لأهل أنطاكية أيضا ، وسيدا لهذه المملكة الثانية .

لهذا إنني أحث الملك ، وأتوسل إليه ، أن يحب الرب بكل جوارحه وعقله وقوته ، وأن يكرس نفسه كلية عبدا مطيعا للرب ، ويحمده على ما أعطاه ، وأن يعترف – وقد وجد في الرب صديقا حميما – أنه عبد للرب بلدين مثلما رفعه هو' لقد جعل الرب الآخرين ملوكا لمملكة واحدة ، في حين ملك الوضع ، فمن الذي رفعه الرب من أسلاف بلدين مملكتين ، وقد استحوذ عليهما بنون خداع أو سفك دماء وبنون معاناة التقاضي ، بل بسلام وبارادة الرب .

لقد أعطاه الرب البلاد الشاسعة الممتدة من مصر إلى بلاد الجزيرة ، ومد الرب يده نحوه بسخاء ، فعليه أن يحذر ألا يمد يدا حاقدة نحو الرب الذي يعطي كثيرا ، ولا يهتم بسفاسف الأمور ، وإذا أراد بلدوين أن يكون ملكا ، فعليه أن يبذل جهده في سبيل الحكم بالعدل .

وعاد الملك من أنطاكية إلى القدس ، وذلك بعد قيامه بعدد من الانجازات ، وقد تم تتويجه مع زوجته بالتاج الملكي يوم عيد الميلاد في مدينة بيت لحم .

اعفاءات من الضرائب :

في عام ١١٢٠ لتجسيد الرب ، أعفى الملك بلدوين الثاني من جميع الضرائب كل من رغب في احضار الحنطة والشعير والبقول إلى مدينة القدس ، وأصبح للسراسنة كما للمسيحيين الحرية في الدخول إليها والخروج منها وشراء ما أرادوه ممن أرادوا ، ثم إنه ألغى الضريبة المعتادة على الموازين والمكايل .

الأتراك يحتشدون والملك يحمل عليهم :

بعدها أمضينا ستة أشهر من تلك السنة في القدس ، وصلت رسل أنطاكية تعلن للملك ولجميع الحضور منا ، أن الأتراك قد عبروا نهر الفرات ، وبخلوا إلى أراضي سورية مثلما فعلوا من قبل .

وعقد الملك بعض المداولات حسبما أملت الضرورة ، ثم توسل إلى البطريرك بكل تواضع وإلى رجال الاكليروس أيضا أن يعهد إليه بحمل صليب الرب الظافر ، وقال : إنه ينبغي أن يتقوى به مع

رجاله أثناء التحضير للمعركة ، فهو قد اعتقد أنه لن يكون بالامكان طرد الأتراك وابعادهم عن البلاد التي بدأوا بالفعل بتدميرها ، بدون معركة ضارية ، وبما أنه لم يثق بقوته ولا بكثرة الرجال الذين هم في صحبته ، فقد أثر أن يستحوذ على تلك الصليب ومعه عون الرب ورعايته ، وفضله على عدة آلاف من الرجال .

ولهذا السبب نشب خلاف حاد بالرأي بين الذاهبين إلى المعركة وبين الذين سيقون في القدس ، حول وجود الصليب في هذه الأزمة التي واجهتها المسيحية ، وفيما إذا كان من الأفضل حمل الصليب إلى انطاكية ، وحرمان كنيسة القدس من هذا الأثر الثمين وقلنا وأسفاه ما نل نفعل لو سمح الرب أن نفقد الصليب أثناء القتال مثلما فقد الاسرائيليون مرة تابوت الرب ، (صموئيل الاول : ١٠/٤ - ١١) .

ولماذا نكتب المزيد ، لقد أرغمتنا الضرورة ، وعلمنا العقل ، ففعلنا ما لم نرغب وقررنا أن نفعل ما لم نبتغ ، وبعدما نرفت الدموع الغزيرة عبادة للصليب ، وأنشئت التراتيل تمجيدا له ، والملك والبطريك والناس جميعا وقوا حفاة الاقدام ، رافقوه إلى خارج المدينة ، وغادر الملك به وهو ينرف الدموع ، وعاد الناس إلى المدينة المقدسة خسارى ، ووقع هذا في شهر حزيران .

وقصد الملك انطاكية ، التي كان الأتراك يتحرشون بها آنذاك ، عن قرب الى حد أن سكانها كانوا لا يتجرأون على الابتعاد عنها مسافة أكثر من ميل ، وعندما سمع الأتراك باقتراب الملك ، تخلوا عن المنطقة فورا وغادروها الى مدينة حلب ، حيث اعتقدوا أنها أسلم لهم ، وهناك انضم اليهم ثلاثة آلاف جندي من أهل دمشق .

غير أنه بعدما زحف الملك ضدهم بكل جسارة واقترب منهم لكي يشتبك بهم ويدشب القتال معهم ، وبعدما قتل وجرح العديد من

الطرفين بالنشأ ، رفض الأتراك إعطاء المعركة والدخول باشتباك عام ، وهكذا عاد رجالنا أدرأهم بعد ثلاثة أيام من المناوشات غير الحاسمة ، عادوا إلى أنطاكية ، كما وعاد معظم الأتراك إلى بلادهم في فارس .

وبعد أمد أعاد الملك الصليب المقدس إلى القدس بأجلال موائم ، لأنه بقي هو هناك في أنطاكية لكي يحمي البلاد ، ولقد استقبلنا صليب الرب العالي المجد بكل سرور وغبطة ، وكانت عوبته إلى القدس في اليوم الثالث عشر قبل مطلع شهر تشرين الثاني .

الملك يحمل على أهل دمشق ويدمر قلعتهم :

في سنة ١١٢١ لتجسيد الرب ، في اليوم الثالث قبل السابع من تموز حشد الملك رجاله من البلاد مما بين صيدا ويافا ، وعبر نهر الأردن ، ثم زحف ضد ملك دمشق الذي كان يحدث الدمار - مع حلفائه العرب - في بلادنا المجاورة لطبرية دون أن يلقي مقاومة أحد ، وعندما عرف صاحب دمشق أن ملكنا كان يقترب منه ومعه جيشه ، قوض على الفور خيامه ، وتجنب القتال وانسحب ملتجئاً إلى دياره .

وبعدما طارد ملكنا العدو لمدة يومين اثنين ، دون أن يجسر العدو على القتال ، تراجع ملكنا وتحول نحو قلعة حصينة كان طغتكين صاحب دمشق قد أمر ببنائها في السنة المنصرمة وذلك بقصد ائذاننا ، وقد قدرنا أنها تبعد ستة عشر ميلاً عن نهر الأردن ، والقى الملك الحصار عليها ، وهاجمها بالآلات واستولى عليها بالقوة ، وسمح بعد استسلامها لحاميتها المكونة من أربعين تركياً بالمغادرة وفقاً لشروط اتفق عليها ، ثم دمرها حتى سواها بالأرض .

وقد دعا سكان تلك المناطق هذه القلعة باسم جرش ، وكانت تقع داخل مدينة شيدت في غابر الزمان ببهاء وروعة ، وفي موقع حصين ، وقد بنيت من حجارة مربعة كبيرة ، وبعد ما قدر الملك مدى المشاق التي واجهها في احتلال ذلك الموقع ، ومدى صعوبة تزويد القلعة بالرجال والمؤن اللازمة أمر بتدميرها ، ومن ثم بعودة رجاله الى ديارهم .

وتدعى هذه المدينة غيراسا (جرش) ، وقد شهرت فيما مضى في بلاد العرب ، وهي واقعة على مقربة من جبل جلعاد في بلاد قبيلة ماناسيس .

شعر :

« تصرمت هذه السنة بالسعادة من جميع النواحي
وبأمان وازدهار ووفرة بالثمار من كل صنف » .

حملة الملك على كونت طرابلس ثم على الأتراك

في سنة ١١٢٢ لتجسيد الرب ، تم تعيين أسقف صور واسمه اودو أسقفاً لمدينة القدس ، فكان أول شخص من العرق اللاتيني يتولى ذلك المنصب .

ثم توجه الملك الى عكا حيث حشد هناك رجاله من الفرسان والرجالة ، وزحف اولا نحو طرابلس ، على رأس جيشه كله حاملاً صليب الصليبوت معه ، وقد أراد أن ينتقم للأذى والاهانة اللتين الحقهما به بونز كونت تلك المنطقة ، وذلك برفضه الخضوع اليه مثلما كان برترام والده قد فعل من قبل .

وبعدما أمكن التوفيق بينهما ، ظهر هناك أسقف بعث به أهل أنطاكية ، وقد حث هذا الملك على التوجه بسرعة إلى أنطاكية ليفيئتها من الأتراك ، وكان هؤلاء يعيثون دمارا في المنطقة دون أن يوقفهم أي قائد مسيحي .

وتحرك الملك فور سماعه بذلك ، واصطحب ثلاثمائة من فرسانه المنتخبين وأربعمائة من خيرة مشائته الذين جلبهم من مكان آخر ، وعاد بقية رجاله إلى القدس أو إلى ديارهم ، ووصل الملك إلى حيث سمع أن الأتراك قد تجمعوا وألقوا الحصار على قلعة اسمها زردنا ، لكن هؤلاء تخلوا على الحصار وانسحبوا فهم لم يرغبوا في مواجهة الملك ، ولما سمع الملك بذلك قصد مدينة أنطاكية ، لكن مالبث الأتراك أن رجعوا مجددا ، واستأنفوا مشروعهم ، ولما سمع الملك بأخبار هذا الحال ، زحف ضدهم بدون تريث ، ولكن هؤلاء القوم لكونهم فرثيين حقيقيين في القتال والعتاد والمناورة ، ولتميزهم بعدم الإقامة الطويلة في أي موقع (فهم يديرون بأسرع مما يمكن تصوره وجوههم مرة وأعقابهم مرة أخرى لمن يقابلهم ، فيفرون بغتة متظاهرين باليأس ثم يكرون فجأة ويعيدون الهجوم) لأنهم لم يدربوا أنفسهم على القتال وهم منحصرون في مكان محدد ، كانوا يتجنبون المواجهة كليا ويفرون كما لو أنهم أصيبوا بالهزيمة .

فلتحل البركة على راية الصليب العظيم القدسية ، ذلك المدد الموجود في كل مكان لجميع الراشدين ، فهو الذي يدعم المؤمنين ويمنحهم حمايته وسلوانه ، فقد أذن بعودة مسيحيننا إلى ديارهم دون أن يلحقهم أذى ، وقد قدر تعداد الأعداء بحوالي عشرة آلاف جندي ، في حين كان عددا ألفا ومائتين باستثناء الرجال .

وبعدما عاد الملك إلى طرابلس بصحبة صليب الصليبوت ، طرا ما أدى إلى عودته مع بعض رجاله إلى أنطاكية ، لكن الصليب

المقدس حمل الى القدس بغبطة فائقة ، وهكذا أعيد الى مقره باجلال عظيم ، وكان ذلك في اليوم الثاني عشر قبل مطلع شهر تشرين الاول .

شمعر :

« كان ذلك الوقت الذي يحمل فيه برج الميزان الساعات المتكافئة .
المتكافئة بالعدد مثلما هي متشابهة بالطول » .

اسر كونت الرها :

وفي تلك الآونة وقع جوسلين كونت الرها بالاسر وكان معه غاليران قريبه ، وقد قتل مالا يقل عن مائة من رجال جوسلين ، فقد داهمهم كمين لبلك الذي كان احد الأمراء .

وانقضت هذه السنة مثل السنة المنصرمة بوفرة بالانتاج من كل الأصناف ، مما جني في الحقل ، وبيع مكيال القمح بدرهم ، والأربعين بقطعة ذهب ، ولم تشن في تلك الآونة بلدان المشرق ولا مصر أية حروب .

توطيد السلام بين البابا والامبراطور :

في عام ١١٢٢ لتجسيد الرب ، في الخامس عشرية ، الاولى رجع الوثام بين هنري ملك المانيا والبابا كالكستوس ، فالحمد للرب ، حيث توحد ثانية العرش والكنيسة في المحبة .

استعدادات اهل البندقية للقـدوم بسرعة الى القدس :

الهم اهل البندقية في تلك الآونة بالابحار باسطول عظيم الى سورية بغية - بعون الرب - تعزيز القدس والمناطق المجاورة ، وذلك كله لمنفعة المسيحية وتمجيدها ، وكانوا قد غادروا بلادهم في السنة الفائتة ، وأمضوا الشتاء في جزيرة كورفو ، مترقبين موسما مواثما لعبور البحر .

وكان قوام اسطولهم مائة وعشرين سفينة ، عدا القوارب والزوارق الصغيرة ، وكانت بعض السفن مـن نوات المناكير (شواني) وبعضها الآخر مراكب تجارية ، كما وكان بعضها الآخر له ثلاثة صفوف من المجاذيف شيدت وفق هذه الأنماط ، وحملت السفن خشبة كبيرة يمكن للنجارين الافادة منها ببراعة في صنع الات الحصار ، التي يمكن بوساطتها تسليق الأسوار المرتفعة للمدن والاستيلاء عليها .

موعد ابحارهم :

وما ان حل الربيع ، وانفتح طريق البحر امام السفن حتى بادر البنادقة في تنفيذ العهد التي التزموا بها برسوخ امام الرب ، فبعدما تزودوا بما لزمهم من مؤن وفيرة لأغراض الرحلة، اضرموا النيران في الاخصاص التي امضوا فيها الشتاء والتمسوا عون الرب ، ثم صدحت ابواقهم بـابتهاج ورفـعوا اشرعتهم .

وقد اوقع مشهد السفن السرور في نفوس الذين راوها عن

كثب ، ذلك أنها طليت بألوان مختلفة ، وكان على ظهورها خمسة عشر ألف مقاتل من البنادق والحجاج الذين الحقوهم بهم ، وفضلا عن هذا كله حملوا معهم ثلاثمائة حصان .

وما أن هبت ريح شمالية لطيفة حتى انفصلوا عن معابرهم الخشبية بكل مهارة وتوجهوا نحو ميثون ومن ثم الى رودس .

واقتضت الضرورات أن يسافروا مجتمعين لامتفرقين ، وتعين عليهم - بسبب تقلب الرياح - ممارسة بعد النظر وتغيير خط مجراهم حتى لايتفرقوا فجأة ويبتعد بعضهم عن بعض ، ولهذه الاسباب ابحروا لمسافات قصيرة وخلال النهار فقط لاني الليل ، وكانوا يتوقفون وينزلون الى اليابسة في مراسٍ عديدة لقضاء حاجاتهم اليومية وتأمين المياه العذبة لهم ولخيولهم حتى لايعانوا من العطش .

بلدوين يقع في الأسر واستبداله بـرجل يدعى يوستاس :

وحدث في تلك الأونة أن وقع بلدوين ملك القدس في الأسر ، وكان الذي أسره هو الأمير بلك الذي سلف له وأسر جـوسلين وغاليران ، من قبل ، ولم يكن بلدوين يتوقع ذلك ، ولم يكن مستعدا له ، ومامن أمر أفرح الكفار أكثر من هذا وأرهب المسيحيين وأفزعهم .

وبعدما وصلتنا الاخبار الى القدس تقاطر الجميع الى مؤتمر عقد في مدينة عكا للتداول فيما ينبغي عمله والتشاور ، فكان أن وقع اختيارهم على رجل اسمه يوستاس ، وكان شجاعا وأميناً ومستقيم الخلق ويتملك انذاك قيسارية وصيدا ، فنصبوه حاكماً

للبلاد وقائدا للمملكة ، وكان الذي توصل الى هذا القرار بطريك القدس ومعه اعيان رجالات البلاد ، وامر ان يسري مفعول هذا الاجراء حتى يتيقنوا بشكل قاطع من مصير ملكهم المتوج .

كانت هذه صورة الاوضاع في منتصف ايار عندما سمعنا بغثة ان المصريين قد وصلوا عسقلان بقوتين حشدوا احداهما بحرا و الثانية قادوها برا ، فقررنا تحضير سفينة صغيرة عالية السرعة لارسال البرسل الى اسطول البنادقة لمناشدتهم الاسراع في الابعار وإغاثتنا والتفريج عنا في المخاطر التي احاقت بنا .

حصار يافا ثانية من قبل المصريين والحاق الأضرار الشديدة بأهلها :

ثم اندفع المصريون نحو مدينة يافا ، وانطلقوا من سفنهم في موكب كبير وابهة رائعة تعزف امامهم الأبواق النحاسية ، ثم احاطوا بالمدينة وحاصروها ، وشرعوا بدون تأخير في نصب آلات دك الأسوار وغيرها من المعدات التي كانوا قد أحضروها معهم على ظهور سفنهم الكبرى ، وهاجموا المدينة من جميع النواحي وضيقوا الخناق عليها ، وقذفوها بحجارة من أحجام لم يسبق لها مثيل ، ذلك انهم امتلكوا مجانيق عظيمة القوة ، قذفوا منها حجارة

الى مسافة أبعد من مدى النشاب ، وشن رجاله العرب أو السودان الذين أحضروهم معهم و برفقتهم حشد من الفرسان ، هجوما شديدا على اهل يافا ، و من كلا الجانبين رمى بعضهم بالحرايب وبعضهم بالحجارة ، و رمى آخرون بالنشاب و تمكن الذين كانوا يدافعون عن المدينة بكل رجولة من الداخل من قتل بعض المهاجمين في الخارج بالطعنات المتوالية .

وحمل السودان في أيديهم دروعا بها غطوا أنفسهم

واحتموا ، ودابت نساء يافا على تقديم العون المتواصل لإسكانها الذين كانوا يقاتلون بكل شجاعة ، فقد قام بعضهم بتزويدهم بالحجارة وبعضهن الآخر تولى جلب الماء للشرب .

وبعد قتال استمر خمسة أيام الحق المسلمون القليل من الأضرار بالأسوار ، مع أنهم دمروا الكثير من الشرافات في أعلى الأسوار بعد قذفها بالحجارة ، ثم كان أن بلغهم نبأ اقتراب قدمونا ، فأوقفوا القتال وعزفوا بالأبواق إشارة لذلك وفككوا آلات الحصار ثم نقلوها الى السفن .

ولو أنهم ملكوا الجراة على إطالة القتال ولم يذسحبوا لاستولوا على المدينة بكل تأكيد ، وذلك لقلة عدد المدافعين عنها ، ثم لأنهم كانوا بالفعل قد حفروا حول السور أنفاقا هنا وهناك أملين في اقتحامه بكل سرعة ، علما أنه كان بصحبته أسطول مكون من ثمانين سفينة .

معركة ضد الأتراك – المسيحيون ينالون النصر بفضل صليب الصليبوت :

بعدما تأكد قومنا من صحة الأخبار التي حملها نقلة الأقاويل ، وأيقنوا من اقتراب المخاطر احتشدوا من جميع الأماكن ووقف جيشهم أمام إحدى القلاع واسمها قاقون ، فقد قدموا من طبرية وعكا وقيسارية والقدس ، وبعدما جلبوا صليب الصليبوت الى مكان الحشد بادر قومنا الى قتال العدو قرب مدينة الرملة القريبة من اللد .

اما نحن الذين بقينا في القدس من لاتين وإغريق وسريان ، فلم

نتوقف عن الدعاء لأخواننا الذين واجهوا المحنة ، وقدمنا الصدقات للمحتاجين ، وقمنا أيضا بزيارة جميع كنائس المدينة المقدسة حيث سرنا في موكب خاشعين ونحن حفاة الأقدام .

واستيقظ قادتنا مع انبلاج الفجر ، فأمرؤا رجالهم الذين اصطفوا امامهم بانتظام في كتائبهم ، بالزحف نحو مدينة الرملة ، وبعدما منح البطريك بركاته وغفرانه نشب القتال قرب اسدود ، وكانت هذه من قبل إحدى المدن الفلسطينية الخمسة ، وتدعى الآن (ايبيوم) وقد تضاعف الآن شأنها وباتت قرية صغيرة .

ولم يطل القتال في هذه المعركة ، إذ ما أن رأى الأعداء رجالنا المسلمين يزحفون نحوهم بثبات ونظام رائع ، حتى شرع فرسانهم بالفرار ، ولم يتوقفوا كأنما أصابهم مس من جنون ، فقد دب فيهم الهلع بدلا من التحكم في عقولهم ، وجرى ذبح مشاتهم ، وخلفوا على أرض المعركة جميع خيامهم ومقتنياتهم من كل صنف ولون ، ولقد انتزعنا منهم ثلاث رايات وعدد كبير من العربات المحملة بالمتاع ، وذلك بالإضافة الى أربعمائة جمل وخمسمائة حمار .

ومن بين الستة عشر ألف من الأعداء الذين قدموا الى القتال وشاركوا في المعركة قتل ستة آلاف ، وبالمقابل قتل عدد ضئيل من رجالنا ، وكان عدد رجالنا هؤلاء حسب بعض التقديرات ثمانية آلاف ، غير أنهم كانوا شجعانا ، على درجة عالية من البراعة في القتال ، ملهمين واثقين بالرب وبمحبتة ومعتدين كليا على هذه الثقة .

شعر :

ظهرت الشمس اثني عشرة مرة في برج الجوزاء
عندما هلك القوم المتوحشون بقدرة من الرب
وطرحت جثثهم على سهول أرض فلسطين
وغدت طعاما للذئاب والضباع .

استقبال أهل القدس لصليب الصليبوت :

بعدما حاز المسيحيون على النصر في المعركة ، بقوة الرب
وتعظيما لاسمه وتمجيذا للمسيحية ، رجع البطريرك الى القدس
ومعه صليب الصليبوت ، وقد استقبل بموكب حافل ، وتلقي خارج
باب برج داود ، ونقل بأعلى درجات التبجيل الى داخل البازيليكا في
قلب كنيسة قيامة الرب " وقدمنا الشكر للرب القدير على بركاته
وكنا نندشد " الشكر للرب " .

وصول البنادقة ومعركتهم البحرية مع المسلمين :

وصلتنا في اليوم التالي لهذا النصر المبين اخبار اخرى اثلجت
صدورنا ، فقد سمعنا ان أسطول البنادقة قد دخل الى عدد من
المراسم الفلسطينية ، وكانت الشائعات قد توقعت وصوله منذ فترة
مديدة ، وحال وصول الدوج (دومنغوميشيل) قائد أهل البندقية
وأمر أسطولهم الى عكا ، أعلم على الفور بالذي حدث في يافا في
البحر والبر ، وأخبروه كيف ان المصريين أوقعوا بعض الدمار بقدر
ما استطاعوا ثم غادروا عاندين بعدما نفذوا مهمتهم ، واذا رغب
الدوج في مطارتهم فيمكنه إدراكهم بعون الرب .

و على الفور تداول الامر مع بحارته و تشاور ، فقسم اسطوله الى اقسام ، وتولى هو شخصيا امرة عمارة بحرية منه ، و ابحر نحو يافا ، ثم بعث القطع الأخرى الى عرض البحر ، وكان هذا دهاء منه وخداعا بغية جعل المسلمين يظنون أنها توجهت الى قبرص لجلب الحجاج من هناك .

وعندما رأى المسلمون ثمانى عشرة سفينة من اسطول البنادقة تقترب منهم ، شرعوا بالتهليل ، وكان المغانم وقعت فعلا بأيديهم ، واستعدوا للابحار نحوها لمنازلتها وقتالها بشجاعة في المعركة .

وتظاهر رجالنا بالخوف من القتال ، وكانوا بالفعل يخدعون الأعداء وينتظرون بدهاء وصول العمارة البحرية الأخرى التي كانت تفوق الأولى عددا ، ومكثوا يترقبون التحاقها بمؤخرة الاسطول ولهذا لم يجنحوا الى الفرار ولم يقدموا على القتال حتى شاهد المسلمون السفن تلتحق بمؤخرتنا وشرعتها مذشورة ، ومجانيفها مشدودة .

وعندما حدث ذلك ارتفعت معنويات البنادقة فانقضوا بضراوة على عدوهم وكانت شجاعتهم تجل عن الوصف ، ولقد حاصروا سفن الأعداء من كل جانب ، حتى لم يعد أمام أي منها مخرج ، وفي الحقيقة لقد تم حصر المسلمين بطريقة مذهلة حتى أنه لم يتح لا للسفن ولا للبحارة النجاة من أي اتجاه ، في حين ركب أهل البندقية ظهور سفنهم وأمعنوا في بتر أوصال رجالهم .

من المحال تصديق هذه الحقيقة ، لأن ما من أحد سمع بمثلها من قبل ، فقد تلطخت أقدام المهاجمين بالسفن بالدماء ، وبذلك أمكن الاستيلاء على هذه السفن المحملة بالثروات الهائلة ، وبعدها القيت

جثث القتلى خارج السفن كنت ترى البحر وقد صبغت مياهه
بالأحمر الى مسافة اربعة اميال .

ثم حدث أنه بعدما أبحر رجالنا حتى ما بعد عسقلان يبحثون
ويستطلعون الأوضاع اكتشفوا وجود عشر سفن أخرى محملة
بالمؤن من مختلف الأصناف ، وكانت قادمة نحوهم ، وكانت هذه
السفن تحمل قطعاً خشبية عظيمة الطول ومستقيمة مناسبة لصنع
الآلات الحربية ، فاستولوا على هذه السفن واستحوذوا على ما
حملته من معدات حربية وذهب ونقود فضية وتوابل وأصناف عديدة
من العطور .

ثم أحرقوا على رمال اليابسة بعض السفن التي جنحت الى
الشاطئ ، غير أنهم أحضروا أكثرها الى عكا دون أن تمس
بأذى ، وهكذا كافأ الرب عبده بأضعاف مضاعفة من العطايا
الوفيرة .

لم يتخاذل أهل القدس مع أن ملكهم كان أسيرا :

طوبى لقوم الرب دوما معينهم ، طوبى للامة التي الرب الهها
(المزامير : ٢٣ / ١٢) فقد قال الوثنيون : « لنخرج الآن ونبيد
الامة المسيحية ابادة كاملة ونمحو ذكرها عن وجه
البسيطة ، فالمسيحيون الآن بلا ملك ، وهم أشبه بأعضاء الجسد
الذي بلا رأس » حقا قالوا هذا غير أنهم نسوا أن الرب مليكنا .
لقد كنا قد فقدنا بلدوين ، لكننا اتخذنا الرب ملكا لنا جميعا
وتضرعنا اليه وقت حاجتنا ، فيه انتصرنا بأعجاز ، فلعل الذي
فقدناه عرضا لم يكن ملكا ، فالذي أحرز النصر لنا مؤخرا ليس هو
ملك القدس فحسب بل ملك الدنيا بأسرها ، وعلينا أن نعترف بحق
أنه كان لدينا في المعركة فعلا ملك ، وهو لدينا الآن ولسوف يكون

دوما لدينا ، ذلك اننا سنؤثره في جميع مساعينا على جميع الآخرين ، « فالرب قريب من كل الذين يدعونه ، الذين يدعونه بحق » (مزامير : ١٤٥ / ١٨) .

لقد تجلى علينا فرأنا في محنتنا نعاني من سوء العذاب ، فغمرنا برافته وترفق بنا لخضوعنا واطلق سراحنا ، « فمبارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لاسنانهم » (مزامير : ١٢٤ / ٦) لقد قاتل معنا ضد اعدائنا ، وسماته أن يغلب دوما ويقهر أبدا ، فهو يقهر ولا يقهر ، وهو لا يخدع ، إنه الملك بحق ، ذلك أنه يحكم بالعدل ، وكيف حقا يكون ملكا من تتغلب عليه عيوبه دوما ، وكيف يمكن لإنسان أن يدعى الملك إذا ما داب على تجاوز القانون دائما وأبدا ؟ ذلك أن الذي لا يراعي ناموس الرب ولا يحافظ عليه ليس له أن يطاع ، لأن الذي لا يخاف الرب سوف يخاف الإنسان الذي هو عدوه ، أما من كان زانيا وحائثا بقسمه وفاسقا فقد خسر لقب الملك ، وهل يصح أن نثق بمحتال مخادع ، فإن رضي به من لم يتسم بالتقوى فكيف يصفي اليه الرب ويستمتع ؟ فمن كان سالبا للكنائس ، ظالما للفقراء ، لا يحكم بل يمارس الطغيان ، فلنتعلق بالملك في عليين ، ولنضع ثقتنا فيه وأملنا ، فهو لن يخيب مسعانا في الآخرة .

وفاة يوستاس وخلافة وليم له :

مات في هذه الفترة الصعبة يوستاس الذي كان قد اختير وصيا على البلاد ، وحدث ذلك في اليوم السابع عشر قبل بداية شهر تموز ، ثم استقر القرار على استخلاف وليم بوريس ، الذي كان يمتلك طبرية في ذلك الحين .

اطلاق سراح الملك بلدوين من الأسر :

برحمة من العناية الربانية ، نجا في منتصف شهر آب ، بلدوين ملك القدس من أغلال بلك وسجونه ، فقد كان قد اعتقله في إحدى القلاع الكبيرة (خرتبرت) ، وكان موقع هذه القلعة حصينا منيعا يصعب الاستيلاء عليه لعلوه الكبير وارتفاعه ، وكان مع بلدوين في الأسر جوسلين كونت الرها والآخرين سواء ، والحديث عن هذه القضية قد يطول لكنه مغلف بالتبريكات الربانية والعناية العلوية وموشح بالمعجزات .

فبعدما أصابهم الوهن وتعبوا كثيرا في أسرهم في تلك القلعة لأمد طويل دون تلقي أية مساعدة من أصدقائهم ، بعد هذا شرعوا يتدارسون فيما بينهم جميع صنوف الحيل والمخارج وتأمين الخطط التي تساعد على خلاصهم من هناك ، ولذلك دأبوا على طلب العون من أصدقائهم أينما وجدوا وراسلوهم بوساطة مبعوثين مؤتمنين ، وبذلوا قصارى جهدهم للتآمر مع الأرمن الذين كانوا يقطنون من حولهم في سبيل تحقيق هذه الغاية ووعدوا أنهم إذا ما تمكنوا من الحصول على العون من أصدقائهم في الخارج ، فسوف يظل الأرمن أعوانهم المخلصين وسوف يحافظون على ذلك .

وبعدما تم الاتفاق على ذلك ، وبعد تبادل الهدايا ومختلف الوعود ، وتبادل حلف الأيمان ، جرى بعث خمسين رجلا من مدينة الرها ، وتحرك هؤلاء نحو القلعة بكل دهاء وبراعة ، حيث قدموا متكرين بزي رعايا يتنقلون ويبيعون السلع ، وعندما سئحت الفرصة تحركوا حتى وصلوا إلى أبواب القلعة الداخلية .

وبينما كان شحنة القلعة جالسا يلعب الشطرنج بدون احتراز قرب البوابة مع واحد من الرجال المخلصين لنا ، اقترب منه عملاؤنا

بكل حذر وبمنتهى المكر وكأنهم يودون تقديم شكاية له من مظلمة أحاققت بهم ، لكن مالبثوا أن تخلوا عن حذرهم ووثبوا بدون خوف وقد أشبهوا خناجرهم فقتلوا الشحنة فوراً ، واستولوا على الحراب التي وجدوها هناك وفتكوا بالحرس ونبحوهم بكل رجولة وبلا تردد .

ودب الهرج والمرج هناك وسادت الفوضى وانتشرت في الداخل والخارج ، وكل من بادر الى مشهد الأحداث سرعان ما عوجل فلقي مصرعه ، والحق كان هناك قرابة مائة من الأتراك ، ومع هذا تم إطلاق سراح الملك بالحال ، وكان بعض الأسرى مازالون بالاصفاد عندما تسلقوا السلالم الى قلة القلعة ، وهكذا كشفت الحقيقة ، فقد كان في القلعة نفسها زوجة بك مع عدد كبير آخر من الرجال المقربين اليه كثيراً وذوي المكانة لديه ، ولهذا ما لبث الأتراك أن أحاطوا بالقلعة وطوقوها من جميع الجوانب ومنعوا من كان في داخلها من الخروج منها ومن كان خارجها من الدخول اليها ، ونفذوا ذلك بكل صرامة وشدة ، وأوصدت الأبواب وأحكم إغلاقها بالمسامير .

كونت الرها ينجو من الأسر

ما أظن أن علي الالتزام بالصمت حيال مصيبة تراءت لبلك وكانت أشبه بطيف خيال ، فقد تراءى له (حسبما روى هو نفسه ذلك فيما بعد) أن جوسلين سوف يقدم على قلع مقلتيه ، فأخبر مفسري الأحلام بذلك على الفور ، ورغب أن يعلم منهم تفسير هذا الحلم ، فقالوا له : « حقا سوف يحل ذلك بك ، أو ما لا يقل عنه سوءا إذا ما وقعت بين يديه » وما أن سمع ذلك حتى بادر بلك بإرسال عدد من رجاله لقتل جوسلين ، وكان هذا قد نجا بحمد الرب ، وتخلص من الأسر بالطريقة التي سوف نصفها ونحكىها الآن :

عقد بلدوين مشاورات جادة مع جميع رجاله ، وبحث عن الوسيلة
المجدية التي يمكن أن تنقذهم من الأسر ، وعندما خيل اليهم أن
الوقت المواتم قد جاء ، وضع اللورد جوسلين حياته على حافة
الموت ، وأودع ذاته بين يدي خالق الأكوان وتسلسل من القلعة يتبعه
ثلاثة من الخدم ، ومر جوسلين بين صفوف حشد الأعداء في ضوء
القمر ، وكان يملكه الخوف مثلما تدفعه الجراة ، وما لبث أن أرجع
واحدا من الخدم الى الملك وحمله خاتمه ليظهر له أنه شق طريقه عبر
المحاصرين وفقا للاتفاق المعقود بينه وبين بلدوين .

وبعد فرار واختباء ومسير في الليل أكثر منه في النهار وصل
اخيرا الى نهر الفرات ، وقد اهترأت نعلاه وأوشك أن يكون حافي
القدمين ، وبسبب عدم امتلاكه لقارب يركبه ، ومع أنه لم يكن
يحسن العوم ، قام بنفخ قريبتين من الجلد كان قد حملهما
معه ، ووضع نفسه فوقهما ، ورمى بذاته في النهر ، وقد بذل رفيقاه
كل جهد للحفاظ عليه ، وتمكنوا بعون الرب من احضاره سالما الى
الشاطئ .

وكان التعب قد هده بعد هذه الرحلة الفريدة ، واضسناه
الجوع ، وعطش عطشا شديدا ، واستولى عليه الضيق ، ولم يكن
أحد حوله ليقدم له يد العون ، وبعدما شعر بالتعب الشديد والانهك
اثقله النعاس ، فسمح لنفسه بالنوم تحت شجرة جوز وجدها
هناك ، والتحف ببعض الأغصان المقطوعة والعليق حتى لا يتعرف
عليه من يراه ، وأمر واحدا من خدمه أن يبحث عن الأهالي
ويتوسل اليهم ليعطوه أوبيبيعوه خبزا بأي ثمن ، ذلك أنه كان يتضور
جوعا .

وفي حقل مجاور وجد الخادم ريفيا أرمنيا يحمل بعض التمر وعد
من عناقيد العنب ، وبعدما بارد به بالكلام بكل حذر جلبه معه لمقابلة

سيده ، ذلك أن جوسلين كان بوده - لشدة جوعه - الحصول ولو على مثل هذا الزاد .

وما أن اقترب الفلاح من جوسلين حتى عرفه ، فوقع عند قدميه وحياه قائلاً : تحياتي اليك يا جوسلين ، فارتاع هذا لما سمعه فهو لم يرغب قط بسماع ذلك ، فأجابه «أنا لست من تمنيت بمخاطبتك ، أعان الرب جوسلين حيث كان» فأجابه الريفسي : «أتضرع اليك أن لا تنكر هويتك ، فأننا أعرفك تمام المعرفة ، ولكن أعلمني ما الذي جرى لك في هذه الديار ، وأرجوك ألا تخشى مني أو تتوجس شراً » .
فأجابه الكونت إرث لحالي أيها الغريب واشفق علي ، إنني أتوسل اليك ألا تخبر أعدائي بالذي أصابني ، وخذني الى مكان آمن ، فتستحق اجرا على ذلك هذه القطعة من النقود ، ذلك أنني هارب بمعونة الرب ، بعدما نجوت من أسر بك وقيوده ، من داخل القلعة التي تدعى خرتبرت ، و الواقعة في الجزيرة في ذلك الجانب من الفرات

ولسوف تحسن صنعاً لو أنك قمت بمساعدتي في وقت حاجتي للمساعدة حتى لا أقع مجدداً بين أيدي بك وأواجه الهلاك المحتوم ، وإذا ما رضيت وقدمت معي الى قلعتي في تل باشر فليسوف تتحسن أحوالك وتعيش عيشاً رغداً الى آخر أيام حياتك ، وبناء عليه أخبرني ما الذي تملكه في هذه المنطقة حتى أعوضه عليك وأزيدك عن طيب خاطر في مقاطعتي إذا ما رغبت .

فرد عليه الفلاح : أنا لا أريد منك شيئاً سوى أن أقودك بأمان الى حيث تشاء ، فأننا أنكر كيف تعاطفت معي في أحد الأيام وشاركتني في تناول الطعام ، ولذلك إنني مستعد لرد الجميل اليك ، ولدي يا مولاي اللورد زوجة وطفلة صغيرة وحصار صغير وأختي وثوران ، وهما أنذا أضع نفسي كلية تحت تصرفك وبامرتك ، فأنت رجل عاقل مدبر ، وليسوف أمضي معك بكل ما أملك

الآن ، يضاف الى هذا لدي أيضا خنزير صغير سوف اطهوه الآن واحضره لك .

فأجابه جوسلين : لا يا صاحبي ، إنه ليس من عادتك أن تأكل خنزيرا كاملا في وجبة واحدة ، فلاتثر شكوك الجيران بك .

وجمع الأرمني كل ما كان لديه ثم غادر معه حسبما اتفقا ، وركب الكونت على ظهر الحمار الصغير ، مع أنه كان ممن اعتاد على امتطاء أفخر البغال ، ووضع أمامه طفلة الفلاح الصغير وهكذا فإن الذي لم يكن والدها حقا حملها كما لو كان والدها ، وقد فعل ذلك ، مع أنه لم يكن له ابنة من صلبه ، حتى يجعل الذين لا يعرفون يخیل اليهم أنه راغب حقا في أن تكون له نرية .

غير أنه عندما بدأت الطفلة بالصراخ والبكاء قلق جوسلين ، ذلك أنه لم يتمكن من إسكاتها بأي وسيلة ، ولم تكن هناك مربية تتولى ارضاعها أو تغني لها ، ففكر في أن يتخلى عن هذه الرفقة حتى لا يتعرض للخطر ، وأن يتابع سيره وحيدا بأمان ، لكنه عندما أدرك أن ذلك قد يزعج الفلاح ، أثر عدم ازعاجه وثابر في تنفيذ المهمة التي أخذها على عاتقه .

ولدى وصوله الى تل باشر جرى استقباله مع ضيوفه بكل فرح وسرور ، فابتهجت زوجته ، وهلل أهل بيته ، ولا يمكننا أن نشك بحجم البهجة التي شعر بها الجميع ولنا أن نتصور كم من دموع الفرح قد ذرفت آنذاك ، وكم كان حجم التهنيدات هناك أيضا ، أما الفلاح فقد أعطي بدون تقاعس - مكافأة طيبة ، ومنح بدل زوج من الثيران زوجين .

ولأن الكونت جوسلين لم يتمكن من البقاء طويلا بين أصحابه وواله فقد توجه فورا الى انطاكية ، وسافر منها مباشرة الى

القدس ، وهناك قدم الشكر للرب الذي تفضل عليه برحمته ، ووهب
القيدتين اللذين حملهما معه ليعلقا عطيه منه بكل تبجيل على الجبل
الذي صلب فيه المسيح ، وذلك تذكارا لأسره وتمجيدها
لخلاصه ، وكان أحدهما من الحديد والآخر من الفضة .

وبعد ثلاثة أيام غادر القدس باتجاه طرابلس للحاق بموكب
صليب الصلبوت الذي سبق وأرسل الى هناك ، ذلك أن جيش الرب
كان في طريقه مع الصليب الى خربتبرت قلعة بك ، حيث كان الملك
وعدد من رفاقه محبوسين لكن غير مقيدتين بالسلاسل ، لأنهم كانوا
أمنين داخل الحصن .

مبارك هو الرب الذي ييسط ارادته وسلطته على العالمين ، فهو
حين يشاء يطرح الجبار من العلياء ويرفع الوضع من الرغام ، ففي
الصباح كان بلدوين ملكا يحكم ، وفي المساء أصبح عبدا
يخدم ، والذي حدث لجوسلين لا يقل عن هذا ، ومن الواضح انه
ليس في هذا العالم شيء مؤكد او شيء ثابت ، فلا شيء مرغوب فيه
يدوم طويلا ولهذا ليس من الخير أن يتلهف الإنسان على متاع
الدنيا ، بل من الأفضل أن يتجه بقلبه نحو ربه ، ودعونا لا نركن
الى متاع الدنيا حتى لا نخسر الحياة الأبدية في الآخرة .

شعر :

حسب تقديري أتممت أنا الآن سنتي الخامسة والستين
غير أنني لم أرقط ملكا مثل هذا طريق السجن
ولست أعلم فيما إذا كان ذلك يعني شيئا ولكن الرب يعلم .

حملة اهل القدس واعتقال الملك بلدوين ثانية :

وبينما كان رجال القدس يزحفون نحو مكان متفق عليه ، انضم اليهم رجال طرابلس ثم رجال انطاكية في انطاكية ، غير انهم عندما وصلوا جميعا الى تل باشر ، علموا أن الملك الذي كان محاصرا في قلعته خربت قد وقع بالأسر ثانية ، وعندما عرفوا ذلك غيروا خططهم ، وصدرت الأوامر بالعودة فورا ، ورغبة منهم في اكتساب شيء ما لأنفسهم ، صدحت الأبواب مؤننة بالتحرك ، لكن نحو مدينة حلب ، وقد دمروا واتفوا كل ما وجدوا خارج أسوارها بعدما أرغموا بعنف الذين خرجوا الى قتالهم على التقهقر الى داخلها ، وبعد أن مكثوا هناك أربعة أيام لم ينجزوا خلالها شيئا ، استقر قرارهم على العودة الى بلادهم لأنهم بدأوا يعانون من شح المؤن ، ومع هذا فقد بقي جوسلين في منطقة انطاكية .

وبعدما رجع رجال القدس ووصلوا الى عكا ، وقبل أن يثيروا انتباه المسلمين في الجوار ، عبروا نهر الأردن فجأة ، وبعد أن تجولوا على عجل في المنطقة التي يحدها جبل جلعاد ووادي عربة ، أسروا عددا كبيرا من المسلمين من الجنسين ، واستولوا على كثير من الدواب والماشية ، ثم عادوا بعد ذلك واتجهوا نحو منطقة طبرية القريبة منهم ، واصطحبوا معهم قافلة عظيمة من الجمال والماشية وكذلك الأطفال والبالغين ، وعندما وزعوا الغنائم فيما بينهم حسب الأعراف والعادات ، احتشدوا في القدس من جميع الأنحاء ، ثم أودعوا صليب الصلبوت ، الذي كانوا قد حملوه معهم ، في مكانه .

ولزاما علي أن اعود الآن الى صلب الموضوع الذي ابتعدت عنه لبعض الوقت .

كيف حاصر بك الملك واعتقله ثانية :

ما إن سمع بك بما جرى في خرتبرت ، وعلم بخبر نجاة الكونت جوسلين من الأسر ، حتى بادر بالذهاب الى هناك بأقصى سرعة أمكنته ، وخاطب الملك بمعسول الكلام وطلب منه ان يسلمه القلعة ، مقابل ان يسمح له - بعد تقديم رهائن مختارة - بالمغادرة بأمان ، ثم يؤمن سفره الى الرها او انطاكية ، وتهدد بلدوين انه اذا لم يستجب فليسوف يلحق الشر بأحدهما او بهما معا .

ورفض الملك فاستشاط بك غضبا ، وهدد باعتقال الملك والاستيلاء على القلعة بالقوة ، والانتقام من أعدائه بشكل محتوم ، وبوضع دعائم الخشب داخل الفجوات التي أحدثت تحت الأسوار لكي تسند المذشئات التي فوقها ، ثم أمر بجلب الأخشاب ورمي النار فيها ، وعندما احترقت الدعائم هبطت الأسوار وانهار البرج القريب من النار محدثا ضجيجا هائلا .

وتصاعد الدخان وامتزج بالغبار ، لأن الانقراض غطت الحريق ، لكن بعدما التهمت النيران ما تحت الانقراض وظهرت السسنة اللهب للجميع ، أصيب الملك بالذهول ، وتولته الدهشة ، فهذه الاحداث لم تدر بخلده ولم تكن بالحسبان ، وخابت آماله وهبطت عزيمته الى الحضيض ، فقد شل هذا الدمار حركته وأصابه ما حدث برعب شديد ، وهكذا فقد شجاعته مع رجاله ولم يعد مسيطرأ على نفسه فاستسلم مع رجاله الى بك ، ولم يأمل برحمة بك بل بالعقاب على ما جنت يدها وأيديهم معه .

وصفح بك عن بلدوين وأبقاه على قيد الحياة وفعل الشيء نفسه مع واحد من أبناء أخي الملك وكذلك مع غاليران ، أما الارمن الذين قدموا العون الى الملك فقد شق بك بعضهم ، وضرب بعضهم حتى

- ٢٨٩٦ -

الموت وشطر بعضهم الآخر بالسيف الى نصفين ، ثم نقل الملك مع ثلاثة من رجاله من القلعة واخذهم الى مدينة حران .

لقد صعب علي التيقن من حقيقة ما حصل هناك ، لأن هذه الأحداث وقعت بعيدا عني ، ومع هذا فقد دوت هنا - بكل ما أوتيت من دقة - الذي أخبرني به آخرون .

شعر :

انتهت هذه السنة بشح في الأمطار ، منذرة بالقحط
وسبب ذلك كثيرا من الآلام الى أهل القدس
وقد مضى علينا حتى الآن أربع وعشرين سنة
منذ قيام حملة الحجاج الشهيرة التي قدمت من جميع
البلدان .

التحضير لحصار صور :

في سنة ١١٢٤ لتجسيد مولانا المسيح احتفلنا بميلاد المخلص في بيت لحم وفي القدس حسب الأصول ، وقد شارك دوج البندقية مع رجاله في هذه المراسم واحتفلوا بخشوع ، وتم بعد هذا الاتفاق طوعا ، وبرضى من الطرفين ، وتوكيد ذلك بالايمان على حصار اما مدينة صور أو عسقلان بعد عيد الغطاس (٦ كانون الثاني) .

وكنا نفتقر الى الاموال ، وهذا ما أقعدنا عن العمل ، ومع ذلك جمعنا في تلك الآونة مبلغا كبيرا من المال اقترضناه من الناس فردا فردا بهدف الدفع للفرسان و الرجالة المأجورين ، حيث لم يكن من

- ٢٨٩٧ -

الممكن تنفيذ هذا الحصار المقترح بدون دفع الأموال الى الرجال ، كما اضطررنا الى رهن أنفس زخارف كنيسة القدس حتى نحصل على القروض من المسلفين.

وحسب الاتفاق اجتمع الجميع من كل حطب وصوب في المكان المحدد.

شعر:

عندما انتعش برج الدلو بحرارة الشمس للمرة الثالثة.
غابر الناس جميعا القدس لمقابلة العدو
وحصل ذلك يوم الأحد ، غرة الشهر القمري.

حصار صور على يدي البطريك والبنادقة :

بعدما وصلوا الى عكا ، اعدوا مع أهل البندقية ما لزم من ترتيبات للزحف نحو صور والقيام بحصارها، وفي اليوم الخامس عشر قبل بداية شهر آذار طوق البطريك وبصحبه جميع أتباعه والدوج ومعه بحارته وسفنه مدينة صور .

شعر :

عندما دخلت الشمس في برج الحوت.

ولدى سماع رجال عسقلان ، الذين لم يستطيعوا كبح جماح صفاقتهم بذلك ، لم يتردبوا في أن يلحقوا بنا أعظم ما استطاعوا من

الأنذى ، وقسموا جيشهم في أحد الأيام الى ثلاثة أقسام ، وقادوا القسم الأكبر من كتائبهم نحو القدس ، وقتلوا ساعة وصولهم بوحشية ثمانية رجال وجدهم يشربون النبيذ خارج المدينة.

وما أن اكتشف أمر قدومهم حتى صدحت الأبواق من فوق برج داود لاعلامنا بذلك ، وخرج فرنجتنا والسريان للقائهم والتصدي لهم ، وقاوموهم بكل بسالة ، وبعدما أنهك كل طرف نفسه في مواجهة الطرف الآخر في قتال استمر ثلاث ساعات ، انسحب أهل عسقلان ، وقد اعترتهم الكآبة ذلك أنهم حملوا معهم عددا كبيرا من الجرحى.

وطاردهم رجالنا الى مسافة قصيرة ، لكنهم لم يتجروا على ملاحقتهم الى مدى بعيد لافتقارهم الى الفرسان ولخشيتهم من وجود كمين ، ومع ذلك أحضروا معهم في النهاية سبعة عشر رأسا من رؤوس الأعداء وعددا مماثلا من الخيول ، ويقينا إنه لو كان لدينا فرسان لما نجا من الأعداء إلا قلة ، لكن فرساننا كانوا مع الجيش ، ثم قدمنا الحمد للرب حق الحمد على الدوام.

صور وشهرتها :

في تلك الاثناء كان أهل صور محصورين مطوقين داخل مدينتهم ، ولم يكونوا يطلبون السلام ولا هم خضعوا وسلموا ، بل اعتادوا لوفرة ثرواتهم ، وللدعم والعون الذي كان يأتيهم عن طريق البحر على الغطرسة.

وهذه المدينة هي أوسع مدن أرض الميعاد ثراء وأعظمها صيتا باستثناء حاصور التي ملكها جابين ملك الكنعانيين ، وكان ذلك في قديم الزمان ، وهي التي يمرها يشوع فيما بعد ودمر معها مدنا

أخرى كثيرة (يشوع : ١١ / ٤١) ومن جانب آخر ذكر يوسفوس أنه كان فيها ثلاثة آلاف مركبة حديدية وثلاثمائة ألف رجل مسلح ، وعشرة آلاف فارس ، وقاد جيشها سيسرا .

وأقام الفنيقيون هاتين المدينتين : صور وحاصور على اليابسة ، واشتهرت صور بتجارة المرق وأكثر بتجارة الجملة الكبيرة (أشعيا : ٢٣ / ٨) واشتهرت الثانية بكثرة سكانها ، وفي الوقت الذي وقعت فيه صور على طرف البحر وقعت حاصور على المرتفعات .

وشيد الفنيقيون صور زمن هرقل عندما حكم جدعون في إسرائيل (يهوذا : ١٦ / ١١ / ٤٠ ، ٧ / ٨) ذلك أن هذه المدينة في بلاد الفنيقيين ، وهي المدينة التي نكرها أشعيا وأنبها على غرورها (أشعيا : ٣٣) وفيها صباغ الأرجوان الممتاز ، وإلى ذلك يرجع قولهم : « صباغ أرجواني صوري » وتعني كلمة صور الممر الضيق ، وهي تدعى « سور » بالعبرية .

واستولى شلمنصر - ملك الآشوريين - على صور خلال حروبه التي شنّها على سورية وفينيقية وذلك في الفترة التي حكم فيها البيوليوس هناك ولأن أهل صور رفضوا الخضوع لملك آشور فقد حاصروهم مدة خمس سنوات ، وعن هذا كتب مناندر وأسهب أيضا يوسفوس في الكتابة عن هذا الموضوع نفسه .

وعبر الصوريون البحر في تلك الآونة تحت إمرة اليسايدو ابنة بيلوس وأسسوا مدينة قرطاج في افريقية ، ويذكر المؤرخ أورسيوس أن موقعها قد أحيط بسور امتد ثلاثين ميلا ، وكان بلا مداخل ، ويكاد البحر أن يطوقها من جميع الجهات ، وكان عرض مرساها ثلاثة أميال ، وشيد سور قرطاج من الحجارة المربعة ، وكان عرضه ثلاثين قدما وعلوه أربعين ذراعا .

- ٢٩٠٠ -

وقد شغلت قلعتها مساحة تزيد على المليون ، وكانت تدعى برسه ، لقد أنشأت اليسا قرطاج قبل تأسيس روما بسبعين سنة ، وفي السنة السبعمئة بعد انشائها دمرت ، حيث دمر أولا سورها الحجري برمته ، وجاء قدرها المحتوم على يدي بابلوس سكييو الذي عمل قنصلا لروما لمدة سنة ، وظلت تحترق بعد تدميره لها ببؤس لمدة سبعة عشر يوما كاملا .

من استولى على صور أو حاصرها في الماضي:

وهن امر صور السالف ذكرها ، وبقيت غير أهلة بالسكان لمدة سـبعين سـنة ، حـسـبـما ورد في سـفر أشعيا (أشعيا : ٣٣ / ١٧،١٥) ، وكان عندما تمرد أهل قبرص على صور قهرهم الملك اليوليوس ، كذلك هاجم شلمنصر ملك آشور صور ثانية ، ثم انسحب ، وذلك في الوقت الذي استسلمت له فيه مدينتا صيدا وعرقلة - التي تدعى أكتيبس - وكذلك صور القديمة ومدن أخرى كثيرة .

ولما لم تخضع له صور ، زحف ضدها بوساطة اسطول تألف من ستين سفينة وتسعمائة مجذاف ، كان قد زوده بهم الفنيقيون ، فتصدى لهم الصوريون باثنتي عشرة سفينة ، ومزقوهم وبددوا شمل سفنهم ، وأسروا منهم خمسمائة رجل ، ولهذا طارت سمعة صور وعظم صيتها .

وعاد ملك آشور وأقام مراكز حراسة على نهر المدينة وقنواتها ليحول بين الصوريين وبين جر المياه وشربها ، وصبر الصوريون على هذه المحنة مع أنها طالت مدة خمس سنوات ، حيث كانوا يشربون المياه من آبار حفروها ، وكل هذا جاء مدونا حول شلمنصر ملك آشور في وثائق صور .

وهذا الملك هو الذي حاصر السامرة واستولى عليها في السنة السادسة لحكم الملك حزقيال ، وهو الذي حمل اسرائيل الى السبي في آشور (الملوك الثاني: ١٧ / ٣ - ١٨٦ / ٩ - ١١) وكان الذي حكم قبل شلمنصر فول ملك الآشوريين (الملوك الثاني: ١٥ / ١٩) وبعده تغلا فلا سر ملك آشور الذي استولى على قادش وحاصور في نغتالي قرب بانياس ، وجلعاد ، والجليل بأسره ، وسبى أهلها الى آشور (الملوك الثاني: ١٥ / ٢٩) ثم جاء سرجون ملك آشور ، وهو الذي بعث ترتان ليحارب أشدود وقد استولى عليها ترتان (أشعيا : ٢٠ / ١ - في سنة قدوم ترتان الى أشدود حين بعثه سرجون ملك آشور ، فحارب أشدود أخذها) وهكذا دمرت أرض الميعاد بسبب خطايا أهلها ، وتعرضت للسبي على يد الآشوريين أولا ثم على يد الكلدانيين .

وحاصر نبوخذ نصر ملك كلدان وبابل مدينة القدس ، واستولى عليها ، ولهذا لجأ الملك صدقيا الى الفرار ، غير انه وقع بالأسر على مقربة من أريحا ، ثم حمل الى ملك بابل الى البلدة التي تدعى ربلة في بلاد حماة ، ويذكر جيروم أن حماة الكبرى في أنطاكية ، وحماة الصغرى في أبيعانيا ، وهناك أمر نبوخذ نصر بقلع عيني صدقيا وبقتل بنيه في حضرته ، ثم حضر نبوزرادان قائد شرطة الملك ، وأحرق بيت الرب وبيت الملك ، وهدم جميع أسوار القدس المحيطة بها .

وبعد أمد من الزمن جاء الملك الاسكندر فحاصر صور واستولى عليها ، كذلك أخضع صيدا وقبل ذلك دمشق ، كما احتل غزة بعد حصار دام شهرين ، لكنه كان قد حاصر صور لمدة سبعة أشهر ، ثم توجه الاسكندر بسرعة نحو مدينة القدس حيث استقبل بكل حفاوة وتكريم ، ولذلك خلع على الكاهن الأعظم ، واسمه جيدهو أسمى درجات الشرف ، ودخل الاسكندر منفردا ، فقدم التبجيلات اللائقة لجيدهو ، الذي وضع على رأسه قلنسوة وارتدى ثوبا أرجوانيا

مذهبا ، وحمل صفحة ذهبية خط عليها اسم الرب ، وبعدما تدبر الاسكندر أمور القدس قاد جيوشه ضد المدن الأخرى .

وبعد سنين طوال ، وبسبب أثم اليهود تحدى أنطيوخوس أبيفانوس ناموسهم ، وقمع جماع المكابيين بشدة ، وجاء بعده بومبي فأطاح بأهل القدس بشكل محزن وبيعت على الأسى ، وأخيرا جاء قسباسيان وابنه تيتوس ، وقد دمر تيتوس القدس دمارا شاملا ، وهكذا نجد أن القدس والمناطق المحيطة بها والتابعة لها عانت كثيرا وتأملت في تعاقب الأحداث القديمة وحتى يومنا هذا .

وجل أراضي فلسطين مع جزء من فينيقية ، التي نالت اسمها من فونكس أخو قدموس ، هي جرداء قاحلة ، ثم هناك السامرة وأراضي الجليل ، وتقسم بلاد الجليل الى قسمين : الجليل الأعلى والجليل الأدنى ، ويحدهما من الجانبين فينيقية وسورية .

ويمتد الجزء الواقع فيما وراء الأردن طولا من مقاورير الى فحل وعرضا من عمان الى الأردن ، وتحده شمالا فحل وغربا الأردن ، وجنوبا بلاد موآب وشرقا العربية و عمان وجرش ، وتقع السامرة مابين يهودا والجليل ، وتمتد يهودا عرضا مابين الأردن ويافا ، وتقع مدينة القدس في وسطها وهي سرّة البلاد .

ويمتد الجليل الأدنى من طبرية الى زيلون فعكا والكرمل وجبال صور ، ويضم : الناصرة ، وصفورية ، وهي بلدة منيعة ، وطابور وقانا ، ومدنا أخرى كثيرة ، ويحده لبنان ومنابع نهر الأردن التي تدعى الآن بانياس أودان ، أو قيسارية فيليب وتقع حوله بلاد الطراخونيين وبلاد الأنباط ، وإلى الجنوب منه السامرة وسيزيوبولس التي تعرف باسم بيسان

وتحد يهودا مدينة بير السبع ، وتضم يهودا تمنا والد ويافا وبيننا ، وتكوه والخليل واشتول ، وزورا وكثيرا غيرها .

وبعدما سلكت سبلا متشعبة أعود الآن الى صلب الموضوع بعدما
ابتعدت عنه فترة طويلة .

انتصار أهل انطاكية على الترك ومقتل بك :

في الوقت الذي كنا فيه نعمل بكل نشاط خارج صور ونجهز آلات
الحصار بالعناية اللازمة ، لم يتوقف بك عن قيادة جيشه وأحلافه
ضدنا لقتالنا ، فوصل الى مدينة منبج ، قادما اليها من مدينة حلب
وكان ذلك في أوائل شهر أيار ، وكان برفقته خمسة آلاف فارس
وسبعة آلاف راجل ، وعندما رفض صاحب منبج تسليمها له دعاه
بلك الى الاجتماع به خارج المدينة ، وهناك غدر به وقطع رأسه .

ثم حاصر بك المدينة بون تمهل ، ووصل الخبر الى
جوسلين ، وكان آنذاك في انطاكية ، فاندفع نحو منبج ومعه رجال
انطاكية ، ومع أن جيش المسيحيين كان قليل العدد ، غير أن
جوسلين لم يخش من الزحف ضد حشود الكفار ، ولم يمض وقت
طويل حتى نشبت معركة حامية الوطيس .

وبعون الرب هزم الترك ثلاث مرات ، غير انهم ظلوا يقاتلون بكل
جسارة بعد هذه المرات الثلاث ، وقاد بك - الذي أصيب بجرح
مميت - القتال وهو يعاني من سكرات الموت ، وعندما اكتشف
رجاله ذلك فر منهم من استطاع الفرار ، وتهيأت أمامه
السبل ، والحق أن عددا كبيرا ممن تمكن من الفرار لم يتمكن من
النجاة ، ولقد روي أن ثلاثة آلاف فارس منهم لاقوا حتفهم - غير
أن عدد الرجالة لم يعرف بالضبط - وقد سقط من فرساننا ثلاثون
قتيلا ، وكذلك ستون من رجالتنا الذين كانوا يسوقون الدواب .

وأراد جوسلين أن يتأكد من وفاة بك ومن عدم نجاته ، فتفقد
رجاله جثث القتلى وبحثوا بينها حتى عثروا على جثة بك ، وقد

تحققوا منه بالشارات المألوفة على درعه لمن كان يعرفها ، وقطع رجل رأسه ، وحمله الى جوسلين مهنتاً ، فقتل منه أربعين قطعة نقدية ، وفاء بوعده كان قد قطعه له .

وأمر جوسلين بالحال بحمل رأسه الى انطاكية ، مؤشراً على نصره ، ثم بعثه اليها ، وكان الرجل الذي حمل رأسه الى صور والقدس داخل جراب ، قد روي لنا جميعاً الرواية ووصف ما حدث لأنه كان ممن شهد هذه المعركة الجديرة بالذكرى .

وفي الحقيقة كان هذا الرسول تابعاً لجوسلين ، وبما أنه حمل هذا النبأ المفرح الى جيشنا المعسكر أمام صور ، فقد خلع عليه سلاح فارس ، فترقى من مرتبة تابع الى مرتبة فارس ، وكان الذي منحه المرتبة كونت طرابلس .

وحمداً لجميعاً الرب وشكرناه لأن ذلك الثنين المخيف المرعب والهائج الذي ظلم المسيحية وداس عليها ، قد أخمدت أنفاسه أخيراً .

شعر :

أشرقت الشمس تسع عشرة مرة في برج الثور عندما خربك صريعا ، بعدما خانه الحظ .

انظر وتمعن كيف تحقق تفسير الحلم الذي ذكرناه من قبل ، الحلم الذي روى وصفه لك وهو يتنبأ بموته وكان ذلك بعدما نجا جوسلين من الموت بأعجوبة ، وفي الحقيقة لقد حطمه جوسلين تحطيماً كاملاً وهشمه إذ جرده من الرأس والأعضاء .

شعر :

لارأى بك ولاسمع ولاتكلم ولامشى ولم يبق له موضع في الأرض
ولا في السماء ولا في البحار .

الذي جرى أثناء حصار صور

عندما اخلد الذين القوا الحصار على صور الى الراحة في أحد
الأيام ، اغتتم الصوريون الفرصة واجتمعوا من ترك
ومسلمين ، وفتحوا أبواب البلد على مصاريعها وانقضوا بسيفوف
مصلتة على أشد الاتنا قوة ومناعة ، وقبل أن يتمكن رجالنا الذين
كانوا يحرسونها من حمل سلاحهم ، داهمهم الأعداء وأبعد وهم
عنها بعدما أثخنوهم بالجراح ، ثم اشعلوا النار في الآلات ، وكانت
هذه الآلات تستخدم لتدمير الأسوار وأبراج المدينة برميها بالحجارة
واحداث ثغرات في وسائل دفاعها .

وقد خسرنا في هذا الانقضاض ثلاثين من رجالنا ، لكن العدو
خسر ضعف ذلك العدد ، كما وأصاب أهل المدينة رجالنا بجراح
كثيرة والحقوا بهم خسائر جمة من خلال الرشقات المتوالية بالنبال
والحرب والحجارة من اعالي السور .

وأبحر في أثناء هذا كله جماعة من البنادقة لم يتجاوز عددهم
الخمسة في مركب صغير ، فواتاهم - كالعادة - الحظ
السعيد ، ووسطوا على دار صغيرة على مقربة من السور
ونهبوها ، وقطعوا رأسي رجلين وجدوهما هناك ، وعادوا أدراجهم
على الفور فرحين مسرورين بغنيمتهم المتواضعة ، ووقع هذا
الحادث في اليوم الحادي عشر قبل بداية شهر حزيران .

- ٢٩٠٦ -

لكن ذلك لم يكن كبير النفع ، فقد تمكن بعض الصوريون قبل ذلك بوقت قصير من سرقة قارب في احدى الليالي ، وسحبوه الى مرسى المدينة ، ذلك ان مثل هذه الأمور تحدث كثيرا في مثل هذه المناوشات .

شعر :

يخفق انسان وينجح آخر ، ويفرح انسان ويبكي آخر .

اغارة اهالي عسقلان المدمرة

لم يتوقف اهالي عسقلان عن التحرش بنا ، ولعرفتهم بقله عدنا ظنوا أنهم قادرون على اضعافنا وانزال الدمار الشديد بنا ، وبالفعل دمروا قرية صغيرة في أحواز القدس تدعى البيرة واحرقوها ، وحملوا معهم ماوجدوا من أسلاب هناك وذلك مع قتلهم وعدد كبير من الجرحى ، وكانت النساء قد لجأن مع الأطفال الى برج شديد هناك في أيامنا ، فضمنوا بذلك النجاة بأرواحهم ، ثم طاف العسقلانيون وجاءوا خلال الديار ينهبون ويقتلون ويأسرون ويسرقون ويحدثون مااستطاعوا من دمار ، ولم يجدوا من يصددهم ، فقد كنا جميعا منهمكين بحصار صور ، ننتظر العون من السماء لانجاز مهمتنا بعون الرب وتدبيره ، وكان الوضع صعبا ولم يكن بمقدورنا الاستمرار في تحمل عناء الليل وجهد النهار .

وبينما كنا ننتظر بأذان مشنقة سماع أي همسة من اخبار مفرحة ، اذا نحن بثلاثة رسل يصلون من لدن البطريرك حملوا منه رسائل مستعجلة تعلن سقوط صور لنا ، ولدى سماع هذه الانباء ارتفعت الأصوات مجلجلة وقامت ضجة عالية تدل على الفرح الزائد

والغبطة المتناهية ، واخذ الجميع بالحال يذششون « الحمد للرب » وقرعت النواقيس ، ومشى موكب نحو معبد الرب ، ورفعت الاعلام على الأسوار والأبراج ، وعرضت الزينات الملونة في جميع الطرقات . ورفعت آيات الشكر ، واجزلت العطايا للرسل ، وتبادل الوضع والرفيع التهاني ، وابتهجت الفتيات ورفعن أصواتهن بالغناء .

لقد حق للقدس أن تفرح مثل الوالد وتسر بابنتها صور ، وقد جالست الآن عن يمينها متوجة حسيما يليق بمن هو في منزلتها ، بينما ذببت مصر وبكت فقدان هيبتها ، التي كانت الى امد قريب سنداً لها ، واسفت على اسطولها المعتدي الذي كانت تسيره كل عام ضدنا .

ومع أن مكانة صور تدنت وانخفضت في الابهة الدنيوية ، فالحق يقال أنها ارتفعت وترقت في المنزلة الربانية ، فبينما كان لها أيام الكفار إمام أو قاضي في مركز السلطة ، سوف يكون لها رئيس اساقفة أو بطريرك تماشياً مع تقاليد الأباء في الاعراف المسيحية ، وحيثما كان هناك مشايخ أئمة سيكون رؤساء اساقفة يعينوا لحكم المقاطعات ، وحيثما كان هناك حاضرة أو مايسمى « أم قري » سوف يشرف مطران على ثلاثة مدن أو اربعة داخل مقاطعة الحاضرة الأم .

وحيث وجد كهنة أو كونتات في البلدان الصغيرة سيتم رسم اساقفة ، زد على هذا لقد عرف الرهبان وباقي رجال الاكليروس في بعض التنظيمات الرهبانية الأقل شأنًا « بمحامي الشعب » ولم تكن هذه التسمية من باب الحماسة ابداً .

استسلام مدينة صور :

عندما أدرك ملك دمشق أن الأتراك والمسلمين قد احتجزوا في مدينة صور ومالهم من قبضتنا مناص أثر أن يفتديهم أحياء ولو ببعض المهانة على أن يبكيهم أمواتا ، لذلك استفسر بوساطة بعض الوسطاء العقلاء عن امكانية خروج قومه ومعهم جميع مقتنياتهم امناء من المدينة ومن ثم تسليمها إثر ذلك خالية الينا .

وبعدما تساوم الطرفان حول هذا الأمر لفترة طويلة ، تبادلوا الرهائن ، وغادر المسلمون المدينة وبخلها المسيحيون بأمان ، وقضت الشروط بالسماح لمن أراد من المسلمين البقاء في المدينة والعيش بأمان .

شعر :

ظهرت الشمس احدى وعشرين مرة في برج السرطان .
عندما انتزعت صور مستسلمة مقهورة .
وحصل ذلك بعد سبعة أيام من أول تموز .

لهذا يجب علينا ألا نكف عن - لابل الا نتردد في - أن نندشد الرب حاميا رؤوفنا ومعينا لنا في أوقات الشدة ، وأن نتوسل اليه في الصلوات حتى يصغي الى تضرعاتنا ، ولقد فعلنا ذلك بالقدس وطبقناه حقاً بوساطة زيارتنا المتلاحقة للكنائس ، وبذرف الدموع ، وتقديم الصدقات ، ولجم الأجساد بالصيام ، واعتقد أنا أن الرب المطل من عليائه لن يغادر قبل أن يتبرك وراءه بركة (يوثيل : ١٤/٢) ولسوف يسمع صلواتنا .

تتواءم كل سلطة زمنية في مقام عزتها مع المرتبة التي

تمثلها ، ففي المقام الأول هناك أغسطس أو الامبراطور ، ثم القياصرة ، ثم الملوك والدوقات والكونتات ، فهذا مقالته البسابة كلiment ، وأنا كلنت وانيسيت وغيرهم كثير .

حمدا للرب في الأعالي الذي أعاد صور الينا ، لابقوة الرجال بل بعفو الخاطر وبدون سفك للدماء ، فصور مدينة نبيلة ، شديدة المنعة يصعب كثيرا الاستيلاء عليها لو لم يمد الرب عليها يمينه .

لقد خذلنا أهل أنطاكية وتخلوا عنا في هذه المسألة ، فلاحهم أمدونا بالعون ولاهم رغبوا في حضور هذه المعركة ، ولتحل البركة على بونز كونت طرابلس ، فقد كان حليفا أميننا مخلصا لنا ، ونأمل من الرب أن يصلح ما بين كنيسة أنطاكية والقدس ، بعدما اختصمتا حول صور ، ثالثهما في المكانة ، فقد قالت الكنيسة الأولى : إن صور كانت تابعة لها أيام اليونان ، بينما قالت الكنيسة الثانية : إن مركزها قد ازداد قوة بالامتيازات التي خصها بها البابا في روما ، ذلك أن مجمع أوفيرن ، ذلك المجمع النافذ الكلمة ، الذائع الصيت ، كان قد أصدر بالاجماع قرارا بدون معارضة ، قضى بوجوب الاحتفاظ بأية مدينة عبر البحر العظيم يمكن انتزاعها من برائن الكفار إلى أبد الدهر ، زد على هذا أعيد تثبيت هذا القرار وسلم به الجميع في مجمع أنطاكية الذي ترأسه أسقف لبوي ، أضاف إلى ذلك : إن القدس هي البقعة التي استلم فيها غودفري والأمير بوهموند بلديهما من البطريرك ديمبرت محبة بالرب ، وقد ثبت البابا باسكال هذه الامتيازات ، وفعل ذلك من حين لآخر ، ونقلها إلى كنيسة القدس ، ولستوف تتمتع كنيسة القدس بحقوق هذه الامتيازات ، مستندة إلى سلطان كنيسة روما ، وستفعل ذلك أبد الدهر ، وورثت هذه الامتيازات في الوثيقة التالية :

امتيازات البابا باسكال :

من باسكال خادم عبيد الرب الى اخيه العظيم التبجيل غوبلين بطيريك القدس ، والى خلفائه في القوانين الكنسية .

تتغير ممالك الأرض وفقا لتبديلات الأزمان ، لهذا السبب إنه من المؤلم أن تتغير حدود الأبرشيات الكنسية وتنقل في معظم المقاطعات ، وكانت حدود الكنائس الأسبوعية قد وزعت في قديم الزمان وفقا لقواعد محددة مثبتة ، وقد أخل بقواعد هذا النظام تدفق شعوب شتى تدين بأديان مختلفة ، وبما أن كل من مدينتي أنطاكية والقدس والمقاطعات والمناطق المجاورة لهما قد استقرتا - بحمد الرب - في زماننا الى سلطة الأمراء المسيحيين بات من الضروري أن نضع يدنا على هذا التغيير والتحول الرباني ، وأن نتدبر ماينبغي أن نتدبره بما يوائم هذا الزمان ، وبناء على ذلك : إننا نمنح كنيسة القدس جميع المدن والمقاطعات التي امتلكت ببركة الرب وبحكمة الملك بلدوين ، وبدماء الجيش الذي كان بامرته .

وبناء عليه اننا نضفي عليك ونمنحك ياغوبلين ، وأنت الاخ العزيز والشريك في الأسقفية ، والى من يخلفك ومن خلا لك الى كنيسة القدس المقدسة ، بموجب هذا المرسوم ، سلطات الحكم والتصرف بحقوق البطركية والمطرانية في جميع المدن والمقاطعات التي أرجعتها البركات الربانية الى سلطان الملك المذكور ، أو قد تتلطف وتتحنن في اعادتها في المستقبل .

ذلك انه من اللائق أن تحظى كنيسة قيامة الرب بالاجلال الجديرة به وفقا لرغبات جدد الدين ، وأن تنعم الآن بعدما تحررت من براثن الأتراك والمسلمين بأكبر قدر من التبجيل على أيدي المسيحيين .

توزيع الأراضي حول صور :

وسويت المشاكل في صور وفق قواعد الأصول ، وقسمت الممتلكات الى ثلاثة أقسام متساوية ، بحيث أعطى اثنان منهم الى سلطة المدينة ، أما الجزء الثالث فقد أعطي الى البنادقة ، وقد وقع هذا الجزء داخل المدينة وحول المرفأ ، وفي الحقيقة منح للبنادقة نتيجة لتنازلات متبادلة ، تم الاتفاق عليها واحدا إثر الآخر ، وقضى التقسيم باحتفاظ كل فريق بحصته حقا وراثيا مؤبدا ، وبعد هذا عاد الجميع الى بلادهم ، فقد عاد البطريرك وجند القدس الى القدس حيث استقبل رجال الاكليروس والشعب الصليب المقدس بالاجلال اللائق .

الشارات التي ظهرت في تلك الآونة :

ظهرت لنا الشمس في تلك الآونة بلون باهر لمدة ساعة ، ومالبثت ان تبدلت بجمال أرجواني غير مألوف ، ثم انقلبت الى شكل قمري ، كما لو كانت في حالة كسوف مزدوج ، وقد وقع ذلك في اليوم الثالث قبل منتصف شهر آب ، عندما أوشكت الساعة التاسعة على الانغلاق .

وعليك الا تدهش لدى رؤية الشارات في السماء ، لأن الرب يظهر آياته هناك كما يظهرها على الأرض فكما يصنع في السماء يفعل على الأرض يبدل ويدبر الأمور حسب مشيئته ، وصحيح أن جميع الأمور التي يصنعها الرب رائعة حقا ، فإن الرب نفسه الذي يصنع هذه الأمور يفوقها روعة ، وانني أتوسل اليك ان تتمعّن بالأمور ، وتفكر مليا وتتبصر كيف حول الرب في زمننا هذا الغرب نحو الشرق .

- ٢٩١٣ -

لا يريد أن يعاني من العوز والفاقة الذين كرسوا أنفسهم على اتباعه
بصلبانهم حتى النهاية .

فأنت ترى الآن ، أن هذه آية خارقة ، ينبغي على العالم بأسره
أن يبدي إعجابه بها ، فمن الذي سمع بأمر مثل هذا ، فالرب يرغب
في أن يغنينا جميعا ويقربنا منه لنكون أعز أصدقائه ، ولأنه يرغب في
هذا ، أننا نتوق شوقا إليه بشكل مطلق ، ونحن نقوم بما ينال
... به بقلب تغمره المحبة والخضوع حتى نتولى الملك معه الى أبد
الأبد .

إطلاق سراح الملك من الأسر وحصار مدينة حلب :

بفضل من الرب القدير ، أطلق سراح ملك القدس من الأسر على
يد الترك ، في اليوم الرابع قبل مطلع شهر ايلول ، بعدما أمضى في
السجن نيفا وستة عشر شهرا ، ونظرا لأنه توجب عليه تقديم رهائن
مختارة مقابل إطلاق سراحه ، أنه لم يمض حرا طليقا بدون
متبظات ، فقد أرغم هو والرهائن على القلق حول مستقبل مبهم
يحفه الغموض .

وبعد هذا بوقت قصير ، واثر عقد بعض المداوالات ، سارع الملك
- بحكم الضرورة - الى حصار مدينة حلب ، وقصد بالقاء
الحصار عليها أما ان ينتزع إطلاق سراح رهائنه أما بوساطة
السكان أنفسهم أو امكانية احتلال المدينة ، لأنها كانت تعاني من
المجاعة ، فهو قد علم فعلا أنها كانت تشكو من شح الغذاء .

وتبعد هذه المدينة قرابة الأربعين ميلا عن انطاكية الكبرى ، فهنا
جعل ابراهيم - وهو في طريقه من حران الى بلاد كنعان - رجاله
يرعون الماشية في هذا المرتع الخصب ، وقد رعى منها الحوامل

والتي سوف تحمل العجول ، وهنا قام بحلب الحليب في الدلاء ، وتخثيره ، ثم عصر الخثارة في اكياس وصنع الجبنة منها ، فقد كان ابراهيم موسرا لديه من المقتنيات من كل صنف .

وفي اليوم الثالث عشر قبل مطلع شهر كانون الثاني توفي البابا كالكستوس وفي عام ١١٢٥ لتجسيد مخلص الدنيا ، في الخمسمشرية الثالثة حاصر ملك القدس ورجاله مدينة حلب مدة خمسة اشهر ، غير أنه لم ينجز شيئا ، فقد عبر الأتراك - وهم يقطن كعادتهم - نهر الفرات ، نهر الجنة العظيم (سافر التكوين : ٢ - ١٠ - ١٤) وزحفوا بسرعة قصوى نحو مدينة حلب بهدف فك الحصار عنها ، وذلك انهم كانوا يخشون ان تسقط حلب بعد امد قصير ان لم يغيثوها بالسرعة العظمى ، فقد كان قوما قد اخذوا بحصارها منذ مدة طويلة .

لقد كان هناك سبعة الاف فارس من الأعداء معهم نحو من اربعة الاف جمل محملة بالقمح وغير ذلك من المؤن ، وعندما اخفق رجالنا في الانتصار على الأعداء اضطروا الى رفع الحصار والانسحاب في اليوم التالي الى الأتارب ، وهي اقرب موقع حصين وقع تحت سيطرتنا ، وبعد ما طاردتنا مجموعة من الأتراك لمسافة قصيرة فقدوا اثنين من أشجع رجالهم ، حيث سقطا عن فرسيهما فلقيا حتفهما ، وفقدنا نحن أحد تابعي المعسكر مع ستة خيام .

ووقع هجوم الأتراك في ليلة اليوم الرابع قبل بداية شهر شباط ، ولأن الأتراك باغتنا فقد وجدونا غير محتاطين وأربكونا .

وانه لمقيت جدا ان يجري الحديث عن هذا الحدث ، وانه لمعيب جدا وشائن أن يعرف ، ثم انه ممل ومقيت ان يسمع ، ولكنني انا الذي اروي له عن الحقيقة ، وماذا ان ، من الذي يستطيع ان

يقاوم مشيئة الرب ، فضلا عن هذا لقد صدق المثل الذي ضربه رجل حكيم حين قال : « الحوادث التي ما تزال في بطن الغيب لا تمنع ، ولا هي تسمح لنفسها في ان تهزم » ، وفي الحقيقة كان لابد لهجوم العدو هذا من الوقوع ، لكن مامن أحد توقع ذلك سلفا ، ولو تم توقعه قبل وقوعه لما وقع مطلقا ، اذ ان الفكرة في الذهن تؤدي الى لاشيء الا اذا وجدت ارادة العمل ، ولو تنبأ أحد بالهجوم لأدى الحال الى نقضه ، ولو نقض ما كان وقع .

وانسحب الملك بلدوين أخيرا الى انطاكية ، وذهب معه جوسلين ، وأما الرهائن التي قدمها الملك وقت اطلاق سراحه من الأسر فلاهم أعيدوا ولاهم افتدوا ، ومالبث ان عاد اهل القدس الى القدس وكذلك اهل طرابلس الى ديارهم .

ويكبح التدبير الرباني جماح من افلح وفقا لمعايير القيم البشرية حتى لا يغمره الغرور ، كما أنه يغبط الأشرار بحق حتى لا يتمتعوا برفاهية الرخاء المديد .

ومن الذي يمنح كل خير ومن الذي يطرد كل شر غير الرب ، موجه النفس وسلوانها الذي يبصر من عليائه في السموات ، ويدرك الأمور كلها ، فمنذ أمد قصير أعطانا نحن المسيحيين بنعمة منه ، مدينة صور المجيدة الجبارة ، وانتزعها من أيدي الذين تملكوها ، وراق له الآن أن يسحب يده .

لعله ادخر كرمه للذين عظم إيمانهم من المزارعين ليتعهدوه بالعناية ، ولمن توفرت لديهم الرغبة والمقدرة على جني الثمار الوافرة منه في الموسم المناسب ، والحق يقال : إن بعض الناس اذا مازانت ثرواتهم قلت أفعالهم ، وهم لا يقدمون الشكر المتوجب عليهم لواهب كل الخيرات ، فضلا عن أنهم يقتربون الأثم ويخادعون

عندما يكذبون على الرب مرارا في تلك الامور التي وعدوا بها في صلواتهم ، لكنهم بخداعهم ما يخدعون الا انفسهم .

استقبال الملك في القدس بفرحة عظيمة :

بعد أسر دام عامين على ايدي الكفار ، وبعد ما قيد بالسلاسل بوحشية ، عاد الملك الى القدس ، ولقد استقبلناه جميعا في اليوم الثالث قبل الخامس من نيسان في موكب رائع ، وكان قدومه مجرد زيارة فبعدما امضى بيننا فترة وجيزة رجع مسرعا الى انطاكية استجابة لدعوة تلقاها منها ، فقد دمر الاتراك تلك البلاد وكان اكبر قادتهم البرسقي الذي قاد ستة الاف فارس .

البنادقة يدمرون في طريق عودتهم الى بلادهم جزر الامبراطور :

وصلتنا الاخبار في تلك الاونة ان البنادقة ، قاموا وهم برحلة عودتهم الى بلادهم بعد الاستيلاء على مدينة صور بالاغارة على جزر الامبراطور (البيزنطي) التي مروا بها فأحدثوا فيها دمكرا وتنكيلا ، وهذه الجزر هي : رودس وميثون ، وساموس وشيوس ، فدكوا الاسوار وحملوا معهم الفتيان والفتيات الى السبي والعذاب ، ونهبوا الاموال والاسلاب من كل نوع ، ولما لم يكن بمقدورنا تغيير هذه الحقيقة بعد سماعنا لها ، بكينا لما حدث بحرقة ولامست الشفقة شغاف قلوبنا .

فقد تمرد اهل البندقية على الامبراطور ، واشتد غضبهم وحقدهم عليه ، فاستشاط منهم غضبا ، ثم احتدم غيظ كل طرف منهما على

- ٢٩١٧ -

الطرف الآخر ، وباتا عدوين لنودين حقا ، ولكن « ويل للعالم من العثرات ، ويل لذلك الانسـان الذي تسـأتي بسـه العثرات » (متى : ١٨ / ٧) فاذا كان الخطأ من جانب الامبراطور فهو اذن المبادر بالسوء ، واذا كان من جانب البنادقة فهم قد جلبوا على انفسهم هلاك الجحيم .

وفي الحقيقة تنبع جميع الآثام من الرعونة والعجرفة : اولايكون الانسان متعجرفا عندما ياثم ويفعل ما حرم الرب ، فقد كان هدف البنادقة الثأر لانفسهم ، وكان غرض الامبراطور الدفاع عن نفسه ، وهو يقول ان ذلك اكثر انصافا ، بيد ان الأبرياء الذين وقعوا في الوسط بينهما يعانون من الشقاء لذنوب لم يقتربوها ويهلكون من غير حق .

لكن مالذي يمكن ان يقال عن الذين لا ينفكون عن القيام بأعمال القرصنة ، فيوقعون كل مايمكنهم من اضرار بحجاج الرب الذين يركبون البحر يريدون القدس ويتكبدون الجهود الشديدة والعناء محبة بالخالق ؟ واذا حققت البسركة للودعاء (متى : ٥ / ٧٢) فأي رحمة تحقق لفاقدي الضمير ؟ انهم ملعونون من الكنيسة ومحرومون ولسوف يهلكون غير تائبين من غدرهم واثامهم ، وعندي إن هؤلاء القوم سوف يلقون في الجحيم وهم على قيد الحياة (المزامير : ٦/٥٤) فهم لم يطيعوا الرسل ، وتمردوا على البطريرك ولم يعباوا به ، واستهانوا بكلام الآباء المقدسين .

وانا اعرف ما ينبغي ان يقال فيهم ، ولست خائفا من ان اقلوه ، ولسوف يأتي اليوم الذي سيسمعون ذلك من الرب ، وذلك القاضي العادل والحاكم الصارم لا اعرفكم ، من اين انتم (لوقا : ١٣ / ١٢) انتم يامن تطلبون ان يفتح لكم الباب ، انكم قد اتيتم متأخرين ولم تجلبوا معكم خيرا ، وان الباب

قد اغلق (متى : ٢٥ / ١٠) لم تشاؤوا ان تصفوا الي فيما مضى ، اما الآن ماظن انه جدير بي ان اصفي اليكم ، وانا الذي كنت مره قد دعوتكم بان قلت : « تعالوا » اقول الآن بحق « اذهبوا » (متى : ١١ / ٢٨ ، ٢٥ / ٤١) اقول ما اقول امين ولن اغير ماقلت بأي حال من الاحوال ، و اقول : ان ماتبقى لهم ولينتظرهم رهيب لا يطاق ولسوف يكتب الشقاء السرمدى على الذين استحقوه .

اما الان فسأتابع سرد الاحداث بتسلسلها الزمني ، وحتى احقق ذلك ولكي لا اقطع مسار الحديث فسوف اعتني بتدوين كل حادث بايجاز .

المضار التي أحدثها البرسقي والحرب التي شنت ضده :

لذلك كله فان البرسقي الذي ذكرنا من قبل طرفا من اخبار شجاعته ووصفنا تجربته من المبادئ والاخلاق ، اقدم بعدما تزايدت قوة جيشه تدريجيا يوما اثر آخر ، على محاصرة مدينة اسمها كفر طاب واستولى عليها بعد الحصار ، فاستسلمت له ، وسلمها وتنازل عنها الرجال الذين تركوا فيها للدفاع عنها ، ذلك انه لم يعد في مقدورهم الحفاظ على مواقعهم وقتا اطول ، ولم يبق لبيهم امل في استلام العون من اي مصدر كان ، فلا الملك وصل اليهم ولا كونت طرابلس الذي اصطحبه معه.

فضلا عن هذا كله لم يكن مع الملك سوى حفنة من رجال القدس ، فقد كان اهل القدس قد اصابهم الانهاك لشدة الجهد الذي بذلوه الآن وفي العام المنصرم ، فكيف كان بمقدور الذين ماكادوا يستريحون في بيوتهم شهرا واحدا ان يحتملوا مثل هذا الجهد المتواصل ، يقينا انه لقاسي القلب كل امرئ لا تتحرك في نفسه عواطف الرحمة نحو الذين

يعيشون حول القدس ، الذين يتحملون الشقاء العظيم ويعانون ليلا ونهارا في خدمة الرب ، والذين يتساءلون - خشية - وهم يغادرون منازلهم عما اذا كانوا سيرجعون اليها ابدا ، واذا مضوا بعيدا كانوا بحكم الضرورة يحملون الاثقال من الوعية والمؤونة.

واذا كانوا من الفقراء سواء من الفلاحين او من الحطائية فقد يقعون في الاسر او يقتلون على ايدي السودان في كمائن في الوهاد والاحراج ، ويباغتهم المصريون بغارات من البحراو من البر من هذه الناحية ، اما من ناحية الشمال فكان الاتراك يفاجئونهم ، وفي الحقيقة ان اذاننا مشددة لسماع زعيق الابواق ، فلعل الحرب قام ضجيجها وجلجلت في الخار . ، ولو اننا لن نزلق نحو العاصي لغدونا حقا اخلاء للرب بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

وبعد ما اجتاحت البرسقي اراضي سورية المجوفة ضرب الحصار حول قلعة زرينا ، وهو طامع في الاستيلاء عليها والحصول على كل مايتها له ، غير انه اخفق في الوصول الى ما صبا اليه لذلك زحف على رأس جيشه نحو مدينة اعزاز واوشكت على السقوط ، وبنا وقت الهجوم الحاسم على حاميتها ، اذا بملكنا يصل على رأس ثلاثة عشر فيلقا من رجالنا معبئين في ترتيب كامل للمعركة ، فقد اتخذ رجال انطاكية مواقعهم على الميمنة ووقف كونت طرابلس مع كونت الرها في اليسرة ، وكان موقع الملك في الساقة حيث وجبت كثافة التجمعات.

وكان الاتراك منقسمون الى احدى وعشرين فيلقا ، لذلك كان عددهم بالفعل متفوقا كثيرا ، وسحبوا قسيهم وفوقوها مشدودة الاوتار بعد ان نقلوها من ايديهم وأقروها على سوا عددهم ، ثم هاجموا رجالنا ولم يلبثوا ان انقضوا عليهم بسيوف مشهرة حيث اشتبكوا معهم في قتال التحامي قريب.

- ٢٩٢٠ -

ولم يتردد ملكنا طويلاً اثر مشاهدته لما حدث فانقض على الأتراك متسلحاً ومحمياً بالصليوات وبشارة الصليب ، صارخاً: الرب يساعنا، وفعل ذلك وسط صدح الأبواق والضجيج المرتفع ، وأمر رجاله في أن يحذوا حذوه ذلك أنهم لم يقدموا على المبادرة بالهجوم ومباشرة القتال قبل أن يصدر الملك أوامره بذلك.

والحق يقال ، قاوم الأتراك في البداية بكل بسالة ، غير أنهم ضعفوا ، ولحقهم الوهن بقدرة خالق الأكوان ، وبب فيهم اليأس ، ونشرت الملحمة العظمى الفوضى بين صفوفهم ، قولوا الأدبار ، وفر منهم من استطاع الفرار.

شعر :

طلعت الجوزاء خمس مرات
عندما وهبنا الرب هذا النصر

وقد وقعت هذه المعركة - التي سوف يخلد ذكراها تمجيذا للرب - في اليوم الثالث ، قبل منتصف حزيران الالف .

عدد القتلى في هذه المعركة :

من غير الممكن معرفة عدد القتلى أو الجرحى في هذه المعركة معرفة حقيقية ، ويندرج هذا على أي معركة أخرى ، لأن الأعداد الكبيرة يمكن تقديرها فقط ، وعندما يتفوه مختلف أصحاب المصنفات والكتاب بالكذب والبهتان ، فمرد ذلك في الواقع الى التزلف والمداهنة فهم يسعون الى اغداق المديح على رجالات بلادهم المنتصرين وإلى الإفراط والمبالغة في اطراء قوة

- ٢٩٢١ -

بلادهم ، حتى ينتفع من ذلك أجيال الحاضر والمستقبل ، وبناء عليه من الجلي بكل وضوح ان يقدموا على المبالغة في تقدير عدد القتلى من الأعداء ، وتقليل - ان لم يحذفوا كلية - أرقام الخسائر التي تحل بأصدقائهم ، فالكذب يتماشى هنا مع هذه القحة .

وعلى الرغم من هذا كله نذكر لنا الذين شهدوا هذه المعركة أن ألفي تركي لاقوا حتفهم ، وبذلك شهد أيضا الأتراك الذين فروا من القتال ، وقد هلك عدد هائل من الخيول من الطرفين نتيجة الانهك او بسبب العطش الشديد ، فقد كان يوم الملحمة قانظا وزائته شدة الجهود ورفعت من حرارته ، وكانت معركة شديدة قد وقعت ، أصاب فيها قوم جنات النعيم وهلك آخرون ، وهرب قوم وطاردهم آخرون ولم ينج من المضار أحد ، فاحمرت الحقول وصبغت بدم الهالكين الطرقات ، وتلألأت الدروع والسابفات ، وأشعت الخوذ وأسنة الرماح وألقي بالمعدات البراقة على الأرض في كل جانب ، فقد رمى واحد بدرعه وقذف آخر بكنانته أو قوسه .

ولم يرغب البرسقي في اخار جهده للقتال ، لكن طغتكين أثر أن يقيم حالي القدمين في دمشق وان يحافظ على ملكه بحذر وحكمة ، وخسر الأتراك في المعركة خمسة عشر اميرا ، ولم تفقد أكثر من عشرين رجلا ، كان خمسة منهم فقط من الفرسان وكان قوام جيشنا قبل المعركة ألف ومائة فارس مع ألفين من الرجال ، بينما كان لدى الأتراك خمسة عشر ألف مقاتل .

فدية ابنة الملك :

عبر البرسقي نهر الفرات ، بعدما تسكع في ديارنا لعدة أيام فقط ، وقد رجع الى بلاده بون أن يحمل الى أصدقائه في المشرق (فارس) المجد والفخار ، بل نقل معه الفجيجة والعار ، فهذا الذي قدم الى هذه الديار مهتدا متوعدا انكفأ - بفضل الرب - محروما من الشفقة مدحورا .

وسارع الملك بدوره بالذهاب الى القدس بعدما دفع فدية ابنته التي كانت في الخامسة من عمرها ، فقد كانت رهينة وكذلك دفع عن عدد من خدمه الذي كانوا في الأسر ، لقد مضى الى القدس ليقدم الشكر للرب ويخصه بالحمد ، فبعدما سحق وداسته الأرجل لفترة مديدة ، ونزلت به عجلة الحظ الى الحضيض حتى ان كاد يستسلم في بؤس وخزي ، أعادته مشيئة الرب الآن قويا ، وأرجعت اليه مجده الخالص .

شعر :

لقد انقضت الآن ستة أضعاف العشرة مع ضعفي الثلاثة أعوام
منذ أن ولت الى يومنا هذا

لعل الرب يقضي بالشيء نفسه ويحكم فيما تبقى من أيام حياتي .

القلعة التي شيدها الملك :

شيد الملك في شهر تشرين الأول من هذا العام ، قلعة في الجبال الواقعة فوق بيروت في منطقة عظيمة الخصب وسماها قلعة جبل غلافينوس وذلك اشتقاقاً من « ديفلابيو » ذلك أن من يحكم عليه بالاعدام في بيروت كانت تقطع رأسه هنا ، وبعدت هذه القلعة عن بيروت ستة أميال وكان الفلاحون السراسنة يرفضون في الماضي دفع الخراج عن أراضيهم ، أما الآن فقد أرغموا على فعل ذلك .

حملة الملك والمعركة مع الاتراك :

قام الملك بعد هذا مباشرة بالاعداد لحملة على دمشق في سورية ، ذلك أن السلام بينه وبين طغتكين قد خرق ، فاحتل ودمر ، وخرّب ثلاثاً من أغنى القرى ، ثم عاد نحو بلاده ومعه من الغنائم كلما تمكن من حملة ، وبعد ما قسم المغانم ووزعها بين الفرسان وسواهم ممن كان معه ، وفقا للقواعد العادلة المرعية ، وجه قسواته في اليوم التالي في حملة نحو بلاد الفلسطينيين .

وكانت في تلك الآونة قد تجمعت قوات جديدة في عسقلان ، وكان قد جرى إرسالها من القاهرة ، وخيل لقواتنا من الفرسان - وهي راغبة في اظهار شجاعتها على أراضيها - انها سوف تنتصر الآن ، ولما رأى أهالي عسقلان المدينة المذكورة رجالنا يتقدمون بأعلام منشورة خرجوا للتصدي لهم بكل جسارة ، وهم يطلقون الصرخات العالية .

- ٢٩٢٤ -

ولم يكن الملك - دهاء منه - قد تقدم بعد نحو الصف الأمامي حيث رجاله ، وتلكأ في الساقة حتى يقدم يد العون عندما تقتضي الضرورة ، فيما لو جرب بعض رجاله الفرار خلسة ، وهاجم فرساننا الذين كانوا في الصفوف الأمامية العدو وبضراوة لاتصدق ، ذلك أنه لم تعوزهم الشجاعة ، وحملوا وهم يصرخون « الرب يعيننا » فسحقوا العدو ، وحسب معلوماتي انه لو توفر لنا بضعة رجال آخرين جاهزين في ذلك الموقع ، لأمكنهم بكل تأكيد اختراق عسقلان مع الذين اشتركوا في المطاردة .

ونذب وبكى من بقي من أهالي عسقلان على قيد الحياة ، على مقتل أكثر من أربعين من خيرة رجالهم ، وقد أصيبوا بصدمة هائلة نتيجة لهذه النكبة ، التي لم تكن بالحسبان ، وبعدما صدحت الأبواق ايذاناً بوقف القتال ، أراح الملك رجاله تلك الليلة خارج المدينة على مقربة منها ، وفي الوقت الذي رقد فيه رجالنا ببركة الرب ، امضى العدو ليلته ساهداً تعيساً ، وكما قال يوسفوس : « من عظمت ثقته بنفسه قل احتراسه ، بيد ان الخوف يعلم الحكمة » .

وينبغي ان ننوه أن فرساننا الذي كانوا في المقدمة في ذلك اليوم لم يعثروا على أية فريسة حول المدينة ، فقد كان أهل عسقلان قد أخفوا بتدبير قطعانهم ذلك أنهم كانوا قد أخطروا بقدم الملك .

المسلمون يبعثون بالرسائل بوساطة الحمام:

من عادات المسلمين الذين يسكنون فلسطين نقل الحمام من مدينة الى أخرى لكي تحمل الرسائل في عوبتها الى المدينة التي كانت مؤخرًا موطنًا لها ، فترشد هذه الرسائل - التي تكتب عادة على

ورق ، وتعلق بأقدام الطيور - من يعثر عليها ويقراها الى الذي ينبغي عمله إثر ذلك ، ومن الجلي أن هذا قد حدث في هذه المناسبة.

تنوع العادات:

تختلف العادات وتتباين التقاليد حسب تعدد البلدان وتنوعها ، فلفرنسا عادات خاصة وكذلك لانكلترا ومصر والهند لكل منها عادات أخرى ، وكذلك تختلف البلدان عن بعضها بالطيور والأشجار ، فأنا لم أشاهد في فلسطين الحوت ولا سمك الجلبي ، ولم أر بين طيورها غراب العقعق ولا الشادي ، وفيها حمر وحشية ، وقنافذ شوكية ، بالإضافة الى الضباع التي تحفر قبور الأموات ، ولم أجد بين شجرها شجر الحور والبندق والبيلسان والاس البري ولا القيقب.

انواع مختلفة من الافاعي والبهائم في بلاد المسلمين

رأينا جميعا مؤخرا حول نابلس حيوانا لم يعرف انسان منا اسمه ولم يسمع به من قبل ، له وجه كذكر الماعز ، ورقبة كرقبة الحمار الصغير ، وأظلاف مشقوقة وذيل كذيل العجل (تيس) وهو أكبر من الكبش.

وفي مصر حيوان آخر يدعونه هناك « الكمير » وهو طويل في مقدمته وليس في مؤخرته ، وقد اعتادوا أن يلقوا عليه أيام الأعياد أنفس الأربية بالإضافة الى أشياء فخمة أخرى مما كانوا يرغبون في تقديمه الى أميرهم ، وهناك أيضا التمساح ، ذلك الحيوان الشرير الرباعي الأقدام ، الذي يعيش على اليابسة وفي الأنهار بإلفة متساوية ، وليس لديه لسان ، بل يحرك فكه العلوي فتطبق عضته بقوة هائلة واحكام ، وهو ينمو حتى يفوق طوله العشرين

نراعا ، ويبيض بيضا مثل الوز ، ويفقس صغاره فقط في المواقع التي لا يصل اليها النيل ، عند ارتفاعه في مده ، وهو مسلح بمخالب ضخمة جدا ويعيش في المياه أثناء الليل بينما يتمدد على اليابسة أثناء النهار ويغلفه جلد خشن ثخين.

ويوجد من هذه الرباعية الأقدام في واحد من جداول قيسارية فلسطين ، ويقال أنها أحضرت بالخداع والمكر مؤخرا من النيل ذاته ، لذلك هي كثيرا ما تلتهم الآن الحيوانات الأخرى وتسبب كثيرا من الأذى في تلك الأنحاء.

أما جاموس النهر (سيد قشطة) فيعيش في نهر النيل فقط ، وكذلك في الهند ، وهو يشبه الفرس في ظهره وعرفه وفي صهيله وشموخ أنفه وانشقاق حوافره ، والتصاق أسنانه والتواء نيله ، ومن عابته الرعي في حقول القمح في الليل ، تجده يقترب منها مشيحا بوجهه عنها مكرا وخديعة ، ويخلف وراءه أثرا مضللا حتى لا ينصب له أحد فخا في طريق عوبته ، ويفوق جسد هذه الحيوان الفيل ضخامة ، ولقد خلق الله جميع الحيوانات صغيرها وكبيرها والذي يرضيه مما خلق لا بد أن يرضينا ، ولهذا وجب علينا أن نقدم له الحمد والشكر.

وفم التنين صغير ، وهو لا يستخدمه للعض لأنه نوع من أنواع المسالك يتنفس هذا الحيوان من خلاله ، ومنه يبرز لسانه ، ولهذا فإن سمه في نيله وليس في أسنانه ، وهو لا يسبب الأذى باللدغ بل بالدق والالتفاف والعصر ، ويمكن أن ينحت حجر برأسه ، والتنين هو أكبر الأفاعي على الإطلاق ، إن لم يكن أكبر الكائنات الحية على وجه البسيطة ، وكثيرا ما يغرى لمغادرة كهفه الى العراء ، فتثور وقتها في الجو وضوءا كبيرة ، ولهذا الحيوان عرفا ، ثم إن كل ما يقبض عليه يهلك حالا ، وفي الحقيقة إن الفيل على ضخامة حجمه لا يأمن من شره ، وهو يتوالد في الهند وفي السودان في حرارة الصيف

الدائم ، ويكمن متربصا حول الممرات التي تمر بها الفيلة ، ويربط أقدام ضحيته ويعقدها فتهلك خنقا وهو ليس لديه أرجل.

ويوجد الرخم في سكيثيا الآسيوية (شمال البحر الأسود) وهو طائر شديد التوحش معتوه يتخطى حدود الجنون ، ثم هناك « الهركانيون » وهم جنس وحشي يسكن الأدغال ، تعج بلادهم بالبهايم الوحشية العملاقة ، ومن بينها النمر ، ويمتاز هذا النوع من الحيوانات بترقيطاته الصفراء اللامعة ، ولست أبري ما الذي يمدّه بالسرعة في العدو ، أمي رشاقة حركته الطبيعية ، أم هو عزمه وتصميمه ، وما من شيء يركض سريعا قبله فلا يستطيع النمر أن يلحق به بسرعة ، وما من شيء يسبقه النمر فيستطيع أن يلحق به. ويوجد في « هيركانيا » فهود تغطيها بقع صغيرة ، ويروي أن قطعانا من الحيوانات الأخرى تتأثر بشكل عجيب برائحتها ومنظرها ، وعندما تشعر هذه الحيوانات بوجود الفهود تحتشد مع بعضها على شكل قطيع ، وعندها لا تخاف سوى من منظر أنياب الفهد ، وتقتل الفهود باسم أكثر منها بالسلاح ، وذلك لتشبهتها الشديد بالحياة.

ويشابه الجمل البغل ببروز شفته العليا ، وهو لهذا لا يقرر أن يرعى إلا إذا مشى الى الخلف وتتكاثر الحرباء ، وهو حيوان رباعي الأقدام في الهند على الأكثر ، والحرباء تشبه السحلية ، غير أن أقدامها مستقيمة وطويلة وتلتصق ببطنها ولها ذيل طويل أعوج ، ومخالب تنحني برقه ، والحرباء ذات مشية بطيئة وجسد خشن ، وجلد كجلد التماسيح ، وفمها فاغر على الدوام وليس لها فائدة تعد ، ويعافها الغراب الأسود ، وهي تقتل من يميئها فإذا ما قتلها الغراب قتلتها ، لأن الغراب اذا التهم من جسد الحرباء لقمة صغيرة يموت لتوه ، على أنه في هذه الحال للغراب علاج يتمثل بتناوله الى الشفاء ، وهو ورق الغار ، وليس في جسد الحرباء لحم ، ولا في أحشائها طحال ، وهي تكتسب لون ما يحيط بها.

شعر :

هي تدعى سلمندر بالاغريقية وستيليو باللاتينية
وتلك الستيليو الملتهبة هي السلمندر الحرياء الخشنة.
لديها ثلاثة أسماء ولكنها شيء واحد فقط.

وهناك طير يدعى الفرس المجنح ، مع انه ليس له من صفات
الفرس غير الأذنان ، وهناك أقوام طوال القامات قاربون على
امتطاء الفيلة بسهولة كما لو أنها خيول ، وهؤلاء من الجنس
الأبيض في صغرهم غير أنهم يزدادون سوادا مع تقدمهم بالسن.
ويقوى الوحش الأبيض جميع حيوانات البرية في سرعته ، وهو
بحجم حمار الوحش وله عجز كعجز الوعل وصدر كصدر الأسد
وأقدام كأقدامه ، ورأس كراس الغرير ، وحوافره مشقوقة ويمتد
فمه من أنف إلى أنف ، وله عظام متصلة بدل الأسنان ، وكذلك شكله
من الناحية الأخرى وصوته يقلد صوت الانسان.

ويتوالد بينها وحش يدعى المنتقيور ، وله ثلاثة صفوف من
الأسنان تنطبق وتستعمل بالتناوب ، وله وجه كوجه
الانسان ، وعينان براقتان ، ولون دموي أحمر ، وجسد مثل جسد
الأسد ، وذيل شائك فيه زعانف مثل العقرب ، وله صوت صفيري
كأنه نغم الناي ، وهو يسعى بشراهة في طلب اللحم البشري ، كما
أنه خفيف الحركة ويستطيع أن يقفز بعيدا ، فلا تستوعبه أوسع
الاماكن ولا تعيقه أشد العراقيل.

من ذا الذي يستطيع أن يفقه آيات الرب أو يسبر غورها ، في
تعددتها وعظمتها في خضم بحر الحياة الشاسع الواسع حيث تعيش
شتى أنواع الحيوانات والزواحف التي تفوق الحصر؟ ولقد اقتبست
الذي أورده هنا على إيجازه من الكاتب سولينوس الذي فاق على

- ٢٩٢٩ -

الباحثين همة ومهارة ، أما ما وجدته الاسكندر الكبير في الهند وشاهده هناك فسوف أحكيه فيما بعد ، أو على الأقل سأروي بعضا منه.

لقد شارف هذا العام الآن على الانتهاء فليمض الرب في حكمه على سنة هذا الزمن ، ويندمج الآن هذا العام في العام المقبل.

حملة ملك القدس على ملك دمشق:

في عام ١١٢٦ لتجسيد مولانا ، وخلال الخمس عشرة الثالثة بعد الاحتفال بعيد الميلاد في القدس ، حشد الملك جيشه بهدف شن هجوم على ملك دمشق ، وبعدها أعلن المستنقزون التعبئة ، تحركت الطاقة البشرية في مملكة القدس ، تحركت برمتها فرسانا ومشاة ، وزحف رجال يافا والرملة وكذلك اللد عبر نابلس ، وساروا على طريق بيسان بينما سار رجال عكا وصور على الطريق الشمالية.

وتحت قيادة الملك عابروا بلدة صفورية ، وكان جبل طابور على يمينهم ، ووصلوا الى طبرية ، وهناك انضم اليهم رجال القدس ، ثم عبروا جميعا نهر الأردن ، واستراحوا بأمان في معسكرهم.

شعر:

عم الهدوء والسكون في تلك الليلة الصافية.
وأضاعت الأهلة القمر السادس عشر

- ٢٩٣٠ -

وعند بزوغ الفجر زعقت الأبواق اشارة الرحيل ، ليغانر الرجال معسكرهم ، فكان أن قوضوا خيامهم واستعدوا جميعا لاستئناف المسير ، ووضعوا أثقالهم وأمتعتهم على ظهور بغالهم وجمالهم وبقية دواب التحميل ، مما أثار كثيرا من الجلبة ، وتعلت الأصوات ونهقت الحمير وصهلت الخيول وارتفع رغاء الجمال ، ثم بدأ الكشافة في استطلاع الممرات للمشاة ، وعندما زعقت البوقات ، اختار الرجال بكل عناية أفضل الطرق لزحفهم.

وبعدما توغلوا في بلاد الأعداء ، وافقوا بعقل على الزحف بأعلام منكسة ، ولبسوا دروعهم خشية أن يباغتهم خطر ليس بالحسبان ، ثم اجتازوا شعاب وادي الراحوب ودخلوا الى منطقة دمشق وقضوا ليلتين خلف الوادي ، وينبع من هنا جدول يجري نحو بيسان من خلال بحر الجليل ثم يصب بالأردن ، وبعد هذا دمروا حصنا عبروه في طريقهم ، وهكذا وصلوا الى موقع حصين اسمه سالومي ، فخرج السريان والنصارى الذين قطنوا هناك في موكب لاستقبال الملك.

وأقبلوا بعد ذلك على واد اسمه « مرج الصفر » وذلك هو المكان الذي ضرب الرب فيه الرسول بولس ، وفقد بصره لمدة ثلاثة أيام (أعمال الرسل : ٩ / ٣ - ٩) وهناك توقفوا لمدة يومين ، ومن هناك شاهدوا خيام أهل دمشق الذين يتربصون هناك بانتظار جيشنا.

وعاد (بوري) ابن الملك طغتكين بعد أن كان غائبا ، حيث جمع بهمة ونشاط قوة مكونة من ثلاثة آلاف فارس ، حشدتها من جميع الجهات ، والتحق بوالده استعدادا للمعركة ، وكان وصوله في اليوم الذي تقدم على المعركة.

وفي الحال تم ترتيب فرساننا ورجالنا في اثني عشر كربوسا وهي طريقة تمكنهم من أن يدعم واحداهم الآخر عند اقتضاء الضرورة ، وبعدما شارك الجميع في القداس وتناولوا خبز الشركة المقدس ، ضموا صفوفهم على خط القتال ، ثم شرعوا في القتال وهم ينادون « الرب يعيننا » .

وهل الأتراك أيضا وقاتلوا بشجاعة وعنف ، ودهشوا للبسالة التي أبداهم هؤلاء الذين استخفوا بهم وكأنهم كانوا قد قهروهم فعلا ، فتخلت عنهم شجاعتهم ، وعزموا على الفرار بعدما خارت عزائمهم ، فانهم طغتكين وكذلك فعل ابنه ، واشتد الحال وزاد الضغط على رجالنا وبات عليهم أن يحتملوا فوق القدرة على الاحتمال ، ومع هذا ارتفعت شجاعتهم وازدادت أكثر فأكثر ، وهكذا ظلوا ثابتين صامدين في عزيمتهم.

على أن وابلا من سهام الأتراك انهمرت على المسيحيين فما سلم جزء من أجسادهم من كدم أو كلم ، والحق يقال لم يشهد رجالنا قط معركة أشد عنفا أو أعظم هولا ، لهذا كانوا يتراكمون محتدين ، وقد تعالى صخب المعركة حولهم وحمى وطيسها ، وتعالى زعقات الأبواق وأصوات النفر .

وفي ذلك الوقت طوق الأتراك رجالنا ، وأصابوا عددا كبيرا منهم بجراح ، فلانوا بالفرار لكنهم بعدما جربوا ذلك لمسافة أربعة أميال عطفوا رؤوس خيولهم ورجعوا على الأتراك كما وجب عليهم ولزم ، وباشروا القتال وقد ارتفعت حماسهم واشتد اقبالهم على الحرب .

شعر:

وافق يوم المعركة المقدس هذا يوم الذكرى السنوية
لاعتناق بولس دينه ، بولس الذي اصطفاه الرب.

ونشب قتال هذه المعركة في الساعة الثالثة من النهار ، ووضعت
العتمة حدا له بنصر منحنا اياه الرب.

المعركة محفوفة بالمخاطر ، والفرار عار وخزي فاضح ، ولكن قد
يكون من الأنسب أن يعيش المرء مستضعفا على أن يموت ويندب
موته الى الابد ، لهذا أثار الاثراك الفرار لكي يحافظوا على
حياتهم ، وفي الحقيقة لاقى أكثر من ألفي فارس تركي حتفهم على
أرض المعركة فضلا عن الرجال الذين لم يرد ذكرهم ، وفقدنا نحن
أربعة عشر فارسا وثمانين من الرجال.

وكان تصرف مليكنا في ذلك اليوم رائعا ، ومثله كان تصرف
فرسانه ورجال معسكره جميعا ، حيث أن الرب القدير كان معهم
بذاته ، وفر ملك سورية وكل من تمكن من اللحاق به ، وعاد مليكنا
الى القدس وقد امتلا نشوة بظفره.

وبعد صدور الأوامر بالعودة حاصر رجالنا حصنا كان فيه ستة
وتسعون رجلا ، فاستولوا عليه وقتلوهم كما استولى الملك على
حصن آخر كان فيه عشرين تركيا ، قد التجأوا اليه ، وعندما تيقن
هؤلاء أن رجالنا بدأوا بالحفر حول الحصن وبنزع الحجارة الكبيرة
من السور استسلموا وتخلوا عن حصنهم المنيع الى الملك لشدة
خوفهم ، وأنن لهم الملك بالمغادرة حسب اتفاق التسليم ، ثم هدم
الحصن ، واملت تدميره ضرورات المصلحة ، ذلك أن حصانته كانت
ستغوي الكثيرين بالتمرد ، إذ كان من الممكن أن يصلح ملجأ آمينا
لن يملكه ، فيصمد فيه فيكون مصدرا للريبة والقلق لمن يهاجمه.

علني أسباب الضجر للسامعين لروايتي لو أنني حكيت كل التفاصيل التي حدثت في الحرب أو نتجت عنها ، سواء بالعنف أو بالحيلة ، فقد أحضر أهالي دمشق معهم شبانا انتقوهم لرشاقتهم في الحركة ، وكانوا مسلحين ، وقد امتطوا الخيول وراء الفرسان الأتراك ، وفور مقابلة الأعداء تـرجلوا بسرعة وقـاتلوا كمشاة ، بينما تابع الفرسان الذين أحضروهم القتال في الجانب الآخر.

حصار مدينة رمنية ونهر سبتكس:

كتب الأوائل « ليس هناك شيء مبارك من كل ناحية » وهكذا ليس من الممكن أن تكون البركة الكاملة قد حصلت في هذه المعركة ، إذ أننا فقدنا أربعة عشر من خيرة فرساننا وذلك بالإضافة الى بعض الرجال الشجعان ، لكن ذلك لا يذكر أمام المذبحة التي حلت بين صفوف الأعداء .

وتفسر كلمة دمشق بأنها « شرب الدم » أو « تقبيل الدم » ، فقد قرأنا أنه في دمشق جرى سفك دم هابيل ، وبالفعل إن أهل دمشق قادرين على الاغتسال بدم القتلى ، بل أكثر من هذا قادرين على أن يشربوا من دم أنفسهم بأن يطرحوا أنفسهم متمددين ووجوههم منبطحة على الأرض.

وأخيرا عاد الملك مع جيشه الى القدس حيث أمضى الجميع ذلك اليوم في اجازة ، وفي تقديم صلوات الشكر ، وبعد أمد وجيز استجاب الملك لتوسلات كونت طرابلس ، وزحف لاعانته في حصار بلدة تدعى رمنية تقع على سفح جبل لبنان ، وحسبما ذكر يوسفوس في هذه المنطقة « ما بين أرشاص ورفنية يجري نهر له صفة فريدة عجيبة ، ذلك أنه سريع التيار عندما تتدفق مياهه ، غير

- ٢٩٣٤ -

أن ينابيعه تنضب بعد ستة أيام حتى يبدو موقعه وكأنه قد جف وفي اليوم السابع وبدون أي سبب ظاهر يرتفع ماء النهر ثانية ، ولقد وجد أنه يعيد تكرار هذه العملية على الدوام وحسب الوتيرة نفسها ، ولذلك دعي هذا النهر بالنهر السبتى - سبتكس - نسبة الى السبت ، وهو اليوم السابع من الاسبوع ، وهو أيضا اليوم الذي يقدسه اليهود.

وبالفعل قضى الأمير طيطس بعض الوقت حول بيروت ، ثم غادرها وهو يثني على هذا المشهد الذي فاق بروعته كل ماشاهده في المدن السورية التي زارها ، وقد ازداد اعجابه بهذا النهر (قوار الدير) ورأى ظاهرة جديدة بالتقدير العفوي.

شأن نهر آخر

ويحكي المؤرخ نفسه خبر أعجوبه أخرى ، فيقول إنه على مقربة من مدينة عكا كان هنالك جدول (نهر النعامين) ضئيل المياه كثيرا ، يبعد حوالي ربع ميل عن المدينة ويدعي « بيلوس » وهو قرب كنيسة ممنون ، وهو بالفعل جدير بكل اعجاب ، لأنه على شكل واد مستدير ، وهو ينتج رملا زجاجيا ، وبعد أن تأتي المراكب اليه وتنقل الرمل منه يعود الموقع فيمتليء بالرمل ، وتحمل الرياح بطبيعتها رمالا أخرى من التلال المحيطة بالوادي ، والذي يثير عجبى فوق هذا كله ، انه كلما طرح جزء من ذلك الرمل الزجاجي الى حافة المكان عاد ثانية ليصبح رملا عابيا.

الاستيلاء على مدينة رفنية :

سقطت رفنية التي تقدمت مني الاشارة اليها باقتضاب على

- ٢٩٣٥ -

النحو التالي: بعدما حاصر الملك والكونت المسلمين داخلها لمدة ثمانية عشر يوما ، وبعد قذفها بشدة بحجارة المجانيق استسلم سكان المدينة وغادروها دون أن يمسسهم أذى ، ووقع ذلك في آخر أيام آذار ، وهكذا تسلم كونت طرابلس المدينة وبات سيدها منذ ذلك الحين وقد أعاد تحصينها ، لكن ملك القدس رجع الى القدس.

وفاة الإمبراطور الروماني:

فيما كنا نحتفل بعيد الفصح (١١ - نيسان ١١٢٦) في القدس نقل إلينا الحجاج أخبارا أفادت بوفاة الإمبراطور الروماني (هنري الخامس - ت ٢٣٠ / ٥ / ١١٢٥) وأضافت أن دوق سكسوني المدعو لوثير قد ارتقى عرش الإمبراطورية .

شعر

عندما توفي هنري أثار برج العذراء
وإثر ذلك حكم لوثير ابن الدوق وغدا ملكا .

حملة الملك على المصريين:

شرع الملك بعد فترة وجيزة في إعداد حملة من مدينة صور ، وهبط نحو سورية السفلى (الشمالية) بعد أن خلف وراءه قسما من فرسانه واصطحب معه القسم الآخر ، وقد فعل ذلك على الرغم من سماعه بأقاويل حكّت عن استعدادات للمصريين للحرب ، وبوشوك زحفهم ضدها .

فلقد عزم على المبادرة إلى الموقع الذي سمع أن العدو سوف يهاجمه ، فالملك بلدوين كان مثله مثل الخنزير الكاسر ، وقد أحاطت به الكلاب من كل جانب تنهشه بعضاتها المتوالية ، فاضطر أن يدافع عن نفسه ويضرب يميناً ويساراً ، وينقض عليهم مكشراً عن أنيابيه بكل شراسة ، وحسبما اعتدنا القول : « تمتد اليد إلى حيث يوجد الألم »

وكان الأتراك قبل وصول الملك إلى هناك قد احتلوا موقعا يشبه القلعة ، ولما كان ذلك الموقع مصدر ازعاج للأتراك فقد توجب علينا استرداده ، وكان جنودنا قد تسللوا منه بمهارة فائقة خلال الليل ناشدين النجاة ، وقد خلفوا وراءهم فيه أزواجهم وأولادهم ، ذلك أنهم أثروا إنقاذ بعضهم على فقدان الجميع .

وفي منتصف تموز من ذلك الصيف بدأ مذبذب بالظهور مابين الشرق والشمال ، وقد ظهر قبيل الفجر وظل شعاعه يسطع حتى حوالي الساعة التاسعة ، ثم بدأ مثل ضوء خافت ، وبذلنا جهدنا لمدة ثمانية عشر يوما حتى ندرك مغزاه ، فلم نستطع فسلمنا ذلك إلى خالقنا أجمعين .

وحاصر الأتراك في تلك الآونة بلدة الأثارب ، وكان البرسقي ابرز قادتهم ، وما أن سمعوا بمقدم ملكنا الذي كان يتعقب خطاهم ، حتى انسحبوا إلى مواقع دفاعية أكثر أمانا ، وقد احبطت مخططاتهم لأنه لم يكن لديهم ما يزيد على ستة الاف جندي ، ولهذا عاد الملك إلى أنطاكية .

الأسطول المصري :

بعدما جدد المصريون في هذا العام أسطولهم وحشودهم أبحروا

تدفعهم ريح جنوبية وبخلوا إلى بلاد الفلاستينيين ، ومروا أولا بالفرما فالعريش فغزة ثم عسقلان ، وكذلك يافا وقيسارية وعكا وصور ، فاستطلعوا المنطقة وتفحصوا الشاطئء خلصة حتى حدود مدينة بيروت ، وتصيدوا وفتشوا من مرفأ إلى مرفأ ليروا فيما إذا كان بإمكانهم العثور على مايعود عليهم بالمنفعة وعلى المسيحيين بالضرر ، ولما كانوا انذاك قد أخذوا يعانون كثيرا من شح المياه العذبة ، فقد اضطروا إلى النزول على اليابسة لكي يملأوا أوعيتهم من الجداول والينابيع وحتى يطفئوا ظمأهم .

واستاء سكان المدينة المذكورة من ذلك ، وخرجوا على الفور بكل جسارة وقاموا بدون تردد بشن هجوم عليهم ، وكان قد انضم إليهم بعض المسافرين الذين صدف وجودهم هناك ، وسقط من أولئك القراصنة مائة وثلاثين قتلى أو أنهم أصيبوا بجراح قاتلة ، وفي الحقيقة نزل خمسة آلاف من الأعداء إلى اليابسة ، وغادروا سفنهم ليقاتلوا رجالنا ، علما بأنه بقي في السفن من تولى العناية بها وحراستها ، وكان عدد السفن اثنتين وعشرين سفينة ثلاثية المجاذيف ، وثلاث وخمسين سفينة من أنواع أخرى .

وكان أعداؤنا قساة القلوب غلاظا ، لم يكن في قلوبهم شفقة على من استطاعوا أن يخضعوا لسيطرتهم ، يجدون متعة بممارسة وحشيتهم على بني جلدتنا .

ونحن نحمد الرب لأنهم لم يحققوا فائدة ترجى في هذه المرة ، حيث تمكن فرساننا برماحهم وقسيهم ونبالهم من صددهم ثم قذفوهم إلى البحر ، وانزلوا بهم هزيمة نكراء لم تكن عندهم بالحسبان ، فذسروا أشرعتهم بدون تباطؤ ، وانحرفوا متجهين نحو طرابلس ، ثم قبرص .

رحلة بوهيموند الأصغر :

وكان الحجاج والمراسلون قد نقلوا إلينا في ذلك العام مرارا وتكرارا تقارير أعلنت عن حضور بوهيموند الأصغر ، غير أن مانقلوه قد خدعنا وكان مجرد شائعات ، لأن بوهيموند خاف من الأسطول المصري ، أو الأصح أسطول القراصنة الذي علم أنه قد انتشر في البحر ، وفي الوقت نفسه كان بوهيموند شديد القلق على بلاده نفسها ، فقد خشى أنه إذا لم يحكم حفظها بين أتباعه فقد يفقدها بالمراوغة والاحتياي ، وبمختلف أساليب المكر والخداع ، وفعلا ورد في أمثال الفلاحين . « من لديه جار سيء فمصباحه سيء » .

وبعدما أعد بوهيموند لرحلته مرارا تمكن أخيرا أن يجمع في أوترانتو - إحدى مدن أبوليا - أكبر عدد استطاعه من السفن لقد جمع اثنتين وعشرين سفينة ، كانت عشر منها من النوع الطويل المزود بالمجاذيف ، وسارح بالتحضير لرحلته ، وفعل ذلك بعدما أودع بلاده وتركها لدوق أبوليا ، بعدما انتقاه وعينه وريثا له فيما لو تقدم عليه بالوفاة ، ومنحه الدوق بدوره الحق ذاته وثبته له عن طيب خاطر ، فيما لو كان الدوق أول من سيفارق الحياة بينهما ، وتم إبرام ذلك بحضور وجهاء القوم من الجهتين وشهانتهم .

وهكذا أبحر بوهيموند في أواسط أيلول ، فمر بشيكلادس الموزعة حول سطح البحر ، فأتى إلى ميثون فرودس وبامغليا وليسسيا ، ووصل في عباب الأمواج إلى أنريا التي تملا بالربع قلب كل من يبحر إليها ، ثم مر بأنطاكية الصغرى فأنطاكية الكبرى فأسوريا ، ثم مدينة سلوقية ، وكانت وقتها قبرص عن يمينه ، ثم بطرطوس فمدينة بلنياس التي باتت خرابا ، فكانت عن يمينه .

- ٢٩٣٩ -

ونشر في تلك الفترة كثير من الناس الجشعين المتقلبين ، الذين وصلوا مؤخرا من وراء البحار ، حكاية روجوا لها بيننا في القدس افانت أن بوهيموند قد نزل إلى اليايسة فعلا في انطاكية ، بيد أنهم تاهوا فيما قالوه ، مع انه خيل إليهم أنهم قالوا الحقيقة ، وسبب ذلك أنهم سافروا مع بعض رجاله حتى وصلوا إلى بارتا برفقة الصقور والبزاة وصيادي الطيور والكلاب التي بعث بها مقدما .

المخاطر التي تعرض في البحر :

كثير هي المصاعب والمخاطر التي تواجه من يركب البحر - إذا ماشاء الرب بها وسمح - فقد تنقطع المرساة وتنفصل ، وقد يتحطم عمود الشراع ، أو مؤخرة السفينة المعكوفة المزخرفة ، أو قد تنفصم السلسلة المعدنية .

وعندما تغير الريح اتجاهها ، يراقب البحارة مؤشر دليل اتجاه الريح ليتأكدوا من أن السفينة تسير بالاتجاه الصحيح ، وهناك دوما خطر من أن تفقد مجراها في الليل ، وعندما تختفي النجوم وراء السحب ، أو عندما تجري فوق الصخور ، فهناك خطر محقق بحدوث الغرق والهلاك (أعمال الرسل : ٢٧ / ٢٠ ، ٢٩ - ٣٠) وكما في البر كذلك توجد المخاطر في البحر .

ولماذا نستغرب ما يجري لنا ، إذا ما تذكرنا حطام سفينة القديس بولس ؟ فقد ألقى ملاحوه الفادن كي يقيسوا به عمق البحر ، ولو لم يشاهد ملاك الرب في محنته لانقطع رجاؤه بالنجاة (أعمال الرسل ٢٧ / ٢٣ - ٢٨) .

البحر العظيم :

اعتاد عدد كبير على مصادفة المخاطر في خليج أدريا ، فقد تهب الرياح شديدة من جميع الاتجاهات ، وتهبط من الجبال نحو الوديان ، ثم تنحرف بين الشعاب المنخفضة وتتجمع في إعصار في الخليج ، وإذا قابل البحارة في بعض الأحيان سفينة قراصنة ، فقد تسلب أموالهم ويحل بهم الدمار بدون شفقة ، أما الذين يعانون من ذلك كله محبة بالرب ، فهل تخيب آمالهم قط في ثوابه ؟ .

ودعنا نذكر بضع كلمات عن البحر : علينا ألا نغفل عن ذكر مصدر البحر المتوسط ، فبعضهم يعتقد أنه ينشأ من مضائق قادس ، وليس له مصدر غير مصب البحر المحيط الهائل ، أما الذين يعتقدون عكس ذلك فيذكرون أن تدفقه كله يأتي من مضائق بنطش ، ويدعمون ذلك بحجة راسخة أن المد من بنطش لا يرتد رجوعا أبدا . وعلى هذا لنرفع آيات الحمد والشكر إلى خالق الأكوان الذي « ثبت حدود البحر ووضع له تخوما ومداخل ، إذ قال له : إلى هنا تأتي ولا تتجاوز ، وهنا تتخم كبرياء لججك » ، وحين يندفع البحر هائجا مائجا باتجاه الشاطئ يتكسر إلى زبد ترده أدنى العقبات عن الشاطئ .

ثم ما الذي يمنع البحر الأحمر - اللهم إلا إذا نهت إرادة السماء عن ذلك - من أن ينضم إلى البحر المصري في سهول مصر ، حيث أنه يقع في منطقة أكثر انخفاضا من الوديان ، المنبسطة التي تتصل به ؟ وأخيرا ورد في الكتب أن إثنين من الملوك رغبا في وصل هذين البحرين حتى يصب أحدهما بالآخر ، وكان أولهما سيسوتريس المصري ، وثانيهما دارا الفارسي ، وقد أراد هذا الأخير - نظرا لأنه تفوق على الملك المصري سلطة ومقدرة - أن ينجز ما سعى إليه ذاك .

ويدل هذا على أن المحيط الهندي ، الذي يقع فيه البحر الأحمر هو أعلى ارتفاعاً من البحر المصري ، الذي يقع على مستوى أشد منه انخفاضاً وليس على المستوى ذاته ، ولعل كل واحد من الملكين قد تخلى عن المشروع لكي يمنع البحر من أن يجري من مستوى مرتفع إلى مستوى منخفض ، فيفيض بذلك ويغمر البلاد ، وقد ورد هذا في مذكرات أمبروز ، في حين يذكر سولينوس غير ذلك .

كم هي عجيبة أذن أعمال الرب ، غير أن أعجب منها من خلقها ودبرها ، وإذا ما بدا بعضها قبيحاً في أعيننا فعلياً أن ننثني عليها على الرغم من ذلك ، لأن خالق الكون قد أبدعها . لقد زودنا الرب بالدواء في حشرة البق (المنزلي) فتقدم هذه الحيوانات الدواء أحياناً ، وتسبب الأمراض في أحيان أخرى أو قد تحدث الوفاة ، فهي تعطي الشفاء حيناً والضرر حيناً آخر ، ويحكى أنه إذا ما أعد ترياق مضاد لسموم لدغة الثعبان من لحم الثعبان وحده فهو ضار ، لكنه ناجح ومأمون إن مزج بمواد أخرى .

اصناف الثعابين :

أما الباسيليق فطوله نصف قدم ، وهو أبيض مثل تاج الأسقف وله رأس مخطط ، وهو لا يكتفي بتدمير الإنسان والحيوان فقط بل يتعدى ذلك إلى الأرض نفسها فهو يلفحها بالسموم ، وحيثما يكون يخلف وراءه مكمناً قاتلاً تنوي فيه الأعشاب والأشجار وتموت ، وهو يلوث الجو ذاته ، فلا يستطيع طائر أن يطير فيه بأمان لأنه يفسده بنفسه الموبوء .

وعندما يزحف الباسيليق يتحرك نصف جسده وينتصب النصف الباقي قائماً ، حتى الثعابين ترتعد لسماع فحيحه فتمتنع في الفرار

شاردة لاتلوى على شيء ، والذي يقتله الباسيليق بلدغة منه لا يأكله حيوان بري ولا يقربه طير ، لكن ابن عرس يتغلب عليه ، لذلك يضعه الناس في جحره .

وصحيح أن أهل بيرغمون قد وضعوا في المعبد الذي جعلته يدا ايليس رفات باسيليق سددوا سيسترتيوم (عملة رومانية) كاملة ثمنا له بغية طرد العنكبوت حتى لا يغطي المعبد بذسجه ولئلا تقطنه الطيور .

أما المثنية فلها راسان إثنان ، يقع ثانيهما في الذيل ، وللمقرنة أربعة قرون قصيرة وهي تطمر جسدها بعناية في الرمل ، ثم تبرز قرونها حتى تبدو وكأنها غذاء وبذلك تتخفى فتقتل الطيور ، وتمتص الحماوية الدماء بعد اللسع ، وهي تمتص الحياة من مجرى الدم في العروق ، وتصيب البرستا من تلدغه بتورم عظيم فيموت ، ويحل التعفن عادة بعد التورم ، وهناك أفاعي أخرى كثيرة لها أسماء مختلفة ، ومهما تباينت أسماؤها فكل منها يسبب الموت بطريقة مميزة .

أما العقرب والسنقور والسلحفاة فهي جميعا من صنوف الديدان لا الثعابين ، وإذا ما زحفت هذه المخلوقات القذرة فخطرها أقل ، وليس لديها أي مشاعر إلا إذا هامت تبحث عن وليفها .

ويسطع ظهر السقطة بضروب الألوان ، ويأسر جمالها من يبصرها ، أما العطشاوية فتسبب العطش القاتل بلدغتها ، وتقتل النوامه بتسبيب النوم ذلك أن النوم يؤدي إلى الوفاة مثلما حصل مع كليوبترا ، ولن نأتي على ذكر أنواع الثعابين الأخرى لأن لدغتها قابلة للعلاج .

ولاتقل هذه الأعاجيب ادهاشا عما شاهده الاسكندر الكبير في

الهدد ، فقد قال لمعلمه ارسطو ولوالدته اوليمبيا : « ماكنت لأصدق بوجود كل هذه الأنواع من الأعاجيب لو لم أشاهدها بنفسى » والحق يقال كان هذا الملك رجلا رائعا بكل ماتعنيه هذه الكلمة : كان رجلا عاقلا مدبرا في كل اموره نشيطا في همته وقويا في سلطانه ، ولم يكن كالريشة الطائرة ولا كالقش العائم .

وصول بوهيموند الأصغر ابن الدوق بوهيموند واستقباله في انطاكية :

وكان بوهيموند قد تأخر في إقلاعه في ذلك العام عما كان متوقعا حتى خيل للناس أنه لن يحضر حسبما أعلن وراج بينهم ، ولكن كما ورد في قول النبي ارميا : « ليس للمرء طريقه ، وليس لانسان يمشي أن يهدي خطواته ، ولكن الهـدى يأتى من الرب » (ارميا : ١٠ / ٢٣) فلقد خدعتنا اوهامنا وخابت آمالنا ، والأمور لاتجري وفقا لأطماع البشر بل حسبما يقضى به الرب جزاء عادلا لهم .

وقد انتعشت قلوبنا عندما أخبرنا ملكنا في رسائله إلينا في القدس عن وصول بوهيموند إلى انطاكية .

واستقبل الجميع بوهيموند عند قدومه إلى انطاكية بسرور عظيم ، وسار الملك في موكب حافل واستقبله بحرارة وسط هتافات الناس المتوالية ، وعلى الفور عقد الملك و بوهيموند اجتماعا ، وإثر ذلك أعطى الملك الأمير بوهيموند بلاده بأسرها ومنحه إحدى بناته زوجة له .

شعر :

انظر ترى الختن وترى الصهر : الوالد والابن
فليوقر أحدهما الآخر ليزيد بذلك كلاهما منعة .

وبعدما تمت رسوم الزفاف عقد القران بالطريقة القانونية ، وجرى
تنصيب بوهيموند أميرا وهو جالس على عرشه ، وخلع عليه رداء
الامارة الجميل ، وبعد ذلك اجتمع النبلاء فأقسموا له يمين الولاء
الذي حق عليهم لكونهم رجاله ، وعاهدوه على طاعته والقيام بخدمته
اعتبارا من ذلك اليوم ، وأنجز هذا كله بحضور الملك وبرضاه .

وعاد الملك إلى القدس بعدما تمت هذه الأمور .

شعر :

سطع برج السرطان بين نجوم السماء
وقت استقبال بوهيموند أميرا لأنطاكية

وقد انحسر الآن مدار هذا العام ، واستعد لبداية عام جديد .

وباء الجرذان :

في عام الف ومائة وسبعة وعشرين لتجسيد الرب ، وفي
الخمس عشرة الخامسة ظهرت حشود من الجرذان في بلاد فلسطين
بأعداد هائلة ، حتى أن بعضا منها قبض على مؤخرة ثور وخنقه ،
والتهمته واتهمت معه خمسة أكباش مخصية ، وبعدما نشرت هذا
الدمار في أعماق ديار عكا اتجهت أخيرا نحو جبال صور بحثا عن

- ٢٩٤٥ -

المياه ، ومن هناك طرحتهم إلى الوديان بالآلاف التي لاتعد ولا تحصى
رياح عاتية ، وعاصفة ضارية وبيلة ، وبقيت تلك المنطقة موبوءة
بجثثهم المهترئة .

انتهى هنا تاريخ الحملة الى القدس الذي كتبته فولتشر
أوف تشارترز .

الحواشي والهوامش

يوميّات صاحب أعمال الفرنجة

- ١ - الكتاب المقدس - العهد الجديد : ١٦ / ٤٢ .
- ٢ - من المرجح أن المقصود بهذا بلاد فرنسا ، مما يوحي بأن صاحب الكتاب جاء من إيطاليا ، هذا وسبق لنا نشر أجزاء هامة من خطبة أوريان الثاني التي ألقاها في مجمع كلير مونت سنة ١٠٩٥ م لدى دعوته للحروب الصليبية .
- ٣ - أعمال الرسل : ٩ / ١٦ .
- ٤ - لوقا : ٢١ / ١٥ .
- ٥ - متى : ١٢ / ٥ .
- ٦ - كذا ، ولم يحدث أن سافر شارلمان إلى القسطنطينية ، ولقد قيل بأن إشاعة راجت أثناء الدعوة للحروب الصليبية فيها بأن شارلمان عاد إلى الحياة وسار على رأس حملة صليبية نحو القسطنطينية .
- ٧ - ٢٩ - أيلول ١٠٩٦ م .
- ٨ - المعني هنا جميع بلدان السلطنة السلجوقية لآخراسان المعروفة لدى المسلمين .
- ٩ - وصل هذا إلى القسطنطينية قبل بطرس بفترة وجيزة .
- ١٠ - كذا في الأصل ، ومفيد مراجعة هذه المعلومات على ما قدمته أنا كومينا ، ذلك أن جـوتيه كان ما يزال في القسطنطينية .
- ١١ - يحسن العودة إلى رواية أنا كومينا حول أسباب عودته وغاياته .
- ١٢ - هو أنهمردى مونتييل ، أسقف بوي اختاره البابا نائباً عنه في رعاية الحملة الصليبية وقيادتها .
- ١٣ - هو ابن وليم أخي روبرت جيسكارد .
- ١٤ - هو ابن وليم الفاتح لانكلترا ، البكر .
- ١٥ - أخو ملك فرنسا فيليب الأول ، راجع ما جاء حوله في رواية أنا كومينا .
- ١٦ - رواية أنا كومينا حول هذا الموضوع أكثر تفصيلاً واقتناعاً .
- ١٧ - يراجع في هذا الشأن ما أوردته أنا كومينا ، مع اعتبار محاولات الامبراطور إيجار غودفري وسواه من قادة الفرنجة على تقييم يمين الولاء له ، ومن ثم العبور إلى البر الآسيوي .
- ١٨ - كان أهل أمالفي في إيطاليا قد تمردوا على الحكم النورمندي ، وكان يوهيموند مع غيره من الأمراء النورمنديين يقاتل ضدهم عندما وصل المتطوعة من الفرنسيين وسرعان ما أعجب يوهيموند بفكرة الحروب الصليبية ، فقرر الالتحاق بالحركة ، وأخذ الطريق نحو العاصمة البيزنطية ، وقد قصت علينا أنا كومينا أولى التفاصيل حول نشاطاته .
- ١٩ - في تارنت وأوترانتو في إيطاليا .
- ٢٠ - يلاحظ إشارة صاحب المذكرات لنفسه وجماعته .
- ٢١ - كذا ، وكان يوهيموند عدواً للامبراطور البيزنطي خاض ضده عدداً من الحروب قبل قيام الحروب الصليبية .
- ٢٢ - أي شياط لسنة ١٠٩٧ .
- ٢٣ - لعل صاحب الرغبة في الاغارة هو تانكرد .

- ٢٩٤٧ -

- ٢٤ - في مقدونية الشرقية .
- ٢٥ - اسمها الآن كيرشان ، ووصلوا إليها في أول نيسان سنة ١٠٩٧ م .
- ٢٦ - ١ - نيسان ١٠٩٧ م .
- ٢٧ - في رواية لنا كومينا تفاصيل أول حول زيارة بوهموند للأسطنطينية .
- ٢٨ - تتعارض هذه المادة مع ما جاء في بقية المصادر ، ولا ندري أورد ذلك إلى صاحب المذكرات ، أم أنها أقيمت بالنص لصالح بوهموند .
- ٢٩ - ١٤ - أيار ١٠٩٧ .
- ٣٠ - يعرف أيضا باسم ستيفن ، وهو زوج أدبلا ابنة وليم الفاتح .
- ٣١ - مثل هذا قالته لنا كومينا ، وبناء عليه قدر البعض عدد الفرسان بأكثر من مائة ألف .
- ٣٢ - التفاصيل التي أوردها لنا كومينا حول حصار نيقية وسقوطها أول ويمكن الركون إليها ، لكن مع الأخذ بعين الاعتبار قيام الخلافات إثر ذلك بين الامبراطور البيزنطي والفرنجة ، وأثر هذا واضح على رواية صاحب المذكرات هذه .
- ٣٣ - رؤيا يوحنا اللاهوتي : ١٠ / ٦ .
- ٣٤ - يرى بعضهم أنها قرب بلدة أسكي شهر ، بينما يذهب رذسمان إلى أن اسم المكان « ساري سو » .
- ٣٥ - هو جسر جكسو عند بلدة ليوك ، فهناك توقف الصليبيون للتشاور .
- ٣٩ - لاشك أنهم كانوا يهتفون بعبارة « الله أكبر » .
- ٣٧ - أي جيش صنجيل .
- ٣٨ - هذا صدى لقوله تربنت في أيام العرب الصليبية من أن التركمان والفرنجة من أصل واحد .
- ٣٩ - انظر صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية - تأليف عثمان الترك - ط . حلب : ١٩٦٠ ص ١٣٢ - ١٣٤ .
- ٤٠ - هي مدينة كوماننا ، وكان التركمان بزعامة أسرة الداشمند قد حاصروها قبل وصول الفرنجة .
- ٤١ - سبق له عمل مرتزقا في الجيش البيزنطي .
- ٤١ - كان ذلك يوم ١٣ تشرين الأول ١٠٩٧ م .
- ٤٢ - يرجح أن هذا كان يوم ٢٠ تشرين أول .
- ٤٣ - أي العاصي .
- ٤٤ - أي يوم ٢١ تشرين أول .
- ٤٥ - ٢٩ كانون أول ١٠٩٧ م .
- ٤٦ - ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ في حوادث سنة إحدى وتسعين وأربعمائة : « وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكثها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم وبخول الأقيس (اتسز بن أوق) إلى مصر وحصرها ، فضافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين » . الكامل ٨ / ١٠٨٦ .
- ٤٧ - ٩ شباط ١٠٩٨ .
- ٤٨ - من الجنوة الذين قدموا باسطولهم يوم ١٧ تشرين ثنائي ١٠٩٧ . ٤٩ - يوم ٦ آذار ١٠٩٨ م .
- ٥٠ - انظر متى : ٢٥ / ٤١ .
- ٥١ - ٧ آذار ١٠٩٨ م .
- ٥٢ - من أنواع العملة لتلك الفترة .
- ٥٣ - هذه واحدة من الشهادات المعبرة عن شره الصليبيين ومدى وحشيتهم وحقدهم .

- ٢٩٤٨ -

- ٥٤ - ٨ - آذار ١٠٩٨ م .
٥٥ - كان ذلك يوم ٥ - نيسان ١٠٩٨ م
٥٦ - كذا والمرجح أنه أرمني الأصل ، واسمه عند ابن الاثير روزبه وعند ابن العديم في زبدة الحلب
- فيروز - وعند ابن القلانسي - فيروز - ولعله الصواب ، ومعنى هذا التذكير بضرورة مقابلة رواية
صاحب اليوميات بما أورده أنا كوميثا .
٥٧ - ليلة ٢ - ٣ حزيران ١٠٩٨ .
٥٨ - غالبا ما يستعمل صاحب اليوميات هذه العبارة ليعنى بها واحدا من نورمان ايطاليا .
٥٩ - في المصادر الاسلامية ما يفيد أن بقي سقان سقط عن ظهر جواده ميتا أثناء فراره . فمر به
بعض الارمن فعمله فحمل رأسه إلى الفرنجة
٦٠ - يريد به السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه - انظر كتابي تاريخ العرب والاسلام
٣٣٣ .
٦١ - أي يوم ٥ حزيران ١٠٩٨ م
٦٢ - لعله كان أحد الابرجة التي قامت عند منخل جسر العاصي .
٦٣ - أي المعركة التي هزم فيها كربوقا ، وسيأتي خبرها مفصلا . ووقعت في يوم ٢٨ حزيران
٦٤ - يوم ٦ حزيران
٦٥ - اسمه أحمد بن مروان - انظر زبدة الحلب لابن الحلب : ٢ / ١٢٩ - ١٣٨ .
منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٣٦ - ٢٤٢ .
٦٦ - يشك بصحة هذه الرواية ، وهناك صدى للأساطير الاغريقية عن وجود نهر اسمه الامازون
في أسية الصغرى عاش حوله جماعة من النساء اللواتي كن مقاتلات لم يعش بينهن أحد من
الرجال
٦٧ - كذا ، والرسالة اختراع محض في الاسلوب والافكار ، ولها جهل فاضح ، فمن هم هؤلاء
الارباب والالهة وبيان الاسلام ديانة توحيدية ؟ !
٦٨ - المزامير : ٦٧ / ٣١ .
٦٩ - مزامير : ٧٨ / ٦ .
٧٠ - رسالة بولس إلى أهالي رومية : ٨ / ٩ .
٧١ - رسالة بولس إلى أهالي رومية : ٨ / ١٧ .
٧٢ - التثنية : ١١ / ٢٤ .
٧٣ - لاشك أن هذه الحادثة من ابداع خيال صاحب اليوميات ، وهي ذات اهداف دعائية
٧٤ - سفر الخروج : ٢٠ / ١١ .
٧٥ - الثالث لوصوله إلى أنطاكية أي حزيران ١٠٩٨ م .
٧٦ - مزامير : ٧٤ / ٤ .
٧٧ - شهر بكثرة رؤاه حتى قيل بأن عددها بلغ خمسا كان أولها في ٣٠ كانون اول ١٠٩٧ ،
وثانيها يوم ١٠ شباط ١٠٩٨ ، والثالثة يوم ٢٠ آذار ، والرابعة أثناء نهائه إلى قبرص ،
والخامسة يوم ١٠ حزيران ١٠٩٨ .
٧٨ - أثناء اشتداد حصار كربوقا لأنطاكية يوم ١٠ حزيران .
٧٩ - تبعا لصاحب المذكرات قتل غودفري هذا في معركة دوريليوم وهذا يعني أنه لم يكن في المدينة .
٨٠ - يرى البعض أن كاتب هذه اليوميات كان بالأصل كاتباً له ، وقد كانت المودة بين هذا الكونت
والامبراطور البيزنطي قوية ، فقد لاحظ الامبراطور حب الكونت للظهور فاهتم بهذه الناحية
وأحسن استغلالها .
٨١ - دعت بعض المصادر اللاتينية هذا الجبل باسم الجبل الاحمر ، وأنه هو الذي يشرف على
سهل أنطاكية الشمالي .
٨٢ - كان هذا كله قبل سقوط أنطاكية للصليبيين ، ولعل فراره في طريق العودة باتجاه

- ٢٩٤٩ -

- القسطنطينية كان يوم ٢ - حزيران .
- ٨٣ - اسمها الآن آق شهر ، ويستدل من رواية لنا كوميثا أن الامبراطور البيزنطي قدم إلى هذه المدينة وهو في طريقه إلى أنطاكية لنجدة الفرنجة .
- ٨٤ - غوي بن روبرت جيسكارد النور مندي ، كان أخا ليوهمند من أم ثانية ، اشترك مع أبيه سنة ١٠٨٤ في حملته على بيزنطة ثم هجراياه والتحق بالامبراطور البيزنطي وبخل في خدمته ، هذا وقد تعرضت لنا كوميثا لمسألة عودة الامبراطور وعدم متابعة زحفه نحو أنطاكية .
- ٨٥ - تتباين الروايات حول هذه المسألة ، فمن متحدث عن مسمار إلى حربه أو غير ذلك ، وإن القضية برمتها خداع واختراع ، وقد يكون هذا ، وهو يدل على براعة متناهية ، ذلك أن العلاج أفاد وقاد إلى رفع معذوبات الفرنجة مما أعانهم على هزيمة كربوقا ومتابعة الزحف حتى القدس ، وحدث العثور على الحرية يوم ١٤ حزيران .
- ٨٦ - يتعارض هذا مع ما أورثته لنا كوميثا وسواها .
- ٨٧ - أورد ابن الأثير في الكامل : ٨ / ١٨٦ - ١٨٧ . رواية تتوافق مع هذه الرواية حيث تحدث أولا عن مسألة الحرية والعثور عليها وما أعقب ذلك من صيام واحتفالات ثم قال : فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين بين خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا : ينبغي أن نذهب على الباب فنقتل كل من يخرج ، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال : لاتفعلوا أهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معاجلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجيين ، فجاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ضربوا مصافا عظيما ، فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة بهم والأعراض عنهم ، وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم .
- ٨٨ - كذا ولعله اخترع لفايات دعائية.
- ٨٩ - توجه كل منهم إلى منطقة اختص بها قبل معركة أنطاكية ، فعاد بوهوموند إلى اسية الصغرى ، ونهب غودفري إلى الرها - أورفا - حيث كان أخوه بلدوين .
- ٩٠ - أي تل مذس .
- ٩١ - يوم ١١ - أيلول .
- ٩٢ - كان اسم الرجل الذي جرى اختياره « بطرس الناربوني » ، وهو أسقف لاتيني جرت سيامته في بلاد الشام .
- ٩٣ - ٢٨ - تشرين ثاني ١٠٩٨ م .
- ٩٤ - من الملاحظ أن الفرنجة تفوقوا أيام الحروب الصليبية بتقنية بناء الأبراج الخشبية الضخمة العالية التي كانوا يحصلون على الخشب اللازم لصنعها من السفن الإيطالية وسواها ، وغالبا ما كان ارتفاع البرج أعلى من الأسوار للبلدة المهاجمة ، وزود كل برج متحرك بوسائل الهجوم وكباش ذلك الأسوار وغيرها من الآلات ، وغطي بالصفائح المعدنية وجلل باللدب المبللة بالخل للحيلولة دون احتراقه ، وطور المسلمون في هذه الفترة تراكيب فعالة من النيران الحارقة ووسائل أخرى للحيلولة بين الأبراج المتحركة وبين الوصول إلى الأسوار .
- ٩٥ - طلب تأخير موعد استئناف الزحف نحو القدس .
- ٩٦ - أي قصر يفي سغان وبقاع أخرى ، وكان بوهوموند يرغب بالانفراد في تملك أنطاكية .
- ٩٧ - من ١٧ إلى ٢٢ كانون الثاني ١٠٩٩ م .
- ٩٨ - من ٢٩ كانون ثاني حتى ١٤ شباط ١٠٩٩ م .
- ٩٩ - يريد بها قلعة حصن الأكراد .
- ١٠٠ - جناح الدولة حسين ، انظر ترجمته .
- ١٠١ - فخر الملك ابن عمار .
- ١٠٢ - أي عرقة .

- ٢٩٥٠ -

- ١٠٣ - في العاشر منه .
١٠٤ - في تاريخ وليم الصوري اسمه روبرت وكان قسيسا نور منديا من اسقفية روان .
١٠٥ - ١٢ حزيران ١٠٩٩ م .
١٠٦ - الاول من آب ١٠٩٩ م .
١٠٧ - ٩ - آب ١٠٩٩ م .
١٠٨ - لاشك ان هذا من ابداع خيال الكاتب ، ومع هذا يروي العليمسي في الأندلس الجليل :
١ . ٣٠٨ خبر هزيمة الأفضل ويقول : « وكان عند الفرنج شاعر منتجع إليهم ، فقال مخاطب ملك
الفرنح وأسمه صنجلي .
نصرت بسيفك بين المسيح
فأله درك من صنجلي
وما سمع الناس فيما روي
بأقبح من كسرة الأفضل
فتوصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر » .
١٠٩ - الثاني عشر من شهر آب ١٠٩٩ م .

أنا كومينا

- ١ - يرى ستيفن رزسمان أن معنى هذه العبارة « بطرس الصغير » ، وقد يكون هذا ، إنما قد شتهر الرجل عن طريق المصادر الأخرى باسم « بطرس الناسك » .
- ٢ - كذا ، ولا شك أن مثل هذه الأفكار لا تستحق الرد ، والمثير للانتباه هنا صدورها عن الأميرة أنا كومينا ، وليدة الغرفة الأرجوانية في القصر الإمبراطوري في القسطنطينية ، وصاحبة الثقافة العالية والمكانة الرفيعة ، ولا شك أنها شهادة تدل على مدى تعصب بيزنطة والعالم المسيحي ضد الإسلام آنذاك ، أنها بحق وثيقة معبرة عن المشاعر الصليبية المتعصبة بشكل أعمى .
- ٣ - منطقة في الشمال الغربي من بلاد الأغريرق ، بين بلاد بندوس وبحر أيونيان ، ومعنى اسم هذه المنطقة « البلاد المتوسطة » وهي بلاد جبلية ، قليلة الخصب ، مشهورة بكثرة قطعان الخيول فيها .
- ٤ - غودفري دي بولليون ، ودوق مناطق اللورين السفلى .
- ٥ - وصل الصليبيون إلى العاصمة البيزنطية في الأول من شهر آب ١٠٩٦ ، وعبروا مضيق البوسفور في اليوم السادس منه ، وحدث هجومهم على نيقية - إزنيق حاليا في تركيا - التي كانت مقر السلطان قلع أرسلان ، في شهر أيلول .
- ٦ - هيوغ أمير فيرما ندوس الابن الأصغر لهنري الأول ملك فرنسا ، وإن أميرة كييف ، وعلى الرغم من إدعائه ودعواه العريضة غير العانية فإن أثره في السياسة الفرنسية يكاد أن يكون غير ملحوظا .
- ٧ - هو وليم أمير ميلون ، لقب بالنجار كما يبدو لقوته .
- ٨ - قدمت من البابا إلى الجنود الذين توجهوا للقتال ضد المسلمين .
- ٩ - يقع هذا المكان قرب بوسا ، فكاباليون وبوسا هما اسمان لمبنتين في تلك المنطقة ، وإنني لأمل أن يتوجه إلي واحد من الناس بالنقد لاستخدامي هذه الأسماء البربرية ، مشوهة نص تاريخي ، إنما حتى هو مر نفسه لم يرفض الأسماء البوتونية ، وفي سبيل الدقة أتى على ذكر عدد من البربر . أنا كومينا .
- ١٠ - هناك بعض الشكوك حول هذا الرجل الذي تدعوه أنا أيضا باسم بنتازاس ، ويذهب بعض الباحثين إلى أنه هو ريموند بروفانس ، حيث أن عبارة بنتازاس تقابل عبارة بروفانس ، وتستخدم أنا أحيانا عبارة « صنجيل » مع شيء من التشويه ، فريموند عرف باسم « سانت جايل » وكتب العرب اسمه « صنجيل » وسرد ذكره كثيرا ، خاصة فيما يتعلق بمدينة طرابلس .
- ١١ - من العبارة اللاتينية Excussatan وهو عبارة عن قارب حفظ كما يبدو من قبل القائد في المرتبة الثانية .
- ١٢ - ٦ - كانون أول ١٠٩٦ م .
- ١٣ - إن القوس العفار هو سلاح خاص بالبرابرة ، ويكاد يكون غير معسوف بالسابقة للأغريرق ، وحتى يشد هذا القوس ، لا يقوم الإنسان بشد الوتر بيده اليمنى بينما يدفع بالسهم بعينه عن القوس بيده اليسرى ، فهنا السلاح الذي يرمي السهم إلى مسافة بعيدة جدا ، يحتاج الإنسان في شدة إلى أن يستلقي إلى الأرض على ظهره ، ويقوم كل قدم من قدميه بالضغط بشدة على نصف القوس ، بينما تقوم اليدين بالشد بكل قوتها باتجاه الجسم ، ويوجد في منتصف الوتر فتحة تشبه الاسطوانة مقطوعة إلى نصفين ، ومرتبعة من أجل الوتر نفسه ، ويؤتى بهذا هذا يسهم مناسب ، طوله يساوي المسافة ما بين الوتر ومنتصفه الوتر . ويرمى من هذه الفتحة بجميع أنواع الرمايات ، صحيح أنها أسهم قصيرة ، لكنها مثقلة برؤوسها الكبيرة ، ويعطى الوتر أثناء الرماية قوة هائلة إلى حد أن الرمية يمكن أن تفرق الترسة والدروع الحديدية الثقيلة ، وتستمر منطلقة لمسافة بعيدة ، لذا لا يمكن مقاومة هذه الرمايات ، ومن المعروف أن سهمًا من هذا النوع يمكن أن

يخرق جسم تمثال من البرونز ، وعندما تتم الرماية ضد سور بلدة كبيرة ، فإما أن يظهر طرف السهم من الجانب الآخر للجدار ، أو يدفن داخل السور ، ويختفي كلياً ، إن هذا هو القوس العفار ، فهو كما رأينا آلة رهيبة ، والتعس هو من يرمى بها ، ذلك أنه يموت دون أن يشعر بالرمية ، ودون دراية بقوة الضغط الدافع لها . أنا كومينا .

١٤ - تختلف عادات اللاتين فيما يتعلق بالرهبان عن عاداتنا ، فنحن ملتزمون بأحكام القاذون ، وبتعاليم الانجيل التي تقول : « لاتلمس ، لاتزجر ، لاتحارب ، لانك معمد ، لكن البرابرة اللاتين ، ترى أحدهم يحمل قطعة من الآثار المقدسة ويشد ترسا الى يساره ، ويمسك رمحا بيمنه ويتقرب الى جسد الالهة المقدسة ، ويحدق بالدم ويسفكه حتى يصبح هو نفسه ، رجلاً دمويًا ، كما يقول داوود في المزامير ، وعلى هذا فان هذا الجنس تراه متدينًا بقدر اهتمامه بالحرب ، وعلى هذا فاللاتيني هو رجل عمل أكثر منه رجل رهبنة ، ويرتدي ثوب الكهوت ، ويحمل الجناز ، جاهزًا للملاحاة أو للحرب في البر والبحر سواء ، إن أحكامنا كما سلف بي القول صادرة عن هارون وموسى ورهباننا الكبار - أنا كومينا .

يلاحظ أن أنا كومينا نقلت نص الانجيل بتصريف حيث النص « لاتمس ولا تذق ولا تجس » رسالة بولس إلى أهل كورنثوس : ٢ / ٢١ .

١٥ - موقع تعذر تحديده .

١٦ - قصر بلا شيرين .

١٧ - بني منذ زمن بعيد من قبل أحد الأباطرة - أنا كومينا .

١٨ - إشارة إلى ثورة آل كومنين .

١٩ - الثاني من نيسان ١٠٩٧ كان يوم خميس أيضا .

٢٠ - الاليانة (ترجمة انكليزية) : ٤ / ١٢٣ .

٢١ - المقصود بالشاعر هنا هو هومر ، لكن يلاحظ أن أنا كومينا تنقل عنه بتصريف .

٢٢ - ما من شيء يقيني معروف حول رأؤل هذا .

٢٣ - كرس للقديس ميخائيل ، راعي النير الذي عرف باسم القديس أغناطيوس ببطريك القسطنطينية وقد دفن هناك .

٢٤ - الاليانة : ٢ / ٤٦٨ - الأوبيسا . ٩ / ٥١ .

٢٥ - وربما كان هذا المعبد في سواسون .

٢٦ - هو ريموند كونت تولوز ومركيز بروفانس ، كان يأمل بقيادة الفرنجة جميعا في معاركهم ، وبذلك كان منافسا لبوهوند ، وهذا ما نراه واضحا في كتاب أعمال الفرنجة ، التالي لهذا الكتاب .

٢٧ - في نيسان ١٠٩٧ م .

٢٨ - في أيار ١٠٩٧ م .

٢٩ - هي الآن قرية متواضعة في تركيا على مقربة من استانبول اسمها « إزنيق » وكانت أثناء الحملة الأولى للصليبيين حاضرة دولة سلاجقة الروم

٣٠ - كان السلطان قلع أرسلان بعيدا آنذاك في الشرق يحارب ضد الدانشمند صاحب ملاطية ، وربما أساء تقدير حجم الخطر الفرنجي ، وأعطى القصص حول الخلافات بين الفرنجة والامبراطور الكسيريوس حجما أكبر مما تستحق ، وكان في داخل نيقية في ذلك الوقت زوجته وأولاده ونخائره ، مما يؤكد ثقة السلطان وبقائه أن المدينة لا يمكن قهرها .

٣١ - أخذ هذا البناء اسمه منذ زمن مضى ، عندما جرت ترقية مازويل المشهور ، والد الامبراطور السابق اسحق كومنين مع أخيه جون (وهو جدي من جهة أبي) ، إلى مرتبة إمرة الشرق كله ، وذلك من قبل الامبراطور باسيل ، وكان قصده وضع حد للحرب مع سكليروس إما عن طريق القوة ، أو باجباره على طلب المصالحة من خلال العمل الدبلوماسي ، وحيث أن سكليروس كان رجل حرب ، يحب سدة الدماء ، فإنه رحب بالحرب أكثر من السلم ، ولهذا كان هناك كل يوم اشتباك عنيف ، ولم يكف سكليروس برفض المهانة بل قاتل بقسوة أشد وشجاعة أعظم

- ٢٩٥٣ -

للاستيلاء على نيقية ، و تمكن بواسطة المجانيق من تحطيم شرفات السور وهدم الجزء الأكبر من هذا البر ، مما سبب ميلان بقية أجزائه ، حتى بدا وكأنه راكع على ركبتيه ولهذا عرف منذ ذلك الوقت باسم غونقار - أنا كومينا - .

لقد تحدث المؤرخ البيزنطي ميخائيل بزللوس في الجزء الأول من تاريخه عن حملة باسيل ضد سكليرس . انظر ص : ٣٠ - ٣٢ من الترجمة الانكليزية ط . لندن ١٩٦٦ .

٣٢ - القتال الضيق بين جزيرة يوريبيا والبر الاغريقي ، مشهورة بقياراتها .

٣٣ - بحيرة أسكانيا إلى الغرب من المدينة .

٣٤ - يبدو أن زاخاس هذا كان من المرتزقة التركمان العاملين لدى الامبراطور وسيرد اسمه بعد قليل ص ١٥٧ ، وقد أخذ يعمل لحسابه الخاص ضد الامبراطور .

٣٥ - قيل بأنها كانت ابنة زاخاس ، انظر ص ١٥٨ المقبلة .

٣٦ - فراغ بالأصل .

٣٧ - في منطقة أسكي شهر الحالية في تركيا . ووقعت المعركة يوم الأول من تموز سنة ١٠٩٧ م ، فقد بدأ بوهموندر زحفه يوم ٢٦ حزيران ، وتبعه البقية يوم ٢٨ ثم ٢٩ وهكذا .

٣٨ - وربما المقصود هنا ملك غازي كمشكين بن الملك داذشمند الذي توفي سنة ١١٨٤

٣٩ - الأليانة : ٥ / ٢٩٩ .

٤٠ - وصل الفرنجة إلى أنطاكية يوم ٢١ تشرين أول ١٠٩٧ م ، وسقطت المدينة لهم في الثالث من حزيران سنة ١٠٩٨ م .

٤١ - قيل اسمه فيروز - أونيروز ، أرمني الأصل ، تظاهر بالدخول في الاسلام وبالطاعة والاخلاص ليغني سغان والي أنطاكية ، وأخضر له العداوة والحدق .

٤٢ - برج الاختين ، وقد درس رنسمان بشكل واف أخبار سقوطه معتقدا على مختلف الروايات ، وذلك في المجلة الأولى من كتابه تاريخ الحروب الصليبية ، والكتاب مترجم من الانكليزية إلى العربية .

٤٣ - هي مدينة أزمير الحالية بتركيا .

٤٤ - لم استطع ضبط الصيغة التركمانية الصحيحة لهذين الاسمين ، فالاسم الثاني اسم مركب من عبارتين هما : تنجري ، وبيرمس ، وأعرف أن تنجري كلمة تركية مفدولية تعني رب السماء ، لكنني غير متأكد من الشطر الثاني « بيرم » ؟

٤٥ - تدعى أحيانا باسم عرب سوس ، ولها ذكر في المصادر المبكرة التي تتحدث عن أخبار الفتوحات الاسلامية ، وهي مدينة أهل الكهف في بعض المصادر الجغرافية العربية .

٤٦ - اسمها الآن بولفاين في تركيا .

٤٧ - اسمها الآن علي شهر في تركيا .

٤٨ - اسمها الآن أق شهر .

٤٩ - التحق كل من وليم أوف غرانتمستيل مع ستيفن أوف بليوس وبيتر أليفاش بالامبراطور في حوالي منتصف حزيران ١٠٩٨ م .

٥٠ - سقط بالأصل ، والجدير بالذكر هنا أنه يحول بيننا وبين معرفة مصير الاسرى ، وما فعله الامبراطور بهم .

٥١ - في كنيسة القديس - القسيان - بطرس في أنطاكية .

٥٢ - تتحدث أنا هنا عن مسامير ، لكن اللاتين يتحدثون عن حربة أو رمح مقدس .

٥٣ - من الملاحظ أن أنا تمزح هنا بين بطرس الناسك ، وبيطرس بارثلميو ، وأدهمراستقف بوي ، وتحسن العودة إلى رواية صاحب يوميات أعمال الفرنجة .

٥٤ - روبرت كونت فلاندر .

٥٥ - سقطت في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ م .

٥٦ - سبق لنا أن أشارت في الفصل السابق - الكتاب العاشر - إلى أن عدد الكونتسات الذين

- ٢٩٥٤ -

- ولموا في الأسر وحملوا إلى مصر هو / ٣٠٠ .
- ٥٧ - بني الحصن على تلة الحجاج خارج طرابلس ، ودعا العرب بإسم حصن - أو قلعة - صنجيل .
- ٥٨ - مات في ١٨ تموز لسنة ١١٠٠ ، ربما بسبب إصابته بسهم ، أو إصابته بالتيفوئيد ، وقد دفن في كنيسة القيامة .
- ٥٩ - الذي كان آنذاك في منطقة الرها - لنا كومينا .
- ٦٠ - يوم ٢٥ كانون أول لسنة ١١٠٠ م .
- ٦١ - يبدو أن معظمه كان من اللومباريين .
- ٦٢ - كان هدفهم انقاذ بوهموند الذي وقع في الأسر لدى التركمان في شهر آب .
- ٦٣ - يوم ٢٣ حزيران سنة ١١٠١ م .
- ٦٤ - تعرف هذه المعركة باسم معركة المرزبان ، وقد وقعت في خريف سنة ١١٠١ ، وفيها قتل حوالي أربعة أضعاف الجيش الصليبي .
- ٦٥ - هي باغرا الآن على قم نهر هاليس .
- ٦٦ - ولیم جوربان كونت سربينية .
- ٦٧ - كان قسطنطين حاكم قبرص آنذاك - لنا كومينا .
- ٦٨ - تتابع أنا فيما يلي سرد أخبار حوادث وقعت في ١٠٩٨ - ١٠٩٩ ، وهي لسوء الحظ عامة سيئة من عاداتها .
- ٦٩ - هو ييمبرت رئيس أساقفة بيزا ، جرى تعيينه بطريركا على القدس من قبل البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٨ م ، إثر موت ادمبرافلى بوي ، وجعلت أنا التي كانت تذكره رجال الدين اللاتين ييمبرت يبدو وكأنه المسؤول عن تنظيم الاسطول البيزي .
- ٧٠ - ولد لاندولف في ايطاليا ، ولاشك أنه كان يفهم طرائق عمليات البحرية اللاتينية .
- ٧١ - تستعير أنا أوصافها من هومر .
- ٧٢ - هوميروس - الاوديسا : ٣ / ١٧١ .
- ٧٣ - إلى الغرب من مدقلية .
- ٧٤ - اسمها الحالي كورغوس .
- ٧٥ - تعالج الاميرة أنا الآن حوادث سنة ١١٠٤ ، علما بأن السفن الجنوبية كانت تجوب بحار المنطقة منذ سنة ١٠٩٧ م .
- ٧٦ - لاسية الصغرى .
- ٧٧ - ميناء من موانئ العصور الوسطى كان يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة طرسوس ويبعد عنها مسافة / ١٥ ميلا ، وقد حل محله ميناء مرسين الحالي في تركيا .
- ٧٨ - لم تأت المصادر اللاتينية على رواية هذه القصة ، ولهذا يرى البعض أنها محض اختراع ، ولربما كانت من ابداع خيال لنا كومينا ، علما بأن بوهموند كان قادرا على مثل هذه الاعمال .

المحتوى

- ٣ - توطئة
٩ - من كتاب الالكسياد
١٠ - الحملة الصليبية الاولى
☆ ☆ ☆
٧٧ - يوميات صاحب اعمال الفرنجة
٧٨ - التبشير بالحملة الصليبية الاولى
٨٦ - الكتاب الثاني من واقعة نهر الورد الى الاستيلاء على نيقية
٩٥ - زحف الصليبيين نحو اسية الصغرى
٩٦ - معركة دوريليوم
١٠٠ - الكتاب الرابع - الزحف نحو انطاكية
١٠١ - عبور الصليبيين اسية الصغرى
١٠٧ - الكتاب الخامس - الشروع بحصار انطاكية
١١٢ - الكتاب السادس - حصار انطاكية
١١٩ - الكتاب السابع - حصار انطاكية
١٢٠ - الحملة على السويدية
١٢٤ - نهاية حصار انطاكية
١٣١ - الكتاب التاسع - حصار التركمان انطاكية
١٥٢ - الكتاب العاشر - من انقاذ انطاكية الى معركة عسقلان
☆ ☆ ☆
١٧٦ - تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس
١٧٧ - خطبة الكتاب
١٧٨ - الفصل الاول - السفر خلال لماشيا
١٨١ - الفصل الثاني - الرحلة عبر الاراضي الاغريقية
١٨٥ - الفصل الثالث - حصار نيقية وعبور الاناضول
١٨٩ - الفصل الرابع - سد المنافذ والطرق ، وبداية حصار انطاكية
١٩٨ - الفصل الخامس - المرحلة التالية من حصار انطاكية
٢٠٧ - الفصل السادس - الاستيلاء على انطاكية
٢١٢ - الفصل السابع - حصار كربوفا لانطاكية
٢٢١ - الفصل الثامن - هزيمة كربوفا
٢٢١ - الفصل التاسع - وفاة انهمر والابلاغ عن رؤى
٢٣٦ - الفصل العاشر - الاستيلاء على البارة ومعرة النعمان
٢٤٨ - الفصل الحادي عشر - استئناف الرحلة والشروع بحصار عرقة
٢٥٩ - الفصل الثاني عشر - رؤى ومحنة الحرب المقدسة
٢٧٠ - الفصل الثالث عشر - رفع الحصار عن عرقة واستئناف الرحلة الى القدس
٢٨٠ - قصة الطائر الذي حمل رسائل بقتل حملة الصليب
٢٨٢ - الفصل الرابع عشر - حصار مدينة القدس والاستيلاء عليها

- ٢٩٥٦ -

٢٩٧ - الفصل الخامس عشر - الوقائع التي اعقبت سقوط القدس ومعركة عسقلان

☆ ☆ ☆

٣٠٥ - تاريخ الحملة الى القدس - تاليف فولتشر اوف تشارترز

٣٠٦ - مقدمة فولتشر

٣٠٨ - الكتاب الاول

٣٠٩ - المجمع الذي عقد في كلير مونت

٣١٣ - ما مر به البابا بشأن الحج الى القدس

٣١٥ - اسقف لى بوي والوقائع التي تلت

٣١٧ - النزاع بين الباب اوربان وجيلبرت

٣١٩ - اوقات انطلاق المسيحيين واسماء قادة الحجاج

٣٢٦ - من القسطنطينية الى نيقية

٣٢٧ - حصار نيقية وسقوطها

٣٢٩ - المعركة المدمرة بين المسيحيين والأتراك

٣٣٢ - هرب الأتراك وانتصار المسيحيين

٣٣٣ - ضيق حال المسيحيين

٣٣٤ - اعمال الكونت بلدوين

٣٣٧ - وصول الفرنجة الى انطاكية

٣٤٠ - فاقة المسيحيين

٣٤٢ - سقوط مدينة انطاكية

٣٤٤ - العثور على الحربة المقدسة

٣٤٥ - محاصرة الأتراك للمسيحيين داخل انطاكية

٣٤٦ - الرؤى التي ظهرت داخل المدينة

٣٤٧ - الفرنجة يقومون بالهجوم على الأتراك

٣٤٨ - الاعداد للمعركة

٣٥٠ - المعركة - انتصار المسيحيين وفرار الأتراك

٣٦٠ - موقع القدس

٣٦٢ - حصار مدينة القدس

٣٦٥ - الاسلاب التي حصل عليها النصارى

٣٦٦ - مكوث النصارى في القدس

٣٦٧ - تنصيب ملك في المدينة واختيار بطريرك واكتشاف صليب الصلبوت

٣٦٧ - وصول الكفار وفرارهم

٣٧١ - عودة بعض الامراء الى ديارهم

٣٧١ - حج بوهيموند وبلدوين

٣٧٥ - عودة كل من بوهيموند وبلدوين الى بلديهما

٣٧٧ - اسر الامير بوهيموند

٣٧٨ - موت الملك غودفري

٣٨٠ - الكتاب الثاني

٣٨١ - اعمال بلدوين الاول

٣٨٨ - البحر الميت

٣٩١ - تتويج الملك بلدوين

٣٩٤ - استدعاء تانكرد الى انطاكية

٣٩٤ - حصار قلعة ارسوف

- ٢٩٥٧ -

- ٣٩٥ - الاستيلاء على قيسارية
- ٣٩٨ - انتخاب اسقف قيسارية
- ٤٠٤ - رسالة اهل يافا الى تانكرد امير انطاكية
- ٤٠٥ - حشد جيش مصر ضد الفرنجة
- ٤٠٦ - وفاة هيج العظيم
- ٤٠٨ - الاستيلاء على طرطوس
- ٤١٠ - فرار الملك بلدوين
- ٤١٦ - الملك يحاصر منبنة عكا
- ٤١٦ - اطلاق سراح بوهيموند
- ٤١٧ - الاستيلاء على عكا
- ٤١٨ - بوهيموند يعبر البحر
- ٤١٨ - اسر رجال انطاكية
- ٤٢١ - اطلاق سراح بلدوين والقتال بينه وبين تانكرد
- ٤٢٢ - بوهيموند يذهب الى غاليا
- ٤٢٢ - انتصار تانكرد على الاتراك
- ٤٢٣ - ملك مصر يبعث بجيوشه ضد الملك بلدوين
- ٤٢٥ - القتال بين الاتراك واهل القدس
- ٤٢٨ - اسطول اهل مصر
- ٤٢٩ - الزلزال
- ٤٢٩ - العلامات التي ظهرت في السماء
- ٤٣١ - هجوم المسيحيين على اهل دمشق
- ٤٣١ - عيود البطريرك الى روما
- ٤٣٢ - بوهيموند يجمع جيشا ويعيث في اراضي الامبراطور
- ٤٣٣ - معاهدة سلام بين الامبراطور وبوهيموند
- ٤٣٤ - حصار طرابلس
- ٤٣٥ - احتلال طرابلس
- ٤٣٦ - الاستيلاء على بيروت
- ٤٤٠ - الاتراك يثيرون المتاعب
- ٤٤٢ - الملك يحاصر صور
- ٤٤٣ - موت تانكرد
- ٤٤٧ - الزلزال وزواج الملك من كونتيسة صقلية
- ٤٤٨ - الزلزلة التي شعر بها في كل مكان
- ٤٤٩ - حصار يافا
- ٤٥١ - معركة بين الاتراك ورجال انطاكية
- ٤٥٣ - القلعة التي جرى تشييدها في وادي عربية
- ٤٥٣ - حملة الملك الى وادي عربية
- ٤٥٤ - البحر الاحمر
- ٤٥٥ - نهر جيحون
- ٤٥٥ - الفرات
- ٤٥٦ - جائحة جراد
- ٤٥٧ - شارات القمر
- ٤٥٨ - القلعة التي بنيت قرب صور

- ٤٥٩ - موت الملك بلدوين
- ٤٦١ - الكتاب الثالث
- ٤٦٢ - اعمال بلدوين الثاني
- ٤٦٣ - الاتراك يحاربون انطاكية
- ٤٦٤ - بلدوين ينجد انطاكية
- ٤٦٧ - استقبال صليب الصليبوت في القدس
- ٤٦٧ - الملك يحصل على انطاكية
- ٤٧٠ - الملك يحمل على اهل دمشق
- ٤٧١ - حملة الملك على كونت طرابلس
- ٤٧٣ - اسر كونت الرها
- ٤٧٣ - توطيد السلام بين البابا والامبراطور
- ٤٧٤ - اهل البندقية يقدمون الى القدس
- ٤٧٥ - بلدوين يقع بالاسر
- ٤٧٦ - حصار يافا ثانية
- ٤٧٧ - معركة ضد الاتراك
- ٤٧٩ - وصول البنادقة
- ٤٧٢ - وفاة بوستاس
- ٤٨٣ - اطلاق سراح الملك بلدوين
- ٤٨٤ - كونت الرها ينجو من الاسر
- ٤٨٩ - اعتقال بلدوين ثانية
- ٤٩١ - التحضير لحصار صور
- ٤٩٢ - حصار صور
- ٤٩٣ - صور وشهرتها
- ٤٩٥ - من تاريخ صور
- ٤٩٨ - مقتل بلك
- ٥٠٠ - حصار صور
- ٥٠١ - اغارة اهالي عسقلان
- ٥٠٣ - استسلام صور
- ٥٠٥ - امتيازات البابا باسكال
- ٥٠٦ - توزيع الاراضي حول صور
- ٥٠٨ - اطلاق سراح الملك وحصار حلب
- ٥١١ - البنادقة يدمرون جزر الامبراطور
- ٥١٣ - حروب البرسقي
- ٥١٨ - فدية ابنة الملك
- ٥١٨ - قلعة شبيها الملك
- ٥١٩ - المسلمون يبعثون الرسائل بوساطة الحمام
- ٥٢٠ - انواع الافاعي والبهائم في بلاد المسلمين
- ٥٢٤ - حملة ملك القدس على دمشق
- ٥٢٨ - حصار رمنية
- ٥٢٩ - الاستيلاء على رمنية
- ٥٣٠ - وفاة الامبراطور الروماني
- ٥٣٠ - حملة الملك على المصريين

- ٢٩٥٩ -

- ٥٢١ - الاسطول المصري
- ٥٢٢ - رحلة بوهيموند الاصغر
- ٥٢٤ - مخاطر البحر
- ٥٢٥ - البحر العظيم
- ٥٢٦ - اصناف الثعابين
- ٥٢٨ - وصول بوهيموند الاصغر
- ٥٢٩ - وباء الجرذان
- ٥٤١ - الحواشي والهوامش